قصص الرحمن

في

ظلال القرآن

أحمد فائز الحمصي

مؤسسة الرسالة

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصص الرحمن

في

ظلال القرآن

http://al-maktabeh.com

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع
مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

http://al-maktabeh.com

قصص الرحمن

في

ظلال القرآن

أحمد فائز الحمصي

الجزء الرابع

al-maktabeh
www. .com
مكتبة المهتدين
http://al-maktabeh.com

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

http://al-maktabeh.com

قصة بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام

- القسم الأول: سُنّة الله والتمكين لبني إسرائيل في الأرض
- القسم الثاني: قَصَص الإيمان واليقين، والصبر الجميل
- القسم الثالث: القصة الواضحة في المسيحية الناصعة
- القسم الرابع: صفحات من السجل الأسود لبني إسرائيل
- القسم الخامس: من قَصَص الرحمان

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

القسم الأول

سنة الله والتمكين لبني إسرائيل في الأرض

﴿وجعلنا منهم أئمّة يهدون بأمْرِنا لما صَبَروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾.
[السجدة: ٢٤].

المحتوى ص

قصة طالوت وجالوت

- تجربة في حياة بني إسرائيل ١١
- الإرادة المُستَعْلِية ١٧

قصة داود - عليه السلام

- الملك الطائع العابد ٢٨
- الفتنة والابتلاء ٣٤
- فتح من الله وإلهام ٣٩

قصة سليمان - عليه السلام

- ابتلاء وفتنة ٤٥
- عِلم وتمكين وإفضال ٤٩
- سلميان وملكة سبأ ٥٦
- من فضل الله ونعمته ٦٧
- فِطنة وحكمة ٧٩

قصة سبأ

- الإعراض والكفر بالنعمة ٨٥

http://al-maktabeh.com

al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين
http://al-maktabeh.com

قصة طالوت وجالوت

المحتوى ص

- تجربة في حياة بني إسرائيل ١١
- الإرادة المُستَغْلِية ١٧

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة طالوت وجالوت

تجربة في حياة بني إسرائيل:

إن هذا القرآن ينبغي أن يُقرأ وأن يُتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي. وينبغي أن يتدبر على أنه توجيهات حَيّة، تتنزل اليوم، لتعالج مسائل اليوم، ولتنير الطريق إلى المستقبل. لا على أنه مجرد كلام جميل يرتل؛ أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود!

ويتحدث القرآن عن تجربة في حياة بني إسرائيل من بعد موسى.. بعدما ضاع مُلكهم، ونُهبت مقدساتهم، وذلّوا لأعدائهم، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدْي ربهم، وتعاليم نبيهم.. ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة؛ واستيقظت في قلوبهم العقيدة؛ واشتاقوا القتال في سبيل الله:

﴿ألم ترَ إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ [البقرة: ٢٤٦]..

ألم ترَ؟ كأنها حادث واقع ومشهد منظور.. لقد اجتمع الملأ من بني إسرائيل، من كبرائهم وأهل الرأي فيهم - إلى نبي لهم. ولم يرد في السياق ذكر اسمه، لأنه ليس المقصود بالقصة، وذِكْره هنا لا يزيد شيئاً في إيحاء القصة، وقد كان لبني إسرائيل كثرة من الأنبياء يتتابعون في تاريخهم الطويل..

لقد اجتمعوا إلى نبي لهم، وطلبوا إليه أن يُعين لهم ملكاً يقاتلون تحت

http://al-maktabeh.com

إمرته «في سبيل الله» . . وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال، وأنه «في سبيل الله» يشي بانتفاضة العقيدة في قلوبهم، ويقظة الإيمان في نفوسهم، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل؛ ووضوح الطريق أمامهم للجهاد في سبيل الله.

وهذا الوضوح وهذا الحسم هو نصف الطريق إلى النصر. فلا بد للمؤمن أن يتضح في حِسّه أنه على الحق، وأن عدوه على الباطل؛ ولا بد أن يتجرد في حِسّه الهدف . . في سبيل الله . . فلا يُغَشّيه الغَبَش الذي لا يدري معه إلى أين يسير.

وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم، وثبات نيتهم، وتصميمهم على النهوض بالتبعة الثقيلة، وجدّهم فيما يعرضون عليه من الأمر: **﴿قال: هل عسيتم إن كُتب عليكم الكتاب ألا تقاتلوا!﴾** [البقرة: ٢٤٦] . .

ألا يُنْتَظَر أن تَنكلوا عن القتال إن فُرِضَ عليكم؟ فأنتم الآن في سَعة من الأمر. فأما إذا استجبت لكم، فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة، ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها . .

إنها الكلمة اللائقة بنبي، والتأكد اللائق بنبي. فما يجوز أن تكون كلمات الأنبياء وأوامرهم موضع تردد أو عَبَث أو تراخ.

وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة؛ وذكر الملأ أن هناك من الأسباب الحافزة للقتال في سبيل الله ما يجعل القتال هو الأمر المتعين الذي لا تردّد فيه: **﴿قالوا: وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا؟﴾** [البقرة: ٢٤٦] . .

ونجد أن الأمر واضح في حِسّهم، مقرر في نفوسهم . . إن أعداءهم أعداء الله ولدين الله. وقد أخرجوهم من ديارهم وسبوا أبناءهم. فَقِتالهم واجب؛ والطريق الواحدة التي أمامهم هي القتال؛ ولا ضرورة إلى المراجعة في هذه العزيمة أو الجدال.

ولكن هذه الحماسة الفائرة في ساعة الرخاء لم تدم. ويُعجِّل السياق بكشف الصفحة التالية:

﴿فلما كُتب عليهم القتال تَولّوا إلا قليلاً منهم﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وهنا نطلع على سمة خاصة من سمات إسرائيل في نقض العهد، والنكث بالوعد، والتفلت من الطاعة، والنكوص عن التكليف، وتفرق الكلمة، والتولي عن الحق البين.. ولكن هذه كذلك سمة كل جماعة لا تنضج تربيتها؛ فهي سمة بشرية عامة لا تغير منها إلا التربية الإيمانية العالية الطويلة الأمد العميقة التأثير. وهي ـ من ثم ـ سمة ينبغي للقيادة أن تكون منها على حذر، وأن تحسب حسابها في الطريق الوعر، كي لا تُفاجأ بها، فيتعاظمها الأمر! فهي مُتَوقَّعَة من الجماعات البشرية التي لم تخلص من الأوشاب، ولم تصهر ولم تطهر من هذه العقابيل.

والتعقيب على هذا التولّي: ﴿والله عليم بالظالمين﴾ [البقرة: ٢٤٦]..

وهو يشي بالاستنكار؛ وَوَصْم الكثرة التي تولَّت عن هذه الفريضة ـ بعد طلبها ـ وقبل أن تواجه الجهاد مواجهة عملية.. وَصَمَهَا بالظلم. فهي ظالمة لنفسها، وظالمة لِنَبِيِّها، وظالمة للحق الذي خَذَلَتْه وهي تعرف أنه الحق، ثم تتخلى عنه للمبطلين!

إن الذي يعرف أنه على الحق، وأن عدوه على الباطل ـ كما عرف الملأ من بني إسرائيل ـ وهم يطلبون أن يبعث لهم نبيهم ملكاً ليقاتلوا «في سبيل الله».. ثم يتولى بعد ذلك عن الجهاد ولا ينهض بتبعة الحق الذي عرفه في وجه الباطل الذي عرفه.. إنما هو من الظالمين المجزيين بظلمهم.. ﴿والله عليم بالظالمين﴾..

﴿وقال لهم نبيهم: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً. قالوا: أَنَّى يكون له المُلك علينا ونحن أحق بالمُلك منه، ولم يُؤتَ سعة من المال؟﴾ [البقرة: ٢٤٧]..

وفي هذه اللجاجة تتكشف سمة من سمات إسرائيل التي وردت الإشارات إليها كثيرة في القرآن.. لقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه. ولقد قالوا: إنهم يريدون أن يقاتلوا «في سبيل الله». فها هم أولاء ينفضون رؤوسهم، ويلوون أعناقهم، ويجادلون في اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم؛ ويستنكرون أن يكون طالوت ـ الذي بعثه الله لهم ـ ملكاً عليهم. لماذا؟ لأنهم أحق بالمُلك منه بالوراثة. فلم يكن من نسل الملوك فيهم! ولأنه لم يؤتَ سعة من المال تُبرّر التغاضي عن أحقية الوراثة!.. وكل هذا غبش في التصور، كما أنه من سمات بني إسرائيل المعروفة..

ولقد كشف لهم نبيهم عن أَحَقِّيتِه الذاتية، وعن حكمة الله في اختياره:

﴿قال: إن الله اصطفاه عليكم، وزاده بسطة في العلم والجسم. والله يُؤتي مُلكه مَن يشاء. والله واسع عليم﴾ [البقرة: ٢٤٧].

إنه رجل قد اختاره الله.. فهذه واحدة.. وزاده بسطة في العلم والجسم.. وهذه أخرى.. والله **﴿يؤتي ملكه مَن يشاء﴾**.. فهو مُلكه، وهو صاحب التصرف فيه، وهو يختار من عباده مَن يشاء.. وليس لفضله خازن وليس لعطائه حد. وهو الذي يعلم الخير، ويعلم كيف توضع الأمور في مواضعها..

وهي أمور من شأنها أن تُصحح التصور المشوش، وأن تجلو عنه الغَبَش.. ولكن طبيعة إسرائيل ـ ونبيها يعرفها ـ لا تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها. وهم مقبلون على معركة. ولا بد لهم من خارقة ظاهرة تهزّ قلوبهم، وتردها إلى الثقة واليقين:

﴿وقال لهم نبيهم: إن آية مُلكه أن يأتيكم التابوت، فيه سَكينة من ربكم، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة. إن في ذلك لآية لكم أن كنتم مؤمنين﴾ [البقرة: ٢٤٨]..

وكان أعداؤهم الذين شرّدوهم من الأرض المقدسة ـ التي غلبوا عليها

على يد نبيهم يوشع بعد فترة التيه ووفاة موسى ـ عليه السلام ـ قد سَلَبوا منهم مقدساتهم مُمَثَّلَة في التابوت الذي يحفظون فيه مُخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون.

وقيل: كانت فيه نسخة الألواح التي أعطاها الله لموسى على الطور.. فجعل لهم نبيهم علامة من الله، أن تقع خارقة يشهدونها، فيأتيهم التابوت بما فيه «تحمله الملائكة» فتفيض على قلوبهم السكينة.. وقال لهم: إن هذه الآية تكفي دلالة على صدق اختيار الله لطالوت، إن كنتم حقاً مؤمنين..

ويبدو من السياق أن هذه الخارقة قد وقعت، فانتهى القوم منها إلى اليقين.

ثم أعد طالوت جيشه ممن لم يَتولّوا عن فريضة الجهاد، ولم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم من أول الطريق.. والسياق القرآني على طريقته في سياقة القصص يترك هنا فجوة بين المشهدين. فيعرض المشهد التالي مباشرة وطالوت خارج بالجنود:

﴿**فلما فصل طالوت بالجنود قال: إن الله مُبتليكم بنَهَر. فمَن شرب منه فليس مني، ومَن لم يطعمه فإنه مني ـ إلا مَن اغترف غرفة بيده..**﴾ [البقرة: ٢٤٩]..

هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل.. إنه مُقدم على معركة، ومعه جيش من أُمة مغلوبة، عرفت الهزيمة والذلّ في تاريخها مرة بعد مرة. وهو يواجه جيش أمة غالبة فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة. هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة. الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلي على الضرورات والحاجات، وتُؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء..

فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه، وصموده وصبره: صموده أولاً للرغبات والشهوات، وصبره ثانياً على الحرمان والمتاعب.. واختار هذه

التجربة وهم كما تقول الروايات عُطَاش. ليعلم مَن يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه، ويُؤثر العافية.. وصحّت فراسته: ﴿**فشربوا منه إلا قليلاً منهم**﴾[1] [البقرة: ٢٤٩].

شربوا وارتووا. فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم مَن يريد غُرفَة بيده، تَبلّ الظمأ ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم. انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم. وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف، لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة. والجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق.

ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفي؛ ولا بد من التجربة العملية، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل دخولها.

ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزّه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى.. بل مضى في طريقه.

وهنا تكون التجربة قد غربلت جيش طالوت ـ إلى حد ـ ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد: ﴿**فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده**﴾ [البقرة: ٢٤٩]..

لقد صاروا قلّة. وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته: بقيادة جالوت. إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم. ولكنهم هنا أمام الواقع الذي يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته.

---

(١) عقد البخاري فصلاً عن عدد المسلمين في غزوة بدر قال: حدثنا عمر بن خالد حدثنا زهير حدثنا أبو إسحاق قال سمعت البراء رضي الله عنه يقول: حدثني أصحاب محمد ـ ﷺ ـ ممن شهد بدراً أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جازوا النهر بضعة عشر وثلاثمائة.
قال البراء: «لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن» انظر فتح الباري ٧/ ٢٩٠ ـ ٢٩١ ـ ٢٩٢، ط السلفية، مصر.

mobdii-mowaten.com

الإرادة المُسْتَعلية:

إنها التجربة الحاسمة. تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور. وهذا لا يصمد لها إلا مَن اكتمل إيمانهم، فـاتصلت بالله قلوبهم؛ وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم، غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم!

وهنا برزت الفئة المؤمنة. الفئة القليلة المختارة. والفئـة ذات الموازين الربانية:

﴿**قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. والله مع الصابرين**﴾ [البقرة: ٢٤٩]..

هكذا.. ﴿**كم من فئةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة**﴾.. بهذا التكثير. فهذه هي **القاعدة** في حسّ الذين يوقنون أنهم ملاقو الله.

القاعدة: أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار. ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القِوَى؛ ولأنها تُمثل القوة الغالبة. قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين.

وهم يَكِلُون هذا النصر للّه: ﴿**بإذن الله**﴾.. ويُعلِّلونه بِعلّته الحقيقية: ﴿**والله مع الصابرين**﴾.. فيدلّون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل..

ونمضي مع القصة. فإذا الفئة القليلة الـواثقة بلقـاء الله، التي تستمد صبرها من اليقين بهذا اللقاء، وتستمد قوتها كلها من إذن الله، وتستمد يقينها كله من الثقة في الله، وأنه مع الصابـرين.. إذا هذه الفئـة القليلة الواثقـة الصابرة، الثابتة، التي لم تُزلزلها كثرة العدو وقوته، مع ضعفها وقلتها.. إذا هذه الفئة هي التي تُقرر مصير المعركة. بعد أن تجدد عهدها مع الله، وتتجه بقلوبها إليه، وتطلب النصر منه وحده، وهي تواجه الهول الرعيب:

﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا: ربنا أفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين. فهزموهم بإذن الله، وقتل داود جالوت، وآتاه الله الملك والحكمة، وعلّمه مما يشاء﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١]..

هكذا.. ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾.. وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضاً من الله يُفرغه عليهم فيغمرهم، وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة واحتمالاً للهول والمشقة. ﴿وثبت أقدامنا﴾.. فهي في يده ـ سبحانه ـ يثبتها فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد. ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾.. فقد وضح الموقف.. إيمان تجاه كفر. وحق إزاء باطل. ودعوة إلى الله لينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه الكافرين. فلا تلجلج في الضمير، ولا غبش في التصور، ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق.

وكانت النتيجة هي التي تَرَقَّبوها واستيقنوها: ﴿فهزموهم بإذن الله﴾ ويؤكد النص هذه الحقيقة: ﴿بإذن الله﴾.. ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علماً. وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون، ولطبيعة القوة التي تُجريه..

إن المؤمنين ستار القدرة؛ يفعل الله بهم ما يريد، وينفذ بهم ما يختار.. بإذنه.. ليس لهم من الأمر شيء، ولا حول لهم ولا قوة؛ ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته، فيكون منهم ما يريده بإذنه..

وهي حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين.. إنه عَبْد الله. اختاره الله لدوره. وهذه منّة من الله وفضل. وهو يؤدي هذا الدور المختار، ويحقق قَدَر الله النافذ. ثم يُكرمه الله ـ بعد كرامة الاختيار ـ بفضل الثواب.. ولولا فضل الله ما فعل، ولولا فضل الله ما أُثيب.. ثم إنه مستيقن من نُبل الغاية وطهارة القصد ونظافة الطريق.. فليس له في شيء من هذا كله أرب ذاتي، إنما هو مُنفذ لمشيئة الله الخَيِّرة قائم بما يريد. استحق هذا كله بالنية الطيبة والعزم على الطاعة والتوجه إلى الله في خلوص.

ويُبرز السياق دور داود: ﴿**وقَتَل داود جالوت**﴾ . .

وداود كان فتى صغيراً من بني إسرائيل. وجالوت كان ملكاً قوياً وقائداً مخوفاً. . ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بظواهرها، إنما تجري بحقائقها. وحقائقها يعلمها هو. ومقاديرها في يده وحده. فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم، ويَفوا الله بعهدهم. ثم يكون ما يريده الله بالشكل الذي يريده.

وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يَقتلهم. . وكانت هناك حكمة أخرى مُغَيبة يريدها الله. فلقد قدر أن يكون داود هو الذي يتسلم المُلك بعد طالوت، ويرثه ابنه سليمان، فيكون عهده **هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل**؛ جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود: ﴿**وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء**﴾ . .

وكان داود ملكاً نبياً، وعلّمه الله صناعة الزرد وعدة الحرب مما يفصله القرآن فيما سيأتي . .

أما في هذا الموضع فإن السياق يتجه إلى هدف آخر من وراء القصة جميعاً. . وحين ينتهي إلى هذه الخاتمة، ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية. . حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى. . إنها ليست المغانم والأسلاب، وليست الأمجاد والهالات. . إنما هو الصلاح في الأرض، وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر: ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض. ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾ [البقرة: ٢٥١] . .

وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا في الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاخب الموار.

وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس، في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات.. ومن ورائها جميعاً تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعاً، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق، إلى الخير والصلاح والنماء، في نهاية المطاف..

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض. ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبداً يقظة عاملة، مُستَنبِطَة لذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة..

وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء.. يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة. تعرف الحق الذي بيّنه الله لها. وتعرف طريقها إليه واضحاً. وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض. وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل، وإلا أن تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة للّه وابتغاء لرضاه..

وهنا يُمضي الله أمره، ويُنفذ قدره، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا؛ ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية، التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه. وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة.

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تَغلب في النهاية وتنتصر. ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض، وتمكين الصلاح في الحياة. إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار.

ومن خلال هذه التجربة ـ كما عرضها القرآن الكريم ـ تبرز جملة حقائق، تحمل إيحاءات قوية للجماعة المسلمة في كل جيل، فضلاً على ما كانت تحمله للجماعة المسلمة في ذلك الحين.

والعبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن هذه الانتفاضة ـ انتفاضة العقيدة ـ على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلي القوم عنها فوجاً بعد فوج في مراحل الطريق ـ على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جداً.. فقد كان فيها النصر والعز والتمكين، بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين. ولقد جاءت لهم بمُلك داود، ثم مُلك سليمان ـ وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بني إسرائيل في الأرض، وهي عهدهم الذهبي الذي يتحدثون عنه؛ والذي لم يبلغوه من قبل في عهد النبوة الكبرى.. وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركام؛ وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت!

وفي خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية؛ كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين:

من ذلك.. أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها. فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة.. فقد تقدّم الملأ من بني إسرائيل ـ من ذوي الرأي والمكانة فيهم ـ إلى نبيهم في ذلك الزمان، يطلبون إليه أن يختار لهم ملكاً يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم.. فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال، وقال لهم: ﴿**هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا!**﴾ استنكروا عليه هذا القول، وارتفعت حماستهم إلى الذروة وهم يقولون له: ﴿**وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا؟**﴾..

ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها، وتهاوت على مراحل الطريق كما تذكر القصة.. ومع أن لبني إسرائيل طابعاً خاصاً في النكول عن العهد، والنكوص عن الوعد، والتفرق في منتصف الطريق.. إلا أن هذه الظاهرة هي ظاهرة بشرية على كل حال، في الجماعات التي لم تبلغ

تربيتها الإيمانية مبلغاً عالياً من التدريب.. وهي خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة في أي جيل.. فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بني إسرائيل.

ومن ذلك أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الغائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول.. فإن كثرة بني إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كُتب عليهم القتال استجابة لطلبهم ولم تبقَ إلا قلة مستمسكة بعهدها مع نبيها. وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد الحجَاج والجدال حول جدارته بالملك والقيادة، ووقوع علامة الله باختياره لهم، ورجعة تابوتهم وفيه مُخَلّفات أنبيائهم تحمله الملائكة...!

ومع هذا فقط سقطت كثرة هؤلاء الجنود في المرحلة الأولى. وضعفوا أمام الامتحان الأول الذي أقامه لهم قائدهم.. وهذا القليل الذي ثبت أمام هذا الامتحان لم يثبت كذلك إلى النهاية.

فأمام الهول الحي، أمام كثرة الأعداء وقوتهم، تهاوت العزائم وزلزلت القلوب: **﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾**.. وأمام هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة.. اعتصمت بالله ووثقت، وقالت: **﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾**.. وهذه هي التي رجحت الكفة، وتلقت النصر، واستحقت العز والتمكين.

وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة.. وكلها واضحة في قيادة طالوت. تبرز منها خبرته بالنفوس؛ وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه..

ثم ـ وهذا هو الأهم ـ عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة؛ ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة. فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص، ووعد الله الصادق للمؤمنين.

والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير المعركة.. أن القلب الذي يتصل

بالله تتغير موازينه وتصوراته؛ لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود. فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر، كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها ما يراه الآخرون الذين قالوا: ﴿**لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده**﴾.. ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف. إنما حكمت حكماً آخر، فقالت: ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين**﴾.. ثم اتجهت لربها تدعوه وهي تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين، إنما هو في يد الله وحده. فطلبت منه النصر، ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه..

وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقاً، وعندما يتحقق في القلب الإيمان الصحيح. وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون!

ولا نستوعب الإيحاءات التي تتضمنها القصة. فالنصوص القرآنية ـ كما عَلَّمتنا التجربة ـ تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن؛ وبقدر حاجته الظاهرة فيه. ويبقى لها رصيدها المذخور تتفتح به على القلوب، في شتى المواقف، على قدر مقسوم..

وفي النهاية يجيء التعقيب الأخير على القصة: ﴿**تلك آيات الله نتلوها عليك، وإنك لمن المرسلين**﴾ [البقرة: ٢٥٢]..

تلك الآيات العالية المقام البعيدة الغايات «نتلوها عليك».. الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي يتلوها وهو أمر هائل عظيم حين يتدبر الإنسان حقيقته العميقة الرهيبة.. تحمل معها الحق. ويتلوها مَن يملك حق تلاوتها وتنزيلها، وجعلها دستوراً للعباد. وليس هذا الحق لغير الله سبحانه.. ومن ثم نتلو عليك هذه الآية؛ ونزودك بتجارب البشرية كلها في جميع أعصارها، وتجارب الموكب الإيماني كله في جميع مراحله، ونورثك ميراث المرسلين أجمعين..

http://al-maktabeh.com

قصة داود عليه السلام

المحتوى	ص
ـ تقديم	٢٧
ـ الملك الطائع العابد	٢٨
ـ الفتنة والابتلاء	٣٤
ـ فَتْح من الله وإلهام	٣٩

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة داود ـ عليه السلام ـ

ومن القصص التي ذُكرت أكثر من مرة في القرآن الكـريم قصة داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ولا نجد في هذه القصة ما وجدناه فيما تحدثنا عنه مما كان بين الأنبياء وبين أقوامهم، ولكننا نجد فيها عِبَراً أُخرى لها أكثر من مغزىً كما سيتبين من سياق القصة.

وقد مضى في الفصل السابق بدء قصة داود، وظهوره في جيش طالوت، في بني إسرائيل ـ من بعد موسى ـ إذ قالوا لنبي لهم: ابعث لنا مَلِكاً نقاتل في سبيـل الله. فاختـار لهم طالـوت ملكاً، ولقي بهم عـدوهم الجبار جـالوت وجنوده، وقتلَ داودُ جالوتَ..

يظهر داود وهو في مُقتبل الشباب.. بحلقة صراعه لجالوت، وهو فارس ضخم مشهور، فيَغلب عليه داود، لأن الله ينصره ويؤيّـده. ومن هنا تبـدأ قصته..

والقصة تنال شيئاً من التفصيل، لا يبلغ تفصيل قصة سليمان، ولكنه يتناول حلقات كثيرة منها، وكان من آثار خضوع القصة في القرآن للغرض الديني أن تُعرض بالقَدَر الذي يكفي لأداء هذا الغَرَض، ومن الحلقة التي تتفق معه، حسبما تكن العبرة. ذلك أن الهدف التاريخي لم يكن من بـين أهداف القصة الأساسية كالهدف القصصي سواء، فسارت القصة وهدفها هو الهدف الديني الذي أُنزلت من أجله..

http://al-maktabeh.com

يقول الدكتور فضل عباس عن قصة داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ: «ونلحظ هنا ملحظاً مهماً لا بد من التنبيه عليه، وهو أن هذا القصص لم ينزل مُبَكِّراً ـ كما وجدنا في القصص السابق ـ وذلك لأنه ليس من ذلك النوع الذي يتعلق تعلقاً مباشراً بالدعوة فيحمل التهديد ويظهر من خلال آياته تهديد المشركين المعارضين، والطمأنينة للمؤمنين، وتثبيت قلب النبي ـ ﷺ ـ هذا أولاً.

وأما ثانياً: فإن السور التي ذُكرت فيه مثل هذا القصص لم تكن من الكثرة ـ كما رأينا في النوع الأول ـ وينتج عن هذين أمرٍ ثالث، وهو أننا لم نرَ الحديث في هذه القصص يبدأ بالإشارات الموجزة المُعَبِّرة ـ كما رأينا من قبل ـ لأنه لا داعي لها.. فالحديث عن داود وسليمان ذُكر في هذه السور الأربع: (صٓ) والنمل وسبأ والأنبياء... ولا يظنن ظآنّ أن هذين النبيين الكريمين لم يُذكرا إلا في هذه السور، فقد ذُكرت أسماؤهما في سور كثيرة مع رهط من الأنبياء الآخرين، كسورة البقرة والنساء والأنعام، ولكن الذي نقصده بأن هذه السور الأربع هي التي ذُكر فيها أخبارهما ـ عليهما السلام ـ»[1].

وهكذا تبدأ قصة داود وهو مجاهد في جيش طالوت، وقد ارتفعت راية النصر على يديه بعد قَتْله جالوت، وكان إذ ذاك فتى، وتمَّ له الظَّفر؛ فالتقتْ على محبته القلوب، وتأكدت له أواصر الإخلاص، وأصبح بين عَشية وضحاها حديث بني إسرائيل، يَكنُّون له في نفوسهم محبة وإجلالاً، ويُغْضُون عيونهم في حضرته مهابة وإعظاماً.. ومنذ ذلك الحين ارتفع نجمه يتنقَّل من ظَفَر إلى ظَفَر، ويَجيئه النصر يَتبعه النصر، حتى ولي المُلك أخيراً، وأصبح ذا سلطان. ولكنه كان أوّاباً رجّاعاً إلى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار..

المَلِك الطائع العابد:

ويخاطب الله سبحانه نبيه محمد ـ ﷺ ـ بعد ذكر ما لاقاه النبي من

(١) القصص القرآني: ٣٥٣.

المشركين: ﴿اصبر على ما يقولون. واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوّاب﴾ [صّ: ١٧]. .

يُذكر داود هنا بأنه ذو القوة. وبأنه أوَّاب.. يرجع إلى ربه طائعاً تائباً ذاكراً. وهو القوي ذو الأيدِ والسلطان. .

وقال ـ ﷺ ـ: «إن داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يَفِرُّ إذا لاقى»(١).

ويُبين الله تبارك وتعالى ما خصّ به داود من قوة، ومن نِعَم. . فَمَع النبوة والمُلك آتاه الله من فضله قلباً ذاكراً وصوتاً رخيماً، يرجع به تراتيله التي يمجّد فيها ربّه. وبلغ من قوة استغراقه في الذكر، ومن حسن حَظّه في الترتيل، أن تزول الحواجز بين كيانه وكيان هذا الكون. وتتصل حقيقته بحقيقة الجبال والطير في صلتها كلها ببارئها، وتمجيدها له وعبادتها. فإذا الجبال تُسبّح معه، وإذا الطير مجموعة عليه، تُسبِّح معه لمولاها ومَولاه: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يُسَبِّحن بالعشي والإشراق. والطير محشورة كلٌ له أوّاب﴾ [صّ: ١٨، ١٩]. .

---

(١) وهو الشطر الأخير من الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو، قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «أَلَمْ أُخْبَر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل؟ إذا فعلتَ ذلك، هجمت لك العَيْن، ونَفَهَتْ لك النفسُ، لا صام مَن صام الأبد، صوم ثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر، إن داود كان يصوم يوماً، ويُفطر يوماً، ولا يفرّ إذا لاقى» رواه ابن حبان بإسناده صحيح، وأخرجه البخاري ومسلم (انظر الإحسان ٦٢٢٦، ٣٥٧١).

وفي حديث آخر قال ـ ﷺ ـ: «لا صوم فَوقَ صوم داود، شَطْر الدهر صيام يوم وإفطار يوم» أخرجه البخاري ومسلم (انظر الإحسان رقم ٣٦٤٠) وورد في الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال:

«أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود. كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه. وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً. ولا يفرّ إذا لاقى وأنه كان أوّاب».

ومن خلال هذه الأوصاف للروحِ العالية لداود ـ عليه السلام ـ يجب أن نفسر كل ما ذكره القرآن من فضل الله عليه: فقد سخر معه الجبال تُسبّح عند إشراق الشمس وآخر النهار، والطير تُسبّح بتسبيحه تقف في الهواء إذا سمعت داود يقرأ الزبور وتُسبّح معه. .

وقد عُرف داود ـ عليه السلام ـ بمزاميره. وهي تسابيح كان يُرَتّلها بصوته الحنون، فتتجاوب أصداؤها حوله، وترجع معه الجبال والطير. . ﴿وسخرنا مع داود الجبال. يُسبحن والطير. وكنا فاعلين﴾ [الأنبياء: ٧٩]. .

لقد وهب الله عبده داود هذه الخاصة، وسخَّر الجبال معه يُسبحن بالعشي والإشراق. وحشر عليه الطير ترجع مع ترانيمه تسبيحاً للّه ﴿يا جبال أوِّبي معه والطير﴾ [سبأ: ١٠]. .

ولقد يقف الناس مدهوشين أمام هذا النبأ. . الجبال الجامدة تُسبِّح مع داود بالعَشي والإشراق، حينما يخلو إلى ربه، يُرتّل ترانيمه في تمجيده وذكره. والطير تتجمع على نَغَماته لتسمع له وترجع معه أناشيده. . لقد يقف الناس مَدهُوشين للنبأ، إذ يُخالف مألوفهم، ويخالف ما اعتادوا أن يُحسوه من العزلة بين جنس الإنسان، وجنس الطير، وجنس الجبال!

ولكن فِيمَ الدهش؟ وفيمَ العجب؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة. وراء تميز الأجناس والأشكال والصفات والسمات. . حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارىء الوجود كله: أحيائه وأشيائه جميعاً. وحين تصل صلة الإنسان بربه إلى درجة الخلوص والإشراق والصفاء، فإن تلك الحواجز تنزاح؛ وتنساح الحقيقة المجردة لكل منهم. فتتصل من وراء حواجز الجنس والشكل والصفة والسمة التي تُميّزهم وتَعزلهم في مألوف الحياة!

وحينما يتصل قلب عبد بربه فإنه يحسّ الاتصال بالوجود كله؛ وينبض قلب الوجود معه؛ وتَنْزَاح العوائق والحواجز الناشئة عن الشعور بالفوارق والفواصل التي تُميز الأنواع والأجناس، وتقيم بينها الحدود والحواجز، وعندئذ تتلاقى ضمائرها وحقائقها في ضمير الكون وحقيقته. وفي لحظات الإشراق تحس الروح باندماجها في الكل، واحتوائها على الكل. عندئذ لا تحسّ بأن هنالك ما هو خارج عن ذاتها؛ ولا بأنها هي متميزة عما حولها. فكل ما حولها مندمج فيها وهي مندمجة فيه.

ومن النص القرآني نتصوّر داود وهو يُرَتّل مَزاميره، فَيَسْهو عن نفسه

المُنفصلة المتميزة المُتَحَيِّزة. وتهيم روحه في ظلال الله في هذا الكون ومجاليه ومخلوقاته الجوامد منها والأحياء. فيحسّ ترجيعها، ويتجاوب معها كما تتجاوب معه. وإذا الكون كله فرقة مُرتّلة عازفة مُسبّحة بجلال الله وحمده. ﴿وإن من شيء إلا يُسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ [الإسراء: ٤٤].. إنما يفقهه مَن يَتجرد من الحواجز والفواصل، وينطلق مع أرواح الكائنات، المتجهة كلها إلى الله.

﴿وسَخَّرنا مع داود الجبال يُسَبِّحن والطير﴾.. ﴿وكنا فاعلين﴾ فما هنالك من شيء يعزّ على القدرة أو يتأبّى حين تريد. يستوي أن يكون مألوفاً للناس أو غير مألوف.

وتذكر الروايات أن داود ـ عليه السلام ـ أُوتي صوتاً جميلاً خارقاً في الجمال؛ كان يرتل به مزاميره، وهي تسابيح دينية، وَرَد منها في كتاب «العهد القديم» ما الله أعلم بصحته.

وفي الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته. ثم قال ـ ﷺ ـ : «لقد أُوتي هذا مِزماراً من مزامير آل داود».

والآيات المتقدمة تُصَوِّر من فَضل الله على داود ـ عليه السلام ـ أنه قد بلغ من الشفافية والتَجَرُّد في تسابيحه أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات؛ فاتصلت حقيقتها بحقيقته، في تسبيح بارئها وبارئه؛ ورجَّعت معه الجبال والطير، إذ لم يعد بين وجوده ووجودها فاصل ولا حاجز، حين اتصلت كلها بالله صلة واحدة مباشرة؛ تنزاح معها الفوارق بين نوع من خلق الله ونوع، وبين كائن من خلق الله وكائن؛ وترتد كلها إلى حقيقتها اللدنية الواحدة، التي كانت تغشى عليها الفواصل والفوارق؛ فإذا هي تتجاوب في تسبيحها للخالق، وتتلاقى في نغمة واحدة، وهي درجة من الإشراق والصفاء والتجرد لا يبلغها أحد إلا بفضل من الله، يزيح عنه حجاب كيانه المادي، ويردّه إلى كينونته

اللَّدنية التي يَلتقي فيها بهذا الوجود، وكل ما فيه وكل مَن فيه بلا حواجز ولا سدود.

وحين انطلق صوت داود ـ عليه السلام ـ يُرَتِّل مزاميره ويُمَجِّد خالقه، رجَّعت معه الجبال والطير، وتجاوب الكون بتلك الترانيم السارية في كيانه الواحد، المتجهة إلى بارئه الواحد. . وإنها للَحظات عجيبة لا يتذوقها إلا مَن عنده بها خبر، ومَن جرَّب نوعها ولو في لحظة من حياته.

ذلك فضل الله ورحمته على داود ـ عليه السلام ـ ﴿**ولقد آتينا داود منا فضلاً. يا جبال أَوِّبي معه والطير. وأَلَنَّا له الحديد أن اعمل سابغات، وقَدِّر في السَّرد، واعملوا صالحاً. إني بما تعملون بصير**﴾ [سبأ: ١٠، ١١]. .

وكانت هذه هبة الله فوق المُلك والسلطان، مع النبوة والاستخلاص. .

ويذكر السياق القرآني طرف آخر من فضل الله عليه: ﴿**وأَلَنَّا له الحديد**﴾. .

وفي ظل هذا السياق يبدو أن الأمر كان خارقة ليست من مألوف البشر[1]. فلم يكن الأمر أمر تسخين الحديد حتى يلين ويصبح قابلاً للطرق، إنما كان ـ والله أعلم ـ معجزة يلين بها الحديد من غير وسيلة اللين المعهودة. وإن كان مجرد الهداية لإِلاَنة الحديد بالتسخين يُعد فضلاً من الله يُذكر.

ولكننا إنما نتأثر جَوّ السياق وظلاله وهو جَوّ مُعجزات، وهي ظلال خوارق خارجة على المألوف.

﴿**أن اعمل سابغات وقَدِّر في السَّرد**﴾.

والسابغات الدروع. روي أنها كانت تُعمل قبل داود ـ عليه السلام ـ

(١) روى ابن كثير عن الحسن البصري: كان الله قد ألَان الحديد لداود حتى كان يفتله بيديه لا يحتاج إلى نار ومطرقة، فكان أول مَن عمل الدروع من زرد، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح.

صفائح. الدرع صفيحة واحدة، فكانت تُصَلّب الجسم وتُثقله. فألهم الله داود أن يصنعها رقائق متداخلة متموجة لينة يسهل تشكيلها وتحريكها بحركة الجسم؛ وأَمَر بتضييق تداخل هذه الرقائق لتكون مُحكمة لا تنفذ منها الرماح. وهو التقدير في السَّرد. وكان الأمر كله إلهاماً وتعليماً من الله.

وخوطب داود وأهله: ﴿**واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير**﴾..

لا في الدروع وحدها بل في كل ما تعملون، مراقبين الله الذي يبصر ما تعملون ويجازي عليه، فلا يفلت منه شيء، والله به بصير..

﴿**وعَلَّمناه صَنعة لَبُوس لكم لِتحصنكم من بأسكم، فهل أنتم شاكرون؟**﴾ [الأنبياء: ٨٠].

تلك هي صنعة الدروع حلقاً متداخلة، بعد أن كانت تُصنع صفيحة واحدة جامدة. والزرد المتداخل أيسر استعمالاً وأكثر مرونة، ويبدو أن داود هو الذي ابتدع هذا النوع من الدروع بتعليم الله. والله يَمُنّ على الناس أن علّم داود هذه الصناعة لوقايتهم في الحرب: ﴿**لتحصنكم من بأسكم**﴾ وهو يسألهم سؤال توجيه وتحضيض: ﴿**فهل أنتم شاكرون؟**﴾..

والحضارة البشرية سارت في طريقها خطوة خطوة وراء الكشوف. ولم تجيء طفرة، لأن خلافة الأرض تركت لهذا الإنسان، ولمداركه التي زَوَّده الله بها ليخطو في كل يوم خطوة؛ ويعيد تنسيق حياته وفق هذه الخطوة. وإعادة تنسيق الحياة وفق نظام جديد ليست سهلة على النفس البشرية؛ فهي تهز أعماقها؛ وتغير عاداتها ومألوفها؛ وتقتضي فترة من الزمان لإعادة الاستقرار الذي تطمئن فيه إلى العمل والإنتاج. ومن ثم شاءت حكمة الله أن تكون هناك فترة استقرار تطول أو تقصر. بعد كل تنسيق جديد.

والقلق الذي يستولي على أعصاب العالم اليوم منشؤه الأول سرعة توالي الهزات العلمية والاجتماعية التي لا تدع للبشرية فترة استقرار، ولا تدع للنفس فرصة التكيف والتذوق للوضع الجديد.

ثم يبين الله عز وجل مدى فضله على داود ـ عليه السلام ـ:

﴿وشَدَدْنا مُلكه. وآتيناه الحكمة وفَصْلَ الخطاب﴾ [صٓ: ٢٠].

فكان مُلكه قوياً عزيزاً(١). وكان يسوسه بالحكمة والحزم جميعاً. وفَصْل الخطاب قَطْعه والجزم فيه برأي لا تردّد فيه. وذلك مع الحكمة ومع القوة غاية الكمال في الحكم والسلطان في عالم الإنسان(٢).

الفتنة والابتلاء:

ومع هذا كله فقد تعرض داود للفتنة والابتلاء؛ وكانت عَين الله عليه لترعاه وتقود خطاه، وكانت يد الله معه تكشف له ضعفه وخطأه، وتوقيه خطر الطريق وتعلمه كيف يتوقاه:

﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تَسَوّروا المحراب؟ إذ دخلوا على داود ففزع

---

(١) لقد أيَّد الله مُلكه بما منحه من فضل، وبما وهبه من خير، وآتاه الحكمة في أفعاله، وفصل الخطاب في أقواله. ولا غرو فهو مؤيَّد بما يوحى إليه من ربه، وكفى بذلك عوناً له على بلوغ آماله، والسير بأمته على المنهج الحكيم، والسبيل القويم.

ويذهب بعض المفسرين في معنى قوله: ﴿وشددنا ملكه﴾ أن الله قوّاه وجعله منصوراً على جميع أعدائه ومناوئيه. فكان لا يقوم له معارض إلا غلبه.

ويقول البيضاوي: ﴿شددنا ملكه﴾ قويناه بالهيبة، إذ كانت تؤيده عناية الله. فقد رُوي أن رجلاً ادّعى بقرة على آخر وعجز عن البيان، فأوحى الله إليه أن اقتل المدعىٰ عليه. فأعلمه داود بأنه سيقتله. فقال: ما فعلتَ إلا الحق، وهذه عدالة السماء، لأني قتلتُ أباه وأخذت البقرة. فعظمت بذلك هيبته بين الناس.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كان داود لا يأكل إلا من عمل يده» أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٧٣) وابن حبان (انظر الإحسان ٦٢٢٧).

قال الحافظ في «الفتح» ٤/٣٠٦: الحكمة في تخصيص داود بالذكر أن اقتصاره في أكله على ما يعمله بيده لم يكن من الحاجة، لأنه كان خليفة في الأرض كما قال الله تعالى، وإنما ابتغى الأكل من طريق الأفضل، ولهذا أورد النبي ـ ﷺ ـ قصته في مقام الاحتجاج بها من أن خير الكسب عمل اليد، وهذا تقرير أن شرع مَن قبلنا شرع لنا، ولا سيما إذا ورد في شرعنا مدحه وتحسينه مع عموم قوله تعالى: ﴿فَبِهُداهم اقتده﴾. وفي الحديث: أن التكسُّب لا يقدح في التوكُّل، وأن ذكر الشيء بدليله أوقع في نفس سامعه.

منهم. قالوا: لا تخف. خصمان بغى بعضنا على بعض. فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط. واهدنا إلى سواء الصراط. إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، فقال: أكفلنيها، وعَزّني في الخطاب. قال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، وإن كثيراً من الخُلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ وقليل ما هم ـ وظن داود أنما فتناه. فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب﴾(1) [صٓ: ٢١ ـ ٢٤]..

وبيان هذه الفتنة أن داود النبي الملك، كان يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك، وللقضاء بين الناس. ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحاً للّه في المحراب. وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس.

وفي ذات يوم فوجىء بشخصين يَتَسوّران المحراب المُغلق عليه. فَفَزِعَ منهم فما يَتَسَوَّر المحراب هكذا مؤمن ولا أمين! فبادرا يُطَمْئِناه. ﴿قالوا: لا

---

(١) «لقد أخطأ الكثير من الكاتبين والمفسرين في بيان هذه الآيات، فقد نسجوا حولها قصصاً كاذبة مُنكَرة، وهذا نتيجة الثقة بالإسرائيليات ـ مع كل أسف ـ التي كثرت في تفسير قصص القرآن، ومع أنها ضَرر كلها إلا أن بعضها خروج صريح عن العقيدة، ومنافاة لعصمة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قالوا: إن داود ـ عليه السلام ـ رأى امرأة أحد جنوده فأرسله للمعركة ليُقتل ليتزوجها وكان له تسع وتسعون من النساء، فأرسل الله له هذين المَلَكين ليبين له فظاعة ما فعله.

وهذا القول من حيثُ المروءة واللياقة والدين لا يليق بأي أحد من الناس فكيف يُنسب إلى نبي. وسامَح الله الذين ذهبوا إلى أن النعجة يقصد منها المرأة، والنعجة نعجة، وقد كرّم الله بني آدم، وكل ما كان من داود أنه حينما تسوّر أولئك المحراب فلم يدخلوا من الباب الذي ينبغي أن يدخلوا منه فَزِعَ منهم، ومع تطمينهما له بقولهما: لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض، إلا أن أثر ذلك الفزع كان لا يزال أثره في نفسه، والدليل على ما نقول: أنه حينما بدءا يتحدثان قال أحدهما، وهو صاحب النعجة، بأن أخاه له تسع وتسعون نعجة.. إلى آخر ما قال تكلم صاحب النعجة وكان حرياً بداود أن يتريث ليسمع ما يقوله الآخر وهو صاحب التسع والتسعين، ولكننا نجد أن داود يصدر الحكم دون أن يسمع من الآخر نصاً، من أجل ذلك عوتب واستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب، فغفر الله له ذلك، وأكرمه بالقربى وحسن المنقلب، ثم أرشده ليحكم بين الناس بالحق ونهاه أن يتبع الهوى في الحكم. فأين هذا من الإسرائيليات التي حشي بها كتب التفسير قديمها وحديثها!! (القصص النبوي: ٣٥٥).

تخف. خصمان بغى بعضنا على بعض﴾. وجئنا للتقاضي أمامك ﴿فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط﴾..

وبدأ أحدهما فَعَرض خصومته: ﴿إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة. فقال: أكفلنيها﴾ (أي اجعلها لي وفي ملكتي وكفالتي) ﴿وعَزَّني في الخطاب﴾ (أي أشْدَد علي في القول وأغلظ).

والقضية ـ كما عرضها أحد الخصمين ـ تحمل ظُلماً صارخاً مُثيراً لا يحتمل التأويل. ومن ثم اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة؛ ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلب إليه بياناً، ولم يسمع له حجة. ولكنه مضى يحكم: ﴿قال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه. وإن كثيراً من الخلطاء ـ (أي الأقوياء المُخالطين بعضهم لبعض) ـ ليبغي بعضهم على بعض. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾..

ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان: فقد كانا مَلَكين جاءا للامتحان! امتحان النبي المَلِك الذي وَلّاه الله أمر الناس، ليقضي بينهم بالحق والعدل، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم. وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة.. ولكن القاضي عليه ألا يُستثار، وعليه ألا يتعجّل. وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد. قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته؛ فقد يتغير وَجْه المسألة كله، أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً!

عند هذا تنبّه داود إلى أنه الابتلاء: ﴿وظن داود أنما فتناه﴾..

وهنا أدركته طبيعته.. إنه أوّاب.. ﴿فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب﴾..

﴿فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ [صٓ: ٢٥].

وخاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضاً كبيراً. تتنزّه عنه طبيعة النبوة. ولا يتفق إطلاقاً مع حقيقتها. حتى الروايات

التي حاولت تخفيف الأساطير سارت معها شوطاً. وهي لا تصلح للنظر من الأساس. ولا تتفق مع قول الله تعالى: ﴿**وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب**﴾. .

والتعقيب القرآني الذي جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة؛ ويُحدّد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذي ولاّه القضاء والحكم بين الناس: ﴿**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض، فاحكم بين الناس بالحق. ولا تتّبع الهوى فيضلك عن سبيل الله. إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد. بما نسوا يوم الحساب**﴾ [صٓ: ٢٦]. .

فهي الخلافة في الأرض، والحكم بين الناس بالحق(١)، وعدم اتباع الهوى. واتباع الهوى ـ فيما يختص بنبي ـ هو السير مع الانفعال الأول، وعدم التَريُّث والتثبت والتَبَيّن. . مما ينتهي مع الاستطراد فيه إلى الضلال. أما عقب الآية المصوّر لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله. وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب.

ومن رعاية الله لعبده داود، أنه نبّهه عند أول لفتة. وردّه عند أول اندفاعة. وحذّره النهاية البعيدة. وهو لم يخط إليها خطوة! وذلك فضل الله على المختارين من عباده. فهم بِبَشَريتهم قد تعثر أقدامهم أقل عثرة، فيقيلها الله، ويأخذ بيدهم، ويُعلمهم، ويُوفقهم إلى الإنابة، ويَغفر لهم، ويُغدق عليهم، بعد الابتلاء. .

وعند تقرير مبدأ الحق في خلافة الأرض، وفي الحكم بين الناس. . يرد

---

(١) والحاكم هو ظل الله في أرضه، وخليفته بين عباده. يقول رسول الله ـ ﷺ ـ في فضل الحاكم العادل: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ـ وكلتا يديه يمين ـ: الذين يقسطون في أهليهم وحكمهم وما وَلّوا» رواه مسلم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن أحبّ الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً: إمام عادل. وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً: إمام جائر». رواه أحمد والترمذي.

السياق القرآني هذا الحق إلى أصله الكبير. أصله الذي تقوم عليه السماء والأرض وما بينهما. أصله العريق في كيان هذا الكون كله. وهو أشمل من خلافة الأرض، ومن الحكم بين الناس. وهو أكبر من هذه الأرض. كما أنه أبعد مدى من الحياة الدنيا. إذ يتناول صميم الكون كما يتناول الحياة الآخرة. ومنه وعليه جاءت الرسالة الأخيرة، وجاء الكتاب المفسر لذلك الحق الشامل الكبير: ﴿**وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً. ذلك ظن الذين كفروا. فويل للذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض؟ أم نجعل المتقين كالفجار؟ كتاب أنزلناه إليك مبارك، ليدّبروا آياته، وليتذكّر أولو الألباب**﴾ [صٓ: ٢٧ ـ ٢٩]. .

وهكذا: في هذه الآيات الثلاث، تتقرر تلك الحقيقة الضخمة الهائلة الشاملة الدقيقة العميقة. بكل جوانبها وفروعها وحلقاتها. .

إن خلق السماء والأرض وما بينهما لم يكن باطلاً، ولم يقم على الباطل. إنما كان حقاً وقام على الحق. ومن هذا الحق الكبير تتفرع سائر الحقوق. الحق في خلافة الأرض. والحق في الحكم بين الخَلْق. والحق في تقويم مشاعر الناس وأعمالهم؛ فلا يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض؛ ولا يكون وَزْن المتقين كوزن الفجّار. والحق الذي جاء به الكتاب المبارك الذي أنزله الله ليتدبروا آياته وليتذكر أصحاب العقول ما ينبغي أن يتذكروه من هذه الحقائق الأصيلة، التي لا يتصورها الكافرون، لأن فطرتهم لا تتصل بالحق الأصيل في بناء هذا الكون، ومن ثم يسوء ظنهم بربهم ولا يدركون من أصالة الحق شيئاً. . ﴿**ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار**﴾. .

إن شريعة الله للناس طرف من ناموسه في خلق الكون. وإن كتابه المنزل بيان للحق الذي يقوم عليه الناموس. وإن العدل الذي يطالب به الخلفاء في الأرض والحكام بين الناس إنما هو طرف من الحق الكلي، لا يستقيم أمر الناس إلا حين يتناسق مع بقية الأطراف. وإن الانحراف عن شريعة الله والحق في الخلافة والعدل في الحكم إنما هو انحراف عن الناموس الكوني الذي

قامت عليه السماء والأرض؛ وهو أمر عظيم إذن، وشر كبير، واصطدام مع القوى الكونية الهائلة لا بد أن يتحطم في النهاية ويزهق. فما يمكن أن يصمد ظالم باغ منحرف عن سنّة الله وناموس الكون وطبيعة الوجود.. ما يمكن أن يصمد بقوته الهزيلة الضئيلة لتلك القوى الساحقة الهائلة، ولعجلة الكون الجبارة الطاحنة!

وهذا ما ينبغي أن يَتَدَبَّره المُتَدبّرون وأن يتذكّره أُولو الألباب..

فَتْحٌ من الله وإلهام:

ويُفصّل القرآن بعض الشيء في حلقة من قصة داود ـ عليه السلام ـ فلقد كرَّمه الله ـ كذلك ـ حيث وَهَبه الولد الصالح والنبي الصالح سليمان ـ عليه السلام ـ ﴿ووهبنا لداود سليمان. نِعْمَ العبد إنه أواب﴾ [صَ: ٣٠] وأراه من ذكائه وعقله وسداد رأيه ما مَلأً نفسه بالسكينة والطمأنينة، وزاده شُكراً للّه على نعمائه وآلائه.

ومن ذلك ما جاء في الكتاب العزيز عن تلك القضية التي حكم فيها داود ثم حكم فيها ولده سليمان؛ فكان حكم سليمان أعظم فائدة وأكثر صواباً وأرفق بالمتخاصمين..

﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحَرْث إذ نَفَشَت فيه غَنم القوم؛ وكنا لحكمهم شاهدين. فَفَهَّمْناها سليمان. وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

وقصة الحرث التي حكم فيها داود وسليمان يقول الرواة في تفصيلها: إن رجلين دخلا على داود، أحدهما صاحب حَرْث أي حقل وقيل حديقة كَرم ـ والآخر صاحب غَنَم. فقال صاحب الحرث: إن غَنَم هذا قد نَفَشت في حرثي ـ أي انطلقت فيه ليلاً ـ فلم تُبق منه شيئاً. فَحَكم داود لصاحب الحرث أن يأخذ غنم خصمه في مقابل حرثه..

ومَرّ صاحب الغنم بسليمان؛ فأخبره بقضاء داود. فدخل سليمان على

أبيه فقال: يا نبي الله إن القضاء غير ما قضيت. فقال: كيف؟ قال: ادفع الغنم إلى صاحب الحرث لينتفع بها، وادفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان. ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده. فيأخذ صاحب الحرث حرثه، وصاحب الغنم غنمه.. فقال داود: القضاء ما قضيت. وأُمضي حكم سليمان.

وكان حكم داود وحكم سليمان في القضية اجتهاداً منهما. وكان الله حاضراً حكمهما، فألهم سليمان حُكماً أحكم. وفَهَّمه ذلك الوجه وهو أصوب.

لقد اتجه داود في حُكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث. وهذا عدل فحسب. ولكن حُكم سليمان تضمن مع العدل البناء والتعمير، وجعل العَدل دافعاً إلى البناء والتعمير. وهذا هو العدل الحي الإيجابي في صورته البانية الدافعة. وهو فَتح من الله وإلهام يَهبه مَن يشاء.

ولقد أوتي داود(١) وسليمان كلاهما الحكمة والعلم: ﴿وكلاً آتينا حُكماً وعلماً﴾.. وليس في قضاء داود من خطأ، ولكن قضاء سليمان كان أصوب، لأنه مع نبع الإلهام.

يقول الإمام الطوفي: «إن داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ حَكَما في

---

(١) ذكر الإمام أحمد عن وهب قال: «مكتوب في حكمة آل داود: حقٌّ على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب بها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحلّ ويجمل، فإن في هذه الساعة عوناً على تلك الساعات، واستجماماً للقلوب، يعني ترويحاً لها. (إغاثة اللهفان ١/٩٥، جامع العلوم والحكم ٢/١٩٢).

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: «أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: يا داود، أما وعِزَّتي وعظمتي لا يعتصم بي عبد من عبيدي دونَ خلقي ـ أعرفُ ذلك من نِيَّته ـ فتكيدهُ السموات السبع ومَن فيهن، والأرضون السبع ومَن فيهن إلا جعلتُ له من بينهنَّ مخرجاً، أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني ـ أعرف ذلك من نيته ـ إلا قطعت أسباب السماء من يده، وأسختُ الأرض من تحت قدميه، ثم لا أُبالي بأيِّ وادٍ هلك». (إغاثة اللهفان: ١/٤٥).

الحرث، إذ نَفَشَتْ فيه غنمُ القوم باجتهادهما، أما داودُ، فلأنه لو لم يكن حَكَم باجتهاده، لما جاز لسليمان ـ عليه السلام ـ أن يُخالفه، ولا لداود أن يَرجع إليه، وأما سليمان، فلأنه لو لم يكن حَكَم باجتهاده، لما خُصَّ بالتفهيم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ففهمناها سليمان**﴾ على طريق المدح.

ولو أن داود حَكَم بالوحي، لما رَجَع إلى قول سليمان، ولرجع سليمان عن رأيه لما علم بالوحي، وسليمان لم يكن بَعْدُ قد أُوحيَ إليه، لأن القصة كانت وهو صبيٌّ بعد..»[1].

وبعد فإن في هذه القصة عبرة وحكمة وتَبصرة «وتعليم لأولئك الذين يُقَلَّدون مهمة الحكم بين الناس، فلا يرى أحدهم بأساً أن يَرجع عن خطأ كان منه أو أن يرجع إلى ما هو خير مما حكم به، وقد رأينا الأب يرجع إلى حكم ابنه»[2].

وقد أنزل الله تعالى على داود كتاباً هو «الزبور»، فقد ذكر القرآن في معرض الوحي على الأنبياء في سورة النساء: ﴿**وأوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده**.. [إلى قوله].. **وآتينا داود زبوراً**﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال في التنبيه على فضل وشرف داود في سورة الإسراء: ﴿**ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً**﴾ [الإسراء: ٥٥].

وقال في سورة الأنبياء: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾[3] [الأنبياء: ١٠٥].

---

(١) شرح مختصر الروضة: ٣/٥٩٨.
(٢) القصص النبوي: ٣٦٧.
(٣) في هذه الآية الكريمة بيان سنّة الله في وراثة الأرض، وصيرورتها للصالحين من عباده في هذه الحياة..

والزبور إما أن يكون الكتاب الذي أوتيه داود ـ عليه السلام ـ ويكون الذكر إذن هو التوراة التي سبقت الزبور. وإما أن يكون وصفاً لكل كتاب بمعنى قطعة من الكتاب الأصيل =

قال الإمام القرطبي: «الزبور كتاب ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد»[1].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «خُفِّفَ على داود القراءة، فكان يأمر بدابته أن تُسرَج، فيفرغ من قراءة الزبور قبل أن تسرج دابته»[2].

= الذي هو الذكر وهو اللوح المحفوظ، الذي يمثل المنهج الكلي، والمرجع الكامل، لكل نواميس الله في الوجود.

وعلى أية حال فالمقصود بقوله: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر...**﴾ هو بيان سنّة الله المقررة في وراثة الأرض: ﴿**أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾ (الظلال ٤/٢٣٩٩، ٢٤٠٠).

(١) لقد أنزل الله تعالى «التوراة» على موسى ـ عليه السلام ـ كتاباً لهداية بني إسرائيل، وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد. وتحمل شعائر تعبدية شتى. وتحمل كذلك شريعة:

﴿**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور. يحكم بها النبيون الذين أسلموا، للذين هادوا، والربانيون والأحبار، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء**﴾..

لقد كانت التوراة التي نزلت على موسى ـ عليه السلام ـ وفيها الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية، والمتضمنة قوانين التعامل ـ هي كتاب أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى، وكذلك هي كتاب عيسى ـ عليه السلام ـ مضافاً إليها الإنجيل الذي يتضمن تهذيب النفس والسمو بالروح، وتكملة وإحياء لروح التوراة، ولروح الدِّين التي طُمست في قلوب بني إسرائيل..

يقول الله سبحانه عن عيسى ـ عليه السلام ـ آخر أنبياء بني إسرائيل: ﴿**ويُعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. ورسولاً إلى بني إسرائيل.. [إلى قوله].. ومصدقاً لما بين يدي من التوراة، ولأحلَّ لكم بعض الذي حُرِّمَ عليكم، وجئتكم بآية من ربكم، فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربي وربكم فاعبدوه. هذا صراط مستقيم**﴾...

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٧) و(٤٧١٣)، وأحمد (٢/٣١٤)، وابن حِبان في صحيحه. انظر الإحسان (٦٢٢٥).

قصة سليمان عليه السلام

المحتوى	ص
ـ ابتلاء وفتنة	٤٥
ـ عِلْم وتمكين وإفْضَال	٤٩
ـ سليمان وملكة سبأ	٥٦
ـ من فَضل الله ونعمته	٦٧
ـ فِطنة وحِكمة	٧٩

maktabeh
مكتبة المهتدين
http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة سليمان ـ عليه السلام ـ

ترد الإشارة في القرآن الكريم إلى حلقات رائعة من قصة داود وسليمان، وهما من أنبياء بني إسرائيل ﴿**إن هذا القرآن يقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون**﴾ [النمل: ٧٦]. .

وقصص موسى وداود وسليمان من أهم الحلقات في تاريخ بني إسرائيل. ولقد سبق بيان شأن داود ـ عليه السلام ـ والعجائب التي أجراها الله على يديه، عِبرة لِمَن يتدبرون، وذكرى لِمَن يفقهون. فأما شأن سليمان ـ عليه السلام ـ فهو أعظم وأعجب!

ابتلاء وفتنة:

ويعرض القرآن الكريم نعمة الله على داود في عَقِبه وولده سليمان، وما وهَبَه الله من ألوان الإنعام والإفضال. كما يعرض فتنته وابتلاءه ورعاية الله له، وإغداقه عليه بعد الفتنة والابتلاء:

﴿**ووهبنا لداود سليمان. نِعْمَ العبد. إنه أوّاب. إذ عُرض عليه بالعشي الصافنات الجياد. فقال: إني أحببتُ حُبَّ الخير عن ذِكْرِ ربي حتي توارت بالحجاب. ردُّوها عليّ. فَطَفِقَ مَسحاً بالسوق والأعناق. ولقد فَتَنَّا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب. قال: ربِّ اغفر لي وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، إنك أنت الوهّاب**. . ﴾ [صَ: ٣٠ ـ ٣٥].

https://al-maktaba.com

والإشارتان الواردتان هنا عن الصافنات الجياد وهي الخيل الكريمة. وعن الجسد الذي أُلقي على كرسي سليمان.. كلتاهما إشارتان لم تسترح نفسي لأي تفسير أو رواية مما احتوته التفاسير والروايات عنهما. فهي إما إسرائيليات مُنكَرة[1]، وإما تأويلات لا سَنَد لها. ولم أستطع أن أتصور طبيعة الحادثين تصوراً يطمئن إليه قلبي، فأُصَوّره هنا وأحكيه. ولم أجد أثراً صحيحاً أركن إليه في تفسيرهما سوى حديث صحيح. صحيح في ذاته ولكن علاقته بأحد هذين الحادثين ليست أكيدة.

---

١) يقول المفسرون: إن فتنة سليمان ـ عليه السلام ـ هي ابتلاء الله له بذهاب مُلكه حيناً من الزمن بسبب أنه قال للشيطان: كيف تفتنون الناس؟

فقال له الشيطان: أرني خاتمك أُخبرك. فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب مُلكه، وحينئذ قعد الشيطان على كرسيه.

ولا ريب أن مثل هذا التفسير وَهْم وضلال، ومُنكَر يخالف أصول العقيدة والمعرفة بالله، فالمُلك بيده سبحانه وتعالى وحده **﴿قل: اللهم مالك الملك تُؤتي الملك مَن تشاء وتنزع الملك مَن تشاء﴾**، فلا يأتي المُلك بوضع الخاتم في الإصبع، ولا يذهب بنبذ الخاتم في البحر، وإنما هو بيد الله يؤتيه لمن يشاء وينزعه ممن يشاء.

ولأن الشياطين لا يمكن أن تتمثل بصورة الأنبياء، حتى يقعد الشيطان على كرسي سليمان ويتمثل به. فهو أكرم على الله من أن يتمثل الشيطان به حتى لا يختلط الحق بالباطل، ويعم الفساد، ويستشري الضلال.

وهناك روايات أخرى يذكرها معظم المفسرين كالفخر الرازي والقرطبي وغيرهما. ومنها: أن فتنة سليمان أنه وُلد له ابن، فقالت الشياطين: إن عاش هذا الولد فسوف يتسلط علينا، فكان سليمان يُخبئه في السحاب خوفاً من الشياطين أن تقتله. فبينما كان يوماً مشغولاً بمهام مُلكه إذ رأى ولده مُلقى على كرسيه جسداً هامداً لا حراك فيه. فأدرك خطيئته وهي أنه لم يتوكل على الله، فاستغفر ربه وأناب..

إنه التيه والتخبط في الضلال وراء هذه الروايات.. وأين هذه الرواية من قول الله تعالى **﴿ومن الجن مَن يعمل بين يديه بإذن ربه﴾** وقوله **﴿فلما قضينا عليه الموت ما دلَّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته. فلما خرَّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾** وقد قال الله لسليمان إنك مطلق اليد فيما وهبناه لك من سلطة ومن نعمة: **﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾**.

والحد المأمون هو الوقوف في ظلال نصوص القرآن إذا لم يكن في التفسير سَند صحيح وإلا فهي الإسرائيليات المنكَرة!

هذا الحديث هو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ـ ﷺ ـ وأخرجه البخاري في صحيحه مرفوعاً. ونصه: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة. كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله. ولم يقل إن شاء الله. فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشقّ رجل. والذي نفسي بيده، لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون». .

وجائز أن تكون هذه هي الفتنة التي تشير إليها الآيات هنا، وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق. ولكن هذا مجرد احتمال. .

أما قصة الخيل فقيل: إن سليمان ـ عليه السلام ـ استعرض خيلاً له بالعَشي. ففاتته صلاة كان يُصلِّيها قبل الغروب. فقال ردّوها عليّ. فردوها عليه فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شَغَلَتْه عن ذكر ربه.

ورواية أخرى أنه إنما جعل يمسح سوقها وأعناقها إكراماً لها لأنها كانت خيلاً في سبيل الله. . وكلتا الروايتين لا دليل عليهما. ويصعب الجزم بشيء عنها.

ومن ثم لا يستطيع مُتَثَبِّت أن يقول شيئاً عن تفصيل هذين الحادثين المشار إليهما في القرآن.

وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبي الله سليمان ـ عليه السلام ـ في شأن يتعلق بتصرفاته في المُلك والسلطان كما يبتلي الله أنبياءه لِيُوَجِّهَهم ويرشدهم، ويبعد خطاهم عن الزلل. وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع، وطلب المغفرة؛ واتجه إلى الله بالدعاء والرجاء: ﴿**قال**: رب اغفر لي وهب لي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهّاب﴾(١) . .

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «اعترض لي شيطانٌ في مُصلّاي، فأخذتُه، فخنقتُه حتى إني لأجدُ بَرْد لسانه على ظهر كفي، فلولا دعوة أخي سليمان، لأصبح مربوطاً تنظرون إليه» رواه ابن حبان في صحيحه (رقم ٦٤١٨)، وإسناده حسن، انظر تخريجه في الإحسان (رقم ٢٣٤٩). =

وأقرب تأويل لهذا المطلب من سليمان ـ عليه السلام ـ أنه لم يرد به أثرة. إنما أراد الاختصاص الذي يتجلى في صورة معجزة. فقد أراد به مُلكاً ذا خصوصية تُميّزه من كل مُلك آخر يأتي بعده. وذا طبيعة معينة ليست مكررة ولا معهودة في المُلك الذي يعرفه الناس. وقد استجاب له ربه(١)، فأعطاه فوق المُلك المعهود، مُلكاً خاصاً لا يتكرر.

وقصة سليمان ترد في ثلاثة مواضع، وهي مبسوطة بتوسع في سورة النمل أكثر منها في المواضع التي ذكرت فيها في سورتي (صّ) وسبأ، وإن كانت سورة النمل تختص بحلقة واحدة من حلقات حياته. حلقة قصته مع الهدهد وملكة سبأ. يُمهد لها السياق القرآني بما يُعلنه سليمان على الناس من تعليم الله له مَنطق الطير، وإعطائه من كل شيء. وشكره للّه على فضله المبين. ثم مشهد موكبه من الجن والإنس، والطير، وتحذير نَملة لقومها من هذا الموكب، وإدراك سليمان لمقالة النملة وشكره لربه على فضله، وإدراكه أن النعمة ابتلاء، وطلبه من ربه أن يَجمعه على الشكر والنجاح في هذا الابتلاء..

= وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن عفريتاً من الجن جعل يأتي البارحة [في موارد الحديث: «تفلّت علي»، وفي رواية للبخاري: «عرض عليّ فشدَّ علي ليقطع..» وفي رواية مسلم: «جعل يفتك عليَّ البارحة» والفتك: الأخذ في غفلة وخديعة] ليقطع عليَّ صلاتي، فأمكنني الله منه، فأردتُ أن آخذه فأربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تُصبحوا، فتنظروا إليه كلكم» قال: «ثم ذكرت قولَ أخي سليمان: ﴿رب اغفر لي وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾. قال: «فردّه الله خاشعاً». رواه البخاري ومسلم وابن حبان انظر الإحسان (رقم ٢٣٤٩).

(١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن سليمان بن داود سألَ الله ثلاثاً، أعطاه اثنتين، وأرجو أن يكون قد أعطاه الثالثة: سأله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله حُكماً يواطىء حكمه فأعطاه إياه، وسأله مَن أتى هذا البيت ـ يريد بيت المقدس ـ لا يريدُ إلا الصلاة فيه أن يخرجَ من خطيئته كيوم ولدتْهُ أمه». قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «وأرجو أن يكون قد أعطاه الثالثة». رواه ابن حبان بإسناد صحيح (رقم ١٦٣٤ و ٦٤٢١) انظر الإحسان (رقم ١٦٣٤).

علم وتمكين وإفضال:

﴿ولقد آتينا داود وسليمان عِلْماً. وقالا: الحمد لله الذي فضَّلَنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ [النمل: ١٥].

هذه هي إشارة البدء في التمكين. وإعلان الافتتاح. خبر تقريري عن أبرز النعم التي أنعم الله بها على داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ نِعمة العِلم. فأما عن داود فقد تقدم ذكره.

وأما سليمان ففي سورة النمل تفصيل ما علّمه الله من منطق الطير وما إليه، بالإضافة إلى ما ذكر في سور أخرى من تعليمه القضاء، وتوجيه الرياح المسخرة له بأمر الله.

يبدأ التمكين بتلك الإشارة: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾ وقبل أن تنتهي الآية يجيء شكر داود وسليمان على هذه النعمة، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم، والحمد لله الذي فضلهما بها على كثير من عباده المؤمنين. فتبرز قيمة العلم، وعَظَمة المِنّة به من الله على العباد، وتفضيل مَن يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين.

ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار. وللإيحاء بأن العلم كله هِبة من الله، وبأن اللائق بكل ذي علم أن يعرف مصدره، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه، وأن يُنفقه فيما يُرضي الله الذي أنعم به وأعطاه. فلا يكون العلم مُبعِداً لصاحبه عن الله، ولا منسياً له إياه. وهو بعض مِننِه وعطاياه.

والعلم الذي يبعد القلب عن ربه علم فاسد، زائغ عن مصدره وعن هدفه. لا يثمر سعادة لصاحبه ولا للناس، إنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار، لأنه انقطع عن مصدره، وانحرف عن وجهته، وضل طريقه إلى الله..

ولقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جيدة من مراحل العلم، بتحطيم

الذرة واستخدامها. ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذي لا يذكر أصحابه الله، ولا يخشونه، ولا يحمدون له، ولا يتوجهون بعلمهم إليه؟ ماذا جنت غير الضحايا الوحشية في قنبلتي «هيروشيما» و «ناجازاكي» وغير الخوف والقلق الذي يُؤَرِّق جفون الشرق والغرب ويتهددهما بالتحطيم والدمار والفناء[1]؟

وبعد تلك الإشارة إلى الإنعام بمنّة العلم على داود وسليمان، وحَمْدهما للّه ربهما على منّته وعرفانهما بقدرها وقيمتها يُفرد سليمان بالحديث: ﴿**وورث سليمان داود. وقال: يا أيها الناس عُلِّمنا مَنطق الطير، وأُوتينا من كل شيء. إن هذا لهو الفضل المبين**﴾ [النمل: ١٦]..

وداود أوتي المُلك مع النبوة والعلم. ولكن المُلك لا يذكر في صدد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان. إنما يذكر العلم. لأن المُلك أصغر من أن يذكر في هذا المجال!

﴿**وورث سليمان داود**﴾ والمفهوم أنها وراثة العلم، لأنه هو القيمة العليا التي تستأهل الذكر. ويؤكد هذا إعلان سليمان في الناس: ﴿**قال: يا أيها الناس عُلِّمنا مَنطق الطير، وأُوتينا من كل شيء**﴾.. فيظهر ما عَلَّمه من منطق الطير ويجمل بقية النعم مع إسنادها إلى المصدر الذي عَلَّمه منطق الطير. وليس هو داود. فهو لم يرث هذا عن أبيه. وكذلك ما أُوتيه من كل شيء إنما جاءه من حيث جاءه ذلك التعليم.

---

(١) قال البرفسور «م. ي. أولي فنيت» الأستاذ بجامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية في إعداد القنبلة الذرية. بعد حادِثَتي هيروشيما وناجازاكي: «وأنا على يقين أنه سيظهر في مدة قصيرة على مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن في قوة الانفجار. وستليها قنابل قوتها مليون طن، ولا ينفع في التوقي منها دفاع أو احتياط. وإن ست قنابل من هذا القبيل تكفي لتدمير انجلترا على بكرة أبيها».

وقد صحت نبوءته وأُنتجت القنابل الهيدروجينية التي تعد قنبلتا هيروشيما وناجازاكي بالقياس إليها لعبة أطفال!

وبهذه المناسبة نذكر أن قنبلة هيروشيما قد قتلت لفورها من اليابانيين مَن يتراوح عددهم بين عشرة ومائتي ألف وأربعين ومائتي ألف. وذلك غير المُشوهين والمحروقين الذين ماتوا بعد ذلك. وهم يُعدون بعشرات الألوف!!

﴿يا أيها الناس عُلمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء﴾ . . يـذيعها سليمان ـ عليه السلام ـ في الناس تحدثاً بنعمة الله، وإظهاراً لفضله، لا مباهاة ولا تنفجاً على الناس. ويُعقِّب عليها **﴿إن هذا لهو الفضل المبين﴾** فضل الله الكاشف عن مصدره، الدال على صاحبه. فما يملك تعليم منطق الطير لبشر إلا الله. وكذلك لا يُؤتي أحداً من كل شيء ـ بهذا التعميم ـ إلا الله.

وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم ـ هي لغاتها ومنطقها ـ فيما بينها. والله سبحانه خالق هذه العوالم يقول: **﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾** [الأنعام: ٣٨] ولا تكون أُمماً حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها. وذلك ملحوظ في حياة أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات.

ويجتهد علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن لا عن الجزم واليقين.

فأما ما وَهَبه الله لسليمان ـ عليه السلام ـ فكان شأناً خاصاً به على طريق الخارقة التي تخالف مألوف البشر. لا على طريق المحاولة منه والاجتهاد لتفَهُّم وسائل الطير وغيره في التفاهم، على طريق الظن والحدس، كما هو حال العلماء اليوم . . .

أُحب أن يتأكد هذا المعنى ويتضح لأن بعض المفسرين المحدثين ممن تبهرهم انتصارات العلم الحديث يحاولون تفسير ما قَصّهُ القرآن عن سليمان ـ عليه السلام ـ في هذا الشأن بأنه نوع من إدراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثة. وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشري القليل!

وأهون شيء على الله، أن يُعلّم عبداً من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات، هِبة لدنية منه، بلا محاولة ولا اجتهاد. وإن هي إلا إزاحة لحواجز النوع التي أقامها الله بين الأنواع. وهو خالق هذه الأنواع!

على أن هذا كله لم يكن إلا شقاً واحداً للخارقة التي أتاحها الله لعبده سليمان. أما الشق الآخر فكان تسخير طائفة من الجن والطير لتكون تحت إمرته، وطَوع أَمْره، كجنوده من الإنس سواء بسواء. والطائفة التي سخرها له من الطير وَهَبها إدراكاً خاصاً أعلى من إدراك نظائرها في أمة الطير.

يبدو ذلك في قصة الهدهد الذي أدرك من أحوال ملكة سبأ وقومها ما يدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم. وكان ذلك كذلك على طريق الخارقة والإعجاز..

حقيقة إن سنّة الله في الخلق جرت على أن يكون للطير إدراك خاص يتفاوت فيما بينه، ولكنه لا يصل إلى مستوى إدراك الإنسان؛ وإن خلقة الطير على هذا النحو حلقة في سلسلة التناسق الكوني العام. وإنها خاضعة ـ كحلقة مفردة ـ للناموس العام، الذي يقتضي وجودها على النحو الذي وُجدت به.

وحقيقة إن الهدهد الذي يولد اليوم، هو نسخة من الهدهد الذي وُجد منذ ألوف أو ملايين من السنين، منذ أن وُجدت الهداهد. وإن هناك عوامل وراثة خاصة تجعل منه نسخة تكاد تكون طبق الأصل من الهدهد الأول. ومهما بلغ التحوير فيه، فهو لا يخرج من نوعه، ليرتقي إلى نوع آخر.. وإن هذا ـ كما يبدو ـ طرف من سنّة الله في الخلق، ومن الناموس العام المنسق للكون.

ولكن هاتين الحقيقتين الثابتتين لا تمنعان أن تقع الخارقة عندما يريدها الله خالق السنن والنواميس. وقد تكون الخارقة ذاتها جزءاً من الناموس العام، الذي لا نعرف أطرافه. جزءاً يظهر في موعده الذي لا يعلمه إلا الله، يخرق المألوف المعهود للبشر، ويكمل ناموس الله في الخلق والتناسق العام. وهكذا وُجد هدهد سليمان، وربما كل الطائفة من الطير التي سُخرت له في ذلك الزمان.

ونعود من هذا الاستطراد إلى تفصيل قصة سليمان بعد وراثته لداود وإعلانه ما حَباه الله به من علم وتمكين وإفضال..

﴿وحُشِرَ لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون﴾ [النمل: ١٧].

فهذا هو موكب سليمان محشود محشور. يتألف من الجن والإنس والطير. والإنس معروفون، أما الجن فهم خَلْق لا نعرف عنهم إلا ما قَصّه الله علينا من أمرهم في القرآن. وهو أنه خَلَقَهم من مارج من نار. أي من لهيب مُتَمَوّج من النار، وأنّهم يَرون البشر والبشر لا يرونهم ﴿إنه يراكم هو وقَبيله من حيث لا ترونهم﴾ [الأعراف: ٢٧] (الكلام عن إبليس أو الشيطان وإبليس من الجن)، وأنهم قادرون على الوسوسة في صدور الناس بالشر عادة والإيحاء لهم بالمعصية ـ ولا ندري كيف ـ، وأن منهم طائفة آمنت برسول الله ـ ﷺ ـ ولم يَرَهم هو أو يعرف منهم إيمانهم ولكن أخبره الله بذلك إخباراً: ﴿قل أُوحي إليَّ أنه اجتمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً، يهدي إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحداً. .﴾ [الجن: ١، ٢]، ونعرف أن الله سَخَّر طائفة منهم لسليمان يبنون له المحاريب والتماثيل والجفان الكبيرة للطعام، ويغوصون له في البحر، ويأتمرون بأمره بإذن الله. ومنهم هؤلاء الذين يظهرون هنا في موكبه مع إخوانهم من الإنس والطير.

ونقول: إن الله سخر لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير كما سخر له طائفة من الإنس. وكما أنه لم يكن كل أهل الأرض من الإنس جُنداً لسليمان ـ إذ أن مُلكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسورية والعراق إلى ضفة الفرات ـ فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مُسَخّرين له، إنما كانت طائفة من كل أُمة على السواء.

ونستند في مسألة الجن إلى أن إبليس وذريته من الجن كما قال القرآن. . ﴿إن إبليس كان من الجن﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال في سورة «الناس»: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس من الجِنة والناس﴾ [الناس: ٥، ٦] وهؤلاء كانوا يزاولون الإغواء والشر والوسوسة للبشر في عهد سليمان. وما كانوا ليزاولوا هذا وهم مسخرون له مُقَيّدون بأمره. وهو نبي يدعو إلى الهدى.

فالمفهوم إذن أن طائفة من الجن هي التي كانت مُسَخّرة له.

ونستند في مسألة الطير إلى أن سليمان حين تفقّد الطير علم بغيبة الهدهد. ولو كانت جميع الطيور مسخرة له، محشورة في موكبه، ومنها جميع الهداهد، ما استطاع أن يتبين غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد فضلاً على بلايين الطير. ولما قال: ما لي لا أرى الهدهد؟ فهو إذن هدهد خاص بشخصه وذاته، وقد يكون هو الذي سُخِّر لسليمان من أمة الهداهد، أو يكون صاحب النوبة في ذلك الموكب من المجموعة المحدودة العدد من جنسه. ويعين على هذا ما ظهر من أن ذلك الهدهد موهوب إدراكاً خاصاً ليس من نوع إدراك الهداهد ولا الطير بصفة عامة.

ولا بد أن هذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التي سُخّرت لسليمان. لا لجميع الهداهد وجميع الطيور. فإن نوع الإدراك الذي ظهر من ذلك الهدهد الخاص في مستوى يعادل مستوى العقلاء الأذكياء الأتقياء من الناس!

حُشِرَ لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير. وهو موكب عظيم، وحشد كبير، يجمع أوله على آخره ﴿**فهم يوزعون**﴾ [النمل: ١٧] حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى. فهو حشد عسكري مُنظَّم. يطلق عليه اصطلاح الجنود، إشارة إلى الحشد والتنظيم.

﴿**حتى إذا أتوا على وادي النمل. قالت نملة: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم، لا يَحْطِمَنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون**﴾ [النمل: ١٨].

لقد سار الموكب. موكب سليمان من الجن والإنس والطير. في ترتيب ونظام، ويجمع آخره على أوله، وتضم صفوفه، وتتلاءم خطاه. حتى إذا أتوا على واد كثير النمل، حتى لقد أضافه التعبير إلى النمل فسماه ﴿**وادي النمل**﴾ قالت نملة. لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح في الوادي ـ ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم، تتنوع فيها الوظائف، وتُؤدَّى كلها بنظام عجيب، يعجز البشر غالباً عن اتباع مثله، على ما أُوتوا من عقل راق وإدراك عال ـ قالت هذه النملة للنمل، بالوسيلة التي تتفاهم بها أمة النمل، وباللغة

المتعارفة بينها. قالت للنمل: ادخلوا مساكنكم - كي لا يُحَطِّمَنكم سليمان وجنوده. وهم لا يشعرون بكم.

فأدرك سليمان ما قالت النملة وهشّ له وانشرح صدره بإدراك ما قالت، وبِمَضْمون ما قالت. هش لما قالت لما يهشّ الكبير للصغير الذي يحاول النجاة من أذاه وهو لا يضمر أذاه. وانشرح صدره لإدراكه. فهي نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس لاستغلاق التفاهم بينها وقيام الحواجز. وانشرح صدره لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة هذا الإدراك، وأن يفهم عنها النمل فيطيع!

أدرك سليمان هذا ﴿فتبسّم ضاحكاً من قولها﴾ [النمل: ١٩].. وسرعان ما هَزَّته هذه المشاهدة، وردت قلبه إلى ربه الذي أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة؛ وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه؛ واتجه إلى ربه في إنابة يتوسل إليه:

﴿رَبِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي﴾ [النمل: ١٩]..

﴿رَبِّ﴾.. بهذا النداء القريب المباشر المتصل.. ﴿أوزعني﴾ اجمعني كلي. اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجناني وخواطري وخلجاتي، وكلماتي وعباراتي، وأعمالي وتوجهاتي. اجمعني كلي. اجمع طاقاتي كلها. أولها على آخرها وآخرها على أولها (وهو المدلول اللغوي لكلمة أوزعني) لتكون كلها في شكر نعمتك عليّ وعلى والديَّ..

وهذا التعبير يشي بنعمة الله التي مست قلب سليمان - عليه السلام - في تلك اللحظة ويظهر نوع تأثره، وقوة توجهه، وارتعاشة وجدانه، وهو يستشعر فضل الله الجزيل، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه، ويحس مَسّ النعمة والرحمة في ارتياع وابتهال.

﴿ربِ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي﴾..

﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾.. فالعمل الصالح هو كذلك فضل من الله يُوفَّق إليه مَن يشكر نعمته، وسليمان الشاكر الذي يستعين ربه ليجمعه ويقفه على شكر نعمته، يستعين ربه كذلك ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه. وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله.

﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ [النمل: ١٩]..

أدخلني برحمتك.. فهو يعلم أن الدخول في عباد الله الصالحين، رحمة من الله، تتدارك العبد فَتُوَفّقه إلى العمل الصالح، فيسلك في عداد الصالحين. يعلم هذا، فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين المُوفّقين السالكين في هذا الرعيل. يضرع إلى ربه وهو النبي الذي أنعم عليه وسخر له الجن والإنس والطير. غير آمن مكر الله ـ حتى بعد أن اصطفاه. خائفاً أن يُقصر به عمله، وأن يقصر به شكره.. وكذلك تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته والتشوق إلى رضاه ورحمته في اللحظة التي تتجلى فيها نعمته كما تجلت والنملة تقول وسليمان يدرك عنها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه.

ونقف هنا أمام خارقتين لا خارقة واحدة. خارقة إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها. وخارقة إدراك النملة أن هذا سليمان وجنوده.

فأما الأولى فهي مما علّمه الله لسليمان. وسليمان إنسان ونبي، فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية في مقالة النملة. فقد تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر؛ وأنهم يُحطِّمون النمل إذا داسوه. وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة. أما أن تدرك النملة أن هذه الشخوص هي وسليمان وجنوده، فتلك هي الخارقة الخاصة التي تخرج على المألوف. وتُحسب في عداد الخوارق في مثل هذه الحال.

سليمان وملكة سبأ:

والآن نأتي إلى قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ وهي مُقَطَّعة إلى ستة مشاهد، بينها فجوات فنية، تُدْرَك من المشاهد المعروضة، وتُكمل جمال

العرض الفني في القصة، وتتخللها تعقيبات على بعض المشاهد تحمل التوجيه الوجداني؛ وتُحقق العبرة التي من أجلها يُساق القصص في القرآن الكريم. وتتناسق التعقيبات مع المشاهد والفجوات تنسيقاً بديعاً، من الناحيتين: الفنية الجمالية، والدينية الوجدانية.

ولما كان افتتاح الحديث عن سليمان قد تضمن الإشارة إلى الجن والإنس والطير، كما تضمن الإشارة إلى نعمة العلم، فإن القصة تحتوي دَوراً لكل من الجن والإنس والطير.

ويبرز فيها دور العلم كذلك. وكأنما كانت تلك المقدمة إشارة إلى أصحاب الأدوار الرئيسية.. وهذه سمة فنية دقيقة في القصص القرآني.

كذلك تتضح السمات الشخصية والمعالم المميزة لشخصيات القصة: شخصية سليمان، وشخصية الملكة، وشخصية الهدهد، وشخصية حاشية الملكة. كما تعرض الانفعالات النفسية لهذه الشخصيات في شتى مشاهد القصة ومواقفها.

يبدأ المشهد الأول في مشهد العَرْض العسكري العام لسليمان وجنوده، بعدما أَتوا على وادي النمل، وبعد مقالة النملة، وتَوجُّه سليمان إلى ربه بالشكر والدعاء والإنابة:

﴿وتَفَقَّد الطير فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ أم كان من الغائبين؟ لأُعذِّبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه، أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ [النمل: ٢٠، ٢١].

فها هو ذا الملك النبي. سليمان. في موكبه الفخم الضخم. ها هو ذا يتفقد الطير فلا يجد الهدهد. ونفهم من هذا أنه هدهد خاص، معين في نوبته في هذا العرض. وليس هدهداً ما من تلك الألوف أو الملايين التي تحويها الأرض من أُمة الهداهد.

كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته: سمة

اليقظة والدقة والحزم. فهو لم يغفل عن غيبة جندي من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير، الذي يجمع آخره على أوله كي لا يتفرق وينتكث.

وهو يسأل عنه في صيغة مُترفعة مرنة جامعة: **﴿ما لي لا أرى الهدهد؟ أم كان من الغائبين؟﴾**.

ويتضح أنه غائب، ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن! وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم، كي لا تكون فوضى. فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سراً. وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند. ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف: **﴿لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه﴾**.. ولكن سليمان ليس ملكاً جباراً في الأرض، إنما هو نبي. وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاءً نهائياً قبلٍ أن يسمع منه، ويتبين عذره.. ومن ثم تبرز سمة النبي العادل: **﴿أو لَيأْتيني بسلطان مبين﴾** [النمل: ٢١] أي حجة قوية توضح عنده، وتنفي المؤاخذة عنه.

ويسدل الستار على المشهد الأول في القصة (أو لعله كان ما يزال قائماً) ويحضر الهدهد. ومعه نبأ عظيم، بل مفاجأة ضخمة لسليمان، ولنا نحن الذين نشهد أحداث الرواية الآن!

﴿فمكث غير بعيد فقال: أحطت بما لم تُحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إني وجدت امرأة تملكهم، وأُوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم، فصدهم عن السبيل، فهم لا يهتدون ألَّا يسجدوا للّه الذي يُخرج الخبء في السموات والأرض..﴾ [النمل: ٢٤ ـ ٢٦]..

إنه يعرف حَزم الملك وشدته. فهو يبدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته، وتضمن إصغاء المَلِك له: **﴿أحطت بما لم تُحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين﴾**.. فأي ملك لا يستمع وأحد رعاياه يقول له: **﴿أَحطُّ بما لم تُحط به﴾**؟!

فإذا ضمن إصغاء الملك بعد هذه المفاجأة أخذ في تفصيل النبأ اليقين الذي جاء به من سبأ ـ ومملكة سبأ تقع في جنوب الجزيرة باليمن ـ فذكر أنه وَجَدهم تحكمهم امرأة، ﴿**أُوتيت من كل شيء**﴾ وهي كناية عن عَظمة مُلكها وتراثها وتوافر أسباب الحضارة والقوة والمتاع. ﴿**ولها عرش عظيم**﴾. أي سرير مُلك فخم ضخم، يدل على الغنى والترف وارتقاء الصناعة.

وذكر أنه وجد الملكة وقومها ﴿**يسجدون للشمس من دون الله**﴾ وهنا يعلل ضلال القوم بأن الشيطان زَيَّن لهم أعمالهم، فأضلّهم، فهم لا يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير ﴿**الذي يُخرج الخبء في السماوات والأرض**﴾.

والخبء: المخبوء إجمالاً سواء أكان هو مطر السماء ونبات الأرض، أم كان هو أسرار السماوات والأرض. وهي كناية عن كل مخبوء وراء ستار الغيب في الكون العريض. ﴿**ويعلم ما تخفون وما تعلنون**﴾ وهي مقابلة للخبء في السماوات والأرض بالخبء في أطواء النفس. ما ظهر منه وما بطن.

والهدهد إلى هذه اللحظة يقف موقف المذنب، الذي لم يقضِ المَلك في أَمْرِه بعد؛ فهو يُلَمّح في ختام النبأ الذي يقصه، إلى الله الملك القهّار، ربّ الجميع، صاحب العرش العظيم، الذي لا تُقاس إليه عروش البشر. ذلك كي يُطامن الملك من عظمته الإنسانية أمام هذه العظمة الإلهية: ﴿**الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم**﴾ [النمل: ٢٦]..

فيلمس قلب سليمان ـ في سياق التعقيب على صنع الملكة وقومها ـ بهذه الإشارة الخفية!

ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب. صاحب إدراك وذكاء وإيمان، وبراعة في عرض النبأ، ويقظة إلى طبيعة موقفه، وتلميح وإيماء أريب.. فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية. ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله. ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض، وأنه هو رب العرش العظيم.. وما هكذا تُدرك الهداهد. إنما هو هدهد خاص أُوتي هذا الإدراك الخاص، على سبيل الخارقة التي تخالف المألوف.

والذي أغاظ الهدهد وأساءه هو الانحراف عن الفطرة التي لا بد لها أن تتجه إلى خالقها وبارئها، تسجد له وحده فهو الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، خالق كل شيء، والعليم بكل شيء، العليم بالمخبوء المستور كعلمه بالمكشوف المفتوح. إنه التوحيد الناصع المبين. . فما أعظمه من درس! وما أجلَّها من عِبرة!

﴿الذي يُخرج الخبء في السموات والأرض﴾. . ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾. . ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾. .

إن هذه الكلمات الموحية ترسم صورة حيّة، تمسّ أوتار القلوب. . إنه تقرير علم الله الشامل لما في السموات وما في الأرض على إطلاقه، يدع القلب في سكون وهيبة أمام علم الله المحيط بكل شيء في هذا المدى الوسيع المتطاول. من صغير وكبير، وخافٍ وظاهر، ومعلوم ومجهول. .

إنها الحقيقة التي تُصورها الكلمات عن العلم الإلهي تهزّ القلوب وتمس الوجدان فترتعش وتخشع، فهي مأخوذة ومكشوفة للعليم الخبير. . كل هذا يقوله هُدهُد في ثنايا القصة، ليهتدي الآدميون بِهُداه فيما يقول. .

لمسة تُرجف وتزلزل، والقلب يتملاها، وهو في علم الله واطلاعه. فهو سبحانه شاهد حاضر وهو بكل شيء عليم. . وبذلك تستقر حقيقة العلم الإلهي في القلوب. .

لقد أنكر الهدهد مسلك القوم الذين يسجدون لغير الله، وتحدث عن الخبء بصفة خاصة وهو الموكل بفطرته بالبحث بمنقاره عن طعامه المخبوء في الأرض. فتكون لَفْتَتُهُ هذه أنسب شيء لطبيعته!

وإنه حتى الآن لفي موقف المذنب، فالملك لم يَردّ عليه بعد. .

ولا يتسرع سليمان في تصديقه أو تكذيبه؛ ولا يستخفه النبأ العظيم الذي جاءه به. إنما يأخذ في تجربته، للتأكد من صحته. شأن النبي العادل والملك الحازم: **﴿قال: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي**

هذا فألقه إليهم، ثم تولّ عنهم، فانظر ماذا يرجعون﴾ [النمل: ٢٧، ٢٨].

ولا يُعلن في هذا الموقف فَحوى الكتاب، فيظل ما فيه مغلقاً كالكتاب نفسه، حين يفتح ويعلن هناك. وتُعرض المفاجأة الفنية في موعدها المناسب! ويسدل الستار على هذا المشهد ليرفع فإذا الملكة قد وصل إليها الكتاب، وهي تستشير الملأ من قومها في هذا الأمر الخطير:

﴿قالت: يا أيها الملأ إني أُلقي إلي كتاب كريم. إنه من سليمان، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألاّ تعلوعلي وأتوني مسلمين﴾[النمل: ٢٩ - ٣١].

فهي تُخبرهم أنه أُلقي إليها كتاب. ومن هذا نرجح أنها لم تعلم مَن أَلقى إليها الكتاب، ولا كيف ألقاه. ولو كانت تعرف أن الهدهد هو الذي جاء به ـ كما تقول التفاسير ـ لأعلنت هذه العجيبة التي لا تقع كل يوم. ولكنها قالت بصيغة المجهول. مما يجعلنا نُرجح أنها لم تعلم كيف أُلقي إليها ولا مَن ألقاه.

وهي تَصف الكتاب بأنه **﴿كريم﴾** وهذا الوصف ربما خطر لها من خاتمه أو شكله. أو من محتوياته التي أعلنت عنها للملأ: **﴿إنه من سليمان، وإنه باسم الله الرحمٰن الرحيم، ألا تَعلوا علي وأتوني مسلمين﴾**..

وهي كانت لا تعبد الله. ولكن صِيت سليمان كان ذائعاً في هذه الرقعة، ولغة الكتاب التي يحكيها القرآن فيها استعلاء وحَزم وجَزم. مما قد يوحي إليها بهذا الوصف الذي أعلنته.

وفحوى الكتاب في غاية البساطة والقوة. فهو مبدوء باسم الله الرحمٰن الرحيم. ومطلوب فيه أمر واحد: ألا يستكبروا على مُرسله ويَستعصوا، وأن يأتوا إليه مُستسلمين للّه الذي يخاطبهم باسمه.

ألقت الملكة إلى الملأ من قومها بفحوى الكتاب؛ ثم استأنفت

الحديث تطلب مشورتهم، وتعلن إليهم أنها لن تقطع في الأمر إلا بعد هذه المشورة، برضاهم وموافقتهم:

﴿قالت: يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ [النمل: ٣٢]..

وفي هذا تبدو سمة الملكة الأريبة؛ فواضح منذ اللحظة الأولى أنها أخذت بهذا الكتاب الذي أُلقي إليها من حيث لا تعلم، والذي يبدو فيه الحزم والاستعلاء. وقد نقلت هذا الأثر إلى نفوس الملأ من قومها وهي تصف الكتاب بأنه **﴿كريم﴾** وواضح أنها لا تريد المقاومة والخصومة، ولكنها لا تقول هذا صراحة، إنما تُمَهّد له بذلك الوصف. ثم تطلب الرأي بعد ذلك والمشورة!

وعلى عادة رجال الحاشية أَبدوا استعدادهم للعمل. ولكنهم فَوّضوا للملكة الرأي: **﴿قالوا: نحن أُولو قوة وأُولو بأس شديد. والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾** [النمل: ٣٣].

وهنا تظهر شخصية «المرأة» من وراء شخصية الملكة. المرأة التي تكره الحروب والتدمير، والتي تنضي سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضي سلاح القوة والمخاشنة: **﴿قالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أَعِزّة أهلها أَذِلّة وكذلك يَفعلون. وإني مُرسلة إليهم بهدية فناظرة بمَ يرجع المرسلون﴾**! [النمل: ٣٤، ٣٥]..

فهي تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية (والقرية تُطلق على المدينة الكبيرة) أشاعوا فيها الفساد، وأباحوا ذمارها، وانتهكوا حرماتها، وحطموا القوة المدافعة عنها، وعلى رأسها رؤساؤها؛ وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة. وأن هذا هو دأبهم الذي يفعلونه.

والهدية تُلَيّن القلب، وتعلن الودّ، وقد تُفلح في دفع القتال. وهي تجربة. فإن قَبِلَها سليمان فهو إذن أَمر الدنيا، ووسائل الدنيا إذن تجدي.

وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة، الذي لا يصرفه عنه مال، ولا عَرَض من أعراض هذه الأرض.

ويسدل الستار على المشهد، ليرفع، فإذا مشهد رُسل الملكة وهديتهم أمام سليمان. وإذا سليمان يُنكر عليهم اتجاههم إلى شرائه بالمال، أو تحويله عن دعوتهم إلى الإسلام. ويعلن في قوة وإصرار تهديده ووعيده الأخير.

﴿فلما جاء سليمان قال: أتمدونن بمال؟ فما آتاني الله خير مما آتاكم. بل أنتم بهديتكم تفرحون. ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧]..

وفي الرد استهزاء بالمال، واستنكار للاتجاه إليه في مجال غير مجاله. مجال العقيدة والدعوة: **﴿أَتمدونَنِ بمال؟﴾** أتقدمون لي هذا العرض التافه الرخيص؟ **﴿فما آتاني الله خيرٌ مما آتاكم﴾** لقد آتاني من المال خيراً مما لديكم. وقد آتاني ما هو خير من المال على الإطلاق: العلم. والنبوة. وتسخير الجن والطير، فما عاد شيء من عَرَض الأرض يُفرحني **﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾**. وتهشّون لهذا النوع من القيم الرخيصة التي تعني أهل الأرض، الذين لا يتصلون بالله، ولا يتلقون هُداه!

ثم يتبع هذا الاستنكار بالتهديد: **﴿ارجع إليهم﴾** بالهدية وانتظروا المصير المرهوب: **﴿فلنأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها﴾** جنود لم تُسَخّر للبشر في أي مكان، ولا طاقة للملكة وقومها بهم في نِضال: **﴿ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾** مدحورون مهزومون.

ويسدل الستار على هذا المشهد العنيف وينصرف الرسل، ويدَعَهم السياق لا يشير إليهم بكلمة كأنما قُضي الأمر، وانتهى الكلام في هذا الشأن.

ثم إذا سليمان ـ عليه السلام ـ يُدرك أن هذا الردّ سينهي الأمر مع

مَلِكَة لا تريد العداء ـ كما يبدو من طريقتها في مقابلة رسالته القوية بهدية! ـ ويُرجّح أنها ستجيب دعوته. أو يُؤَكّد. وقد كان.

ولكن السياق لا يذكر كيف عاد رسلها إليها، ولا ماذا قالوا لها، ولا ماذا اعتزمت بعدها. إنما يترك فجوة نعلم مما بعدها أنها قادمة، وأن سُليمان يعرف هذا، وأنه يتذاكر مع جنوده في استحضار عرشها، الذي خَلَّفته في بلادها محروساً مصوناً:

﴿قال: يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟ قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك. وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده عِلْم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠]..

ترى ما الذي قَصد إليه سليمان ـ عليه السلام ـ من استحضار عرشها قبل مجيئها مُسلمة مع قومها؟ نرجح أن هذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التي تُؤيده، لتؤثر في قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله، والإذعان لدعوته.

وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هذه. وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح إلى الظهر فيما يُروَى. فاسْتَطْوَل سليمان هذه الفترة واستبطأها ـ فيما يبدو ـ فإذا **﴿الذي عنده علم من الكتاب﴾** يعرض أن يأتي به في غمضة عين قبل أن يرتدّ إليه طرفه، ولا يذكر اسمه، ولا الكتاب الذي عنده علم منه. إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال بالله، موهوب سراً من الله يستمد به من القوة الكبرى التي لا تقف لها الحواجز والأبعاد. وهو أمر يشاهد أحياناً على أيدي بعض المُتَصلين، ولم يكشف سرّه ولا تعليله، لأنه خارج عن مألوف البشر في حياتهم العادية. وهذا أقصى ما يقال في الدائرة المأمونة التي لا تخرج إلى عالم الأساطير والخرافات!

ولقد جرى بعض المفسرين وراء قوله: **﴿عنده علم من الكتاب﴾**

فقال بعضهم: إنه التوراة. وقال بعضهم: إنه كان يعرف اسم الله الأعظم. وقال بعضهم غير هذا وذاك. وليس فيما قيل تفسير ولا تعليل مُسْتَيقن. والأمر أيسر من هذا كله حين ننظر إليه بمنظار الواقع، فكم في هذا الكون من أسرار لا نعلمها، وكم فيه من قوى لا نستخدمها. وكم في النفس البشرية من أسرار كذلك وقوى لا نهتدي إليها. فحيثما أراد الله هدى مَن يريد إلى أحد هذه الأسرار وإلى واحدة من هذه القوى فجاءت الخارقة التي لا تقع في مألوف الحياة، وجرت بإذن الله وتدبيره وتسخيره، حيث لا يملك مَن لم يرد الله أن يجريها على يديه أن يجريها.

وهذا الذي عنده علم من الكتاب، كانت نفسه مهيأة بسبب ما عنده من العلم، أن تتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التي تتم بها تلك الخارقة التي تمت على يده، لأن ما عنده من علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يُهَيئه للتلقي، ولاستخدام ما وَهَبه الله من قوى وأسرار.

وقد ذكر بعض المفسرين أنه هو سليمان نفسه ـ عليه السلام ـ ونحن نُرجّح أنه غيره[1]. فلو كان هو لأظهره السياق باسمه. ولما أخفاه.

(١) في «القصص القرآني»: «والذي نرجحه ـ والله أعلم ـ أنه سليمان نفسه ويكون معنى الآية حينئذ أن سليمان قال للعفريت من الجن إذا كنت تأتي به وكان إتيانك به يحتاج إلى هذه المدة وهي نصف النهار فأنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك، ونستدل لهذا بما يلي:

١ ـ إن سليمان نبي، وهو الذي مَنَّ الله عليه فقال ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً﴾ ولا يعقل أن يكون أحداً من الناس أكثر علماً من نبي.

٢ ـ كان ذلك من قبيل المعجزة لسليمان ـ عليه السلام ـ.

٣ ـ قوله ـ فيما بعد ـ كما قصَّ الكتاب الكريم ﴿فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومَن شكر فإنما يشكر لنفسه ومَن كَفَر فإن ربي غني كريم﴾ فيشكر الله على المنّة التي أكرمه الله بها». .

نعود القول ونُرجح أنه غير سليمان ـ عليه السلام ـ فالرأي أنه لا يعقل أن يكون أحداً من الناس أكثر علماً من نبي، فقصة موسى والرجل الصالح تظهر بوضوح أمراً عجباً ﴿فارتدا على آثارهما قصصاً فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنك علماً. قال له موسى: هل أتبعك على أن تُعلمن مما عُلمتَ رُشداً. . .﴾ انظر تفصيل القصة في هذا الكتاب.

حضورها ـ وهذه طريقة أخرى في الأداء القرآني في القصة غير الطريقة الأولى[1]:

﴿قيل لها: ادخلي الصرح. فلما رأته حسبته لُجة وكشفت عن ساقيها! قال: إنه صَرح مُمرد من قوارير! قالت: ربِّ إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان للّه رب العالمين﴾ [النمل: ٤٤]..

لقد كانت المفاجأة قَصراً من البلُّور، أقيمت أرضيته فوق الماء، وظهر كأنه لُجّة. فلما قيل لها: ادخلي الصَّرح، حسبت أنها ستخوض تلك اللُّجة. فَكَشَفت عن ساقيها؟ فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرّها: ﴿قال: إنه صَرح مُمَرّد من قوارير﴾!

ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائب التي تُعجز البشر، وتدل على أن سليمان مُسخَّر له قوى أكبر من طاقة البشر. فرجعت إلى الله، وناجته مُعترفة بظلمها لنفسها فيما سَلف من عبادة غيره. مُعلنة إسلامها «مع سليمان» لا لسليمان. ولكن «للّه رب العالمين».

لقد اهتدى قلبها واستنار. فعرفت أن الإسلام للّه ليس استسلاماً

---

(١) فالقصة تبقي الصَّرح سرّاً ـ حتى عَنَّا نحن النظَّارة ـ لتفاجئنا به مع بلقيس في المشهد الأخير، حيث تتم المفاجأة الثانية للملكة ولنا معها ﴿قيل لها ادخلي الصَّرح. فلما رأته حسبته لجَّة وكشفت عن ساقيها قال: إنه صرح مُمرَّد من قوارير! قالت: رب إني ظلمت نفسي. وأسلمتُ مع سليمان للّه رب العالمين﴾..

وهكذا كانت الملكة «امرأة كاملة»: تتقي الحرب والتدمير، وتستخدم الحيلة والملاطفة، بدل المجاهرة والمخاشنة، ثم لا تُسلم لأول وهلة. فالمفاجأة الأولى تمرّ فلا تُسلم، فإذا بهرتها المفاجأة الثانية، ألقت السلاح، واستسلمت في اطمئنان بعد الحَذر الأصيل في طبيعة المرأة، والتردد الخالد في نفس حواء!

وهنا يسدل الستار. فما في القصة من الوجهة الدينية، ولا من الوجهة الفنية زيادة المستزيد، إلا أن يحاول عُقداً أخرى فنية بحتة، لا تتصل بالغَرض الديني ولا تساوقه. وإنه لحسب قصة دينية وجهتها الدين وحده أن تبرز هذه الانفعالات النفسية، وأن ترسم هذه «النماذج الإنسانية»، وأن تعرضها هذا العرض، وتنسقها ذلك التنسيق.

لأحد من خلقه، ولو كان هو سليمان النبي الملك صاحب هذه المعجزات. إنما الإسلام إسلام للّه رب العالمين. ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنّة المساواة.. ﴿**وأسلمت مع سليمان للّه رب العالمين**﴾.

وسَجَّل السياق القرآني هذه اللفتة، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله، والإسلام له. فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين. بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين. لا غالب منهما ولا مغلوب وهما أخوان في الله.. رب العالمين.. على قَدَم المساواة.

ولقد كان كبراء قريش يستعصون على دعوة الرسول ـ ﷺ ـ إياهم إلى الإسلام. وفي نفوسهم الكِبَر أن ينقادوا إلى محمد بن عبد الله، فتكون له الرياسة عليهم والاستعلاء. فها هي ذي امرأة في التاريخ تُعلّمهم أن الإسلام للّه يسوي بين الداعي والمدعوين. بين القائد والتابعين. فإنما يُسْلِمون مع رسول الله رب العالمين!

من فضل الله ونعمته:

ويمضي القرآن في ذكر فَضْل الله ونعمته على سليمان فقد آتاه الله أفضالاً كثيرة، فقد سخَّر له الريح غُدوّها شهر ورَواحها شهر، وأَسال له معدن النحاس، كما سخّر له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه..

﴿**ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها؛ وكُنا بكل شيء عالمين. ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك. وكنا لهم حافظين**﴾ [الأنبياء: ٨١، ٨٢]..

وتدور حول سليمان روايات وتصورات وأقاويل معظمها مُستمد من الإسرائيليات والتخيلات والأوهام.

وتسخير الريح تتكاثر حوله الروايات، وتبدو ظلال الإسرائيليات واضحة في تلك الروايات ـ وإن تكن كتب اليهود الأصلية لم تذكر شيئاً عنها ـ

والقصة عنه، ولا داعيٍ لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر. وبعضهم قال: إن اسمه آصف ابن برخيا ولا دليل عليه.

﴿فلما رآه مستقراً عنده قال: هذا من فضل ربي، ليبلوني أأشكر أم أكفر؟ ومَن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومَن كفر فإن ربي غني كريم﴾ [النمل: ٤٠].

لقد لمست هذه المفاجأة الضخمة قلب سليمان ـ عليه السلام ـ وراعه أن يُحقق الله له مطالبه على هذا النحو المُعجز؛ واستشعر أن النعمة ـ على هذا النحو ـ ابتلاء ضخم مخيف، يحتاج إلى يقظة منه ليجتازه، ويحتاج إلى عون من الله ليتقوى عليه؛ ويحتاج إلى معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم، ليعرف الله منه هذا الشعور فيتولاه. والله غني عن شكر الشاكرين، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، فينال من الله زيادة النعمة، وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء. ومَن كفر فإن الله **﴿غني﴾** عن الشكر **﴿كريم﴾** يعطي عن كرم لا عن ارتقاب للشكر على العطاء.

وبعد هذه الانتفاضة أمام النعمة والشعور بما وراءها من الابتلاء يمضي سليمان ـ عليه السلام ـ في تهيئة المفاجآت للمَلكة القادمة عما قليل:

﴿قال: نَكِّروا لها عرشها. نَنظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون﴾ [النمل: ٤١].

غَيّروا مَعالمه المُميزة له، لنعرف إن كانت فراستها وفطنتها تهتدي إليه بعد هذا التنكير. أم يلبس عليها الأمر فلا تنفذ إلى معرفته من وراء هذا التغيير.

ولعل هذا كان اختباراً من سليمان لذكائها وتصرفها، في أثناء مفاجأتها بعرشها. ثم إذا مشهد الملكة ساعة الحضور:

﴿فلما جاءت قيل: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو﴾ [النمل: ٤٢]. .

إنها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال. فأين عرشها في مملكتها، وعليها أقفالها وحُرّاسها. . أين هو من بيت المقدس مقر مُلك سليمان؟ وكيف جِيء به؟ ومَن ذا الذي جاء به؟

ولكن العرش عرشها من وراء هذا التغيير والتنكير!

ترى تنفي أنه هو بناء على تلك الملابسات؟ أم تراها تقول: إنه هو بناء على ما تراه فيه من أَمارات؟ وقد انتهت إلى جواب ذكي أريب: ﴿قالت: كأَنه هو﴾ لا تَنفي ولا تُثبت، وتدل على فراسة وبديهة في مواجهة المفاجأة العجيبة.

وهنا فجوة في السياق. فكأنما أُخبرت بسرّ المفاجأة. فقالت: إنها استعدت للتسليم والإسلام من قَبل. أي منذ اعتزمت القدوم على سليمان بعد رد الهدية.

﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾ [النمل: ٤٢]. .

ثم يتدخل السياق القرآني لبيان ما كان قد مَنَعها قبل ذلك من الإيمان بالله وصدها عن الإسلام عندما جاءها كتاب سليمان؛ فقد نشأت في قوم كافرين، فصدها عن عبادة الله عبادتها من دونه من خلقه، وهي الشمس كما جاء في أول القصة:

﴿وصدها ما كانت تعبد من دون الله. إنها كانت من قوم كافرين﴾ [النمل: ٤٣]. .

وكان سليمان ـ عليه السلام ـ قد أعدّ للملكة مفاجأة أخرى، لم يكشف السياق عنها بعد، كما كشف عن المفاجأة الأولى قبل ذكر ولكن لا نضلّ في هذا التيه، والتحرج من الخوض في تلك الروايات أَوْلى. والاكتفاء بالنص القرآني أسلم. فإننا نقف عند حدود النصوص القرآنية،

فليس وراءها أثر مستيقن في قصة سليمان بالذات.

ونقف عند ظاهر الألفاظ القرآنية لا نتعداه. والنص القرآني هنا يقرر تسخير الريح ـ وهي عاصفة ـ لسليمان، تجري بأمْره إلى الأرض التي باركنا فيها وهي في الغالب الشام لسبق الإشارة إليها بهذه الصفة في قصة إبراهيم.. فكيف كان هذا التسخير؟

هنالك قصة بساط الريح الذي قيل: إن سليمان كان يجلس عليه هو وحاشيته فيطير إلى الشام في فترة وجيزة. وهي مسافة كانت تُقطع في شهر على الجمال. ثم يعود كذلك.. وتستند هذه الرواية إلى ما ورد في سورة «سبأ» من قوله: ﴿**ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر**﴾ [سبأ: ١٢]..

ولكن القرآن لم يذكر شيئاً عن بساط الريح ذاك؛ ولم يرد ذكره كذلك في أي أَثَر مُستيقن. فليس لنا ما نستند عليه لنقرر مسألة البساط.

والأسلم إذن أن نفسر تسخير الريح بتوجيهها ـ بأمر الله إلى الأرض المباركة في دورة تستغرق شهراً طرداً وعكساً.. فقد سخر الله الريح لسليمان، وجعل غُدوها أي توجهها غادية إلى بقعة معينة يستغرق شهراً، ورواحها أي انعكاس اتجاهها في الرواح يستغرق شهراً كذلك. وفق مصلحة تحصل من غُدوها ورَواحها، يدركها سليمان ـ عليه السلام ـ ويُحققها بأمر الله.. ولا نملك أن نزيد هذا إيضاحاً حتى لا ندخل في أساطير لا ضابط لها ولا تحقيق.

وتسخير الريح لسليمان في دورة ﴿**غُدوّها شهر ورواحها شهر**﴾.. كيف؟ لقد قلنا: إن القُدرة الإلهية الطليقة لا تُسأل كيف؟ فَخَلْق النواميس وتوجيهها هو من اختصاص تلك القدرة الطليقة. والمعلوم للبشر من نواميس الوجود قليل. ولا يمتنع أن تكون هناك نواميس أخرى خَفية على البشر تعمل، وتظهر آثارها عندما يُؤْذَن لها بالظهور: ﴿**وكُنّا بكل شيء عالمين**﴾.. العلم المطلق لا كعلم البشر المحدود.

وتسخير الريح لِعَبد من عباد الله بإذن الله لا يخرج في طبيعته عن تسخير الريح لإرادة الله، وهي مُسخّرة لإرادته تعالى ولا شك، تجري بأمره وفق

نواميسه. . ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب. والشياطين كل بنّاء وغوّاص. وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ [ص: ٣٦ ـ ٣٨]. . فإذا يسَّر الله لعبد من عباده في فترة من الفترات أن يُعبِّر عن إرادة الله سبحانه وأن يوافق أمره أمر الله فيها؛ وأن تجري الريح رُخاء حيث أراد؛ فذلك أمر ليس على الله بِمُسْتَبعد. ومثله يقع في صُور شتى. والله سبحانه يقول في القرآن للرسول ـ ﷺ ـ ﴿لئن لم ينتهِ المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنُغرينّك بهم، ثم لا يُجاورونك فيها إلا قليلاً﴾ [الأحزاب: ٦٠].

فما معنى هذا؟ معناه إذا لم ينتهوا فَسَتَتجه إرادتنا إلى تسليطك عليهم وإخراجهم من المدينة. وسيتم هذا بتوجيه إرادتك أنت ورغبتك إلى قتالهم وإخراجهم؛ فَتَتِمّ إرادتنا بهم عن طريقك. فهذا لون من توافق أمر الله سبحانه وأمر النبي ـ ﷺ ـ وإرادة الله وأمره هما الأصيلان. وهما يتجليان في إرادة الرسول وأمره وفق ما أراده الله. وهذا ما يُقرّب إلينا معنى تسخير الريح لأمر سليمان ـ عليه السلام ـ تسخيرها لأمره المطابق لأمر الله في توجيه هذه الرياح، المُمثل لأمر الله المعبر عنه على كل حال.

وعند هذا الحد المأمون نقف في ظلال النصوص. فلا نَسبح في الإسرائيليات.

﴿وأَسَلْنا له عَين القطر﴾.

والقطر النحاس، وسياق الآيات يشير إلى أن هذا كان معجزة خارقة كَإلاَنة الحديد لداود. وقد يكون ذلك بأن فجَّر له عيناً بُركانية من النحاس المذاب من الأرض. أو بأَن أَلْهَمه الله إذابة النحاس حتى يسيل ويصبح قابلاً للصبّ والطرق. وهو فضل من الله كبير. .

وكذلك تسخير الجن لسليمان ـ عليه السلام ـ لتبني له ما يشاء؛ وتغوص له في البحر والأرض في طلب ما يشاء، يغوصوا في أعماق البحر أو أعماق اليابسة. ويستخرجوا كنوزها المخبوءة لسليمان؛ أو ليعملوا له أعمالاً غير هذا وذاك. فالجنّ كل ما خَفي، وكل مستور لا يراه البشر، وقد قررت النصوص

القرآنية أن هناك خَلقاً يُسمّون الجن خافين علينا، فمن هؤلاء سخّر الله لسليمان مَن يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك. وحفظهم فلا يهربون ولا يفسدون ولا يخرجون على طاعة عبده. وهو القاهر فوق عباده يُسخّرهم حين يشاء كيف يشاء. وأعطاه الله السلطة لعقاب المخالفين والمُفسدين ممن سَخّرهم له وتَكْبِيلهم بالأصفاد مقرونة أيديهم إلى أرجلهم. أو مُقَرّنين اثنين اثنين أو أكثر في القيود عند الاقتضاء ﴿**والشياطين كل بنّاء وغوّاص. وآخرين مُقرَّنين في الأصفاد**﴾ [صٓ: ٣٧، ٣٨]. .

وهكذا فقد سخر الله لسليمان طائفة من الجن، يعملون بأمره بإذن ربه ﴿**ومن الجن مَن يعمل بين يديه بإذن ربه ومَن يزغ منهم عن أمرنا نُذقه من عذاب السعير**﴾ [سبأ: ١٢]. فمَن عصى منهم ناله عذاب الله. .

ولعل هذا التعقيب ـ قبل الانتهاء من قضية التَسخير ـ يُذكر على هذا النحو لبيان خضوع الجن للّه. وكان بعض المشركين يَعبدهم من دون الله. وهم مِثْلهم مُعرّضون للعقاب عندما يَزيغون عن أمْر الله.

لقد سخَّرهم الله لإرادة سليمان ـ عليه السلام ـ ﴿**يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات**﴾ [سبأ: ١٣].

والمحاريب من أماكن العبادة، والتماثيل الصور من نحاس وخشب وغيره. والجوابي جمع جابية وهي الحوض الذي نجبي فيه الماء.

وقد كانت الجن تصنع لسليمان جفاناً كبيرة للطعام تشبه الجوابي، وتصنع له قدوراً ضخمة للطبخ راسية لضخامتها. .

وهذه كلها نماذج مما سخَّر الله الجنّ لسليمان لتقوم له به حيث شاء بإذن الله. وكلها أمور خارقة لا سبيل إلى تصورها أو تَعليلها إلا بأنها خارقة من صُنع الله. وهذا هو تفسيرها الوحيد.

ثم قيل له: إنك مُطْلَق اليد فيما وَهَب الله لك من سُلطة ونعمة. تُعطي مَن تشاء كيف تشاء. وتُمسك عمن تشاء قدر ما تشاء ﴿**هذا عطاؤنا فامنن أو**

أمسك بغير حساب﴾ [ص: ٣٩]. .

وذلك زيادة في الإكرام والمنّة. ثم زاد على هذا كله أن له عند ربّه قُربى في الدنيا وحسن مآب في الآخرة: ﴿**وإن له عندنا زُلفى وحسن مآب**﴾ [ص: ٤٠]. . وتلك درجة عظيمة من الرعاية والرضى والإنعام والتكريم.

ثم يُوجه الله سبحانه الخطاب إلى آل داود: ﴿**اعملوا آل داود شكراً**﴾ [سبأ: ١٣]. .

سخرنا لكم هذا وذلك في شخص داود وشخص سليمان ـ عليهما السلام ـ فاعملوا يا آل داود شكراً للّه. لا للتباهي والتعالي بما سَخّره الله. والعمل الصالح شكر للّه كبير!

﴿**وقليل من عبادي الشكور**﴾ [سبأ: ١٣]. .

تعقيب تقريري وتوجيهي من تعقيبات القرآن على القَصص. يكشف من جانب عن عظمة فضل الله ونعمته حتى ليقلّ القادرون على شكرها. ويكشف من جانب آخر عن تقصير البشر في شكر نعمة الله وفضله. وهم مهما بالغوا في الشكر قاصرون عن الوفاء. فكيف إذا قَصَّروا وغَفِلُوا عن الشكر من الأساس؟!

وماذا يملك المخلوق الإنساني المحدود الطاقة من الشكر على آلاء الله وهي غير محدودة؟. . وإن تَعدُّوا نِعمة الله لا تُحصوها. .

وهذه النعم تغمر الإنسان من فوقه ومن تَحت قدميه، وعن أيمانه وعن شمائله، وتكمن فيه هو ذاته وتفيض منه. وهو ذاته إحدى هذه الآلاء الضخام!

كنا نجلس جماعة نتحدث وتتجاوب أفكارنا وتتجاذب، وتنطلق ألسنتنا بكل ما يخطر لنا على بال. ذلك حينما جاء قطنا الصغير «سوسو» يدور هنا وهناك من حولنا، يبحث عن شيء، وكأنما يريد أن يطلب إلينا شيئاً، ولكنه لا يملك أن يقول؛ ولا نملك نحن أن نُدرك. حتى أَلهمنا الله أنه يطلب الماء.

وكان هذا. وكان في شدّة العطش. وهو لا يملك أن يقول ولا أن يشير.. وأدركنا في هذه اللحظة شيئاً من نعمة الله علينا بالنطق، واللسان، والإدراك والتدبير. وفاضت نفوسنا بالشكر لحظة.. وأين الشكر من ذلك الفيض الجزيل.

وكنا فترة طويلة محرومين من رؤية الشمس[1]. وكان شعاع منها لا يتجاوز حجمه حجم القرش ينفذ إلينا أحياناً. وإن أحدنا ليقف أمام هذا الشعاع يُمَرّره على وَجهه ويديه وصَدره وظَهره وبطنه وقدميه ما استطاع. ثم يُخلي مكانه لأخيه ينال من هذه النعمة ما نال! ولست أنسىٰ أول يوم بعد ذلك وَجْدنا فيه الشمس. لست أنسى الفرحة الغامرة والنشوة الظاهرة على وجه أحدنا، وفي جوارحه كلها، وهو يقول في نغمة عميقة مديدة.. الله! هذه هي الشمس. شمس ربنا وما تزال تطلع.. الحمد لله!

فكم نبعثر في كل يوم من هذه الأشعة المُحيية، ونحن نستحم في الضوء والدفء. ونَسبح ونَغرق في نعمة الله؟ وكم نشكر هذا الفيض الغامر المتاح المباح من غير ثمن ولا كد ولا معاناة؟!

وحين نمضي نستعرض آلاء الله على هذا النحو فإننا نُنفق العمر كله، ونبذل الجهد كله، ولا نبلغ من هذا شيئاً. فنكتفي إذن بهذه الإشارة الموحية، على طريقة القرآن في الإشارة والإيماء، ليتدبَّرها كل قلب، ويمضي على إثرها، قدر ما يوفقه الله لنعمة الشكر، وهي إحدى آلاء الله، يوفق إليها مَن يستحقها بالتوجُّه والتجرد والإخلاص..

لقد ابتلى الله داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ بالسراء. وفَتَنَهما في هذه النعمة. فَتَن داود في القضاء. وفَتَن سليمان بالخَيل الصافنات.. لقد صَبر داود، وصَبر سليمان للابتلاء بالنعمة ـ بعد الاستغفار من الفتنة ـ واجتازا الامتحان في النهاية بسلام؛ فكانا شاكرين لنعمة الله.

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٩٩.

﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً. وقالا: الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ [النمل: ١٥]..

وقد تقدّم تفصيل ما آتاه الله لداود من العلم.. منها تعليمه التَرتيل بمقاطع الزبور، ترتيلاً يتجاوب به الكون من حوله، فتؤوب الجبال معه والطير، لحلاوة صوته، وحَرارة نبراته، واستغراقه في مناجاة ربه، وتجرده من العوائق والحواجز التي تفصل بينه وبين ذرات هذا الوجود. ومنها تعليمه القضاء بين الناس، مما شاركه فيه سليمان، الذي آتاه الله أفضالاً كثيرة، تقدم ذكرها..

وهكذا تبرز صفة العلم في جوّ القصة تُظَلّلها بشتى الظلال في سياقها كله من المطلع إلى الختام..

ثم نمضي مع نصوص القصة القرآنية في المشهد الأخير منها. مشهد وفاة سليمان والجن ماضية تعمل بأمره فيما كلفها عمله؛ وهي لا تعلم نبأ موته، حتى يَدلّهم على ذلك أَكْلُ الأَرَضَة لِعَصاه، التي كان مُرتكزاً عليها، وسقوطه:

﴿فلما قضينا عليه الموت ما دَلَّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل مِنْسأته، فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العقاب المهين﴾ [سبأ: ١٤]..

وقد روي أنه كان مُتكئاً على عصاه حين وافاه الأجل؛ والجن تروح وتجيء مُسَخّرةٍ فيما كَلَّفها إياه من عمل شاقّ شديد؛ فلم تُدرك أنه مات، حتى جاءت دابة الأرض. قيل إنها الأَرَضة، التي تتغذى بالأخشاب، وهي تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بِشَراهة فظيعة، في الأماكن التي تعيش فيها. وفي صعيد مصر قُرى تُقيم منازلها دون أن تضع فيها قطعة خشب واحدة خوفاً من هذه الحشرة التي لا تُبقي على المادة الخشبية ولا تذر. فلما نخرت عصا سليمان لم تَحْمِله فخرّ على الأرض. وحينئذ فقط علمت الجن موته. وعندئذ ﴿تبينت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾..

فهؤلاء هم الجن الذين يعبدهم بعض الناس. هؤلاء هم سَخَرة لعبد

من عباد الله. وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب؛ وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد!

ونقف أمام ختام هذه القصة الرائعة.. كان من آثار خضوع القصة القرآنية للغرض الديني أن تعرض منها الحلقات التي تقتضيها هذه الأغراض. ذلك أن آخر حلقة تعرض ـ بحسب ترتيب السور ـ تتفق مع أظهر غرض ديني صيغت القصة من أجله، وفي الوقت ذاته يتفق هذا الختام مع الأصول الفنية.

وقصة سليمان ترد في ثلاثة مواضع كما تقدم، وآخر سورة ترد فيها سورة الأنبياء (السورة ٧٣ حسب ترتيب النزول) وتذكر منها الحلقة التالية: **﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين، فَفَهَّمناها سليمانَ، وكُلًّا آتينا حُكماً وعلماً؛ وسخرنا مع داود الجبال يُسبحن والطير وكنا فاعلين؛ وعلَّمناه صَنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون؟ ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها، وكنا بكل شيء عالمين؛ ومن الشياطين مَن يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك، وكنا لهم حافظين﴾** [الأنبياء: ٧٨ ـ ٨٢]..

وهنا غرض ديني من أغراض قصة سليمان الكثيرة.. ولكن قد يبدو أن الختام الفني هنا لم يتفق مع الغرض الديني، وأن مشهد سليمان مُتَّكِئاً على عصا بعد موته قد يكون هو الختام الفني المطلوب.

وهذا المشهد يصلح ولا شك؛ ولكن مشهد الحكم والحكمة هنا له قيمته الفنية أيضاً في حياة سليمان. فهو «سليمان الحكيم» كما يُلقب، وهو «سليمان الملك». وفي هذا الحُكم المُبكر شاهد بالحكمة الموهوبة، وإرهاص للمُلك العريض. ثم هي طريقة من طرق العرض، أن تنتهي قصة البطل بمشهد من مشاهد طفولته أو صباه ذي علاقة وثيقة بمحور قصته من البدء للختام.

يقول الدكتور فضل عباس: «ونقف متأملين عند قصة داود وسليمان، النبيين المَلِكَين، الأب والإبن، وقد نقل صاحب المنار ـ رحمه الله ـ عن أن النصارى ينفون نُبوة سليمان ويزعمونه فيلسوفاً حكيماً فحسب؛ لأنهم

يتحكمون في إثبات النبوة ونفيها عمن يشاءون من بني إسرائيل، وعلل ذلك بما نقله عن بعضهم[1]. وأما المسلمون فموقفهم من الأنبياء يستمدونه من كتابهم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن السنّة الصحيحة التي نُقلت عن النبي عليه وآله الصلاة والسلام.

لقد امتن الله على داود وسليمان في أكثر من آية بالعلم، وهو فضل الله على مَن يشاء من عباده، ولقد كان هذا العلم لجوانب كثيرة من الكون، ولكننا نلحظ أن الله تبارك وتعالى وقد مَنَّ الله عليهما بالعلم شرَّفهما بوصف آخر أكثر من مرة وهو العبودية ﴿**واذكر عبدنا داود**﴾ [صٓ: ١٧] ﴿**ووهبنا لداود سليمانَ نِعْمَ العبد**﴾ [صٓ: ٣٠]، فمع هذه النبوة والمُلك والعلم تأتي العبودية الصادقة لِتُتَوِّج هذا كله، وقد ذكر في خبرهما ما استغله بعض القُصّاص، واحتل مساحات بعد ذلك من كتب التفسير، والحق الذي لا مرية فيه أن ما ذكره القرآن عن هذين النبيين ـ وعن غيرهما بالطبع ـ ينسجم مع ما يستحقه الأنبياء من الإجلال والتقدير، ومع ما أُكرموا به من العصمة، ومع المنهج التربوي الكامل الذي اختص الأنبياء به ـ عليهم السلام ـ لقد استغل نبأ الخصمين اللذين تسوَّرا المحراب فقالوا فيهما ما يُنافي عصمة الأنبياء، كما استُغِلّت بقية الأخبار (التي تحدثت عن سليمان).

إن أخبار الأنبياء في القرآن لا تشوبها شائبة شك، ولا تحوم حولها شبهة، فهم المُصطَفون الأخيار، ويمثل الشيخ رشيد ـ رحمه الله ـ أخبار الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في القرآن الكريم، وفي غيره فيقول: «إن مثل الأنبياء في غير القرآن الكريم كبستان فيه الشجر المثمر وغير المثمر، وفيه الشوك والعوسج، وغير ذلك مما لا فائدة فيه؛ بل فيه الضرر المؤكد.

أما أخبارهم ـ عليهم السلام ـ في كتاب الله فَكَبُسْتان ليس فيه إلا الزهرة النضرة الندية، والثمرة الشهية».

---

(١) تفسير المنار ج ٦، ص ٣٢٣.

http://al-maktabeh.com

وهكذا نجد أن داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ قد أسهما بنصيب وافر في البناء الإنساني المحكم، فغاية النعمة تستلزم غاية العبودية... وهكذا كلما عَظمت نِعَم الله تبارك وتعالى خلصت عبوديته للّه تعالى.

ولقد ردّ القرآن الكريم عن هذين النبيين المَلَكَين العَبدين كل ما أُثير حولهما مما لا يليق بعباد الله وأنبيائه، فالسحر الذي نُسب لسليمان يردُّه القرآن رداً عنيفاً ويحكم على الذين أثاروا هذه الشبهات بالكفر فلم يكن ساحراً ولم ينزل عليه ولا على أبيه سحر».

maktabeh
مكتبة المهتدين
http://al-maktabeh.com

فِطْنَة وحِكْمَة

من الفضل العظيم الذي آتاه الله ـ سبحانه ـ نبيه **سليمان ـ عليه السلام** ـ ما فَهَّمه جَلَّ وعلا في القضاء بين الناس، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «بينما امرأتانِ معهما ابناهُما جاء الذئبُ فذهب بابن إحداهُما، فقالت هذه لصاحبتها: إنما ذَهَبَ بابنكِ أنتِ، وقالت الأخرى: إنما ذَهَبَ بابنكِ، فَتحاكَمَتا إلى داودَ فقضى به للكُبرى، فَخَرجتا على سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ فأخبَرتاهُ، فقال: ائتوني بالسِّكِّين أَشُقُّه بينكما. فقالت الصُّغرى: لا! يَرْحَمُكَ الله. هو ابنُها، فقَضَى به للصغرى»[1].

تبدأ القصة بالحدث، الذي تنمو عنه المراحل التالية، فالبداية ذات حيوية بارزة مشوقة ومثيرة.. فحين عدا الذئب على ولد إحداهما تنشأ المشكلة، فنرى «أول خيط في المشكلة حين يذهب الذئب بابن إحدى المرأتين، ويبدأ الحدث الذي تترتب عليه أحداث القصة، فقد كان للذئب دور مساعد فهو سبب الحدث الذي أنشأ خيوط المشكلة.

وتتأزم المشكلة حين تدّعي كل واحدة منهن أن الصبي الباقي هو ابنها، ويتفاقم الأمر إلى حد الوصول إلى الحاكم، ويحكم داود ـ عليه السلام ـ

---

(١) أخرجه مسلم ـ (شرح النووي ١٢/١٨)، ورواه البخاري ٤/١٩٨ وأخرجه النسائي «سنن النسائي ٨/٢٠٦ ـ ٢٠٧».

http://al-maktabeh.com

للكبرى، ويبدو أن هذا الحكم لم يحسم الأمر، فخرجتا إلى سليمان ـ عليه السلام ـ، وشرحتا قصتهما، وهنا يصل الحدث إلى ذروته، حين طلب سليمان ـ عليه السلام ـ سكيناً؛ إنه يريد أن يشق الصبي بينهما.

تشكل منطقة الوسط في القصة نقطة مهمة جداً، فهي تشكل مرخلة نامية ومتطورة أصلاً عن البداية، فهي منطقة الثقل، الحافلة بتشابك عناصر التأزيم، وتثير نوعاً من الصراع الداخلي لعاطفة الأمومة الصادقة في أعماق الصغيرة بعد أن قرر سليمان شق الغلام الباقي. قالت الصغرى في رُعب وَوجَل «لا. يرحمك الله» وفي رواية: «أتشقه؟! قال: نعم» فسارعت تتوسل إليه «فقالت: لا تفعل، حظي منه لها». وفي رواية مسلم: «هو ابنها».

لقد انطلقت الأمومة الصادقة في أعماق الصغيرة مبديةً تنازلها عن حظها من الصبي، وتُقرّ أنه ابن المرأة الأخرى ولا يقتل الصبي.

وحين تصل الأحداث إلى ذروتها في هذه المرحلة، نلاحظ انحدارها نحو الانفراج متدرجة في طريق النهاية»[1].

والقصة يبدو فيها التدرج والانفراج في الانتقال بالأحداث من مستوى إلى مستوى، وفق مراحل معينة، بحيث يتدرج السياق فيها نحو التأزيم، ثم يأتي الانفراج في آخر لحظة بعد أن تصل الأزمة إلى ذروتها...

«فالقصة تبدأ بذهاب الذئب بابن إحدى المرأتين، وهي مشكلة، ثم تأخذ في التأزم حين تدّعي كل واحدة بأن الغلام الباقي هو ابنها، ويتفاقم الأمر بينهما إلى حد الترافع إلى الحاكم، فالمشكلة هنا تتعقد وتتطور، وهي حول قضية بالغة الأهمية: «ادعاء بنوة»، ويحكم داود بالولد للكبرى ـ كما تقدّم ـ، ولكن هذا الحكم لا يحسم الأمر ويحلّ المشكلة، فخرجتا على سليمان وعرضتا عليه القصة، ويبدو أن كل واحدة منهما تلح في ادعائها بحيث أن الأمر وصل إلى درجة كبيرة من اللبس في هذا الولد. «ابن مَن منهما في الحقيقة؟»».

---

(١) القصص في الحديث النبوي ص ١٣٦، ١٣٧.

http://al-maktabeh.com

وتصل مشكلة الصغرى منهن إلى ذروتها حين طلب سليمان سكيناً، ولكن لماذا؟ إنه يريد أن يشق الولد بينهما، فترضى الكبيرة بهذا الحل، ولكن الصغرى تبادر بالتنازل عن حقها حفاظاً على الولد من هذا المصير المحتوم، والموت المحقق بدافع من حنان الأمومة، وهنا تتكشف الحقيقة للقاضي الذي يقضي بالولد للصغرى، وهنا لحظة الانفراج . . »[1].

وقد حظيت القصة بشخصية نبيين هما داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ، وذكر الشخصية محددة باسمها يعطيها نوعاً من الواقعية في اعتبار السامع أو القارىء، مما يجعله أكثر قرباً منها وارتباطاً بها . . وتعطي القصة بذلك أهمية للموقف الذي صدر عنها في عبرة ودرس وتوجيه، حتى يستفيد المسلمون منها في واقع حياتهم في السياسة والحكم، فالرسول ـ ﷺ ـ يعرض حكومة سليمان ـ عليه السلام ـ **الحكيمة الفطنة** بين «المرأتين المتخاصمتين في الطفل، حيث استعمل ذكاءه في قضية غاب دليلها، والتبس الحق فيها بالباطل، وبتصرفه السديد النابع من رأي ثاقب استطاع أن يتبين وجه الحق في هذه الخصومة»[2].

يقول الإمام النووي : «في قضاء داود وسليمان ـ صلى الله عليهما وسلم ـ في الولدين اللذين أخذ الذئب أحدهما فتنازَعَتْه أُماهما، فقضى به داود للكبرى، فلما مرّتا بسليمان قال: أقطعه بينكما نصفين، فاعترفت به الصغرى للكبرى، بعد أن قالت الكبرى اقطعه، فاستدل سليمان بشفقة الصغرى على أنها أمه، وأما الكبرى فما كرهت ذلك، بل أرادته لتشاركها صاحبتها في المصيبة بفقد ولدها.

قال العلماء: يُحتمل أن داود ـ ﷺ ـ قضى به للكبرى لشَبَه رآه فيها، أو أنه كان في شريعته الترجيح للكبير، أو لكونه في يدها، وكان ذلك مرجحاً في شرعه. وأما سليمان فتوصّل بطريق من الحيلة والملاطفة إلى معرفة باطن القضية

---

(١) المصدر السابق ٢٠٢.

(٢) المصدر السابق ٢٥٥.

فأوهمها أنه يريد قطعه ليعرف مَن يَشقّ عليها قطعه فتكون هي أُمُّه، فلما أرادت الكبرى قطعه عرف أنها ليست أمه، فلما قالت الصغرى ما قالت عرف أنها أمه، ولم يكن مراده أن يقطعه حقيقة، وإنما أراد اختبار شفقتهما لتتميز له الأم، فلما تميزت بما ذكرت عرفها، ولعله استقرأ الكبرى فأقرت بعد ذلك للصغرى، فحكم للصغرى بالإقرار، لا بمجرد الشفقة المذكورة.

قال العلماء: ومثل هذا يفعله الحكام ليتوصلوا به إلى حقيقة الصواب بحيث إذا انفرد ذلك لم يتعلق به حكم.

فإن قيل: كيف حكم سليمان بعد حكم داود في القصة الواحدة ونقض حكمه. والمجتهد لا ينقض حكم المجتهد، فالجواب من أوجه مذكورة أحدها: أن داود لم يكن جزم بالحكم، والثاني: أن يكون ذلك فتوى من داود لا حكماً، والثالث: لعله كان في شرعهم فسخ الحكم إذا رفعه الخصم إلى حاكم آخر يرى خلافه، والرابع: أن سليمان فعل ذلك حيلة إلى إظهار الحق وظهور الصدق، فلما أقرت به الكبرى عمل بإقرارها، وإن كان بعد الحكم، كما إذا اعترف المحكوم له بعد الحكم أن الحق هنا لخصمه»[1].

وبعد، لقد كانت التربية جانباً بارزاً في القصة، وكان التعليم عن طريق النموذج والقدوة الذي تعرضه، فترشد إلى «ما ينبغي أن يكون عليه الحاكم بين الناس من الفطنة والحصافة في استبانة وجه الحق كما فعل سليمان في حكومته بين المرأتين المتخاصمتين في طفل، وهنا يأتي التعليم عن طريق النموذج الذي ترسمه القصة للقدوة والاحتذاء. .»[2].

وهنا موقف سلبي لا أخلاقي، ترفضه القصة في مغزاها من خلال الشخصية التي تمثلها، فموقف «المرأة التي ادَّعت أن الولد الذي لم يأكله الذئب إنما هو ابنها، مع أنها تعرف أنه ليس ابنها. .»[3].

---

(١) شرح مسلم ١٢/١٨.
(٢) القصص في الحديث النبوي ص ٤٤٧.
(٣) المصدر السابق ٣٩٨.

http://al-maktabeh.com

وتمثل المرأة الصغرى شخصية الأمومة الصادقة، فالولد الذي لم يأكله الذئب هو ابنها، ولكن حين ترى إرادة سليمان ـ عليه السلام ـ في شَقّه نصفين.. وإعطاء كل امرأة نصفاً.. واجهت الموقف بصدق، فهي لا تريد أن يموت ابنها بسبب هذا الخصام، فتنازلت عن نصيبها وحقها في ابنها.. ها هي ذي تقول: «هو ابنها».. فليحيا الولد ولو لم تأخذه هي!

إنها الواقعية الكاملة في تصرف الأم، تصورها القصة في مشهد متحرك بالعواطف والانفعالات..

كذلك تحفل القصة بعروض حية من المشاهد، بحيث تبدو واقعاً متحركاً يغشي في صوره المؤثرة، وشخوصه المعبّرة، تتملاه العين طويلاً، ويسكن الحسُّ والخيال إليه في صمت هادىء.. نحن في مشهد مثير.. أمام سليمان ـ عليه السلام ـ في مجلس الحكم: تتخاصم الامرأتان على الصبي، تدَّعي كل واحدة أنه لها، ويثور الانفعال في المشهد.. «فقال سليمان: ائتوني بالسكين أشقّ الغلام بينهما..».

مفاجأة مدهشة، لا نعلم لها سراً، وموقفنا منها كموقف الامرأتين.. موقف مثير للعواطف والأحاسيس..

ويبرز في هذا المشهد المتوج بالانفعالات، صورة تبدو بلون حزين، عليها خيوط الأنين الصامت في أعماق الأمومة الصادق، وهي تتصور ولدها يشق بالسكين نصفين.. وفي لحظة تتفجر العاطفة الصادقة فينطلق الانفعال العميق، ينطلق لسان الصغرى في هزّة ونبرة تلونها قوة المشاعر الحبيسة: «أتشقه؟» «قال: نعم؟» يمكن أن نلحظ فيه سليمان الحكيم وهو ينظر إلى الوجدان الصادق في الكلمة المعبرة: «أتشقه؟».

وتخيم على الكلمة فطنة وحصافة سليمان ـ عليه السلام ـ فيرى الخوف والروع في هذه المسكينة يتحرك في أعماقها.. فيقول: «نعم؟».

ونحسب الصغرى وقد أُسقط في يدها، فتهزّها المفاجأة العظمى في

www.al-maktabeh.com

تصميم الحاكم على قطع الغلام حين قال: نعم.. فيهتز قلبها أملاً، وترتعش نفسها حزناً.. وما هي إلا لحظة حين سمعت كلمة التصميم: نعم.. فهبّ لسانها صارخاً متوسلاً، يهزّه الفزع: «لا. يرحمك الله..» وفي رواية: «فقالت: لا تفعل، حظي منه لها»..

إنها الأم وهي تواجه الحكم بذبح ولدها.. تصوير العواطف والانفعالات، وقد برزت صارخة في الألفاظ: «لا. يرحمك الله، هو ابنها»..

إننا لنكاد نرى ملامحها، ونحس اضطراب خواطرها، ونلمس مواقع الحزن في أعماق نفسها، ويتراءى الألم الباكي يسري في عروقها..

إنها تثير فينا الشفقة والعطف من التأثر لحالها، وفي هذه اللحظة نسمع الحكم في لهجة التقرير، وفي أنسب لحظة للإقناع والاقتناع.. «فقضى به للصغرى».. إنه المنطق السليم في الرد الحكيم..

لقد كان التشويق ذو أهمية كبيرة في إضفاء الحيوية على القصة، وإثارة المتلقي لمتابعة الأحداث، وعلى أي كيفية ستنجلي..

كما أن الحوار أخذ دوره البارز في بناء القصة، فقد ساعد على رسم الشخصية، وجعلها أكثر حضوراً من خلال كلامها، فهو يحمل ترجمة لمشاعر الشخصية وعواطفها وأحاسيسها.. فحين نادى سليمان ائتوني بالسكين أشقُّ الغلام بينهما..

«قالت الصغرى: أتشقه؟
قال: نعم.
فقالت: لا تفعل حظي منه لها».

كذلك ساهم الحوار في تطوير الحدث ودفعه في خط سير النهاية المقصودة للقصة، مع تصوير الموقف بحيوية تكشف الأحاسيس الداخلية للشخصية، التي أدت إلى كشف مغزى القصة، والإبانة عن غرضها الذي ترمي إليه في ما ينبغي أن يكون عليه الحاكم من الفطنة في استبانة الحق.

قصة سبأ

الإعراض عن الله والكفر بالنعمة:

في قصة آل داود تعرض صفحة الإيمان بالله والشكر على أفضاله وحسن التصرف في نعمائه. والصفحةِ المقابلة هي صفحة سبأ. وقد مضى ما كان بين سليمان وبين مَلكتهم من قَصَص. وهنا يجيء نبؤهم بعد قصة سليمان. مما يـوحي بأن الأحـداث التي تتضمنها وقعت بعـد ما كـان بينها وبـين سُليمان من خبر.

يرجح هذا الفرض أن القصة هنا تتحدث عن بَطَر سَبأ بالنعمة وزوالها عنهم وتفرقهم بعد ذلك وتمزّقهم كل مُمَزّق. وهم كانوا على عهد المَلكة التي جاء نبؤها في سورة النمل مع سليمان في مُلك عظيم، وفي خير عَميم. ذلك إذ يقصّ الهدهد على سليمان: **﴿إني وجـدت امرأة تملكهم، وأوتيت من كـل شيء، ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾** [النمـل: ٢٣، ٢٤]. وقد أعقب ذلـك إسلام الملكـة مع سليـمان للّه رب العالمين. فالقصة في سورة سبأ تقع أحداثها بعد إسلام الملكة للّه؛ وتحكي ما حَلّ بهم بعد إعراضهم عن شكره على ما كانوا فيه من نعيم.

وتبدأ القصة بوصف ما كانوا فيه من رزق ورغد ونعيم، وما طُلِبَ إليهم من شُكر المُنْعِم بقدر ما يطيقون:

﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال. كُلوا من رزق

ربكم واشكروا له. بلدة طيبة ورب غفور﴾ [سبأ: ١٥]..

وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبي اليمن؛ وكانوا في أرض مُخصبة ما تزال منها بقية إلى اليوم. وقد ارتقوا في سلم الحضارة حتى تَحَكَّموا في مياه الأمطار الغزيرة التي تأتيهم من البحر في الجنوب والشرق، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جَبَلين، وجعلوا على فم الوادي بينهما سداً به عيون تُفتح وتُغلق، وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد، وتحكَّموا فيها وفق حاجتهم. فكان لهم من هذا مورد مائي عظيم. وقد عرفت باسم: «سَد مَأْرب».

وهذه الجنان عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل، ومن ثم كانت آية تُذَكِّر بالُمنعم الوهّاب. وقد أُمروا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين: **﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له﴾**..

وذكروا بالنعمة. نعمة البلد الطيب وفوقها نعمة الغفران على القصور من الشكر والتجاوز عن السيئات.

﴿بلدة طيبة وربّ غفور﴾..

سماحة في الأرض بالنعمة والرخاء. وسماحة في السماء بالعفو والغفران. فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران؟ ولكنهم لم يشكروا ولم يَذكروا:

﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيل العرم، وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكل: خَمط وأَثل وشيء من سدر قليل﴾ [سبأ: ١٦].

أعرضوا عن شكر الله، وعن العمل الصالح، والتصرف الحميد فيما أنعم الله عليهم، فَسَلَبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذي يعيشون فيه، وأرسل السَّيْلَ الجارف الذي يحمل العَرِم في طريقه وهي الحجارة لشدّة تدفّقه، فَحطَّم السدّ وانساحت المياه فطفت وأغرقت؛ ثم لم يعد الماء يُخَزّن بعد ذلك فَجَفَّت واحترقت. وتبدلت تلك الجنان الفيح صحراء تتناثر فيها الأشجار البريّة الخَشِنة:

﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أُكل: خَمط وأثل وشيء من سِدر قليل﴾..

والخمط شجر الأراك أو كل شجر ذي شوك. والأثل شجر يشبه الطرفاء. والسدر النبق. وهو أجود ما صار لهم ولم يعد لهم منه إلا قليل!

﴿ذلك جزيناهم بما كفروا﴾.. والأرجح أنه كفران النعمة.. ﴿وهل نجازي إلا الكفور﴾ [سبأ: ١٧]..

وكانوا إلى هذا الوقت ما يزالون في قراهم وبيوتهم. ضيّق الله عليهم في الرزق، وبدّلهم من الرفاهية والنعماء خشونة وشدة؛ ولكنه لم يُمزّقهم ولم يُفرّقهم. وكان العمران ما يزال متصلاً بينهم وبين القرى المباركة: مكة في الجزيرة، وبيت المقدس في الشام. فقد كانت اليمن ما تزال عامرة في شمال بلاد سبأ ومُتصلة بالقرى المباركة. والطريق بينهما عامر مطروق مسلوك مأمون:

﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة، وقدّرنا فيها السير. سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾ [سبأ: ١٨]..

وقيل كان المسافر يخرج من قرية فيدخل الأخرى قبل دخول الظلام. فكان السفر فيها محدود المسافات، مأموناً على المسافرين. كما كانت الراحة موفورة لتقارب المنازل وتقارب المحطات في الطريق.

وغلبت الشقوة على سبأ، فلم يَنفعهم النذير الأول؛ ولم يُوجههم إلى التَضَرّع إلى الله، لعله يرد عليهم ما ذهب من الرخاء. بل دعوا دَعوة الحمق والجهل:

﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا﴾ [سبأ: ١٩]..

تطلبوا الأسفار البعيدة المدى؛ التي لا تقع إلا مرات متباعدة على مدار العام. لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل، التي لا تشبع لذة الرحلات! وكان هذا من بَطَر القلب وظُلم النفس: ﴿وظلموا أنفسهم﴾.

واستجيبت دعوتهم، ولكن كما ينبغي أن تُستجاب دعوة البَطَر: ﴿فجعلناهم أحاديث ومَزَّقناهم كل مُمَزّق﴾ [سبأ: ١٩]..

شُرّدوا ومُزِّقوا، وتَفَرّقوا في أنحاء الجزيرة مُبدِّدي الشمل، وعادوا أحاديث يرويها الرواة، وقصة على الألسنة والأفواه. بعد أن كانوا أمة ذات وجود في الحياة.

﴿إن في ذلك لآيات لكل صَبَّار شكور﴾ [سبأ: ١٩]..

يذكر الصبر إلى جوار الشكر.. الصبر في البأساء. والشكر في النعماء. وفي قصة سبأ آيات لهؤلاء وهؤلاء.

هذا فهم في الآية. وهناك فهم آخر. فقد يكون المقصود بقوله: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة﴾.. أي قرى غالبة ذات سلطان. بينما تحول سبأ إلى قوم فقراء، حياتهم صحراوية جافة. وكثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعي ومواضع الماء. فلم يصبروا على الابتلاء. وقالوا: ﴿ربنا باعد بين أسفارنا﴾.. أي قلل من أسفارنا فقد تعبنا. ولم يصحبوا هذا الدعاء باستجابة وإنابة للّه تستحق استجابته لدعائهم. وكانوا قد بطروا النعمة، ولم يصبروا للمحنة. ففعل الله بهم ما فعل، ومَزَّقهم كل مُمزق، فأصبحوا أَثراً بعد عين، وحديثاً يروى وقصة تحكى.. ويكون التعقيب: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾.. مناسباً لقلة شكرهم على النعمة، وقلة صبرهم على المحنة.. وهو وَجْه رأيناه في الآية والله أعلم بمراده.

وفي ختام القصة يخرج النص من إطار القصة المحدود، إلى إطار التدبير الإلهي العام، والتقدير المحكم الشامل، والسنّة الإلهية العامة؛ ويكشف عن الحكمة المستخلصة من القصة كلها، وما يكمن فيها وخلفها من تقدير وتدبير:

﴿ولقد صدّق عليهم إبليس ظَنَّه فاتبعوه. إلا فريقاً من المؤمنين. وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم مَن يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك. وربك على كل شيء حفيظ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١]..

لقد سلك القوم هذا المسلك، الذي انتهى إلى تلك النهاية، لأن إبليس صَدَّق عليهم ظَنَّه في قدرته على غوايتهم، فأغواهم، ﴿**فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين**﴾.. كما يقع عادة في الجماعات فلا تخلو من قلة مؤمنة تَستعصي على الغواية؛ وتثبت أن هنالك حقاً ثابتاً يعرفه مَن يطلبه؛ ويمكن لكل مَن أراد أن يجده وأن يستمسك به، حتى في أحلك الظروف. وما كان لإبليس من سلطان قاهر عليهم لا يملكون رَفْعه. فليس هنالك قهر لهم منه ولا سيطرة عليهم له. إنما هو تسليطه عليهم ليثبت على الحق مَن يَثبت، وليزيغ منهم مَن لا يبتغي الحق ويتحراه. وليظهر في عالم الواقع ﴿**مَن يؤمن بالآخرة**﴾ فيعصمه إيمانه من الانحراف، ﴿**ممن هو منها في شك**﴾.. فهو يتأرجح أو يستجيب للغواية. بلا عاصم من رقابة للّه ولا تَطَلُّع لليوم الآخر.

والله يعلم ما يقع قبل ظهوره للناس. ولكنه سبحانه يُرتب الجزاء على ظهوره ووقوعه فعلاً في دنيا الناس.

وفي هذا المجال الواسع المفتوح. مجال تقدير الله وتدبيره للأمور والأحداث. ومجال غواية إبليس للناس، بلا سلطان قاهر عليهم، إلا تسليطه ليظهر المكنون في علم الله من المصائر والنتائج.. في هذا المجال الواسع تتصل قصة سبأ بقصة كل قوم، في كل مكان وفي كل زمان. ويتسع مجال النص القرآني ومجال هذا التعقيب، فلا يعود قاصراً على قصة سبأ، إنما يصلح تقريراً لحال البشر أجمعين. فهي قصة الغواية والهداية وملابساتها وأسبابها وغاياتها ونتائجها في كل حال.

﴿**وربك على كل شيء حفيظ**﴾.. فلا يندّ شيء ولا يغيب، ولا يهمل شيء ولا يضيع..

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

القسم الثاني

قصص الإيمان واليقين، والصبر الجميل

المحتوى	ص
ـ قصة أَيُّوب عليه السلام	٩٥
ـ قصة أصحاب القرية	١١٣
ـ قصة ذي القَرنين	١٢٣
ـ قصة يونس عليه السلام	١٤٥
ـ قصة زكريا ويحيى عليهما السلام	١٦٣

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة أيوب عليه السلام

المحتوى	ص
ـ تقديم	٩٥
ـ الصَبر الجميل	٩٦
ـ تَأَمُّل وعبرة	١٠٢
ـ عبودية	١٠٥
ـ سُنة الله في الابتلاء	١٠٧

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة أيوب ـ عليه السلام ـ

ثم نمضي مع قصة الابتلاء والصبر، والإنعام بعد ذلك والإفضال. نمضي مع قصة أيوب. وهي نمط آخر من القصص، ومظهر آخر من مظاهر نِعَم الله على عباده المؤمنين، الصابرين الشاكرين، والأنبياء المقربين. وقد ذكرت في سورتين اثنتين: سورة (صٓ)، وسورة (الأنبياء).

وقصة أيوب وصبره ذائعة مشهورة، وهي تُضرب مثلاً للابتلاء والصبر. ولكنها مشوبة بإسرائيليات تطغى عليها.

والحد المأمون في هذه القصة هو أن أيوب ـ عليه السلام ـ كان كما جاء في القرآن عبداً صالحاً أوّاباً؛ وقد ابتلاه الله فَصَبر صبراً جميلاً، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعاً ولكنه ظلَّ على صلته بربه، وثقته به، ورضاه بما قَسَم له.

وقصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء. فقد كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد مرضية(1)، فابتُلي في ذلك كله، وذهب عن

---

(1) ويتحدث الإمام ابن كثير عما كان يملكه أيوب من المزارع والحدائق.. كما يذكر أنه كانت له أموال من المواشي والأنعام، يضيق بها الحصر والتعداد. كما منحه الله نعمة القوة والصحة، ووهبه زوجة صالحة حسنة الخَلق والخُلق. وكل هذه النعم لم تبطره بل صبر عليها، وأدّى لها كل ما يلزمها من شكر للمنعم، وتقدير وعرفان لفضله..

وقد ذكر الرواة أن الله قد أنعم على أيوب بالمال الكثير، والثروة الطائلة.. =

http://al-maktabeh.com

آخره، ثم ابتُلي في جسده، فلم يبقَ منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عز وجل . .

الصبر الجميل:

لقد شاء الله أن تتبدَّل الأوضاع، وتتغير الأحوال. فقد جفّ الضرع، ونقصت الأموال، وماتت الأولاد. وزال الثراء العريض الذي مَنَّ الله به على نبيه أيوب، وهاجمه الفقر الشديد، والمرض القاسي العنيد. فما وَهَن لما أصيب به من هذا البلاء، وما ضَعُف ولا استكان، بل قابل ذلك كله بالصبر الجميل، والإيمان الكامل.

كان صابراً شاكراً يلهج لسانه بالذكر والشكر، لا يشكو، ولا يتعتّب، ولا يتذمّر، ولا يغضب، فلم يُزحزحه البلاء من إيمانه، أو يُفسد من يقينه بربه

= عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بينما أيوب يغتسلُ عُرياناً، أُمطِرَ عليه جرادٌ من ذهب، فجعل أيوب يُحثي في ثوبه، فناداه ربُّه يا أيوب، أَلَم أُغْنِك عما ترى؟ قال: بلى، ولكن لا غنى لي عن رحمتك».

(أخرجه البخاري «٢٧٩» و«٣٣٩١» و«٧٤٩٣»، وأحمد ٢/٣١٤، وابن حبان في صحيحه. انظر تخريجه في الإحسان رقم ٦٢٢٩).

وفي رواية قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أُمطر على أيوب فراشٌ من ذهب، فجعل يأخُذه، فأوحى الله إليه، أَلَمْ أوسّع عليك؟ فقال: بلى يا ربّ، ولكن لا غنى لي عن فضلك» (أخرجه أحمد ٢/٥١١، وابن حبان، إسناده صحيح على شرط الشيخين، انظر تخريجه في الإحسان رقم ٦٢٣٠).

قال الحافظ في «الفتح» ٦/٤٢١: في الحديث جواز الحرص على الاستكثار من الحلال في حقّ من وثق نفسه بالشكر عليه، وفيه تسمية المال الذي يكون من هذه الجهة بركة، وفيه فضل الغني الشاكر.

وفي «تهذيب الكمال» ١١/١٦٨: قال سفيان: لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحبُّ إليَّ من أن أحتاج إلى الناس. وقال: كان المال فيما مضى يُكره، فأما اليوم فهو ترس المؤمن. وقال: لولا الدنانير لتمندَل بنا هؤلاء الملوك.

وقال: مَن كان في يده من هذه الدنانير شيء فليصلحه، فإنه زمان إن احتاج كان أول ما يبذله دينه.

الرحيم، ولكن كان أقوى إيماناً، وأشد صلة بالله، وأعمر بالتقوى قلباً. ولسان إيمانه يقول عن كل شيء فَقَده: عاريةٌ استردّها الله، ووديعة كانت عندنا فأخذها، نَعِمْنا بها دهراً، فالحمد لله على ما أنعم، وسلبنا إياها اليوم، فله الحمد على كل حال، فهو مالك الملك لا يتصرف بعبده المؤمن إلا بخير. فللّه ما أَخَذَ وللّه ما أعطى وكل شيء عنده بمقدار. . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وألحَّ عليه الداء وامتدّ به البلاء سنين طوالاً. وبقي في لسانه وعقله وجنانه سرّ إيمانه ومظهر دينه وعرفانه. .

ولا شك أن القرآن الكريم يشير بروعة، في التعبير إلى ما وقع لأيوب من ابتلاء أليم، ويشير إلى ما ينبغي أن يفعله العبد إذا أصابته المصائب، ونزلت به الكوارث وهو اللجوء إلى الله دون أحد سواه. ويشير إلى أن رحمة الله قريب؛ وأنه هو السميع المجيب.

فقاعدة الإيمان في القلب هي الالتجاء إلى الله، فكل الأسناد تهتز، وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إلى الله وحده. لا يجد سنداً إلا سنده. وفي هذه اللحظة تنجلي الغشاوات، وتتفتح البصيرة، ويَنجلي الأُفق على مدّ البصر. . لا شيء إلا الله. . لا قوة إلا قوته. . لا حول إلا حوله. . لا إرادة إلا إرادته. . لا ملجأ إلا إليه. . وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح. . **﴿وبشّر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا للّه وإنا إليه راجعون﴾** [البقرة: ١٥٦].

إنا للّه. . كلنا. . كل ما فينا. . كل كياننا وذاتيتنا. . للّه. . وإليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير. . التسليم. . التسليم المطلق. . تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجهاً لوجه بالحقيقة الوحيدة والتصور الصحيح.

هؤلاء هم الصابرون. . الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء

neel-al-maktabah.com

الصبر الجميل: ﴿**أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون**﴾ [البقرة: ١٥٧].

صلوات من ربهم.. يرفعهم بها إلى المشاركة في نصيب نبيه الذي يُصلي عليه هو وملائكته سبحانه.. وهو مقام كريم.. ورحمة.. وشهادة من الله بأنهم هم المهتدون..

وكل أمر من هذا هائل عظيم..

لقد أراد الله أن يجعل من أيوب عبداً مؤمناً، صابراً شاكراً، تكون قصته عبرة للمصابين، وعزاء لأهل البلاء والمكروبين، وسَلوى للمرضى والمجروحين، وليكون أيوب على مرّ الأيام والسنين المثل العالي في اليقين والإيمان، والمعلِّم الصادق للصبر على مَرّ الأزمان.

فهي قصة الإيمان الكامل والصبر الجميل.. الصبر على الشدائد الذي يُصفّي النفوس، ويرفع الدرجات، ويُعلي قَدر الإنسان بين الناس فيصبح قدوة وإماماً للمؤمنين.. ثم يكون من الله خير العَوَض في الدنيا. وله عند الله الجزاء الأوفى في الآخرة ﴿**إنما يُوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾ [الزمر: ١٠].

وكان الشيطان يوسوس لخلصاء أيوب القلائل الذين بقوا على وفائهم له ـ ومنهم زوجته ـ بأن الله لو كان يُحبّ أيوب ما ابتلاه. وكانوا يُحدثونه بهذا فيؤذيه في نفسه أشدَّ ما يؤذيه الضرّ والبلاء. فلما حدّثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله ليضربنّها عدداً عيَّنه ـ قيل مئة.

وعندئذ توجَّه إلى ربّه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان، ومداخله إلى نفوس خلصائه، ووَقْع هذا الإيذاء في نفسه.. فقد اشتدت آلامه، وتضاعفت أسقامه. فَزِعَ إلى الله؛ لا مُتَسخِّطاً ولا متبرماً، داعياً مُتَحَنِّناً، ونادى ربه أنه قد مسَّه الشيطان بمرض وضرر ومعاناة:

﴿**وآذكُر عَبْدنا أيوب إذ نادَى رَبَّهُ أني مَسَّني الشيطانُ بِنُصْبٍ وعذاب**﴾ [ص: ٤١].

وهذا من أَدَبِ العابدين الصابرين فلم يَنسب ذلك له.

والنصوص القرآنية تشير إلى مجمل البلاء دون تفصيل، وهي في سورة الأنبياء تعرض دعاء أيوب واستجابة الله للدعاء:

﴿وأيُّوبَ إذ نادى رَبَّهُ أنّي مَسَّني الضُرُّ وأنتَ أرحمُ الراحمين. فاسْتَجَبْنا له فكشفنا ما بهِ من ضُرّ..﴾ [الأنبياء: ٨٢، ٨٣].

والآية تتحدث عن الابتلاء بالضراء.. وأيوب في دعائه لا يزيد على وصف حاله ﴿أني مسَّني الضُرّ﴾.. ووصف ربه بصفته ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾. والضُرّ: بالضم هو المرض، والضَرْ بالفتح أعمّ منه حيث يكون بالنفس والأهل والمال وغير ذلك.

ثم لا يدعو بتغيير حاله، صبراً على بلائه، ولا يقترح شيئاً على ربه، تأدباً معه وتوقيراً.

فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء، ولا يتململ من الضُرّ الذي تُضرب به الأمثال في جميع الأعصار[1]. بل إنه ليتحرّج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه، اطمئناناً إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال.

ولما تمّ ما أراده الله من ابتلاء، وما أراد الله به من رفع درجات،

(١) تكثر الأقوال وتبالغ الروايات في الضرّ الذي مسَّ أيوب. حتى تقول: إنه مرض مرضاً مُنَفِّراً تحاشاه الناس بسببه وطرحوه خارج المدينة.. وليس وراء هذا القول من سند. والرسالة تتنافى مع المرض المنفر. والظاهر من نصوص القرآن أنه أصيب بالضرّ في أهله ونفسه.. وفي هذا كفاية الابتلاء.

وقد أثار رواة الإسرائيليات أخباراً في سبب ما أصاب أيوب، وهي أخبار كاذبة شاذة مما لا ينبغي أن يعول عليه، بل ينبغي أن لا يركن إليه.. ولعل هذا جعل عند بعض الكاتبين ردة فعل قويّة عنيفة فأوّل هذه الآيات على غير ما تحمل عليه فراراً مما نُسج حول هذه الآيات الكريمة، وهذه التأويلات بعيدة كل البُعد عن مدلول اللفظ القرآني، ولقد ردّ العلاّمة الشيخ محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ شيخ الأزهر الأسبق هذه التأويلات وأطال الكلام في ذلك (انظر «القصص القرآني» للعلاّمة الفاضل الدكتور فضل حسن عباس ص ٣٧٣، ٣٧٤).

والرضاء بالقضاء.. وعرف ربه منه صدقه وصبره، ونفوره من محاولات الشيطان، وتأذيه بها، أدركه برحمته..

ففي اللحظة التي توجّه فيها أيوب إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة، وكانت الرحمة، وكانت نهاية الابتلاء، فردّ عليه عافيته. إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتتفجّر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ:

﴿**أركُض بِرِجْلِك. هذا مُغْتَسَلٌ باردٌ وشَراب**﴾ [صَ: ٤٢].

لقد أشرقت على أيوب رحمة الله، وجرى القضاء بِبَرئه مما أصابه من أدواء وما وقع عليه من محنة وبلاء.. وأكرمه الله بمعجزة خصّه بها إذ أمره أن يضرب برجله في الأرض لينبع الماء من تحت قدمه، فيغتسل فيه فيذهب داؤه، ويتم شفاؤه. وتلك المعجزة ليرشد الله بها الناس إلى منزلة أيوب عند الله وكرامته لديه، وليزيد المؤمنين إيماناً وتثبيتاً[1].

رفع عنه الضرَّ في بدنه فإذا هو معافى صحيح. ورفع عنه الضرّ في أهله فَعوّضه عمن فَقَد منهم، ورزقه مثلهم. وقيل: هم أبناؤه فوهب الله مثليهم. أو وهب له أبناء وأحفاداً ويقول القرآن الكريم: ﴿**ووهبنا لهُ أَهلهُ ومثلَهم معهم رحمةً مِنّا وذكرى لأُولي الألباب**﴾ [ص: ٤٣].

وتقول بعض الروايات إن الله أحيا له أبناءه ووهب له مثلهم، وليس في النص ما يحتم أنه أحيا له مَن مات. وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد استردّ أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين. وأنه رزقه بغيرهم زيادة في الإنعام والرحمة والرعاية. مما يصلح ذكرى لذوي العقول والإدراك الذين يصبرون ويستقبلون ما مَنَّ الله بالرضا والطمأنينة.

إنها رحمة من عند الله الرحمٰن الرحيم: ﴿**فكشفنا ما به من ضُرّ وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين**﴾ [الأنبياء: ٨٣].

(١) تاريخ الأنبياء ص ٢٥٤.

والمهم في معرض القصص هنا هو تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يبتليهم فيصبرون على بلائه وترضى نفوسهم بقضائه . .

﴿رحمة من عندنا﴾ فكل نعمة هي رحمة من عند الله ومنّة . .

﴿وذكرى للعابدين﴾ تذكرهم بالله وبلائه، ورحمته في البلاء وبعد البلاء. وإن في بلاء أيوب لَمَثلاً للبشرية كلها؛ وإن في صبر أيوب لعبرة للبشرية كلها. وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار.

والإشارة للعابدين بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها. فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء. وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان. والأمر جدّ لا لعب. والعقيدة أمانة لا تُسلَّم إلا للأمناء القادرين عليها المستعدين لتكاليفها وليست كلمة تقولها الشفاه، ولا دَعْوىٰ يدّعيها مَن يشاء. ولا بد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء . .

وأما قَسَمه ليضربنَّ زوجه. فرحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته وصبرت على بلائه وبلائها به، أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذي حدّده. فيضربها به ضربة واحدة. تجزىء عن يمينه، فلا يحنث فيها:

﴿وخُذ بيدك ضِغْثاً فاضرِب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العبدُ إنه أوّاب﴾ [ص: ٤٤].

هذا التيسير، وذلك الإنعام، كانا جزاء على ما عَلِمَه الله من عبده أيوب من الصبر على البلاء وحسن الطاعة والالتجاء ﴿إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد إنه أواب﴾.

قال سعيد عن قتادة: كانت امرأته قد عرضت له بأمر، وأرادها إبليس على شيء، فقال لها: لو تكلمتِ بكذا وكذا؟ وإنما حملها الجوع. فحلف نبي الله لئن شفاه الله تعالى ليجلدنها مئة جلدة، قال: فأمر بأصل فيه تسعة

وتسعون قضيباً، والأصل تكملة المئة، فيضربها به ضربة واحدة. فأبرَّ الله تعالى نبيّه. وخفَّف عن أَمَتِه.

وقد أفتاه الله بما أخبر به. أن يأخذ ضغثاً، وهو الحزمة من الشيء، مثل الشماريخ الرطبة والعيدان ونحوهما، مما هو قائم على ساق، فيضربها ضربة واحدة[1].

تأمُّل وعبرة:

نقف طويلاً عند دراستنا لقصة أيوب ـ عليه السلام ـ ففيها نواح تحتاج منا إلى عناية وتأمُّل.

ففي القصة لا نرى صراعاً واضحاً بينه وبين قومه على الدعوة، ولا نرى البلاء الذي حاق به مرتبطاً أي ارتباط بوضعه الاجتماعي كنبي جاء يحمل فكرة، وهو لا يدري سبباً لهذا البلاء المتلاحق الذي يحيق به ويتتابع، وإنما جاء البلاء على غير انتظام. وتَتَابع على غير انتظار، ثم استمر أيوب لا يعلم هدفه ولا متى ينتهي. فما العبرة إذاً في القصة؟

لقد كان أيوب في مال جزيل وأولاد وسعة في الدنيا فابتلاه الله بالضرّ في ماله وجسده وولده «حتى لم يبقَ من جسده مغرز إبرة سليماً سوى قلبه» ولم يبقَ له شيء يستعين به على مرضه، غير أن زوجته حفظت ودّه لإيمانها بالله تعالى ورسوله. وعاشت مع النبي الكريم بعد أن هَجَره قومه وساءت حاله.

وجاء في الحديث الشريف أنه بقي في البلاء ثماني عشرة سنة، وأن الناس هجروه إلا صديقين:

عن أنس بن مالك أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ أيوب نبي الله ـ ﷺ ـ لبثَ في بلائه ثمان عشرة سنةً، فرفضه القريبُ والبعيد إلا رَجُلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يَغْدوان إليه ويَروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلمُ، والله لقد أذنبَ أيوبُ ذنباً ما أذنبهُ أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانَ عشرةَ سنةً لم يَرحمهُ الله، فَيكْشِف ما

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٣٩٥.

noor-book.com

به، فلما راح إليه لم يصبر الرجلُ حتى ذَكَرَ ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولُ غير أنَّ الله يعلمُ أني كنتُ أَمُرُّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجعُ إلى بيتي فَأُكفِّرُ عنهما كراهية أن يُذكر الله إلا في حق.

قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجتَهُ أمسكتْ امرأته بيده، فلما كان ذات يوم، أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه ﴿اركض برجلِكَ هذا مُغْتَسلٌ باردٌ وشراب﴾ [ص: ٤٢]، فاستبطأته فبلغتهُ[1]، فأقبلَ عليها قد أذهبَ اللّهُ ما بهِ من البلاء فهو أحسن ما كان، فلما رأتْه، قالت: أي باركَ الله فيك: هل رأيت نبيّ الله هذا المبتَلى، والله ما رأيتُ أحداً كان أشبهَ به منك إذ كان صحيحاً، قال: فإني أنا هو، وكان له أندران[2]: أَنْدَرُ القمح، وأندر الشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح، أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الوَرِق[3] حتى فاض»[4].

وأخيراً تضرّع أيوب إلى ربه ودعاه فأجرى الله تحت قدمه عين ماء غَسل بها الأذى عن نفسه وعيناً شرب منها وتكاملت له العافية ظاهره وباطنه، ووهب الله له أهله ومثلهم معهم:

﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ [الأنبياء: ٨٢، ٨٣].

﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب. أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة

---

(١) في الدر المنثور ٥/٦٥٩: فأتته، وفي الطبري والمستدرك وغيرهما: فتلقته.

(٢) الأندر: البيدر، وهو الموضع الذي يُداس فيه الطعام.

(٣) الفضة.

(٤) أخرجه ابن حبان وأبو يعلى، والبزار (٢٣٥٧)، والحاكم ٥/ ١٨١ - ١٨٢. وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٧٤، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٨/ ٢٠٨ وقال: رواه أبو يعلى والبزار ورجال البزار رجال الصحيح، انظر الإحسان (٢٨٩٨).

منا وذكرى لأولي الألباب. وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد إنه أواب﴾ [ص: ٤١ ـ ٤٣].

ومن القصة نرى أيوب ابتُلِيَ ابتلاءً كاملاً، ولقد حدّد القرآن أنواع البلاء فقال تعالى: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مَثلُ الذين من قبلكم؟ مَسَّتهم البأساء والضرّاء وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب﴾** [البقرة: ٢١٤].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية: أن البأساء في الأموال، والضرّاء في الأبدان، والزلزلة في العقيدة والإيمان.

وواضح في هذه القصة نواحي البلاء الجسمي والمالي. أما البلاء في العقيدة فكان على درجة كبيرة من الشدة.. فقد ابتلاه الله كإنسان من طبيعته أن يجالس الناس ويصاحبهم، فَبَعُدَ الناسُ عنه ولم يرضوا أن يجلسوا إلى مريض قد ساءت حاله وامتدت أيام محنته.. وابتلاه كنبي جاء رحمة للناس ومن طبيعته أن يأمر بمعروف وينهى عن منكر ويفعل الخير. ففارقَه الناس وبقي يحمل النور بين جنبيه، وليس من حوله إلا الزوج الوفية تفيض عليه من إيمانها وودّ قلبها.

وطول المدة لا شكّ في أثره العميق في نفس أيوب، وسوء ظن الناس به له أثره كذلك.

وابتلاه الله كوالد فَقَد أولاده وهو أشد ما يكون حاجة إليهم، وابتلاه كغني كان يعيش في الخير والدور العامرة فَفَقد كل شيء، وليس من حوله إلا الضيق والفاقة والحرمان.

وابتلاه كرجل كان يكسب المال ويجمع الثراء العريض فأصبح عاجزاً لا يقدر على الكسب فتقوم زوجته بالخدمة والعمل لتقدم له الطعام وتقوم على أمره. وعزيز على نفس الرجل أن يرى نفسه عالة على زوجه.

إن محنة أيوب شاملة مسَّت فيه الآلام كل ناحية من نواحي الحياة

الإنسانية: مادية ومعنوية.. ففيها تذكير بالنبي الصابر سجلها القرآن الكريم ﴿**إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد إنه أوّاب**﴾ [ص: ٤٤]، فكل فرد في هذه الحياة مُعرض للخير والشر. والعاملون في سبيل الله أشد الناس تعرضاً للأذى ولا بد أن يضع الخالق الرحيم نماذج إنسانية رائعة تبين لنا التحمل في سبيل الحق، وتعطينا زاداً يعيننا على السير في الطريق إلى الله.

والفرد قد يُدرك السبب الذي من أجله حدث البلاء، وهو بهذا يستطيع أن يربط الأسباب بالنتائج، وقد يكون البلاء من الدقة والعمق بحيث تغيب حكمته من الذهن. وهنا يُدركنا القرآن فيعطينا نماذج من الثقة القوية بالله والصبر على البلاء أعواماً طوالاً دون أن يتطرق الشك أو الريب إلى النفس المجاهدة الصابرة.

وناحية هامة لها مكانها الكبير في هذه القصة هي أن أيوب ـ عليه السلام ـ ظلَّ يبذل جهده وامرأته ظلت تعمل وتقوم عليه وتعوله.. ومع هذا **احتفظت هذه الأسرة النبوية بموقف متزن من البلاء النازل والعمل لدفع السوء**. فليس في موقف أيوب استكانة وضعف، وليس فيه ثورة باطلة، **وإنما فيه الصبر على القضاء والعمل على دفعه**.

فالعبرة الأساسية في هذه القصة أنها نموذج بشري صنعه الله ليكون رمزاً للإيمان واليقين. إيماناً لا تُزحزحه المِحَن، يجمع بين الصبر على القضاء والعمل على دفعه، وتعطينا مثلاً سامياً في تحمل المؤمن بلاء الله دون أن يُدرك علاقة واضحة في حياته وابتلاء الله إياه.

عبودية:

لقد كانت أمواج الفتن تحاول دفع أيوب عن طريق الله، ولكنه كان يُولّي وجهه شطر ربّه، ويعود إليه دائماً، وأبقى قلبه محراباً لا يعبد فيه إلا الله ولا يُعظم أحداً سواه. ولهذا وصفه الله بالعبودية فقال: ﴿**واذكر عبدنا أيوب... إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد إنه أواب**﴾ واعتبره مثلاً للعابدين فقال: ﴿**وآتيناه**

أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾.

والقرآن يذكر لفظ العبد في أكرم مواقف الرسل مما يدل على أن أيوب بعد أن نجح في هذه الامتحانات المتوالية استحق التقدير الإلهي والوسام السماوي نقرأ في صحيفته قول الله **﴿نِعْمَ العبد إنه أوّاب﴾**.

ونبيُّنا ـ ﷺ ـ وصفه ربّه بالعبودية في أكرم مواقف الدعوة **﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾** [البقرة: ٢٣].

وقال عنه في ليلة الإسراء **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾** [الإسراء: ١].

وقال في ليلة المعراج **﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾** [النجم: ١٠].

وهذه كلها مواقف يتجلى فيها تجرد الفرد لربه فلا يبقى إلا عَبد وربّ. ولهذا نجد لفظ «الربّ» بالذات مستخدماً في هذه القصة في سورتي «ص» والأنبياء. وهو لفظ دال على الرعاية والتربية.

وفي خواتيم قصة أيوب نجد قول الله **﴿رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾**، وقوله **﴿رحمة مِنّا وذكرى لأولي الألباب﴾**.

فروح القصة تدل على أن الهدف كان دراسة وتجلية لهذا النموذج الرائع. وتسجيل النتيجة نجده في قوله تعالى: **﴿إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد إنه أوّاب﴾**.

فكَشْف السوء كان رحمة من الله تعالى.. والقصة أعدّها لتكون ذكرى للعابدين ولأولي الألباب. فهناك علاقة قوية بين القصة وكل عابد وصاحب عقل، والقرآن ذكرها لتكون لنا عبرة في الطريق إلى الله، وتطلعنا على الآفاق العليا التي صعد إليها المؤمنون على معارج من التحمُّل الكريمة والثقة الكاملة بالله. فلا تضطرب لنا نفس، ولا يفتر لنا عزم، ولا يقعدنا التفكير المنطقي الجامد عن أن تشيع في نفوسنا الاطمئنان إلى عدل الله وإن تأخر سنين طوالاً،

أو قال الناس عن المؤمنين الصادقين إن رحمة الله تخلت عنهم . .

إن أيوب كان في محنته قريباً من رحمة ربه، وكانت عين الله ترعاه في كل وقت وحين ومكان. والمؤمن في حياته وهو يسير إلى الله وإن غابت عنه حكمة البلاء فليذكر أيوب ـ عليه السلام ـ ذلك المَثَل الصادق في عبوديته للّه تعالى الذي قال عنه ربّه بعد البلاء الطويل: ﴿إنا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد إنه أوّاب﴾.

إنها محنة أساسها الإيمان والصبر، وتسجيل ما يستطيع الفرد أن يتحمله من القضاء الذي لا يدري له سبباً دون أن يفقد ثقته بالله عز وجل[1].

سنّة الله في الابتلاء:

إن البلاء والفتنة سُنّة جارية لامتحان القلوب. . فالإنسان يعلن كلمة الإيمان في الصحة والرخاء. يحسبها خفيفة الحمل هينة المؤونة، لا تكلف نطقها باللسان، فإذا أوذي في أهله أو في نفسه أو في ماله، استقبل البلاء في جزع، واختلت في نفسه القيم، ورجفت في ضميره العقيدة، وتهاوت ثقته بالله . .

﴿أحسب الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ٢٢١].

إنه الحديث عن الإيمان والفتنة، وعن تكاليف الإيمان الحقة التي تكشف عن معدنه في النفوس. فليس الإيمان كلمة تقال باللسان، إنما هو الصبر على المكاره واستقبال قضاء الله في رضا واطمئنان.

والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله؛ مُغيب عن علم البشر؛ فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم.

(١) عبد العزيز كامل: «البناء والهدم» ص ٥٠.

ومن البلاء والفتنة أن يتعرض المؤمن في نفسه وأهله وأحباءه وماله، وهو شاق وعسير. فإذا طال الأمد.. كان البلاء أشد وأقسىٰ. ولم يثبت على إيمانه إلا مَن عصم الله على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء.

ـ عن معاوية، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما بقي من الدنيا إلا بلاءٌ وفتنة»(١).

فيجب على المؤمن أن يُوَطِّن نفسه على تحمل المحن والبلايا.. والصبر على بلاء الله تعالى لا يقدر عليه إلا الأنبياء والصديقين فإنه شديد على النفس ولذلك قال ـ ﷺ ـ: «أسألك من اليقين ما تهوّن عليّ به مصائب الدنيا»(٢)، فهذا صبر مستنده حسن اليقين.

ـ عن مصعب بن سعد عن أبيه، قال: يا رسول الله، مَنْ أَشدُّ الناس بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأَمْثَلَ فالأمثل، يُبتَلَى العبدُ على حسب دينه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبد حتى يَدَعهُ يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»(٣).

وفي رواية قال: قلتُ: يا رسول الله، أي الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجلُ على حسب دينه، فإن كان دينُه صلباً اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رِقّة ابتُلي على حسب دينه، فما يبرحُ البلاء بالعبد حتى يتركَه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»(٤).

ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن يُرد اللّهُ به خيراً يُصبْ منه»(٥).

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، وابن ماجه في الفتن، وإسناده قوي. انظر تخريج الحديث في الإحسان رقم (٦٩٠) و (٢٩٨٩).

(٢) أخرجه الترمذي، والنسائي، والحاكم وصححه من حديث ابن عمر، وحسنه الترمذي.

(٣) أخرجه ابن حبان، والحاكم ١/٤١، إسناده حسن، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩٠٠).

(٤) أخرجه ابن حبان بإسناد حسن، والترمذي (٢٣٨٩) في الزهد وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد وابن ماجة، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩٠١).

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٤٥)، وابن حبان، وهو في الموطأ ٢/٩٤١، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩٠٧).

ـ وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الرجل لَتكون له المنزلةُ، فما يبلغها بعمل، فلا يزال الله يَبْتَليه بما يَكره حتى يُبَلِّغَه إياها»(١).

ـ عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا يُصيب المرءَ المؤمنَ مِن نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حُزنٍ ولا غَمٍّ ولا أذىً حتى الشوكةُ يُشاكها إلا كفَّر الله عنه بها خطاياه»(٢).

والصبر هو زاد المؤمن في الطريق إلى الله، في رحلة الحياة ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ [الانشقاق: ٦].

وحقيقة الكدح هي المستقرة في حياة الإنسان. إنه لن يجد الراحة في الأرض أبداً. إنما الراحة هناك لِمَن يقدم لها بالطاعة والاستسلام.. فالنهاية في آخر المطاف إلى الله.. فمَن صبر واستسلم للّه فهو إلى نعيم يمسح على آلام الأرض كأنه لم يكن كدح ولا كدّ ولا بلاء..

ـ عن صهيب أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «عجباً لأمر المؤمن. إن أَمْرَهُ كُله خير، إن أصابتْه سرّاء شَكَر، وإن أصابتْه ضرَّاء صَبَر، وكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»(٣).

وهذا خير للمسلم الصابر عند الضرّاء، والشاكر عند السرّاء.

ـ عن أبي هريرة عن رسول الله قال: «مَثَلُ المؤمنِ كالزّرعِ لا تزالُ الريحُ تُفيئه، ولا يزال المؤمن يُصيبُه البلاء، ومثل المنافق كالشجرة الأَرْز لا تهتز حتى تُسْتَحصَد»(٤).

---

(١) أخرجه ابن حبان بإسناد حسن، وذكره الهيثمي في «المجمع» ٢/٢٩٢ وقال: رواه أبو يعلى ورجاله ثقات، وأخرجه الحاكم ١/٣٤٤. انظر الإحسان رقم (٢٩٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤١) و(٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣)، وابن حبان في صحيحه. انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩٠٥).

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢٩٩٩)، وابن حبان، وأحمد، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٨٩٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٠٩)، وأحمد ٢/٢٨٣، وابن حبان بإسناد صحيح. انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩١٥).

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا اشتكى المؤمنُ، أَخْلَصَهُ ذلك كما يُخْلِصُ الكيرُ خَبثَ الحديد»[1] .

قال الحكيم الترمذي: «المريض قد توسّخ وتدنّس وتكدّر طيبه، فأبى الله أن يضيعه، فسلّط عليه السَّقم، حتى إذا تمت مدة التمحيص خرج منها كالبردة في الصفاء، وفي وجهه طلاوة وحلاوة.

وقد أمر الله العباد أن يحفظوا جوارحهم عن الدنس لجوار القدس، فتركوا الرعاية، وضيّعوا الحفظ، فدلَّهم على أن يتطهروا بالتوبة، فلم يفعلوا، وأصروا على جهد من نفوسهم الشهوانية، ثم دعاهم إلى الفرائض ليتطهروا بها فخلطوها وغشوها، وأدّوها على النقصان والوسوسة والمكاسب الرديئة، فلم تكن مطهرة لهم، إذ لا تُطَهِّرُ النجاسة بالنجاسة، ولا يُنَقّى الدنس بالوسخ، فلما رأى حالتهم هذه رحمهم، فداواهم بالأسقام ليطهرهم، فإذا قابل المريض ذلك بالصبر أخرجه صافياً طاهراً».

ـ عن عبد الله بن المغَفَّل أن رجلاً لقي امرأةً كانت بَغيّاً في الجاهلية، فجعلَ يُلاعبها حتى بسطَ يَده إليها، فقالت: مَهْ فإنَّ الله قد أذهبَ بالشركِ وجاء بالإسلام، فتركها وولَّى، فجعلَ يلتفت خلفَهُ وينظر إليها حتى أصابَ وَجْهَهُ حائطاً، ثم أتى النبي ـ ﷺ ـ والدمُ يسيلُ على وجهه فأخبرهُ بالأمر، فقال ـ ﷺ ـ: «أنت عبدٌ أرادَ الله بكَ خيراً» ثم قال: «إنَّ الله جلَّ وعلا إذا أراد بعبد خيراً، عَجَّل عقوبة ذنبِه، وإذا أراد بعبد شراً أمسكَ عليه ذنبَهُ حتى يوافي يوم القيامة كأنه عير».

وقوله: «عير» وهو جبل بالمدينة، شبَّه عِظَم ذنوبه به[2].

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يزالُ البلاءُ بالمؤمن

---

(١) أخرجه ابن حبان بإسناد صحيح، انظر تخريجه في الإحسان (٢٩٣٦).

(٢) أخرجه ابن حبان بإسناد صحيح، والحاكم ١/٣٩٤ و ٤/٣٧٦، وصححه ووافقه الذهبي، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩١١).

والمؤمنة في جسده وماله ونفسِه حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة»[1].

قال أبو حاتم: «إن الله جَلّ وعلا جَعل العِلَلَ في هذه الدنيا، والغموم والأحزان سببِ تكفير الخطايا عن المسلمين، فكل إنسان مُرتَهنٌ بما كسبت يداه، والعِللُ تُكفِّر بعضها عنه في هذه الدنيا».

إن ألفاظ الوعد بالمغفرة لِمَن به المحن والبلايا لمن حَمِدَ الله فيها دون مَن سَخِطَ حُكْمَهُ. وكان ابن عباس يُكْثِرُ أن يُحَدِّث بهذا الحديث: أن ابنةً لرسول الله ـ ﷺ ـ حَضرتْها الوفاة، فأخذها، فجعلها بين يديه، ثم احتضنها وهي تُنْزَع حتى خرج نفسُها وهو يبكي، فَوضَعها، فصاحت أمُ أيمن، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تبكي» فقالت: ألا أرى رسول الله ـ ﷺ ـ يبكي؟ قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن أبكِ فإنما هي رحمةٌ، المؤمن بكلِّ خير تخرج نفسُه من بَين جَنْبَيه وهو يحمد الله»[2].

يقول الإمام الغزالي: «ولا يُخرج المؤمن عن حدّ الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع، إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء، ولأن البكاء توجع القلب على الميت فإن ذلك مُقتضى البشرية... بل ذلك أيضاً لا يُخرج عن مقام الرضا»[3].

وتدل الآثار النبوية على أن الصالحين قد شُدّد عليهم الأوجاع تكفيراً لخطاياهم.. قالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيتُ الوجَعَ على أَحدٍ أشدّ منه على رسول الله ـ ﷺ ـ»[4].

---

(١) أخرجه ابن حبان بإسناد حسن، وأحمد ٢/٤٥٠، والحاكم ١/٣٤٦ وصححه ووافقه الذهبي، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩١٣)، وانظر الإحسان (٢٩٢٤).

(٢) أخرجه ابن حبان، رجاله ثقات، رجال الصحيح، وهو صحيح، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩١٤). وأم أيمن هي حاضنة رسول الله ـ ﷺ ـ.

(٣) الأحياء (دار المعرفة) ٤/٧٣.

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٦) ومسلم (٢٥٧٠) وابن حبان بإسناد صحيح، انظر الإحسان (٢٩١٨).

http://al-maktabeh.com

وعن عائشة رضي الله عنه أن النبي - ﷺ - جعل يشتكي ويَتَقَلَّبُ على فراشه، فقالت له عائشة: لو صَنعَ هذا بعضُنا لوجدتَ عليه. فقال النبي - ﷺ -: «إن الصالحين قد يُشدَّد عليهم وإنه لا يُصيب مؤمناً نَكْبَة من شوكة فما فوقها إلا حُطَّتْ عنه بها خطيئة، ورُفِعَ له بها درجة»[1].

والصبر ألوان، لا لهدف غير ابتغاء وجه الله ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ [الرعد: ٢٢].

الصبر على نعمته وبلواه. صبر التسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضا والاقتناع. وهو يعد الصابرين أجراً حسناً: ﴿ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل: ٩٦]، ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾ [المؤمنون: ١١١].

وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف جليلة، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له. فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ [الزمر: ١٠].

---

(١) أخرجه أحمد ١٥٩/٦، وصححه الحاكم ٣١٩/٤ ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد ٢١٥/٦، والحاكم ٣٤٥/١ من طريقين. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وابن حبان في صحيحه، انظر تخريجه في الإحسان رقم (٢٩١٩) وانظر الإحسان رقم (٢٩٠٦) و(٢٩٢٥).

قصة أصحاب القرية

يعرض القرآن الكريم قضية الوحي والرسالة، وقضية البعث والحساب، يعرضهما في صورة قَصصية، بعد عرضهما في الصورة التقريرية المعهودة في أغلب سور القرآن.

يعرضهما في سورة يَس في صورة قصصية. تلمس القلب بما كان من مواقف التكذيب والإيمان وعواقبهما معروضة كالعيان:

﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث، فقالوا: إنا إليكم مرسلون﴾ [يَس: ١٣، ١٤].

ولم يذكر القرآن مَن هم أصحاب القرية. وقد اختلفت فيها الروايات. ولا طائل وراء الجري مع هذه الروايات.

وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة وإيحائها. ومن ثم أغفل التحديد، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها. فهي قرية أرسل الله إليها رسولين. كما أرسل موسى وأخاه هارون ـ عليهما السلام ـ إلى فرعون وملئه. فَكَذَّبهما أهل تلك القرية، فَعَزَّزهما الله برسول ثالث يؤكد أنه وأنهما رُسل من عند الله. وتقدموا ثلاثتهم بدعواهم ودعوتهم من جديد **﴿فقالوا: إنا إليكم مرسلون﴾**..

هنا اعترض أهل القرية عليهم بالاعتراضات المكرورة في تاريخ الرسل والرسالات . .

﴿قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ . . ﴿وما أنزل الرحمٰن من شيء﴾ . . ﴿إن أنتم إلا تكذبون﴾ [يٓس : ١٥] .

وهذا الاعتراض المُتكرر على بَشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول. فقد كانوا يتوقعون دائماً أن يكون هناك سرّ غامض في شخصية الرسول وحياته تكمن وراءه الأوهام والأساطير. أليس رسول السماء إلى الأرض فكيف لا تحيط به الأوهام والأساطير؟ كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها؟! شخصية بشرية عادية من الشخصيات التي تمتلىء بها الأسواق والبيوت؟!

وهذه هي سذاجة التصور والتفكير. فالأسرار والألغاز ليست صفة ملازمة للنبوة والرسالة. وليست في هذه الصورة الساذجة الطفولية . وإن هنالك لسراً هائلاً ضخماً، ولكنه يتمثل في الحقيقة البسيطة الواقعة. حقيقة إيداع إنسان من هؤلاء البشر الاستعداد اللّدني الذي يتلقى به وحي السماء، حين يختاره الله لتلقي هذا الوحي العجيب. وهو أعجب من أن يكون الرسول مَلَكاً كما كانوا يقترحون!

والرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية. وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي. النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به. وهم بشر. فلا بد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجاً من الحياة يملكون هم أن يُقلدوه.

ومن ثم كانت حياة الرسول ـ ﷺ ـ معروضة لأنظار أمته. وسجّل القرآن ـ كتاب الله الثابت ـ المعالم الرئيسية في هذه الحياة بأصغر تفصيلاتها وأحداثها، بوصفها تلك الصفحة المعروضة لأنظار أُمته على مدار السنين والقرون. ومن هذه التفصيلات حياته المنزلية والشخصية. حتى خطرات قلبه

سجلها القرآن في بعض الأحيان، لتطلع عليها الأجيال وترى فيها قلب ذلك النبي الإنسان.

ولكن هذه الحقيقة الواضحة القريبة هي التي ظلت موضع الاعتراض من بني الإنسان!

ولقد قال أهل تلك القرية لرسلهم الثلاثة: ﴿**ما أنتم إلا بشر مثلنا**﴾.. وقصدوا أنكم لستم برسل.. ﴿**وما أنزل الرحمٰن من شيء**﴾.. مما تدّعون أنه نزله عليكم من الوحي والأمر بأن تدعونا إليه. ﴿**إن أنتم إلا تكذبون**﴾.. وتدّعون أنكم مرسلون!

وفي ثقة المطمئن إلى صِدقه، العارف بحدود وظيفته أجابهم الرسل: ﴿**قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون. وما علينا إلا البلاغ المبين**﴾ [يٓس: ١٦ ـ ١٧]..

إن الله يعلم. وهذا يكفي. وإن وظيفة الرسل البلاغ. وقد أدّوه. والناس بعد ذلك أحرار فيما يتخذون لأنفسهم من تصرف. وفيما يحملون في تصرفهم من أوزار. والأمر بين الرسل وبين الناس هو أمر ذلك التبليغ عن الله؛ فمتى تحقق ذلك فالأمر كله بعد ذلك إلى الله.

ولكن المكذبين الضالين لا يأخذون الأمور هذا المأخذ الواضح السهل اليسير؛ ولا يطيقون وجود الدعاة إلى الهدى؛ فتأخذهم العزة بالإثم؛ ويعمدون إلى الأسلوب الغليظ العنيف في مقاومة الحجة لأن الباطل ضيق الصدر عربيد:

﴿**قالوا: إنا تطيرنا بكم! لئن لم تنتهوا لنرجمنكم، وليمسنكم منا عذاب أليم**﴾ [يٓس: ١٨].

قالوا: إننا نتشاءم منكم؛ ونتوقع الشر في دعوتكم؛ فإن لم تنتهوا عنها فإننا لن نسكت عليكم، ولن ندعكم في دعوتكم: ﴿**لنرجمنكم، وليمسنكم منا عذاب أليم**﴾..

وهكذا أسفر الباطل عن غشمه؛ وأطلق على الهداة تهديده؛ وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة، وعربد في التعبير والتفكير!

ولكن الواجب المُلقى على عاتق الرسل يقضي عليهم بالمضي في الطريق: ﴿قالوا: طائركم معكم﴾ [يٓس: ١٩].

فالقول بالتشاؤم من دعوة أو من وَجْه هو خرافة من خرافات الجاهلية. والرسل يُبَيّنون لقومهم أنها خرافة؛ وأن حظّهم ونصيبهم من خير ومن شرّ لا يأتيهم من خارج نفوسهم. إنما هو معهم. مرتبط بنواياهم وأعمالهم، متوقف على كسبهم وعملهم. وفي وسعهم أن يجعلوا حظّهم ونصيبهم خيراً أو أن يجعلوه شراً. فإن إرادة الله بالعبد تُنفذ من خلال نفسه، ومن خلال اتجاهه، ومن خلال عمله. وهو يحمل طائره معه، هذه هي الحقيقة الثابتة القائمة على أساس صحيح. أما التشاؤم بالوجوه، أو التشاؤم بالأمكنة، أو التشاؤم بالكلمات.. فهو خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم.

وقالوا لهم: ﴿أإن ذُكرتم؟﴾.. يعني أترجُموننا وتُعذّبوننا لأننا نُذكركم! أفهذا جزاء التذكير؟

﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ [يٓس: ١٩]..

تتجاوزون الحدود في التفكير والتقدير؛ وتُجازون على الموعظة بالتهديد والوعيد؛ وتَردُّون على الدعوة بالرجم والتعذيب.

تلك كانت الاستجابة من القلوب المُغلقة على دعوة الرسل. وهي مَثَل للقلوب التي واجهت الرسل على مدار الزمان؛ وصورة واقعية لذلك النموذج البشري المرسوم هناك.

فأما النموذج الآخر الذي اتبع الذكر وخشي الرحمٰن بالغيب، فكان له مسلك آخر وكانت له استجابة غير هذه الاستجابة:

﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى؛ قال: يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا مَن لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ [يٓس: ٢٠ ـ ٢١].

إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة. فيها الصدق. والبساطة. والحرارة. واستقامة الإدراك. وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين.

فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه. وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يُطق عليها سكوتاً؛ ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور؛ ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره. سعى به إلى قومه وهم يُكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون. وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كَفِّهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبّوه على المرسلين.

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان. ولم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته. ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها.. ﴿**قال: يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا مَن لا يسألكم أجراً وهم مهتدون**﴾..

إن الذي يدعو مثل هذه الدعوة، وهو لا يطلب أجراً، ولا يبتغي مغنماً.. إنه لصادق. وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يلبي تكليفاً من الله؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هذه الدعوة؟ ومجابهة الناس بغير ما أَلِفوا من العقيدة؟ والتعرض لأذاهم وشرّهم واستهزائهم وتنكيلهم، وهو لا يجني من ذلك كسباً، ولا يطلب منهم أجراً؟

﴿**اتبعوا مَن لا يسألكم أجراً**﴾.. ﴿**وهم مهتدون**﴾..

وهُداهم واضح في طبيعة دعوتهم. فهم يَدعون إلى إله واحد. ويدعون إلى نهج واضح. ويدعون إلى عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض. فهم مهتدون إلى نهج سليم، وإلى طريق مستقيم.

ثم عاد يتحدث إليهم عن نفسه هو وعن أسباب إيمانه، ويناشد فيهم الفطرة التي استيقظت فيه فاقتنعت بالبرهان الفطري السليم:

﴿**وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه تُرجعون؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردني الرحمٰن بضرّ لا تغنِ عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون؟ إني إذاً لفي ضلال مبين**﴾ [يٓس: ٢٢ - ٢٤]. .

والقصة تتعرض لقضية الألوهية والوحدانية، فيجيء استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة ليحاجّ قومه في شأن المرسلين. .

إنه تساؤل الفطرة الشاعرة بالخالق، المشدودة إلى مصدر وجودها الوحيد. . ﴿**وما لي لا أعبد الذي فطرني؟**﴾ وما الذي يحيد بي عن هذا النهج الطبيعي الذي يخطر على النفس أول ما يخطر؟ إن الفِطر مجذوبة إلى الذي فَطَرها، تتجه إليه أول ما تتجه، فلا تنحرف عنه إلا بدافع آخر خارج على فطرتها. ولا تلتوي إلا بمؤثر آخر ليس من طبيعتها. والتوجه إلى الخالق هو الأَوْلى، وهو الأول، وهو المُتَجه الذي لا يحتاج إلى عنصر خارج عن طبيعة النفس وانجذابها الفطري، والرجل المؤمن يحسّ هذا في قرارة نفسه، فيعبر عنه هذٰا التعبير الواضح البسيط، بلا تكلف ولا لفّ ولا تعقيد!

وهو يحس بفطرته الصادقة الصافية كذلك أن المخلوق يرجع إلى الخالق في النهاية. كما يرجع كل شيء إلى مصدره الأصيل. فيقول: ﴿**وإليه ترجعون**﴾. .

ويتساءل لِمَ لا أعبد الذي فطرني، والذي إليه المرجع والمصير؟ ويتحدث عن رجعتهم هم إليه. فهو خالقهم كذلك. ومن حقه أن يعبدوه.

ثم يستعرض المنهج الآخر المخالف للمنهج الفطري المستقيم. فيراه ضلالاً بيناً: ﴿**أأتخذ من دونه آلهة إن يُردنِ الرحمٰن بضرّ لا تغنِ عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون؟**﴾. .

وهل أضل ممن يدع منطق الفطرة الذي يدعو المخلوق إلى عبادة خالقه، وينحرف إلى عبادة غير الخالق بدون ضرورة ولا دافع؟

وهـل أضل ممّن ينحـرف عن الخالق إلى آلهـة ضعاف لا يحمـونه ولا يدفعون عنه الضر حين يريد به خالقه الضر بسبب انحرافه وضلاله؟

﴿إني إذاً لفي ضلال مبين﴾ . .

والآن وقد تحدّث الرجل بلسان الفطرة الصادقة العارفة الواضحة يقرر قراره الأخير في وجه قومه المكذبين المُهَدّدين المُتوعدين. لأن صوت الفطرة في قلبه أقوى من كل تهديد ومن كل تكذيب:

﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ [يّس: ٢٥]. .

وهكذا ألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنـة. وأشهدهم عليهـا. وهو يوحي إليهم أن يقولوها كما قالها. أو أنه لا يبالي بهم ماذا يقولون!

ويوحي سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يُمهلوه أن قتلوه. وإن كان لا يُذكر شيئاً من هذا صراحة. إنما يستدل الستار على الدنيا وما فيها، وعلى القوم وما هم فيه؛ ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذي جهر بكلمـة الحق، مُتبعاً صـوت الفطرة، وقذف بها في وجوه مَن يملكـون التهديـد والتنكيل. نـراه في العالم الآخر. ونطلع على ما ادخر الله له من كـرامة. تليق بمقـام المؤمن الشجاع المُخلص الشهيد:

﴿قيل: ادخل الجنة. قال: يا ليت قومي يعلمـون. بما غفـر لي ربي وجعلني من المُكْرَمين﴾ [يّس: ٢٧].

وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة. ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء. وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة. ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق. ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم. ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين.

ونرى الرجل المؤمن. وقد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفـرة والكرامة، يذكر قومه طَيِّب القلب رضي النفس، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة، ليعرفوا الحق، معرفة اليقين.

هذا كان جزاء الإيمان. فأما الطُغيان فكان أهون على الله من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره. فهو ضعيف ضعيف:

﴿**وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء. وما كنا مُنزلين. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون**﴾ [يّس: ٢٨، ٢٩].

ولا يطيل هنا في وصف مصرع القوم، تهويناً لشأنهم، وتصغيراً لقدرهم. فما كانت إلا صيحة واحدة أَخمدت أنفاسهم..

ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل!

وبعد المَثَل الذي ضَرَبه الله في قصة أصحاب القرية المكذبين؛ وما انتهى إليه أمرهم ﴿**فإذا هم خامدون**﴾.. يعقب القرآن الكريم بالتعميم في موقف المكذبين بكل مِلّة ودين؛ ويعرض صورة البشرية الضالة على مدار القرون، وينادي على العباد نداء الحسرة وهم لا يتعظون بمصارع الهالكين، الذين يذهبون أمامهم ولا يرجعون إلا يوم الدين: ﴿**وإن كل لما جميع لدينا محضرون**﴾ [يّس: ٣٢].

﴿**يا حسرة على العباد! ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون. ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون**﴾ [يّس: ٣٠ - ٣١]..

http://al-maktabeh.com

قصة ذي القرنين

المحتوى	ص
ـ العمل الصالح	١٢٣
ـ بناء السدّ	١٣٣
ـ المُلك والقوة والسلطان بين الكفر والإيمان	١٣٦
ـ خَبَر يأجوج ومأجوج	١٤٠

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة ذي القرنين

العمل الصالح:

وذو القرنين لا يُذكر في قصص القرآن لأنه مَلك، ولكن يُذكر لأعماله الصالحة. وحين يعرض عليه القوم الذين وَجدهم بين السَدَّين أن يبني لهم سداً يحميهم من يأجوج ومأجوج في مقابل أن يعطوه مالاً، فإنه يردّ عليهم ما عرضوه من المال، لأن تمكين الله له خير من أموالهم: ﴿**قال: ما مكني فيه ربي خير**﴾ [الكهف: ٩٥] وحين يُتم السد يرد الأمر للّه لا لقوته البشرية: ﴿**قال هذا من رحمة ربي..**﴾ [الكهف: ٩٨]..

يتحدث القرآن الكريم عن ذي القرنين، ورحلاته الثلاث إلى الشرق وإلى الغرب، وإلى الوسط، وبناؤه للسد في وجه يأجوج ومأجوج.

وتبدأ قصة ذي القرنين على النحو التالي: ﴿**ويسألونك عن ذي القرنين. قل سأتلو عليكم منه ذكراً**﴾ [الكهف: ٨٣]..

وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول سورة الكهف فقال: «حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سَلُوهم عن محمد، وَصِفُوا لهم صِفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء.. فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ـ ﷺ ـ ووصفوا لهم

أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالوا لهم: سَلُوه عن ثلاث نأمركم بهن. فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل مُتَقَوِّل تروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول. ما كان من أمرهم؟ فإنهم كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طَوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها. ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتَّبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل مُتَقَوِّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم..

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد. فقد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور.. فأَخْبروهم بها. فجاءوا رسول الله - ﷺ - فقالوا: يا محمد أخبرنا.. فسألوه عما أَمَرهم به. فقال لهم رسول الله - ﷺ -: «أُخبركم غداً عما سألتم عنه» - ولم يستثن[1] - فانصرفوا عنه.

ومكث رسول الله - ﷺ - خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل - عليه السلام - حتى أرجف أهل مكة؛ وقالوا: وَعَدَنَا محمد غداً، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يُخبرنا بشيء عما سألناه عنه. وحتى أحزن رسول الله - ﷺ - مكث الوحي عنه؛ وشقّ عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبرائيل - عليه السلام - من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿**ويسألونك عن الروح**..﴾ الآية.

هذه رواية.. وقد وردت عن ابن عباس رضي الله عنه رواية أخرى في سبب نزول آية الروح خاصة، ذكرها العوفي. وذلك أن اليهود قالوا للنبي - ﷺ -: أخبرنا عن الروح. وكيف تُعذَّب الروح التي في الجسد وإنما الروح من الله؟ ولم يكن نزل عليه شيء. فلم يحر إليهم شيئاً. فأتاه جبريل

---

(١) يعني لم يقل: إلا أن يشاء الله.

www.al-maktabeh.com

فقال له: ﴿قل: الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]. إلى آخر الرواية.

ولتعدد الروايات في أسباب النزول، نؤثر أن نقف في ظل النص القرآني المستيقن. ومن هذا النص نعلم أنه كان هناك سؤال عن ذي القرنين. لا ندري ـ على وجه التحقيق ـ مَن الذي سأله. والمعرفة به لا تزيد شيئاً في دلالة القصة. فلنواجه النص بلا زيادة.

إن النص لا يذكر شيئاً من شخصية ذي القرنين ولا عن زمانه أو مكانه. وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن. فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود. إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة. والعبرة تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان. والتاريخ المدون يعرف ملكاً اسمه الإسكندر ذو القرنين. ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكور في القرآن. فالإسكندر الإغريقي كان وثنياً[1]. وهذا الذي يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله موحد معتقد بالبعث والآخرة.

ويقول أبو الريحان البيروني المنجم في كتاب: «الآثار الباقية عن القرون الخالية» إن ذا القرنين المذكور في القرآن كان من حِمْيَر مستدلاً باسمه. فملوك حمير كانوا يُلقبون بذي. كذي نواس وذي يزن. وكان اسمه أبو بكر بن أفريقش. وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط، فمرّ بتونس ومراكش وغيرهما، وبنى مدينة إفريقية فسُميت القارة كلها باسمه. وسُمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس. وهذا قول قد يكون صحيحاً، ولعلماء الهند

---

(١) اختلف المفسرون في شخصية ذي القرنين. والقول الشائع المشهور إنه الإسكندر المقدوني، وهو القول الذي انتصر له الإمام الرازي وذهب إليه عامة علماء الإسلام، ولكنه قول لا وَجْه له لأن الإسكندر المقدوني لا تتحقق فيه الصفات التي ذكرها القرآن في وصف ذي القرنين، من اتصافه بالإيمان بالله وخشيته، والعدل والرأفة بالمفتوحين، وبناء السدّ العظيم، وأرجِّح أن هذا القول نشأ من عدم الاطلاع على تاريخ الإسكندر وسيرته في الحروب. (الأستاذ أبو الحسن الندوي ـ تأملات في سورة الكهف، مجلة المسلمون، المجلد السادس ص ٣٢٣).

اجتهاد تاريخي في ذكر ذي القرنين يقول الإمام أبو الحسن الندوي وكيل ندوة العلماء في الهند: «والشخصية التاريخية التي يصدق عليها وصف القرآن وينطبق أكثر من أي شخصية أخرى هي «سائرس» الذي يُسميه اليونان Syrus وتسميه اليهود «خورس» ويذكره المؤرخون العرب بـ «كيخسروا»، وخير ما قرأت في هذا الموضوع البحث المستفيض الذي كتبه مولانا أبو الكلام آزاد وزير المعارف السابق في الجمهورية الهندية في كتابه «ترجمان القرآن»، الجزء الثاني، وهنا خلاصته للقارىء العربي باختصار كبير:

ظهر سائرس في سنة ٥٥٩ قبل المسيح، وقد جمع بين مَمْلكتين فارسيتين عظيمتين كانتا قد انفصلتا منذ زمان وهما «ميديا» الجزء الشمالي الذي يعبر عنه المؤرخون العرب بـ «ماهات» وفارس الجزء الجنوبي، فكوَّن منهما امبرطورية فارسية عظمى. ثم امتدت فتوحه ومغامراته التي اتسمت بالعدل والكرم والانتصار للضعيف المظلوم فلم ينقضِ اثنا عشر عاماً حتى خضعت له البلاد والدول ما بين البحر الأسود إلى باختر Bactria.

وقد ثبت تاريخياً أنه غزا الغرب مرة فأوغل فيه إلى غرب آسيا الصغرى وفتح دولة ليديا التي كانت عاصمة ساردس Sardis حتى وصل إلى البحر في أقصى الغرب فوجده يموج وتراءت له الشمس تغرب فيه فتوقف هناك لعدم وجود البوارج الحربية، ولا يُستغرب إذا كان قد وصل إلى ساحل من سواحل بحر ايجه Agean Sea الواقع في جوار «سمرنا»، والبحر يتراءى هناك بحيرة، وقد تمثلت له الشمس في الأصل تغيب في الوحل الذي نشأ على ساحلها، وهو الذي يصوِّره القرآن بقوله: ﴿**وجدها تغرب في عين حمئة**﴾ [الكهف: ٨٦].

وغزا ثانية الشرق فوصل في هذه الغزوة إلى مكران وبلخ، وأخضع القبائل الهمجية التي ليست لها وقاية من الشمس لبعدها من المدينة ﴿**وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً**﴾ [الكهف: ٩٠]، ثم زحف على بابل العاصمة المنيعة فأنقذ اليهود «بني إسرائيل» من الذلّ والأسر والاضطهاد الذي سلّطه عليهم ملك بابل «بخت نصرّ» فأصبح بذلك مُنقذ اليهود، ولَهجوا

بذكره والثناء عليه والتساؤل عنه، وبذلك حقق نبوءات بني إسرائيل الواردة في التوراة.

وكانت له غزوة ثالثة في الشمال، وقد ترك بحر خزر Caspian Sea عن يمينه حتى وصل إلى جبال القفقاس، فوجد فجوة واقعة في هذه الجبال كان يدخل منها يأْجوج ومأجوج ويعيثون في البلاد، وهنا أقام السد.

وقد مات سائرس سنة ٥٢٩ ق. م وَوُجِدَ في سنة ١٨٣٨ م تمثال من رخام في أنقاض اصطخر Pasargadae ظهر في رأسه قرنان مثل قرني الكبش يمثلان مملكتي ميديا وفارس اللتين جَمَع بينهما سائرس، وبذلك سُمي ذا القرنين.

وقد شهد المؤرخون العصريون بِكَرم سائرس وشخصيته العادلة الفاضلة[١]، ويُرجِّح مولانا أبو الكلام أن المراد بالسدّين الفجوة الواقعة في جبال القفقاس التي عن يمينها بحر خزر الذي وقف سداً في طريق الشمال والشرق وعن شمالها البحر الأسود الذي أصبح الحاجز الطبيعي في الشمال الغربي، ووقعت بين ذلك الجبال الشامخة المنيعة فلم يبقَ منفذ للقبائل الشمالية وغاراتها إلا الفجوة الواسعة أو الوادي العريض الذي كان يتسرب منه القبائل الهمجية التي يسميها القرآن بيأجوج ومأجوج، ولصدّ غاراتهم بنى الصينيون الجدار الشهير. وكان من هذه الأمم المغول والتتار في العهد الأخير. وقد تحصنت بسدّها الرقعة الواقعة بين بحر خزر والبحر الأسود، وأصبحت آسيا الغربية محروسة مُحصَّنة. ويرجح الأستاذ أن السدّ هو المكان الذي يُسمّى Da-rial Pass ومحله في الخرائط الجديدة بين Valdi Kaukas وتَفْليس ويوجد هناك من قديم الزمان جدار يُذكَر بالروايات الأرمنية بالباب الحديدي[٢] ولا يزال

(١) مَن أراد التوسع في ذلك فليقرأ مقالة البرفسور B. Grundi. راجع المجلد الثاني من: Universal History of the World لمؤلفه J. A. Hammerton.

(٢) كشف سد بمقربة من مدينة «ترمذ» عُرف بباب الحديد. وقد مرَّ به في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي العالم الألماني (سيلد برجر) وسجله في كتابه. وكذلك ذكره المؤرخ =

يسمى في جارجيا بذلك لأنه يوجد فيه الألواح الحديدية. انتهى مختصراً»[1].

وهذا الاجتهاد قد يكون صحيحاً حول شخصية ذي القرنين. ولكننا لا نملك وسائل في تمحيص هذا الاجتهاد وذلك القول. ذلك أنه لا يمكن البحث في التاريخ المدون عن ذي القرنين الذي يقص القرآن طرفاً من سيرته، شأنه شأن كثير من القصص الوارد في القرآن كقصص قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم.

فالتاريخ مولود حديث العهد جداً بالقياس إلى عمر البشرية. وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة لا يُعرف عنها شيئاً. فليس هو الذي يُسْتَفْتَى فيها!

ولو قد سلمت التوراة من التحريف والزيادات لكانت مرجعاً يُعتمد عليه في شيء من تلك الأحداث. ولكن التوراة أحيطت بالأساطير التي لا شك في كونها أساطير. وشُحنت كذلك بالروايات التي لا شك في أنها مزيدة على الأصل المُوحَى به من الله. فلم تعد التوراة مصدراً مستيقناً لما ورد فيه من القصص التاريخي.

وإذن فلم يبقَ إلا القرآن: الذي حُفظ من التحريف والتبديل. هو المصدر الوحيد لما وَرَد فيه من القصص التاريخي.

ومن البديهي أنه لا تجوز محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين واضحين:

أولاً: أن التاريخ مولود حديث العهد، فاتَتْه أحداث لا تُحصى في تاريخ البشرية. لم يعلم عنها شيئاً. والقرآن يروي بعض هذه الأحداث التي ليس لها لدى التاريخ علم عنها!

= الاسباني (كلافيجو) في رحلته سنة ١٤٠٣ وقال: إن سد مدينة باب الحديد على الطريق بين سمرقند والهند. . وقد يكون هو السد الذي بناه ذو القرنين.

(١) مجلة المسلمون، المجلد السادس ص ٣٢٥.

وثانيهما: أن التاريخ ـ وإن وَعَى بعض هذه الأحداث ـ هو عمل من أعمال البشر القاصرة يُصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف. ونحن نشهد في زماننا هذا ـ الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص ـ أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد يُروى على أوجه شتى، ويُنظر إليه من زوايا مختلفة، ويُفسر تفسيرات متناقضة. ومن مثل هذا الركام يُصنع التاريخ، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق!

فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القَصَص، كلام تُنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر، قبل أن تُنكره العقيدة التي تُقرر أن القرآن هو القول الفصل. وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء. إنما هو مراء!!!

«وسواء كان سائرس هو الشخصية التي يذكرها القرآن بذي القرنين ويطلق عليه الصفات الكريمة والسيرة الصالحة التي جاءت في وصفها أو كان شخصية أخرى لم نهتدِ إلى اسمها وتفاصيلها التاريخية، فلا يضر ذلك قارىء القرآن ولا ينقصه، فهو رجل آتاه الله القوة والأسباب وعُلُوّ الهمّة والطموح المحمود ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً﴾[1]» [الكهف: ٨٤]..

* * *

لقد سأل سائلون عن ذي القرنين. سألوا الرسول ـ ﷺ ـ فأوحى إليه الله بما هو وارد هنا من سيرته. وليس أمامنا مصدر آخر غير هذا القرآن في هذه السيرة. فنحن لا نملك التوسُّع فيها بغير علم. وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة، ولكنها لا تعتمد على يقين. وينبغي أن تُؤخذ بِحَذَر، لما فيها من إسرائيليات وأساطير.

«لقد اتسعت فتوحاته وامتدت إلى أقصى الشرق «مطلع الشمس» وإلى

---

(١) أبو الحسن الندوي: تأملات في سورة الكهف، مجلة المسلمون، المجلد السادس: ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

أقصى الغرب «مغرب الشمس» فكان في كل فتوحاته ومغامراته صالحاً ومُصلحاً، منتصراً للحق، ناصراً للضعفاء، قاهراً للطغاة الأقوياء، وكان من مبدئه وخطته:

﴿قال: أما مَن ظَلَم فسوف نعذبه ثم يُرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نُكراً. وأما مَن آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يُسراً﴾ [الكهف: ٨٧ ـ ٨٨].

وما أفضله من مبدأ وما أعدله من خطة وما أقومه من خُلق وسيرة»[1].

وقد سجل السياق القرآني لذي القرنين ثلاث رحلات: واحدة إلى المغرب، وواحدة إلى المشرق، وواحدة إلى مكان بين السدّين. . فلنتابع السياق في هذه الرحلات الثلاث:

﴿ويسألونك عن ذي القرنين. قل: سأتلو عليكم منه ذكراً. إنَّا مكَّنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً﴾ [الكهف: ٨٣ ـ ٨٤].

يبدأ الحديث عن ذي القرنين بشيء عنه: **﴿إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً﴾**. .

لقد مكَّن الله له في الأرض، فأعطاه سُلطاناً وَطيد الدعائم، ويسَّر له أسباب الحكم والفتح، وأسباب البناء والعمران، وأسباب السلطان والمتاع. . وسائر ما هو من شأن البشر أن يُمَكَّنوا فيه في هذه الحياة.

﴿فأتبع سبباً﴾ [الكهف: ٨٥]، وقضى في وَجْه مِمَّا هو مُيَسَّر له، وسلك طريقه إلى الغرب **﴿حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حَمِئة، ووجد عندها قوماً. قلنا: يا ذا القرنين إما أن تُعذِّب وإما أن تَتخذ فيهم حسناً﴾** [الكهف: ٨٦].

ومغرب الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده

---

(١) انظر الهامش السابق.

وراء الأفق. وهو يختلف بالنسبة للمواضع. فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف جبل. وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الماء كما في المحيطات الواسعة والبحار. وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الرمال إذا كان في صحراء مكشوفة على مدّ البصر..

والظاهر من النص أن ذا القرنين غرَّب حتى وصل إلى نقطة على شاطىء المحيط الأطلسي ـ وكان يسمى بحر الظلمات ويُظن أن اليابسة تنتهي عنده ـ فرأى الشمس تغرب فيه.

والأرجح أنه كان عند مصبّ أحد الأنهار. حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ. وتوجد البرك وكأنها عيون الماء. فرأى الشمس تغرب هناك، و﴿**وجدها تغرب في عين حمئة**﴾.. ولكن يتعذّر علينا تحديد المكان، لأن النص لا يُحدده. وليس لنا مصدر آخر موثوق به نعتمد عليه في تحديده. وكل قول غير هذا ليس مأموناً لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح.

عند هذه الحمئة وجد ذو القرنين قوماً: ﴿**قُلنا: يا ذا القرنين إما أن تُعذِّبَ وإما أن تتخذ فيهم حسناً**﴾ [الكهف: ٨٦].

كيف قال الله هذا القول لذي القرنين؟ أكان ذلك وَحْياً إليه أم أنه حكاية حال. إذ سَلَّطه الله على القوم، وترك له التصرف في أمرهم فكأنما قيل له: دونك وإياهم. فإما أن تُعذِّب وإما أن تتخذ فيهم حُسناً؟ كِلاَ القولين مُمكن، ولا مانع من فَهم النص على هذا الوجه أو ذاك. والمهم أن ذا القرنين أعلن دستوره في البلاد المفتوحة، التي دانَ له أهلها وسَلَّطه الله عليها.

﴿**قال: أما مَن ظلم فسوف نُعذِّبه، ثم يُرد إلى ربه فيعذِّبه عذاباً نُكراً. وأما مَن آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى، وسنقول له من أمرنا يُسراً**﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨]..

أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوي وعقابه، وأنهم بعد ذلك يُردّون إلى ربهم فيعذّبهم عذاباً فظيعاً ﴿**نكراً**﴾ لا نظير له فيما يعرفه البشر. أما

المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن، والمعاملة الطيبة، والتكريم والمعونة والتيسير.

وهذا هو دستور الحُكم الصالح. فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم. والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء.. وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاءً حسناً، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة.. عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج.

أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مُقَرَّبون إلى الحاكم مقدّمون في الدولة؛ وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو مُحاربون. فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سَوط عذاب أو أداة إفساد. ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد.

* * *

ثم عاد ذو القرنين من رحلة المغرب إلى رحلة المشرق، مُمَكَّناً له في الأرض، مُيَسَّرة له الأسباب:

﴿ثم أتبع سبباً. حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً. كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً﴾ [الكهف: ٨٩ - ٩٠].

وما قيل عن مغرب الشمس يقال عن مطلعها. فالمقصود هو مطلعها من الأفق الشرقي في عين الرائي. والقرآن لم يحدد المكان، ولكنه وَصَف طبيعته وحال القوم الذي وجدهم ذو القرنين هناك:

﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾.. أي إنها أرض مكشوفة، لا تحجبها عن الشمس مرتفعات ولا أشجار. فالشمس تطلع على القوم فيها حين تطلع بلا ساتر.. وهذا الوصف ينطبق على الصحارى والسهوب الواسعة. فهو لا يُحدد مكاناً بعينه. وكل ما

نرجحه أن هذا المكان كان في أقصى الشرق حيث يجد الرائي أن الشمس تطلع على هذه الأرض المستوية المكشوفة، وقد يكون ذلك على شاطىء إفريقية الشرقي. وهناك احتمال لأن يكون المقصود بقوله: **﴿لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾** أنهم قوم عراة الأجسام لم يجعل لهم ستراً من الشمس..

ولقد أعلن ذو القرنين من قبل دستوره في الحكم، فلم يتكرر بيانه هنا، ولا تَصرّفه في رحلة المشرق لأنه معروف من قبل، وقد علم الله كل ما لديه من أفكار واتجاهات.

ونقف هنا وقفة قصيرة أمام ظاهرة التناسق الفني في العرض.. فإن المشهد الذي يعرضه السياق هو مشهد مكشوف في الطبيعة: الشمس ساطعة لا يسترها عن القوم ساتر. وكذلك ضمير ذي القرنين ونواياه كلها مكشوفة لعلم الله.. وكذلك يتناسق المشهد في الطبيعة وفي ضمير ذي القرنين على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة.

بناء السد:

«وواصل ذو القرنين فتوحه ومغامراته حتى وصل إلى أُمة تعيش في فَجوة من جَبَلين، تعيش في خطر داهم من أمة همجية وحشية وراء الجبال يذكرها القرآن وتذكرها الصحف السماوية بيأجوج ومأجوج، تعيش في حياة مضطربة دائماً، متصارعة دائماً، ورأوا أن الفرصة سانحة وأن الله قد قيّض لهم وساق إليهم مَلِكاً صالحاً قوياً فطلبوا منه أن يحفظهم من هؤلاء الوحوش المفسدين»[1].

﴿ثم أتبع سبباً. حتى إذا بلغ بين السَّدين وَجَد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً. قالوا: يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض. فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً؟ قال: ما مَكّني

---

(١) أبو الحسن الندوي: مجلة المسلمون، المجلد السادس: ٣٢٦.

فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾ [الكهف: ٩٢ ـ ٩٥]. .

ونحن لا نستطيع أن نجزم بشيء عن المكان الذي بلغ إليه ذو القرنين «بين السدين» ولا ما هما هذان السدان. كل ما يؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين، أو بين سَدَّين صناعيين. تفصلهما فجوة أو مَمَرّ. فوجد هنالك قوماً مُتخلفين: **﴿لا يكادون يفقهون قولاً﴾**. .

وعندما وجدوه فاتحاً قوياً، وتوسّموا فيه القدرة والصلاح. عرضوا عليه أن يقيم لهم سداً في وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجِزَين، ويُغيرون عليهم من ذلك الممر، فيعيثون في أرضهم فساداً؛ ولا يقدرون هم على دفعهم وصدّهم. . وذلك في مقابل خراج من المال يجمعونه لهم من بينهم.

وتبعاً للمنهج الصالح الذي أعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد في الأرض فقد ردّ عليهم عَرْضهم الذي عرضوه من المال؛ «وقبل طلبهم وَوَعَدهم ببناء السد واستغنى بما آتاه الله من الخير الكثير عن أموالهم بخلاف الملوك الطامعين، وطلب منهم أن يساعدوه بالسواعد وما يوجد في بلادهم من الحديد والفولاذ»[1].

وهكذا تطوع ذو القرنين بإقامة السد، ورأى أن أيسر طريقة لإقامته هي ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين؛ وطلب إلى أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية: **﴿فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً. آتوني زبر الحديد﴾** [الكهف: ٩٥].

فجمعوا له قطع الحديد، وكوّمها في الفتحة بين الحاجزين، فأصبحا كأنهما صدفتان تُغَلِّفان ذلك الكوم بينهما **﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾** وأصبح الركام بمساواة القمتين **﴿قال: انفخوا﴾** على النار لتسخين الحديد **﴿حتى إذا جعله ناراً﴾** كله لشدة توهّجه واحمراره **﴿قال: آتوني أُفرغ عليه**

(١) انظر الهامش السابق.

﴿قطراً﴾ أي نحاساً مذاباً يتخلل الحديد، ويختلط به فيزيده صلابة. وقد استخدمت هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد، فَوُجِدَ أن إضافة نسبة من النحاس إليه تُضاعف مقاومته وصلابته. وكان هذا الذي هدى الله إليه ذا القرنين، وسَجَّله في كتابه الخالد سبقاً لِلْعِلْم البشري الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله.

وبعد.. فقد تعاون الجميع في بناء هذا السدّ المبارك، الملك الصالح بحكمته وصُنَّاعه وأهل البلاد بأيديهم وحَديدهم. وتهيأ السد وتمَّ المشروع، وأَمِنَ القوم الأعداء وراء الجبلين الشامخين والسد المنيع، فقد التحم الحاجزان، وأُغلق الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه﴾ ويتسوّروه ﴿وما استطاعوا له نقباً﴾ فينفذوا منه. وتَعذّر عليهم أن يُهاجموا أولئك القوم الضعاف المُتَخلفين. فأَمِنُوا واطمأنوا.

ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به، فلم يأخذه البَطَر والغرور، ولم تُسكره نشوة القوة والعلم. ولكنه ذَكَر الله فشكره. ورد إليه العمل الصالح الذي وَفّقه إليه. وتبرأ من قوته إلى قوة الله، وفوّض إليه الأمر، وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستُدَكّ قبل يوم القيامة، فتعود الأرض سطحاً أجرد مستوياً.

﴿قال: هذا رحمة من ربي، فإذا جاء وعد ربي جعله دَكَّاء. وكان وعد ربي حقاً﴾ [الكهف: ٩٨].

وبذلك تنتهي هذه الحلقة من سيرة ذي القرنين. النموذج الطيب للحاكم الصالح، يمكّنه الله في الأرض، ويُيسر له الأسباب؛ فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً؛ ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه.. إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفع

العدوان وإحقاق الحق. ثم يُرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله.

المُلك والقوة والسلطان بين الكفر والإيمان:

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «وهنا تجلى الإيمان في الملك القوي الغني، القاهر للأمم، الفاتح للعالم، فحازها، وما سَها، وما تكبَّر، ولم يقل ﴿إنما أُوتيته على علم عندي﴾ [القصص: ٧٨]. . بل ردَّ الفضل في كل ذلك إلى الله تعالى، ولم يعتقد أن عمله دائم خالد، وأن السدَّ لا سبيل إليه، بل قال في فِقه المؤمن العليم، المؤمن بالآخرة، والعليم بضعف الإنسان وتَقَلّبات الزمان ﴿قال: هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكّاء، وكان وعد ربي حقاً﴾ [الكهف: ٩٨].

هذه سيرة الإنسان القوي العليم الذي يُسخِّر القوى الكونية والمادية ويملك أعظم مقدار من الأسباب والوسائل، ويوسِّع فتوحه ومغامراته، وهو في كل ذلك وفي أوج قوته وسلطته وسيادته، وتسخيره للقوى والأسباب، مُؤمن بربّه خاضع له، مؤمن بالآخرة ساعٍ لها، مقرّ بضعفه رحيم بالإنسانية وبالأمم الضعيفة، حام للحق، يستخدم كلَّ قوته وجهده ومواهبه وجميع وسائله وذخائره لخدمة الإنسانية وتكوين المجتمع الصالح وإعلاء كلمة الله وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الناس والمادة إلى عبادة الله، سيرة مَثَّلها سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ في عصره ومثَّلها ذو القرنين في عصره، ومثَّلها الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون في عصورهم.

وبالعكس من هذه النفسية والسيرة تظهر سيرة الشخصية التي تصفها السنّة الصحيحة بالدجال، الشخصية التي تتزعم الحضارة المادية في العصر الأخير والتي تبلغ النهاية والأوج في تسخير القوى والأسباب وتَملّكها، وتبلغ الغاية في الرقي المادي والتقدم الصناعي والانتفاع بالنواميس الطبيعية والتسلط

على الفضاء والخلاء، وتبلغ الغاية في القوة والسرعة، فقد جاء في الأحاديث والأخبار الصحيحة من أوصافها ما يدل على أنها زعيم هذه الحضارة المادية الميكانيكية التي بدأت تشتغل منذ قرون وأنها تبلغ الغاية في القـوة والسرعة وتسخـير القوى والأسبـاب، فقد جـاء في وصف هذه الشخصيـة «كالغيث استَدْبَرَتْه الريح»[1] وأنها تطوف حول العالم وتأتي على جميع الأماكن «فلا تدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة»[2] ويمكنها أن تبلّغ رسالتها وصَوتها إلى كل بقعة «ينادي بصوت له يسمع ما بين الخافقـين»[3] وتبلغ المنتهى في تسخير القوى وإخضاع آلات تسخر له أنهار الأرض وآثارها ويبلغ في ذلك إلى حدّ «يأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت»[4] وتطيعه الأرض «حتى يمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها»[5].

إن ذلك كله تصويـر للحضارة المـادية والصنـاعة الميكـانيكية والعلوم الطبيعية التي تبلغ غايتها ونهايتها ويتزعمهـا الدجّـال، ولكن ذلك لا يكفي ليجعله الدجّال ويلهج لسان النبوة بذمّه وتشنيعه والتحذير من فتنته، فقد مَلَك هـذه الأسباب والقـوى وذو القرنـين في عصره، وتحدّث القـرآن عن قوتهـما وسرعتهما وكثرة الأسباب والقوى التي كانا يملكانها، فما هي النقطة الفارقة بينهما وبين الدجّال، وما هو الخط الفاصل بين الملك الصالح والرجل القوي العليم الذي يمدحه الله تعالى ويقـول: ﴿نِعْمَ العبدُ إنـه أوَّاب﴾ [صٓ: ٣٠] وبين الشخصية الفتّانة التي حذّر منها الرسول، وخافها على أمته، واهتم بها هذا الاهتمام الكبير؟.

إن النقطة الفارقة والخط الفاصل أن سليمان وذا القرنين ومَن يشبههما من الأفراد والجماعات، قد جمعوا إلى القوة الفائقة والملك الواسع والحكمة المدهشة

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) كنز العمال.
(٤ و ٥) كنز العمال.

http://al-maktabeh.com

وتسخير القوى الطبيعية والأسباب المادية الإيمان الراسخ والعمل الصالح والسيرة الفاضلة، والمقاصد الخيِّرة والدعوة إلى الله وإلى الحق، واستخدام كل ما أوتوه من علم وحكمة وسبب وقوة في إسعاد البشرية وخدمة الإنسانية والرحمة والعدل.

أما الدجال فَسِمَته وطابعه الذي عرّف الرسول به أمته فهو «الكفر» بمعانيه الواسعة الكثيرة، فقد جاء في حديث صحيح: «أنه مكتوب بين عينيه ك ف ر يقرأه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب»(١).

وللدجال تأثير في الحياة والمجتمع. ويظهر من الأحاديث أنه داع مُتحمس نشيط مؤثِّر إلى الكفر والثورة على الأديان والأخلاق، فقد جاء في حديث آخر: «فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به الشُبهات»(٢)، ويستفحل أمره ودعوته حتى يستشري الفساد في النساء والبنات ويتغلغل في الأُسَر والبيوتات إلى «أن الرجل ليرجع إلى أُمّه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطاً»(٣).

ويستمر فساد المجتمع والتحلل الخلقي «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً وهم في ذلك دارٌّ أرزاقهم حسنٌ عيشهم»(٤).

إن الجمع بين القوة الهائلة وتسخير القوى والأسباب والاستيلاء على الكون، وبين الكفر والمادية، طابعُ الحضارة الغربية وسمتها وشعارها، فلم نعرف حضارة بلغت من القوة والتقدم وإخضاع القوى والأسباب ومن محاربة

---

(١) رواه البخاري وانظر بحث الدجال في فصل علامات الساعة في كتاب «اليوم الآخر في ظلال القرآن».
(٢) رواه أبو داود.
(٣) يقول الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في هذا الحديث: قد فتشت عنه في كتب السنّة التي تحت يدي فلم أعثر عليه، وغالب الظن أنه لا يثبت.
(٤) رواه مسلم.

الأديان والأخلاق والثورة على فاطر الكون وشرائعه والدعوة إلى عبادة المادة والنفس والشهوات وادعاء الربوبية ما بلغت هذه الحضارة. وقد كان من المصادفات الأليمة المُحْزنة والمآسي الفاجعة للبشرية أن هذه الحضارة قد ولدت وترعرعت في عصر قد ثار على الدين وأسسه من الإيمان بالغيب وغير ذلك، وفي أمة قد ثارت على الذين تزعَّموا الدين واستغلوه لشهواتهم وأنانياتهم، واشتد غضبها عليهم لسوء سيرتهم وهمجيتهم ووقوفهم في سبيل التقدم وحرية العقل والعلم[١]، فترافق نشوء الحضارة والصناعة والاتجاه المادي العنيف ـ الاتجاه إلى تنظيم الحياة على أسس مادية خالصة وقطع صلة المجتمع والبشرية عن فاطرها ومصرِّف هذا الكون، وكل ذلك اقتضته سلسلة الأسباب وطبائع الأشياء وَوَضْع أوربا الخاص، فشبَّت هذه الحضارة واختمرت وهي المسيطرة على القوى والأسباب، قد بلغت الغاية في التقدم والصناعة وعلوم الطبيعة حتى استطاعت أخيراً أن تعدم المسلحات والأبعاد وتجاوز الكرة الهوائية واستطاع القمر الروسي أن يطوف حول العالم في نحو مئة دقيقة [ووصلت إلى القمر]، إلى غير ذلك من الفتوح في دائرة العلوم الطبيعية والفلكية.

لقد شبَّت هذه الحضارة مسيطرة على الكون كافرة بالله مؤمنة بالمادة، ونشأ رجالها لا يؤمنون إلا بقوتهم وصناعتهم، ولا ينظرون إلا إلى فائدتهم ومصلحتهم، وأصبحت مراكزها الكبرى حرباً ـ بإعلان وبغير إعلان ـ على الأديان والأخلاق والنظم السماوية، وقرب الزمان الذي تبلغ فيه هذه الحضارة غايتها المادية والصناعية ويظهر زعيمها الأكبر الذي ينعته لسان النبوة ويُلَقِّبه بـ «الدجال» وهو في ذروة التقدم المادي والصناعي وأوج الكفر بالله والدعوة إلى المادية والإلحاد وعبادة الطبيعة والأسباب ومَن يسخرها ويسيطر عليها، تلك فتنة العصر الأخير وداهية العالم ومنتهى الحضارة المادية التي ظهرت قبل قرون.

إن هذه الحضارة هي التي تكفر بكل ما وراء هذا العالم المادي والحياة

---

(١) إقرأ تفصيل ذلك في كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للأستاذ أبي الحسن الندوي. الفصل الأول من الباب الرابع.

الدنيا، وتركِّز الجهود والمواهب وتكرِّسها على ترقية هذه الحياة وترفيهها وتحسينها إلى حدّ لا غاية بعده، وتقنع، بأدبها وفلسفتها، بأن الذي يجري وراء هذه الغاية ويبذل كل مواهبه وقواه في ترقية هذه الحياة وترفيهها هو الرجل الحاذق الحكيم الذي قد بلغ الغاية من الإحسان والإتقان وأقصى كمالات الإنسان، لذلك يقول الله في الآيات الأخيرة [في التعقيب على القصة] في صراحة ووضوح كأنه يخاطب رجال هذه الحضارة المادية بالتعيين ويُصوِّرهم تصويراً دقيقاً تتجسَّم فيه ملامحهم وقَسَمات وجوههم. وما أبلغ خاتمة [التعقيب على القصة] التي تكفلت الرد على المادية الملحدة وزعمائها الدجَّالين الذين إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون:

﴿قل هل نُنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذينَ ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحَبِطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وَزْناً﴾(1)» [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥]..

خبر يأجوج ومأجوج:

﴿قالوا: يا ذا القرنين: إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض..﴾ [الكهف: ٩٤]..

وبَعْد فَمَنْ يأجوج ومأجوج؟ وأين هم الآن؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون!

كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن، وفي بعض الأثر الصحيح.

والقرآن يذكر في هذا الموضع ما حكاه من قول ذي القرنين: **﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقاً﴾**.

---

(1) تأملات في سورة الكهف، مجلة المسلمون، المجلد السادس، ص: ٣٢٧ - ٣٣١.

http://al-maktabeh.com

وهذا النص لا يحدد زماناً. ووعد الله بمعنى وعده بدك السد ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار، وانساحوا في الأرض، ودمروا الممالك تدميراً.

ويقول الله ـ سبحانه ـ في سورة الأنبياء: ﴿**حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون. واقترب الوعد الحق...**﴾ [الأنبياء: ٩٦]..

وهذا النص كذلك لا يحدد زماناً معيناً لخروج يأجوج ومأجوج فاقتراب الوعد الحق بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول ـ ﷺ ـ فجاء في القرآن: ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ [القمر: ١] والزمن في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر. فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون، يراها البشر طويلة مديدة، وهي عند الله وَمْضة قصيرة.

وإذن فمن الجائز أن يكون السد قد فُتح في الفترة ما بين: ﴿**اقتربت الساعة**﴾ ويومنا هذا. وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق في انسياح يأجوج ومأجوج.

وهناك حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن سفيان الثوري عن عروة، عن زينب بنت أبي سلمة، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن أمها حبيبة، عن زينب بنت جحش ـ زوج النبي ـ ﷺ ـ قالت: استيقظ الرسول ـ ﷺ ـ من نومه وهو مُحمر الوجه وهو يقول: «ويل للعرب من شرّ قد اقترب. فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وحلق (بأصبعيه السبابة والإبهام). قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث».

وقد كانت هذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ونصف. وقد وقعت غارات التتار بعدها، ودمرت مُلك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد هولاكو في خلافة المستعصم آخر ملوك العباسيين. وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول ـ ﷺ ـ وعِلْم ذلك عند الله. وكل ما نقوله ترجيح لا يقين.

http://al-maktabeh.com

قصة يونس عليه السلام

المحتوى	ص
ـ تقديم	١٤٥
ـ المثل الوحيد	١٤٧
ـ تأمل وتدبر	١٥٠
ـ سنة الله	١٥٤
ـ قصة فريدة ودرس بليغ	١٥٧

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة يونس ـ عليه السلام ـ

ونمضي مع صفحة من صحائف الدعوة إلى الله في قصة البشرية، صفحة مُتَميّزة ودرس كبير، صفحة خالدة تصور تكاليف الدور العظيم، والتضحيات التي يتطلبها هذا الدور، والصبر على فساد الناس وعنادهم واستكبارهم. الصبر على الكيد بشتى صنوفه. الصبر على التواء النفوس وثقلة العناد ومضاضة الإعراض.

وترسم القصة مسارب الطريق وعبء الكفاح المثقل بأثقال الأرض، المكبل بأوهاق الحياة وأغلالها.. كما تظلل هذه التجربة النبوية مساحات كبيرة في أعماق الضمير الإنساني، وتحمل نسمات رخية موحية في إثبات قدرة الله تعالى ولطفه بعباده وإغاثته لهم حين ينقطع الرجاء ويغشى اليأس القاتل والظلام الحالك.. هنالك تبرز يد القدرة الإلهية الطليقة، القوية القاهرة، الرحيمة الحكيمة التي تُخرِج هذا الإنسان الضعيف من الضيق إلى السَّعة والرحمة، فهو سبحانه الذي يُقَدِّر. فما قَدَّر وَقع، وما شاء كان. الفعال لما يريد. البالغ ما يشاء.. فكل شيء مُقدر بقَدَره، وبزمانه، وبمكانه، وبملابساته، وبنتائجه وأسبابه..

وجرياً على سُنّة القرآن الكريم نجد أول إشارة تحدثت عن يونس ـ عليه السلام ـ وقد ذكرت مُبكرة سورة القَلَم، وهي السورة التي جاءت تسلية للنبي ـ ﷺ ـ. جاءت ترد التهم والافتراءات التي قَذَف المشركون بها رسول الله، ثم ترد عليهم وتبكتهم وتضرب له الأمثال، ويؤمر النبي ـ ﷺ ـ

بأن يصبر لحكم ربه، دون أن يستعجل ما ينبغي أن يحلّ بالمشركين، كما كان من صاحب الحوت: ﴿**فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم. .**﴾ [القلم: ٤٨].

ثم تأتي السورة التي خصَّ الله بها صاحب القصة وهي سورة يونس: ﴿**فلولا كانت قرية آمنت فَنَفَعَها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**﴾ [يونس: ٩٨] ثم تأتي سورة الصافات ثم الأنبياء(١).

وقد أشار القرآن الكريم للنبي يونس ـ عليه السلام ـ بـ (ذي النون) و (صاحب الحوت). والنون يطلق على الحوت كذلك.

ولقد سُمِّي ذا النون ـ أي صاحب الحوت ـ لأن الحوت التقمه ثم نَبَذه. وقصة تلك التجربة أن يونس بن متّى ـ سلام الله عليه ـ أرسله الله إلى أهل قرية. قيل اسمها نينوى(٢) بالموصل فدعا أهلها إلى الله. فاستبطأ إيمانهم، فاستعصوا عليه بعد أن جاءهم بالنُّذر، وأنذرهم وخوّفهم من عذاب الخزي والهلاك في الدنيا، والعذاب الأليم في نار جهنم يوم القيامة.

ولكن القوم لم يستجيبوا لدعوة يونس، ولم يخافوا من وَعيده بالعذاب، وأصروا على الباطل، واستكبروا، حتى يئس منهم بعد أن استبطأ إيمانهم، وشقّ عليه تلكؤهم، وضاق بهم صدراً، وغادرهم مغاضباً، ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم. فقد دعاهم فلم يُؤمنوا، وبصَّرهم فلم يَتدبروا، وجادلهم فلم يَستمعوا، وحسب أن الدعوة مقصورة على ما فَعل، وظن أنه يكفي لإبلاغها ما كان.

---

(١) سورة القلم: ٤٤ ـ ٥٠، يونس: ٩٨، الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨، الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨، الأنعام: ٨٦ ـ ٨٧.
انظر القصص القرآني ص ٣٤٤ ـ ٣٥١.

(٢) لا يذكر القرآن أين كان قوم يونس. ولكن المفهوم أنهم كانوا في بقعة قريبة من البحر.

http://al-maktabeh.com

المَثَل الوحيد :

لقد ترك يونس قومه مُغاضباً قائلاً في نفسه: إن الله لن يُضيّق عليَّ بالبقاء بين هؤلاء المُتعنتين المُعاندين، وهو قادر على أن يُرسلني إلى قوم آخرين. فقد ظنَّ أن الله لن يُضيق عليه الأرض، فهي فسيحة، والقرى كثيرة، والأقوام متعددون. وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة، فسيوجهه الله إلى قرية أخرى وقوم آخرين. ذلك معنى ﴿**فظنَّ أن لن نقدر عليه**﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي لن نُضيق عليه ولن نُؤاخذه وقد ترك قومه دون إذن سآمة وضَجَراً.

ولعله لو قد أطال مدته، واستمر في الدعوة، وصبر على عناد القوم لوَجَد فيهم مَن يؤمن ويستجيب، ولوَجَد فيهم مَن يَستغفر ويُنيب، ولكنه رحَلَ مغاضباً ليلقى من الله قضاءً ويتلقى[1] جزاءً.

ولم يكد يَبْعُد يونس قليلاً عن قريته، حتى وافت أهلها نُذر العذاب، واقتربت منهم طلائع الهَلاك، وأيقنوا أن دعوة يونس حقّ، وإنذاره صدق، فخافوا أن يُصيبهم ما كانوا قد سمعوه عن عاد وثمود وقوم نوح.

وقد وقع في نفوسهم الإيمان فالتجأوا إلى الله ـ سبحانه ـ الذي دَعاهم يونس لعبادته وحده لا شريك له، وتابوا واستغفروا، وتضرّعوا باكين مُتوسِّلين. ومضت سنّة الله في قبول توبة التائبين، وسبقت رحمته سبحانه للأوابين، وفَرِحَ ربُّ العالمين بعودة الشاردين إلى الحق المبين.

لقد كانوا مخلصين في توبتهم، صادقين في إيمانهم فردَّ عنهم ربُّهم العقاب وحبسَ العذاب: ﴿**فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا**

(١) النبوة اصطفاء واختيار من الله تعالى، وشرف عظيم للنبي أن يصطفيه ربُّ العالمين، وإذا أراد نبيٌّ ترك هذا الشرف لا يسمح به بذلك. وكذلك الإيمان شرف. لو أراد المؤمن أن يرتد يُقتل، وهكذا مراتب التقوى مَن بلغ درجة منها ثم أراد التدني في المعاصي يبتليه ربه حتى يعود. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بُعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار» رواه البخاري.

كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ [يونس: ٩٨].

وكان رجوعهم إلى الله خيراً ورحمة، واختصَّهم الله بالثناء دون غيرهم من أهل القرى «والذي تدل عليه الآية الكريمة أنه ليس هناك من القرى المُهلَكة قرية آمنت فنفعها إيمانها، لأنهم كانوا يؤمنون حينما ينزل العذاب بهم ـ كما رأينا من فرعون ـ وبعضهم كان ينزل به العذاب قبل أن يؤمن فلا يتمكن من الإيمان وهذا وذاك لا ينفعهما الإيمان، ولكن قوم يونس حينما بدت لهم أسباب العذاب وظنوا أنه واقع بهم، وقبل أن ينزل بهم رجعوا إلى ربهم طائعين تائبين، وتقبَّل الله توبتهم بعد أن عَلِمَ صِدق إيمانهم، وكَشَف عنهم عذاب الخزي، ومتعهم إلى حين، وهو الأجل الذي مُنَّ لهم في علم الله تبارك وتعالى»[1].

وقصة يونس هي المَثَل الوحيد البارز للقوم الذين يتداركون أنفسهم قبل مُباغتة العذاب لهم؛ فيثوبون إلى ربهم وفي الوقت سَعة؛ وهم وحدهم في تاريخ الدعوات الذين آمنوا جُملة بعد تكذيب، فكَشَفَ عنهم العذاب الذي أوعدهم به رسولهم قبل وقوعه بهم، كما هي سُنّة الله في المكذبين المُصرِّين.

أما ما كان من النبي يونس ـ عليه السلام ـ فقد ذكرت الروايات أنه قد ضاق صدراً بتكذيب قومه. فأنذرهم بعذاب قريب. وغادرهم مُغضباً آبقاً. فقاده الغَضَب الجامح، والضيق الخانق إلى شاطىء البحر، فوجد سفينة مشحونة فركب فيها. حتى إذا كانت في اللُّجة ثَقُلَت وقد ناوَأَتْها الرياح والأمواج. وكان هذا إيذاناً عند القوم بأن من بين الركاب راكباً مغضوباً عليه لأنه ارتكب خطيئة. وأنه لا بد أن يُلْقَى في الماء لتنجو السفينة من الغرق. وقال ربانها: إنه لا بد من إلقاء أحد ركابها في البحر لينجو سائر مَن فيها من الهلاك. فاقترعوا على مَن يَلقونه من السفينة. فخرج سهم يونس ـ وكان معروفاً عندهم بالصلاح، ثم ساهموا فجاء السَّهم على يونس. وهكذا خرج سهمه بشكل أكيد فألقوه في البحر. أو ألقى هو بنفسه. فالتقمه الحوت مُضيقاً

---

(١) القصص القرآني: ٣٤٤.

عليه أشد الضيق! التقمه الحوت وهو ﴿مليم﴾ أي مستحق للوم، لأنه تخلَّى عن المهمة التي أرسله الله بها، وترك قومه مغاضباً قبل أن يأذن الله له.

وبعد.. فكانت القرعة على يونس. فألقوه في اليم. فابتلعه الحوت. وقد علم يونس أن من وراء ذلك سرًّا، وأن للّه في ذلك تدبيراً. وأدرك خطيئته..

وها هو ذا يونس ـ عليه السلام ـ في البحر يُعارك الأمواج العاتية، وهو في شدة رهيبة وضيق مُرعب، اقترب منه حوت عظيم أرسله الله ـ سبحانه ـ يشقّ البحر شقاً، فالتقم يونس، وأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً(١).

وهكذا قبع يونس في بطن الحوت وَديعة، فما هو إلا نبيٌّ كريم، تأوّل فلم يُصب؛ وعجِلَ ثم نَدِم، وديعة يُؤَدِّيها الحوت حينما يأذن الله له.

فلما كان في الظلمات: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، ظلمات بعضها فوق بعض.. فما أشد الظلام! وما أبعد النجاة!

وقد مكث ما شاء الله أن يمكث ثم ألهمه الله الكلمات التي تُبَدِّد الظلمات وتَكشف الكربات وتستنزل الرحمة من فوق سبع سماوات ونادى ربه السميع العليم في الظلمات العميقة.. ﴿**وذا النون إذ ذهب مغاضباً. فظنَّ أن لن نقدر عليه. فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين..**﴾ [الأنبياء: ٨٧].

نادى يونس ـ وهو كظيم ـ في هذا الكرب الشديد في بطن الحوت، وفي وسط اللجة، نادى ربه: ﴿**لا إله إلا أنت سبحانك! إني كنت من الظالمين**﴾..

وهكذا عندما أحسّ بالضيق في الظلمات سبَّح الله واستغفره وذكر أنه من الظالمين. فسمع الله دعاءه واستجاب له، ونجّاه من الغمِّ الذي هو فيه ولفظه

(١) العبارة لابن كثير في تفسيره.

الحوت على الساحل.. ﴿وإن يونس لمن المرسلين. إذ أَبِقَ إلى الفُلك المشحون. فساهم فكان من المُدحضين. فالتقمه الحوت وهو مُليم. فلولا أنه كان من المُسَبِّحين. لَلَبِثَ في بطنه إلى يوم يُبعثون. فنبذناه بالعراء وهو سقيم. وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون. فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨]..

تأمُّل وتدبُّر:

إن في هذه الحلقة من قصة يونس ـ عليه السلام ـ لفتات ولمسات نقف أمامها لحظات.

إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة، فضاق صدراً بالقوم، وألقى عبء الدعوة، وذهب مغاضباً، ضيّق الصدر، حَرِج النفس؛ فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مُضايقات المكذبين. ولولا أن ثاب إلى ربه! واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه. لما فرج الله عنه هذا الضيق. ولكنها القدرة حفظته ونجّته من الغم الذي يعانيه.

وأصحاب الدعوات لا بد أن يحتملوا تكاليفها، وأن يصبروا على التكذيب بها، والإيذاء من أجلها. وتكذيب الصادق الواثق مرير على النفس حقاً. ولكنه بعض تكاليف الرسالة. فلا بد لَمن يُكَلَّفون حمل الدعوات أن يصبروا ويحتملوا، ولا بد أن يُثابروا ويَثبتوا. ولا بد أن يُكرروا الدعوة ويُبدئوا فيها ويُعيدوا.

إنهم لا يجوز لهم أن ييأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب، ومن عُتوّ وجحود. فإذا كانت المرة المئة لم تصل إلى القلوب، فقد تصل المرة الواحدة بعد المئة.. وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف.. ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم أرصاد القلوب!

إن طريق الدعوات ليس هيناً ليناً. واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة. فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات، والنظم

والأوضـاع، يجثم على القلوب. ولا بـد من إزالة هـذا الركـام. ولا بد من استحياء القلوب بكل وسيلة. ولا بد من لمس جميع المراكز الحسـاسة. ومن محاولة العثور على العَصَب الموصل. . وإحدى اللمسات ستصادف مع المثابرة والصبر والرجاء. ولمسة واحدة قد تُحوّل الكائن البشري تحويلاً تاماً في لحظة متى أصابت اللمسة موضعها.

وإن الإنسان ليدهش أحياناً وهو يحاول ألف محاولة، ثم إذا لمسة عابرة تُصيب موضعها في الجهاز البشري فينتفض كله بأيسر مجهود، وقد أعيا من قبل كل الجهود!

وأقرب ما يحضرني للتمثيل لهذه الحالة جهاز الاستقبال عند البحث عن محطة إرسال. . إنك لتحرك المُشير مرات كثيرة ذهاباً وإياباً. فتخطىء المحطة وأنت تُدقّق وتصوب. ثم إذا حركة عابرة من يدك. فتتصل الموجة وتنطلق الأصداء والأنغام!

إن القلب البشري هو أقرب ما يكون إلى جهاز الاستقبال. وأصحاب الدعوات لا بد أن يحاولوا تحريك المشير ليتلقى القلب من وراء الأفق. ولمسة واحدة بعد ألف لمسة قد تصله بمصدر الإرسال!

إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب لأن الناس لا يستجيبون لـدعوتـه، فيهجر النـاس. . إنه عمـل مريـح، قد يفثأ الغضب، ويُهدىء الأعصاب. . ولكن أين هي الدعوة؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين؟!

إن الـدعوة هي الأصـل لا شخص الداعيـة! فليضق صدره. ولكن ليكظم ويمضِ. وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون!

إن الداعية أداة في يد القدرة. والله أرعى لدعوته وأحفظ. فليؤدِ هو واجبه في كل ظرف، وفي كل جو، والبقية على الله. والهدى هدى الله.

وإن في قصة ذي النون لدرساً لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتأملوه.

وإن في رجعة ذي النون إلى ربه واعترافه بظلمه لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها.

وإن في رحمة الله لذي النون واستجابة دعائه المنيب في الظلمات لبشرى للمؤمنين: ﴿وكذلك نُنجي المؤمنين﴾..

لقد تداركته نعمة من ربه، فنبذه الحوت على الشاطىء.. لحماً بلا جلد.. ذاب جلده في بطن الحوت. وحفظ الله حياته بقدرته التي لا يُقيدها قيد من مألوف البشر المحدود!

وهنا يقول: إنه لولا هذه النعمة لنبذه الحوت وهو مذموم: ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم﴾.. أي مذموم من ربه.. على فعلته. وقلّة صبره. وتصرفه في شأن نفسه قبل أن يأذن الله له. ولكن نعمة الله وَقَتْه هذا، وقَبِلَ الله تسبيحه واعترافه وندمه. وعلم منه ما يستحق عليه النعمة والاجتباء. ﴿فاجتباه ربه فجعله من الصالحين﴾..

وهكذا سمع الله دعاء يونس واستجاب له. فَلَفَظَه الحوت.. وقد خرج من بطن الحوت سقيماً عارياً على الشاطىء ﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾. وهو القرع. يُظلله بورقه العريض ويمنع عنه الذباب الذي يُقال إنه لا يقرب هذه الشجرة. وكان هذا من تدبير الله ولطفه. فلما استكمل عافيته ردّه الله إلى قومه الذين تركهم مغاضباً. وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه، فآمنوا، واستغفروا، وطلبوا العفو من الله فسمع لهم ولم ينزل بهم عذاب المكذبين: ﴿فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾ وكانوا مئة ألف يزيدون ولا ينقصون. وقد آمنوا أجمعين.

إنَّ هذه القصة تُبين عاقبة الذين آمنوا، بجانب ما تبينه القصص السابقة من عاقبة الذين لا يؤمنون. فيختار قوم محمد ـ ﷺ ـ إحدى العاقبتين كما يشاءون!!

ويوجه الله ـ سبحانه ـ نبيه ـ ﷺ ـ إلى الصبر. الصبر على تكاليف الرسالة. والصبر على التواءات النفوس. والصبر على الأذى والتكذيب. الصبر

حتى يحكم الله في الوقت المقدر كما يريد. ويُذكره بتجربة أخ له من قبل ضاق صدره بهذه التكاليف، فلولا أن تداركته نعمة الله لَنُبِذَ وهو مذموم: **﴿فاصبر لحكم ربك، ولا تكن كصاحب الحوت. إذ نادى وهو مكظوم. لولا أن تداركه نعمة من ربه لَنُبِذَ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين﴾** [القلم: ٤٨ - ٥٠]..

وتجربة يونس - عليه السلام - يُذكِّر الله بها محمداً - ﷺ - لتكون له زاداً ورصيداً، وهو خاتم النبيين، الذي سبقته تجارب النبيين أجمعين في حقل الرسالة، ليكون هو صاحب الحصاد الأخير، وصاحب الرصيد الأخير، وصاحب الزاد الأخير. فَيُعِينه هذا على عبئه الثقيل الكبير. عبء هداية البشرية جميعها لا قبيلة ولا قرية ولا أمة. وعبء هداية الأجيال جميعها لا جيل واحد ولا قرن واحد كما كانت مهمة الرسل قبله. وعبء إمداد البشرية بعده بكل أجيالها وكل أقوامها بمنهج دائم ثابت صالح لتلبية ما يجدّ في حياتها من أحوال وأوضاع وتجارب. وكل يوم يأتي بجديد..

هذه هي التجربة التي مرّ بها صاحب الحوت. يُذَكِّر الله بها رسوله محمداً - ﷺ - في موقف العَنت والتكذيب. بعدما أَخلاهُ من المعركة كما هي الحقيقة، وأمره بتركها له يَتَولَّاها كما يريد. وقتما يريد. وكلَّفه الصبر لحكم الله وقضائه في تحديد الموعد، وفي مشقات الطريق حين يحين الموعد المضروب!

إن مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله، حتى يأتي موعده، في الوقت الذي يريده بحكمته. وفي الطريق مشقات كثيرة. مشقات التكذيب والتعذيب. ومشقات الالتواء والعناد. ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه. ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون. ثم مشقات إمساك النفس على هذا كله راضية مستقرة مطمئنة إلى وَعْد الله الحق، لا ترتاب ولا تتردد في قطع الطريق، مهما تكن مشقات الطريق.. وهو جهد ضخم مُرهِق يحتاج إلى عَزم وصَبر ومَدَد من الله وتوفيق.. أما المعركة ذاتها فقد قضى الله فيها، وقَدَّرَ أنه هو الذي يتولاها، كما قَدَّرَ أنه يُملي ويستدرج لحكمة يراها. كذلك وعد نبيه الكريم، فصدقه الوعد بعد حين.

سنّة الله:

وبعد، فإذا كان ما جاء إلى الرسول هو الحق الذي لا مِرية فيه، فما تعليل إصرار قوم على التكذيب ولجاجهم فيه؟

تعليله أن كلمة الله وسنّته قد اقتضت أن مَن لا يأخذ بأسباب الهدى لا يَهتدي، ومَن لا يفتح بصيرته على النور لا يراه، ومَن يُعطّل مداركه لا ينتفع بوظيفتها، فتكون نهايته إلى الضلال، مهما تكن الآيات والبينات، لأنه لا يفيد شيئاً من الآيات والبينات. وعندئذ تكون كلمة الله وسنّته قد حقّت عليهم وتحققت فيهم:

﴿إن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]..

فلا ينفعهم الإيمان حينئذ لأنه لم يجيء عن اختيار. ولم تعد هناك فرصة لتحقيق مدلوله في الحياة.. وفي القرآن مشهد يُصدّق هذا. مشهد فرعون حين أدركه الغرق يقول: **﴿آمنت أنه لا إله إلا الذين آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾**.. فيقال له: **﴿الآن وقد عصيتَ قبل وكنت من المفسدين؟﴾** [يونس: ٩٠، ٩١]..

وعند هذا الموقف الذي تظهر فيه حتمية سُنن الله العامة، وانتهاؤها إلى نهايتها المرسومة، متى تعرض الإنسان لها باختياره، تُفتح نافذة مضيئة بآخر شعاع من أشعة الأمل في النجاة. ذلك أن يعود المكذبون عن تكذيبهم قبل وقوع العذاب:

﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها! إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ومتعناهم إلى حين﴾ [يونس: ٩٨]..

وهو تحضيض ينسحب على الماضي، فيفيد أن مدلوله لم يقع.. **﴿فلولا كانت قرية آمنت﴾** [يونس: ٩٨] من هذه القرى التي ذكرها. ولكن القرى لم تؤمن. إنما آمنت منها قِلّة، فكانت الصفة الغالبة هي صفة عدم الإيمان..

ذلك فيما عدا قرية واحدة ـ والقرية: القوم، والتسمية هكذا إيذان بأن الرسالات كانت في قرى الحضر ولم تكن في محلات البدو ـ وحسبنا أن نُدرك أن قوم يونس كان عذاب مُخزٍ يتهدّدهم، فلما آمنوا في اللحظة الأخيرة قبل وقوعه كشف عنهم العذاب، وتُرِكوا يتمتعون بالحياة إلى أَجَل. ولو لم يؤمنوا لحلّ العذاب بهم وِفاقاً لسنّة الله المُترتبة على تصرفات خلقه. . حسبنا هنا لندرك أمرين هامين:

أولهما: الإهابة بالمكذبين أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة، فلعلهم ناجون كما نجا قوم يونس من عذاب الخزي في الحياة الدنيا. وهو الغَرَض المباشر من سياق القصة هذا المساق. .

وثانيهما: أن سنّة الله لم تتعطل ولم تقف بكشف هذا العذاب، وترك قوم يونس يتمتعون فترة أخرى. بل مضت ونُفِّذَت. لأن مقتضى سنّة الله كان أن يحل العذاب بهم لو أَصرُّوا على تكذيبهم حتى يجيء. فلما عَدَلوا قبل مجيئه جرت السنّة بإنجائهم نتيجة لهذا العدول. فلا جَبْرية إذن في تصرفات الناس، ولكن الجبرية في ترتيب آثارها عليها.

ولا بد من الإشارة إلى القاعدة الكلية في الكفر والإيمان:

﴿**ولو شاء ربك لآمن مَن في الأرض كلهم جميعاً. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون**﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠]. .

ولو شاء ربك لخلق هذا الجنس البشري خلقة أخرى، فجعله لا يعرف إلا طريقاً واحداً هو طريق الإيمان كالملائكة مثلاً. أو لجعل له استعداداً واحداً يقود جميع أفراده الإيمان.

ولو شاء كذلك لأجبر الناس جميعاً وقهرهم عليه، حتى لا تكون لهم إرادة في اختياره.

ولكنها حِكمة الخالق التي قد نُدرك بعض مراميها وقد لا ندرك، دون أن ينفي عدم إدراكنا لها وجودها.

http://al-maktabeh.com

هذه الحكمة اقتضت خلقة هذا الكائن البشري باستعداد للخير وللشر وللهدى والضلال. ومنحته القدرة على اختيار هذا الطريق أو ذاك. وقدَّرت أنه إذا أحسن استخدام مواهبه اللدنية من حواس ومشاعر ومدارك، وَوَجَّهها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون والنفس وما يجيء به الرسل من آيات وبينات، فإنه يؤمن ويهتدي بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص. وعلى العكس حين يُعطل مواهبه ويُغلق مداركه ويسترها عن دلائل الإيمان يقسو قلبه، ويستغلق عقله، وينتهي بذلك إلى التكذيب أو الجحود، فإلى ما قدَّره الله للمكذبين الجاحدين من جزاء..

فالإيمان إذن متروك للاختيار. لا يُكرِه الرسول عليه أحداً. لأنه لا مجال للإكراه في مشاعر القلب وتوجُّهات الضمير:

﴿أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟﴾..

وهو سؤال للإنكار، فإن هذا الإكراه لا يكون:

﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾: وفق سنّته الماضية التي بيّناها. فلا تصل إلى الإيمان وقد سارت في الطريق الآخر الذي لا يؤدي إليه. لا أنها تريد الإيمان وتسلك طريقه ثم تُمنع عنه، فهذا ليس المقصود بالنص. بل المقصود أنها لا تصل إلى الإيمان إلا إذا سارت وفق إذن الله وسنّته في الوصول إليه من طريقه المرسوم بالسنّة العامة. وعندئذ يهديها الله ويقع لها الإيمان بإذنه. فلا شيء يتم وقوعه إلا بقَدَر خاص به. إنما الناس يسيرون في الطريق. فيقدِّر الله لهم عاقبة الطريق، ويوقعها بالفعل جزاء ما جاهدوا في الله ليهتدوا..

ويدل على هذا عقب الآية: ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾..

فالذين عَطَّلوا عقولهم عن التدبر، يجعل الرجس عليهم. والرجس أبشع الدَنَس الروحي، فهؤلاء ينالهم ذلك الرجس بسبب تعطيلهم لمداركهم عن التعقُّل والتدبر، وانتهاؤهم بها إلى التكذيب والكفران.

قصة فريدة ودرس بليغ:

وبعد.. يعلمنا الله سبحانه في هذه القصة المُتميزة، كيف يلجأ الإنسان إلى ربه إذا أظلم أُفق الحياة، وتراكمت غيوم الفساد والضلال والعناد، فهو وحده الذي يفلق الفَرَج من الضيق الحالك المتراكم، ويسوق الخير من حيث يشاء حين يشاء. يقول العلّامة الشيخ الدكتور فضل عباس في حديثه عن الآية الكريمة: ﴿**فاستجبنا له ونجيناه من الغم**﴾ [الأنبياء: ٨٨].

كيف مَنَّ عز وجل على يونس، «ولكن ينبغي أن لا ننسى هذا التعقيب في الآية. التعقيب الذي تقصد إليه الآية الكريمة فهو مُراد ذكره في هذه القصة وهو قوله تعالى في آخر الآية: ﴿**وكذلك نُنجي المؤمنين**﴾ [الأنبياء: ٨٨]..

«ما أجمل هذا التعقيب على قصة يونس! وما أحوج المؤمنين إليه في كرباتهم وهمومهم! وقد ورد في الحديث الذي أخرجه الترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب في السبعين «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين» فإنه لم يدعُ بها رجل مسلم في شيء إلا استجاب الله له»...

وإذا كان لا بد من وقفة مع قصة يونس في كتاب الله أولاً؛ فلا بد أن نذكر هذه الصلة المُحكمة، وهذه الرابطة الموثقة بين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

أولاً: كلنا يذكر هذا الحدث المهم من أحداث السيرة النبوية يوم أن ضرب النبي عليه وعلى لله الصلاة والسلام أروع الأمثلة في التحمُّل والتضحية، وقد أعرض عنه أهل مكة، فذهب إلى الطائف مشياً على قدميه لِيُبَلِّغ أهلها دعوة ربّه، ولكنهم كانوا أكثر إعراضاً وأشد قسوة، وأبعد عن الهداية، ويَلقى النبي الكريم منهم من الإيذاء الكثير الكثير، ويُناجي ربه بهذه الدعوات: «اللهم إليكَ أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين..» وفي هذه الأثناء يأتيه عبدٌ لأحد كبراء الطائف، ويسأله عن

النبي عن اسمه وبلده، فلما عرف أنه من نينوى قال: «أنت من بلد الرجل الصالح يونس بن متى»[١].

وهذه الحادثة تحمل في طياتها معاني كثيرة فهي تدلنا ـ كما قلت ـ على هذه الرابطة الموثقة بين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كما تدلنا على أن النبي ـ ﷺ ـ يعلم مما علّمه الله كثيراً من أخبار الأُوَل بعامة، والأنبياء ـ عليهم السلام ـ بخاصة، ومن هذا القبيل معرفته لنسب يونس ويشهد لما قلناه قوله ـ عليه السلام ـ «أُوتيت القرآن ومثله معه»[٢] وإنما ذكرنا هذا حتى لا يتوهم أن ما أُعطيه النبي عليه وآله الصلاة والسلام مع القرآن كان ذا صلة بالأحكام التشريعية فحسب.

ثانياً: تدلنا قصة يونس كذلك على أن هذا الإنسان يبقى ضعيف التَحَمُّل لولا عَون الله ومدده فسرعان ما يعيل صبره ويضعف تحمله حينما يَدْلهمّ به الليل، ذلك ما كان من يونس ـ عليه السلام ـ فقد ذهب مغاضباً ظاناً أن الله لن يُضيّق عليه ولن يؤاخذه. . وإذا كان مثل هذا الظن يمكن أن يقبل من غير أصحاب النفوس الكبيرة الذين لم يعدّوا في هذه الحياة ليكونوا مصابيح هادية، فإنه لا يقبل ممن أعدّهم الله تبارك وتعالى ليحملوا رسالته، لذلك كانت حسنات الأبرار سيئات المقربين، والله تبارك وتعالى الحَكم العدل يأخذ كل واحد ويُحاسبه على قَدْر ما أَنعم عليه وبمقدار ما مَكَّنه في هذه الحياة[٣].

يونس ـ عليه السلام ـ إذن كان من أولئك الذين أعـدّهم الله ليقودوا

---

(١) أخرج القصة ابن إسحاق (١/ ٢٦٠، ٢٦٢) بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً لكن قوله: «اللهم إليك أشكو. . .» ذكره بدون سند وكذلك رواه ابن جرير (٢/ ٨٠، ٨١) عن طريق ابن إسحاق، وروى هذه القصة الطبراني في «الكبير» من حديث عبد الله بن جعفر مختصراً وفيه الدعاء، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٥) وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» باب لزوم السنة/ مختصر سنن أبي داود ص ١٨، وأخرجه الترمذي وقال حسن غريب.

(٣) انظر القصص القرآني ص ٣٥٠.

هذه القافلة البشرية في زمان من أزمنتها ومكان من أمكنتها، فكان لا بد من أن يكون أكثر تَحمّلاً وأكثر تَقبّلاً، وأقدر على التصرف وأجدر بتبديد الضعف لكنه لما لم يكن جعل الله منه دَرساً، فقال لنبيه عليه وآله الصلاة والسلام: **﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم﴾** [القلم: ٤٨]. .

ثالثاً: لكن هذا منسجم مع بشرية الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وإذا كان الله قد أكرمهم بالعصمة فإن هذه العصمة إنما هي وقاية أولئك الأنبياء مما لا يليق بهم، وقد بيَّن العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ هذا فأوله الشرك قبل النبوة وبعدها، ولهذا نجد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قد حفظهم الله من هذا الشرك، منذ نشأتهم، ومن قبل أن يرسلهم إلى قومهم، وبعد الشرك الكبائر فالأنبياء معصومون من فعلها قبل النبوة وبعدها كذلك كالسرقة والزنا والقتل، وقد قلنا إن ما حدث من موسى ـ عليه السلام ـ حين قتل القبطي لم يكن قاصداً له ولم يكن منه سَبق إصرار، ولم يكن بما يقتل في العادة كالأدوات التي يستعملها الذين يُصرّون على القتل، ومما يعصم عنه الأنبياء كذلك الصَّغائر التي تخلّ بالمروءة وتتنافى مع الهيبة، ذكرنا ذلك كله لِنُبَيّن أن ما حدث منه ـ عليه السلام ـ لم يُنافِ العصمة، لأنه ليس من الأنواع الثلاثة التي تقدّمت وهي الشرك والكبائر والصغائر التي تتنافى مع المروءة. . .

وإذا كان من لبنة خصّ بها يونس في بناء الإنسانية، فإنما هو هذا الإعداد الذي ينبغي أن يكون لذوي النفوس الكبيرة حتى تقدر على التحمل وتصبر على الأذى، وهو نوع من الجهاد عظيم»[1].

إنها قصة فريدة ودرس بليغ، وسَلْوى لكل بائس ملهوف، ويائس مُضطرب قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وضاقت عليه نفسه، ورأى أن لا ملجأ من الله إلا إليه.

---

(١) القصص القرآني ٣٤٨ ـ ٣٥١.

http://al-maktabeh.com

قصة زكريا ويحيى - عليهما السلام -

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ

ويجيء دور زكريا ـ عليه السلام ـ وكان من أنبياء بني إسرائيل، كان كثير الخشوع والتبتل إلى الله، وقد كَبُرَتْ سنّه وَوَهن عَظْمه دون أن يُرزق بولد، وزوجه عاقر قد اشتعل الرأس منها شيباً.

وتقدّمت به الأيام وكان رئيس الهيكل اليهودي. من ذرية هارون الذي صارت إليه سدانة الهيكل، ثم ها هو يطوي به الزمن وقد اقترب أجله؛ فمَن الذي يقوم على وراثة حكمته، والاضطلاع بأمانته؟ وهؤلاء مواليه وبنو عمومته أشرار، لا بد لهم من وازع، ويعوزهم الراعي الرادع، وقد بلغت أحوال بني إسرائيل درجة متدنية، فهم ينشرون الفساد، ويُغيّرون معالم الشريعة والدين..

ظلت هذه الهموم والخواطر تملأ نفسه، وتضطرب في قلبه، وهو صابر مُتَحَمِّل متجمل مستسلم لقَدَر الله وحكمته..

وقصة زكريا تجلَّت فيها إرادة الله القاهرة، وقُدرة الله المطلقة، وحكمة الله الدقيقة، فَأَمْره كله خارق للعادة. يفعل ما يشاء وقت ما يشاء، يَهب لِمَن يشاء عندما يشاء لحكمة عَليّة..

لقد كان من آثار خضوع القصة في القرآن للغَرض الديني أن تُعرض بالقدر الذي يكفي لأداء هذا الغَرَض، ومن الحلقة التي تتفق معه.

وكان من أغراض القصة القرآنية بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه،

http://al-maktabeh.com

وقد وردت حلقة من قصة زكريا تبرز فيها النعمة العظيمة. وإبراز هذه النعمة هو الغرض الأول من القصة.

وقصة زكريا تُذكَر في القرآن الكريم عند مولد يحيى، وعند كفالة زكريا مريم، وهي قصة متناهية في القصر، لكنها تحمل الرحمة والعِبَر.. فالقصة الرحمة قوامها. والرحمة تظللها. ومن ثم يتقدمها ذكر الرحمة: **﴿ذِكْرُ رحمة ربك عبده زكريا﴾** [مريم: ٢]..

وكان زكريا قائماً على هيكل العبادة في بني إسرائيل قبل مولد عيسى ـ عليه السلام ـ وقد أوحى الله تعالى له بكفالة مريم بنت عمران: **﴿وكَفَّلها زكريا﴾** [آل عمران: ٣٧].. أي جعل كفالتها له، وجعله أميناً عليها..

﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وَجَد عندها رزقاً. قال: يا مريم أَنَّى لكِ هذا؟ قالت: هو من عند الله. إن الله يرزق مَن يشاء بغير حساب﴾ [آل عمران: ٣٧]..

إن هذه الظاهرة غير المألوفة أثارت عَجَب نبي الله زكريا. فكانت هي التمهيد التي تلَت ميلاد يحيى ـ عليه السلام ـ عندئذ تحركت في نفس زكريا، الشيخ الذي لم يوهب ذرية، تحركت تلك الرغبة الفطرية القوية في النفس البشرية. الرغبة في الذرية. في الامتداد. في الخَلَف.. الرغبة التي لا تموت في نفوس العُبَّاد الزُّهاد، الذين وهبوا أنفسهم للعبادة ونذروها للهيكل.

إنها الفطرة التي فَطَر الناس عليها، لحكمة عليا في امتداد الحياة وارتقائها: **﴿هنالك دعا زكريا ربّه. قال: ربِّ هَبْ لي من لدنك ذرية طيبة. إنك سميع الدعاء﴾** [آل عمران: ٣٨]..

وهكذا تبدأ القصة.. ها نحن في مشهد الدعاء. دعاء زكريا لربه في ضراعة وفي خفية: **﴿إذ نادى ربّه نداءً خفياً. قال: ربِّ إني وَهَنَ العظم مني واشتعلَ الرأس شيباً، ولم أكن بدعائك ربِّ شقياً..﴾** [مريم: ٣، ٤]..

ها هو ذا زكريا ـ عليه السلام ـ النبي الشيخ يناجي ربّه العلي الأعلى

الوهّاب: ﴿وزكريا إذ نادى ربه. ربِّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين. .﴾ [الأنبياء: ٨٩]. .

فهو دعاء العبد المؤمن العابد ﴿ربِّ لا تذرني فرداً﴾ بلا عقب يقوم على الهيكل. ولا ينسى زكريا أن الله هو وارث العقيدة ووارث المال: ﴿وأنت خير الوارثين﴾ إنما هو يريد من ذريته مَن يُحسن الخلافة بعده في أهله ودينه وماله. لأن الخَلق ستار القدرة في الأرض.

لقد وقف زكريا يناجي ربه بعيداً عن عيون الناس، بعيداً عن أسماعهم ﴿إذ نادى ربّه نداءً خفياً﴾. في عزلة يخلص فيها لربه ـ عزَّ وجل ـ ويكشف له عما يثقل كاهله ويكرب صدره ويناديه في قرب واتصال: ﴿رَبِّ. .﴾ بلا واسطة حتى ولا حرف النداء. وإن رَبّه ليسمع وَيَرى من غَير دعاء ولا نداء ولكن المكروب يستريح إلى البثّ، ويحتاج إلى الشكوى. والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر، فيستحب لهم أن يدعوه وأن يبثوه ما تضيق به صدورهم. ﴿وقال ربكم: ادعوني أستجب لكم﴾ [غافر: ٦٠] ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى مَن هو أقوى وأقدر؛ وليستشعروا صلتهم بالجناب الذي لا يُضام مَن يلجأ إليه، ولا يخيب مَن يتوكل عليه.

وزكريا يشكو إلى ربه وَهْن العظم. وحين يَهن العظم يكون الجسم كله قد وَهن. فالعظم هو أصلب ما فيه، وهو قوامه الذي يقوم به ويتجمع عليه. ويشكو إليه اشتعال الرأس شيباً. ﴿قال: ربِّ إني وَهَنَ العظم مني واشتعلَ الرأسُ شيباً﴾ [مريم: ٤]. .

والتعبير المصور يجعل الشيب كأنه نار تشتعل ويجعل الرأس كله كأنما تشمله هذه النار المشتعلة، فلا يبقى في الرأس المشتعل سواد.

وَوَهْن العظم واشتعال الرأس شيباً كلاهما كناية عن الشيخوخة وضعفها الذي يُعانيه زكريا ويشكوه إلى ربه وهو يعرض عليه حاله ورجاءه. .

ثم يُعقّب عليه بقوله: ﴿ولم أكن بدعائك ربِ شقياً﴾ [مريم: ٤]. .

معترفاً بأن الله قد عَوَّده أن يستجيب إليه إذا دعاه، فلم يَشْقَ مع دعائه لربه، وهو في فتوته وقوته. فما أحوجه الآن في هَرَمه وكبرته أن يستجيب الله له ويُتمّ نعمته عليه.

فإذا صَوَّر حاله، وقدم رجاءه، ذَكَر ما يخشاه، وعرض ما يطلبه.. إنه يخشى من بعده. يخشاهم ألا يقوموا على تُراثه بما يرضاه. وتراثه هو دعوته التي يقوم عليها ـ وهو أحد أنبياء بني إسرائيل البارزين ـ وأهله الذين يرعاهم ـ ومنهم مريم التي كان قَيِّماً عليها وهي تخدم المحراب الذي يتولاه ـ وماله الذي يُحسن تدبيره وإنفاقه في وجهه[1]. وهو يخشى الموالي من ورائه على هذا التّراث كله، ويخشى ألا يسيروا فيه سيرته.. قيل لأنه يَعهدهم غير صالحين للقيام على ذلك التراث..

﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ [مريم: ٥].. لم تُعقب فلم يكن له من ذريته مَن يملك تربيته وإعداده لوراثته وخلافته.

ذلك ما يخشاه. فأما ما يطلبه فهو الولي الصالح، الذي يُحسن الوراثة، ويُحسن القيام على تراثه وتراث النبوة من آبائه وأجداده: ﴿فَهَبْ لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ [مريم: ٥، ٦].

ولا ينسى زكريا، النبي الصالح، أن يُصوّر أَمَلَه في ذلك الوريث الذي يرجوه في كبرته: ﴿واجعله ربِ رضيا﴾ [مريم: ٦].. لا جباراً ولا غليظاً، ولا مُتَبطراً ولا طَموعاً. ولفظة ﴿رضي﴾ تلقي هذه الظلال. فالرضي الذي يَرضىٰ ويُرضي. وينشر ظلال الرضى فيما حوله ومَن حوله.

ذلك دعاء زكريا لربه في ضراعة وخفية. والألفاظ والمعاني والظلال والإيقاع الرخي. كلها تشارك في تصوير مشهد الدعاء.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كان زكريا نجاراً» أخرجه مسلم.
يقول الإمام النووي في شرح الحديث: وفيه فضيلة لزكريا ـ ﷺ ـ فإنه كان صانعاً يأكل من كسبه، وقد ثبت قوله ـ ﷺ ـ «أفضل ما أَكَلَ الرجل من كسبه وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده».

وقصة زكريا ويحيى تُبرز لون آخر من آلاء الله على عباده وآيات قدرته التي أحاطت بكل شيء، تجلّى في دعاء زكريا لولد صالح، رضيّ، برّ، تقي، يرثه ويرث من آل يعقوب، ويقوم بالدعوة إلى الله، وذلك حين تقدَّمت به السنّ، وَوَهَن منه العظم، وَوَلج به الشيب، وانقطع الرجاء من أن تَلِدَ زوجه..

وهكذا.. نجدنا أمام حادث غير عادي. يحمل مظهراً من مظاهر طلاقة المشيئة الإلهية، وعدم تقيدها بالمألوف للبشر، الذي يحسبه البشر قانوناً لا سبيل إلى إخلافه؛ ومن ثم يشكّون في كل حادث لا يجيء في حدود هذا القانون! فإذا لم يستطيعوا تكذيبه، لأنه واقع، صاغوا حوله الخرافات والأساطير!

فها هو ذا «زكريا» الشيخ الكبير وزوجه العاقر التي لم تلد في صباها.. ها هو ذا تجيش في قلبه الرغبة الفطرية العميقة في الخَلَف ـ وهو يرى بين يديه مريم البُنَيّة الصالحة المرزوقة ـ فيتوجه إلى ربه يُناجيه، ويطلب منه أن يهب له من لدنه ذرية طيبة.. فما الذي كان من هذا الدعاء الخاشع الحار المنيب؟

كانت الاستجابة التي لا تتقيد بِسنّ، ولا تتقيد بمألوف الناس؛ لأنها تنطلق من المشيئة المطلقة التي تفعل ما تريد:

﴿فنادته الملائكة ـ وهو قائم يصلي في المحراب ـ أن الله يُبشرك بيحيى، مُصدقاً بكلمة من الله. وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين﴾ [آل عمران: ٣٩].

لقد استجيبت الدعوة المُنطلقة من القلب الطاهر، الذي عَلَّق رجاءه بمَن يسمع الدعاء؛ ويملك الإجابة حين يشاء. وبشّرت الملائكة زكريا بمولود ذكر، اسمه معروف قبل مولده؛ «يحيى»؛ وصفته معروفة كذلك: سيداً كريماً، وحصوراً يحصر نفسه عن الشهوات، ويملك زمام نزعاته من الانفلات. ومؤمناً مصدقاً بكلمة تأتيه من الله(١). ونبياً صالحاً في موكب الصالحين.

(١) تذكر بعض التفاسير أن المقصود بتصديقه بكلمة من الله تصديقه بعيسى ـ عليه السلام ـ وليس هناك ما يُحتم هذا الفهم.

لقد استجيبت الدعوة، ولم يَحُلْ دونها مألوف البشر الذي يحسبونه قانوناً. ثم يحسبون أن مشيئة الله ـ سبحانه ـ مقيدة بهذا القانون! وكل ما يراه الإنسان ويحسبه قانوناً لا يخرج عن أن يكون أمراً نسبياً ـ لا مطلقاً ولا نهائياً ـ فما يملك الإنسان وهو محدود العمر والمعرفة، وما يملك العقل وهو محكوم بطبيعة الإنسان هذه، أن يصل إلى قانون نهائي ولا أن يدرك حقيقة مطلقة.. فما أجدر الإنسان أن يتأدب في جناب الله وما أجدره أن يلتزم حدود طبيعته وحدود مجاله، فلا يخبط في التيه بلا دليل، وهو يتحدث عن الممكن والمستحيل، وهو يضع لمشيئة الله المطلقة إطاراً من تجاربه هو ومن مقرراته هو ومن علمه القليل!

وكانت الاستجابة سريعة ومباشرة: **﴿فاستجبنا له، ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه﴾** [الأنبياء: ٩٠]، وكانت عقيماً لا تصلح للنسل..

﴿إنهم كانوا يُسارعون في الخيرات﴾.. فسارع الله في استجابة الدعاء.

﴿ويدعوننا رَغَباً ورهباً﴾ رغبة في الرضوان ورهبة للغضب. فقلوبهم وثيقة الصلة دائمة التطلع **﴿وكانوا لنا خاشعين﴾** [الأنبياء: ٩٠].. لا متكبرين ولا متجبرين..

بهذه الصفات في زكريا وزوجه استحقّا أن يُنعم عليهما بالإبن الصالح. فكانت أسرة مباركة تستحق رحمة الله ورضاه.

وترتسم لحظة الاستجابة في رعاية وعطف ورضى.. فالربّ ينادي عبده من الملأ الأعلى **﴿يا زكريا إنا نُبشرك بغلام..﴾** فهو سبحانه يُعجِّل له البشرى، ويغمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذي بشّره به: **﴿اسمه يحيى﴾** وهو اسم فَذّ غير مسبوق: **﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾** [مريم: ٧]..

إنه فيض الكرم الإلهي يُغدقه على عبده الذي دعاه في ضراعة، وناجاه في خفية، وكشف له عما يخشى، وتوجّه إليه فيما يرجو. والذي دفعه إلى دعاء ربه خوفه الموالي من بعده على تراث العقيدة وعلى تدبير المال والقيام على الأهل بما يرضي الله. وعَلِمَ الله ذلك من نيته فأغدق عليه وأرضاه.

وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء. فإذا هو يواجه الواقع.. إنه رجل شيخ بَلَغَ من الكِبَرِ عِتياً، وَهَنَ عظمه واشتعل شيبه، وامرأته عاقر لم تلد له في فتوّته وصباه: فكيف يا ترى سيكون له غلام؟ إنه ليريد أن يطمئن، ويعرف الوسيلة التي يرزقه الله بها هذا الغلام:

﴿**قال: ربّ أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً؟**﴾ [مريم: ٨]..

إنه يواجه الواقع، ويواجه معه وَعْد الله. وإنه لَيثق بالوعد، ولكنه يريد أن يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذي يواجهه ليطمئن قلبه. وهي حالة نفسية طبيعية. في مثل موقف زكريا النبي الصالح. الإنسان! الذي لا يملك أن يغفل الواقع، فيشتاق أن يعرف كيف يُغيّره الله!

لقد كانت الاستجابة مفاجأة لزكريا نفسه ـ وهل زكريا إلا إنسان على كل حال ـ واشتاق أن يعرف من ربه كيف تقع هذه الخارقة بالقياس إلى مألوف البشر؟

﴿**قال: ربّ أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر؟**﴾ [آل عمران: ٤٠]..

وجاءه الجواب.. جاءه في بساطة ويسر. يردّ الأمر إلى نصابه. ويردّه إلى حقيقته التي لا عُسر في فهمها، ولا غرابة في كونها:

﴿**قال: كذلك الله يفعل ما يشاء**﴾ [آل عمران: ٤٠].

كذلك! فالأمر مألوف مكرور مُعاد حين يردّ إلى مشيئة الله وفعله الذي يتم دائماً على هذا النحو؛ ولكن الناس لا يتفكرون في الطريقة، ولا يتدبرون الصنعة، ولا يستحضرون الحقيقة.

كذلك. بهذا اليسر. وبهذه الطلاقة. يفعل الله ما يشاء.. فماذا في أن يهب لزكريا غلاماً وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر؟

www.al-maktabeh.com

إنما هذه مألوفات البشر التي يقررون قواعدهم عليها، ويتخذون منها قانوناً! فأما بالقياس إلى الله، فلا مألوف ولا غريب.. كل شيء مَردّه إلى توجه المشيئة، والمشيئة مطلقة من كل القيود!

وهكذا يأتيه الجواب عن سؤاله: أن هذا هَيّن على الله سَهل. ويُذكّره بمَثل قريب في نفسه: في خلقته هو وإيجاده بعد أن لم يكن. وهو مَثل لكل حي، ولكل شيء في هذا الوجود: ﴿**قال: كذلك قال ربك: هو عليَّ هين. وقد خَلَقْتُك من قَبل ولم تكُ شيئاً**﴾ [مريم: ٩]..

وليس في الخلق هَيّن وصعب على الله. ووسيلة الخلق للصغير والكبير، للحقير والجليل واحدة: كن فيكون.

والله هو الذي جعل العاقر لا تلد. وجعل الشيخ الفاني لا ينسل، وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سببْ العقم، وتجديد قوة الإخصاب في الرجلِ. وهو أهون في اعتبار الناس من إنشاء الحياة ابتداء. وإن كان كل شيء هينٌ على القدرة: إعادة أو إنشاء.

ومع ذلك فإن شدة لهفة زكريا على الطمأنينة تدفع به أن يطلب آية وعلامة على تَحَقُّق البشرى فعلاً، فلدهشة المفاجأة في نفسه راح يطلب إلى ربه علامة يسكن إليها: ﴿**قال: ربِّ اجعل لي آية...**﴾ [آل عمران: ٤١، مريم: ١٠]..، فأعطاه الله آية تناسب الجو النفسي الذي كان فيه الدعاء وكانت فيه الاستجابة.. ويؤدي بها حق الشكر للّه الذي وهبه على الكِبَر غلاماً.. وذلك أن ينقطع عنِ دنيا الناس ويحيا مع الله ثلاث ليال ينطلق لسانه إذا سَبَّح ربه، ويحتبس إذا كلّم النّاس، وهو سويّ مُعافى في جوارحه لم يُصب لسانه عوج ولا آفة. ﴿**قال: آيتك ألا تُكلم الناس ثلاث ليال سوياً**﴾ [مريم: ١٠]..

لقد وَجَّهه الله سبحانه إلى طريق الاطمئنان الحقيقي؛ فيخرجه من مألوفه في ذات نفسه.. فآيته أن يحتبس لسانه ثلاثة أيام إذا هو اتَّجه إلى الناس؛ وأن ينطلق إذا توجَّه إلى ربه وحده يذكره ويُسبّحه: ﴿**قال: آيتك ألا**

تُكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً. واذكر ربك كثيراً وسَبِّح بالعشي والإبكار﴾ [آل عمران: ٤١]..

وكان ذلك: **﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سَبِّحوا بُكْرَة وعَشياً﴾** [مريم: ١١].. ذلك ليعيشوا في مثل الجو الذي يعيش فيه، وليشكروا الله معه على ما أنعم عليه وعليهم من بعده.

لقد كانت آية البشرى قد وقعت فعلاً. فإذا زكريا يجد في نفسه غير المألوف في حياته وحياة غيره.. لسانه هذا هو لسانه.. ولكنه يحتبس عن كلام الناس وينطلق لمناجاة ربه.. أي قانون يحكم هذه الظاهرة؟ إنه قانون الطلاقة الكاملة للمشيئة العلوية.. فبدونه لا يمكن تفسير هذه الغريبة.. كذلك رزقه يحيى وقد بَلَغَه الكبر وامرأته عاقر!!!

ويترك سياق القصة القرآني زكريا في صمته وتَسبيحه ويسدل عليه الستار في مشهد الذكر والعبادة..

وهكذا ظهرت آياتُ الله وقدرته في زكريا ـ عليه السلام ـ ثم في امرأته وأُسرته، وَوُلِدَ يحيى، فقرّت به عينُ أبيه، واشتدّ به أزره، وعاشت به دعوته، فكان خليفة لوالده يضطلع بأعباء الدين، وتظهر فيه آثار النجابة منذ الصغر، فيقبل على العلم بشغف وهو غلام، ويتحلّى بالصلاح والتقوى وهو شاب، ويمتاز عن أقرانه في الحب والحنان، والبر بالأبوين يُشار في ذلك إليه بالبنان..

ويطوي القرآن صفحة زكريا المجيدة ليفتح الصفحة الجديدة على يحيى ـ عليه السلام ـ يُناديه ربه من الملأ الأعلى: **﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾** [مريم: ١٢]..

لقد وُلد يحيى وترعرع وصار صبياً، في الفجوة التي تركها سياق القصة بين المشهدين. على طريقة القرآن في عرضه الفني للقصص، ليبرز أهم الحلقات والمشاهد، وأشدها حيوية وحركة.

وهو يبدأ بهذا النداء العلوي ليحيى قبل أن يَتَحدَّث عنه بكلمة. لأن

مشهد النداء مشهد رائع عظيم، يدل على مكانة يحيى، وعلى استجابة الله لزكريا، في أن يجعل له من ذريته وَليّاً، يحسن الخلافة بعده في العقيدة وفي العشيرة. فها هو ذا أول موقف ليحيى هو موقف انتدابه ليحمل الأمانة الكبرى: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾..

والكتاب هو التوراة كتاب بني إسرائيل من بعد موسى، وعليه كان يقوم أنبياؤهم يَعملون به ويحكمون. وقد ورث يحيى أباه زكريا، ونودي ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوة وعزم، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة.

وبعد النداء يكشف السياق عما زوّد به يحيى لينهض بالتبعة الكبرى: ﴿وآتيناه الحُكم صبياً، وحناناً من لدنا وزكاة، وكان تقياً﴾ [مريم: ١٢، ١٣].

فهذه هي المؤهلات التي زَوَّده الله بها وأَعدّه وأعانه على احتمال ما كَلَّفه إياه عندما ناداه..

آتاه الحكمة صبياً. فكان فَذّاً في زاده، كما كان فذاً في اسمه وفي ميلاده. فالحكمة تأتي مُتأخرة. ولكن يحيى قد زوّد بها صبياً.

وآتاه الحنان هِبة لَدنية لا يَتكلَّفه ولا يَتعلَّمه؛ إنما هو مطبوع عليه ومطبوع به. والحنان صفة ضرورية للنبي المُكَلّف رعاية القلوب والنفوس، وتَأَلُّفها واجتذابها إلى الخير في رفق.

وآتاه الطهارة والعفة ونظافة القلب والطبع؛ يواجه بها أدران القلوب ودَنَسَ النفوس، فَيُطهرها ويُزكيها.

﴿وكان تقياً﴾ موصولاً بالله، مُتحرّجاً معه، مُراقباً له، يخشاه ويستشعر رقابته عليه في سِرّه ونجواه.

ذلك هو الزاد الذي آتاه الله يحيى في صباه، ليخلف أباه كما توَجَّه إلى رَبّه وناداه نداءً خفياً. فاستجاب له ربه وَوَهب له غلاماً زكياً..

وهنا يسدل الستار على يحيى كما أُسدل من قبل على زكريا. وقد رسم الخط الرئيسي في حياته، وفي منهجه، وفي اتجاهه. وبرزت العبرة من القصة في دعاء زكريا واستجابة ربه له، وفي نداء يحيى وما زَوّده الله به.

ولم يعد في تفصيلات القصة القرآنية بعد ذلك ما يزيد شيئاً في عِبرتها ومغزاها..

ثم نمضي مع الرسول ـ ﷺ ـ في قصة من هدي الله وحكمته التي أوحى بها إلى يحيى ـ عليه السلام ـ ليُعَلِّم بني إسرائيل قواعد الدين الصحيح والعقيدة الناصعة:

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الله جلَّ وعلا أَمَر يحيى بن زكريا بخمس كلمات يَعْمَلُ بهن ويأمر بني إسرائيل [أن] يعملوا بهنّ، وإن عيسى قال له: إن الله قد أمركَ بخمس كلماتٍ تعملُ بهن وتأمُرُ بني إسرائيل [أن] يعملوا بهن، فإما أن تأمرَهُم، وإما أن آمُرَهم، قال: فجمع الناس في بيت المقدس حتى امتلأت، وجلسوا على الشُّرفات، فوعظهم، وقال: إن الله جلَّ وعلا أمرني بخمس كلماتٍ أعملُ بهنَّ، وآمركُم أن تعملوا بهن:

أَوَّلُهُنَّ: أن تعبدوا الله، ولا تُشركوا به شيئاً، ومثَلُ ذلك مَثَلُ رجلٍ اشترى عبداً بخالص مالهِ بذهبٍ أو وَرِقٍ، وقال له: هذه داري، وهذا عملي، فجعلَ العبدُ يعملُ ويُؤدِّي إلى غير سيِّده، فأيكم يَسرُّه أن يكون عبدُه هكذا، وإن الله خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولا تُشركوه به شيئاً. وآمرُكُم بالصلاة فإذا صلَّيتُم، فلا تَلْتَفِتوا، فإن العبدَ إذا لم يلتفت، استقبله جلَّ وعلا بوجهه.

وآمركم بالصيام، وإنما مثل ذلك، كمثل رجلٍ معه صُرَّة فيها مِسْكٌ وعنده عصابَةٌ يَسُرُّه أن يجدوا ريحها، فإن الصيامَ عندَ الله أطيب مِنْ ريح المسك.

وآمركم بالصدقة، وإنَّ مَثَل ذلك كَمَثَلِ رجلٍ أسرَهُ العدو، فأوثقوا يَدَه إلى عُنقِه، وأرادوا أن يضربوا عُنقَه، فقال: هل لكم أن أفدي نفسي، فجعل يعطيهم القليلَ والكثيرَ ليَفُكَّ نفسه منهم.

وآمرُكُم بذكر الله، فإن مثَلَ ذلك كَمَثَلِ رجلٍ طلبَهُ العدو سراعاً في أثره، فأتى على حصين، فأحرز نفسه فيه، فكذلك العبدُ لا يُحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله».

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «وأنا آمُرُكُم بخمس أمرني الله بها: بالجماعة، والسَّمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فمَن فارق الجماعة قِيدَ شِبر، فقد خَلَع ربقة الإسلام[1] من عُنُقِه إلا أن يُراجع، ومَنْ دعا بدعوى الجاهلية، فهو من جُثَا جهنم»[2]، قال رجل: وإن صام وصلى؟ قال: «وإن صام وصلى، فادعوا بِدَعْوى الله الذي سمّاكم المسلمين المؤمنين عباد الله»[3].

قال أبو حاتم: الأمر بالجماعة بلفظ العموم، والمراد منه الخاصُّ، لأن الجماعة هي إجماعُ أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فمَن لزم ما كانوا عليه، وشَذَّ عن مَنْ بَعدَهم، لم يكن بشاقٍّ للجماعة، ولا مفارقٍ لها، ومَن شذَّ عنهم، وتبعَ مَنْ بَعْدهم، كان شاقاً للجماعة، والجماعة بعد الصحابة هم أقوامٌ اجتمع فيهم الدين والعقل والعلم، ولزموا تَرْكَ الهوى فيما هم فيه، وإن قلَّت أعدادُهم، لا أوباش الناسِ ورعاعِهم وإن كَثروا».

وقال الطيبي: المراد بالجماعة الصحابة ومَن بَعْدهم من التابعين، وتابعي التابعين من السلف الصالح، أي آمركم بالتمسك بهديهم وسيرتهم والانخراط في زمرتهم.

---

(١) في صحيح ابن حبان: «رِبَقَ الإسلام» قال ابن الأثير: الربقة في الأصل: عروة في حبل تُجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها، فاستعارها للإسلام، يعني ما يشد به المسلم نفسه من عرى الإسلام، أي حدوده وأحكامه، وأوامره ونواهيه، وتجمع الربقة على ربق، مثل كِسْرَة وكِسَر.

(٢) أي من جماعاتها، والجثا مقصوراً: جمع جُثوة بالضم وهو الشيء المجموع، وروي من «جُثِيِّ جهنم» بضم الجيم وتشديد الياء جمع جاثٍ من جثا على ركبتيه يجثو، ويجثي جُثياً وجثياً، بضم الجيم وكسرها، والأصل ضمها، وجاء كسرها إتباعاً لكسرة الثاء.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وإن منكم إلا واردُها كان على ربِّك حتماً مقضياً، ثم نُنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثِيًّا﴾ [سورة مريم: ٧٠ ـ ٧١].

(٣) أخرجه أبو يعلى (١٥٧١)، والحاكم ١/١١٨، وأحمد ٤/١٣٠ و٢٠٢، والترمذي (٢٨٦٣) و(٢٨٦٤) وابن حبان في صحيحه، وإسناده صحيح رجاله ثقات (أُنظر الإحسان ٦٢٣٣).

نلمح في القصة النبوية العلاقة بين النبي - ﷺ - الذي يروي القصة وبين المُتلقي. . فنجد التعليقات والتعقبات المفيدة التي أمر بها أمته في بيان واضح، فنرى التوجيه في نهاية القصة حيث يعقب الرسول - ﷺ - بقوله: «وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن».

وقد حرص النبي - ﷺ - تعليم أمته من خلال عرض القصة، وقد بدا التعليم ظاهرة بارزة، فهو التعليم بالتوجيه التقريري على لسان يحيى - عليه السلام - حين جمع بني إسرائيل في بيت المقدس، ثم جعل يقول لهم: «إن الله أمرني بخمس كلمات، أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن»، ثم أخذ يُعَدِّد تلك الخمس ويوضحها بالأمثلة الدالة.

تتناول القصة جوانب مختلفة من أمور العقيدة، ونشير هنا إلى أهمّ قضية تُؤكد عليها هي قضية وحدانية الله تبارك وتعالى، وإفراده وحده بالألوهية، وإفراده بالعبادة. . نجد أن أول تلك الخمس التي أمر الله يحيى - عليه السلام - أن يعمل بها، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وقد أعلنها يحيى - عليه السلام - هي أن يعبدوا الله ولا يُشركوا به شيئاً، وقد أراد يحيى - عليه السلام - أن يُعمّق إفراد الله بالعبادة في نفوس بني إسرائيل، فراح يضرب لهم مثلاً لَمن أشرك بالله تعالى: كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله. فقال: هذه داري، وهذا عملي، فاعمل وأَدِّ إليَّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيّده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك(١)؟!

إن الألوهية يقررها الله - سبحانه - ويؤكدها بشتى أساليب التوكيد بِتَوحُّد المعبود الذي يتجه إليه الخلق بالعبودية والطاعة، وتَوحُّد الجهة التي يتلقى منها الخَلق قواعد الأخلاق والسلوك، وتَوحُّد المصدر الذي يتلقى منه الخلق أصول الشرائع والقوانين، وتَوحُّد المنهج الذي يُصرّف حياة الخَلْق في كل طريق ﴿وإلهكم إلَه واحد لا إله إلا هو الرحمٰن الرحيم﴾ [البقرة: ١٦٣]. .

---

(١) القصص في الحديث النبوي.

لقد جاءت جميع رسل الله ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ بالتوحيد المطلق الخالص الذي لا ظِلّ فيه للشرك في صورة من صوره.

وفي «صحيح مُسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يقول الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. مَن عمل عملاً أشركَ فيه معي غيري، تركته وشريكه»، وخرّجه ابن ماجه، ولفظه: «فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك».

وخرّج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد بن أبي فضالة ـ وكان من الصحابة ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: مَنْ أشركَ في عَمَلٍ للّه عز وجل، فليطلب ثوابه من عند غير الله عز وجل، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك».

وخرّج البزار في «مسنده» من حديث الضحاك بن قيس، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الله عز وجل يقول: أنا خيرُ شريك، فمَن أشرك معي شريكاً، فهو لشريكي. يا أيها الناس أَخلصوا أعمالكم للّه عز وجل، فإن الله لا يقبل الأعمال إلا ما أُخلص له، ولا تقولوا هذا للّه وللرَّحم، فإنها للرَّحم، وليس للّه منها شيء، ولا تقولوا: هذا للّه ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم، وليس للّه فيها شيء».

وخرّج النسائي بإسناد جيد عن أبي أمامة الباهلي أن رجلاً جاء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا شيء له» ثم قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وٱبتغي به وَجهه».

وخرّج الحاكم من حديث ابن عباس: قال رجل: يا رسول الله، إني أقف الموقف أُريد وَجْهَ الله، وأريد أن يُرى موطني، فلم يردّ عليه رسول الله ـ ﷺ ـ شيئاً حتى نزلت: ﴿فمَن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً

صالحاً ولا يُشرِك بعبادة ربه أحداً﴾ [الكهف: ١١٠]. .

وفي الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها: «أنَّ أم سلمة رضي الله عنها ذكرتْ لرسول الله ـ ﷺ ـ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، يُقال لها مارية. فذكرتْ له ما رأت فيها من الصور. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أولئك قوم إذا مات فيهم العبدُ الصالح، أو الرجل الصالح، بنوا على قبره مسجداً، وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى».

قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ـ ﷺ ـ في مرضه الذي لم يَقُم منه: «لَعَن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[1].

ونمضي في الفصل التالي مع قصة عيسى بن مريم عليه السلام التي ارتبطت مع قصة زكريا ويحيى عليهما السلام ارتباطاً وثيقاً.

---

(١) متفق عليه.

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

القسم الثالث

القصة الواضحة في المسيحية الناصعة

المحتوى	ص
ـ قصة المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام	١٨٣
ـ قصة أصحاب الأخدود	٣٠٣
ـ قصة أصحاب الكهف	٣٥١
ـ قصة أصحاب الغار	٣٧٩
ـ قصة المتكلمون في المهد	٤٢٥

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام

المحتوى	ص
ـ قصة المولد العَجيب	١٨٣
ـ مشاهد مُثيرة وحوادث غَريبة	١٩٥
ـ كلمة الفصل وتقرير وَحْدانية الله	٢١٠
ـ مِيثاق النصارى	٢١٩
ـ طبيعة المسيحية	٢٢٨
ـ جَدَل وخِصَام	٢٤٠
ـ رسالة عيسى والبُشْرىٰ بمحمد نَبيّ الهُدى	٢٤٣
ـ مَكر يهود ومحاولتهم صَلب وقتل المسيح	٢٤٦
ـ أَمَارات السَّاعة ونُزول المَسيح عيسى بن مريم	٢٥٨
ـ حَسْم وتَوكيد ومُواجهة	٢٦٤
ـ المَشهد العظيم	٢٧٠
ـ قصة المائدة	٢٧٤
ـ الاستجواب الهائل	٢٧٨
ـ صُورة وَضِيئَة	٢٨٥

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

عيسى ـ عليه السلام ـ

قصة المولد العجيب:

إن القضية الأصيلة التي يُركّز عليها القرآن الكريم هي: قضية التوحيد. توحيد الألوهية وتوحيد القوامة.. وقصة عيسى تؤكد هذه الحقيقة، وتنفي فكرة الوَلَد والشريك، وتستبعدهما استبعاداً كاملاً؛ وتُظهر زيف هذه الشبهة وسُخف تصورها؛ وتبسط مولد مريم وتاريخها، ومولد عيسى وتاريخ بعثته وأحداثها بطريقة لا تدع مجالاً لإثارة أية شُبهة في بشريته الكاملة، وأنه واحد من سلالة الرسل، شأنه شأنهم، وطبيعته طبيعتهم.. والله سبحانه يقول ـ وقوله الحق في المسيح: ﴿**إنما المسيح عيسى بن مريم، رسول الله، وكَلِمَته ألقاها إلى مريم، وروح منه**﴾ [النساء: ١٧١] فهو على وجه القصد والتحديد: «رسول الله».. شأنه في هذا شأن بقية الرسل. شأن نوح وإبراهيم وموسى ومحمد، وبقية الرهط الكريم من عباد الله المختارين للرسالة على مدار الزمان..

وقصة عيسى ـ عليه السلام ـ تُفسر الخوارق التي صاحبت مولده وسيرته تفسيراً لا تعقيد فيه ولا غموض، من شأنه أنه يُريح القلب والعقل، ويدع الأمر فيهما طبيعياً عادياً لا غرابة فيه..

وإذا كان مولد عيسى ـ عليه السلام ـ من غير أب عجيباً في عُرف البشر، خارقاً لما أَلِفُوه، فهذا العجب إنما تُنشئه مخالفة المألوف. والمألوف للبشر

http://al-maktabeh.com

ليس هو كل الموجود.. والقوانين الكونية التي يعرفونها ليست هي كل سُنة الله. والله يخلق السُنة ويجريها، ويصرفها حسب مشيئته. ولا حدّ لمشيئته.

والله سبحانه خلق عيسى بالأمر الكوني المباشر، الذي يقول عنه في مواضع شتى من القرآن: إنه: ﴿كُن فيكون﴾..

فقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم ﴿**وكَلِمَتُه ألقاها إلى مريم**﴾ فَخَلق عيسى في بطنها من غير نُطفة أب - كما هو المألوف في حياة البشر غير آدم - والكلمة التي تخلق كل شيء من العدم، لا عجب في أن تخلق عيسى - عليه السلام - في بطن مريم من النفخة التي يعبر عنها بقوله: ﴿**ورُوح منه**﴾..

وقد نَفَخ الله في طينة آدم من قبل من روحه فكان «إنساناً» كما يقول الله تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين. فإذا سويته ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾ [صٓ: ٧٠ - ٧١]. وكذلك في قصة عيسى: ﴿**والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا**﴾ [الأنبياء: ٩١].. فالأمر له سابقة..

والروح هنا هو الروح هناك.. ولم يقل أحد من أهل الكتاب - وهم يؤمنون بقصة آدم والنفخة فيه من روح الله - إن آدم إله، ولا أقنوم من أقانيم الإله. كما قالوا عن عيسى، مع تشابه الحال - من حيث قضية الروح والنفخة ومن حيث الخلقة كذلك. بل إن آدم خُلق من غير أب وأم. وعيسى خُلق مع وجود أم.. وكذلك قال الله: ﴿**إن مَثَلَ عيسى عند الله كمثل آدم خَلَقه من تراب، ثم قال له كن فيكون**﴾ [آل عمران: ٥٩]..

ويعجب الإنسان - وهو يرى وضوح القضية وبساطتها - من فعل الهوى ورواسب الوثنية التي عقّدت قضية عيسى - عليه السلام - هذا التعقيد كله، في أذهان أجيال وأجيال وهي - كما يُصورها القرآن - بسيطة بسيطة، وواضحة مكشوفة.

إن الذي وَهَبَ لآدم.. من غير أبوين.. حياة إنسانية مُتميزة عن حياة

سائر الخلائق بنفخة من روحه، لهو الذي وَهَبَ عيسى.. من غير أب.. هذه الحياة الإنسانية كذلك.. وهذا الكلام البسيط الواضح أَوْلى من تلك الأساطير التي لا تنتهي عن أُلوهية المسيح، لمجرد أنه جاء من غير أب. وعن أُلوهية الأقانيم الثلاثة كذلك!.. تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً..

وبعد هذا التعقيب القرآني على القصة ﴿**إن مَثَل عيسى عند الله كمَثَل آدم...**﴾.. يجد القلب بَرد اليقين والراحة؛ ويَعجب كيف ثارت تلك الشُبهات حول هذه الحقيقة البسيطة؟

والله ـ سبحانه ـ تعالى عن الشركة؛ وتعالى عن المشابهة. ومقتضى كونه خالقاً يَستتبع.. بذاته.. أن يكون غير الخَلق. وما يملك إدراك أن يتصور إلا هذا التغاير بين الخالق والخَلْق. والمالك والمُلك.. وإلى هذا يشير النص القرآني: ﴿**إنما الله إله واحد سبحانه! أن يكون له ولد؟ له ما في السموات وما في الأرض..**﴾ [النساء: ١٧١]..

ونمضي مع القرآن الكريم في مولد مريم ـ عليها السلام ـ وتاريخها.. ﴿**إذ قالت امرأة عمران: ربِّ إني نذرتُ ما في بطني مُحرّراً فتقبَّل مني إنك أنت السميع العليم**﴾ [آل عمران: ٣٥]..

كان عمران هذا من العلماء البارزين في بني إسرائيل، وتذكر بعض الروايات أنه من آل إبراهيم وذريته[1].

---

(١) وقد ذكره الله ـ سبحانه ـ في بيان مَن اصطفاهم من عباده في موكب الإيمان: ﴿**إن الله اصطفى آدم ونوحاً، وآل إبراهيم وآل عمران، على العالمين. ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم**﴾ [آل عمران: ٣٣]..

ولقد ذكر السياق القرآني آدم ونوحاً فردين؛ وذكر آل إبراهيم وآل عمران أسرتين. إشارة إلى أنّ آدم بشخصه ونوحاً بشخصه هما اللذان وقع عليهما الاصطفاء. فأما إبراهيم وعمران فقد كان الاصطفاء لهما ولذريتهما كذلك ـ على القاعدة التي قررها القرآن عن آل إبراهيم: قاعدة أن وراثة النبوة والبركة في بيته ليست وراثة الدم، إنما وراثة العقيدة: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال: إني جاعلُك للناس إماماً. قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين**﴾ [البقرة: ١٢٤]..

وقصة النذر تكشف لنا عن قلب «امرأة عمران» ـ أُم مريم ـ وما يَعمره من إيمان، ومن تَوَجُّه إلى ربّها بأعز ما تملك. وهو الجنين الذي تحمله في بطنها. خالصاً لربها، مُحرّراً من كل قيد ومن كل شرك ومن كل حق لأحد غير الله سبحانه.

والتعبير عن الخلوص المُطلق بأنه تحرر تعبير موح. فما يتحرر حقاً إلا مَن يخلص للّه كله، ويفر إلى الله بجملته، وينجو من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل قيمة، فلا تكون عبودية إلا للّه وحده. . فهذا هو التحرر إذن. . وما عداه عبودية وإن تراءت في صورة الحرية!

ومن هنا يبدو التوحيد هو الصورة المُثلى للتحرر. فما يتحرر إنسان وهو يدين لأحد غير الله بشيء ما في ذات نفسه، أو في مجريات حياته، أو في الأوضاع والقيم والقوانين والشرائع التي تُصرّف هذه الحياة. . لا تحرر وفي قلب الإنسان تَعلُّق أو تَطَلُّع أو عبودية لغير الله. وفي حياته شريعة أو قيم أو موازين مستمدة من غير الله. وحين جاء الإسلام بالتوحيد جاء بالصورة الوحيدة للتحرر في عالم الإنسان. .

وهذا الدعاء الخاشع من امرأة فرعون، بأن يتقبل بها منها نذرها ـ وهو فلذة كبدها ـ ينم عن ذلك الإسلام الخالص للّه، والتوجه إليه كلية، والتحرر من كل قيد، والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه:

﴿ربِ إني نذرت لك ما في بطني مُحرَّراً فتقبّل مني. إنك أنت السميع العليم﴾ [آل عمران: ٣٥].

ولكنها وَضَعَتْها أُنثى؛ ولم تضعها ذكراً!

﴿فلما وضعتها قالت: ربِ إني وضعتها أنثى ـ والله أعلم بما وضعت ـ وليس الذكر كالأنثى. . ﴾ [آل عمران: ٣٦]. .

لقد كانت تنتظر ولداً ذكراً؛ فالنذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا للصبيان، ليخدموا الهيكل، وينقطعوا للعبادة والتبتل. ولكن ها هي ذي تجدها أنثى.

فتتوجه إلى ربها في نغمة أسيفة: ﴿**ربِ إني وضعتها أنثى**..﴾.

ولكنها هي تتجه إلى ربها بما وجدت، وكأنها تعتذر أن لم يكن لها ولد ذكر ينهض بالمهمة. ﴿**وليس الذكر كالأنثى**﴾..

ولا تنهض الأنثى بما ينهض به الذكر في هذا المجال: ﴿**وإني سميتها مريم**﴾ [آل عمران: ٣٦]..

وهذا الحديث على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة. مناجاة مَن يشعر أنه منفرد بربه. يحدثه بما في نفسه، وبما بين يديه، ويقدم له ما يملك تقديماً مباشراً لطيفاً. وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء العباد المختارون مع ربهم. حال الودّ والقرب والمباشرة، والمناجاة البسيطة العبارة؛ التي لا تكلّف فيها ولا تعقيد. مناجاة مَن يحسّ أنه يُحَدِّث قريباً ودوداً سميعاً مجيباً.

﴿**وإني أُعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**﴾ [آل عمران: ٣٦]..

- وهي الكلمة الأخيرة حيث تودع الأم هديتها بين يدي ربها، وتدعها لحمايته ورعايته، وتعيذها به هي وذريتها من الشيطان الرجيم[1]..

وهذه كذلك كلمة القلب الخالص، ورغبة القلب الخالص. فما تودّ لوليدتها أمراً خيراً من أن تكون في حياطة الله من الشيطان الرجيم!

---

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ما من مَولود يُولَد إلا نَخَسه الشيطان فيستهل صارخاً من نَخْسَة الشيطان إلا ابن مريم وأمُّه» ثم قال أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿**وإني أُعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**﴾ [آل عمران: ٣٦].

أخرجه مسلم. وقال النووي في «شرح مسلم» هذه فضيلة ظاهرة، وظاهر الحديث اختصاصها بعيسى وأمه، واختار القاضي عياض أن جميع الأنبياء يتشاركون فيها. قوله: «نخسه الشيطان» أي حين يسقط المولود من بطن أمه، ومعنى نزغه نخسة وطعنة. ومنه قولهم نزغه بكلمة سوء أي رماه بها..

وعن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كل بني آدم يَمَسُّه الشيطان يوم ولدتْه أُمُّه إلا مريم وابنها عيسى ـ عليهما السلام ـ».

أخرجه مسلم وابن حبان، انظر تخريج الحديث في الإحسان (٦٢٣٤، ٦٢٣٥).

﴿فتقبّلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً﴾ [آل عمران: ٣٧]. .

جزاء هذا الإخلاص الذي يعمر قلب الأم، وهذا التجرد الكامل في النذر. . وإعداداً لها أن تستقبل نفخة الروح، وكلمة الله، وأن تلد عيسى ـ عليه السلام ـ على غير مثال من ولادة البشر.

﴿وكَفَّلَها زكريا﴾ [آل عمران: ٣٧]. .

أي جعل كفالتها له، وجعله أميناً عليها. . وكان زكريا رئيس الهيكل اليهودي. من ذرية هارون الذين صارت إليهم سدانة الهيكل.

ونشأت مباركة مجدودة. يُهيىء لها الله من رزقه فيضاً من فيوضاته:

﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وَجَد عندها رزقاً. قال: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله. إن الله يرزق مَن يشاء بغير حساب﴾ [آل عمران: ٣٧].

ولا نخوض نحن في صفة هذا الرزق كما خاضت الروايات الكثيرة. فيكفي أن نعرف أنها كانت مباركة يفيض من حولها الخير ويفيض الرزق من كل ما يُسمى رزقاً. حتى ليعجب كافلها ـ وهو نبي ـ من فيض الرزق. فيسألها: كيف ومن أين هذا كله؟ فلا تزيد على أن تقول في خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضله، وتفويض الأمر إليه كله:

﴿هو من عند الله. إن الله يرزق مَن يشاء بغير حساب﴾. .

وهي كلمة تُصوّر حال المؤمن مع ربه، واحتفاظه بالسرّ الذي بينه وبينه. والتواضع في الحديث عن هذا السر. لا التَغَنُّج به والمباهاة! كما أن ذكر هذه الظاهرة غير المألوفة التي تُثير عجب نبي الله زكريا. هي التمهيد للعجائب التي تليها في ميلاد يحيى وميلاد عيسى ـ عليهما السلام ـ. .

إن حادث عيسى ـ عليه السلام ـ الذي انبثقت منه كل الأساطير والشبهات. . إن هو إلا حَلَقة من سلسلة في ظواهر المشيئة الطليقة. . ويتحدث القرآن الكريم في قصة المسيح ـ عليه السلام ـ عن إعداد مريم

لتلقي النفخة العلوية بالطهارة والقنوت والعبادة . .

﴿وإذ قالت الملائكة: يا مريم إن الله اصطفاك وطَهّرك واصطفاك على نساء العالمين. يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ [آل عمران: ٤٣ ـ ٤٤].

وأي اصطفاء؟! وهو يختارها لتلقي النفخة المباشرة، كما تلقاها أول هذه الخليقة: «آدم»؟ وعَرض هذه الخارقة على البشرية من خلالها وعن طريقها؟ إنه الاصطفاء للأمر المفرد في تاريخ البشرية. . وهو بلا جدال أمر عظيم. .

ولكنها ـ حتى ذلك الحين ـ لم تكن تعلم ذلك الأمر العظيم!

والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى. وذلك لِما لابَس مولد عيسى ـ عليه السلام ـ من شبهات لم يتورع اليهود أن يُلْصقوها بمريم الطاهرة، مُعتمدين على أن هذا المولد لا مثال له في عالم الناس فيزعموا أن وراءه سراً لا يُشرّف. . قَبَّحهم الله!!

وهنا تظهر عظمة هذا الدين؛ ويتبين مصدره عن يقين. فها هو ذا محمد ـ ﷺ ـ رسول الإسلام(١) الذي يَلْقى من أهل الكتاب ـ ومنهم النصارى ـ ما يَلْقى من التكذيب والعنت والجدل والشبهات. . ها هو ذا يحدث عن ربه بحقيقة مريم العظيمة وتفضيلها على «نساء العالمين» بهذا

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنا أَوْلى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة». قالوا: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «الأنبياء إخوة من علاّت، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وليس بيننا نبي».

أخرجه مسلم (٢٣٦٥، ١٤٥)، وأحمد ٢/٣١٩، والبغوي (٣٦١٩)، وابن حبان (انظر الإحسان ٦١٩٤، ٦١٩٥).

قال النووي في «شرح مسلم»: أولاد العلات بفتح العين المهملة وتشديد اللام هم الأخوة لأب من أمهات شتى.

وقال الإمام البغوي: يقال لإخوة بني أب وأم: بنو الأعيان، فإن كانوا لأمهات شتى، فهم بنو العلات، فإن كانوا لآباء شتى، فهم أضياف، يريد أن أصل دين الأنبياء واحد، وإن كانت شرائعهم مختلفة، كما أن أولاد العلات أبوهم واحد، وإن كانت أمهاتهم شتى.

الإطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق. وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم، ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد وبالدين الجديد!

أي صدق؟ وأي عظمة؟ وأية دلالة على مصدر هذا الدين، وصدق صاحبه الأمين!

إنه يتلقى «الحق» من ربه؛ عن مريم وعن عيسى ـ عليه السلام ـ فيعلن هذا الحق، في هذا المجال.. ولو لم يكن رسولاً من الله الحق ما أظهر هذا القول في هذا المجال بحال!

﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾..

طاعة وعبادة، وخشوع وركوع، وحياة موصولة بالله تمهيداً للأمر العظيم الخطير..

﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك. وما كنتَ لديهم إذ يُلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم؟ وما كنتَ لديهم إذ يختصمون﴾ [آل عمران: ٤٤].

وهي إشارة إلى ما كان من تسابق سدنة الهيكل إلى كفالة مريم، حين جاءت بها أمها وليدة إلى الهيكل، وفاءً لنذرها وعَهْدها مع ربها.

والنص يشير إلى حادث لم يذكره «العهد القديم» ولا «العهد الجديد» المتداولان؛ ولكن لا بد أنه كان معروفاً عند الأحبار والرهبان حادث إلقاء الأقلام.. أقلام سَدنة الهيكل.. لمعرفة مَن تكون مريم من نصيبه.

والنص القرآني لا يُفصّل الحادث ـ ربما اعتماداً على أنه كان معروفاً لسامعيه، أو لأنه لا يزيد شيئاً في أصل الحقيقة التي يريد عرضها على الأجيال القادمة ـ فلنا أن نفهم أنهم اتفقوا على طريقة خاصة ـ بواسطة إلقاء الأقلام ـ لمعرفة مَن هي من نصيبه، على نحو ما نصنع في «القرعة» مثلاً.

وقد ذكرت بعض الروايات أنهم ألقوا بأقلامهم في نهر الأردن. فجرت

مع التيار إلا قلم زكريا فثبت. وكانت هذه هي العلامة بينهم. فَسَلَّموا بمريم له.

وكل ذلك من الغيب لم يكن الرسول ـ ﷺ ـ حاضره، ولم يبلغ إلى علمه. فربما كان من أسرار الهيكل التي لا تُفشى ولا تُباح للإذاعة بها، فاتخذها القرآن ـ في مواجهة كبار أهل الكتاب وقتها ـ دليلاً على وحي من الله لرسوله الصادق. ولم يَرد أنهم ردّوا هذه الحجة. ولو كانت موضع جدال لجادلوه؛ وهم قد جاءوا للجدال!

والآن نجيء إلى مولد عيسى: العجيبة الكبرى في عُرف الناس، والشأن العادي للمشيئة الطليقة.

لقد تأهلت مريم بالتطهر والقنوت والعبادة لِتَلقّي هذا الفضل، واستقبال هذا الحدث، وها هي ذي تَتَلقَّى ـ لأول مرة ـ التبليغ عن طريق الملائكة بالأمر الخطير:

﴿إذ قالت الملائكة: يا مريم إن الله يُبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم. وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المُقرّبين. ويُكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

إنها بشارة كاملة وإفصاح عن الأمر كله. بشارة بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم.. فالمسيح بدل من الكلمة في العبارة. وهو الكلمة في الحقيقة. فماذا وراء هذا التعبير؟

إن هذه وأمثالها، من أمور الغيب التي لا مجال لمعرفة كنهها على وجه التحديد.. ربما كانت من الذي عناه الله بقوله: **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات مُحكمات هُنَّ أُم الكتاب وأُخر متشابهات. فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تَشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله..﴾** [آل عمران: ٧].. الخ.

ولكن الأمر أيسر من هذا إذا أردنا أن نفهم طبيعة هذه الحقيقة الفَهْم الذي يصل القلب بالله، وصُنعته وقدرته، ومشيئته الطليقة: لقد شاء الله أن

يبدأ الحياة البشرية بخلق آدم من تراب ـ وسواء كان قد جَبَله مباشرة من التراب أو جَبَل السلالة الأولى التي انتهت إليه من تراب، فإن هذا لا يُقدّم ولا يؤخر في طبيعة السر الذي لا يعلمه إلا الله. سر الحياة التي لابست أول مخلوق حي، أو لابست آدم إن كان خلقه مباشرة من التراب الميت! وهذه كتلك في صنع الله. وليست واحدة منهما بأَوْلى من الأخرى في الوجود والكينونة[1]..

من أين جاءت هذه الحياة؟ وكيف جاءت؟ إنها قطعاً شيء آخر غير التراب وغير سائر المواد الميتة في هذه الأرض.. شيء زائد. وشيء مغاير. وشيء ينشيء آثاراً وظواهر لا توجد أبداً في التراب ولا في مادة مَيتة على الإطلاق..

هذا السر من أين جاء؟ إنه لا يكفي أننا لا نعلم لكي نُنكر أو نهذر! كما يفعل الماديون في لجاجة صغيرة لا يحترمها عاقل فضلاً عن عالم!

نحن لا نعلم. وقد ذهبت سدى جميع المحاولات التي بذلناها ـ نحن البشر ـ بوسائلنا المادية لمعرفة مصدرها. أو لإنشائها بأيدينا من الموت!

نحن لا نعلم.. ولكن الله الذي وَهَبَ الحياة يعلم.. وهو يقول لنا: إنها نفخة من روحه. وإن الأمر قد تم بكلمة منه. «كن. فيكون»..

ما هي هذه النفخة؟ وكيف تُنفخ في الموات فينشأ فيه هذا السر اللطيف الخافي على الأفهام؟

ما هي؟ وكيف؟ هذا هو الذي لم يُخلق العقل البشري لإدراكه، لأنه ليس من شأنه. إنه لم يوهب القدرة على إدراكه.

إن معرفة ماهية الحياة وطريق النفخة لا يُجديه شيئاً في وظيفته التي خَلَقه الله لها ـ وظيفة الخلافة في الأرض ـ إنه لن يَخلق حياة من موات.. فما قيمة أن

---

(١) نحن نتكلم هنا جدلاً ولا نناقش نظرية النشوء والارتقاء، فقد كادت تفقد ركائزها العلمية. وهي مجرد نظرية!

يعرف طبيعة الحياة، وماهية النفخة من روح الله، وكيفية اتصالها بآدم أو بأول سلّم الحياة الذي سارت فيه السلالة الحية؟

والله ـ سبحانه ـ يقول: إن النفخة من روحه في آدم هي التي جعلت له هذا الامتياز والكرامة ـ حتى على الملائكة ـ فلا بد إذن أن تكون شيئاً آخر غير مجرد الحياة الموهوبة للدود والميكروب! وهذا يقودنا إلى اعتبار الإنسان جنساً نشأ نشأة ذاتية، وأن له اعتباراً خاصاً في نظام الكون، ليس لسائر الأحياء!

وعلى أية حال فهذا ليس موضوعنا هنا، إنما هي لمحة في سياق العرض للتحرز من شُبهة قد تقوم في نفس القارىء لما عرضناه جدلاً حول نشأة الإنسان!

المهم هنا أن الله يُخبرنا عن نشأة سر الحياة؛ وإن لم ندرك طبيعة هذا السر وكيفية نفخه في الموات..

وقد شاء ـ بعد نشأة آدم نشأة ذاتية مباشرة ـ أن يجعل لإعادة النشأة الإنسانية طريقاً معيناً. طريق التقاء ذكر وأنثى. واجتماع بويضة وخلية تذكير. فيتم الإخصاب، ويتم الإنسال. والبويضة حية غير ميتة والخلية حية كذلك متحركة.

ومضى مألوف الناس على هذه القاعدة.. حتى شاء الله أن يخرق هذه القاعدة المختارة في فرد من بني الإنسان. فيُنْشِئه نشأة قريبة وشبيهة بالنشأة الأولى. وإن لم تكن مثلها تماماً. أنثى فقط. تتلقى النفخة التي تُنشىء الحياة ابتداء. فتنشأ فيها الحياة!

أهذه النفخة هي الكلمة؟ الكلمة هي تَوجُّه الإرادة؟ الكلمة: «كن» التي قد تكون حقيقة وقد تكون كناية عن توجه الإرادة؟

والكلمة هي عيسى، أو هي التي منها كينونته؟

كل هذه بحوث لا طائل وراءها إلا الشبهات.. وخلاصتها هي تلك: أن الله شاء أن يُنشىء حياة على غير مثال. فأنشأها وفق إرادته الطليقة التي

تنشىء الحياة بنفخة من روح الله. نُدرك آثارها، ونجهل ماهيتها. ويجب أن نجهلها. لأنها لا تزيد مقدرتنا على الاضطلاع بوظيفة الخلافة في الأرض، ما دام إنشاء الحياة ليس داخلاً في تكليف الاستخلاف!

والأمر هكذا سهل الإدراك. ووقوعه لا يُثير الشُبهات!

- إنها قصة ميلاد عيسى.. ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل!

وإذا نحن تجاوزنا حادث خلق الإنسان أصلاً وإنشائه على هذه الصورة، فإن حادث ولادة عيسى ابن مريم يكون أعجب ما شهدته البشرية في تاريخها كله، ويكون حادثاً فذاً لا نظير له من قبله ولا من بعده.

والبشرية لم تشهد خلق نفسها وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها! لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب وأم، وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث؛ فشاءت الحكمة الإلهية أن تُبرز العجيبة الثانية في مولد عيسى من غير أب، على غير السنّة التي جرت منذ وُجد الإنسان على هذه الأرض، ليشهدها البشر؛ ثم تظل في سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة تتلفت إليها الأجيال، إن عزّ عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التي لم يشهدها إنسان!

لقد جرت بسنّة الله التي وضعها لامتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى في جميع الفصائل والأنواع بلا استثناء، حتى المخلوقات التي لا يوجد فيها ذكر وأنثى متميزان تتجمع في الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث.. جرت هذه السنّة أحقاباً طويلة حتى استقر في تصور البشر أن هذه الطريقة الوحيدة، ونسوا الحادث الأول. حادث وجود الإنسان لأنه خارج عن القياس. فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى ابن مريم - عليه السلام - لِيُذَكّرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة، وأنها لا تحتبس داخل النواميس التي تختارها.

ولم يتكرر حادث عيسى لأن الأصل هو أن تجري السنّة التي وضعها الله، وأن يُنفذ الناموس الذي اختاره. وهذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقى أمام أنظار البشرية مَعْلَماً بارزاً على حرية المشيئة، وعدم احتباسها داخل حدود النواميس

﴿ولنجعله آية للناس﴾ [مريم: ٢١]..

﴿والتي أحصنت فَرْجها، فنفخنا فيها من روحنا، وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ [الأنبياء: ٩١]..

ولا يذكر هنا اسم مريم.. وقد ذكرها بالعفة والطهارة ﴿والتي أحصنت فرجها﴾ أحصنته فَصَانَتْه من كل مباشرة.

والإحصان يطلق عادة على الزواج بالتبعية، لأن الزواج يحصن من الوقوع في الفاحشة. أما هنا فيذكر في معناه الأصيل، وهو الحفظ والصون أصلاً من كل مباشرة شرعية أو غير شرعية. وذلك تنزيهاً لمريم عن كل ما رماها به اليهود مع يوسف النجار الذي كان معها في خدمة الهيكل. والذي تقول عنه الأناجيل المتداولة، إنه كان قد تزوجها ولكنه لم يدخل بها ولم يقربها.

لقد أحصنت فرجها ﴿فنفخنا فيها من روحنا﴾ والنفخ هنا شائع لا يحدد موضعه كما في سورة التحريم ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا، وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ [التحريم: ١٢]..

﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ [الأنبياء: ٩١]..

وهي آية غير مسبوقة ولا ملحوقة. آية فذة واحدة في تاريخ البشرية جميعاً. ذلك أن المثل الواحد من هذا النوع يكفي لِتَتَأمّله البشرية في أجيالها جميعاً؛ وتُدرك يد القدرة الطليقة التي تخلق النواميس، ولكنها لا تحتبس داخل النواميس.

مشاهد مثيرة وحوادث غريبة:

ونظراً لغرابة الحادث وضخامته فقد عَزَّ على فِرَق من الناس أن تَتَصوَّره على طبيعته وأن تُدرك الحكمة في إبرازه، فجعلت تُضفي على عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ صفات أُلوهية، وتصوغ حول مولده

الخرافات والأساطير، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب ـ وهي إثبات القدرة الإلهية التي لا تتقيد ـ تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد.

والقرآن يقص كيف وقعت هذه العجيبة، ويبرز دلالتها الحقيقية، وينفي تلك الخرافات والأساطير.

والسياق القرآني يُخرج القصة في مشاهد مثيرة، حافلة بالعواطف والانفعالات، التي تهزّ مَن يقرؤها هزّاً كأنما هو يشهدها:

﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخذت من دونهم حجاباً، فأرسلنا إليها روحنا، فتمثّل لها بشراً سوياً. قالت: إني أعوذ بالرحمٰن منك إن كنت تقياً. قال: إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً...﴾ [مريم: ١٦ ـ ١٩]..

والمشهد الأول فتاة عذراء. قِدِّيسة، وَهَبَتْها أُمها وهي في بطنها لخدمة المعبد. لا يُعرف عنها أحد إلا الطُّهر والعِفّة حتى لتنسب إلى هارون أبي سدنة المعبد الإسرائيلي المُتطهرين ـ ولا يُعرف عن أسرتها إلا الطِيبة والصلاح من قديم.

ها هي ذي تخلو إلى نفسها لشأن من شؤونها التي تقتضي التواري من أهلها والاحتجاب عن أنظارهم.. ولا يحدد السياق هذا الشأن، ربما لأنه شأن خاص جداً من خصوصيات الفتاة..

وها هي ذي في خلوتها، مطمئنة إلى انفرادها. ولكن ها هي ذي تُفاجأ مفاجأة عنيفة.. إنه رجل مكتمل سوي: **﴿فأرسل إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً﴾**.. وها هي ذي تنتفض انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل في خلوتها، فتلجأ إلى الله تستعيذ به وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى في نفس الرجل، والخوف من الله والتحرّج من رقابته في هذا المكان الخالي: **﴿قالت: إني أعوذ بالرحمٰن منك إن كنت تقياً﴾** فالتقيّ ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمٰن، ويرجع عن دفعة الشهوة ونزغ الشيطان..

وهنا يتمثل الخيال تلك العذراء الطيبة البريئة ذات التربية الصالحة، التي نشأت في وسط صالح، وكفلها زكريا، بعد أن نُذرت للّه جنيناً.. وهذه هي الهزة الأولى.

﴿قال: إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾.. وليتمثل الخيال مقدار الفَزَع والخجل. وهذا الرجل السوي ـ الذي لم تثق بعد بأنه رسول ربها ـ فقد تكون حيلة فاتك يستغل طيبتها ـ يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول، وهو يريد أن يَهب لها غلاماً، وهما في خلوة ـ وهذه هي الهزة الثانية.

ثم تُدركها شجاعة الأنثى المُهدّدة في عرضها! فتسأل في صراحة: كيف؟

﴿قالت: أنّى يكون لي غلام، ولم يمسسني بشر، ولم أكُ بغياً؟﴾ [مريم: ٢٠].. هكذا في صراحة. وبالألفاظ المكشوفة. فهي والرجل في خلوة. والغرض من مباغتته لها قد صار مكشوفاً. فما تعرف هي بعد كيف يَهب لها غلاماً؟ وما يُخفف من روع الموقف أن يقول لها: ﴿إنما أنا رسول ربك﴾ ولا أنه مرسل ليهب لها غلاماً طاهراً غير مُدنّس المولد، ولا مُدَنّس السيرة، ليطمئن بالها. لا. فالحياء هنا لا يُجدي، والصراحة أَوْلَى.. كيف؟ وهي عذراء لم يَمَسّها بَشَر، وما هي بغي فتقبل الفعلة التي تجيء منها بغلام!

ويبدو من سؤالها أنها لم تكن تتصور حتى اللحظة وسيلة أخرى لأن يهبها غلاماً إلا الوسيلة المعهودة بين الذكر والأنثى. وهذا هو الطبيعي بحكم التصور البشري.

﴿قال: كذلك قال ربك: هو عليَّ هَين. ولنجعله آية للناس، ورحمة منا﴾ [مريم: ٢١]..

فهذا الأمر الخارق الذي لا تتصور مريم وقوعه، هيّن على الله. فأمام القدرة التي تقول للشيء كن فيكون، كل شيء هين، سواء جرت به السنّة المعهودة أو جرت بغيره. والروح يُخبرها بأن ربها يُخبّرها بأن هذا هين عليه. وأنه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس، وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته. ورحمة لبني إسرائيل أولاً وللبشرية جميعاً، بإبراز هذا الحادث

الذي يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه.

بذلك انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء.. ولا يذكر السياق ماذا كان بعد الحوار، فهنا فجوة من فجوات العرض الفني للقصة. ولكنه يذكر أن ما أخبرها به من أن يكون لها غلام وهي عذراء لم يمسها بشر، وأن يكون هذا الغلام آية للناس ورحمة من الله. إن هذا قد انتهى أمره، وتحقق وقوعه: ﴿**وكان أمراً مقضياً**﴾ كيف؟ لا يذكر هنا عن ذلك شيئاً[1].

وهكذا بشّرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم.. فتضمنت البشارة نوعه، وتضمنت اسمه ونسبه. وظهر من هذا النسب أن مرجعه إلى أمه.. ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانه من ربه: ﴿**وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين**﴾ [آل عمران: ٤٥].. كما تضمنت ظاهرة معجزة تصاحب مَوْلده ﴿**ويكلم الناس في المهد**﴾.. ولمحة من مستقبله: ﴿**وكهلاً**﴾.. وسمته والموكب الذي ينتسب إليه: ﴿**ومن الصالحين**﴾ [آل عمران: ٤٦]..

فأما مريم الفتاة الطاهرة العذراء المُقيدة بمألوف البشر في الحياة، فقد تلقت البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة. واتجهت إلى ربها تناجيه وتتطلع إلى كشف هذا اللغز الذي يُحير عقل الإنسان:

---

(١) جاء في سورة التحريم: ﴿**ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا**﴾ فهل كلمة «روحنا» التي في سورة مريم هي نفسها التي في سورة التحريم؟ وهل مدلولها واحد؟.. نحن نميل إلى أنها ذات مدلولين: فهي في سورة مريم تعني جبريل الروح الأمين وهو رسول الله إلى مريم. أما في التحريم فتعني الروح الذي نفخ الله منه في آدم فإذا هو إنسان ونفخ منه في فرج مريم فإذا البويضة حية مستعدة للنمو: فهي النفخة الإلهية التي تمنح الحياة وتمنح معها الخصائص المرافقة لنوع هذه الحياة. وهي في الإنسان الاستعدادات التي تصله بالملأ الأعلى وتهبه الحس الإنساني والتفكير والمشاعر والإلهامات. ونفسر حالة مريم بأن جبريل وهو الروح الأمين كان حاملاً وموصلاً لنفخة الروح العلوية من الله..

ثم نعود فنقول: إننا لا ندرك شيئاً لا عن ماهية الروح بمعنى جبريل، ولا عن ماهية الروح بالمعنى الآخر. فَكُلّه غيب. إنما نحن نستلهم السياق في السورتين فنجد أن مدلول الروح هنا غيره هناك.

﴿قالت: ربِ أنَّى يكون لي ولد ولم يَمسسني بَشَر؟﴾ [آل عمران: ٤٧]. .

وجاءها الجواب، يردها إلى الحقيقة البسيطة التي يغفل عنها البشر لطول ألفتهم للأسباب والمسببات الظاهرة لعلمهم القليل، ومألوفهم المحدود: ﴿قال: كذلك يفعل الله ما يشاء. إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون﴾ [آل عمران: ٤٧]. .

وحين يردّ الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب، وتزول الحيرة، ويطمئن القلب؛ ويعود الإنسان على نفسه يسألها في عجب: كيف عجبت من هذا الأمر الفطري الواضح القريب!!

وهكذا كان القرآن يُنشيء التصور الإسلامي لهذه الحقائق الكبيرة بمثل هذا اليسر الفطري القريب. وهكذا كان يجلو الشبهات التي تُعقّدها الفلسفات المُعقّدة، ويقرّ الأمر في القلوب وفي العقول سواء. .

ثم تمضي القصة في مشهد جديد من مشاهدها؛ فتعرض هذه العذراء الحائرة في موقف آخر أشد هَوْلاً:

﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً. فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة؛ قالت: يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ [مريم: ٢٢ ـ ٢٣] وهذه هي الهزة الثالثة. .

إن السياق لا يذكر كيف حملته ولا كم حملته. هل كان حملاً عادياً كما تحمل النساء وتكون النفخة قد بعثت الحياة والنشاط في البويضة فإذا هي علقة فمضغة فعظام ثم تُكسى باللحم ويستكمل الجنين أيامه المعهودة؟

إن هذا جائز. فبويضة المرأة تبدأ بعد التلقيح في النشاط والنمو حتى تستكمل تسعة أشهر قمرية، والنفخة تكون قد أدت دور التلقيح فسارت البويضة سيرتها الطبيعية. . كما أنه من الجائز في مثل هذه الحالة الخاصة أن لا تسير البويضة بعد النفخة سيرة عادية، فتختصر المراحل اختصاراً؛ ويعقبها تكون الجنين ونموه واكتماله في فترة وجيزة. .

ليس في النص ما يدل على إحدى الحالتين. فلا نجري طويلاً وراء تحقيق القضية التي لا سَنَد لنا فيها..

فلنشهد مريم تَنتبذ مكاناً قصيًّا عن أهلها، في موقف أشد هولاً من موقفها الذي أسلفنا. فلئن كانت في الموقف الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق، بينها وبين نفسها، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة. ثم هي تواجه الآلام الجسدية بجانب الآلام النفسية. تواجه المخاض الذي ﴿**أجاءها**﴾ إجاءة إلى جذع النخلة، واضطرها اضطراراً إلى الاستناد عليها.

وهي وحيدة فريدة، تُعاني حيرة العذراء في أول مخاض، ولا علم لها بشيء، ولا معين لها في شيء.. فإذا هي قالت: ﴿**يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً**﴾ فإننا لنكاد نرى ملامحها، ونحس اضطراب خواطرها، ونلمس مواقع الألم فيها. وهي تتمنى لو كانت «نسياً»: تلك الخرقة التي تتخذ لدم الحيض، ثم تلقى بعد ذلك وتنسى!

وفي حدة الألم وغمرة الهول تقع المفاجأة الكبرى:

﴿**فناداها من تحتها ألَّا تَحزني قد جعل ربك تحتك سرياً. وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رُطَباً جنياً. فكلي واشربي وقري عيناً، فإما ترين من البشر أحداً فقولي: إني نذرت للرحمٰن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً**﴾ [مريم: ٢٤ ـ ٢٦]..

يا لله! طفل وُلِدَ اللحظة يناديها من تحتها. يُطَمْئِن قلبها ويصلها بربها، ويرشدها إلى طعامها وشرابها. ويدلها على حجتها وبرهانها!

لا تحزني.. ﴿**قد جعل ربك تحتك سرياً**﴾ فلم ينسك ولم يتركك، بل أجرى لك تحت قدميك جَدولاً سارياً ـ الأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء في الجبل ـ وهذه النخلة التي تستندين إليها هِزّيها فتساقط عليك رطباً. فهذا طعام وذاك شراب. والطعام الحلو مناسب للنفساء. والرطب والتمر من أجود طعام النفساء.

﴿فكلي واشربي﴾ هنيئاً. **﴿وقري عيناً﴾** واطمئني قلباً. فأما إذا واجهت أحداً فأعلنيه بطريقة غير الكلام، أنك نذرت للرحمٰن صوماً عن حديث الناس وانقطعت إليه للعبادة. ولا تُجيبي أحداً عن سؤال..

ونحسبها قد دُهشت طويلاً، وبُهتت طويلاً، قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزّه ليساقط عليها رطباً جنياً.. ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها. وإلى أن حُجّتها معها.. هذا الطفل الذي ينطق في المهد.. فيكشف عن الخارقة التي جاءت به إليها.. **﴿فأتت به قومها تحمله..!﴾** [مريم: ٢٧].. فلنشهد هذا المشهد المثير:

إننا لنتصور الدهشة التي تعلو وجوه القوم ـ ويبدو أنهم أهل بيتها الأقربون في نطاق ضيق محدود ـ وهم يرون ابنتهم الطاهرة العذراء الموهوبة للهيكل العابدة المنقطعة للعبادة.. يرونها تحمل طفلاً!

﴿قالوا: يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً. يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء، وما كانت أمك بغياً!﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨].

إن ألسنتهم لتنطلق بالتقريع والتأنيب: لقد جئت شيئاً فظيعاً مُستنكراً. ثم يتحول السخط إلى تهكم مرير: **﴿يا أخت هارون﴾**(١) النبي الذي تولّى

---

(١) عن المغيرة بن شعبة، قال: بعثني رسول الله ـ ﷺ ـ إلى نجران، فقال لي أهل نجران: ألستُم تقرأون هذه الآية: **﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سَوْء، وما كانت أمُّك بغياً﴾**، وقد عرفتم ما بين موسى وعيسى؟ فلم أدرِ ما أردُّ عليهم، حتى قدمتُ المدينة على رسول الله ـ ﷺ ـ فذكرتُ ذلك له فقال لي: «أفلا أخبرتَهُم أنهم كانوا يُسمُّون بالأنبياء والصالحين قبلهم؟». أخرجه مسلم (٢١٣٥) في الآداب، وأحمد ٤/١٣٠ و٢٠٢، والترمذي (٢٨٦٣) و(٢٨٦٤) وابن حبان (انظر الإحسان ٦٢٣٣).

ويشير هذا الحديث والآية المذكورة أن «هارون» هو أخو مريم كان مشهوراً بالدين والصلاح والخير، وكان هذا الإسم يكثر في بني إسرائيل تبركاً باسم النبي هارون أخي موسى.

ويذكر ابن السدي وغيره أنه قيل **﴿يا أخت هارون﴾** أخي موسى لأنها كانت من نَسله، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمصري: يا أخا مصر، ومنها: يا أخا العرب، ويا أخا الجود، ومنه قوله ـ ﷺ ـ: «إن أخا صُداء قد أذّن ومَن أذّن فهو يقيم»، وأخو صداء: هو زياد بن الحارث الصدائي.

الهيكل هو وذريته من بعده والذي تنتسبين إليه بعبادتك وانقطاعك لخدمة الهيكل. فيا للمفارقة بين تلك النسبة التي تنتسبينها وذلك الفعل الذي تقارفينه! **﴿ما كان أبوك امرأ سوء، وما كانت أمك بغياً﴾** حتى تأتي بهذه الفعلة التي لا يأتيها إلا بنات آباء السوء والأمهات البغايا.

وتُنفّذ مريم وصية الطفل العجيب التي لقنها إياها:

﴿فأشارت إليه﴾.. فماذا نقول في العجب والغيظ الذي ساورهم وهم يرون عذراء تواجههم بطفل؛ ثم تتبجّح فتسخر ممن يستنكرون فعلتها فتصمت وتشير لهم إلى الطفل ليسألوه عن سرها!

﴿قالوا: كيف نُكَلّم مَن كان في المهد صبياً؟﴾ [مريم: ٢٩] ولكن ها هي ذي الخارقة العجيبة تقع مرة أخرى:

﴿قال: إني عبد الله، آتاني الكتاب، وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبرًّا بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً، والسلام عليّ يوم وُلدت ويوم أموت ويوم أُبعث حياً﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٣]..

وهكذا يُعلن عيسى - عليه السلام - عبوديته للّه. فليس هو ابنه كما تدّعي فرقة. وليس هو إلهاً كما تدّعي فرقة. وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تدّعي فرقة.. ويعلن أن الله جعله نبياً، لا وَلَداً ولا شريكاً. وبارك فيه، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدى حياته. والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته. فله إذن حياة محدودة ذات أمد. وهو يموت ويُبعث. وقد قدّر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم وُلِدَ ويوم يموت ويوم يُبعث حياً.

والنص صريح هنا في موت عيسى وبَعثه. وهو لا يحتمل تأويلاً في هذه الحقيقة ولا جدالاً.

﴿ذلك عيسى ابن مريم. قول الحق الذي فيه يمترون. ما كان للّه أن يتخذ من ولد. سبحانه. إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون. وإن الله

ربي وربكم فاعبدوه. هذا صراط مستقيم﴾ [مريم: ٣٤ - ٣٦]..

ذلك عيسى ابن مريم، لا ما يقوله المؤلّهون له أو المُتهِمون لأمه في مولده.. ذلك هو في حقيقته وذلك واقع نشأته. ذلك هو يقول قول الحق الذي فيه يمترون ويشكون. يقولها لسانه ويقولها الحال في قصته: ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾ تعالى وتنزّه فليس من شأنه أن يتخذ ولداً. والولد إنما يتخذه الفانون للامتداد، ويتخذه الضعاف للنصرة. والله باق لا يخشى فناء، قادر لا يحتاج معيناً. والكائنات كلها توجد بكلمة كن. وإذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون..

فما يريد تحقيقه يُحققه بتوجه الإرادة لا بالولد والمُعين..

وينتهي ما يقوله عيسى - عليه السلام - ويقوله حاله بإعلان ربوبية الله له وللناس، ودعوته إلى عبادة الله الواحد بلا شريك: ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾.. فلا يبقى بعد شهادة عيسى وشهادة قصته مجال للأوهام والأساطير.. وهذا هو المقصود بذلك التعقيب في لغة التقرير وإيقاع التقرير.

وعندما يصل البيان القرآني إلى هذا الحد من قصة عيسى التي تدور حولها المناظرة ويدور حولها الجَدَل، يبدأ التعقيب الذي يقرر الحقائق الأساسية المستفادة من هذا القصص، وينتهي إلى تلقين الرسول - ﷺ - ما يواجه به أهل الكتاب مواجهة فاصلة تُنهي الحوار والجدل؛ وتستقر على حقيقة ما جاء به، وما يدعو إليه، في وضوح كامل وفي يقين:

﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم. إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب. ثم قال له: كن. فيكون..﴾ [آل عمران: ٥٨، ٥٩]..

ذلك القصص. وذلك التوجيه القرآني كله. فهو وحي من الله. يتلوه الله على نبيه - ﷺ - وفي التعبير معنى التكريم والقرب والود.. فماذا بعد أن يتولى الله تعالى التلاوة على محمد نبيه؟ تلاوة الآيات والذكر الحكيم.. وإنه

لحكيم يتولى تقرير الحقائق الكبرى في النفس والحياة بمنهج وأسلوب وطريقة تخاطب الفطرة وتتلطف في الدخول عليها واللصوق بها بشكل غير معهود فيما يصدر عن غير هذا المصدر الفريد.

ثم يحسم التعقيب في حقيقة عيسى ـ عليه السلام ـ وفي طبيعة الخَلق والإرادة التي تُنشىء كل شيء كما أنشأت عيسى ـ عليه السلام ـ:

﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم. خَلَقه من تراب. ثم قال له: كن فيكون﴾. .

إن ولادة عيسى عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر. ولكن أية غرابة فيها حين تُقاس إلى خَلْق آدم أبي البشر؟

وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى ـ بسبب مولده ـ ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب. . أهل الكتاب هؤلاء كانوا يُقرّون بنشأة آدم من التراب. وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنساني. . دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى. ودون أن يقولوا عن آدم: إن له طبيعة لاهوتية.

على حين أن العنصر الذي به صار آدم إنساناً هو ذاته العنصر الذي به وُلد عيسى من غير أب: عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك! وإن هي إلا الكلمة: «كن» تنشىء ما تراد له النشأة «فيكون»!

لقد نزل القرآن وهناك حشد من الأساطير الشائعة حول عيسى ـ عليه السلام ـ وبُنوّته للّه ـ سبحانه وتعالى ـ أو عن ازدواج طبيعته من اللاهوت والناسوت. أو عن تفرده بطبيعة إلهية ذابت فيها الطبيعة الناسوتية كالقطرة في الكأس! إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي غرقت الكنائس والمجامع في الجدل حولها، وجرت حولها الدماء أنهاراً في الدولة الرومانية! ومن ثم كان هذا التوكيد على بشرية عيسى ـ عليه السلام ـ وذكره في معظم المواضع

منسوباً إلى أمه مريم.. ﴿**وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس**﴾ [البقرة: ٢٥٣]..

ويلمس القرآن الكريم المشاعر الإنسانية لمسة رفيقة عميقة.. ﴿**إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. هو الذي يُصوركم في الأرحام كيف يشاء. لا إله إلا هو العزيز الحكيم**﴾ [آل عمران: ٥، ٦]..

وفي ظلال العلم اللطيف الشامل الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يلمس الحقيقة في الكيان البشري لمسة دقيقة، تتعلق بالنشأة الإنسانية. النشأة المجهولة في ظلام الغيب وظلام الأرحام، حيث لا علم للإنسان ولا قدرة ولا إدراك..

هكذا «يصوركم».. يمنحكم الصورة التي يشاء؛ ويمنحكم الخصائص المميزة لهذه الصورة. وهو وحده الذي يتولى التصوير، بمحض إرادته، ومطلق مشيئته: «**كيف يشاء**».. «**لا إله إلا هو**».. «**العزيز**».. ذو القدرة والقوة على الصنع والتصوير «**الحكيم**» الذي يدبر الأمر بحكمته فيما يصور ويخلق بلا معقب ولا شريك.

وفي هذه اللمسة تجلية لشبهات النصارى في عيسى ـ عليه السلام ـ ونشأته ومولده. فالله هو الذي صَوَّر عيسى «كيف يشاء».. لا أن عيسى هو الرب. أو هو الله. أو هو الإبن. أو هو الأقنوم اللاهوتي الناسوتي. إلى آخر ما انتهت إليه التصورات المنحرفة الغامضة المجانبة لفكرة التوحيد الناصعة الواضحة اليسيرة التصور القريبة الإدراك!

وهكذا تتجلى بساطة هذه الحقيقة.. حقيقة عيسى، وحقيقة آدم، وحقيقة الخَلْق كله. وتدخل إلى النفس في يسر وفي وضوح، حتى ليعجب الإنسان: كيف ثار الجدل حول هذا الحادث، وهو جار وفق السنّة الكبرى. سنّة الخلق والنشأة جميعاً!

وهذه هي طريقة «الذكر الحكيم» في مخاطبة الفطرة بالمنطق الفطري

الواقعي البسيط، في أعقد القضايا، التي تبدو بعد هذا الخطاب وهي اليسر الميسور!

وعندما يصل السياق بالقضية إلى هذا التقرير الواضح يتجه إلى الرسول ـ ﷺ ـ يُثَبِّته على الحق الذي معه، والذي يُتلى عليه، ويؤكده في حسه؛ كما يؤكده في حس مَن حوله من المسلمين، الذين ربما تُؤثّر في بعضهم شُبهات أهل الكتاب، وتلبيسهم وتضليلهم الخبيث:

﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ [آل عمران: ٦٠]. .

وما كان الرسول ـ ﷺ ـ ممترياً ولا شاكاً فيما يتلوه عليه ربه، في لحظة من لحظات حياته. . وإنما هو التثبيت على الحق، ندرك منه مدى ما كان يبلغه كيد أعداء الجماعة المسلمة من بعض أفرادها في ذلك الحين. كما ندرك منه مدى ما تتعرض له الأمة المسلمة في كل جيل من هذا الكيد؛ وضرورة تثبيتها على الحق الذي معها في وجه الكائدين والخادعين؛ ولهم في كل جيل أسلوب من أساليب الكيد جديد.

وهنا ـ وقد وضحت القضية وظهر الحق جلياً ـ يُوجه الله تعالى رسوله الكريم إلى أن يُنهي الجَدَل والمناظرة حول هذه القضية الواضحة وحول هذا الحق البَيِّن وأن يدعوهم إلى المباهلة كما هي مبينة في الآية التالية:

﴿فمَن حاجَّك فيه ـ من بعد ما جاءك من العلم ـ فقل: تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم. ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ [آل عمران: ٦١]. .

وقد دعا الرسول ـ ﷺ ـ مَن كانوا يناظرونه في هذه القضية[1] إلى هذا

---

(١) تذكر الروايات أن المناظرة والحوار كان مع وفد نصارى نجران، والرسول ـ ﷺ ـ يواجه شبهات النصارى وبخاصة ما يتعلق منها بعيسى ـ عليه السلام ـ ويؤكد القرآن حقيقة عقيدة التوحيد الخالص كما جاء به الإسلام، ويُصحح ما أصاب عقائد أهل الكتاب من انحراف وخَلْط وتشويه، ويدعوهم إلى الحق الواحد الذي تضمنته كتبهم الصحيحة التي جاء القرآن =

الاجتماع الحاشد، ليبتهل الجميع إلى الله أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين. فخافوا العاقبة وأبوا المباهلة. وتبين الحق واضحاً: ولكنهم فيما ورد من الروايات لم يُسلموا احتفاظاً بمكانتهم من قومهم، وبما كان يتمتع به رجال الكنيسة من سلطان وجاه ومصالح ونعيم!!! وما كانت البَينة هي التي يحتاج إليها مَن يصدون عن هذا الدين؛ إنما هي المصالح والمطامع والهوى يصد الناس عن الحق الواضح الذي لا خفاء فيه.

ثم يمضي التعقيب بعد الدعوة إلى المباهلة ـ وربما كانت الآيات التالية قد نزلت بعد الامتناع عنها ـ يقرر حقيقة الوحي، وحقيقة القصص، وحقيقة الوحدانية التي يدور حولها الحديث؛ ويُهدّد مَن يتولى عن الحق ويفسد في الأرض بهذا التولي:

﴿إن هذا لهو القصص الحق. وما من إله إلا الله. وإن الله لهو العزيز الحكيم. فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾ [آل عمران: ٦٢، ٦٣].

إن الفساد الذي يتولاه المعرضون عن حقيقة التوحيد لفساد عظيم. وما ينشأ في الأرض الفساد ـ في الواقع ـ إلا من الحيدة عن الاعتراف بهذه الحقيقة. لا اعتراف اللسان. فاعتراف اللسان لا قيمة له. ولا اعتراف القلب السلبي. فهذا الاعتراف لا ينشيء آثاره الواقعية في حياة الناس.. إنما هي الحيدة عن الاعتراف بهذه الحقيقة بكل آثارها التي تلازمها في واقع الحياة البشرية..

وأول ما يلازم حقيقة التوحيد أن تتوحد الربوبية، فتتوحد العبودية.. لا عبودية إلا للّه. ولا طاعة إلا للّه. ولا تلقي إلا عن الله. فليس إلا للّه تكون العبودية. وليس إلا للّه تكون الطاعة. وليس إلا عن الله يكون التلقي.. التلقي في التشريع، والتلقي في القيم والموازين، والتلقي في الآداب والأخلاق. والتلقي في كل ما يتعلق بنظام الحياة البشرية.. وإلا فهو الشرك أو

= بصدقها.. وحول المناظرة مع وفد نجران ونكوثهم عن المباهلة: يراجع تفسير ابن كثير ١/ ٣٦٨ ـ ٣٧١، كما يراجع قصة وفد نجران وهي مطولة جداً في دلائل النبوة للبيهقي.

الكفر. مهما اعترفت الألسنة، ومهما اعترفت القلوب الاعتراف السلبي الذي لا ينشىء آثاره في حياة الناس العامة في استسلام وطاعة واستجابة وقبول.

وبعد هذا التقرير يعرض القرآن الكريم اختلاف الفِرَق والأحزاب في أمر عيسى، فيبدو هذا الخلاف مُستَنكراً نابياً في ظل هذه الحقيقة الناصعة: ﴿**فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم**..﴾ [مريم: ٣٧]..

ولقد اختلف النصارى في المسيح ـ عليه السلام ـ وفي أُمه مريم.

قالت جماعة: إن المسيح إنسان محض، وقالت جماعة: إن الأب والإبن وروح القدس إن هي إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس. فالله بزعمهم مركب من أقانيم ثلاثة، الأب والإبن وروح القدس (والإبن هو عيسى) فانحدر الله الذي هو الأب في صورة روح القدس وتجسد في مريم إنساناً وَوُلِدَ منها في صورة يسوع!

وجماعة قالت: إن الإبن ليس أزلياً كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم، ولذلك هو دون الأب وخاضع له!

وجماعة أنكروا كون روح القدس أقنوماً!

وقد جمع الأمبرطور الروماني قَسطنطين مجمعاً من الأساقفة ـ وهو أحد المجامع الثلاثة الشهيرة ـ بلغ عدد أعضائه ألفين ومئة وسبعين أسقفاً فاختلفوا في عيسى اختلافاً شديداً، وقالت كل فرقة فيه قولاً.. قال بعضهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيا مَن أحيا وأمات مَن أمات ثم صعد إلى السماء.

وقال بعضهم: هو ابن الله، وقال بعضهم: هو أحد الأقانيم الثلاثة: الأب والإبن وروح القدس.

وقال بعضهم: هو ثالث ثلاثة: الله إله وهو إله وأمه إله. وقال بعضهم: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته. وقالت فرق أخرى أقوالاً أخرى.

ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاث مئة وثمانية اتفقوا على قول. فمال إليه الأمبرطور ونصر أصحابه وطرد الآخرين، وشرّد المعارضين وبخاصة المُوحّدين.

وقرر مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ بأن الإبن وروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت، وأن الإبن قد وُلِدَ منذ الأزل من الأب وأن الروح القدس منبثق من الأب، وقرر مجمع طليطلة سنة ٥٨٩ بأن روح القدس منبثق من الإبن أيضاً.

فاختلفت الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظَلَّتا مختلفتين.. فجاء القرآن الكريم يقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعاً. وقال عن المسيح: إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وإنه بشر.. **﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾** [الزخرف: ٥٩] وكان هذا فصل الخطاب فيما كانوا فيه يختلفون.

ولما كانت العقائد المنحرفة قد قررتها مجامع شهدتها جموع الأساقفة فإن القرآن يُنذر الكافرين الذين ينحرفون عن الإيمان بوحدانية الله، يُنذرهم بمشهد يوم عظيم تشهده جموع أكبر، وترى ما يحل بالكافرين المنحرفين: **﴿فاختلف الأحزاب من بينهم. فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم. أَسْمِع بهم وأَبْصِر يوم يأتوننا، لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين. وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾** [مريم: ٣٧ - ٣٩]..

ويل لهم من ذلك المشهد في يوم عظيم. بهذا التنكير للتفخيم والتهويل. المشهد الذي يشهده الثقلان: الإنس والجن، وتشهده الملائكة، في حضرة الجبار الذي أشرك به الكفار.

ثم يأخذ السياق في التهكم بهم وبإعراضهم عن دلائل الهدى في الدنيا. وهم في ذلك المشهد أسمع الناس وأبصر الناس:

﴿أَسْمِع بهم وأَبْصِر يوم يأتوننا، لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾..

فما أعجب حالهم!.. لا يسمعون ولا يُبصرون حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة. وهم أسمع شيء وأبصر شيء يوم يكون السمع والبصر وسيلة للخزي ولإسماعهم ما يكرهون وتبصيرهم ما يتقون في مشهد يوم عظيم!

﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾.. يوم تشتد الحسرات حتى لكأن اليوم مُمَحّض للحسرة لا شيء فيه سواها، فهي الغالبة على جَوّه، البارزة فيه.

أنذرهم هذا اليوم الذي لا تنفع فيه الحسرات: ﴿إذ قُضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ وكأنما ذلك اليوم موصول بعدم إيمانهم، موصول بالغفلة التي هم فيها سادرون.

أنذرهم ذلك اليوم الذي لا شك فيه؛ فكل ما على الأرض ومَن على الأرض عائد إلى الله، عودة الميراث كله إلى الوارث الوحيد!:

﴿إنا نحن نرث الأرض ومَن عليها وإلينا يُرجعون﴾ [مريم: ٤٠]..

كلمة الفصل وتقرير وحدانية الله:

انتهت قصة ميلاد عيسى ـ عليه السلام ـ بكشف ما في أسطورة الوَلَد من نكارة وكذب وضلال؛ وهي التي يستند إليها بعض أهل الكتاب في عقائدهم الفاسدة، كذلك فقد أنصف القرآن عيسى بن مريم وأُمّه الطاهرة من افتراءات اليهود، وأنصف العقيدة الصحيحة في حكاية بُنوّة المسيح، وأنصف الحق نفسه من يهود، وأفاعيل يهود، وعنت يهود!

ويتجه القرآن إلى إنصاف الحق والعقيدة، وإنصاف عيسى بن مريم كذلك من غُلُوّ النصارى في شأن المسيح ـ عليه السلام ـ ومن الأساطير الوثنية التي تسربت إلى النصرانية السَّمحة من شتى الأقوام، وشتى الملل، التي

احتكت بها النصرانية؛ سواء في ذلك أساطير الإغريق والرومان، وأساطير قدماء المصريين، وأساطير الهنود!

ولقد تولى القرآن الكريم تصحيح عقائد أهل الكتاب التي جاء فوجدها مليئة بالتحريفات مشحونة بالأساطير؛ كما تولى تصحيح عقائد المشركين، المتخلفة من بقايا الحنيفية دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ في الجزيرة العربية ومن ركام فوقها من أساطير البشر وترّهات الجاهلية!

لا بل جاء الإسلام ليتولى تصحيح العقيدة في الله للبشر أجمعين؛ ويُنقذها من كل انحراف وكل اختلال، وكل غلو، وكل تفريط، في تفكير البشر أجمعين. . فصحح ـ فيما صحح ـ اختلالات تصور التوحيد في آراء أرسطو في أثينا قبل الميلاد، وأفلوطين في الإسكندرية بعد الميلاد؛ وما بينهما وما تلاهما من شتى التصورات في شتى الفلسفات التي كانت تخبط في التيه، معتمدة على ذبالة العقل البشري، الذي لا بد أن تُعينه الرسالة، ليهتدي في هذا التيه[1]!

ويعرض القرآن قضية «التثليث» وما تتضمنه من أسطورة «بنوة المسيح» لتقرير وحدانية الله سبحانه على الوجه المستقيم الصحيح.

ولقد جاء الإسلام والعقيدة التي يعتنقها النصارى ـ على اختلاف المذاهب ـ هي عقيدة أن الإله واحد في أقانيم ثلاثة: الأب، والإبن، والروح القدس. والمسيح هو «الإبن». . ثم تختلف المذاهب بعد ذلك في المسيح. هل هو ذو طبيعة لاهوتية وطبيعة ناسوتية؟ أم هل هو ذو طبيعة واحدة لاهوتية فقط. وهل هو ذو مشيئة واحدة مع اختلاف الطبيعتين؟ وهل هو قديم كالأب أو مخلوق. . إلى آخر ما تفرقت به المذاهب، وقامت عليه الاضطهادات بين الفرق المختلفة. .

والثابت من التتبع التاريخي لأطوار العقيدة النصرانية، أن عقيدة

---

(١) يراجع فصل: «تيه وركام» وفصل «الربانية» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».

التثليث، وكذلك عقيدة بنوة المسيح للّه ـ سبحانه ـ (ومثلها عقيدة ألوهية أمه مريم، ودخولها في التثليثات المتعددة الأشكال) كلها لم تصاحب النصرانية الأولى. إنما دخلت إليها على فترات متفاوتة التاريخ، مع الوثنيين الذين دخلوا في النصرانية، وهم لم يبرأوا بعد من التصورات الوثنية والآلهة المتعددة.. والتثليث بالذات يغلب أن يكون مقتبساً من الديانات المصرية القديمة، من تثليث «أوزوريس، وإيزيس، وحوريس» والتثليثات المتعددة في هذه الديانة..

وقد ظل النصارى الموحدون يقاومون الاضطهادات التي أنزلها بهم الأباطرة الرومان، والمجامع المقدسة الموالية للدولة (الملوكانيون) إلى ما بعد القرن السادس الميلادي على الرغم من كل ما لاقوه من اضطهاد وتغرب وتشرد بعيداً عن أيدي السلطات الرومانية!

وما تزال فكرة «التثليث» تصدم عقول المثقفين من النصارى، فيحاول رجال الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشتى الطرق، ومن بينها الإحالة إلى مجهولات لا ينكشف سرها للبشر إلا يوم ينكشف الحجاب عن كل ما في السموات وما في الأرض!

يقول القس بوطر صاحب رسالة: «الأصول والفروع» أحد شرّاح العقيدة النصرانية، في هذه القضية:

«قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا. ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء في المستقبل، حين ينكشف الحجاب عن كل ما في السموات والأرض»(١)، ولا نريد هنا أن ندخل في سرد تاريخي للأطوار وللطريقة التي تَسلّلت بها هذه الفكرة إلى النصرانية. وهي إحدى ديانات التوحيد الأساسية. فنكتفي باستعراض الآيات القرآنية التالية، لتصحيح هذه الفكرة الدخيلة على ديانة التوحيد!

---

(١) نقلاً عن كتاب «محاضرات في النصرانية» للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة.

﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق. إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه. فآمنوا بالله ورسله. . ﴾ [النساء: ١٧١]. .

فهو الغلو إذن وتجاوز الحد والحق، هو ما يدعو أهل الكتاب هؤلاء إلى أن يقولوا على الله غير الحق؛ فيزعموا له ولداً ـ سبحانه ـ كما يزعمون أن الله الواحد ثلاثة. .

وقد تطورت عندهم فكرة البنوة، وفكرة التثليث، حسب رقي التفكير وانحطاطه. ولكنهم قد اضطروا أمام الاشمئزاز الفطري من نسبة الولد للّه، والذي تزيده الثقافة العقلية، أن يفسروا البنوة بأنها ليست عن ولادة كولادة البشر. ولكن عن «المحبة» بين الأب والإبن. وأن يفسروا الإله الواحد في ثلاثة. . بأنها «صفات» الله سبحانه في «حالات» مختلفة. . وإن كانوا ما يزالون غير قادرين على إدخال هذه التصورات المتناقضة إلى الإدراك البشري. فهم يحيلونها إلى مَعميات غَيبية لا تنكشف إلا بانكشاف حجاب السموات والأرض.

ويمضي القرآن في بيانه لأهل الكتاب: ﴿فآمنوا بالله ورُسله. ولا تقولوا: ثلاثة. انتهوا خيراً لكم. إنما الله إله واحد. سبحانه أن يكون له ولد. له ما في السموات وما في الأرض. وكفى بالله وكيلاً﴾ [النساء: ١٧١]. .

وهذه الدعوة للإيمان بالله ورسله ـ ومن بينهم عيسى بوصفه رسولاً، ومحمد بوصفه خاتم النبيين ـ والانتهاء عن تلك الدعاوى والأساطير، تجيء في وقتها المناسب بعد هذا البيان الكاشف والتقرير المريح. .

﴿إنما الله إله واحد﴾. . تشهد بهذا وحدة الناموس. . ووحدة الخَلق. ووحدة الطريقة: كن. . فيكون. . ويشهد بذلك العقل البشري ذاته. فالقضية في حدود إدراكه. فالعقل لا يتصور خالقاً يشبه مخلوقاته، ولا ثلاثة في واحد. ولا واحداً في ثلاثة: ﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾. .

والولادة امتداد للفاني ومحاولة للبقاء في صورة النسل.. والله الباقي غني عن الامتداد في صورة الفانين؛ وكل ما في السموات وما في الأرض مُلك له سبحانه على استواء: ﴿**له ما في السموات وما في الأرض**﴾..

ويكفي البشر أن يرتبطوا كلهم بالله ارتباط العبودية للمعبود؛ وهو يرعاهم أجمعين، ولا حاجة لافتراض قرابة بينهم وبينه عن طريق ابن له منهم! فالصلة قائمة بالرعاية والكلاءة:

﴿**وكفى بالله وكيلاً**﴾..

وهكذا لا يكتفي القرآن ببيان الحقيقة وتقريرها في شأن العقيدة. إنما يضيف إليها إراحة شعور الناس من ناحية رعاية الله لهم؛ وقيامه ـ سبحانه ـ عليهم وعلى حوائجهم ومصالحهم؛ ليكلوا إليه أمرهم كله في طمأنينة..

ويمضي القرآن في البيان؛ لتقرير أكبر قضايا التصور الاعتقادي الصحيح، وهي الحقيقة الاعتقادية التي تنشأ في النفس من تقرير حقيقة الوحدانية.. حقيقة أن ألوهية الخالق تتبعها عبودية الخلائق.. وأن هناك فقط: ألوهية وعبودية.. ألوهية واحدة، وعبودية تشمل كل شيء، وكل أحد، في هذا الوجود.

ويصحح القرآن عقيدة النصارى كما يصحح كل عقيدة تجعل للملائكة بنوة كبنوة عيسى، أو شركاً في الألوهية كشركته في الألوهية:

﴿**لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ـ ولا الملائكة المقربون ـ ومَن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله؛ وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً**﴾ [النساء: ١٧٢ ـ ١٧٣]..

لقد عني الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية الله سبحانه؛ وحدانية لا تتلبس بشبهة شرك أو مشابهة في صورة من الصور؛ وعني بتقرير أن

الله ـ سبحانه ـ ليس كمثله شيء. فلا يشترك معه شيء في ماهية ولا صفة ولا خاصية. كما عني بتقرير حقيقة الصلة بين الله ـ سبحانه ـ وكل شيء (بما في ذلك كل حي) وهي أنها صلة ألوهية وعبودية. ألوهية الله، وعبودية كل شيء للّه.. والمتتبع للقرآن كله يجد العناية فيه بالغة بتقرير هذه الحقائق ـ أو هذه الحقيقة الواحدة بجوانبها هذه ـ بحيث لا تدع في النفس ظلاً من شك أو شبهة أو غموض.

ولقد عني الإسلام كذلك بأن يُقرر أن هذه الحقيقة التي جاء بها الرسل أجمعون. فقررها في سيرة كل رسول، وفي دعوة كل رسول، وجعلها محور الرسالة من عهد نوح ـ عليه السلام ـ إلى عهد محمد خاتم النبيين ـ عليه الصلاة والسلام ـ تتكرر الدعوة بها على لسان كل رسول:

﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾..

وكان من العجيب أن أتباع الديانات السماوية ـ وهي حاسمة وصارمة في تقرير هذه الحقيقة ـ يكون منهم من يُحرّف هذه الحقيقة؛ ويَنْسب لِلّه ـ سبحانه ـ البنين والبنات؛ أو ينسب للّه ـ سبحانه ـ الامتزاج مع أحد من خلقه في صورة الأقانيم؛ اقتباساً من الوثنيات التي عاشت في الجاهليات!

أُلوهية وعُبودية.. ولا شيء غير هذه الحقيقة. ولا قاعدة إلا هذه القاعدة. ولا صلة إلا صلة الألوهية بالعبودية، وصلة العبودية بالألوهية..

ولا تستقيم تصورات الناس ـ كما لا تستقيم حياتهم ـ إلا بتمحيض هذه الحقيقة من كل غَبش، ومن كل شُبهة، ومن كل ظل!

أجل لا تستقيم تصورات الناس، ولا تستقر مشاعرهم، إلا حين يستيقنون حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم.. هو إله وهُم عبيده.. هو خالق لهم وهم مخاليق.. هو مالك لهم وهم مماليك.. وهم كلهم سواء في هذه الصلة، لا بنوة لأحد. ولا امتزاج بأحد.. ومن ثم لا قربى لأحد إلا بشيء يملكه كل أحد ويوجه إرادته إليه فيبلغه: التقوى والعمل الصالح.. وهذا في مستطاع

كل أحد أن يحاوله. فأما البنوة، وأما الامتزاج فأنّى بهما لكل أحد؟!

ولا تستقيم حياتهم وارتباطاتهم ووظائفهم في الحياة، إلا حين تستقر في أخلادهم تلك الحقيقة: أنهم كلهم عبيد لرب واحد.. ومن ثم فموقفهم كلهم تجاه صاحب السلطان واحد.. فأما القربى إليه ففي متناول الجميع.. عندئذ تكون المساواة بين بني الإنسان، لأنهم متساوون في موقفهم من صاحب السلطان.. وعندئذ تسقط كل دعوى زائفة في الوساطة بين الله والناس، وتسقط معها جميع الحقوق المدعاة لفرد أو لمجموعة أو لسلسلة من النسب لطائفة من الناس.. وبغير هذا لا تكون هناك مساواة أصيلة الجذور في حياة بني الإنسان ومجتمعهم ونظامهم ووضعهم في هذا النظام!

فالمسألة ـ على هذا ـ ليست مسألة عقيدة وجدانية يستقر فيها القلب على هذا الأساس الركين، فحسب، إنما هي كذلك مسألة نظام حياة، وارتباطات مجتمع، وعلاقات أمم وأجيال من بني الإنسان.

إنه ميلاد جديد للإنسان على يد الإسلام.. ميلاد للإنسان المتحرر من العبودية للعباد، بالعبودية لرب العباد.. ومن ثم لم تقم في تاريخ الإسلام «كنيسة» تستذل رقاب الناس، بوصفها الممثلة لابن الله، أو للأقنوم للأقانيم الإلهية؛ المستمدة لسلطانها من سلطان الإبن أو سلطان الأقنوم. ولم تقم كذلك في تاريخ الإسلام سلطة مقدسة تحكم «بالحق الإلهي» زاعمة أن حقها في الحكم والتشريع مستمد من قرابتها أو تفويضها من الله!

وقد ظلّ «الحق المقدس» للكنيسة والبابوات في جانب، وللأباطرة الذين زعموا لأنفسهم حقاً مقدساً كحق الكنيسة في جانب.. ظل هذا الحق أو ذاك قائماً في أوربا باسم (الإبن) أو مركب الأقانيم. حتى جاء «الصليبيون» إلى أرض الإسلام مُغِيرين. فلما ارتدوا أخذوا معهم من أرض الإسلام بذرة الثورة على «الحق المقدس» وكانت فيما بعد ثورات «مارتن لوثر» و «كالفن» و «زنجلي» المسماة بحركة الإصلاح.. على أساس من تأثير الإسلام، ووضوح التصور الإسلامي، ونفي القداسة عن بني الإنسان؛ ونفي التفويض في السلطان..

لأنه ليست هناك إلا ألوهية وعبودية في عقيدة الإسلام[1]. .

وهنا يقول القرآن كلمة الفصل في ألوهية المسيح وبنوته؛ وألوهية روح القدس (أحد الأقانيم) وفي كل أسطورة عن بنوة أحد للّه، أو ألوهية أحد مع الله. في أي شكل من الأشكال. . يقول القرآن كلمة الفصل بتقريره أن عيسى بن مريم عبد الله؛ وأنه لن يستنكف أن يكون عبداً للّه. وأن الملائكة المقربين عبيد للّه؛ وأنهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً للّه. وأن جميع خلائقه سَتُحشر إليه. وأن الذين يستنكفون عن صفة العبودية ينتظرهم العذاب الأليم. وأن الذين يقرون بهذه العبودية لهم الثواب العظيم.

إن المسيح عيسى بن مريم لن يتعالى أن يكون عبداً للّه. لأنه - عليه السلام - وهو نبي الله ورسوله - خير مَن يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية؛ وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان. وهو خير مَن يعرف أنه من خَلْق الله؛ فلا يكون خَلْق الله كالله؛ أو بعضاً من الله!

وهو خير مَن يعرف أن العبودية للّه - فضلاً على أنها الحقيقة المؤكدة الوحيدة - لا تنقص من قدره. فالعبودية للّه مرتبة لا يأباها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء. وهي المرتبة التي يصف الله بها رسله، وهم في أرقى حالاتهم وأكرمها عنده. . وكذلك الملائكة المقربون - وفيهم روح القدس جبريل - شأنهم شأن عيسى - عليه السلام - وسائر الأنبياء - فما بال جماعة من أتباع المسيح يأبون له ما يرضاه لنفسه ويعرفه حق المعرفة؟!

﴿ومَن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ [النساء: ١٧٢].

فاستنكافهم واستكبارهم لا يمنعهم من حشر الله لهم بسلطانه. . سلطان الألوهية على العباد. . شأنهم في هذا شأن المقرين بالعبودية المستسلمين للّه. .

---

(١) يراجع فصل «التوحيد» في كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».

فأما الذين عرفوا الحق، فأقروا بعبوديتهم للّه، وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لهذه المعرفة وهذا الإقرار؛ فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله.

﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ [النساء: ١٧٣].

وما يريد الله ـ سبحانه ـ من عباده أن يُقِروا له بالعبودية، وأن يعبدوه وحده، لأنه بحاجة إلى عبوديتهم وعبادتهم، ولا لأنها تزيد في ملكه تعالى أو تنقص من شيء. ولكنه يريد لهم أن يعرفوا حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، لتصح تصوراتهم ومشاعرهم، كما تصح حياتهم وأوضاعهم. فما يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر، ولا أن تستقر الحياة والأوضاع، على أساس سليم قويم، إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار، وما يتبع الإقرار من آثار..

يريد الله ـ سبحانه ـ أن تستقر هذه الحقيقة بجوانبها التي بَيَّناها في نفوس الناس وفي حياتهم. ليخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. ليعرفوا مَنْ صاحب السلطان في هذا الكون وفي هذه الأرض؛ فلا يخضعوا إلا له، وإلا لمنهجه وشريعته للحياة، وإلا لَمن يحكم حياتهم بمنهجه وشرعه دون سواه.

يريد أن يعرفوا أن العبيد كلهم عبيد؛ ليرفعوا جباههم أمام كل مَن عداه؛ حين تعنو له وحده الوجوه والجباه. يريد أن يستشعروا العزة أمام المتجبرين والطغاة، حين يخرون له راكعين ساجدين يذكرون الله ولا يذكرون أحداً إلا الله.

يريد أن يعرفوا أن القربى إليه لا تجيء عن صهر ولا نسب. ولكن تجيء عن تقوى وعمل صالح؛ فيعمرون الأرض ويعملون الصالحات قربى إلى الله.

يريد أن تكون لهم معرفة بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، فتكون لهم غيرة على سلطان الله في الأرض أن يَدَّعيه المُدَّعون باسم الله أو باسم غير الله فيردّون الأمر كله للّه.. ومن ثم تصلح حياتهم وترقى وتُكَرَّم على هذا الأساس..

إن تقدير هذه الحقيقة الكبيرة؛ وتعليق أنظار البشر للّه وحده؛ وتعليق قلوبهم برضاه؛ وأعمالهم بتقواه؛ ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه.. إن هذا كله رصيد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة يضاف إلى حساب البشرية في حياتها الأرضية؛ وزاد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة تستمتع به في الأرض.. في هذه الحياة.. فأما ما يجزي الله به المؤمنين المُقِرين بالعبودية العاملين للصالحات، في الآخرة، فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر. وفيض من عطاء الله.

وفي هذا الضوء يجب أن ننظر إلى قضية الإيمان بالله في الصورة الناصعة التي جاء بها الإسلام؛ وقرر أنها قاعدة الرسل كلها ودعوة الرسل جميعاً؛ قبل أن يُحرّفها الأتباع، وتُشوهها الأجيال.. يجب أن ننظر إليها بوصفها ميلاداً جديداً للإنسان؛ تتوافر له معه الكرامة والحرية، والعدل والصلاح، والخروج من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده في الشعائر وفي نظام الحياة سواء.

والذين يستنكفون من العبودية للّه، يذلون لعبوديات في هذه الأرض لا تنتهي.. يذلون لعبودية الهوى والشهوة. أو عبودية الوَهْم والخرافة. ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم، ويحنون لهم الجباه. ويحكمون في حياتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيداً مثلهم من البشر هم وهم سواء أمام الله.. ولكنهم يتخذون آلهة لهم من دون الله.. هذا في الدنيا.. أما في الآخرة ﴿فيعذبهم عذاباً أليماً، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾..

إنها القضية الكبرى في العقيدة السماوية يعرضها القرآن الكريم في مواجهة انحراف أهل الكتاب من النصارى في ذلك الزمان. وفي مواجهة الانحرافات كلها إلى آخر الزمان..

ميثاق النصارى:

كذلك يقص الله ـ سبحانه ـ على نبيه ـ ﷺ ـ وعلى الجماعة المسلمة، أنه أخذ ميثاق الذين قالوا: إنا نصارى، من أهل الكتاب. ولكنهم نقضوا ميثاقهم كذلك. فنالهم جزاء هذا النقض للميثاق:

﴿ومن الذين قالوا: إنا نصارى أخذنا ميثاقهم؛ فنسوا حظاً مما ذُكروا به؛ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ [المائدة: ١٣]. .

ونجد هنا تعبيراً خاصاً ذا دلالة خاصة: **﴿ومن الذين قالوا: إنا نصارى﴾**. .

ودلالة هذا التعبير: أنهم قالوها دَعوى، ولم يُحققوها واقعاً. . ولقد كان أساس هذا الميثاق هو توحيد الله. وهنا كانت نقطة الانحراف الأصيلة في خط النصرانية التاريخي. وهذا هو الحظ الذي نسوه مما ذُكِّروا به، ونسيانه هو الذي قاد بعد ذلك إلى كل انحراف. كما أن نسيانه هو الذي نشأ من عنده الخلاف بين الطوائف والمذاهب والفرق، التي لا تكاد تُعَدّ. في القديم وفي الحديث.

وبينها ما بينها من العداوة والبغضاء ما يخبرنا الله ـ سبحانه ـ أنه باق فيهم إلى يوم القيامة. . جزاءً وفاقاً على نقض ميثاقهم معه، ونسيانهم حظاً مما ذُكروا به. . ويبقى جزاء الآخرة عندما ينبئهم الله بما كانوا يصنعون؛ وعندما يجزيهم وفق ما ينبئهم به مما كانوا يصنعون!

ولقد وقع بين الذين قالوا: إنا نصارى من الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء في التاريخ القديم والحديث مصداق ما قصّه الله ـ سبحانه ـ في كتابه الصادق الكريم؛ وسال من دمائهم على أيدي بعضهم البعض ما لم يسل من حروبهم مع غيرهم في التاريخ كله. سواء كان ذلك بسبب الخلافات الدينية حول العقيدة؛ أو بسبب الخلافات على الرياسة الدينية؛ أو بسبب الخلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وفي خلال القرون الطويلة لم تسكن هذه العداوات والخلافات ولم تخمد هذه الحروب والجراحات. . وهي ماضية إلى يوم القيامة كما قال أصدق القائلين، جزاء على نقضهم ميثاقهم، ونسيانهم حظاً مما ذُكروا به من عهد الله، وأول نَبْذ فيه هو نَبْذ التوحيد، الذي انحرفوا عنه بعد فترة من وفاة المسيح

ـ عليه السلام ـ لأسباب لا مجال هنا لعرضها بالتفصيل[1].

﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم. قل: فمَن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يُهلك المسيح ابن مريم وأمه ومَن في الأرض جميعاً؟ وللّه ملك السموات والأرض وما بينهما، يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير﴾ [المائدة: ١٧].

إن الذي جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ من عند ربه هو التوحيد الذي جاء به كل رسول.

والإقرار بالعبودية الخالصة للّه شأن كل رسول.. ولكن هذه العقيدة الناصعة أُدخلت عليها التحريفات؛ بسبب دخول الوثنيين في النصرانية؛ وحرصهم على رواسب الوثنية التي جاءوا بها ومزجها بعقيدة التوحيد، حتى لم يعد هناك إمكان لفصلها وفرزها وتنقية جوهر العقيدة منها.

ولم تجيء هذه الانحرافات كلها دفعة واحدة؛ ولكنها دخلت على فترات؛ وأضافتها المجامع واحدة بعد الأخرى؛ حتى انتهت إلى هذا الخليط العجيب من التصورات والأساطير، الذي تحار فيه العقول. حتى عقول الشارحين للعقيدة المُحَرّفة من أهلها المؤمنين بها!

وقد عاشت عقيدة التوحيد بعد المسيح ـ عليه السلام ـ في تلامذته وفي أتباعهم. وأحد الأناجيل الكثيرة التي كُتبت ـ وهو إنجيل برنابا ـ يتحدث عن عيسى ـ عليه السلام ـ بوصفه رسولاً من عند الله. ثم وقعت بينهم الاختلافات. فمن قائل: إن المسيح رسول من عند الله كسائر الرسل. ومن قائل: إنه رسول نعم ولكن له بالله صلة خاصة. ومن قائل: إنه ابن الله لأنه خُلق من غير أب، ولكنه على هذا مخلوق للّه. ومن قائل: إنه ابن الله وليس مخلوقاً بل له صفة القِدَم كالأب..

ولتصفية هذه الخلافات اجتمع في عام ٣٢٥ ميلادية «مجمع نيقية» الذي

(١) يراجع كتاب «محاضرات في النصرانية» للشيخ محمد أبو زهرة.

اجتمع فيه ألوف من البطارقة والأساقفة. قال عنهم ابن البطريق أحد مؤرخي النصرانية:

«وكانوا مختلفين في الآراء والأديان. فمنهم مَن كان يقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله وهم «البربرانية».. ويسمون: «الريمتيين». ومنهم مَن كان يقول: إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها. وهي مقالة «سابليوس» وشيعته. ومنهم مَن كان يقول: لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما مرّ في بطنها كما يمر الماء في الميزاب، لأن الكلمة دخلت في أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها. وهي مقالة «إليان» وأشياعه. ومنهم مَن كان يقول: إن المسيح إنسان خُلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وإن ابتداء الإبن من مريم، وإنه اصطفي ليكون مُخَلّصاً للجوهر الإنسي، صحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمي «ابن الله» ويقولون: إن الله جوهر قديم واحد، وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة، ولا بروح القدس. وهي مقالة «بولس الشمشاطي» بطريرك أنطاكية وأشياعه وهم «البوليقانيون». ومنهم مَن كان يقول: إنهم ثلاثة آلهة لم تزل: صالح، وطالح، وعدل بينهما. وهي مقالة «مرقيون» اللعين وأصحابه! وزعموا أن «مرقيون» هو رئيس الحواريين وأنكروا «بطرس». ومنهم مَن كان يقول بألوهية المسيح. وهي مقالة «بولس الرسول» ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً(١)..

وقد اختار الإمبرطور الروماني «قسطنطين» الذي كان قد دخل في النصرانية من الوثنية ولم يكن يدري شيئاً من النصرانية! هذا الرأي الأخير وسلط أصحابه على مخالفيهم، وشرد أصحاب سائر المذاهب؛ وبخاصة القائلين بألوهية الأب وحده، وناسوتية المسيح. وقد ذكر صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية عن هذا القرار ما نصه:

---

(١) نقلاً عن كتاب محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة.. وسائر ما نلخصه عن هذه المجامع فهو عن هذا المصدر والمصادر التي رجع إليها.

http://al-maktabeh.com

«إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تُحرم كل قائل بـوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه. وأنه لم يوجد قبل أن يولد. وأنه وُجد من لا شيء. أو مَن يقول: إن الإبن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الآب. وكل مَن يؤمن أنه خلق، أو مَن يقول: إنه قابل للتغيير، ويعتريه ظل دوران».

ولكن هذا المجمع بقراراته لم يقضِ على نحلة الموحدين أتباع «آريوس» وقد غلبت على القسطنطينية، وأنطاكية، وبابل، والإسكندرية، ومصر.

ثم ثار خلاف جديد حول «روح القدس» فقال بعضهم: هو إله، وقال آخرون: ليس بإله! فاجتمع «مجمع القسطنطينيـة الأول» سنة ٣٨١ ليحسم الخلاف في هذا الأمر.

وقد نقل ابن البطريق ما تقرر في هذا المجمع، بناء على مقالة أسقف الإسكندرية:

«قال ثيموثاوس بطريك الإسكندرية: ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله. وليس روح الله شيئاً غير حياتـه. فإذا قلنـا إن روح القدس مخلوق، فقد قلنا: إن روح الله مخلوق. وإذا قلنا: إن روح الله مخلوق، فقد قلنا: إن حياته مخلوقة. وإذا قلنا: إن حياته مخلوقة، فقد زعمنا أنه غير حي. وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به. ومَن كفر به وجب عليه اللعن»!!!

وكذلك تقررت ألوهية روح القدس في هذا المجمع، كما تقررت ألوهية المسيح في مجمع نيقية. وتم «الثالوث» من الآب. والإبن. وروح القدس..

ثم ثـار خلاف آخـر حـول اجتـماع طبيعـة المسيـح الإلهيـة وطبيعتـه الإنسانية.. أو اللاهوت والناسوت كما يقولون.. فقد رأى «نسطور» بطريرك القسطنطينية أن هناك أقنوماً وطبيعة. فأقنوم الألوهية من الآب وتنسب إليه؛ وطبيعة الإنسان وقد وُلِدَت من مريم، فمريم أم الإنسان ـ في المسيح ـ وليست أم الإله!

ويقول في المسيح الذي ظهر بين الناس وخاطبهم ـ كما نقله عنه ابن البطريق:

«إن هذا الإنسان الذي يقول: إنه المسيح.. بالمحبة متحد مع الإبن.. ويقال: إنه الله وابن الله، ليس بالحقيقة ولكن بالموهبة»..

ثم يقول: «إن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلهاً في حد ذاته بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة، أو هو مُلهم من الله، فلم يرتكب خطيئة، وما أتى أمراً إدًّا».

وخالفه في هذاالرأي أسقف رومه، وبطريرك الإسكندرية، وأساقفة أنطاكية، فاتفقوا على عقد مجمع رابع. وانعقد «مجلس أفسس» سنة ٤٣١ ميلادية. وقرر هذا المجمع ـ كما يقول ابن البطريق ـ:

«أن مريم العذراء والدة الله. وأن المسيح إله حق وإنسان، معروف بطبيعتين، متوحد في الأقنوم».. ولعنوا نسطور!

ثم خرجت كنيسة الإسكندرية برأي جديد، انعقد له «مجلس أفسس الثاني» وقرر:

«أن المسيح طبيعة واحدة، اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت».

ولكن هذا الرأي لم يسلم؛ واستمرت الخلافات الحادة؛ فاجتمع «مجمع خلقيدونية» سنة ٤٥١ وقرر:

«أن المسيح له طبيعتان لا طبيعة واحدة. وأن اللاهوت طبيعة وحدها، والناسوت طبيعة وحدها، التقتا في المسيح».. ولعنوا مجلس أفسس الثاني!

ولم يعترف المصريون بقرار هذا المجمع. ووقعت بين المذهب المصري «المنوفيمية» والمذهب «الملوكاني» الذي تبنته الدولة الأمبرطورية ما وقع من الخلافات الدموية.

وقد جاء في كتاب «الدعوة إلى الإسلام» تأليف أرنولد:

«ولقد أفلح جستنيان قبل الفتح الإسلامي بمئة عام في أن يكسب الأمبرطورية الرومانية مظهراً من مظاهر الوحدة. ولكن سرعان ما تصدعت

بعد موته، وأصبحت في حاجة ماسة إلى شعور قومي مشترك، يربط بين الولايات وحاضرة الدولة.

أما هرقل فقد بذل جهوداً لم تصادف نجاحاً كاملاً في إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية. ولكن ما اتخذه من وسائل عامة في سبيل التوفيق قد أدى لسوء الحظ إلى زيادة الانقسام بدلاً من القضاء عليه. ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية. فحاول بتفسيره العقيدة تفسيراً يستعين به على تهدئة النفوس أن يقف ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات؛ وأن يوحد بين الخارجين على الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية، وبينهم وبين الحكومة المركزية.. وكان مجمع خلقيدونية قد أعلن في سنة ٤٥١ ميلادية أن المسيح ينبغي أن يعترف بأنه يتمثل في طبيعتين لا اختلاط بينهما، ولا تغير، ولا تجزؤ، ولا انفصال. ولا يمكن أن ينتفي خلافهما بسبب اتحادهما. بل الأحرى أن تحتفظ كل طبيعة منهما بخصائصها؛ وتجتمع في أقنوم واحد، وجسد واحد. لا كما لو كانت متجزئة أو منفصلة في أقنومين. بل متجمعة في أقنوم واحد هو ذلك الإبن والله والكلمة..

وقد رفض اليعاقبة هذا المجمع، وكانوا لا يعترفون في المسيح إلا بطبيعة واحدة. وقالوا: إنه مركب الأقانيم. له كل الصفات الإلهية والبشرية. ولكن المادة التي تحمل هذه الصفات لم تعد ثنائية. بل أصبحت وحدة مركبة الأقانيم..

وكان الجدل قد احتدم قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة الذين ازدهروا بوجه خاص في مصر والشام والبلاد الخارجة عن نطاق الأمبرطورية البيزنطية، في الوقت الذي سعى فيه هرقل في إصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة. ففي الوقت الذي نجد فيه هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين، إذا به يتمسك بوحدة الأقنوم في حياة المسيح البشرية. وذلك بإنكاره وجود نوعين من الحياة في أقنوم واحد. فالمسيح الواحد، الذي هو ابن الله، يحقق الجانب الإنساني والجانب

الإلهي بقوة إلّهية إنسانية واحدة. ومعنى هذا أنه لا يوجد سوى إرادة واحدة في الكلمة المتجسدة. . لكن هرقل قد لقي المصير الذي انتهى إليه كثيرون جداً ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام. ذلك بأن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف ما يكون فحسب، بل إن هرقل نفسه قد وُصِم بالإلحاد، وجَرَّ على نفسه سخط الطائفتين على السواء»(١).

كذلك يقول باحث مسيحي آخر هو «كانون تايلور» عن الحالة بين نصارى الشرق عند البعثة المحمدية:

«وكان الناس في الواقع مُشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة»(٢).

ونكتفي بهذا القدر في تصوير مجمل التصورات المنحرفة حول ألوهية المسيح؛ والخلافات الدامية والعداوة والبغضاء التي ثارت بسببها بين الطوائف، وما تزال إلى اليوم ثائرة. .

وتجيء الرسالة الأخيرة لتقرر وَجْه الحق في هذه القضية؛ ولتقول كلمة الفصل؛ ويجيء الرسول الأخير ليبين لأهل الكتاب حقيقة العقيدة الصحيحة:

﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢]. . **﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة﴾** [المائدة: ٧٣]. .

ويثير فيهم منطق العقل والفطرة والواقع:

﴿قل: فمَن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يُهلِكَ المسيح بن مريم، وأُمه، ومَن في الأرض جميعاً؟﴾ [المائدة: ١٧]. .

فيفرق تفرقة مطلقة بين ذات الله سبحانه وطبيعته ومشيئته وسلطانه، وبين ذات عيسى ـ عليه السلام ـ وذات أمه، وكل ذات أخرى، في نصاعة

---

(١) ترجمة حسن إبراهيم وزميله ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٦٧.

http://al-maktabeh.com

قاطعة حاسمة. فذات الله ـ سبحانه ـ واحدة. ومشيئته طليقة، وسلطانه متفرد، ولا يملك أحد شيئاً في رد مشيئته أو دفع سلطانه إن أراد أن يُهلك المسيح ابن مريم وأمه ومَن في الأرض جميعاً. .

وهو ـ سبحانه ـ مالك كل شيء، وخالق كل شيء، والخالق غير المخلوق. وكل شيء مخلوق:

﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما، يخلق ما يشاء، والله على كل شيء قدير﴾ [المائدة: ١٧]. .

وكذلك تتجلى نصاعة العقيدة الإسلامية، ووضوحها وبساطتها. . وتزيد جلاء أمام ذلك الركام من الانحرافات والتصورات والأساطير والوثنيات المتلبسة بعقائد فريق من أهل الكتاب وتبرز الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية. في تقرير حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، والفصل التام الحاسم بين الحقيقتين. بلا غبش ولا شبهة ولا غموض. .

واليهود والنصارى يقولون: إنهم أبناء الله وأحباؤه: **﴿وقالت اليهود والنصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه﴾**. .

فزعموا لله ـ سبحانه ـ أبوة، على تصور من التصورات، إلا أن تكون أبوة الجسد فهي أبوة الروح. وهي أياً كانت تلقي ظلاً على عقيدة التوحيد؛ وعلى الفصل الحاسم بين الألوهية والعبودية.

هذا الفصل الذي لا يستقيم التصور، ولا تستقيم الحياة، إلا بتقريره. كي تتوحد الجهة التي يتوجه إليها العباد كلهم بالعبودية؛ وتتوحد الجهة التي تشرع للناس؛ وتضع لهم القيم والموازين والشرائع والقوانين، والنظم والأوضاع، دون أن تتداخل الاختصاصات، بتداخل الصفات والخصائص، وتداخل الألوهية والعبودية. . فالمسألة ليست مسألة انحراف عقيدي فحسب، إنما هي كذلك فساد الحياة كلها بناء على هذا الانحراف!

واليهود والنصارى بادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، كانوا يقولون ـ تبعاً

neo-al-maktabeh.com

لهذا ـ إن الله لن يُعذبهم بذنوبهم! وإنهم لن يدخلوا النار ـ إذا دخلوا ـ إلا أياماً معدودات. ومعنى هذا أن عدل الله لا يجري مجراه! وأنه ـ سبحانه ـ يحابي فريقاً من عباده، فيدعهم يفسدون في الأرض ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين الآخرين!

فأي فساد في الحياة يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التصور؟ وأي اضطراب في الحياة يمكن أن ينشئه مثل هذا الانحراف؟

وهنا يضرب الإسلام ضربته الحاسمة على هذا الفساد في التصور، وكل ما يمكن أن ينشئه من الفساد في الحياة، ويقرر عدل الله الذي لا يحابي، كما يقرر بطلان ذلك الادعاء:

﴿قل: فلِمَ يعذبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشر ممن خلق، يغفر لِمَن يشاء ويعذب مَن يشاء﴾ [المائدة: ١٨]..

بذلك يقرر الحقيقة الحاسمة في عقيدة الإيمان. يقرر بطلان ادعاء البنوة؛ فهم بشر ممن خلق. ويقرر عدل الله وقيام المغفرة والعذاب عنده على أصلها الواحد. على مشيئته التي تقرر الغفران بأسبابه وتقرر العذاب بأسبابه. لا بسبب بنوة أو صلة شخصية!

طبيعة المسيحية:

لقد بَشَّرت الملائكةُ مريمَ بالمسيح ـ عليه السلام ـ:

﴿إذ قالت الملائكة: يا مريمُ إن الله يُبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم. وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويُكلِّم الناس في المهد وكهلاً، ومن الصالحين. قالت: ربِّ أنَّى يكون لي ولد ولم يَمْسَسْني بشر؟ قال: كذلك الله يخلق ما يشاء. إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون..﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٧].

ثم يتابع الملك البشارة لمريم عن هذا الخَلْق الذي اختارها الله لإنجابه على غير مثال؛ وكيف ستمضي سيرته في بني إسرائيل.. وهنا تمتزج البشارة

لمريم بمقبل تاريخ المسيح، ويلتقيان في سياق واحد، كأنما يقعان اللحظة، على طريقة القرآن:

﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ [آل عمران: ٤٨]..

والكتاب قد يكون المراد به الكتابة؛ وقد يكون هو التوراة والإنجيل، ويكون عطفهما على الكتاب هو عطف بيان.

والحكمة حالة في النفس يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها، وإدراك الصواب واتباعه. وهي خير كثير.

والتوراة كانت كتاب عيسى كالإنجيل. فهي أساس الدين الذي جاء به.

والإنجيل تكملة وإحياء لروح التوراة، ولروح الدين التي طمست في قلوب بني إسرائيل. وهذا ما يخطىء الكثيرون من المتحدثين عن المسيحية فيه فيغفلون التوراة، وهي قاعدة دين المسيح - عليه السلام - وفيها الشريعة التي يقوم عليها نظام المجتمع؛ ولم يُعَدّل فيها الإنجيل إلا القليل. أما الإنجيل فهو نفخة إحياء وتجديد لروح الدين، وتهذيب لضمير الإنسان بوصله مباشرة بالله من وراء النصوص. هذا الإحياء وهذا التهذيب اللذان جاء المسيح وجاهد لهما حتى مكروا به كما سيجيء..

﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله. وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم. إن في ذلك لآية لكم. إن كنتم مؤمنين﴾ [المائدة: ٤٩].

ويفيد هذا النص أن رسالة عيسى - عليه السلام - كانت لبني إسرائيل، فهو أحد أنبيائهم. ومن ثم كانت التوراة التي نزلت على موسى - عليه السلام - وفيها الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية، والمتضمنة لقوانين التعامل والتنظيم، هي كتاب عيسى كذلك، مضافاً إليها الإنجيل الذي يتضمن إحياء الروح وتهذيب القلب وإيقاظ الضمير.

والآية التي بشّر الله أمه مريم أنها ستكون معه، والتي واجه بها بالفعل بني إسرائيل هي معجزة النفخ في الموات فيدخله سر الحياة، وإحياء الموتى من الناس، وإبراء المولود أعمى، وشفاء الأبرص، والإخبار بالغيب ـ بالنسبة له ـ وهو المدخر من الطعام وغيره في بيوت بني إسرائيل، وهو بعيد عن رؤيته بعينه..

وحرص النص على أن يذكر على لسان المسيح ـ عليه السلام ـ كما هو مقدر في غيب الله عند البشارة لمريم، وكما تحقق بعد ذلك على لسان عيسى ـ أن كل خارقة من هذه الخوارق التي جاءهم بها، إنما جاءهم بها من عند الله. وذكر إذن الله بعد كل واحدة منها تفصيلاً وتحديداً؛ ولم يدع القول يتم ليذكر في نهايته إذن الله زيادة في الاحتياط!

وهذه المعجزات في عمومها تتعلق بإنشاء الحياة أو رَدّها، أو ردّ العافية وهي فرع عن الحياة. ورؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية..

وهي في صميمها تتسق مع مولد عيسى؛ ومَنْحه الوجود والحياة على غير مثال إلا مثال آدم ـ عليه السلام ـ وإذا كان الله قادراً أن يجري هذه المعجزات على يد واحد من خلقه، فهو قادر على خَلْق ذلك الواحد من غير مثال.. ولا حاجة إذن لكل الشبهات والأساطير التي نشأت عن هذا المولد الخاص متى رُد الأمر إلى مشيئة الله الطليقة ولم يقيد الإنسانُ الله ـ سبحانه ـ بمألوف الإنسان!

﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة، ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم. وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربي وربكم فاعبدوه. هذا صراط مستقيم﴾ [المائدة: ٥٠، ٥١]..

وهذا البيان في دعوة عيسى ـ عليه السلام ـ لبني إسرائيل يتكشف عن حقائق أصيلة في طبيعة دين الله، وفي مفهوم هذا الدين في دعوة الرسل جميعاً ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهي حقائق ذات قيمة خاصة حين ترد على لسان عيسى ـ عليه السلام ـ بالذات، وهو الذي ثار حول مولده وحقيقته ما ثار من الشبهات، التي نشأت كلها من الانحراف عن حقيقة دين الله التي لا تتبدل بين رسول ورسول.

فهـو إذ يقول: ﴿ومصـدقاً لمـا بين يـدي من التوراة ولأحـل لكم بعضَ الذي حُرم عليكم﴾ . .

يكشف عن طبيعة المسيحية الحقة[1]. فالتوراة التي تنزّلت على موسى

---

(١) قال الإمام الطوخي في «شرح مختصر الروضة» ٣/ ١٨١ ـ ١٨٣:

«إن دعوة عيسى ـ عليه السلام ـ عَمَّت، ونَسختْ ما قبلها من الشرائع. . أما عموم دعوته فلوجوه:

أحدها: قـوله سبحـانه وتعـالى: ﴿وجعلنا ابنَ مريمَ وأمّهُ آيـةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]، ﴿وجعلناها وابنها آيةً للعـالمين﴾ [الأنبيـاء: ٩١]، ﴿ولنجعله آية للنـاس﴾ [مريم: ٢١]، والآية: العلامة، أي: آية على سعادة السُّعداء باتباعه، وعلى شقاوةِ الأشقياء بمخالفته، وذلك يقتضي عمومَ الدعوة.

الوجه الثاني: قوله: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنتُ﴾ [مريم: ٣١] أي مَن اتبعني كنتُ مباركاً عليه، وذلك يُفيد عموم الدعوة.

الوجه الثالث: أن الله سبحانـه وتعالى سمّاه ناصـراً له، وكـل مَن كان نـاصراً للّه عز وجل، كان عام الدعوة؛ إلا أن يقوم على اختصاصها دليل.

أما أنه كان ناصراً للّه عز وجل، فلقوله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين. . .﴾ [الصف: ١٤]. والتقدير كونوا أنصار الله كما كان عيسى والحواريون أنصارَ الله.

وأما أن مَنْ كان ناصراً للّه عز وجل، كان عامَّ الدعوة إلا أن يقومَ دليل مُخَصِّص، فلأنَّ نصرة الله تعالى هي الدعاء إلى توحيده ودينه الحق، والمصير إلى ذلك واجبٌ على كل أحد، فإن قام دليلٌ مخصص للدعوة ببعض البلاد كاختصاص دعوة لوطٍ ـ عليه السلام ـ بقرى سدوم، أو ببعض القبائل، كاختصاص دعوة شعيب بِمَدْين وأصحاب الأيكة ونحو ذلك، اختصت الدعوة بموجب الدليل.

الوجه الرابع: قوله سبحانه وتعالى: ﴿يا عيسى بن مريمَ أأنتَ قلتَ للناس اتَّخذوني وأمّي إلهين من دون الله﴾ [المائدة: ١١٦] الآية، ولفظ الناس عام، وهو يدل على أنَّه أرسلَ إلى الناسِ عموماً، فَغَلا بعضهم فاتخذوه إلهاً.

الـوجه الخـامس: قولـه تعـالى: ﴿فـاصـبر كـما صَبرَ أُولـوا العـزمِ من الـرُّسُـل﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وعيسى منهم، وكانت دعوة أولي العزم عامة، فكذلك عيسى[1].

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿ونُعلِّمه الكتابَ والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾ [آل عمران: ٤٨، ٤٩]، فلا يَقْدحُ فيما ذكرناه من أدلة عموم دعوته، لأن المرسلَ إلى الناس مرسلٌ إلى كل جزء وطائفة منهم. وبنو إسرائيل طائفةٌ من الناس الذين أُرسل إليهم. =

ـ عليه السلام ـ وهي تتضمن التشريع المنظم لحياة الجماعة وفق حاجة ذلك الزمان، وملابسات حياة بني إسرائيل (بما أنها ديانة خاصة لمجموعة من البشر في فترة من الزمان) ـ هذه التوراة معتمدة في رسالة المسيح ـ عليه السلام ـ وجاءت رسالته مصدقة لها، مع تعديلات تتعلق بإحلال بعض ما حرم الله عليهم، وكان تحريمه في صورة عقوبات حلت بهم على معاص وانحرافات، أدّبهم الله عليها بتحريم بعضٍ ما كان حلالاً لهم. ثم شاءت إرادته أن يرحمهم بالمسيح ـ عليه السلام ـ فَيُحِلّ لهم بعض الذي حرم عليهم.

ومن هذا يتبين أن طبيعة الدين ـ أي دين ـ أن يتضمن تنظيماً لحياة الناس بالتشريع؛ وألا يقتصر على الجانب التهذيبي الأخلاقي وحده، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها، ولا على العبادات والشعائر وحدها كذلك. فهذا لا يكون ديناً. فما الدين إلا منهج الحياة الذي أراده للبشر؛ ونظام الحياة الذي يربط حياة الناس بمنهج الله.

ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية، عن الشعائر التعبدية، عن القيم الخلقية، عن الشرائع التنظيمية، في أي دين يريد أن يصرّف حياة الناس وفق المنهج الإلهي. وأي انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين في النفوس وفي الحياة؛ ويخالف مفهوم الدين وطبيعته كما أراده الله.

= وأما أن شريعتَه نَسختْ ما قبلها من الشرائع، فلأن شريعة موسى نَسختْ ما قبلها، وشريعة عيسى نَسَخت شريعة موسى بدليل قوله تعالى حكاية عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل ﴿ولأحِلَّ لكُم بعضَ الذي حُرِّمَ عليكم﴾ [آل عمران: ٥٠]، يعني في شرع التوراة، وذلك هو حقيقة النسخ، ولا يُشترط في نَسْخ الشريعة نَسْخُ جميعها، بل يكفي في تسميتها منسوخةً نسخُ بعض أحكامها، بدليل أن شريعة محمد عليه الصلاة والسلام نَسَخَت كلَّ شريعة قبلَها، مع أنها قررت بعض الأحكام، فلم تنسخ».

وأولو العزم من الرسل هم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم جميعاً. أنظر قوله تعالى في سورة الأحزاب «الآية: ٧» ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم، ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ راجع تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٩.

وهذا ما حدث للمسيحية. فإنها لعدة ملابسات تاريخية من ناحية؛ ولكنها جاءت موقوتة لزمن - حتى يجيء الدين الأخير - ثم عاشت بعد زمنها من ناحية.. قد انفصل فيها الجانب التشريعي التنظيمي عن الجانب الروحاني التعبدي الأخلاقي.. فقد حدث أن قامت العداوة المُستحكمة بين اليهود والمسيح - عليه السلام - وأنصاره ومَن اتبع دينه فيما بعد؛ فأنشأ هذا انفصالاً بين التوراة المتضمنة للشريعة والإنجيل المتضمن للإحياء الروحي والتهذيب الأخلاقي[1].. كما أن تلك الشريعة كانت شريعة موقوتة لزمن خاص ولجماعة من الناس خاصة. وكان في تقدير الله أن الشريعة الدائمة الشاملة للبشرية كلها ستجيء في موعدها المقدور.

وعلى أية حال فقد انتهت المسيحية إلى أن تكون نِحلة بغير شريعة. وهنا عجزت عن أن تقود الحياة الاجتماعية للأمم التي عاشت عليها. فقيادة الحياة الاجتماعية تقتضي تصوراً اعتقادياً يفسر الوجود كله، ويفسر حياة الإنسان ومكانه في الوجود؛ وتقتضي نظاماً تعبدياً وقيماً أخلاقية. ثم تقتضي - حتماً - تشريعات منظمة لحياة الجماعة، مستمدة من ذلك التصور الاعتقادي، ومن هذا النظام التعبدي، ومن هذه القيم الأخلاقية. وهذا القوام التركيبي للدين هو الذي يضمن قيام نظام اجتماعي، له بواعثه المفهومة، وله ضماناته المكينة.. فلما وقع ذلك الانفصال في الدين المسيحي عجزت المسيحية عن أن تكون نظاماً شاملاً للحياة البشرية، واضطر أهلها إلى الفصل بين القيم الروحية والقيم العملية في حياتهم كلها، ومن بينها النظام الاجتماعي الذي تقوم عليه هذه الحياة. وقامت الأنظمة الاجتماعية هناك على غير قاعدتها

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله - ﷺ -: «رأى عيسى بن مريم رجلاً يَسرق فقال له عيسى سرقتَ، قال: كلا والذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنتُ بالله وكذَّبتُ نفسي». أخرجه مسلم.

قال النووي في «شرح مسلم» قال القاضي: ظاهر الكلام صدقت من حلف بالله تعالى وكذبت ما ظهر لي من ظاهر سرقته فلعله أخذ ما له فيه حق أو بإذن صاحبه أو لم يقصد الغصب والاستيلاء أو ظهر له من مدَّ يده أنه أخذ شيئاً فلما حلف له أسقط ظنه ورجع عنه».

الطبيعية الوحيدة. فقامت مُعلقة في الهواء. أو قامت عرجاء!

ولم يكن هذا أمراً عادياً في الحياة البشرية، ولا حادثاً صغيراً في التاريخ البشري.. إنما كان كارثة: كارثة ضخمة، تنبع منها الشقوة والحيرة والانحلال والشذوذ والبلاء الذي تتخبط فيه الحضارة المادية اليوم. سواء في البلاد التي لا تزال تعتنق المسيحية ـ وهي خالية من النظام الاجتماعي لخلوها من التشريع ـ أو التي نفضت عنها المسيحية وهي في الحقيقة لم تبعد كثيراً عن الذين يَدَّعون أنهم مسيحيون.. فالمسيحية كما جاء بها السيد المسيح، وكما هي طبيعة كل دين يستحق كلمة دين، هي الشريعة المنظمة للحياة، المنبثقة من التصور الاعتقادي في الله، ومن القيم الأخلاقية المستندة إلى هذا التصور. وبدون هذا القوام الشامل المتكامل لا تكون مسيحية. ولا يكون دين على الإطلاق! وبدون هذا القوام الشامل المتكامل لا يقوم نظام اجتماعي للحياة البشرية يُلَبي حاجات النفس البشرية، ويلبي واقع الحياة البشرية، ويرفع النفس البشرية والحياة البشرية كلها إلى الله.

وهذه الحقيقة هي أحد المفاهيم التي يتضمنها قول المسيح ـ عليه السلام ـ:

﴿ومُصدّقاً لما بين يدي من التوراة ولأحلّ لكم بعض الذي حرم عليكم﴾.. الخ..

وهو يستند في تبليغ هذه الحقيقة على الحقيقة الكبرى الأولى: حقيقة التوحيد الذي لا شبهة فيه:

﴿وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربي وربكم فاعبدوه. هذا صراط مستقيم﴾ [المائدة: ٥١]..

فهو يعلن حقيقة التصور الاعتقادي التي قام عليها دين الله كله: المعجزات التي جاءهم بها لم يجيء بها من عند نفسه. فما له قدرة عليها وهو بشر. إنما جاءهم بها من عند الله. ودعوته تقوم ابتداء على تقوى الله وطاعة رسوله.. ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على السواء ـ فما هو برب وإنما هو عبد ـ

وأن يتوجهوا بالعبادة إلى الرب، فلا عبودية إلا للّه.. ويختم قوله بـالحقيقة الشاملة.. فتوحيد الرب وعبادته، وطاعة الرسول والنـظام الذي جـاء به: ﴿**هذا صراط مستقيم**﴾.. وما عداه عوج وانحراف. وما هو قطعاً بالدين..

ويمضي القرآن في بيانه للتوكيد والتأكيد على بشرية عيسى ـ عليه السلام ـ فالله سبحانه هو الـذي أجرى عـلى يدي عيسى المعجـزات بَيِّنة عـلى صدق رسالته، وأيّده بروح القدس.

﴿**وآتينـا عيسى بن مـريم البينـات وأيـدنـاه بـروح القـدس**﴾ [البقرة: ٨٧].. والقرآن يعني بروح القدس: جبريل ـ عليه السلام ـ فهـو حامل الوحي إلى الرسل. وهذا أعظم تأييد وأكبره. وهو الذي ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل بانتدابهم لهذا الدور الفذ العظيم، وهو الذي يُثبتهم على المضي في الطريق الشاق الطويل؛ وهو الذي يتنزل عليهم بالسكينة والتثبيت والنصر في مواقع الهول والشدة في ثنايا الطريق..

وهذا كله التأييد، أما البينات التي آتاهـا الله عيسى ـ عليه السـلام ـ فتشمل الإنجيل الذي نزل عليه، كما تشمل الخوارق التي أجراها على يديه، والتي ورد ذكرها مفصلة في مواضعها المناسبة من القصة. تصديقاً لرسالته في مواجهة بني إسرائيل المعاندين!

ويؤكد القرآن بيان حقيقة عيسى ـ عليه السلام ـ وحقيقة ما جـاء به، وكيف اختلف قومه من قبله ثم اختلفوا كذلك من بعده:

﴿**ولما جاء عيسى بالبينات قال: قد جئتكم بالحكمة، ولأُبين لكم بعض الذي تختلفون فيه، فاتقوا الله وأطيعون. إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم. فاختلف الأحزاب من بينهم، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم**﴾ [الزخرف: ٦٣ ـ ٦٥]..

فعيسى جاء قومه بالبينات الواضحات سواء من الخوارق التي أجراها الله على يديه، أو من الكلمات والتوجيهات إلى الطريق القويم. وقال لقومه: ﴿**قد**

جئتكم بالحكمة﴾. ومَن يُؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وأَمِنَ الزلل والشطط أَمِنَه للتفريط والتقصير؛ واطمأن إلى خطواته في الطريق على اتزان وعلى نور.

وجاء ليبين لهم بعض الذي يختلفون فيه. وقد اختلفوا في كثير من شريعة موسى ـ عليه السلام ـ وانقسموا فرقاً وشيعاً. ودعاهم إلى تقوى الله وإلى طاعته فيما جاءهم به من عند الله. وجهر بكلمة التوحيد خالصة لا مواربة فيها ولا لبس ولا غموض:

﴿إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه﴾.. ولم يقل: إنه إله، ولم يقل: إنه ابن الله. ولم يشر من قريب أو بعيد إلى صلة له بربه غير صلة العبودية من جانبه والربوبية من جانب الله رب الجميع. وقال لهم: إن هذا صراط مستقيم لا التواء فيه ولا اعوجاج، ولا زلل فيه ولا ضلال. ولكن الذين جاءوا من بعده اختلفوا أحزاباً كما كان الذين من قبله مختلفين أحزاباً. اختلفوا ظالمين لا حجة لهم ولا شبهة:

﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾..

لقد كانت رسالة عيسى ـ عليه السلام ـ إلى بني إسرائيل؛ وكانوا ينتظرونه ليخلصهم مما كانوا فيه من الذلّ تحت حكم الرومان؛ وقد طال انتظارهم له، فلما جاءهم نكروه وشاقوه، وهمّوا أن يصلبوه!

ولقد جاء المسيح فوجدهم شيعاً ونحلاً كثيرة، أهمها أربع فرق أو طوائف.

ـ طائفة الصدوقيين نسبة إلى «صدوق» وإليه وإلى أسرته ولاية الكهانة من عهد داود وسليمان. وحسب الشريعة لا بد أن يرجع نسبه إلى هارون أخي موسى. فقد كانت ذريته هي القائمة على الهيكل. وكانوا بحكم وظيفتهم واحترافهم متشددين في شكليات العبادة وطقوسها، ينكرون «البدع» في الوقت الذي يترخصون في حياتهم الشخصية ويستمتعون بملاذ الحياة، ولا يعترفون بأن هناك قيامة!

ـ وطائفة الفريسيين، وكانوا على شقاق مع الصدوقيين. يُنكرون عليهم تشددهم في الطقوس والشكليات، وجحدهم للبعث والحساب. والسمة الغالبة على الفريسيين هي الزهد والتصوف وإن كان في بعضهم اعتزاز وتعال بالعلم والمعرفة. وكان المسيح ـ عليه السلام ـ ينكر عليهم هذه الخيلاء وشقشقة اللسان!

ـ وطائفة السامريين، وكانوا خليطاً من اليهود والآشوريين، وتدين بالكتب الخمسة في العهد القديم المعروفة بالكتب الموسوية، وتنفي ما عداها مما أُضيف إلى هذه الكتب في العهود المتأخرة، مما يعتقد غيرهم بقداسته.

ـ وطائفة الآسين أو الأسينيين. وكانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفية، وكانوا يعيشون في عزلة عن بقية طوائف اليهود، ويأخذون أنفسهم بالشدة والتقشف، كما يأخذون جماعتهم بالشدة في التنظيم.

وهناك غير هذه الطوائف نحل شتى فردية، وبلبلة في الاعتقاد والتقاليد بين بني إسرائيل، الراضخين لضغط الأمبرطورية الرومانية المستذلين المكبوتين، الذين ينتظرون الخلاص على يد المُخَلِّص المُنتظر من الجميع.

فلما أن جاء المسيح ـ عليه السلام ـ بالتوحيد الذي أعلنه: ﴿**إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه**﴾. وجاء معه بشريعة التسامح والتهذيب الروحي والعناية بالقلب البشري قبل الشكليات والطقوس، حاربه المحترفون الذين يقومون على مجرد الأشكال والطقوس.

ومما يُؤثر عنه ـ عليه السلام ـ في هذا قوله عن هؤلاء: «إنهم يحزمون الأوقار، ويسومون أن يحملوها على عواتقهم، ولا يمدون إليها إصبعاً يُزحزحونها، وإنما يعملون عملهم كله لينظر الناس إليهم! يعرضون عصائبهم، ويطيلون أهداب ثيابهم، ويستأثرون بالمتكأ الأول في الولائم، والمجالس الأولى في المجامع، ويبتغون التحيات في الأسواق. وأن يقال لهم: سيدي. سيدي. حيث يذهبون!»..

أو يخاطب هؤلاء فيقول: «أيها القادة العميان الذين يُحاسِبُون على

البعوضة ويبتلعون الجمل.. إنكم تنقون ظاهر الكأس والصحفة، وهما في الباطن مترعان بالرجس والدعارة.. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون. إنكم كالقبور المُبَيّضة. خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة»[1]..

وإن الإنسان ـ وهو يقرأ هذه الكلمات المأثورة عن المسيح ـ عليه السلام ـ وغيرها في بابها ـ ليكاد يتصور رجال الدين المحترفين في زماننا هذا. فهو طابع واحد مكرر. لهؤلاء الرسميين المحترفين من رجال الدين الذين يراهم الناس في كل حين.

ثم ذهب المسيح ـ عليه السلام ـ إلى ربه، فاختلف أتباعه من بعده. اختلفوا شيعاً وأحزاباً. بعضها يُؤَلِّهه. وبعضها ينسب لله سبحانه بُنوّته. وبعضها يجعل الله ثالث ثلاثة أحدهما المسيح ابن مريم. وضاعت كلمة التوحيد الخالصة التي جاء بها عيسى ـ عليه السلام ـ وضاعت دعوته الناس ليلجأوا إلى ربهم ويعبدون مخلصين له الدين.

﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾..

﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذُرِّيتهما النُّبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل..﴾ [الحديد: ٢٦، ٢٧]..

فكانت الرسالة ممتدة واحدة على إثر واحدة حتى جاء عيسى ابن مريم..

﴿وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم، مصدقاً لما بين يديه من التوراة. وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة، وهدى وموعظة للمتقين..﴾ [المائدة: ٤٦]..

---

(١) النصوص منقولة عن كتاب عبقرية المسيح للأستاذ العقاد. والكلام عن طوائف اليهود مستعان به فيه.

فقد أتى الله عيسى بن مريم الإنجيل، ليكون منهج حياة، وشريعة حكم. . ولم يتضمن الإنجيل في ذاته تشريعاً إلا تعديلات طفيفة في شريعة التوراة. وقد جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة، فاعتمد شريعتها ـ فيما عدا هذه التعديلات الطفيفة. . وجعل الله فيه هدى ونوراً، وهدى وموعظة. . ولكن لَمن؟. . ﴿للمتقين﴾.

فالمتقون هم الذين يجدون في كتب الله الهدى والنور والموعظة، هم الذين تتفتح قلوبهم لما في هذه الكتب من الهدى والنور؛ وهم الذين تتفتح لهم هذه الكتب عما فيها من الهدى والنور. .

أما القلوب الجاسية الغليظة الصلدة، فلا تبلغ إليها الموعظة، ولا تجد في الكلمات معانيها؛ ولا تجد في التوجيهات روحها؛ ولا تجد في العقيدة مذاقها؛ ولا تنتفع من هذا الهدى ومن هذا النور بهداية ولا معرفة ولا تستجيب. .

إن النور موجود، ولكن لا تدركه إلا البصيرة المفتوحة، وإن الهدى موجود، ولكن لا تدركه إلا الروح المستشرفة، وإن الموعظة موجودة، ولكن لا يلتقطها إلا القلب الواعي.

وقد جعل الله في الإنجيل هدى ونوراً وموعظة للمتقين، وجعله منهج حياة وشريعة حكم لأهل الإنجيل. . أي إنه خاص بهم، فليس رسالة عامة للبشر ـ شأنه في هذا شأن التوراة وشأن كل كتاب وكل رسالة وكل رسول، قبل هذا الدين الأخير ـ ولكن ما طابق من شريعته ـ التي هي شريعة التوراة ـ حكم القرآن فهو من شريعة القرآن.

وأهل الإنجيل كانوا إذن مطالبين أن يتحاكموا إلى الشريعة التي أقرها وصَدَّقها الإنجيل من شريعة التوراة:

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ [المائدة: ٤٧]. .

فالقاعدة هي الحكم بما أنزل الله دون سواه. وهم واليهود كذلك لن يكونوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل ـ قبل الإسلام ـ وما أُنزل إليهم

من ربهم ـ بعد الإسلام ـ فكله شريعة واحدة، هم ملزمون بها، وشريعة الله الأخيرة هي الشريعة المعتمدة:

﴿ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ [المائدة: ٤٧]. .

والنص هنا على عمومه وإطلاقه. . وصفة الفسق تضاف إلى صفتي الكفر والظلم التي وردت من قبل في سورة المائدة[١]. .

وليست تعني قوماً جدداً ولا حالة جديدة منفصلة عن الحالة الأولى. إنما هي صفة زائدة على الصفتين قبلها، لاصقة بمَن لم يحكم بما أنزل الله من أي جيل، ومن أي قبيل.

جَدَل وخصام:

يحكي القرآن الكريم حادثاً من حوادث الجدل الذي كان المشركون يزاولونه في مكة، وهم يدافعون عن عقائدهم الواهية أمام دعوة الإسلام، لا بقصد الوصول إلى الحق، ولكن مراءً ومحالاً!

فلما قيل لهم: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَب جهنم. .﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وكان القصد هو أصنامهم التي جعلوها تماثيل للملائكة ثم عبدوها بذاتها. وقيل لهم: إن كل عابد وما يعبد من دون الله في النار. لما قيل لهم هذا ضَرَب بعض المَثَل بعيسى ابن مريم ـ وقد عبده المنحرفون من قومه ـ أهو في النار؟ وكان هذا مجرد جَدَل ومجرد مراء. ثم قالوا: إذا كان أهل الكتاب يعبدون عيسى وهو بشر فنحن أهدى إذ نعبد الملائكة وهم بنات الله! وكان هذا باطلاً يقوم على باطل.

وفي قصة عيسى يكشف القرآن الكريم عن حقيقته وحقيقة دعوته:

﴿ولما ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك يصدّون. وقالوا: أآلهتنا خيرٌ أم

(١) انظر فصل «فساد في الخلق والسلوك والعقيدة» في قصة موسى وبني إسرائيل في هذا الكتاب.

هو؟ ما ضربوه لك إلا جَدَلاً. بل هم قوم خصمون. إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٥٩]..

ذكر ابن إسحاق في السيرة قال: جلس رسول الله ـ ﷺ ـ فيما بلغني مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أفحمه. ثم تلا عليه وعليهم **﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾** الآيات.. ثم قام رسول الله ـ ﷺ ـ وأقبل عبد الله بن الزبعري التميمي حتى جلس. فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد! وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبد الله بن الزبعري: أما والله لو وجدته لخصمته. سلوا محمداً أَكُلّ ما يُعبد من دون الله في جهنم مع عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عُزيراً، والنصارى تعبد المسيح ابن مريم. فعجب الوليد ومَن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعري ورأوا أنه قد احتجّ وخاصم. فذكر ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «كل مَن أحب أن يعبد من دون الله فهو مع مَن عبده. فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومَن أمرهم بعبادته» فأنزل الله عز وجل: **﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾** [الأنبياء: ١٠٠].. أي عيسى وعزير ومَن عبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل، فاتخذهم مَن بعدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه يُعبد من دون الله، وعجب الوليد ومَن حضر من حجته وخصومته: **﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾**.. أي يصدون عن أمرك بذلك...

وذكر صاحب الكشاف في تفسيره: «لما قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ على قريش: **﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾** امتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً. فقال عبد الله بن الزبعري: يا محمد. أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال ـ عليه السلام ـ: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» فقال: خصمتك ورب الكعبة! ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي، وتُثني عليه خيراً

وعلى أُمّه؟ وقد علمت أن النصارى يعبدونهما؟ وعزير يُعبد؟ والملائكة يُعبدون؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم! ففرحوا وضحكوا.

وسكت النبي - ﷺ - فأنزل الله تعالى: ﴿**إن الذين سبقت لهم منا الحسنى**﴾ ونزلت هذه الآية.

والمعنى: ولما ضرب عبد الله بن الزبعري عيسى ابن مريم مثلاً، وجادل رسول الله - ﷺ - بعبادة النصارى إياه ﴿**إذا قومك**﴾ - قريش - من هذا المثل ﴿**يصِّدون**﴾ ترتفع لهم جَلَبة وضجيج، فرحاً وجذلاً وضحكاً بما سمعوا من إسكات رسول الله - ﷺ - بِجَدَله، كما يرتفع لغط القوم ولَجَبهم إذا تعبوا بحجة ثم فتحت عليهم.

وأما مَن قرأ ﴿**يصدون**﴾ بالضم فمن الصدود. أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه. وقيل: من الصديد وهو الجبة. وأنهما لغتان نحو يعكُف ويعكِف ونظائر لهما.

﴿**وقالوا أآلهتنا خير أم هو؟**﴾ يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى، وإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هيناً!».

ولم يذكر صاحب الكشاف من أين استقى روايته هذه. وهي تتفق في عمومها مع رواية ابن إسحاق.

ومن كليهما يتضح الالتواء في الجدل، والمراء في المناقشة. ويتضح ما يقرره القرآن عن طبيعة القوم وهو يقول: ﴿**بل هم قوم خصمون**﴾.. ذو لدد في الخصومة ومهارة. فهم يدركون من أول الأمر ما يقصد إليه القرآن الكريم وما يقصد إليه الرسول الله - ﷺ - فيلوونه عن استقامته، ويتلمسون شُبهة في عموم اللفظ فيدخلون منها بهذه المماحكات الجدلية، التي يغرم بمثلها كل من عَدِمَ الإخلاص، وفَقَد الاستقامة؛ يكابر في الحق، ويعمد إلى شبهة في لفظ أو عبارة أو منفذ خلفي للحقيقة! ومن ثم كان نَهي رسول الله - ﷺ - وتشديده عن المراء، الذي لا يقصد به وجه الحق، إنما يراد به الغلبة من أي طريق.

قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، عن عبادة بن عبادة، عن جعفر، عن القاسم، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن. فغضب غضباً شديداً، حتى كأنما صُبَّ على وجهه الخل. ثم قال ـ ﷺ ـ: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض. فإنه ما ضلّ قوم قط إلا أُوتوا الجدل». ثم تلا ـ ﷺ ـ **﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾**..

وهناك احتمال في تفسير قوله تعالى **﴿وقالوا: أآلهتنا خير أم هو؟﴾** يرشح له سياق الآيات في صدد أسطورتهم عن الملائكة. وهو أنهم عنوا أن عبادتهم للملائكة خير من عبادة النصارى لعيسى ابن مريم. بما أن الملائكة أقرب في طبيعتهم وأقرب نسباً ـ حسب أسطورتهم ـ من الله سبحانه وتعالى عما يصفون.

ويكون التعقيب بقوله تعالى: **﴿ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾** يعني الرد على ابن الزبعري كما سبق. كما يعني أن ضربهم المثل بعبادة النصارى للمسيح باطل. فعمل النصارى ليس حجة لأنه انحراف عن التوحيد. كانحرافهم هم. فلا مجال للمفاضلة بين انحراف وانحراف. فكله ضلال. وقد أشار إلى هذا الوجه بعض المفسرين أيضاً. وهو قريب.

ومن ثم جاء التعقيب بعد هذا: **﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾**..

فليس إلهاً يُعبد كما انحرف فريق من النصارى فعبدوه. إنما هو عبد أنْعَم الله عليه. ولا جريرة له في عبادتهم إياه. فإنما أنعم الله عليه ليكون مثلاً لبني إسرائيل ينظرون إليه ويتأسون به. فنسوا المُثل، وضلوا السبيل!

رسالة عيسى والبشرى بمحمد نبي الهدى:

والقرآن يذكر رسالة عيسى ليقرر أنه جاء امتداداً لرسالة موسى، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة، وممهداً للرسالة الأخيرة ومبشراً برسولها؛

وَوَصْلة بين الدين الكتابي الأول والدين الكتابي الأخير:

﴿وإذ قال عيسى بن مريم: يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [الصف: ٥].

لقد جاء عيسى بن مريم يقول لبني إسرائيل: **﴿إني رسول الله إليكم﴾**..

فلم يقل لهم: إنه الله، ولا إنه ابن الله، ولا إنه أقنوم من أقانيم الله.

والآيات القرآنية تصور حلقات الرسالة المترابطة، يسلم بعضها إلى بعض، وهي متماسكة في حقيقتها، واحدة في اتجاهها، ممتدة من السماء إلى الأرض، حلقة بعد حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة..

وهي الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه. فهو منهج واحد في أصله، متعدد في صوره، وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها، ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلي والشعوري، فتجيء الحلقة الأخيرة في الصورة الأخيرة كاملة شاملة، تخاطب العقل الراشد، في ضوء تلك التجارب، وتطلق هذا العقل يعمل في حدوده، داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان في جملته، المتفق مع طاقاته واستعداداته.

وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها. فثابت أن الطريقة التي كُتبت بها هذه الأناجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن.

وقد قرىء القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه: **﴿النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾** [الأعراف: ١٥٧]..

وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة، التي كانوا يتواصون بتكتمها!

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلهم زمانه، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى في الجزيرة العربية. ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم. فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم، كرهوا هذا وحاربوه!

وعلى أية حال فالنص القرآني بذاته هو الفيصل في مثل هذه الأخبار. وهو القول الأخير. .

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله، كما قال عيسى بن مريم للحواريين: مَن أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله. فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة. فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ [الصف: ١٤]. .

والحواريون هم تلاميذ المسيح ـ عليه السلام ـ قيل: الإثنا عشر الذين كانوا يلوذون به، وينقطعون للتلقي عنه. وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه.

والآية هنا تهدف إلى تصوير موقف لا إلى تفصيل قصة، فنسير نحن معها في ظلالها المقصودة إلى الغاية من سردها.

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله﴾ . . في هذا الموضع الكريم الذي يرفعكم إليه الله. وهل أرفع من مكان يكون فيه العبد نصيراً للرب؟! إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعيم. . كونوا أنصار الله **﴿كما قال عيسى بن مريم للحواريين: مَن أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله﴾** . . فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم.

وعيسى جاء ليبشر بالنبي الجديد والدين الأخير. . فما أجدر أتباع محمد أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم، كما انتدب الحواريون للأمر الموقوت!

وهذه اللمسة الواضحة في عرض هذا الحوار في سورة الصف.

وماذا كانت العاقبة؟

﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ . .

وتأويل هذا النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين: إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى ـ عليه السلام ـ هم المسيحيون إطلاقاً مَن استقام ومَن دخلت في عقيدته الانحرافات، وقد أيدهم الله على اليهود الذين لم يؤمنوا أصلاً كما حدث في التاريخ.

وإما أن الذين آمنوا هم الذين أصروا على التوحيد في وجه المُؤَلِّهين لعيسى والمُثَلِّثين وسائر النِحَل التي انحرفت عن التوحيد. ومعنى أنهم أصبحوا ظاهرين أي بالحجة والبرهان. أو أن التوحيد الذي هم عليه هو الذي أظهره الله بهذا الدين الأخير؛ وجعل له الجملة الأخيرة في الأرض كما وقع في التاريخ. وهذا المعنى الأخير هو الأقرب والأرجح في هذا السياق.

والعبرة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء هي العبرة التي أشرنا إليها، وهي استنهاض هِمّة المؤمنين بالدين الأخير، الأمناء على منهج الله في الأرض، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية، المختارين لهذه المهمة الكبرى. استنهاض همتهم لنصرة الله ونصرة دينه.. والنصر في النهاية لأنصار الله المؤمنين.

مكر يهود ومحاولتهم صلب وقتل عيسى بن مريم:

كان أحبار اليهود وكهنتهم يُحرفون ما جاء في شريعة الله من أحكام في التوراة: **﴿من الذين هادوا يُحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه﴾** [النساء: ٤٦]، ثم كانوا يكتبون للعامة شرائع من الخرافات والبدع ويدّعون أنها من عند الله خدمة لمصالحهم الذاتية باسم الدين: **﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾** [البقرة: ٧٩]..

لقد ادّعى أحبار يهود أنهم الصلة بين الله وبين الناس فهم وسطاء بينه

وبينهم، وأنه بدون هؤلاء الأحبار لا تتم صلة العبد بربه. ولا المخلوق بخالقه. فَبيدهم وحدهم مفتاح باب الرحمة والمغفرة ودخول الجنة. وبيدهم وحدهم إذلال العبد وإيذائه وجلب الضرر له وإدخاله النار. .

كانوا يُحرضون الناس إلى بذل أموالهم تقرباً إلى الله وابتغاء مرضاته عن طريق تقديم الأموال والنذور للهيكل. . فيقدمونها ولو كان منهم فقراء في مسيس الحاجة إلى هذه الأموال. وبذلك خضع الناس لسلطانهم. ووقعوا أسرى دَجَلهم. . وأذلاء طَلَبَاتهم. . فلقد كان الأحبار والكهنة أرباباً تُتَّبع وتُطاع. وهم فيما يُشرعون يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴿**يا أيها الذين آمنوا. إن كثيراً من الأحبار والرُّهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله**﴾[1] [التوبة: ٣٤]. .

ومن مراجعة آيات القرآن الكريم فيما تقدم عن تاريخ بني إسرائيل يتبين أن اليهود قد فسدت عقيدتهم بعد أن قست قلوبهم، ثم زاغوا وظلموا وفسقوا وكفروا، فغضب الله عليهم ولعنهم. . وصار هَمُّ وشغف يهود المال. وأولعوا بجمعه من كل طريق. . وصرفهم حبُّ المال والتكالب عليه عن أوامر ربِّهم فتجاوزوا حدود الله وشرعه، وانحرفوا عن دينهم الحنيف فحرموا ما أَحلَّ الله، وأحلوا ما حرّم الله، كل ذلك افتراءً على الله وبغياً وعدواناً.

وفسدت أرواحهم وانتكست فطرتهم، فأصبح كل شيء عندهم لا يقوم إلا بالمادة. . ولا شيء غير المادة، فماتت إنسانيتهم وأظلمت قلوبهم، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم. . ودبَّ الفساد في كل جوانب حياتهم حتى صاروا فِرَق وشِيَع تتناحر وتتخاصم في سبيل عَرَض من الدنيا قليل، وانحطت أخلاقهم، وتاهت عقولهم، وكانوا فِرَقاً تتنازع فذهبت ريحهم، وانغمسوا في ملاذ

(١) لا بد أن نلحظ الدقة القرآنية والعدل الإلهي في قوله تعالى في ذلك ﴿**إن كثيراً من الأحبار والرهبان. .**﴾. للاحتراز من الحكم على القليل منها الذي لا يزاول هذه الخطيئة. ولا بد من أفراد في أية جماعة من الناس فيهم بقيّة خير. . ولا يظلم ربك أحداً. .

وشهوات طويلة، وكانوا على شفا جُرف هارٍ من الانحلال والضياع، سادرين، وفي غيِّهم وضلالهم يعمهون . .

هذه كانت حال بني إسرائيل عندما بزغ نجم عيسى ـ عليه السلام ـ وبعثه الله ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فلم يترك سبيلاً لهدايتهم إلا سلكه، ولا باباً إلا طرقه، يحاول أن ينتشلهم من هذه الوهدة الهابطة، ويُخلصهم من تلك الحمأة المرتكسة، فقام يدعوهم إلى روح الدين ولُبابه، وأَصْلِه وحقيقته، والحبُّ للّه حُبًّا يغلب على كل حب، والرحمة على الإنسانية واحترامها، والمواساة للفقراء، ويدعوهم إلى التوحيد الخالص، ورَفْض كل ما دخل على دين الأنبياء من عادات جاهلية، وعقائد باطلة(١).

لقد استقبل بني إسرائيل نَبيَّهم عيسى ـ عليه السلام ـ شرّ ما يُستقبل به نبياً. يعرفون صدقه بالآيات الباهرات والبينات الواضحات. فقد شعر رجال الدين بالخطر يَدْهمهم ويُطيح بمصالحهم، فها هو ذا عيسى يُنكر عليهم انغماسهم في الشهوات، وتهالكهم على اللذات، وتسابقهم إلى جمع المال، ثم هو يفضح أسرارهم، وينشر بين الناس مخازيهم؛ فأجمعوا أَمْرهم على مناوأته أينما حَلّ، وتكذيبه حيثما ذهب.

ولكنه لم يُبال جمعهم، ولم تُثنيه مناوأتهم؛ بل صمد في سبيل الحق، وثبت لدعوة الصدق، وسار متنقلاً بين القرى داعياً إلى صراط الله المستقيم، وأيّده ربُّه بالمعجزة الباهرة وآزره بالآية البيّنة، فصار يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ويُبرىء الأَكْمه والأبرص، ويُحيي الموتى بإذن الله(٢). . .

ولكن الذين ارتكست قلوبهم من بني إسرائيل تمادوا في طغيانهم مع قيام حجة عيسى، ووضوح آيته، وثبتوا على ضلالهم، وقالوا: إن هذا إلا سحر مبين.

---

(١) قصص النبيين للندوي: ٣٥١.
(٢) قصص القرآن: ٢٢٨.

مكتبة المهتدين
http://al-maktaben.com

لقد شقَّ علي اليهود وجود عيسى ـ عليه السلام ـ فنصبوا له الحـرب، ورموه عن قوس واحدة، ورشقوه بالتهم والقذائف، وتناولوه بالسبِّ القبيح والقـول البذيء، وتنـاولوا أُمّـه مريم البتـول بالقـذف والطعن، وعـاكسوه وطاردوه، وأهاجوا له الأوباش، وسَدُّوا في وجهه الطرق(١).

ثم قادهم كفرهم إلى التخلص منه، فأرادوا به سوءاً، ومكروا به ليقتلوه ﴿**ومكروا ومَكَر الله والله خير الماكرين**﴾ [آل عمران: ٥٤]. .

ويذكر القرآن الكريم إحساس عيسى ـ عليه السلام ـ بالكفـر من بني إسرائيل، وإلى طلبه الأنصار لإبلاغ دين الله:

﴿**فلما أحسّ عيسى منهم الكفـر قـال: مَن أنصـاري إلى الله؟ قـال الحواريون: نحن أنصار الله، آمنا بالله، واشهد بأنا مسلمون. ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين**﴾ [آل عمران: ٥٢، ٥٣]. .

والآن لقد أحس عيسى الكفر من بني إسرائيل ـ بعدما أراهم كل تلك المعجـزات التي لا تتهيأ لبشر؛ والتي تشهـد بأن الله وراءهـا، وأن قـوة الله تؤيدها، وتؤيد مَن جاءت على يده. ثم على الرغم من أن المسيح جاء ليخفف عن بني إسرائيل بعض القيود والتكاليف. .

عندئذ دعا دعوته:

﴿**قال: مَن أنصاري إلى الله؟**﴾. .

مَن أنصاري إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه؟ مَن أنصاري إلى الله لأبلّغ إليه، وأُؤدي عنه؟

ولا بد لكل صاحب عقيدة ودعوة من أنصار ينهضون معه، ويحملون دعوته، ويُحامون دونها، ويبلغونها إلى مَن يَليهم، ويقومون بعده عليها. .

﴿**قال الحواريون: نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون**﴾. .

(١) قصص النبيين للندوي: ٣٥٢.

http://al-maktabeh.com

فـذكروا الإسـلام بمعناه الـذي هو حقيقـة الـدين، وأَشْهَـدوا عيسى ـ عليه السلام ـ على إسلامهم هذا وانتدابهم لنصرة الله . . أي نصرة رسوله ودينه ومنهجه في الحياة .

ثم اتجهوا إلى ربهم يتصلون مباشرة به في هذا الأمر الذي يقومون عليه :

﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول، فاكتبنا مع الشاهدين﴾ .

وفي هذا التوجُّه لعقد البيعة مع الله مباشرة لَفْتَة ذات قيمة . . إن عهد المؤمن هو ابتداء مع ربه، ومتى قام الرسول بإبلاغه فقد انتهت مهمة الرسول من ناحية الاعتقاد؛ وانعقدت البيعة مع الله، فهي باقية في عُنق المؤمن بعد الرسول . .

وفيه كذلك تَعَهُّد للّه بـاتباع الـرسول. فليس الأمـر مجرد عقيـدة في الضمير؛ ولكنه اتباع لمنهج، والاقتداء فيه بالرسول . .

ثم عبـارة أخـرى تلفت النـظر في قـول الحـواريـين: **﴿فـاكتبنـا مـع الشاهدين﴾** . .

فأي شهادة وأي شاهدين؟

إن المسلم المؤمن بدين الله مطلوب منه أن يؤدي شهادة لهذا الدين . شهادة تؤيد حق هذا الدين في البقاء؛ وتؤيد الخير الذي يحمله هـذا الدين للبشر . . وهو لا يؤدي هذه الشهـادة حتى يجعل من نفسـه ومن خُلقه ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين . صورة يراها الناس فيرون فيها مَثَلاً رفيعاً، يشهد لهذا الدين بالأحقية في الوجود، وبالخيرية والأفضلية على سائر ما في الأرض من أنظمة وأوضاع وتشكيلات .

وهو لا يؤدي هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هـذا الدين قـاعدة حياته، ونظام مجتمعه، وشريعة نفسه وقومه . فيقوم مجتمع من حوله، تـدبر أموره وفق هذا المنهج الإلهي القويم . . وجهاده لقيام هذا المجتمع، وتحقيق هذا المنهج ؛ وإيثاره الموت في سبيله على الحياة في ظل مجتمع آخر لا يحقق منهج

الله في حياة الجماعة البشرية.. هو شهادته بأن هذا الدين خير من الحياة ذاتها وهي أعزّ ما يحرص عليه الأحياء! ومن ثم يُدعى «شهيداً»..

فهؤلاء الحواريون يَدعون الله أن يكتبهم مع الشاهدين لدينه.. أي أن يُوفقهم ويُعينهم في أن يجعلوا من أنفسهم صورة حية لهذا الدين؛ وأن يبعثهم للجهاد في سبيل تحقيق منهجه في الحياة، وإقامة مجتمع يتمثل فيه هذا المنهج. ولو أدوا ثمن ذلك حياتهم ليكونوا من «الشهداء» على حق هذا الدين.

وهو دعاء جدير بأن يتأمله كل مَن يدّعي لنفسه الإسلام.. فهذا هو الإسلام، كما فَهمه الحواريون. وكما هو في ضمير المسلمين الحقيقيين! ومَن لم يُؤَدِّ هذه الشهادة لدينه فكتمها فهو آثم قلبه. فأما إذا ادّعى الإسلام ثم سار في نفسه غير سيرة الإسلام؛ أو حاولها في نفسه، ولكنه لم يؤدها في المجال العام، ولم يجاهد لإقامة منهج الله في الحياة إيثاراً للعافية، وإيثاراً لحياته على حياة الدين، فقد قَصَّر في شهادته أو أَدى شهادة ضد هذا الدين. شهادة تصدّ الآخرين عنه. وهم يرون أهله يشهدون عليه لا له! وويل لَمن يصد الناس عن دين الله عن طريق ادعائه أنه مؤمن بهذا الدين، وما هو من المؤمنين!

ويمضي السياق إلى خاتمة القصة بين عيسى - عليه السلام - وبني إسرائيل:

﴿ومكروا وَمكَر الله، والله خير الماكرين..﴾ [آل عمران: ٥٤]..

والمكر الذي مكره اليهود الذين لم يؤمنوا برسولهم عيسى - عليه السلام - مكر طويل عريض. فقد قذفوه - عليه السلام - وقذفوا الطاهرة أمه مع يوسف النجار خطيبها الذي لم يدخل بها كما تذكر الأناجيل.. وقد اتهموه بالكذب والشعوذة؛ وَوَشُوا به إلى الحاكم الروماني «بيلاطس» وادَّعوا أنه «مُهَيِّج» يدعو الجماهير للانتقاض على الحكومة! وأنه مُشعوذ يجدف ويفسد عقيدة الجماهير! حتى سلم لهم بيلاطس بأن يتولوا عقابه بأيديهم، لأنه لم يجرؤ - وهو وثني - على احتمال تبعة هذا الإثم مع رجل لم يجد عليه ريبة.. وهذا قليل من كثير..

﴿ومكروا ومَكَر الله. والله خير الماكرين﴾..

والمشاكلة هنا في اللفظ هي وحدها التي تجمع بين تدبيرهم وتدبير الله . . والمكر التدبير . . ليسخر من مكرهم وكيدهم إذا كان الذي يواجهه هو تدبير الله . فأين هم من الله؟ وأين مكرهم من تدبير الله؟

لقد أرادوا صلب عيسى ـ عليه السلام ـ وقَتْله . وأراد الله أن يَتَوفّاه، وأن يرفعه إليه، وأن يُطهره من مخالطة الذين كفروا والبقاء بينهم وهم رجس ودنس، وأن يُكرمه الله فيجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . . وكان ما أراده الله . وأبطل الله مكر الماكرين :

﴿إذ قال الله : يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ [آل عمران : ٥٥] . .

فأما كيف كانت وفاته، وكيف كان رفعه . . فهي أُمور غيبية تدخل في المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله . ولا طائل وراء البحث فيها . لا في عقيدة ولا في شريعة . والذين يجرون وراءها، ويجعلونها مادة للجدل، ينتهي بهم الحال إلى المراء، وإلى التخليط، وإلى التعقيد . دون ما جزم بحقيقة، ودون ما راحة بال في أمر موكول إلى علم الله .

ويكرر القرآن الكريم صفة الكفر لليهود كلما ذَكَر إحدى منكراتهم : **﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً . وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله . . ﴾** [النساء : ١٥٦ ، ١٥٧] . .

وذكر الله هذه الصفة هنا بمناسبة قولهم على مريم بهتاناً عظيماً . وقد قالوا على مريم الطاهرة ذلك المنكر الذي لا يقوله إلا اليهود! فرموها بالزنا ـ لعنة الله عليهم! ثم تبجحوا بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه، وهم يتهكمون بدعواه الرسالة فيقولون : قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله!

وحين يصل السياق إلى هذه الدعوة منهم يقف كذلك للرد عليها، وتقرير الحق فيها :

http://al-maktabeh.com

﴿وما قَتَلوه وما صلبوه، ولكن شُبِّه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه؛ ما لهم به من علم إلا اتباع الظن. وما قتلوه يقيناً. بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]..

إن قضية قتل عيسى ـ عليه السلام ـ وصَلْبه، قضية يخبط فيها اليهود ـ كما يخبط فيها النصارى بالظنون ـ فاليهود يقولون: إنهم قتلوه ويسخرون من قوله: إنه رسول الله، فيقررون له هذه الصفة على سبيل السخرية!

والنصارى يقولون: إنه صُلِبَ ودُفِنَ، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام. والتاريخ يسكت عن مولد المسيح ونهايته كأن لم تكن له في حساب!

وما من أحد من هؤلاء أو هؤلاء يقول ما يقول عن يقين.. فلقد تتابعت الأحداث سراعاً؛ وتضاربت الروايات وتداخلت في تلك الفترة بحيث يصعب الاهتداء فيها إلى يقين.. إلا ما يقصّه ربّ العالمين..

والأناجيل الأربعة التي تروي قصة القبض على المسيح وصَلْبه وموته ودفنه وقيامته.. كلها كُتبت بعد فترة من عهد المسيح، كانت كلها اضطهاداً لديانته ولتلاميذه يتعذر معه تحقيق الأحداث في جوّ السرية والخوف والتشريد.. وقد كتبت معها أناجيل كثيرة. ولكن هذه الأناجيل الأربعة اختيرت قرب نهاية القرن الثاني للميلاد؛ واعتبرت رسمية، واعتُرِف بها؛ لأسباب ليست كلها فوق مستوى الشبهات!

ومن بين الأناجيل الكثيرة: إنجيل برنابا. وهو يخالف الأناجيل الأربعة المعتمدة، في قصة القتل والصلب، فيقول:

«ولما دنت الجنود مع يهوذا، من المَحلّ الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دُنُوّ جَمّ غفير. فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً. وكان الأحد عشر نياماً. فلما رأى الخطر على عبده، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل، سفراءه.. أن يأخذوا المسيح من العالم. فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه، ووضعوه في السماء الثالثة، في صحبة الملائكة التي تُسبّح إلى الأبد..

ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أُصعد منها يسوع. وكان التلاميذ كلهم نياماً. فأتى الله العجيب بأمر عجيب فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبيهاً بيسوع. حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع. أما هو فبعد أن أيقَظَنَا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم. لذلك تعجبنا فأجبنا: أنت يا سيدي مُعَلّمنا. أنسيتنا الآن.. الخ»[1].

وهكذا لا يستطيع الباحث أن يجد خبراً يقيناً عن تلك الواقعة ـ التي حدثت في ظلام الليل قبل الفجر ـ ولا يجد المختلفون فيها سنداً يرجح رواية على رواية.

﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه. ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ [النساء: ١٥٧]..

أما القرآن فيقرر قراره الفصل:

﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم﴾.

﴿وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]..

ولا يدلي القرآن بتفصيل في هذا الرفع أكان بالجسد والروح في حالة الحياة؟ أم كان بالروح بعد الوفاة؟ ومتى كانت هذه الوفاة وأين. وهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما وقع القتل والصلب على مَن شُبه لهم سواه.

لا يدلي القرآن بتفصيل آخر وراء تلك الحقيقة؛ إلا ما ورد من قوله تعالى **﴿يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ﴾** [آل عمران: ٥٥].

وهذه كتلك لا تعطي تفصيلاً عن الوفاة ولا عن طبيعة هذا التوفّي وموعده..

ونحن في كتابنا هذا لا نريد أن نخرج عن تلك الظلال؛ ولا أن نضرب

---

(١) نقلاً عن كتاب «محاضرات في النصرانية» للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة.

في أقاويل وأساطير؛ ليس لدينا من دليل عليها، وليس لنا إليها سبيل..

لقد اختلفوا في مسألة صَلْبه مثل اختلافهم في مسألة مولده. منهم مَن قال: إنه صُلب حتى مات ودُفن ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام وارتفع إلى السماء.

ومنهم مَن قال: إن يهوذا أحد حوارييه الذي خانه ودَلّ عليه أُلقي عليه شَبَه المسيح وصُلب.

ومنهم مَن قال: أُلقي شبهه على الحواري سيمون وأُخذ به.. وقَص القرآن الكريم الخبر اليقين فقال: ﴿**وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبه لهم**﴾ [النساء: ١٥٧] وقال: ﴿**يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك..**﴾ [آل عمران: ٥٥] وكانت كلمة الفصل في ذلك الخلاف.

لقد حدّثهم القرآن حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم، مُجرداً من الأساطير الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم، مُطهراً من الأقذار التي أَلْصَقَتها هذه الروايات بالأنبياء، والتي لم يكد نبي من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفاً!..

إبراهيم ـ بزعمهم ـ قدم امرأته لأبيمالك ملك الفلسطينيين، وإلى فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة في أعينهما!.

ويعقوب الذي هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده إسحاق بطريق السرقة والحيلة والكذب؛ وكانت بزعمهم هذه البركة لأخيه الأكبر عيصو!

ولوط ـ بزعمهم ـ أسكرته بنتاه كل منهما ليلة ليضطجع معها لتنجب منه كي لا يذهب مال أبيها إذ لم يكن له وارث ذكر. وكان ما أرادتا!.

وداود رأى من سطوح قصره امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد جنده، فأرسل هذا الجندي إلى المهالك ليفوز ـ بزعمهم ـ بامرأته!.

وسليمان مال إلى عبادة (بغل) بزعمهم. مجاراة لإحدى نسائه التي كان يعشقها ولا يملك معارضتها!

وقد جاء القرآن فَطَهَّر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لَوَّثَتْهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة المُنزلة، كما صَحَّح تلك الأساطير عن عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ.

ويمضي القرآن في بيانه الصريح: ﴿**وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً**﴾ [النساء: ١٥٩]..

وقد اختلف السلف في مدلول هذه الآية، باختلافهم في عائد الضمير في «موته» فقال جماعة: وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى ـ عليه السلام ـ قبل موته ـ أي عيسى ـ وذلك على القول بنزوله قبيل الساعة..

وقال جماعة وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى قبل موته.. أي موت الكتابي ـ وذلك على القول بأن الميت ـ وهو في سكرات الموت ـ يتَبينَّ له الحق، حيث لا ينفعه أن يعلم!

ونحن أميل إلى هذا القول الثاني؛ الذي تُرشح له قراءة أُبيّ: ﴿**إلا ليؤمننّ به قبل موتهم**﴾.. فهذه القراءة تشير إلى عائد الضمير؛ وأنه أهل الكتاب.. وعلى هذا الوجه يكون المعنى: أن اليهود الذين كفروا بعيسى ـ عليه السلام ـ وما زالوا على كفرهم به، وقالوا: إنهم قتلوه وصلبوه، ما من أحد منهم يدركه الموت، حتى تُكشف له الحقيقة عند حشرجة الروح، فيرى أن عيسى حق، ورسالته حق، فيؤمن به، ولكن حين لا ينفعه إيمان.. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً.

بذلك يحسم القرآن الكريم قصة الصلب.. لقد أنصف العقيدة الصحيحة في حكاية صلب المسيح ـ عليه السلام ـ كما أنصف العقيدة في رواية مولده سواء بسواء.. ﴿**والله يقول الحق وهو يهدي السبيل**﴾ [الأحزاب: ٤]..

ونعود إلى ما تقدم في قوله تعالى:

﴿إذ قال الله: يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ [آل عمران: ٥٥]..

وأما أن الله جعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.. فلا يصعب القول فيه. فالذين اتبعوه هم الذين يؤمنون بدين الله الصحيح.. الإسلام.. الذي عرف حقيقته كل نبي، وجاء به كل رسول، وآمن به كل مَن آمن حقاً بدين الله.. وهؤلاء فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة في ميزان الله.. كما أنهم كذلك في واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر بحقيقة الإيمان، وحقيقة الاتباع.. ودين الله واحد. وقد جاء به عيسى بن مريم كما جاء به من قبله ومن بعده كل رسول. والذين يتبعون محمداً ـ ﷺ ـ هم في الوقت ذاته اتبعوا موكب الرسل كلهم. من لدن آدم ـ عليه السلام ـ إلى آخر الزمان.

وهذا المفهوم الشامل هو الذي يتفق مع حقيقة الدين.

فأما نهاية المطاف للمؤمنين والكافرين، فيقررها السياق في صدد إخبار الله لعيسى ـ عليه السلام ـ:

﴿ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون. فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين. وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم. والله لا يحب الظالمين﴾ [آل عمران: ٥٥ ـ ٥٧]..

وفي هذا النص تقرير لجِدّية الجزاء، وللقسط الذي لا يميل شعرة، ولا تتعلق به الأماني ولا الافتراء.. رجعة إلى الله لا محيد عنها. وحُكم من الله فيما اختلفوا فيه لا مرد له. وعذاب شديد في الدنيا والآخرة للكافرين لا ناصر لهم منه. وتوفية للأجر للذين آمنوا وعملوا الصالحات لا محاباة فيه ولا بخس.. **﴿والله لا يحب الظالمين﴾**.. فحاشا أن يظلم وهو لا يحب الظالمين..

وكل ما يقوله أهل الكتاب إذن من أنهم لن يدخلوا النار إلا أياماً معدودات. وكل ما رتبوه على هذا التميع في تصور عَدْل الله في جزائه من أماني خادعة.. باطل باطل لا يقوم على أساس.

أمارات الساعة ونزول المسيح عيسى ابن مريم:

لقد اقتربت الساعة، وهي موعد الحكم العدل والقول الفصل، وهي غيب اختصَّ الله سبحانه بعلمها وحده **﴿قل: إنما علمها عند الله﴾** [الأعراف: ١٨٧، الأحزاب: ٦٣]..

وهذه هي الساعة قد دَنَتْ وها هي ذي أشراطها قد أوضحها رسول الله ـ ﷺ ـ كما أوضحها القرآن الكريم، حتى يستشعر بها القلب. يستشعر برهبة ذلك اليوم الثقيل بالأحداث الجسام. وعلامات الساعة على قسمين: علامات صغرى، وهي التي تتقدم الساعة بأزمان بعيدة متطاولة، وتكون في أصلها معتادة الوقوع، وعلامات كبرى، وهي التي تُقارب قيام الساعة مُقارَبة وشيكة سريعة. وتكون في ذاتها غير معتادة الوقوع(١).

ويقرر القرآن شيئاً عن عيسى ـ عليه السلام ـ يُذكرهم بأَمْر الساعة التي يُكذبون بها أو يشكُّون فيها:

﴿وإنه لعلم للساعة. فلا تمترن بها واتبعون. هذا صراط مستقيم. ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ [الزخرف: ٦١ ـ ٦٢]..

وقد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى ـ عليه السلام ـ إلى الأرض قبيل الساعة وهو ما تشير إليه الآية: **﴿وإنه لعلم للساعة﴾** بمعنى أنه يُعلَم بقرب مجيئها، والقراءة الثانية **﴿وإنه لَعَلَم للساعة﴾** بمعنى أمارة وعلامة. وكلاهما قريب من قريب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والذي

---

(١) انظر باب أشراط الساعة وعلاماتها في كتاب «اليوم الآخر في ظلال القرآن» ص ٩٧ ـ ١٤٦.

نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً(١)، فيكسر الصليب(٢)، ويقتل الخنزير(٣)، ويضع الجزية(٤)، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد»(٥) زاد في رواية «وحتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها»(٦). ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته**﴾»(٧)[النساء: ١٥٩]..

وفي رواية قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولتتركن

---

(١) أي حاكماً عادلاً. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري، ٣٥٦/٦: «والمعنى أنه ـ عليه السلام ـ ينزل حاكماً بهذه الشريعة، فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ، بل يكون عيسى ـ عليه السلام ـ حاكماً من حكّام هذه الأمة».

(٢) قال الحافظ ابن حجر: أي يبطل دين النصرانية، بأن يكسر الصليب حقيقة، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه.

(٣) قال الحافظ ابن حجر: أي يأمر بإعدام الخنزير، مبالغة في تحريم أكله، وفيه توبيخ عظيم للنصارى الذين يدّعون أنهم على طريقة عيسى ـ عليه السلام ـ ثم يستحلون أكل الخنزير، ويبالغون في محبته.

(٤) أي عن أهل الكتاب، ويحملهم على الإسلام، ولا يقبل منهم غير الإسلام أو القتل. فيصير الدين واحداً، فلا يبقى أحد من أهل الذمة ليؤدي الجزية. قال الحافظ ابن حجر: «ويؤيده أن عند الإمام أحمد من وجه آخر عند أبي هريرة: (وتكون الدعوى ـ أي الملة ـ واحدة)».

(٥) أي يكثر المال جداً. وسبب كثرته نزول البركات، وتوالي الخيرات بسبب العدل وعدم الظلم، وحينئذ تُخرج الأرض كنوزها، وتقل الرغبات في اقتناء المال لعلم الناس بقرب الساعة.

(٦) وذلك أنهم لا يتقربون إلى الله إلا بالعبادة، لا بالتصدق بالمال لعدم الانتفاع به إذ لا أحد يقبله. قال العلاّمة فضل الله التوربشتي رحمه الله تعالى: لم تزل السجدة الواحدة في الحقيقة كذلك، أي خيراً من الدنيا وما فيها، وإنما أراد بذلك أن الناس يرغبون في أمر الله، ويزهدون في الدنيا، حتى تكون السجدة الواحدة أحبَّ إليهم من الدنيا وما فيها.

(٧) قال الحافظ ابن حجر: «قال ابن الجوزي: إنما تلا أبو هريرة هذه الآية للإشارة إلى مناسبتها لقوله ـ ﷺ ـ: «حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها»، فإنه يشير بذلك إلى صلاح الناس، وشدة إيمانهم وإقبالهم على الخير، فهم لذلك يؤثرون الركعة الواحدة على جميع الدنيا. والسجدة تطلق ويراد بها الركعة».

القِلاص[1] فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء[2] والتباغض والحسد، وليُدعون إلى المال فلا يقبله أحد»[3].

وفي رواية أبي داود أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ليس بيني وبينه ـ يعني عيسى ـ نبي، وأنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع، إلى الحمرة والبياض، ينزل بين مُمَصَّرَتين[4] كأَنَّ رأسه يقطر وإن لم يُصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدقّ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويُهلك الله في زمانه المِلَل كلها إلا الإسلام، ويُهلكَ المسيح الدجال، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يُتَوفَّى، ويُصلي عليه المسلمون».

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى، فيقول أميرهم: تعال صَلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة»[5].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كيف أنتم إذا نَزَل ابنُ مريم فيكم وإمامكم منكم»[6]..

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والذي

---

(١) القلاص: جمع قلوص: وهي الناقة.
(٢) الشحناء: العداوة. إنما تزول هذه الأمراض من القلوب والنفوس لزوال حبِّ الدنيا الذي هو سبب العداوات.
(٣) البخاري ومسلم.
(٤) مُمَصَّرَتين: ثوب مُمَصَّر إذا كان فيه صفرة خفيفة يسيرة. وفي رواية أحمد «.. فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجلاً مربوعاً، إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان مُمَصَّران..».
(٥) أخرجه مسلم.
(٦) أخرجه البخاري ومسلم، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦/٣٥٨: وعند أحمد من حديث جابر في قصة الدجال ونزول عيسى: «وإذا هم بعيسى، فيقال: تقدم يا روح الله، فيقول: ليتقدم إمامكم فلْيَصلِّ بكم».

نفسي بيده: ليُهِلَّنَّ[1] ابن مريم بفجِّ الروحاء[2] حاجاً أو معتمراً، أو ليثنينهما»[3] .

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله - ﷺ - الدجّال ذات غداة.. فقال - ﷺ -: «... إنه خارج خُلّة[4] بين الشام والعراق، فعاث يميناً، وعاث شمالاً[5] ... فبينما هو كذلك، إذ بعث الله المسيح بن مريم - عليه السلام - فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مَهْرُدتين[6] ، واضعاً كفيه على أجنحة مَلَكَين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدَّر منه جمان كاللؤلؤ[7] ، فلا يحل لكافر يجد ريحَ نَفَسِه إلا مات[8] ، ونَفَسه

---

(١) أي ليرفعن صوته بالتلبية قائلاً: لبَّيك اللهم لبيك، محرماً بحج أو بعمرة.

(٢) مكان بين المدينة وبدر. قيل يبعد عن المدينة ستة أميال.

(٣) والمعنى أو ليجمعن بين الحج والعمرة. والحديث أخرجه مسلم.

(٤) أي أنه يخرج قصداً وطريقاً بين الجهتين، والتخلل: الدخول في الشيء.

(٥) العيث: أشد الفساد، أي أفسد عن يمينه وأفسد عن شماله مسرعاً في إفساده أيما إسراع.

(٦) رويت هذه اللفظة بالدال والذال، يقال: إن الثوب صنع بالورس ثم بالزعفران جاء لونه مثل زهر الحوذانة، فذلك الثوب مهرود، ومعناه: ينزل - عليه السلام - في حلتين لابسهما، وفيهما صفرة خفيفة.

(٧) أي إذا خفض رأسه قطر منه الماء، وإذا رفعه تحدَّر منه تحدراً أي نزل ببطء، وصفة ذلك كالجمان وهو حبات من الفضة كبار، تشبه اللؤلؤ في صفائها وحسنها. وهذا كله كناية عن حسن سيدنا عيسى وجمال خلقته الشريفة عليه الصلاة والسلام إلى جمال ثيابه الذي تقدم ذكره، هذا ما ذكره العلماء في توجيه معنى جملة «إذا طأطأ رأسه قَطَر». وقد وصف رسول الله - ﷺ - عيسى - عليه السلام - في حديث آخر، رواه البخاري في صحيحه ٦/٣٤٩، ١٣/٨٥ بشرح الحافظ ابن حجر فقال في نعته «رجل آدم كأحسن ما أنت راء من أدم الرجال، سبط الشعر، له لِمّة كأحسن ما أنت راء من اللمم تضرب لمته بين منكبيه، يقطر رأسه ماء، ربعة، أحمر كأنما خرج من ديماس، وتفسير هذه النعوت الكريمة: أسمر جميل السمرة جداً، له شعر ليس بجعد، طويل يضرب على منكبيه في غاية النظافة والنضارة والجمال، حتى كأنه يقطر من الماء الذي سرحه به، مربوع القامة، تعلو وجهه حمرة، كأنه خرج من الحمام تتحدر من وجهه حبات الماء كاللؤلؤ الوضّاء.

(٨) أي لا يمكن ولا يقع لكافر يجد ريح نَفَس عيسى - عليه السلام - إلا مات. قال العلّامة القرطبي: يعني أن الله سبحانه قوّى نَفَس عيسى - عليه السلام - حتى يصل إلى إدراك =

ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه [أي يطلب المسيح الدجال] حتى يدركه بباب لُدّ (١)، فيقتله، ثم يأتي عيسى بن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم(٢)، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم، أني قد أخرجتُ عباداً لي، لا يدانِ لأحد بقتالهم(٣)، فحرِّز عبادي إلى الطور(٤)، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون(٥)، فيمرُّ أوائلهم على بحيرة طبرية(٦) فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخرهم، فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويُحصر نبي الله عيسى ـ عليه السلام ـ وأصحابه(٧)، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مئة دينار، فيرغب نبي الله عيسى ـ عليه السلام ـ وأصحابه، فيرسل الله عليهم النَّغَف(٨) في رقابهم فيصبحون فَرْسىٰ(٩)، كموت نفس واحدة، ثم يهبط

= نصره، ومعناه أن الكفار لا يقربونه، وإنما يُهلَكون عند رؤيته ووصول نَفَسه إليهم، حفظ من الله سبحانه له، وإظهار لكرامته (انظر شرح مسلم ٢٧٢/٧).

وقال العلاّمة علي القاري: ومن الغريب أن نَفَس عيسى عليه الصلاة والسلام تعلق به الإحياء لبعض، والإماتة لبعض.

(١) بلدة معروفة الآن في فلسطين، قريبة من بيت المقدس.

(٢) قال العلاّمة علي القاري رحمه الله تعالى: أي يزيل عن وجوههم ما أصابها من غبار سَفَر الغزو مبالغة في إكرامهم، أو المعنى: يكشف ما نزل بهم من آثار الكآبة والحزن على وجوههم بما يسرّهم من خبره لهم بقتل الدجال.

(٣) أي لا قدرة ولا طاقة لأحد بمقاتلتهم.

(٤) أي ضمهم إلى الطور واجعله لهم حرزاً. والطور: هو الجبل الذي ناجى عليه سيدنا موسى ربه.

(٥) الحدب: المرتفع من الأرض، وينسلون: يسرعون. يعني أنهم يتفرقون في الأرض فلا ترى مرتفعاً من الأرض إلا وقوم منهم يهبطون منه مسرعين في المشي إلى الفساد.

(٦) بحيرة معروفة ومشهورة في فلسطين.

(٧) أي يُحاصَرون ويُحبَسون في جبل الطور.

(٨) دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

(٩) فرسىٰ: جمع فريس، وهو القتيل. وفرسىٰ: أي موتى!

قال العلاّمة التوربشتي رحمه الله تعالى: يعني أن القهر الإلهي الغالب على كل شيء يفرسهم دفعة واحدة، فيصبحون قتلى! وقد نبَّه ـ ﷺ ـ بالكلمتين أعني: «النغف» و «فرسىٰ» =

نبي الله عيسى ـ عليه السلام ـ وأصحابه إلى الأرض[1]، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمُهم[2] ونتْنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت[3]، فتحملهم فتطرحهم حيثما شاء اللهَ، ثم يرسل الله مطراً لا يكنُّ منه بيت مدَرٍ ولا وَبَرٍ[4]، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلفة[5]، ثم يُقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردّي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة[6] الرمانة، ويستظلون بقحفها[7]. ويبارك في الرِّسْلِ[8]، حتى إن اللقحة[9] من الإبل لتكفي الفئام من الناس[10]، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ[11] من الناس، فبينما هم كذلك، إذ بعثَ الله ريحاً طيبة، فيأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحُمر[12]، فعليهم تقوم الساعة»[13].

= على أن الله سبحانه يُهلكهم في أدنى ساعة بأهون شيء وهو النغف، فيفرسهم فرس السبع فريسته بعد أن طارت نعرة البغي في رؤوسهم ـ خيلاؤه وكبره ـ فزعموا أنهم قاتلوا مَن في السماء!

(١) أي ينزلون من جبل الطور.

(٢) أي رائحتهم الكريهة.

(٣) البخت: نوع من الجمال طوال الأعناق. أي يرسل الله طيراً كبيرة طويلة قوية.

(٤) أي لا يحفظ ولا يصون منه بيت تراب أو حجر أو صوف أو شعر.

(٥) أي كالمرآة في صفائها ونظافتها.

(٦) أي الجماعة.

(٧) أي بقشرها لشدة كبرها.

(٨) أي اللبن الحليب.

(٩) الناقة التي يكون لها لبن.

(١٠) الفئام: الجماعة الكثيرة.

(١١) أي الجماعة أقل من القبيلة.

(١٢) التهارج: الاختلاف والاختلاط، وأصله القتل. والمعنى أنهم يتسافدون في الأرض تسافد الحمير، أي يجامع الرجال علانية النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير، ولا يكترثون لذلك. والهرج: الجماع. وهذا نموذج لشيوع الفساد والفواحش حينذاك. إذ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه ١٨ : ٨٨: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس».

(١٣) أخرجه مسلم.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يخرج الدجال في خِفّة من الدين [1]، وإدبار من العلم، وله أربعون يوماً يسيحها في الأرض... ومعه فتنة عظيمة... ثم ينزل عيسى ابن مريم من السَحَر، فيقول: يا أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذّاب الخبيث؟ فيقولون: هذا رجل جِنّي [2]، فينطلقون فإذا هم بعيسى ابن مريم، فتقام الصلاة، فيُقال له: تقدم يا روح الله، فيقول: ليتقدم إمامكم فليصل بكم، فإذا صلّى صلاة الصبح خرجوا إليه. فحين يراه الكذاب ينماث كما ينماث الملح في الماء [3]، فيمشي إليه فيقتله، حتى إن الشجر والحجر ينادي: يا روح الله هذا اليهودي، فلا يترك ممن كان يتبعه أحداً إلا قتله» [4].

إن نزول عيسى - عليه السلام - إلى الأرض أمارة وعلامة للساعة، وهو غيب من الغيب الذي حدّثنا عنه الصادق الأمين وأشار إليه القرآن الكريم، ولا قول فيه لبشر إلا ما جاء من هذين المصدرين الثابتين إلى يوم الدين..

حسم وتوكيد ومواجهة:

ويبين القرآن الكريم شأن النصارى في حسم وتوكيد:

﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال المسيح: يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم. إنه مَن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار، وما للظالمين من أنصار. لقد كفر الذين قالوا: إن الله

---

(١) أي في حال ضعف من الدين وقلة أهله. ولفظ: «في خفة» رواية الحاكم، ورواية أحمد: «في خفقة من الدين» والمعنى واحد، مأخوذ من خفق الليل إذا ذهب، أو خفق الأمر إذا اضطرب.

(٢) هذا كناية عن شدة أذاه.

(٣) أي يختفي ويتوارى كما يذوب الماء في الملح.

(٤) رواه أحمد في «مسنده» وصححه الحاكم في «المستدرك» ورجاله ثقات. وقال الذهبي في تلخيص المستدرك: ٥٣٠: «وهو على شرط مسلم»، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ٣٤٤/٧ وقال: رواه أحمد بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح.

ثالث ثلاثة. وما من إله إلا إله واحد. وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّن الذين كفروا منهم عذاب أليم. أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه؟ والله غفورٌ رحيم. ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأُمه صدِّيقة كانا يأكلان الطعام. انظر كيف نبين لهم الآيات، ثم انظر أنى يؤفكون. قل: أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً؟ والله هو السميع العليم؟﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٦].

ولقد سبق أن بَيَّنا كيف ومتى تسربت هذه المقولات المنحرفة من المجامع إلى العقيدة النصرانية التي جاء بها عيسى ـ عليه السلام ـ رسولاً من عند الله، كإخوانه الرسل؛ الذين جاءوا بكلمة التوحيد خالصة؛ لا يشوبها ظل من الشرك؛ لأن الرسالات كلها، جاءت لتقرير كلمة التوحيد في الأرض وإبطال كلمة الشرك.

ونذكر باختصار ما انتهت إليه تلك المجامع من الاتفاق على التثليث وألوهية المسيح والخلاف فيما بينها بعد ذلك..

«جاء في كتاب «سوسنة سليمان» لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصراني: أن عقيدة النصارى التي لا تختلف بالنسبة لها الكنائس، وهي أصل الدستور الذي بيَّنه المجمع النيقاوي هي الإيمان بإله واحد: آب واحد، ضابط الكل، خالق السموات والأرض، كل ما يُرى وما لا يُرى. وبرب واحد يسوع، الإبن الوحيد المولود من الآب قبل الدهور من نور الله. إله حق من إله حق. مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، والذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خطايانا نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء تأنس، وصُلِبَ عنا على عهد بيلاطس، وتألم وقبر، وقام من الأموات في اليوم الثالث على ما في الكتب، وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب، وسيأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات، ولا فناء لُملكه.

والإيمان بالروح القدس، الرب المحيي المنبثق من الآب، الذي هو مع الإبن يسجد له، ويمجده، الناطق بالأنبياء».

«وقال الدكتور «بوست» في تاريخ الكتاب المقدس: طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الآب، والله الإبن، والله الروح القدس. فإلى الآب ينتمي الخلق بواسطة الإبن. وإلى الإبن الفداء. وإلى الروح القدس التطهير»[1].

ونظراً لصعوبة تصور الأقانيم الثلاثة في واحد، وصعوبة الجمع بين التوحيد والتثليث، فإن الكتّاب النصارى عن اللاهوت حاولوا تأجيل النظر العقلي في هذه القضية، التي يرفضها العقل ابتداء. ومن ذلك ما كتبه القس «بوطر» في رسالة «الأصول والفروع» وقد تقدم نقل بعض أقواله، ونعيدها هنا وزيادة..

«قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا. ونرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء في المستقبل حين يكشف لنا الحجاب عن كل ما في السموات وما في الأرض. وأما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية»[2].

والله ـ سبحانه ـ يقول: إن هذه المقولات كلها كفر. وهي تتضمن ـ كما رأينا ـ القول بألوهية المسيح ـ عليه السلام ـ والقول بأن الله ثالث ثلاثة.. وليس بعد قول الله ـ سبحانه ـ قول. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل:

﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال المسيح: يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم..﴾.

وهكذا حذرهم المسيح ـ عليه السلام ـ فلم يحذروا، ووقعوا بعد وفاته عنهم فيما حذَّرهم من الوقوع فيه، وما أنذرهم عليه الحرمان من الجنة والانتهاء إلى النار. ونسوا قول المسيح ـ عليه السلام ـ: **﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾**..

---

(١)، (٢) نقلاً عن كتاب «محاضرات في النصرانية» للأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة.

http://al-maktabeh.com

حيث أعلن لهم أنه هو وهم في العبودية سواء، لربوبية الله الواحد الذي ليس له من شركاء.

ويستوفي القرآن الحكم على سائر مقولاتهم الكافرة: ﴿**لقد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة**﴾..

ويقرر القرآن الحقيقة التي تقوم عليها كل عقيدة جاء بها رسول من عند الله: ﴿**وما من إله إلا إله واحد**﴾..

ويهددهم عاقبة الكفر الذي ينطقون به ويعتقدونه: ﴿**وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم**﴾..

والكافرون هم الذين لا ينتهون عن هذه المقولات التي حكم عليها بالكفر الصراح.

ثم أردف التهديد والوعيد بالتحضيض والترغيب: ﴿**أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم**﴾..

ليبقي لهم باب التوبة مفتوحاً؛ وليطمعهم في مغفرة الله ورحمته، قبل فوات الأوان....

ثم واجههم بالمنطق الواقعي القويم، لعله يَردّ فطرتهم إلى الإدراك السليم. مع التعجيب من أمرهم في الانصراف عن هذا المنطق بعد البيان والإيضاح:

﴿**ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأُمه صدِّيقة، كانا يأكلان الطعام. أُنظر كيف نبين لهم الآيات. ثم انظر أنى يؤفكون..**﴾.

وأكل الطعام مسألة واقعية في حياة المسيح ـ عليه السلام ـ وأُمه الصديقة. وهي خصيصة من خصائص الأحياء الحادثين، ودليل على بشرية المسيح وأمه ـ أو على ناسوته بتعبيرهم اللاهوتي ـ فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لا مراء فيها. ولا يكون إلهاً مَن يحتاج إلى الطعام ليعيش. فالله حي

بذاته، قائم بذاته، باق بذاته، لا يحتاج، ولا يدخل إلى ذاته ـ سبحانه ـ أو يخرج منها شيء حادث كالطعام. .

ونظراً لوضوح هذا المنطق الواقعي ونصاعته التي لا يجادل فيها إنسان يعقل، فإنه يعقب عليه باستنكار موقفهم والتعجيب من انصرافهم عن ذلك المنطق البين: ﴿**انظر كيف نبين لهم الآيات، ثم انظر أنّى يؤفكون**﴾. .

ولقد كانت هذه الحياة البشرية الواقعية للمسيح ـ عليه السلام ـ مصدر تعب لِمَن أرادوا تأليهه ـ على الرغم من تعاليمه ـ فقد احتاجوا إلى كثير من الجدل والخلاف حول لاهوتية المسيح ـ عليه السلام ـ وناسوتيته كما ذكرنا.

واستطراداً في ذلك المنطق القرآني المبين من زاوية أخرى يجيء هذا الاستنكار:

﴿**قل: أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً؛ والله هو السميع العليم**﴾؟. .

ويختار التعبير بكلمة «بما» بدل كلمة «من» في هذا الموضع قصداً. ليدرج «المخلوقات» التي تعبد كلها ـ بما فيها من العقلاء ـ في سلك واحد. لأنه يشير إلى ماهيتها المخلوقة الحادثة البعيدة عن حقيقة الألوهية. فيدخل عيسى، ويدخل روح القدس، وتدخل مريم، كلهم في «ما» لأنهم بماهيتهم من خلق الله. ويلقي هذا التعبير ظله كذلك في هذا المقام؛ فيبعد أن يكون أحد من خلق الله مستحقاً للعبادة؛ وهو لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً: ﴿**والله هو السميع العليم**﴾. .

الذي يسمع ويعلم، ومن ثم يضر وينفع. كما أنه هو الذي يسمع دعاء عبيده وعبادتهم إياه، ويعلم ما تُكنّه صدورهم وما يكمن وراء الدعاء والعبادة. . فأما ما سواه فلا يسمع ولا يعلم ولا يستجيب الدعاء.

ويُعقّب على هذا كله بدعوة جامعة، يكلف رسول الله ـ ﷺ ـ أن يوجهها إلى أهل الكتاب:

﴿قل: يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم ضلوا من قبل، وأضلوا كثيراً. وضلوا عن سواء السبيل﴾ [المائدة: ٧٧].

فمن الغلو[١] في تعظيم عيسى ـ عليه السلام ـ جاءت كل الانحرافات. ومن أهواء الحكام الرومان الذين دخلوا النصرانية بوثنيتهم، ومن أهواء المجامع المتناحرة كذلك دخلت كل تلك المقولات على دين الله الذي أرسل به المسيح، فَبلَّغه بأمانة الرسول، وهو يقول لهم: ﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم. إنه مَن يُشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة، ومأواه النار، وما للظالمين من أنصار﴾ [المائدة: ٧٢]..

وهذا النداء الجديد هو دعوة الإنقاذ الأخيرة لأهل الكتاب، ليخرجوا بها من خضم الانحرافات والاختلافات والأهواء والشهوات الذي خاض فيه أولئك الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل..

ونقف أمام هذا البيان القرآني أمام ثلاث حقائق كبيرة، يحسن الإلمام بها في إجمال:

الحقيقة الأولى: هي حقيقة هذا الجهد الكبير، الذي يبذله المنهج الإسلامي، لتصحيح التصور الاعتقادي، وإقامته على قاعدة التوحيد المطلقة؛ و تنقيته من شوائب الوثنية والشرك التي أفسدت عقائد أهل الكتاب، وتعريف الناس بحقيقة الألوهية؛ وإفراد الله ـ سبحانه ـ بخصائصها، وتجريد البشر وسائر الخلائق من هذه الخصائص..

وهذا الاهتمام البالغ بتصحيح التصور الاعتقادي، وإقامته على قاعدة التوحيد الكامل الحاسم، يدل على أهمية هذا التصحيح وأهمية التصور

(١) عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تطروني كما أُطْرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» إسناده صحيح على شرط الشيخين، رواه ابن حبان (٦٢٣٩) ورواه في الحديث المطول برقم (٤١٣) و(٤١٤) انظر الإحسان رقم (٤١٣، ٤١٤).

الاعتقادي في بناء الحياة الإنسانية وفي صلاحها، كما يدل على اعتبار الإسلام للعقيدة بوصفها القاعدة والمحور لكل نشاط إنساني، ولكل ارتباط إنساني كذلك.

والحقيقة الثانية: هي تصريح القرآن الكريم بِكُفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم؛ أو قالوا: إن الله ثالث ثلاثة: فلم يعد لمسلم ـ بعد قَول الله سبحانه ـ قَول. ولم يعد يحق لمسلم أن يعتبر أن هؤلاء على دين الله. والله ـ سبحانه ـ يقول: إنهم كفروا بسبب هذه المقولات.

وإذا كان الإسلام لا يُكره أحداً على ترك ما هو عليه مما يعتقده لاعتناق الإسلام، فهو في الوقت ذاته لا يُسمي ما عليه غير المسلمين ديناً يرضاه الله. بل يُصرح هنا بأنه كفر ولن يكون الكفر ديناً يرضاه الله.

والحقيقة الثالثة: المترتبة على هاتين الحقيقتين، أنه لا يمكن قيام وَلَاء وتَنَاصر بين أحد من أهل الكتاب هؤلاء وبين المسلم الذي يدين بوحدانية الله كما جاء بها الإسلام، ويعتقد بأن الإسلام في صورته التي جاء بها محمد ـ ﷺ ـ هو وحده «الدين» عند الله..

ومن ثم يصبح الكلام عن التناصر بين أهل «الأديان» أمام الإلحاد كلاماً لا مفهوم له في اعتبار الإسلام! فمتى اختلفت المعتقدات على هذا النحو الفاصل، لم يعد هناك مجال للالتقاء على ما سواها. فكل شيء في الحياة يقوم أولاً على أساس العقيدة.. في اعتبار الإسلام..

المشهد العظيم:

إن القرآن الكريم يلقي ببيانه لتصحيح العقيدة، وتقويم ما دَخَل عليها عند النصارى من انحرافات أخرجتها عن أصلها السماوي عند قاعدتها الأساسية. إذ أخرجتها من التوحيد المطلق الذي جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ كما جاء به كل رسول قبله، إلى ألوان من الشرك، لا علاقة لها أصلاً بدين الله.

ومن ثم فإن هذا البيان كذلك يستهدف تقرير حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ـ كما هي في التصور الإسلامي ـ تقرير هذه الحقيقة من خلال هذا المشهد العظيم الذي يعرضه؛ والذي يقرر فيه عيسى ـ عليه السلام ـ على مَلأ من الرسل، ومن البشر جميعاً، أنه لم يقل لقومه شيئاً مما زعموه من أُلوهيته ومن تَأْليه أُمه؛ وأنه ما كان له أن يقول من هذا الشرك كله شيئاً!

والسياق القرآني يعرض هذه الحقيقة في مشهد تصويري من «مشاهد القيامة» التي يعرضها القرآن الكريم عرضاً حياً ناطقاً، موحياً مؤثراً، عميق التأثير، يهتز له الكيان البشري وهو يتلقاه كأنما يشهده لِلحظة في الواقع المنظور. الواقع الذي تراه العين، وتسمعه الأذن. وتتجلى فيه الانفعالات والسمات النابضة بالحياة.

فها نحن أولاء أمام المشهد العظيم:

﴿يوم يجمع الله الرسل، فيقول ماذا أُجبْتم؟ قالوا: لا علم لنا إنك أنت علاّم الغيوب﴾ [المائدة: ١٠٩]. .

يوم يجمع الله الرسل الذين فرّقهم في الزمان فتتابعوا على مداره؛ وفرّقهم في المكان فذهب كل إلى قريته؛ وفرّقهم في الأجناس فمضى كل إلى قومه. . يدعون كلهم بدعوة واحدة على اختلاف الزمان والمكان والأقوام؛ حتى جاء خاتمتهم ـ ﷺ ـ بالدعوة الواحدة لكل زمان ومكان وللناس كافة من جميع الأجناس والألوان. .

هؤلاء الرسل إلى شتى الأقوام، في شتى الأمكنة والأزمان. . ها هو ذا مُرسلهم فرادى، يجمعهم جميعاً؛ ويجمع فيهم شتى الاستجابات، وشتى الاتجاهات. وها هم أولاء. . نقباء البشرية في حياتها الدنيا؛ ومعهم رسالات الله إلى البشرية في شتى أرجائها، ووراءهم استجابات البشرية في شتى أعصارها. هؤلاء هم أمام الله. . ربّ البشرية ـ سبحانه ـ في مشهد يوم عظيم.

وها هو ذا المشهد ينبض بالحياة: ﴿يوم يجمع الله الرسل. فيقول: ماذا أُجبتم؟﴾.

﴿ماذا أُجبتم؟﴾.. فاليوم الحصيلة، ويضم الشتات، ويقدم الرسل حساب الرسالات، وتعلن النتائج على رؤوس الأشهاد.

﴿ماذا أُجبتم؟﴾.. والرسل بشر من البشر، لهم علم ما حَضَر، وليس لديهم علم ما استتر.

لقد دعوا أقوامهم إلى الهدى؛ فاستجاب منهم مَن استجاب، وتولى منهم مَن تولى.. وما يعلم الرسول حقيقة مَن استجاب إن كان يعرف حقيقة مَن تولى. فإنما له ظاهر الأمر وعِلْم ما بَطَن للّه وحده.. وهم في حضرة الله الذي يعرفونه خير مَن يعرف؛ والذي يهابونه أشد مَن يهاب؛ والذين يستحيون أن يدلوا بحضرته بشيء من العلم وهم يعلمون أنه العليم الخبير..

إنه الاستجواب المرهوب في يوم الحشر العظيم، على مشهد من الملأ الأعلى، وعلى مشهد من الناس أجمعين. الاستجواب الذي يُراد به المواجهة.. مواجهة البشرية بِرُسلها؛ ومواجهة المكذبين من هذه البشرية خاصة برسلهم الذين كانوا يُكذبونهم. ليعلن في موقف الإعلان، أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاءوهم من عند الله بدين الله؛ وها هم أولاء مسؤولون بين يديه ـ سبحانه ـ عن رسالاتهم وعن أقوامهم الذين كانوا من قبل يكذبون.

أما الرسل فهم يعلنون أن العلم الحق للّه وحده؛ وأن ما لديهم من علم لا ينبغي أن يدلوا به في حضرة صاحب العلم، تأدباً وحياء، ومعرفة بقدرهم في حضرة الله: ﴿قالوا: لا عِلْم لنا. إنك أنت علّام الغيوب﴾.

فأما سائر الرسل ـ غير عيسى عليه السلام ـ فقد صَدَّق بهم مَن صدّق، وقد كفر بهم مَن كفر؛ ولقد انتهى أمرهم بهذا الجواب الكامل الشامل، الذي يدع العلم كله للّه، ويدع الأمر كله بين يديه سبحانه.. فما يزيد السياق شيئاً في هذا المشهد عنهم.. إنما يلتفت بالخطاب إلى عيسى بن مريم وحده، لأن

عيسى بن مريم هو الذي فُتن قومه فيه، وهو الذي غَام الجوّ حوله بالشُبهات، وهو الذي خاض ناس في الأوهام والأساطير حول ذاته، وحول صفاته، وحول نشأته ومنتهاه.

يلتفت الخطاب إلى عيسى بن - مريم - على الملأ ممن أَلَّهوه وعَبَدوه وصاغوا حوله وحول أُمه - مريم - التهاويل.. يلتفت إليه يُذكره نعمة الله عليه وعلى والدته؛ ويستعرض المعجزات التي آتاها الله إياه ليصدق الناس برسالته، فكذَّبه مَن كَذَّبه منهم أشد التكذيب وأقبحه؛ وفُتِنَ به وبالآيات التي جاءت معه مَن فُتن؛ وألَّهوه مع الله من أجل هذه الآيات، وهي كلها من صُنع الله الذي خَلَقه وأرسله وأيده بالمعجزات:

﴿**وإذ قال الله: يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك. إذ أيدتك بروح القدس، تُكَلّم الناس في المهد وكهلاً. وإذ عَلّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني. وتُبرىء الأَكْمه والأبرص بإذني. وإذ تُخرج الموتى بإذني. وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم: إن هذا إلا سحر مبين. وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي، قالوا: آمنا واشهد بأننا مسلمون**﴾ [المائدة: ١١٠ - ١١١].

إنها المواجهة بما كان من نِعَم الله على عيسى بن مريم وأُمه.. من تأييده بروح القدس في مَهده، وهو يكلم الناس في غير موعد الكلام؛ يُبرّىء أُمه من الشُبهة التي أثارتها ولادته على غير مثال؛ ثم وهو يكلمهم في الكهولة يدعوهم إلى الله.. وروح القدس جبريل - عليه السلام - يُؤيده هنا وهناك.. ومن تعليمه الكتاب والحكمة؛ وقد جاء إلى هذه الأرض لا يعلم شيئاً، فعلّمه الكتابة وعلّمه كيف يحسن تصريف الأمور، كما علّمه التوراة التي جاء فوجدها في بني إسرائيل، والإنجيل الذي آتاه إياه مُصدقاً لما بين يديه من التوراة. ثم من إيتائه خارق المعجزات التي لا يَقدر عليها بشر إلا بإذن الله.

فإذا هو يُصوّر من الطين كهيئة الطير بإذن الله؛ فينفخ فيها فتكون طيراً

بإذن الله ـ لا ندري كيف لأننا لا ندري إلى اليوم كيف خَلَق الله الحياة، وكيف يبث الحياة في الأحياء ـ وإذا هو يبرىء المولود أعمى ـ بـإذن الله ـ حيث لا يعرف الطب كيف يرد إليه البصر ـ ولكن الله الذي يهب البصر أصلاً قادر على أن يفتح عينيه للنور ـ ويُبرىء الأبرص بإذن الله، لا بدواء ـ والدواء وسيلة لتحقيق إذْن الله في الشفاء، وصاحب الإذن قادر على تغيير الوسيلة، وعلى تحقيق الغاية بلا وسيلة ـ وإذا هو يحيي الموتى بإذن الله ـ وواهب الحياة أول مرة قادر على رجعها حين يشاء ـ ثم يُذكره بنعمة الله عليه في حمايته من بني إسرائيل إذ جاءهم بهذه البينات كلها فكذبوه وزعموا أن معجزاته هذه الخارقة سحر مبين! ذلك أنهم لم يستطيعوا إنكار وقوعها ـ وقد شهدتها الألوف ـ ولم يريدوا التسليم بدلالتها عناداً وكبراً . . حمايته منهم فلم يقتلوه ـ كما أرادوا ولم يصلبوه. بل تَوفّاه الله ورفعه إليه. . كذلك يُذَكّره بنعمة الله عليه في إلهام الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله؛ فإذا هم مُلَبُّون مستسلمون، يُشهدونه على إيمانهم وإسلامهم أنفسهم كاملة لله:

﴿وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي. قالوا: آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ . .

إنها النعم التي آتاها الله عيسى بن مريم، لتكون له شهادة وبَيّنة. فإذا كثرة من أتباعه تتخذ منها مادة للزيغ؛ وتصوغ منها وحولها الأضاليل ـ فها هو ذا عيسى يُواجَه بها على مشهد من الملأ الأعلى، ومن الناس جميعاً، ومنهم قومه الغالون فيه. . ها هو ذا يواجَه بها ليسمع قومه ويَروا؛ وليكون الخزي أوجع وأفضح على مشهد من العالمين!

قصة المائدة:

والقرآن الكريم يُذكر بنعمة من نِعَم الله على قوم عيسى ـ عليه السلام ـ ومن مُعجزاته التي أيَّده الله بها وشهدها وشهد بها الحواريون:

﴿إذ قال الحواريون: يا عيسى بن مريم، هل يستطيع ربك أن ينزل

علينا مائدة من السماء؟ قال: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ [المائدة: ١١٢].

ويكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى.. المُسْتَخْلَصين منهم وهم الحواريون.. فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا - ﷺ - فرق بعيد..

إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى. فآمنوا. وأَشْهَدُوا عيسى على إسلامهم.. ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا، يطلبون خارقة جديدة. تطمئن بها نفوسهم. ويعلمون منها أنه صَدَقهم. ويشهدون بها له لَمن وراءهم.

فأما أصحاب محمد - ﷺ - فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم.. لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان. ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان. ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن..

هذا هو الفارق الكبير بين حواريي عيسى - عليه السلام - وحواريي محمد - ﷺ - ذلك مستوى، وهذا مستوى.. وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون.. وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون.. ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله..

وقصة المائدة - كما أوردها القرآن الكريم - لم ترد في كتب النصارى. ولم تُذكر في هذه الأناجيل التي كُتبت متأخرة بعد عيسى - عليه السلام - بفترة طويلة، لا يُؤْمَن معها على الحقيقة التي تنزّلت من عند الله.

وهذه الأناجيل ليست إلا رواية بعض القديسين عن قصة عيسى - عليه السلام - وليست هي ما أنزله الله عليه وسماه الإنجيل الذي آتاه..

ولكن ورد في هذه الأناجيل خبر عن المائدة في صورة أخرى: فَوَرَد في إنجيل متّى في نهاية الإصحاح الخامس عشر: «وأما يسوع فدعا تلاميذه، وقال: إني أشفق على الجميع، لأن لهم الآن ثلاثة أيام يمشون معي، وليس لهم ما يأكلون. ولست أريد أن أصرفهم صائمين لئلا يخوروا في الطريق. فقال له

تلاميذه: من أين لنا في البرية خبز بهذا المقدار حتى يشبع جمعاً هذا عدده؟ فقال لهم يسوع: كم عندكم من الخبز؟ فقالوا: سبعة وقليل من صغار السمك. فأمر الجميع أن يتكئوا على الأرض؛ وأخذ السبع خبزات والسمك، وشكر وكسر، وأعطى تلاميذه، والتلاميذ أعطوا الجمع، فأكل الجمع وشبعوا، ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبعة سلال مملوءة، والآكلون كانوا أربعة آلاف، ما عدا النساء والأولاد»... وورد مثل هذه الرواية في سائر الأناجيل..

وبعض التابعين ـ رضوان الله عليهم ـ كمجاهد والحسن ـ يريان أن المائدة لم تنزل. لأن الحواريين حينما سمعوا قول الله سبحانه:

﴿إني منزلها عليكم فمَن يكفر بعد منكم فإني أُعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ [المائدة: ١١٥].. خافوا وكَفّوا عن طلب نزولها..

قال ابن كثير في التفسير: «روى الليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: «هو مثل ضَرَبه الله ولم ينزل شيء» (رواه ابن أبي حاتم وابن جرير). ثم قال ابن جرير: حدثنا الحارث، حدثنا القاسم ـ هو ابن سلام ـ حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال: مائدة عليها طعام أَبَوْهَا حين عرض عليهم العذاب إن كفروا، فأبوا أن تنزل عليهم..

وقال أيضاً؛ حدثنا أبو المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن منصور بن زاذان، عن الحسن، أنه قال في المائدة: إنها لم تنزل..

وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة، قال: كان الحسن يقول: لما قيل لهم: **﴿فمَن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾** قالوا: لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل».

ولكن أكثر آراء السلف على أنها نزلت. لأن الله تعالى قال: **﴿إني منزلها عليكم﴾**. وَوَعْد الله حق. وما أورده القرآن الكريم عن المائدة هو الذي نعتمده في أمرها دون سواه..

لقد كان الحواريون ـ وهم تلامذة المسيح وأقرب أصحابه إليه وأعرفهم

به ـ يعرفون أنه بشر. . ابن مريم. . وينادونه بما يعرفونه عنه حق المعرفة. وكانوا يعرفون أنه ليس رباً وإنما هو عبد مربوب للّه. وأنه ليس ابن الله، إنما هو ابن مريم ومن عبيد الله؛ وكانوا يعرفون كذلك أن ربه هو الذي يصنع تلك المعجزات الخوارق على يديه، وليس هو الذي يصنعها من عند نفسه بقدرته الخاصة. . لذلك حين طلبوا إليه، أن تُنَزّل عليهم مائدة من السماء، لم يطلبوها منه، فهم يعرفون أنه بذاته لا يقدر على هذه الخارقة. وإنما سألوه:

﴿يا عيسى بن مريم، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟﴾ [المائدة: ١١٢].

واختلفت التأويلات في قولهم: «هل يستطيع ربك». . كيف سألوا بهذه الصيغة بعد إيمانهم بالله وإشهاد عيسى ـ عليه السلام ـ على إسلامهم له. وقيل: إن معنى يستطيع ليس (يقدر) ولكن المقصود هو لازم الاستطاعة وهو أن يُنزلها عليهم. وقيل: إن معناها: هل يستجيب لك إذا طلبت. وقُرئت: «هل تسطيع ربك». بمعنى هل تملك أنت أن تدعو ربك لينزل علينا مائدة من السماء. .

وعلى أية حال فقد رد عليهم عيسى ـ عليه السلام ـ مُحذراً إياهم من طلب هذه الخارقة. . لأن المؤمنين لا يطلبون الخوارق، ولا يقترحون على الله: **﴿قال: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾** [المائدة: ١١٢].

ولكن الحواريين كرروا الطلب، مُعلنين عن علته وأسبابه وما يرجون من ورائه:

﴿قالوا: نريد أن نأكل منها، وتطمئن قلوبنا، ونعلم أن قد صَدَقْتنا، ونكون عليها من الشاهدين﴾ [المائدة: ١١٣]. .

فهم يريدون أن يأكلوا من هذا الطعام الفريد الذي لا نظير له عند أهل الأرض. وتطمئن قلوبهم برؤية هذه الخارقة وهي تتحقق أمام أعينهم؛ ويستيقنوا أن عيسى ـ عليه السلام ـ قد صَدَقهم، ثم يكونوا مشهوداً لدى بقية

قومهم على وقوع هذه المعجزة. وكلها أسباب كما قلنا تُصوّر مُستوىً معيناً دون مستوى أصحاب محمد ـ ﷺ ـ فهؤلاء طراز آخر بالموازنة مع هذا الطراز!

عندئذ اتجه عيسى ـ عليه السلام ـ إلى ربه يدعوه:

﴿قال عيسى ابن مريم: اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا، وآية منك، وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ [المائدة: ١١٤]..

وفي دعاء عيسى ـ بن مريم ـ كما يكرر السياق القرآني هذه النسبة ـ أدب العبد المُجتبى مع إلهه ومعرفته بربه. فهو يناديه: يا الله. يا ربنا. إنني أدعوك أن تُنزل علينا مائدة من السماء، تعمنا بالخير والفرحة كالعيد، فتكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا؛ وأن هذا من رزقك فارزقنا وأنت خير الرازقين.. فهو إذن يعرف أنه عبد، وأن الله ربه. وهذا الاعتراف يُعرض على مشهد من العالمين، في مواجهة قومه، يوم المشهد العظيم!

واستجاب الله دعاء عبده الصالح عيسى بن مريم؛ ولكن بالجد اللائق بجلاله سبحانه.. لقد طلبوا خارقة. واستجاب الله. على أن يُعذّب مَن يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذاباً شديداً بالغاً في شدته لا يعذبه أحداً من العالمين:

﴿قال الله: إني مُنزلها عليكم، فمَن يكفر بعد منكم، فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ [المائدة: ١١٥]..

فهذا هو الجد اللائق بجلال الله؛ حتى لا يصبح طلب الخوارق تسلية ولهواً. وحتى لا يمضي الذين يكفرون بعد البرهان المفحم دون جزاء رادع!

وقد مضت سنّة الله من قبل بهلاك مَن يكذبون بالرسل بعد المعجزة.. فأما هنا فإن النص يحتمل أن يكون هذا العذاب في الدنيا، أو أن يكون في الآخرة.

الاستجواب الهائل:

يؤكد القرآن دوماً على القضية الأساسية.. قضية الألوهية والربوبية..

ونحن ما نزال في رهبة المشهد العظيم المعروض على أنظار العالمين.. وفي موقف مهيب: نسمع استجواباً مباشراً في هذه المرة في مسألة الألوهية المُدَّعاة لعيسى بن مريم وأُمه. استجواباً يُوجّه إلى عيسىٰ ـ عليه السلام ـ في مواجهة الذين عَبَدوه. ليسمعوه وهو يتبرأ إلى ربّه في دهش وفزع من هذه الكبيرة التي افتروها عليه وهو منها بريء:

﴿**وإذ قال الله: يا عيسى ابن مريم، أأنت قلت للناس: اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال: سبحانك: ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق. إن كنت قُلتُه فقد علمتَه، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علّام الغيوب**﴾ [المائدة: ١١٦]..

وإن الله ـ سبحانه ـ ليعلم ماذا قال عيسى للناس. ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب في اليوم العظيم المرهوب: الاستجواب الذي يقصد به إلى غير المسؤول؛ ولكن في صورته هذه وفي الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المُؤَلِّهين لهذا العبد الصالح الكريم[1]..

إنها الكبيرة التي لا يطيق بشر عادي أن يقذف بها.. أن يدّعي الألوهية وهو يعلم أنه عبد.. فكيف برسول من أُولي العزم؟ كيف بعيسى بن مريم؛ وقد أسلف الله له هذه النعم كلها بعدما اصطفاه بالرسالة وقبل ما اصطفاه؟ كيف به يواجه استجواباً عن ادعاء الألوهية، وهو العبد الصالح المستقيم؟

من أجل ذلك كان الجواب الواجف الراجف الخاشع المنيب.. يبدأ بالتسبيح والتنزيه: ﴿**قال: سبحانك!**﴾.

---

(١) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، وأن الجنة والنار حق، أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة الثمانية شاء».
أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، وأحمد ٣١٤/٥، وابن حبان بإسناد صحيح. انظر الإحسان (رقم ٢٠٧).

ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلاً: **﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾**.

ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته؛ مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته وخصائص ألوهية ربه:

﴿إن كنت قلتُه فقد علمتَه، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك. إنك أنت علاّم الغيوب﴾..

وعندئذ فقط، وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير فيما قاله وفيما لم يقله، فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يُعلن عبوديته وعبوديتهم للّه ويدعوهم إلى عبادته:

﴿ما قلت لهم إلا ما أمَرْتَني به: أن اعبدوا الله ربي ربكم﴾ [المائدة: ١١٧]..

ثم يُخلّي يده منهم بعد وفاته.. وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله ـ سبحانه ـ قد تَوفّى عيسى بن مريم ثم رفعه إليه[(١)]. وبعض الآثار تفيد أنه

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «رأيتُني الليلة عند الكعبة، فرأيتُ رجلاً آدم كأحسن ما أنتَ راء من أُدْمِ الرجال، له لِمَّة كأحسن ما أنتَ راء من اللِّمَم، قد رَجَّلَها، فهي تقطر ماءً، مُتكئاً على رَجُلين أو على عواتق رَجُلين، يطوف بالبيت، فسألتُ: مَن هذا؟ فقالوا: عيسى ابن مريم». أخرجه البخاري (٥٩٠٢) و(٦٩٩٩)، ومسلم (١٦٩)، وابن حبان (انظر الإحسان ٦٢٣١).

واللمة: بكسر اللام وتشديد الميم، وجمعها لمم كقربة وقُرب. قال الجوهري: ويجمع على لِمام يعني بالكسر وهو الشعر المتدلي الذي جاوز شحمة الأذنين، فإذا بلغ المنكبين فهمه جمة.

وأما رجّلها فهو بتشديد الجيم ومعناه سرّحها بمشط مع ماء أو غيره. وأما قوله ـ ﷺ ـ «يقطر ماء» فقد قال القاضي عياض: يحتمل أن يكون على ظاهره أي يقطر بالماء الذي رجّلها به لقرب ترجيله وإلى هذا نحا القاضي الباجي.

قال القاضي عياض ومعناه عندي أن يكون ذلك عبارة عن نضارته وحسنه واستعارة لجماله.

وأما العواتق فجمع عاتق. قال أهل اللغة: هو ما بين المنكب والعنق. =

حي عند الله[1]. وليس هناك ـ فيما أرى ـ أي تعارض يثير أي استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حياً عنده. فالشهداء كذلك يموتون في الأرض وهم أحياء عند الله. أما صورة حياتهم عنده فنحن لا ندري لها كيفاً. وكذلك صورة حياة عيسى ـ عليه السلام ـ وهو هنا يقول لربه: إنني لا أدري ماذا كان منهم بعد وفاتي:

﴿وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم، فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ [المائدة: ١١٧]..

وينتهي إلى التفويض المطلق في أمرهم؛ مع تقرير عبوديتهم للّه وحده. وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم؛ وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب:

﴿إن تُعذِّبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [المائدة: ١١٨]..

= وأما طواف عيسى ـ عليه السلام ـ فقال القاضي عياض رحمه الله: إن كانت هذه رؤيا عين فعيسى حيٌّ لم يمت يعني فلا امتناع في طوافه حقيقة. وإن كان مناماً فهو كما نبَّه عليه ابن عمر رضي الله عنهما في روايته. (النووي في «شرح مسلم» ٤/٢٣٣ ـ ٢٣٤).

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ليلة أسري بي... لقيت عيسى، فإذا رجل أحمر، كأنه خرج من ديماس...» يعني من حمام. قال الحافظ: المراد من ذلك وصفه بصفاء اللون، ونضارة الجسم، وكثرة ماء الوجه.

أخرجه ابن حبان بإسناد صحيح. انظر الإحسان (رقم ٥١)، وانظر الفتح (٦/٤٨٤).

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «عُرِضَ عليَّ الأنبياء،... ورأيت عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ فإذا أقربُ الناس وأشدُّه شبهاً عروة بن مسعود» أخرجه مسلم (١٦٧)، وأحمد، والترمذي، وابن حبان، انظر الإحسان (رقم ٦٢٣١).

وفي رواية لمسلم في حديث الإسراء: «ورأيتُ عيسى ابنَ مريمَ مربوع الخَلْق إلى الحُمرَةِ والبياض سَبطَ الرأس».

وفي قوله ـ ﷺ ـ «مربوع» فقال أهل اللغة هذا الرجل بين الرجلين في القامة ليس بالطويل البائن ولا بالقصير الحقير. والسبط: بفتح الباء وكسرها لغتان مشهورتان ويجوز إسكان الباء مع كسر السين وفتحها على التخفيف كما في كتف وبابه. قال أهل اللغة: الشعر السبط: هو المسترسل ليس فيه تكسر «شرح مسلم ٢/٢٢٧».

فيا لله للعبد الصالح في موقفه الرهيب!

وأين أولئك الذين أطلقوا هذه الفرية الكبيرة؛ التي يتبرأ منها العبد الطاهر البريء ذلك التبرؤ الواجف، ويبتهل من أجلها إلى ربه هذا الابتهال المنيب؟

أين هم في هذا الموقف، في هذا المشهد؟.. إن السياق لا يُلقي إليهم التفاتة واحدة. فلعلهم يتذاوبون خِزياً ونَدَماً. فلندعهم حيث تركهم السياق! لنشهد ختام المشهد العجيب:

﴿قال الله: هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم. لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك الفوز العظيم﴾ [المائدة: ١١٩].

هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم.. إنه التعقيب المناسب على كذب الكاذبين؛ الذين أطلقوا تلك الفرية الضخمة على ذلك النبي الكريم.. في أعظم القضايا كافة.. قضية الألوهية والعبودية، التي يقوم على أساس الحق فيها هذا الوجود كله وما فيه ومَن فيه..

هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم.. إنها كلمة رب العالمين، في ختام الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين..

وهي الكلمة الحاسمة في القضية. ومعها ذلك الجزاء الذي يليق بالصدق والصادقين.. درجات بعد درجات.. الجنات والخلود ورضا الله ورضاهم بما لقوا من ربهم من التكريم.

ولقد شهدنا المشهد ـ من خلال العرض القرآني له بطريقة القرآن الفريدة ـ وسمعنا الكلمة الأخيرة.. شهدنا وسمعنا لأن طريقة التصوير القرآنية لم تَدَعه وَعْداً يوعد، ولا مُستقبلاً يُنتظر؛ ولم تدعه عبارات تسمعها الآذان أو تقرؤها العيون. إنما حركت به المشاعر، وجَسَّمته واقعاً لِلَّحظة تسمعه الآذان وتراه العيون..

على أنه إن كان بالقياس إلينا ـ نحن البشر المحجوبين ـ مُستقبلاً ننتظره يوم الدين، فهو بالقياس إلى علم الله المُطلق، واقع حاضر، فالزمن وحجابه إنما هما من تصوراتنا نحن البشر الفانين. .

وفي نهاية هذا البيان، وفي مواجهة الفرية الكبرى التي لم يَفْتَرِ أضخم منها قط أتباع رسول! في مواجهة الفرية الكبرى التي أطلقها أتباع المسيح عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ فرية ألوهيته؛ الفرية التي تبرأ منها هذا التبرؤ، وفَوّض ربه في أمر قومه بشأنها هذا التفويض. .

في مواجهة هذه الفرية، وفي نهاية هذا البيان القرآني الذي عرض ذلك الاستجواب الرهيب عنها، في ذلك المشهد العظيم. . يجيء الإيقاع الأخير في هذا البيان؛ يعلن تفرد الله ـ سبحانه ـ بملك السموات والأرض وما فيهن، وقدرته ـ سبحانه ـ على كل شيء بلا حدود:

﴿لِلّه ملك السموات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير﴾ [المائدة: ١٢٠]. .

ختام يتناسق مع تلك القضية الكبرى التي أطلقت حولها تلك الفرية الضخمة، ومع ذلك المشهد العظيم الذي يتفرد الله فيه بالعلم، ويتفرد بالألوهية، ويتفرد بالقدرة، وينيب إليه الرسل؛ ويُفَوّضون إليه الأمر كله؛ ويفوض فيه عيسى بن مريم أمره وأمر قومه إلى العزيز الحكيم. الذي له ملك السموات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير. .

هذه قصة عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ وهي ترد وروداً أساسياً في ثمانية مواضع في القرآن الكريم، وآخر حلقة منها تعرض في سورة المائدة (السورة ١١٢ حسب ترتيب النزول) على النحو التالي: **﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم: أأنت قلتَ للناس اتخذوني وأُمي إلهين من دون الله. . .﴾** إلى ختام الآيات كما تقدّم بيانه. .

فهذا الختام هو ختام ديني وختام فني في آن واحد، لقصة كقصة عيسى. مولده عجيب، وعن هذا المولد نشأت شبهات تأليهه. وحول هذه النقطة

المعقدة ثارت المشكلات. فها هو ذا في اللحظة الأخيرة أمام خالقه يعترف بعبوديته، ويشهد بما قاله لقومه. ويُفوض الأمر فيهم إلى الله العزيز الحكيم.

الفن يقتضي هذا الختام حين تساق القصة مساقها في القرآن(١).

وبعد ، فقد «امتُحنت المسيحية في عهدها الباكر - أي في منتصف القرن الأول المسيحي - بتحريف لا يوجد له نظير في تاريخ الديانات في عهدها الأول، فقد انتقلت من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من الأفكار اليونانية والبوذية وذلك على يد داعيها الكبير وبطلها العظيم بولس Pauls (١٠ - ٦٥ م) وكان هذا الانتقال أشبه بقفزة من روح إلى روح، ومن وضع إلى وضع، ومن نظام إلى نظام، لا يشارك الثاني إلا في الإسم وبعض الطقوس، ويتحدث عنه عالم مسيحي (Ernest de Bunsen) فيقول:

(إن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله. إن مردّ النزاع القائم بين المسيحيين اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس، ذلك المارق اليهودي والمسيحي، وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم والتمثيل، وملئه هذه الصحف بالنبوآت والأمثلة.

إن بولس في تقليده لأسطفانوس واضع ذلك المزيج من الأحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوي عليها الإنجيل اليوم، والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ أصلاً، ليس المسيح بل بولس، والذي جاءوا بعده من الأحبار والرهبان هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الديني الذي تلقاه العالم المسيحي كأساس للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً)(٢).

وبقيت المسيحية قروناً طوالاً - ولا تزال - تحمل روح بولس وتحافظ على

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ١٤٤.

(٢) Islam of True christianity, p. 128

تراثه، ولم يظهر في العالم المسيحي في هذه المدة الطويلة مَن يثـور على هـذا الوضع الطارىء الدخيل على المسيحية ويحاول نقلها إلى وضعها الأول الذي ترك عليه سيدنا المسيح خلفاءه والمخلصين من أتباعه، وانسلخت قرون بعد قرون، ومضت أجيال إثر أجيال ولم يظهر الرجل المنتـظر لتجديـد المسيحية وتجريدها من الأجزاء الأجنبية، حتى كان القرن الخامس عشر المسيحي فظهر مارتن لوثر (Martin Luther) في ألمانيا وقام بإصلاح محدود قاصر ينحصر في مسائل جزئية، وعارض بضع عقائد ألحت عليها الكنيسة النصرانية، ولم يكن إصلاحاً جوهرياً شاملاً، ولا ثورة ضد اتجاه المسيحية المنحرف الطويل، ثم لم يخلفه رجل في العالم المسيحي يرفع صوته ضد انحرافات الكنيسة واعتلاءاتها ويقوم بمثل الدور الذي قام به لوثر على ضعفه.

وظلت المسيحية تمشي على الدرب الذي فُرض عليها، وضعف تـأثير الكنيسة وانحلّ سلطانها في العهـد الأخير، وقـامت دولة المـادية في أوربـا، وأصبحت الديانة الحقيقية التي خلفت المسيحية، وخلفت كل ديانة في هذا العالم الغربي، فلم يظهر في الأوساط المسيحية مَن يحارب هذه المادية، ويعيد المسيحية إلى مركزها في الحياة، أو يوجد الثقة في المسيحيين بديانتهم، وينشىء فيهم القوة الروحيـة والخلقية التي يقـاومون بهـا إغراءات المـادية القـاهرة، ويتظاهرون بحياة فاضلة تقوم على العلم والأخلاق، ويواجهـون معضلات العصر وأزماته، ويحاولون حَلَّها في ضوء الدين، وبالعكس من ذلك نرى أن المفكرين والمؤلفين المسيحيين في أوربا يائسون من مُستقبل المسيحية، ومصابون بمركب نقص أمام المادية اللادينية»[1].

صورة وضيئة:

ويمضي القرآن في جولة أخرى تَعرض صورة من استقامة الطبع وخلوص النية. تتجلى هذه الصورة في فريق من الذين أوتوا الكتاب: **﴿والذين آتيناهم**

---

(١) أبو الحسن الندوي: الحاجة إلى الإصلاح والتجديد، مجلة المسلمون المجلد الخامس، العدد الأول ص ١٤.

الكتاب يفرحون بما أُنزل إليك﴾ [الرعد: ٣٦]. .

إن الفريق الصادق من أهل الكتاب في الاستمساك بدينه، يجد في هذا القرآن مصداق القواعد الأساسية في عقيدة التوحيد؛ كما يجد الاعتراف بالديانات التي سبقته وكُتبها، ودَرَسَها مع الإكبار والتقدير، وتصور الأصرة الواحدة التي تربط المؤمنين بالله جميعاً. فمن ثم يفرحون ويؤمنون. والتعبير بالفرح هنا حقيقة نفسية في القلوب الصافية وهو فرح الالتقاء على الحق، وزيادة اليقين بصحة ما لديهم ومؤازرة الكتاب الجديد له. .

ويقرر القرآن في معرض حديثه عن أهل الكتاب أن فريقاً منهم يؤمن إيمان المسلمين، وقد انضم إلى موكب الإسلام معهم. وسار سيرتهم. وله كذلك جزاؤهم:

﴿وإن من أهل الكتاب لَمَن يؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أُنزل إليهم. خاشعين للّه، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً. أولئك لهم أجرهم عند ربهم. إن الله سريع الحساب﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وهكذا وفي معرض الإيمان يذكر القرآن أن من أهل الكتاب مَن سلكوا الطريق، وانتهوا إلى النهاية. فآمنوا بالكتاب كله، ولم يُفرقوا بين الله ورسله، ولم يُفرقوا بين أحد من رسله. آمنوا بما أُنزل إليهم من قَبل، وآمنوا بما أُنزل للمسلمين ـ وهذه سمة هذه العقيدة التي تنظر إلى موكب الإيمان نظرة القُرب والود؛ وتنظر إلى خط العقيدة موصولاً بالله، وتنظر إلى منهج الله في وحدته وكليته الشاملة، ويبرز من سمات المؤمنين من أهل الكتاب: سمة الخشوع للّه وسمة عدم شرائهم بآياته ثمناً قليلاً. . لِيفرّقهم بهذا من صفوف أهل الكتاب، وسمتهم الأصيلة هي التبجُّح وقلة الحياء من الله. ثم التزوير والكتمان لآيات الله، لقاء أعراض الحياة الرخيصة.

ويرسم القرآن الكريم مشهداً موحياً يلمس الوجدان عن هذا الفريق الصادق من أهل الكتاب:

﴿قُل آمنوا به أو لا تُؤمنوا، إن الذين أُوتوا العلم من قبله إذا يُتلى

عليهم يخرون للأذقان سُجّداً، ويقولون: سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً؛ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩]. .

وهو مشهد موح يلمس الوجدان. مشهد الذين أوتوا العلم من قَبله، وهم يسمعون القرآن، فيخشعون ﴿ويخرون للأذقان سُجداً﴾ إنهم لا يتمالكون أنفسهم، فهم لا يسجدون ولكن ﴿يخرّون للأذقان سجداً﴾ ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وَعْده: ﴿سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾. ويغلبهم التأثر فلا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم منه، فإذا الدموع تنطلق مُعبّرة عن ذلك التَأَثُّر الغامر الذي لا تصوره الألفاظ: ﴿ويخرون للأذقان يبكون﴾ . . ﴿ويزيدهم خشوعاً﴾ فوق ما استقبلوه به من خشوع.

إنه مشهد مُصوّر لحالة شعورية غامرة، يرسم تأثير هذا القرآن في القلوب المُتَفَتّحة لاستقبال فيضه؛ العارفة بطبيعته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله. والعلم المقصود هو ما أنزله الله من الكتاب قبل القرآن، فالعلم الحق هو ما جاء من عند الله. .

لقد احتوى القرآن آيات عديدة مكية ومدنية نَوَّهت بالذين أُوتوا العلم والكتاب وبتصديقهم النبي والقرآن واعتناق الإسلام وإعلان انطباق ما جاء فيه على ما عندهم، وهذا يسوغ القول أن النصارى الذين احتَكُّوا بالنبي ـ ﷺ ـ في مكة والمدينة زُوَّاراً ووفوداً قد وجدوا في ما قرره القرآن عن شخصية عيسى تفسيراً معقولاً صحيحاً، فكان ذلك سبباً في استجابتهم للدعوة باندفاع وفرح وخشوع وتأييدهم لها. بل إن ما قيَّدَه التاريخ من مسارعة كثير من النصارى في بلاد الشام والعراق ومصر في أدوار الفتح الإسلامي الأول إلى اعتناق الإسلام عن طيبة خاطر ما يمكن أن يكون قرينة على هذا أيضاً[1].

---

(١) انظر «من سورة مريم» لعزة دروزة، مجلة المسلمون ٧/٨٥٥.

ويذكر كتاب الله صفة بارزة من صفات الذين اتبعوا عيسى بن مريم: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾.. وهو الثمرة الطبيعية لدعوة المسيح ـ عليه السلام ـ وروحها السمحة وتطهرها الروحي، وشفافيتها الوضيئة والرأفة والرحمة ظاهرة واضحة في المؤمنين حقيقة برسالة عيسى ـ عليه السلام ـ ممن أحسنوا اتباعه. وقد أشارت إليها الآيات القرآنية التي تقدمت والتي ستأتي في هذا الفصل، كما حفظ منها التاريخ صوراً يرويها الرواة عن النجاشي وعن وفد نجران وعن أفراد ممن وفدوا على دار الإسلام راغبين في الإسلام، بحكم ما استقر في قلوبهم من الحق، مذ كانوا أتباع عيسى بن مريم بحق.

يقول الإمام الذهبي في ترجمة النجاشي في سير أعلام النبلاء[1]: «عن أم سلمة زوجِ النبي ـ ﷺ ـ قالت: لما نزلنا أرضِ الحبشة جاورنا بها خيرَ جار النجاشي، أَمِنَّا على ديننا، وعَبَدنا الله تعالى لا نُؤْذَى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يُهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بِطريقاً إلا أهدوا إليه هديةً، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص السهمي، وأَمَروهما أَمْرهم، وقالوا لهم: ادفعوا إلى كل بطريق هديتَه قبل أن تُكلموا النجاشي فيهم، ثم قَدِّموا له هداياه، ثم سَلوه أن يُسلمهم إليكم قبل أن يُكلمهم. قالت: فخرجا، فقدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار. فلم يبقَ من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديتَه، وقالا له: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقُوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يُسلمهم إلينا ولا يُكلمهم، فإن قومَهم أعلى بهم عيناً وأعلمُ بما عابوا عليهم،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/٤٢٨، وتهذيب السير ١/٤٢ ـ ٤٤، رقم ٩١.

فقالوا لهم: نعم، ثم إنهما قرّبا هدايا النجاشيّ، فقبلها منهم، ثم كلّماه، فقالا له: أيها الملك؛ إنه ضوى إلى بلدك منّا غِلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مُبتدَع لا نعرفه نحنُ ولا أنت، وقد بَعَثَنا إليكَ أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلمُ بما عابوا عليهم فيه. قالت: ولم يكن شيء أبغضَ إلى عبد الله، وعمرو مِن أن يسمع النجاشيّ كلامهم. فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك، فَأَسْلِمهم إليهما، فغضب النجاشي، ثم قال: لا ها الله إذاً لا أُسلمهم إليهما، ولا أُكاد قوماً جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على مَن سواي حتى أدعوهم فأسألهم. ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله فدعاهم، فلما جاءهم رسوله، اجتمعوا، ثم قال بعضُهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما عَلِمْنا، وما أَمَرنا به نبيُّنا ـ ﷺ ـ كائناً في ذلك ما كان. فلما جاءوه، وقد دعا النجاشي أساقِفَته، فنشروا مصاحفهم حولَه، سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ قالت: وكان الذي يُكلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، إنا كنا قوماً أهل جاهلية: نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطعُ الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نَسَبه وصِدقه وأمانَته وعفافه، فدعانا إلى الله لِنُوَحّده ونعبُده، ونخلع ما كنا نعبدُ وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأَمَرنا أن نعبدَ الله لا نُشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ قالت: فعدَّد له أمور الإسلام ـ فصدَّقناه وآمنا به واتبعناه، فعدا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحلّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشَقُّوا علينا، وحالوا بيننا وبينَ ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على مَن سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قال: نعم. قال: فاقرأه عليَّ، فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص﴾. فبكى والله النجاشيُّ حتى أخضلَ لحيتَه، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تُلي عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرُج من مشكاة واحدة. انطلقا، فوالله لا أُسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد.

عن أبي بُردة عن أبيه قال: أمرنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن ننطلق مع جعفر إلى أرض النجاشيّ، فبلغ ذلك قريشاً، فبعثوا عمرواً وعمارة بن الوليد، وجمعوا للنجاشي هدية، فقدما عليه، وأتياه بالهدية، فقبلها وسجدا له، ثم قال عمرو: إنا ناساً من أرضنا رغبوا عن ديِّننا وهم في أرضك. قال: في أرضي؟ قال: نعم.

فبعث إلينا، فقال لنا جعفر: لا يتكلَّم منكم أحد أنا خطيبكم اليوم: فانتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلس عظيم، وعمرو عن يمينه، وعُمارة عن يساره، والقسِّيسون والرُّهبان جلوس سِماطين، وقد قال له عمرو: إنهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا، بدرنا مَنْ عنده أن اسجُدوا، قلنا: لا نسجد إلا للّه عز وجل، فلما انتهينا إلى النجاشي، قال: ما منعك أن تسجُدَ؟ قال: لا نسجُدُ إلا للّه. قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعثَ فينا رسولاً وهو الذي بشَّر به عيسى، فقال: يأتي من بعدي اسمُه أحمد، فأَمَرنا أن نعبد الله ولا نشركَ به شيئاً، ونقيمَ الصلاة، ونُؤتي الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهانا عن المنكر. فأعجب النجاشيّ قوله، فلما رأى ذلك عمرو، قال: أصلح الله الملك، إنهم يخالفونك في ابن مريم. فقال النجاشي لجعفر: ما يقول صاحبكم في ابن مريم؟ قال: يقول فيه قولَ الله: هو روح الله وكلمته. أخرجه من البتول العذراء التي لم يَقربها بشر، ولم يَفْرضها ولد.

فتناول عُوداً، فرفعه فقال: يا معشر القسيسين والرُّهبان! ما يزيد على ما تقولون في ابن مريم ما تَزِنُ هذه، مرحباً بكم وبمَن جئتم من عنده، فأنا أشهد

أنَّه رسول الله، وأنَّه الذي بَشَّر به عيسى، ولولا ما أنا فيه من المُلك[1] لأتيتُه حتى أُقَبِّل نعله، امكثوا في أرضي ما شئتم، وأَمَر لنا بطعام وكُسوة، وقال: ردُّوا على هذين هديتهما.

وهكذا تتجلى الصورة الوضيئة الصَادقة.. تتجلى هذه الصورة في فريق من الذين أوتوا الكتاب، وطريقة استقبالهم للقرآن المصدق لما بين أيديهم:

﴿الذين آتيناهم الكتاب من قَبله هم به يؤمنون، وإذا يُتلى عليهم قالوا: آمنا به، إنه الحق من ربنا، إنا كنا من قبله مسلمين...﴾ [القصص: ٥٢، ٥٣]..

قال سعيد بن جبير رضي الله عنه نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي، فلما قدموا على النبي ـ ﷺ ـ قرأ عليهم: ﴿يٓس والقرآن الحكيم﴾ حتى ختمها، فجعلوا يبكون وأسلموا؛ ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون...﴾..

وروى محمد بن إسحاق في السيرة: «ثم قدم على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من

---

(١) النجاشي ملك الحبشة اسمه أصحمة، معدود في الصحابة رضي الله عنهم، وكان ممن حَسُنَ إسلامه ولم يهاجر، ولا له رؤية، فهو تابعي من وجه، صاحبٌ من وجه، وقد توفي في حياة النبي ـ ﷺ ـ فصلَّى عليه بالناس صلاة الغائب، ولم يثبت أنه ـ ﷺ ـ على غائب سواه، وسببُ ذلك أنه مات بينَ قوم نصارى، ولم يكن عنده مَن يُصلي عليه، لأن الصحابة الذين كانوا مهاجرين عنده خرجوا من عنده مهاجرين إلى المدينة عامَ خيبر.

ومن محاسن النجاشي أن أمَّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب الأموية أم المؤمنين أسلمت مع زوجها عُبيد الله بن جحش الأسدي قديماً، فهاجر بها زوجُها، فانملس بها إلى أرض الحبشة. فولدت له حبيبة ربيبة النبي ـ ﷺ ـ ثم إنه أدركه الشقاء فأعجبه دين النصرانية فتنصرَّ، فلم يَنْشَب أن مات بالحبشة، فلما وفت العدة، بعث رسول الله ـ ﷺ ـ يخطبها، فأجابت، فنهض في ذلك النجاشي، وشهد زواجها بالنبي ـ ﷺ ـ وأعطاها الصداق عن النبي ـ ﷺ ـ مِن عنده أربع مئة دينار، فحصل لها شيء لم يحصُل لغيرها من أمهات المؤمنين، ثم جهزها النجاشي. توفي في شهر رجب سنة تسع من الهجرة.

الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه، وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة؛ فلما فرغوا من مساءلة النبي - ﷺ - عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى، وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا للّه وآمنوا به وصدّقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره. فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام، في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من رَكْب! بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال؟ ما نعلم رَكباً أحمق منكم! فقالوا لهم: سلام عليكم لا نُجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً».

قال: ويقال: إن النفر النصارى من أهل نجران. فالله أعلم أي ذلك كان. قال: ويقال والله أعلم: إن فيهم نزلت هذه الآيات:

﴿**الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون... الخ**﴾.

قال: وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه رضي الله عنه والآيات اللاتي في سورة المائدة: ﴿**ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً**... إلى قوله - **فاكتبنا مع الشاهدين**﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]..

وأياً مَن كان الذين نزلت في أمرهم هذه الآيات، فالقرآن يرد المشركين إلى حادث وقع، يعلمونه ولا ينكرونه. كي يقفهم وجهاً لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلقى هذا القرآن، وتطمئن إليه، وترى فيه الحق، وتعلم مطابقته لما بين أيديها من الكتاب. ولا يصدها عنه صادّ من هوى ولا من كبرياء؛ وتحتمل في سبيل الحق الذي آمنت به ما يصيبها من أذى وتطاول من الجهلاء، وتصبر على الحق في وجه الأهواء ووجه الإيذاء..

﴿**وإذا يتلى عليهم قالوا: آمنا به. إنه الحق من ربنا. إنا كنا من قبله مسلمين**﴾ [القصص: ٥٣]..

فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أكثر من تلاوته فيعرف الذين عرفوا

الحق من قبل أنه من ذلك المعين، وأنه صادر من ذلك المصدر الواحد الذي لا يكذب ﴿**إنه الحق من ربنا**﴾.. ﴿**إنا كنا من قبله مسلمين**﴾ والإسلام للّه هو دين المؤمنين بكل دين.

هؤلاء الذين أسلموا للّه من قبل، ثم صدقوا بالقرآن بمجرد سماعه: ﴿**أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا**﴾ [القصص: ٥٤].

الصبر على الإسلام الخالص. إسلام القلب والوجه. ومغالبة الهوى والشهوة. والاستقامة على الدين في الأولى والآخرة. أولئك يؤتون أجرهم مرتين، جزاء على ذلك الصبر، وهو عسير على النفوس، وأعسر الصبر ما كان على الهوى والشهوة والالتواء والانحراف. وهؤلاء صبروا عليها جميعاً، وصبروا على السخرية والإيذاء كما سبقت الرواية، وكما يقع دائماً للمستقيمين على دينهم في المجتمعات المنحرفة الضالة الجاهلة في كل زمان ومكان: ﴿**ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون**﴾ [القصص: ٥٤]..

وهذا هو الصبر كذلك. وهو أشد مؤنة من مجرد الصبر على الإيذاء والسخرية. إنه الاستعلاء على كبرياء النفس، ورغبتها في دفع السخرية، ورد الأذى، والشفاء من الغيظ، والبرد بالانتقام! ثم درجة أخرى بعد ذلك كله. درجة السماحة الراضية. التي ترد القبيح بالجميل وتقابل الجاهل الساخر بالطمأنينة والهدوء وبالرحمة والإحسان؛ وهو أفق من العظمة لا يبلغه إلا المؤمنون الذين يعاملون الله فيرضاهم ويرضونه، فيلقون ما يلقون من الناس راضين مطمئنين.

وكأنما أراد أن يذكر سماحة نفوسهم بالمال، عقب ذكره لسماحة نفوسهم بالإحسان. فهما من منبع واحد: منبع الاستعلاء على شهوة النفس، والاعتزاز بما هو أكبر من قيم الأرض. الأولى في النفس، والثانية في المال. وكثيراً ما يَرِدَان متلازمين في القرآن.

وهكذا يمضي القرآن في جولته مع المؤمنين الصادقين: ﴿**أفَمن يعلم أنما**

أنـزل إليك من ربـك الحق كمَن هو أعمى؟ إنمـا يتذكـر أولوا الألبـاب﴾ [الرعد: ١٩]. .

إنما يتذكر أولو الألباب الذين لهم عقول وقلوب مدركـة تُذَكَّـر بالحق فتتذكر، وتُنَبه إلى دلائله فتتفكر.

وهذه صفات أولي الألبـاب هؤلاء: ﴿**الذين يـوفون بعهـد الله، ولا ينقضون الميثاق**﴾ [الرعد: ٢٠]. .

وعهد الله مطلق يشمل كل عهد، وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق. والعهد الأكبر الذي تقوم عليه كل العهود هو عهد الإيمان؛ والميثاق الأكبر الذي تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان. .

﴿**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم، ويخافون سوء الحساب**﴾ [الرعد: ٢١]. .

هكذا في إجمال. فكل ما أمر الله به أن يُوصل يصلونه. أي أنها الطاعة الكاملة والاستقامة الواصلة، والسير على السنّة ووفق الناموس بلا انحراف ولا التواء. . والآية الكريمة تصور الاستقامـة المطلقـة التي لا تلتوي، والـطاعة المطلقة التي لا تتفلت، والصلة المطلقة التي لا تنقطع. . ثم تصور الكلمات القرآنية الشعور المصاحب في نفوسهم لهذه الطاعة الكاملة:

﴿**ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب. والذين صبروا ابتغاء وجـه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا ممـا رزقناهم سـراً وعلانيـة ويدرأون بـالسيئة الحسنة. .**﴾ [الرعد: ٢١، ٢٢]. .

فهم في خشية الله ومخافة العقاب الذي يسوء في يوم لقائه الرهيب. وهو أولو الألباب الذين يتدبرون الحساب قبل يوم الحساب. .

إنها الصورة الوضيئة للذين أوتوا العلم. . يشهـدون بأن مـا جاء بـه محمد ـ ﷺ ـ من ربه هو الحق وأنه يهدي إلى طريق العزيز الحميد: ﴿**ويرى الذين أوتوا العلم الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق، ويهدي إلى صراط العزيز الحميد**﴾ [سبأ: ٦]. .

وقد ورد أن المقصود بالذين أوتوا العلم هم أهل الكتاب، الذين يعلمون من كتابهم أن هذا القرآن هو الحق، وأنه يقود إلى صراط العزيز الحميد.

ومجال الآية أكبر وأشمل. فالذين أوتوا العلم في أي زمان وفي أي مكان، من أي جيل ومن أي قبيل، يرون هذا متى صحّ علمهم واستقام؛ واستحق أن يوصف بأنه «العلم»! والقرآن كتاب مفتوح للأجيال وفيه من الحق ما يكشف عن نفسه لكل ذي علم صحيح. وهو يكشف عن الحق المستكن في كيان هذا الوجود كله. وهو أصدق ترجمة وَصْفِيّة لهذا الوجود وما فيه من حق أصيل.

ونتابع الجولة مع القرآن الكريم في تصوير هذا الفريق المؤمن من أهل الكتاب:

﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى. ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً، وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون: ربنا آمنا، فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق، ونطمع أن يُدخلنا ربنا مع القوم الصالحين. فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء المحسنين..﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٥]..

إن هذه الآيات تُصوّر حالة، وتُقرر حكماً في هذه الحالة.. تصور حالة فريق من أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ: **﴿الذين قالوا: إنا نصارى﴾**.. وتقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا..

ومع أن متابعة مجموع الآيات لا تَدَع مجالاً للشك في أنها تصور حالة معينة، هي التي ينطبق عليها هذا التقرير المعين، فإن الكثيرين يخطئون فَهْم مدلولها، ويجعلون منها مادة للتميع المؤذي في تقدير المسلمين لموقفهم من المعسكرات المختلفة، وموقف هذه المعسكرات منهم.. لذلك نجد من الضروري ـ في هذا الكتاب ـ أن نتابع بالدقة تصوير هذه الآيات لهذه الحالة

الخاصة التي ينطبق عليها ذلك الحكم الخاص:

إن الحالة التي تُصورها هذه الآيات هي حالة فئة من الناس، قالوا: إنا نصارى. هم أقرب مودة للذين آمنوا: ﴿**ذلك بأن منهم قِسِّيسين ورُهباناً وأنهم لا يستكبرون**﴾. . فمنهم مَن يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون على الحق حين يتبين لهم. .

ولكن السياق القرآني لا يقف عند هذا الحد، ولا يدع الأمر مجهلاً ومُعَمَّماً على كل مَن قالوا: إنا نصارى. . إنما هو يمضي فيصوّر موقف هذه الفئة التي يُعينها:

﴿**وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون: ربنا آمنا، فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين**﴾. .

فهذا مشهد حي يرتسم من التصوير القرآني لهذه الفئة من الناس، الذين هم أقرب مودّة للذين آمنوا. . إنهم إذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه. والذين لا يجدون له في أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير ـ وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بها القول، فيفيض الدمع، ليؤدي ما لا يؤديه القول؛ وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف.

ثم ها هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع؛ ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذي تأثروا به هذا التأثر عند سماع القرآن؛ والشعور بالحق الذي يحمله والإحساس بما له من سلطان. . إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق! إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً إيجابياً صريحاً. . موقف القبول لهذا الحق، والإيمان به، والإذعان لسلطانه، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قوية عميقة صريحة:

﴿يقولون: ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق، ونطمع أن يُدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾؟..

إنهم أولاً يُعلنون لربهم إيمانهم بهذا الحق الذي عرفوه. ثم يدعونه ـ سبحانه ـ أن يضمّهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق؛ وأن يسلكهم في سلك الأمة القائمة عليه في الأرض.. الأمة المسلمة، التي تشهد لهذا الدين بأنه الحق، وتؤدي هذه الشهادة بلسانها وبعملها وبحركتها لإقرار هذا الحق في حياة البشر.. فهؤلاء الشاهدون الجدد ينضمون إلى هذه الأمة المسلمة؛ ويُشهدون ربهم على إيمانهم بالحق الذي تتبعه هذه الأمة؛ ويدعونه ـ سبحانه ـ أن يكتبهم في سجلها..

ثم هم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوقهم معوق عن الإيمان بالله؛ أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به، ولا يأملوا ـ بهذا الإيمان ـ أن يقبلهم ربهم، ويرفع مقامهم عنده، فيدخلهم مع القوم الصالحين:

﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين؟﴾..

فهو موقف صريح قاطع تجاه ما أنزل الله إلى رسوله من الحق.. موقف الاستماع والمعرفة، ثم التأثر الغامر والإيمان الجاهر، ثم الإسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة، مع دعاء الله ـ سبحانه ـ أن يجعلهم من الشاهدين لهذا الحق؛ الذين يؤدون شهادتهم سلوكاً وعملاً وجهاداً لإقراره في الأرض، والتمكين له في حياة الناس. ثم وضوح الطريق في تقديرهم وتوحّده، بحيث لا يعودون يرون أنه يجوز لهم أن يمضوا إلا في طريق واحد: هو طريق الإيمان بالله، وبالحق الذي أنزله على رسوله، والأمل ـ بعد ذلك ـ في القبول عنده والرضوان.

ولا يقف السياق القرآني هنا عند بيان مَن هم الذين يعنيهم بأنهم أقرب مودة للذين آمنوا من الذين قالوا: إنا نصارى، وعند بيان سلوكهم في مواجهة ما أنزل الله إلى الرسول ـ ﷺ ـ من الحق؛ وفي اتخاذ موقف إيجابي صريح،

بـالإيمان المعلن، والانضـمام إلى الصف المسلم؛ والاستعداد لأداء الشهـادة بالنفس والجهد والمال، والدعاء إلى الله أن يقبلهم في الصف الشاهد لهذا الحق على هذا النحو؛ مع الطمع في أن يختم لهم بالانضمام إلى موكب الصالحين . .

لا يقف السياق القرآني عند هذا الحد في بيان أمر هؤلاء الذين يقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنـوا. بل يتـابع خـطاه لتكملة الصورة، ويعـدهم أجر المؤمنين عند الله، الذي لا يمطل المتعاملين معه ـ حـاشاه ـ ﴿**إن الله سريـع الحساب**﴾ يُؤْتَون أجرهم . .

ويرسم المصير الذي انتهوا إليه فعلاً: ﴿**فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. وذلك جزاء المحسنين**﴾ . .

لقد علم الله صدق قلوبهم وألسنتهم؛ وصدق عزيمتهمْ على المضي في الطريق؛ وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذي دخلوا فيه؛ ولهذا الصف المسلم الذي اختاروه، واعتبارهم أن أداء هذه الشهـادة ـ بكل تكاليفها في النفس والمال ـ مِنّة يمنّ الله بها على مَن يشاء من عبـاده؛ واعتبارهم كذلك أنه لم يعد لهم طريق يسلكونه إلا هذا الطريق الذي أعلنوا المضي فيه؛ ورجاءهم في ربهم أن يدخلهم مع القوم الصالحين . .

لقد علم الله منهم هذا كله؛ فَقَبِلَ منهم قولهم، وكتب لهم الجنة جزاء لهم؛ وشهد لهم ـ سبحانه ـ بأنهم محسنون، وأنه يجزيهم جزاء المحسنين.

﴿**فأثابهم الله ـ بما قالوا ـ جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . . وذلك جزاء المحسنين**﴾ . .

والإحسان أعلى درجات الإيمان والإسلام . . والله ـ جلَّ جلاله ـ شَهِدَ لهذا الفريق من الناس أنه من المحسنين.

هو فريق خاص محدد الملامح هذا الذي يقول عنه القرآن: ﴿**ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى**﴾ [المائدة: ٨٢] . .

هـو فريق لا يستكـبر عن الحق حين يسمعـه، بل يستجيب لـه تلك

الاستجابة العميقة الجاهرة الصريحة. وهو فريق لا يتردد في إعلان استجابته للإسلام، والانضمام للصف المسلم؛ والانضمام إليه بصفة خاصة في تكاليف هذه العقيدة، وهي أداء الشهادة لها بالاستقامة عليها والجهاد لإقرارها وتمكينها. وهو فريق علم الله منه صدق قوله فقبله في صفوف المحسنين..

لقد قبله قبولاً حسناً، وجزاه جزاءً كريماً **﴿أولئك لهم عقبى الدار. جنات عدن يدخلونها ومَن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم؛ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار﴾** [الرعد: ٢٢ ـ ٢٤]..

﴿أولئك﴾ في مقامهم العالي لهم عقبى الدار: جنات عدن للإقامة والقرار.

في هذه الجنات يأتلف شملهم مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم. ولكنهم يُكرمون بتجمع شتاتهم، وتلاقي أحبابهم، وهي لذة أخرى تضاعف لذة الشعور بالجنان.

وفي جو التجمع والتلاقي يشترك الملائكة في التأهيل والتكريم، في حركة رائحة غادية:

﴿يدخلون عليهم من كل باب﴾..

ويدعنا السياق القرآني نرى المشهد حاضراً وكأنما نشهده ونسمع الملائكة أطوافاً أطوافاً: **﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾**..

فهو مهرجان حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والإكرام..

ويذكر القرآن الكريم ظاهرة أخرى عُرفت في تاريخ أتباع المسيح ـ عليه السلام ـ: **﴿ورهبانية ابتدعوها ـ ما كتبناها عليهم ـ إلا ابتغاء رضوان الله﴾** [الحديد: ٢٧]..

والراجح أن هذه الرهبانية التي عرفها تاريخ المسيحية كانت اختياراً من

بعض أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله، وابتعاداً عن أوضار الحيـاة ولم يكتبها الله عليهم ابتـداءً. ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها، ويحافظوا على مقتضياتها من تطهر وترفع، وقناعة وعفة، وذكر وعبادة. . مما يحقق في أنفسهم حقيقة التجرد لله، التي قصدوا إليها بهـذه الرهبـانية التي ابتدعوها.

ولكنها انتهت إلى أن تصبح في الغالب طقوساً وشعائر خالية من الروح، وأن يتخذها الكثيرون مظهراً عارياً من الحقيقة[1]. فلا يصبر على تكاليفها إلا

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني سلمان الفارسي قال: كنتُ رجلاً فارسياً من أهل أصبهان، من أهل قرية منها يقال لها جيّ، وكان أبي دِهْقانها، وكنتُ أحبَّ خلق الله إليه، فلم يزل بي حبُّه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحبس الجارية، فاجتهدتُ في المجوسية حتى كنت قاطِنَ النار التي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة. وكانت لأبي ضَيعة عظيمة، فشُغِلَ في بنيان له يوماً، فقال لي: يا بني! إني قد شُغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطلعها، وأمر لي ببعض ما يريد، فخرجتُ، ثم قال: لا تحتبس عليّ، فإنك إن احتبست عليَّ كنتَ أهمَّ إليَّ من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري، فخرجتُ أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعتُ أصواتهم فيها وهم يُصلون، وكنتُ لا أدري ما أمرُ الناسِ بحبس أبي إياي في بيته، فلما مررتُ بهم، وسمعتُ أصواتهم، دخلتُ إليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتُهم أعجبني صلواتُهم، ورغبتُ في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه؛ فوالله ما تركتُهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي ولم آتها. فقلتُ لهم: أينَ أَصْلُ هذا الدين؟ قالوا: بالشام. قال: ثم رجعتُ إلى أبي وقد بعثَ في طلبي وشغلتُه عن عمله كله، فلما جئتُه قال: أي بني! أين كنت؟ أَلَمْ أكن عهدتُ إليك ما عهدت؟ قلت: يا أبتِ! مررتُ بناس يُصلون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيتُ من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس. قال: أي بني! ليس في ذلك الدين خير، دينُك ودين آبائك خيرٌ منه. قلتُ: كلا والله! إنه لخير من ديننا. قال: فخافني، فجعل في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته. قـال: وبعثتُ إلى النصارى فقلتُ: إذا قَدِمَ عليكم ركب من الشام تجار من النصارى، فـأخبروني بهم، فقـدم عليهم ركب من الشام. قـال: فأخبروني بهم، فقلت: إذا قضـوا حوائجهم، وأرادوا الرجعة، فأخبروني. قال: ففعلوا. فألقيتُ الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمتُ الشام. فلما قدمتها، قلت: مَن أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، فجئته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببتُ أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك، وأُصلي معك. قال: فادخل، فدخلتُ معه، فكان رجل سوء يأمرهم =

= بالصدقة ويُرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها شيئاً، اكتنزَه لنفسه، ولم يُعطه المساكين حتى جمع سبعَ قِلال من ذهب وَوَرِقٍ، فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع.

ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلتُ لهم: إن هذا رجل سوء، يأمركم بالصدقة، ويُرغبكم فيها، فإذا جئتم بها، كنزها لنفسه، ولم يُعطِ المساكين، وأريتهم موضع كنزه سبع قلال مملوءة، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفِنُه أبداً.

فصلبوه ثم رموه بالحجارة. ثم جاءوا برجل جعلوه مكانه، فما رأيت رجلاً ـ يعني لا يُصلي الخمس ـ أرى أنه أفضلَ منه، أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً، ما أعلمني أحببتُ شيئاً قطُّ قبله حُبَّه، فلم أزل معه حتى حضرته الوفاة، فقلت: يا فلان! قد حضرك ما ترى من أمر الله، وإني والله ما أحببت شيئاً قط حُبَّك، فماذا تأمرني وإلى مَن توصيني؟ قال لي: يا بني والله ما أعلمه إلا رجلاً بالمَوْصِل، فائته، فإنك ستجده على مثل حالي. فلما مات وغُيِّبَ، لحقتُ بالموصل، فأتيتُ صاحبها، فوجدتُه على مثل حاله من الاجتهاد والزهد. فقلت له: إن فلاني أوصاني إليك أن آتيك وأكون معك. قال: فأقم أيْ بني.

فأقمتُ عنده على مثل أمر صاحبه حتى حضرته الوفاة. فقلتُ له: إن فلاناً أوصى بي إليك وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى مَن تُوصي بي؟ وما تأمرني به؟ قال: والله ما أعلم، أي بني، إلا رجلاً بنصيبين.

فلما دفناه، لحقتُ بالآخر، فأقمتُ عنده على مثل حالهم حتى حضره الموت، فأوصى بي إلى رجل من أهل عمورية بالروم، فأتيته فوجدته على مثل حالهم، واكتسبتُ حتى كان لي غنيمة وبُقيرات.

ثم احتضر فكلمته إلى مَن يوصي بي؟ قال: أي بني! والله ما أعلمُه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكن قد أظلك زمان نبي يُبعث من الحرم، مهاجرهُ بين حرَّتين إلى أرض سبخة ذات نخل، وإن فيه علامات لا تخفى، بين كتفيه خاتمُ النبوة، ويأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلُص إلى تلكَ البلاد فافعل، فإنه قال أظلكَ زمانُه.

فلما واريناه، أقمتُ حتى مرَّ بي رجال من تجار العرب من كلب، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب، وأُعطيكم غنيمتي وبقراتي هذه؟ قالوا: نعم. فأعطيتهم إياها وحملوني، حتى إذا جاءوا بي وادي القرى، ظلموني، فباعوني عبداً من رجل يهودي بوادي القرى. فوالله لقد رأيتُ النخل، وطَمِعْتُ أن يكون البلد الذي نعتَ لي صاحبي.

وما حقَّت عندي حتى قَدِمَ رجل من بني قريظة وادي القرى، فابتاعني من صاحبي، فخرج بي حتى قَدِمنا المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها، فعرفت نعتها.

فأقمتُ في رِقّي، وبعث الله نبيه ـ ﷺ ـ بمكة لا يُذكر لي شيء من أمره مع ما أنا فيه من الرِّق، حتى قدِمَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ قُباء، وأنا أعمل لصاحبي في نخلة له، فوالله إني لفيها إذ جاءه ابن عم له، فقال: يا فلان! قاتلَ الله بني قَيْلة، والله إنهم الآن لفي قُباء مجتمعون على =

عدد منهم قليل: ﴿فما رعوها حق رعايتها. فآتينا الذين آمنوا أجرهم، وكثير منهم فاسقون﴾ [الحديد: ٢٧].

والله لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال، ولا بالطقوس والمسوح، إنما يأخذهم بالعمل والنية، ويحاسبهم على حقيقة الشعور والسلوك. وهو الذي يعلم خبايا القلوب وذوات الصدور.

= رجل جاء من مكة يزعمون أنه نبي. فوالله ما هو إلا أن سمعتُها فأخذتني العُرواء ـ يقول الرِّعدة ـ حتى ظننتُ لأسقطن على صاحبي. ونزلتُ أقول: ما هذا الخبر؟

فرفع مولاي يده فلكمني لكمة شديدة، وقال: ما لك ولهذا، أقْبل على عملك. فقلتُ: لا شيء، إنما سمعتُ خبراً، فأحببتُ أن أعلمه. فلما أمسيتُ، وكان عندي شيء من طعام، فحملته وذهبتُ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو بقُباء، فقلتُ له: بلغني أنك رجل صالح، وأن معك أصحاباً لك غرباء، وقد كان عندي شيء من الصدقة فرأيتُكم أحقَّ مَنْ بهذه البلاد، فهاك هذا، فَكُل منه. قال: فأمسك، وقال لأصحابه: كلوا. فقلتُ في نفسي: هذه خَلَّة مما وصف لي صاحبي. ثم رجعتُ، وتحوَّل رسول الله إلى المدينة، فجمعتُ شيئاً كان عندي ثم جئته به فقلتُ: إني قد رأيتُك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية. فأكل رسول الله ـ ﷺ ـ وأكل أصحابه، فقلتُ هذه خلتان. ثم جئتُ رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يتبع جنازة وعليَّ شملتان لي وهو في أصحابه، فاستدرتُ أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف. فلما رآني استدبرتُه عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرتُ إلى الخاتم فعرفته، فانكببتُ عليه أُقبِّله وأبكي. فقال لي: تحول، فتحولت، فقصصتُ عليه حديثي كما حدّثتك يا ابن عباس، فأعجب رسول الله ـ ﷺ ـ أن يسمعَ ذلك أصحابه.

قال الذهبي: ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ـ ﷺ ـ بدر وأُحد. ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كاتب يا سلمان» فكاتبتُ صاحبي على ثلاث مئة نخلة أُحييها له بالفقير وبأربعين أوقية. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه: «أعينوا أخاكم» فأعانوني بالنخل الرجل بثلاثين وَدِيَّة، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، حتى اجتمعت ثلاث مئة وديَّة. فقال: «اذهب يا سلمان فَفَقِّر لها، فإذا فرغتَ فائتني أكون أنا أضعُها بيدي». ففقرتُ لها وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها، جئتُه وأخبرته، فخرج معي إليها نقرب له الودي، ويضعه بيده. فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة. فأديتُ النخل، وبقي عليَّ المال، فأُتي رسول الله ـ ﷺ ـ بمثل بيضة دجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: «ما فَعل الفارسي المكاتَب؟»، فدعيتُ له، فقال: «خُذها فَأَدِّ بهَا ما عليك» قلتُ: وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليَّ؟ قال: «خذها فإن الله سيؤدي بها عنك». فأخذتها فوزنتُ لهم منها أربعين أوقية، وأوفيتُهم حقهم وعتقت، فشهدتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ الخندق حُراً، ثم لم يفتني معه مشهد..» سير أعلام النبلاء ١/٥٠٥، وتهذيب السير ١/٤٦ ـ ٤٨ (رقم ٩٧).

قصة أصحاب الأُخدود

المحتوى | ص

المحتوى	ص
ـ ميزان الإيمان في القرآن	٣٠٥
ـ الموقف الواضح	٣١٠
ـ الإيمان الصَّادق والابتلاء	٣١٦
ـ قَدَر الله وقُدرته	٣٢٣
ـ التضحية والفداء	٣٣٣
ـ مشاهد وصور وحوار	٣٣٨

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة أصحاب الأُخدود

ميزان الإيمان في القرآن:

ونمضي مع القرآن الكريم في قصة خالدة، يعرض الله ـ سبحانه ـ في مشاهدها حقائق العقيدة، وقواعد التصور الإيماني.. يعرض أموراً عظيمة، تشعّ حولها أضواء قوية بعيدة المدى، يتحدث القرآن عن أصحاب الأخدود.. والموضوع هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام ـ قيل إنهم من النصارى المُوحّدين ـ ابتُلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين، أرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم. فشقّ الطغاة لهم شقاً في الأرض، وأوقدوا فيه النار، وكبّوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقاً، على مرأى من الجموع التي حشدها المُتسلطون لتشهد مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة، ولكي يتلهى الطغاة بمشهد الحريق. حريق الآدميين المؤمنين..

تبدأ القصة بِقَسَم من الله: ﴿**والسماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود، قُتل أصحاب الأُخدود..**﴾ [البروج: ١ ـ ٤]..

فتربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة، واليوم الموعود وأحداثه الضخام، والحشود التي تشهده والأحداث المشهودة فيه.. تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة السماء على أصحابه البغاة.

ثم تعرض المشهد المفجع في لمحات خاطفة، تودع المشاعر بشاعة الحادث بدون تفصيل ولا تطويل.. مع التلميح إلى عظمة العقيدة التي تعالت

http://www.al-maktabeh.com

على فتنة الناس مع شدتها، وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها، وارتفعت إلى الأوج الذي يُشرِّف الإنسان في أجياله جميعاً. والتلميح إلى بشاعة الفعلة، وما يكمن فيها من بغي وشرّ وتسفّل، إلى جانب ذلك الارتفاع والبراءة والتطهر من جانب المؤمنين. .

﴿والسماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود﴾. . وتلتقي السماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود. . تلتقي جميعاً في إلقاء ظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة على الجو الذي يعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود. . كما توحي بالمجال الواسع الشامل الذي يوضع فيه هذا الحادث. وتوزن فيه حقيقته ويُصَفَّى فيه حسابه وهو أكبر من مجال الأرض، وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود. .

وبعد رسم هذا الجو، وفتح هذا المجال، تجيء الإشارة إلى الحادث في لمسات قلائل:

﴿قُتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقحوا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الذي له ملك السموات والأرض، والله على كل شيء شهيد﴾ [البروج: ٤ ـ ٩]. .

وتبدأ الإشارة إلى القصة بإعلان النقمة على أصحاب الأخدود: **﴿قُتل أصحاب الأخدود﴾**. . وهي كلمة تدل على الغضب. غضب الله على الفعلة وفاعليها. كما تدل على شناعة الذنب الذي يثير غضب الحليم، ونقمته، ووعيده بالقتل لفاعليه.

ثم يجيء تفسير الأخدود: **﴿النار ذات الوقود﴾** والأخدود: الشق في الأرض. وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه ناراً، فصارت النار بدلاً في التعبير من الأخدود للإيحاء بتلهب النار فيه كله وتوقدها.

قُتل أصحاب الأخدود، واستحقوا هذه النقمة وهذا الغضب، في الحالة التي كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الإثم، ويزاولون تلك الجريمة: **﴿إذ هم**

عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾. . وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم، وهم يوقدون النار، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار، قريبون من عملية التعذيب البشعة، يشاهدون أطوار التعذيب، وفِعْل النار في الأجسام في لذة وسعار، كأنما يُثَبتون في حِسّهم هذا المشهد البشع الشنيع!

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثأر: **﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الذي له مُلك السموات والأرض. والله على كل شيء شهيد﴾**. . فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله، العزيز: القادر على ما يريد، الحميد: المستحق للحمد في كل حال، والمحمود بذاته ولو لم يحمده الجهّال! وهو الحقيق بالإيمان وبالعبودية له. وهو وحده الذي له مُلك السماوات والأرض وهو يشهد كل شيء وتتعلق به إرادته تعلق الحضور. ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود. . وهذه لمسة تُطمئن قلوب المؤمنين وتهدد العتاة المتجبرين. فالله كان شهيداً. وكفى بالله شهيداً.

وهذه الجماعة المؤمنة التي قَصَّ الله ـ سبحانه ـ خبرَها تصدّى لها أعداء الله بتهمة أَوْهَىٰ من بيت العنكبوت، وحاكوا من حولها الدسائس الكاذبة، واجتاحت المؤمنين موجة من التعذيب والتنكيل والتحريق، **﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾**. .

لقد أرّخ المؤمنون بدمائهم وشهدائهم وضحاياهم دورة رائعة من دورات الكفاح بين الحق والباطل.

إن المؤمن وهو في المحنة ينظر إلى الله عز وجل يُوقن أن عَين الله لن تتخلى عنه **﴿والله على كل شيء شهيد﴾**. . وارتفعت زفرات المؤمنين كأسراب الطير المذعور تخترق الفضاء وتمرّ عبر السماء ذات البروج إلى حيث تجد المأمن في جوار ربٍّ لا تضيع عنده الودائع. فلن يضيع شيء من السعي والعمل والكسب والجهاد؛ ولن يغيب شيء عن علم الله وميزانه الدقيق. وسينال كل امرىء جزاء سعيه وافياً كاملاً لا نقص فيه ولا ظُلم.

ثم فلا طريق إلا الطريق الذي ينتهي إلى الله. ولا ملجأ من دونه. ولا مأوى إلا داره: في نعيم أو جحيم.. ولهذه الحقيقة قيمتها وأثرها في تكييف مشاعر الإنسان وتصوره فحين يحسّ أن المنتهى إلى الله منتهى كل شيء وكل أمر. وكل أحد. فإنه يستشعر من أول الطريق نهايته التي لا مَفرّ منها ولا مَحيص. ويصوغ نفسه وعمله وفق هذه الحقيقة؛ أو يحاول في هذا ما يستطيع. ويظل قلبه ونظره مُعَلّقين بتلك النهاية منذ أول الطريق!

ثم نسير في قلوب واجفة خاشعة مع تفصيل القصة في الخَبَر النبوي الصادق الذي لا ينطق عن الهوى. إن هو إلا وَحي يُوحى..

نعيش لحظات في ذلك الأفق الوضيء الطليق المُرفرف مع محمد ـ ﷺ ـ ونستمع إلى قصة العقيدة الخالدة في إيقاع رخي منساب.

نعيش لحظات مع قلب رسول الله ـ ﷺ ـ الذي يتلقّى من رَبِّه الأعلى. نعيش مع النبي المصطفى، نتلقى زاداً ثَرًّا طيباً من ذلك الفؤاد المُصفًّى..

ويرسم النبي أحداث القصة بكلمات مُصورة في إيقاعاتها وظلالها. يقرر الحقيقة الأساسية للعقيدة. يُعرِّف البشر بخالقهم، بتعليمهم بمشيئته الفاعلة المبدعة المؤثرة في حياتهم، يعرض كل ذلك بصورة تلمس الوجدان البشري وتهزّه هزًّا عميقاً. فَلْنَعِش مع الإيقاع النبوي في قصة، تتلقاها القلوب بمشاعر حيّة حتى تتأثر وتستجيب إلى نداء الحق المبين.

عن صهيب، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كان مَلِكٌ فيمَن كانَ قبلكُم وكان له ساحر، فلما كَبِرَ قال للملك: إني قد كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إليَّ غُلاماً أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فبعثَ إليه غلاماً يُعلِّمُهُ، فكان في طريقه، إذا سَلَكَ، راهبٌ، فقَعَد إليه، وسمع كلامَهُ فأعجبَهُ، فكان إذا أتى الساحر، مرَّ بالراهب وقَعَد إليه، فإذا أتى الساحر، ضَرَبَهُ [وإذا رجَعَ من عند الساحر، قَعَد إلى الراهب، وسمعِ كلامَهُ. فإذا أتى أهْلَهُ ضربوه]، فشكى ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحرَ فقُل: حبسني أهلي، وإذا خشيتَ أهلَكَ، فقل: حَبسني الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابةٍ عظيمةٍ قد حَبَست الناس، فقال: اليومَ أعلمُ:

الساحرُ أفضلُ أم الراهب أفضل؟ فأخـذَ حجراً فقـال: اللهمَّ إن كان أمـرُ الراهبِ أحبَّ إليكَ من أمرِ الساحر، فاقتُل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناسُ، فأتى الراهبَ، فأخبرَهُ، فقال له الراهبُ: أي بُنَيَّ أنتَ اليومُ أفضلُ مني، قد بلغَ من أَمْرك ما أرى، وإنَّك سَتُبْتَـلَى، فإن ابْتُليتَ، فلا تَدُلَّ عليَّ، وكان الغلامُ يُبْرِىء الأَكْمَه[١] والأَبْرَص، ويـداوي الناسَ من سائر الأدواء، فسمع جليسٌ للملك ـ كان قد عَمِيَ ـ فأتاهُ بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهُنا لك أَجمع، إن أنتَ شَفَيْتَني، فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن أنتَ آمنتَ بالله، دعوتُ اللّهَ، فشفاك، فآمنَ بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلسَ إليه كما كان يجلس، فقـال الملك: [فلان!] مَنْ ردَّ عليكَ بَصَركَ؟ قال: ربِّي، قال: ولَكَ ربٌّ غيري؟ قـال: ربي وربُّك الله، فأخذه، فلم يزل يُعَذِّبه حتى دَلَّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بُنيّ قد بَلغَ من سِحْرِكَ ما تُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأبرصَ وتفعلُ وتفعلُ. قال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي اللّهُ، فأخذهُ، فلم يَزل يُعَذِّبُه حتى دَلَّ على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: إرجع عن دينكَ، فأبى، فدعا بالمِنشار، فوضَـعَ المِنْشار في مَفْرِقِ رأسِه، فَشَقَّهُ حتى وقع شِقَّاهُ.

ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجِع عن دينك، فأبى، فوضَـعَ المِنشار في مَفْرِقِ رأسِه فَشَقَّهُ به حتى وَقَع شِقَّاهُ، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نَفَرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجَبَل، فإذا بلغتُم ذُرْوَتَهُ، فإن رجَعَ عن دِينه، وإلا فاطرحُوه، فذهبوا به، فصعدوا به الجَبلَ، فقال: اللهم اكفنيهم بما شِئْتَ، فرجَفَ بهم الجبلُ، فسقطُوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعلَ أصحابُكَ؟ قال: كفانيهم الله، فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به، فَاحْمِلوه في قُرقور[٢]، فَتوسَّطوا به البَحْرَ [فَلَجُّوا به]، فإن رَجَع عن دينه،

---

(١) الأكمه: الذي خُلق أعمى.

(٢) بضم القافين: السفينة الصغيرة، وقيل الكبيرة.

وإلا فاقْذِفُوه، فذهبـوا به، فقـال: اللهم اكفنيهم بما شِئْتَ، فـانكفأتْ بهم السفينة، فَغَرِقُوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعلَ أصحابُك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لستَ بقاتِلي حتى تَفْعَلَ ما آمُركَ به. قال: وما هو؟ قال: تجمعُ الناسَ في صعيد واحد، وتَصْلُبُني على جِذْعٍ، ثم خُذ سهماً من كنانَتي، ثم ضَعْ السَّهمَ في كَبِدِ[1] القوسِ، ثم قُلْ: بسمِ الله ربِّ الغلام، ثم ارْمِني، فإنـك إذا فعلتَ ذلك، قتلتني، فجمـعَ الناسَ في صعيد واحد، وصَلَبهُ على جِذْعٍ، ثم أخذَ سهماً من كِنانته، ثم وضَعَ السَّهم في كَبِدِ القوسِ، ثم قال: بسمِ الله ربِّ الغلام، ثم رماه، فوقعَ السهمُ في صُدغِهِ، فوضعَ يَدَهُ في صُدغِهِ في موضعِ السَّهمِ فمات، فقال الناس: آمنَّا بربِّ الغلام، آمنَّا بربِّ الغلام ـ [ثلاثاً] ـ فَأُتِيَ الملكُ، فقيلَ له: أرأيتَ ما كنتَ تحذرُ، قد والله نَزَل بكَ حَذَرُكَ[2]، قد آمن الناسُ، فأمرَ بالأُخْدود[3] في أفواه السِّكَكِ[4]، فَخُدَّت، وأَضْرَمَ النيران، وقال: مَن لم يرجع عن دينه، فأحموه فيها[5]، فَفَعَلُوا، حتى جاءت امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها، فتقاعَسَتْ[6] أن تَقَعَ فيها، فقال لها الغُلام: يا أُمَّه اصْبِري، فإنك على الحقّ»[7].

الموقف الواضح:

تبدأ القصة بهذا التمهيد الموجز: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر..».. هذا التمهيد المتضمن عدة معان تُسهم في صنع صورة معينة

(١) كبد القوس: مقبضها عند الرمي.
(٢) أي ما كنت تحذر وتخاف.
(٣) الشق العظيم في الأرض.
(٤) والسكك: الطرق، وأفواهها: أبوابها.
(٥) ارموه فيها من قولهم حميت الحديدة وغيرها إذا أدخلتها النار لتحمى.
(٦) أي توقفت ولزمت موضعها وكرهت الدخول في النار (شرح النووي على صحيح مسلم ١٨/ ١٣٢).
(٧) رواه مسلم في صحيحه وبين الحاصرتين من رواية ابن حبان في صحيحه. انظر تخريج الحديث في الإحسان رقم (٨٧٣).

لطبيعة الموقف الذي تنشأ في ظله أحداث القصة، فهي تشير إلى شخصية مهمة من شخصيات القصة «مَلك» وأنه كان فيمن كان قبلكم، وفي هذا تحديد تاريخي مجمل حيث يفيد أنه حصل في الماضي، دون ذكر للزمان أو المكان بالتحديد لتتجرد المعاني وتبقى مطلقة يمكن الاستفادة منها بتطبيقها في أي وقت، ولتظل تجربة قائمة إلى نهاية الزمان[1]، ولا تكتفي المقدمة بذكر الملك، مع ما يدل عليه من معنى السلطة والقهر التي يسيطر من خلالها على واقع الناس، ولكنها تشير إلى أنه «كان له ساحر» فهذا الملك يعتمد في مُلكه وسطوته وسيطرته على الناس على السحر والدَجَل والشعوذة التي يروّجها له ويشيعها ساحره، وقد كبر هذا الساحر، وأحسّ بقرب نهايته، ولكنه حريص على أن يظل المنهج السحري بالوَهْم والهوى مسيطراً على واقع الناس وعقولهم، وهو يدرك أن الملك صاحب مصلحة أيضاً في استمرار هذا المنهج الذي يساعد في إخضاع الناس حين يحكمهم بالوَهْم والكذب والخرافة، ومن هنا فالساحر يطلب من الملك أن يُحضر له غلاماً حتى يُعلِّمه السحر، ويحرص على أن يكون المُتلقي غلاماً، حتى يضمن مدة أطول يسيطر بها السحر والساحر من جيل إلى جيل[2].

وهكذا تضعنا المقدمة أمام موقف مُعين بكل أبعاد هذا الموقف وملابساته، وتعطينا صورة الجو الذي تنشأ فيه الأحداث عامة، وفي الوقت نفسه تثير في النفوس كل عناصر التشوق لمعرفة ما انبثق عن هذا الموقف من أحداث القصة، وما جرى عليه مستقبل هذا الملك وساحره..[3].

والقصة تبدأ بالتركيز على عرض الظروف والملابسات، التي تشارك في صنع الأحداث:

«كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر» وبعد المقدمة تأتي

---

(١) انظر أصحاب الأخدود لرفاعي سرور ٩ ـ ١٠.

(٢) د. عز الدين السيد، انظر الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، ص ٤٤٧.

(٣) القصص في الحديث النبوي: ١٠٦.

www.al-maktabeh.com

البداية: «فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إليَّ غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه..».

فالبداية تعرفنا بالملابسة التي دفعت الساحر إلى أن يطلب من الملك غلاماً يعلمه السحر، وهي أنه كبر، ومع كبره أحسّ بقرب النهاية، ومن هنا فلا بد من خليفة له، وأن يكون هذا الخليفة غلاماً؛ ليمتد به العمر زماناً طويلاً.

وتعطينا البداية ملابسة أخرى، تتيح لهذا الغلام أن يتكون تكويناً آخر يختلف عما يريده له الساحر، فقد شاء الله أن يكون في طريق هذا الغلام إلى الساحر «راهب» فإذا هو يلتقي به وعلى غير ميعاد سابق، وإذا هو يسمع كلامه، فيعجبه، وهكذا صار يتردد عليه كلما ذهب إلى الساحر..[1].

وتسير القصة في الكيفية التي تُبنى فيها الحوادث، وتُركب المواقف، وكيف يتطور الحدث، وما يقف وراء الحدث من دوافع ومؤثرات تجعله يسير وفق نظام خاص، وطريقة مرسومة في التتابع من أجل تحقيق الهدف المنشود في عرض الموضوع ببناء متقن، تُشوّق المُتلَقى، وتؤثر عليه.

وتجري الحوادث في القصة وفق ترتيب خاص بحيث يكون كل حدث في مكانه، كما أنه يوجد في الوقت المناسب، وينمو ويكتمل ويتوقف حسب ميزان دقيق. فالقصة تجري وفق خطة منظمة، ومنطق معين يتحكم في وجود الحدث، بحيث يخدم الهدف في نسيج بنية القصة.. نجد أن الغلام حين صار يختلف إلى الساحر يمر على راهب في طريقه وأصبح يجلس إليه، فمرور الغلام على الراهب جاء في الوقت المناسب، قبل أن تتمكن تعاليم الساحر من نفسه وتسيطر عليها، وهذا اللقاء تمّ في اللحظة المناسبة التي لها ما بعدها في مستقبل الأحداث.

---

(١) المصدر السابق: ١٢٦.

http://al-maktabeh.com

وبعد ذلك أيضاً نجد مظهراً آخر للتوقيت الملائم في وجود الحدث: «توقيت خروج الدابة» التي سدّت على الناس طريقهم، ومرّ الغلام فوجدها كذلك، ويجب أن نلاحظ أنه أمضى فترة ما في تردده على الساحر والراهب، وقد اكتسب خلال ذلك التردد من كل منهما، فيأتي خروج الدابة في هذا الوقت بالذات ليضيف إلى مجرى القصة موقفاً جديداً يفرضه منطق القصة، وهو موقف مهم بالنسبة لنا بوصفنا متلقين لنحدد نظرتنا بالدقة إلى هذا الغلام، كما أنه مهم للغلام نفسه ليحدد موقفه من كل من الساحر والراهب، ومن هنا يتضح لنا إلى أي مدى كان التوقيت مناسباً في خروج الدابة في هذه المرحلة. .[1].

«. . فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيتَ الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيتَ أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك، إذ أتى على دابَّة عظيمة قد حبست الناس. فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل، أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة؛ حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس. .».

ومن خلال هذا الحدث أصبح **للغلام موقفه الواضح من الساحر وأنه يقع في جانب الشر والباطل**، كما أصبح لنا أيضاً موقفنا المحدد من هذا الغلام المتطلع إلى الحق والخير[2]. .

إن الأحداث في القصة لا تنبعث هكذا جزافاً دونما سبب أو مبرر، ففيها يجري تتابع الأحداث على أساس من قانون الأسباب والنتائج، فالحدث حين يوجد له ما يبرره، وتحرص القصة على أن تفصح مباشرة عن الدافع. نجد أن طلب الساحر من الملك أن يبعث له غلاماً يعلمه السحر يبرز في القصة بأن

---

(١) انظر المصدر السابق: ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨.

(٢) القصص في الحديث النبوي: ١٨٨.

noor-al-maktabah.com

الساحر قد كبر، وهذا إيذان بقرب نهايته، ومن هنا فلا بد من خَلَف له يقوم على خدمة **الملك في هذا الجانب الأساسي** بالنسبة للملك، ونستطيع أن نقول بأن الطلب أيضاً هو الدافع لأن يبعث الملك إليه الغلام، والغلام حين أخذ حجراً ليضرب به الدابة ما الذي يدفعه إلى ذلك مع أنها دابة عظيمة قد وقف الناس على كثرتهم عاجزين عن إزاحتها عن طريقهم؟

فليست له قوة خارقة تُؤهله لأن يقدم على هذا العمل. **وسنظل نسأل هذا السؤال لماذا أراد الغلام ضرب الدابة وأقدم عليه**[1]؟ ولكن القصة تدع للخيال فجوة مضيئة يتملى من ورائها خطوط العقيدة الراسخة التي رسمها الراهب في نفس الغلام، والأوهام الباطلة التي صنعها الساحر التي كانت تتراءى في نفسه وتتهاوج.. ومن ثم فالقصة تعرض للإجابة، وتكشف عن المبرر الذي دفع الغلام إلى هذا التصرف، وهو ما كان يحسّ به من قلق يُحيره ويُؤرقه بصدد الساحر والراهب وأيهما أفضل عند الله وها هي الفرصة قد أتت.. «فبينما هو كذلك، إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس..».

يعتبر الحدث في القصة روحها الذي يمنحها الحياة والحيوية، وهو البارز، وهو محط الاعتبار، فالشخصيات هي أدوات للأحداث التي تعرض تحركها، وتدفع بها في طريق النمو[2].

ونجد في القصة الحرص على ترابط الحدث من الداخل، بحيث يؤدي هذا الترابط إلى وحدة في الأثر لدى المتلقي بصورة قوية ومركّزة من خلال تطور الحدث من نقطة تكون هي السبب في وجوده من حيث الأصل، إلى نقطة

---

(١) المصدر السابق: ١٩١.
(٢) المصدر السابق: ٣٠٢.

http://al-maktabeh.com

ينتقل إليها بشكل منطقي، فكل جزء في الحدث يؤدي إلى الجزء الذي يليه بصورة مقنعة مبررة، ولا شك في أن تدرج تطور الأحداث يمثل مظهراً جيداً لترابط بنائية الحدث من الداخل[1]. ففي موقف «الغلام» حين أتى الدابة التي سدت على الناس طريقهم فحبستهم، وعند هذا الموقف تصور لنا القصة ما يدور في نفس الغلام من قلق نفسي، وهَمّ يثقل كاهله، وهو موزع بين تلقي الدين من الراهب، وبين تلقي السحر من الساحر، وهو وإن كان قد استجاب بفطرته إلى صدق ما عند الراهب، إلا أنه يحسّ أنه في حاجة إلى طمأنينة أكثر تنبع من الواقع فوق يقينه الفطري[2]. . «اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟! . . .».

إن وضع الشخصية في مواقف جديدة تدفع مسار القصة إلى النمو، مما يجعل الشخصية تتخذ سلوكاً معيناً يمليه عليه الموقف أحياناً، وأحياناً أخرى يكون هذا الاتجاه نابعاً من ذاتيتها هي وما تلتزم في نفسها أساساً من قيم. .

والقصة تضع في طريق الغلام إلى الساحر «راهباً»، ووجود هذا الراهب في طريق الغلام، لم يكن مصادفة، ولا شيئاً عابراً، وإنما كان مقصوداً تطلبته الحبكة القصصية، وكان له آثاره البعيدة في حركة القصة، وتوجيهها بشكل معين. .

ونجد الغلام يتخذ تصرفاً معيناً، فها هو يجلس إلى الراهب، وسمع كلامه، ونجد القصة تضيف بُعداً جديداً إلى هذا التصرف، وهو أن الغلام أُعجب بكلام الراهب «فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه».

ولو مضينا مع القصة لوجدنا في تطور الأحداث وضع الشخصيات في مواقف جديدة، كمواقف الغلام مع الدابة التي اعترضت طريق الناس،

---

(١) المصدر السابق: ٣٠٨.

(٢) القصص النبوي: ١٧٣.

وموقفه من الملك، وكذلك المواقف التي وضعت فيها جليس الملك أمام الملك نفسه حين أخذ يعذبه حتى دلَّ على الغلام، وموقف الراهب أمام الملك[1]. . الخ.

الإيمان الصادق والابتلاء:

ونمضي مع مسار القصة، مع الغلام المؤمن بعد أن رمى الدابة فقتلها. . «فأتى الراهب، فأخبره، فقال له الراهب: أي بُني أنتَ اليوم أفضلُ مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنَّك سَتُبْتَلى، فإن ابتليتَ، فلا تدلَّ عليَّ، وكان الغلامُ يُبْرِىء الأكْمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمعَ جليس للملك كان قد عَميَ ـ فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ها هنا لك أجمع، إن أنتَ شَفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن أنت آمنتَ بالله، دعوتُ الله، فشفاك، فآمن فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال الملك: فلان! مَن ردَّ عليكَ بصرك؟ قال: ربِّي، قال: ولكَ ربٌّ غيري؟ قال: ربي وربُّك الله، فأخذه، فلم يزل يُعذِّبه حتى دَلَّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بُني قد بلغَ من سِحْرِك ما تُبرىءُ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل! قال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فأخذه، فلم يزل يُعذِّبه حتى دَلَّ على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضَع المِنْشار في مَفْرق رأسه، فشقَّه حتى وقع شِقَّاه.

ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فَوضَع المنشار في مَفْرق رأسه فشقَّه به حتى وقع شِقَّاه. ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نَفَر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتُم ذُروته، فإن رَجَع عن دينه، وإلا فاطرحوه. . ».

إنه الإيمان تُصوره القصة ليستقر في القلوب. . صُورٌ شاهدة تهزُّ

---

(١) المصدر السابق: ١٩٣.

النفوس، ترسم الحقيقة في التصور الإسلامي، فالإيمان الصادق وراءه ابتلاء.. «فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضلُ مني، قد بلغَ من أمرك ما أرى، وإنك ستُبتلى..».

إن هذه الكلمة «ستُبْتَلى» تثير اليقظة، فليست المسألة مصادفة بلا تدبير. وليست حقيقة الإيمان كلمة تُطلق جزافاً. إنما هو الابتلاء الذي يتلو الإيمان. يقول الله تعالى: ﴿**أحسبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا: آمنا وهم لا يُفتنون؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]..

الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك وعقيدة المؤمنين، والفتنة التي يتعرض لها المؤمنون لتحقيق هذا الإيمان؛ وكشف الصادقين والكاذبين بالفتنة والابتلاء.

إن الإيمان ليس كلمة تُقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف؛ وأمانة ذات أعباء؛ وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال. فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا. وهم لا يُتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم. كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به ـ وهذا هو أصل الكلمة اللغوي وله دلالته وظله وإيحاؤه ـ وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب.

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت، وسُنة جارية، في ميزان الله: ﴿**ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**﴾..

ويقدم القرآن نماذج متعددة من الابتلاء بالإضافة إلى الحريق في قصة أصحاب الأخدود، وفي هذا مصدر الإلهام للدعوات. فالدعوات الإلهية يمتد تاريخها إلى الله في أول الأمر وآخره. ويضم ميراثاً ضخماً من النماذج في تعدده وتنوعه ويكوّن مجموعة كاملة يجد فيها المؤمن والمجاهد ما يحتاج إليها في علاج نفسه حين يُضنيها الجهاد.

وفي هذه القصة أمثلة حية توضح المنهج الذي يسير عليه المؤمنون،

فكانت صورة واقعية طَبَعها الإسلام في قلوب المؤمنين في كل زمان وفي كل مكان.

لقد خاض المسلمون الأُول في العهد المكي معركة الصبر وتعرضوا للمحنة لا يمتلكون إلا سلاح الإيمان. فكان العذاب الشديد يقع على مَن يؤمن برسول الله ـ ﷺ ـ والذي يصفه ابن عباس فيقول: «كانوا يضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الذي نزل به».

ولم يكن الصحابة على علم بمدة هذه المحنة والنبي لا يعدهم بسرعة كشفها، وإنما يمرّ على آل ياسر وهم يُعذَّبون فيقول: «صبراً آل ياسر. لا أملك لكم من الله شيئاً. إن موعدكم الجنة». فليس بينهم لقاء قريب في مَنصب من مناصب الحكم أو عَرَض من عروض الدنيا الزائلة، وإنما المحنة تصهر النفوس وتنقيها من الخَبَث وتميز بين المعدن النفيس والمعدن الخسيس..

لا شيء كان بين الرسول ـ ﷺ ـ وبين المؤمنين المبتَلين إلا العقيدة واللقاء في الجنة.

كان المسلمون في مكة يعانون من محنة قاسية، فقد شكوا إلى الرسول ـ ﷺ ـ شدة ما يلاقونه من عَنَت قريش وإيذائهم لهم، وقالوا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ فكان جوابه قصة الدعوة، فقد حكى لهم حكاية الرجل المؤمن بربه، الذي كان يلاقي من العذاب ما تعجز عن حمله الجبال الراسيات، وكانت هذه القصة تسرية للمؤمنين من ناحية، وتعليماً لهم أن هذا هو طريق الجنة والخلود.. وقد زرعت في قلوب الصحابة أوتاد الثبات، ورسخت في نفوسهم القدرة الصلبة على تحمل ما يلقونه من الشدائد المزلزلة..

يقول الصحابي خباب بن الأرت رضي الله عنه:

«شكونا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو مُتوسّد بردة في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا».

وإزاء هذه الشكوى كان لا بد أن يتخذ الرسول ـ ﷺ ـ موقفاً ما، ولما

كان الوقت لم يحن بعد للمواجهة، ولم يحن وقت القتال والمصادمة، رأى أن يُثبّت أصحابه، وأن يقوي عزائمهم، وفي سبيل ذلك اتخذ من القصة وسيلة يُسري عن طريقها عن قلوب أتباعه، ويخفف عنهم ما يلقونه من عنت وأذى، ولذلك جاء رده على الذين شكوا إليه أن قصّ عليهم قصة «الحديد والإيمان» التي تصور شدة ما يلقاه أسلافهم من المؤمنين، وتَعرض بعض ما كانوا يلقونه من أبشع ألوان التعذيب والتنكيل، حتى لقد كان الرجل منهم يُحفر له في الأرض، فَيُجعَل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق به نصفين، ويُمشَّط بأمشاط الحديد، ولكنه مع ذلك ثابت صابر، لا يحيد ولا يلين ولا يصده ولا يصد أمثاله عن دينهم.

يقول الرسول ـ ﷺ ـ: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فَيُجاء بالمنشار فيوضَع على رأسه، فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه . . »(١).

إنه الرجل المؤمن الذي يُنشر بالمنشار فلا يصدّه ذلك عن دينه. والرسول ـ ﷺ ـ يُصور لوحة المعاناة التي كان يلقاها السابقون، فيؤدي هذا إلى تخفيف ما يعانيه المسلمون، ويوجد لديهم شعوراً بأنهم ليسوا وحدهم الذين يُعانون، وأن هناك مَن عانى أشد وأقسىٰ مما يعانون!!

ومن الأغراض التي قصدت إليها القصة غرض التسرية عن المؤمنين، وتخفيف ما يعانونه من ضغط عاطفي، ينشأ من مواجهتهم للمجتمع الجاهلي المتسلط في بداية الدعوة الإسلامية. فقد كان المسلمون يلاقون من قريش أشد أنواع التعذيب والتنكيل، فوق ما يُرمون به من التسفيه والسخرية والازدراء، كل ذلك من أجل صَدّهم عن دينهم الجديد الذي يدعوهم إليه محمد ـ ﷺ ـ

---

(١) البخاري ٤/٢٤٤ وفي نهاية الحديث يبشر الرسول ـ ﷺ ـ المسلمين بالنصر والتمكين فيقول لهم: «والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

وقد بلغ الأمر بالمسلمين إلى أن شكوا إلى الرسول ـ ﷺ ـ من شدة ما يلقون من أذى قريش كما تقدم.

لقد صبر هؤلاء المؤمنون في العذاب والألم. وسلاحهم الإيمان والصبر الطويل الذي لا يعرف حدوداً، وجزاؤهم هناك عند رب العالمين ﴿**فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**﴾ [السجدة: ١٧]..

والقصة تعرض مواقف تشبه مواقف المسلمين، في كل زمان وفي كل مكان، وتصور ظروفاً وملابسات تعكس ما يعيشونه من ظروف وما يعانونه من إيذاء، وهذا يخفف عنهم بعض ما يجدون من ناحية، ويُثبتهم من ناحية أخرى، فهم يحسون بهذه المواقف بأنهم ليسوا وحدهم في هذا الميدان، وأن هناك مَن سبقوهم في هذا الطريق، وعانوا أشد مما عانوا، وأن عليهم أن يصبروا ويُصابروا حتى يأتي وَعْد الله ونصره. كما تُصوّر القصة ما يلقاه أصحاب العقيدة والمبدأ من عسف وطغيان، وتصور الثبات والتضحية الرائعة في سبيل الله: «فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضعَ المِنْشار في مَفْرق رأسه، فشقَّه حتى وقع شِقّاه. ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مَفْرِق رأسه فشَقَّه به حتى وقع شِقَّاه. ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى...».

إن الشهيد في سبيل العقيدة نَعِمَ برضى الله عنه، وأرضاه بالشهادة بعد أن أدَّى الرسالة، وأرسى الأساس لبناء الإيمان، وترك ذلك كله وديعة مباركة في يد الله الذي أكرمه بالهدى والشهادة في سبيل الحق، فمضى إلى ربه شهيداً عزيزاً، يشهد له دمه الحر الزكي المُراق في سبيل الله.

ونمضي مع القصة في حلقات رتيبة مُؤثِّرة في سلسلة التربية للجماعة المسلمة. حيث يقف المسلمون على أرض صلبة، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد. مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة للّه، ليس لأنفسهم منها نصيب، ولا لذواتهم منها حظ.. إنما هي للّه وحده. وأنهم يواجهون قوماً أهل

باطل، وهم يوقنون أن الله وليّهم. وأنهم يواجهون قوماً، الشيطان وليّهم فهم إذن ضعاف.. إن كيد الشيطان كان ضعيفاً..

وهكذا يتقرر المصير في حسّ المؤمنين، وتتحدَّد نهايته، وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن في الفتنة والابتلاء ـ فهو واثق من النتيجة ـ أم بقي حتى غلب، ورأى بعينيه النصر؛ فهو واثق من الأجر العظيم..

من هذا التصور للأمر في كلتا حالتيه، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حَفِظَها تاريخ الدعوات؛ والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة. وما بِنَا أن نضرب لها هنا الأمثال؛ فهي كثيرة مشهورة.. ومن هذا التصور كان ذلك المدّ الإسلامي العجيب، في أقصر فترة عُرفت في التاريخ؛ فقد كان هذا التصور جانباً من جوانب التفوّق الذي حققه المنهج الرباني للجماعة المسلمة، على المعسكرات المعادية.. وبناء هذا التصور ذاته كان طَرَفاً من المعركة الكلية الشاملة التي خاضها القرآن في نفوس المؤمنين، وهو يخوض بهم المعركة مع أعدائهم المُتفوقين في العدد والعدّة والمال؛ ولكنهم في هذا الجانب كانوا مُتَخلّفين؛ فأمسوا مهزومين.

وها نحن أولاء نرى الجهد الذي بذله المنهج في إنشاء هذا التصور وتَثبيته. فلم يكن الأمر هيناً. ولم يكن مجرد كلمة تقال. ولكنه كان جهداً موصولاً، لمعالجة شحّ النفس، وحرصها على الحياة ـ بأي ثمن ـ وسوء التصور لحقيقة الربح والخسارة.. وفي القصة بقية من هذا العلاج، وذلك الجهد الموصول..

«ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نَفَر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل؛ فإذا بلغتم ذُرْوَتَه، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به، فصعدوا به الجبلَ، فقال: اللهم اكفنيهم بما شِئتَ، فَرَجَفَ بهم الجبل، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فَعل أصحابك؟ قال: كفانيهم اللّهُ، فدفعهُ إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به، فاحملوه في قُرقور، فتوسَّطُوا به البحر،

فلجِّجوا به، فإن رجع عن دينه، وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شِئْتَ، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمُرك به. قال: وما هو؟ قال: تَجمع الناس في صعيد واحد، وتَصْلُبني على جِذْع، ثم خُذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قُل: بسم الله ربّ الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلتَ ذلك، قتلتَني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصَلَبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله ربِّ الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صُدغه، فوضَع يده في صُدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا بربِّ الغلام - ثلاثاً - فأُتي الملكُ، فقيلَ له: أرأيتَ ما كنتَ تحذر، قد والله نَزَلَ بك حَذرُك، قد آمنَ الناس، فأَمَرَ بالأخدود في أفواه السِّكَك، فَخُدَّت، وأضرمَ النيران، وقال مَن لم يرجع عن دينه، فأحموه فيها، ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبيٌّ، فتقاعست أن تقعَ فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّه اصبري، فإنك على الحق».

إن الإيمان أمانة الله في الأرض لا يحملها إلا مَنْ هم لها أهل، فهي أمانة كريمة وهي أمانة ثقيلة، وهي من أَمْر الله يضطلع بها الناس ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء، والفتنة سُنّة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف..

«لقد أرَّخ المؤمنون أصحاب الأخدود بدمائهم وأشلائهم وضحاياهم دورة رائعة من دورات الكفاح بين الحق والباطل.

إن المؤمن وهو في المحنة ينظر إلى الله عز وجل يوقن أن عين الله لن تتخلى عنه. لقد ارتفعت زفرات المؤمنين أصحاب الأخدود كأسراب الطير المذعور تخترق الفضاء إلى حيث تجد المأمن في جوار ربٍّ عظيم لا تضيع عنده الودائع».

والمؤمنون الصادقون بحكم إيمانهم واستعدادهم النفسي تجدهم

يواجهون المحنة ـ مهما طالت ـ بقلوب ثابتة وهي مُنصهرة بنار الفتنة، ساخنة بحرارة الابتلاء.. تجدهم على كثير من الاطمئنان. وكأن البلاء عندهم شيء مُتَوقَّع ذو وَعْد صادق ولهذا كان قول المؤمنين حين رأوا الأحزاب: **﴿هذا ما وَعَدَنا الله ورسوله وصَدَق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾** [الأحزاب: ٢٢]..

إن قصة أصحاب البروج تستحق أن نقف أمامها طويلاً نُدركها ونَتَدَبَّرها، ونتلقى أحداث الحياة وامتحاناتها على ضوء ذلك الإدراك وهذا التدبر.

إن القصة تُصور القيم الثابتة والسنن الباقية. ومن ثم تبقى قاعدة ومَثَلاً لكل جيل ولكل قَبيل، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة، وهنا تتحول القصة من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات، وتنتفض الأحداث والوقائع المُصَوَّرة فيها. تنتفض خلائق حيّة مُوحية دافعة دافقة تعمل في واقع الحياة وتدفع بها إلى حركة حقيقية في عالم الواقع وعالم الضمير.

قَدَر الله وقُدرته:

إن هذه القصة تعطينا تصوراً إسلامياً عن «الله» ـ سبحانه ـ وتُعرفنا بقدرته، فهو المهيمن القادر على خَلْقه، يتصرف فيه كما يشاء، ويفعل به ما يريد، وتوجيه قوى الكون وطاقاته حسب أوامر الله.

وفي القصة يُسخِّر البحر لإهلاك أهل الشرّ والكفر، نجد ذلك حين أمر الملك أصحابه أن يذهبوا بالغلام ويتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا قذفُوه فيه، ولكن الغلام يدعو الله أن يكفيه إياهم بما شاء ـ سبحانه ـ: «... فقال: **اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا...**».

ومثل البحر في هذه القصة الجبال، فهي خاضعة لأمر الله وإرادته، فقد دفع الملك الغلام إلى نفر من أصحابه، وطلب منهم أن يصعدوا جبلاً شاهقاً، فإن رجع عن دينه وإلا رموه من قمته، وهناك دعا الغلام ربه قائلاً: «**اللهم**

اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك..».

وهكذا نجد أن القصة تصور العلاقة بين الله والكون، علاقة بين خالق مالك متصرف، وكَون مخلوق خاضع لأمر الله وإرادته، كذلك نجد أن القصة تُثبت في القلوب أن الله ـ سبحانه ـ قريب من خلقه في الدنيا بلطفه وعنايته وتأييده ونصره فهو سميع قريب مجيب الدعاء يسخّر لهم ما في برّه وبَحرِه.. فقد استجاب الله لدعاء الغلام فأنقذه مما أراد به أتباع الملك من إغراقه مرة في البحر، ومن رَمْيِه مرة من قمة الجبل الشاهق.

وكان قَدَر الله أن يلطف بالغلام حينما حاول أعوان الملك قتله، وها هو حين يعود إلى الملك يقول له: «كفانيهم الله»..

كذلك نجد في القصة خوارق ومُعجزات، يُجريها الله تبارك وتعالى، بحيث تتم في صورة مخالفة لسنن الحياة الطبيعية، ومنها المعجزة التي تدفع المؤمنين المخلصين إلى أن يستمسكوا بالحق الذي هُم عليه، وأن يثبتوا مهما كلفهم ذلك من ألم وعناء، فها هو الصبي في المهد ينطق بإذن الله.. وقد صوَّر النبي ـ ﷺ ـ لوحة ناطقة بالإيمان الرفيع، والصبر العميق، في المشهد الرائع الحي الذي خُتمت به القصة: «فأَمر بالأُخدود في أفواه السِّكك فَخُدَّت، وأَضرم النيران وقال: مَن لم يرجع عن دينه فأَحْمُوهُ فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبيٌّ لها، فتقاعست[1] أن تقع فيها، فقال لها الغلامُ يا أُمَّهِ! اصبري، فإنك على الحق».

والطغيان والجبروت والكفر بالله ناحية تبرزها القصة النبوية، تعكس بها جانب الشر الذي تنطوي عليه نفوس الملوك بشكل خاص وذوي السلطان.

فالملك يقوم بمحاولة يائسة لإقناع الجليس والراهب بالعودة عن دينهما الجديد، فلما أحسّ منهما الإصرار على الكفر به والإيمان بالله، أمر بهما فَنُشِرا شقين بمنشار الحديد.

---

(١) أي توقفت ولزمت موضعها وكرهت الدخول في النار، شرح النووي على «صحيح مسلم» ١٨/١٣٣.

http://al-maktabeh.com

وترسم القصة صوراً مضيئة للإيمان بالعقيدة، والثبات عليها، والتضحية في سبيلها، ومواجهة الأهوال من أجل نصرتها، حتى لو كان ذلك الهول هو الموت في أقسىٰ وأبشع صورة على أيدي الطغاة والمتجبرين، كل ذلك واقع إنساني حَقَّقته شخصيات بشرية في أكثر من شخصية، ومن مستويات مُتعددة. ولعل هذا التعدد في المستويات يعكس قضية، تحب القصة أن تلفت النظر إليها، وهي أن مثل هذا الإيمان يشكل ظاهرة عامة في جميع فئات الإنسانية، فنجدها في شخصية «الراهب» و «جليس الملك» اللذين أُعدما شَقًّا بالمنشار، وفي شخصية «الغلام» الذي قَدَّم نفسه قرباناً للعقيدة حين فتح صدره لسهام الملك الكافر، وفي شخصية «المرأة» التي ألقت بنفسها مع رضيعها في الأخدود المضطرم بالنيران، وفي «الجماهير» المندفعة في أفواه السكك تواجه الحريق، ولا تتنازل عن الإيمان بالعقيدة الجديدة.

ذلك كان هو التصور الإسلامي للعقيدة، ومنه نَبعت الواقعية الإسلامية، فقد كانت الشخصية الإنسانية في القصة، تنقل لنا بأمانة ودقة واقع الإنسانية الكبير في إطاره الصحيح، الذي يجمع أطراف ذلك الواقع وجوانبه المختلفة بخيره وشرّه، بقوته وضعفه، بإيمانه وكفره، بما فيه من جوانب روحية وجوانب مادية، وواقعه وهو يرتفع إلى مستوى نفخة الروح، وهو يصارع الطاغوت المُتَجَبّر بسلطانه وقوته[1].

والقصة تحكي طريق الدعوة إلى الله، وهي تحمل نماذج بشرية رائعة لثبات أهل العقيدة وصمودهم، وهي مواقف تتمثل في أكثر من شخصية، كما نجد في موقف الراهب، وموقف الجليس، وموقف الغلام، وموقف المرأة، وموقف الجماهير الذي يحمل أكثر من جانب يصور الواقع الإنساني الذي تبعثه العقيدة في الحياة، وأكثر من درس للتضحية والثبات في الطريق إلى الله.

وفي القصة نجد قَدَر الله تعالى يقف إلى جانب الغلام حين دفعه الملك

---

(١) القصص في الحديث النبوي ٤٦٨، وانظر ص: ٢٣٧، ٢٤١، ٤٧٠.

إلى نفر من أصحابه، وطلب منهم أن يذهبوا به إلى جبل شاهق، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، وهناك رجف الجبل فسقطوا، وجاء الغلام سليماً إلى الملك، ومرة أخرى يدفعه الملك إلى نفر آخرين ويطلب منهم أن يتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه في البحر، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا جميعاً، ما عدا الغلام الذي جاء مرة أخرى يمشي إلى الملك، فهذه أحداث غير عادية يُجريها الله ـ سبحانه ـ بقدره الذي لا مردّ له من أجل نصرة أهل الحق، وإهلاك الضالين، كما نحسّ أنها تضمن للقصة نوعاً من الاستمرار والنمو في الأحداث، فنجاة الغلام كانت سبباً في نشوء أحداث أخرى وتطورات جديدة في مسار القصة. .

ومما يثير الانتباه، ويُصَعّد شَوق المستمعين والقارئين للقصة، تنويع الصورة التي تبرز فيها الأحداث على مسرح القصة، وعدم استمرارها على وتيرة واحدة، حيث نجد أن هذا التنويع يعطي تجديداً في الإيقاع العام، وتفاوتاً في درجاته بين مرحلة ومرحلة، في بناء القصة، مما يجدد نشاط المتلقي، ويجعل رغبته في المتابعة حَيّة دائماً، ونجد تحويل مجرى الأحداث في القصة يتسارع في المرحلة التي اكتشف فيها الملك إيمان الغلام بعقيدة الراهب، فبعد أن أعدم الجليس، والراهب، دفع «الغلام» إلى نفر من أصحابه ليذهبوا به إلى جبل شاهق فيطرحونه من أعلاه فقال الغلام «اللهم اكفنيهم بما شئت» فرجّ بهم الجبل فهلكوا جميعاً، وعاد هو يمشي إلى الملك. . ثم دفعه إلى نفر آخر وأمرهم أن يذهبوا به إلى البحر فإذا توسطوا فيه ألقوا به في الماء، وحين توسطوا البحر قال الغلام: «اللهم اكفنيهم بما شئت» فغرقوا، وعاد الغلام يمشي إلى الملك.

وهنا نجد تحويلاً لمجرى الأحداث من هذا الاتجاه فقد كان يمكن أن يدفع الملك بالغلام إلى أحد أصحابه ويأمره بأن يقضي عليه في صورة أخرى من الصور، ولكن الأحداث هنا تأخذ مساراً جديداً حافلاً بالحيوية والتشويق، فالغلام في هذه المرة هو الذي يتكلم، وهو الذي يقترح على الملك الطريقة التي يمكن بها قتله. . .

وهذا الاقتراح العجيب يحمل في تضاعيفه معاني كثيرة، وأسراراً خاصة، تُثير تَطَلّعنا ولهفتنا لمعرفة مستقبل الأحداث، وماذا ستسفر عنه من نتائج.

إن عقدة القصة أو مشكلتها الأساسية تبرز على ساحة القصة في مرحلة الوسط، وهي المرحلة المليئة بعناصر التعقيد والتشابك، وتأزيم المواقف بشكل ملحوظ، تتجلى بعد مرحلة متقدمة، وبعد عدة مواقف مضت في عرض القصة، بل إن المشكلة هنا تأتي ولادة طبيعية لما سبقها من مواقف وأحداث في القصة، هذه المشكلة هي: اكتشاف الملك للعقيدة الجديدة ومحاربته لها، ولا نغفل أنه هناك مشكلة صغيرة سبقت هذه المشكلة، وذلك حين صار الغلام يُعاني من مشكلة تعوق استمراره في التردد على الراهب[1]، وهي ضَرب الساحر له بسبب تأخره عند الراهب، ولكن هذه مشكلة فرعية جداً، وتأتي في موقف صغير، وتنتهي بانتهاء هذا الموقف، فهي ليست مشكلة عامة تؤثر في مجرى القصة وتوجيه أحداثها، مثل ما هو متوافر في **موقف الملك من الدعوة وأصحابها**، فاكتشاف الملك للعقيدة الجديدة والدعوة إليها في المجتمع الذي أخذ في التأثُّر بها، **هي العقبة التي تواجه الدعوة وأتباعها**، فالملك يرى فيها خطراً يُهدّد وجوده القائم على الجهل بالحق، وعلى الخرافات والأوهام المعتمدة على السحر والدجل، وهذه الدعوة ستكشف هذا الباطل وأوهامه[2].

ونلاحظ أن المشكلة التي كانت كامنة في ثنايا القصة تبرز بوضوح بسبب الحوار الذي تم بين الملك وجليسه بشأن شفائه من دائه..

«فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس. فقال له الملك: مَن ردَّ عليكَ بَصرَكَ؟

قال: ربي.

قال: قال: ولَكَ ربٌّ غيري.

(١) انظر الحديث من الوجهة البلاغية، عز الدين السيد ص ٤٤٧، وأصحاب الأخدود لرفاعي سرور ص ٢٤.

(٢) انظر القصص النبوي ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٥، ٣٩٠.

قال: ربي وربُّك الله».

وهكذا تنشأ «المشكلة» أمام الجميع؛ أمام الملك في هذا الفكر الجديد الذي يتهدده، وأمام الدعوة في اكتشاف الخصم الألد «الملك» لوجودها ورجالها، وتبدأ المشكلة في تحريك الموقف ودفع الأحداث في اتجاهات مختلفة، وتصعيدها بصورة متلاحقة سريعة، فالملك اتخذ موقفاً طاغياً، حين أخذ الجليس فلم يزل يُعذبه حتى دَلَّ على الغلام، وأحضر الغلام، فلم يزل يعذبه حتى دَلَّ على الراهب.

وبدأ الطاغية يحارب الدعوة بالعنف تجاه الأتباع تارة، وبالإغراء للداعي تارة، حتى إذا عجز في صدّ المُقبلين، وأصحاب الدين الجديد أَخَذهم بالقوة والقتل والتعذيب، فها هو يشقّ الراهب والجليس نصفين بالمنشار أمام الغلام وأمام الناس للترهيب والتخويف، وهو يحاول مع الغلام بالإغراء فيعجز، ونستشف من هذا الإغراء حِرْص الملك على أن يكسب الغلام بما لديه من قدرات خاصة عجيبة إلى صَفّه، وهو لذلك يحاول معه بأساليب مختلفة لعلها تُرهبه بعد أن عجز في ترغيبه، فهو لا يحاول قتله مباشرة، بل يبعث به مرة إلى الجبل الشاهق مع أعوانه عَلّه يتراجع في مسافة الطريق، ثم إن الملك قد أوحى إلى أعوانه أنهم قبل أن يلقوه من أعلى الجبل، أن يحاولوا معه أن يرتد عن دينه، وحين عاد الغلام سالماً من الجبل، وقد هلك أعوان الملك، بعث به إلى البحر مع جند آخرين، وطلب منهم أن يعرضوا عليه ترك دينه، وإلا فليلقوه في البحر، ولكن الغلام يعود ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ويقرر الغلام بتوجيه الله أن ينهي الأمر مع هذا الملك الطاغية، فيكشفه أمام الجماهير، ويكشف عن الناس غُمَّة الشرك والضلال، وهذا الموقف الذي يُقرر الغلام أن يتخذه إنما هو في الواقع نتيجة غير مباشرة «للمشكلة» التي دفعت بالأحداث في هذا الطريق، بحيث ترتب على سيرها بهذه الصورة أن يقف الغلام الداعية هذا الموقف حين أشار على الملك برأي قال فيه:

«إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع

الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله، رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فَعَلْتَ ذلك قتلتني».

وفعل الملك ذلك، وإذ الناس يهتفون من كل اتجاه: «آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام».

وتبرز المشكلة في صورة أكبر وأشد خطراً أمام الملك، ويتسع الخَرق على الراقع، لقد كان يواجه في البداية مشكلة «ثلاثة فقط» وها هو الآن أمام الجماهير الهاتفة بالدين الجديد، الذي لا يُرهبها الموت والعذاب الشديد، فتثور ثائرته ويتفجّر الغيظ في قلبه، وينفث فكره المحموم المجرم، فكرة خبيثة، تصوَّر بها أنه يهزم هذا الإيمان المدوي في جنبات هذه الساحة التي شهدت مصرع الغلام، فإذا به يأمر بالأخاديد تُشق في أفواه السكك، وتُضرم فيها النيران، ويلقي فيها المؤمنين.

وهنا نشهد ذروة هذه المشكلة في هذه المواجهة العنيفة للمؤمنين الصامدين المنتصرين في الملأ الأعلى...

والتضحية هي ذلك الموقف الذي تبرزه القصة بشكل كبير، حين قرر الغلام الداعية أن يقدم نفسه قرباناً للّه في سبيل أن ينكشف هذا الملك الطاغية، وتتهاوى دعاواه بشأن الربوبية، أمام الجماهير، فيقترح على الملك الطريقة التي يمكن بها أن يقتله، وينفذ الملك ما أمره الغلام به، ويحدث ما توقع الغلام من إيمان الناس، بعد أن اتضح لهم الحق، واستبان الطريق.

وهكذا ترسم القصة صورة مؤثرة لمنارة الإيمان وشعلة الحق تضيئها القلوب الزاهرة العامرة بنور الله..

والصراع في القصة بين الدعاة إلى الحق، وبين الباطل وأهله، مواجهة فعلية بين قوتين، قوة الملك، وقوة أهل «الدعوة الجديدة» وما حدث في ذلك من تنكيل وإرهاب، وقتل لأهل الدعوة.. ومثل ذلك ما يحصل للدعاة

والمؤمنين في كل زمان ومكان. . إذ يواجه المؤمنون من الطغاة تنكيلاً وإرهاباً وتعذيباً، ولكن ذلك لا يصدهم عن دينهم، لأنهم يعرفون أن هذا هو الطريق، فهم يَصدقون الله على عهد الإيمان، وما بدّلوا تبديلاً.

ونجد في خاتمة القصة مشهداً مروّعاً. . نرى صوراً مثيرة للمؤمنين، وهم يَلْقَون الموت حرقاً في الأخاديد، يُلقون بأنفسهم في النار إيثاراً للعقيدة، على الاستكانة لهذا الطاغية الجبار. . لقد انتصرت العقيدة التي حملوها، وماتوا في سبيلها.

كم كانت العقيدة تخسر، ولكم كانت الإنسانية نفسها تخسر لو رضوا بالنجاة من هذه النار الدنيوية، وخضعوا وذلّوا لهذا الملك الإنسان، الذي يريد أن يكون لهم ربًّا من دون الله، لقد كانوا يخسرون ـ لو فعلوا ذلك ـ كرامتهم وحريتهم، إنهم انتصروا في حساب الله، وهذا وَحده يكفي، إنهم انتصروا على ضعفهم، وعلى آلامهم، لقد سَجَّلوا للإنسانية موقفاً يُحتَذى تفخر به، وهم ينتصرون بأرواحهم على أجسادهم التي تلتهمها هذه النيران[1].

وفي القصة نجد أبشع صور الظلم والطغيان يمارسها الملك وأعوانه، ومَن أظلم ممن ادعى الربوبية من دون الله ـ سبحانه ـ فالملك يقول للجليس بعد أن شفاه الله بفضل إيمانه ودعاء الغلام له:

«مَن ردّ عليك بصرك؟

قال: ربي. قال: أولكَ ربّ غيري؟! قال: ربي وربك الله!».

وهنا أخذ الملك في تعذيب هذا المؤمن حتى دل على الغلام، وأحضر الملكُ الظالمُ الغلامَ ولم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب، وأحضر الراهب، ولما عجز الطاغية عن أن يرده عن دينه، أمر بالمنشار فأُحضر، فوضعه في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه. . وكذلك فعل بالجليس، «وهكذا يتعامل الظَلَمة مع دعاة الحق فلا فرصة للمناقشة، ولا سبيل إلى الإقناع، ولئن كان الملك

(١) انظر القصص النبوي ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٢، ٢٢٥.

ظالماً، وسبيل بقائه في الحكم هو السحر، إذن فلا قضية عنده ولا مبدأ، ولهذا لم يجد وسيلة في مواجهة الموقف إلا التعذيب والتقيل»[١].

ثم المشهد البشع للطاغية الظالم الذي أمر بالأخاديد فتُحفر، والنيران فتُضرم فيها، حيث يُلْقَىٰ فيها كل مَن لم يرجع عن دينه. .

إنها اللوحة المُعَبِّرة التي تنطق بكل معاني الجبروت والتسلط والشر، والذي تنطوي عليه النفس الخبيثة المستقرة في أعماق هذا الملك الطاغية. وفي المقابل نرى صوراً رائعة لشخصيات تَضرب أروع الأمثلة في الثبات للمحن والشدائد الذي يواجه المؤمن وهو يستمسك بدينه وعقيدته لا يبغي بها بدلاً مهما كلفه ذلك من تضحيات جسام.

نجد أمثال هذه الشخصيات في «الراهب» و «جليس الملك» و «الغلام» و «المرأة» و «الجماهير المؤمنة». . كلها نماذج حية تُعرض وهي تواجه المحنة وتصبر عليها. .

إن هذه القصة التاريخية لون واقعي، المقصود منه الحالة التي تُمثلها القصة، لا الشخصية في ذاتها، فالحدث هو محط الاهتمام، والمقصود هو نوع الحدث، ونوع الموقف، لذلك نجد شخصيات القصة لا تُذكر مُعَيَّنة بأسمائها، والرسول - ﷺ - يقول: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر. .» أما اسم الملك واسم الساحر، ومكان الحادثة بالتحديد فلا تعرض له القصة، ولا تهتم به، فالشخصيات تُذكر بصفاتها التي تخدم طبيعة أدوارها في القصة، وتُحدد ملامح مواقفها، فتذكر القصة فيما بعد «الراهب» و «الغلام» و «جليس الملك» وهكذا.

وهذا بلا شك يُعطي للقصة الحيوية والحركة في التأثير المستمر في كل زمان، وفي كل مكان، لأنها قد تحررت من قيد التحديد بواقعة مخصوصة معينة، وانطلقت في رحاب أوسع في مجال التأثير والتوجيه، بحيث تحكي

---

(١) رفاعي سرور، أصحاب الأخدود ص ٥٤.

وتُصوّر كل تجربة تماثل التجربة الأساسية، وتصبح نموذجاً عاماً لحالات ومواقف حدثت، أو يمكن أن تحدث مما يواجه الدعاة من ضغوط وطغيان، وما يُقدّمه المؤمنون من تضحيات وفداء في سبيل مبادئهم وقيمهم.

إنها الحياة! تُعبِّر عنها القصة بالصورة المُحسّة، والمشهد المنظور، فهي ترسم النموذج الإنساني، وتصور الطبيعة البشرية وهي تتفاعل في نفوس آدمية حيّة. . ذلك طريق الدعوة مُوحَّد بارز يعرض في مشاهد شاخصة، ونماذج إنسانية واضحة في كل مرحلة من مراحل القصة.

ومن هنا تظل القصة نبراساً يُضيء طريق الدعاة، وأهل الحق في كل جيل، ويظل عطاء القصة ثرًّا يتجدد باستمرار.

ونجد القصة خاضعة خضوعاً تاماً للغرض الديني، فالرسول - ﷺ - تَلَقَّى مادته من الوحي، وكان يعرضها في مشاهد **تُصوّر حركة العقيدة في نفوس المؤمنين**، ويرسم طريق الدعوة، وفوق ذلك تؤدي نوعاً من التخفيف النفسي مما يُعانيه المسلمون، فهي نور يضيء قلوب المؤمنين حيث ينشر الطاغية ظُلمه وظلامه على الناس، وهي دعوة للثبات والاستمساك بإيمانهم في وجه الابتلاء الشديد.

ولذلك نجد في عرض القصة الاكتفاء بما يحقق الغرض الديني المراد، بحيث يقتصر العرض لأحداث القصة ومواقفها على ما يؤدي إلى الأثر المنشود.

يتحرك العرض في القصة من نقطة مُبَكِّرة، تنشأ عنها أحداث متلاحقة، إذ يبدأ عرض الأحداث منذ إحساس ساحر الملك بتقدّمه في السن، مما جعله يطلب من الملك أن يبعث إليه غلاماً يعلمه السحر، إن هذه هي **الحلقة الأولى** في وجود الغلام على مسرح الأحداث، وهي **النقطة التي تطورت منها أحداث** القصة التالية، التي أسلم بعضها إلى بعض في تسلسل منطقي إلى النهاية، والقصة لتحقيق الأثر المطلوب احتاجت إلى نوع من التفصيل والإطناب في عَرْضها عبر مواقف متعددة، وجزئيات مختلفة(١).

---

(١) انظر القصص النبوي ٢٦٨، ٢٧٥، ٣٥٩، ٤٢٧، ٤٣١.

التضحية والفداء:

والشخصيات في القصة هي ذات وظيفة، تبرز على ساحة الأحداث مُحقّقة هدفاً معيناً، ودور الشخصية في القصة دَور مزدوج، ذلك أنها تُحقق في وقت واحد وظيفة فنية، ووظيفة موضوعية، ويمكن أن تصنف هذه الشخصيات من حيث الوظيفة الفنية التي تؤديها في بناء القصة إلى قسمين، شخصيات رئيسة، وشخصيات ثانوية.

«الملك» و«الغلام» هاتان الشخصيتان ظاهرتان في القصة، ومُستمرتان في العرض حتى النهاية، ولهما دور بارز في أغلب الحوادث وتطورها، فهما المحوران المحركان لمجرى القصة، والدافعان لها في طريق النمو.

فالملك كان وراء وجود الساحر، فالساحر «كان له»، وهو الذي بعث الغلام إلى الساحر، وهو الذي عذّب جليسه حتى دَلَّ على الغلام، ولم يزل يعذب الغلام حتى دلَّ على الراهب. وقام بإعدام الجليس والراهب في صورة رهيبة لتخويفه، وهو الذي دفع بأصحابه أكثر من مرة ليقضوا على الغلام، ولكنهم يفشلون في كل مرة، ثم قام بصلب الغلام أمام الجماهير عملاً بمشورة الغلام عليه، ثم أمر بالأخاديد تُحفر وتُضرم فيها النيران ويُلقى فيها بالمؤمنين.

وهكذا نلاحظ أن **الملك له دور مهم ورئيسي في إثراء البناء القصصي**، وإنماء التراكم في الأحداث إلى النهاية، وإن كانت نهايته هو تبهمها القصة، فلا تُحدثنا عنها بأي شيء.. ولا ندري إلامَ صار أمره.

والغلام يشترك مع الملك في أن له دوراً رئيساً أيضاً في توجيه مسار القصة، فهو يقعد إلى الراهب من تلقاء نفسه، ويعجب بكلامه، ويظل يتلقى عليه، مما نمّى شخصيته وأعطاها بُعداً جديداً كانت له آثاره في مستقبل الأحداث، فهو يرمي الدابة التي اعترضت طريق الناس ويقضي عليها، مما يلفت إليه نظر الناس، وإلى قدراته الخاصة طبيباً موفقاً بإذن الله، وقد أثَّر عن طريق عمله هذا في توجيه نظر جليس الملك إلى الإله الحق والعقيدة الصحيحة، وهو الذي دلّ على الراهب فيما بعد..

وكان إصراره على دينه دافعاً للملك إلى محاولة قَتْله أكثر من مرة، ثم هو الذي أشار على الملك بصلبه بالطريقة التي اختارها، مما كان فيها بعد وراء إيمان الناس، مما أدى إلى أن يثور الغضب في رأس الملك الطاغية. . فيحرقهم بالنار. .

والغلام نموذجاً للشخصية التي يتكشف لنا منها أكثر من جانب من خلال عرضها النامي، حيث بدأ على مسرح الأحداث وهو غلام صغير آختير ليتلقَّى فنّ السحر على يد الساحر، وقد أخذت هذه الشخصية تتطور، وتنمو شيئاً فشيئاً من خلال صراع مستمر مع الأحداث والمواقف التي تعرضت لها، وفي هذه الأثناء وعبر هذا النمو تتجلى لنا عدة جوانب، تتمثل في فطرته السليمة التي جعلته يميل إلى الراهب، حين أُعجب بكلامه، بعد أن قعد إليه وسمعه، بينما نجده يتأخر عن الساحر برغم أنه صاحب المنزلة الكبيرة عند الملك وعند الناس، وبرغم ما كان يناله بسبب هذا التأخر من ضرب!

وجانب آخر يظهر في هذه الشخصية بعد أن تمضي القصة بنا شوطاً، ذلك هو جانب القَلَق والصراع، الناشيء من تلقيه في وقت واحد من الساحر والراهب معاً، ومن هنا نراه يطلب اليقين من الواقع، بعد شعوره باليقين من الفطرة التي جعلته يميل إلى الراهب ويتأثر به، مما أنشأ عنده حَرَجاً وقلقاً أراد أن يَحسمه، ومن خلال تجربة واقعية[1]، سنحت بها الفرصة، حين اعترض طريق الناس دابة عظيمة سدّته عليهم «فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل! فأخذ حجراً فقال: اللهم: إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس. . ».

وهنا تأكد عنده باليقين الواقعي ما كان قد اختاره بالفطرة.

ومن الجوانب الأخرى التي تدلي بها هذه الشخصية: **وضوح التصور**

---

(١) رفاعي سرور ص ٢٨ ـ ٢٩ وانظر الشخصيات في القصص النبوي.

تجاه الله، والدعوة إلى هذا التصور السليم، وهو موقف يتضح من خلال حواره مع جليس الملك الذي جاء إليه يطلب منه الشفاء، فأخبره الغلام أنه لا يشفي، إنما الذي يشفي هو الله، وهو يدعوه إلى هذا التصور الإيماني فيقول: «فإن أنتَ آمنتَ بالله، دعوتُ الله، فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله».

ومن جوانبها أيضاً التي كشفتها الأحداث، الصبر عند البلاء في سبيل الثبات على المبدأ، وعدم الحيدة عنه مهما كلفه ذلك من عناء التعذيب، وحتى لو قُتل أمامه من قُتل إرهاباً وتخويفاً كما فعل الملك بالراهب والجليس حين شَقَّهما بالمنشار أمام الغلام، ولكنه لم يرجع عن دينه..

ومن الجوانب الفذة في هذه الشخصية، جانب التضحية والفداء الذي يتجلى في أروع صورة، حين قدّم الغلام نفسه إلى الإعدام بطريقة اقترحها على الملك ليتمكن بها من قتله، بعد أن فشلت جميع محاولات الملك في القضاء على الغلام، فقد أشار على الملك أن يجمع الناس في مكان واحد وأن يرميه بسهم قائلاً: «بسم الله رب الغلام»، ولما فعل الملك ذلك، وعرف الناس أن الملك لم يقدر على قتل الغلام إلا بعد أن قال: «بسم الله رب الغلام». وهنا اتضح الطريق المستقيم وأدركوا أن الله رب الغلام، هو ربهم جميعاً؛ ربّ العالمين؛ فانطلقوا في كل صوب يهتفون: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، وهذه هي النتيجة التي كانت في تقدير الغلام وهو يُقدّم نفسه تضحية لها..

إن الغلام أراد أن يُعلِّم الناس درساً بليغاً مُعبِّراً أن الموت بيد الله وحده. وأنه لا علاقة له بإرهاب الطغاة وتَسلُّطهم، وليس إلا الله يملك الموت والحياة.. فالذي يهب الحياة هو الذي يعرف سرها ويملك أن يَهَبها ويستردّها. والبشر قد يكونون سبباً وأداة لإزهاق الحياة، ولكنهم هم ليسوا الذين يُجرِّدُون الحي من حياته على وجه الحقيقة. إنما الله هو الذي يُحيي ويميت وحده دون سواه.

إن القصة تهدف فيما تهدف في بناء العقيدة تصحيح التصور عن الموت والحياة، وأسبابها الظاهرة، وحقيقتها المضمرة، وردّ الأمر فيهما إلى القُدرة

المدبرة. والاطمئنان إلى قدرة الله فيهما. والمضي في حمل التكاليف والواجبات دون هَلَع ولا جَزَع. فالمُقَدّر كائن، والموت والحياة بيد الله في نهاية المطاف..

إن الحذر من الموت لا يُجدي، وإن الفَزَع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدّان أجلاً، ولا يردّان قضاء، وإن الله هو واهب الحياة، وهو آخذ الحياة، وأنه مُتفَضّل في الحالتين حين يَهب وحين يستردّ، والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خلف الهِبَة وخلف الاسترداد. وإن مصلحة الناس مُتحققة في هذا وذاك، وإن فضل الله عليهم مُتحقق في الأخذ والمنح سواء.. إن الفزع والجزع والحذر لن تُغير مصير الناس ولن تدفع عنهم الموت، ولن ترد عنهم قضاء الله. والثبات والصبر أَوْلَى. فالهلع لا يردّ قضاء، وإن الفزع لا يحفظ حياة، وإن الحياة بِيَد الله هبة منه بلا جهد من الأحياء.. إذن فلا نامت أعين الجبناء!

إن الحياة والموت، وحقيقة الحياة والموت تؤلف جانباً من جوانب التصور الإسلامي.. هذا التصور الذي لا بد منه للإقبال على الحياة بعد ذلك إقبالاً بصيراً، منبثقاً من الرؤية الصحيحة الواضحة، وقائماً على اليقين الثابت المطمئن.. ومن ثم هذا التركيز القوي على إيضاح قواعد التصور الاعتقادي في حقيقة الحياة والموت.

إن هذه القصة تُعرّف المسلمين على مَشيئة الله الطليقة، وأن الإنسان لن يُصيبه إلا ما كتب الله له، وأن ما أصابه لم يكن لِيُخْطِئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وبذلك التصور الصحيح تستريح القلوب، وتستقر الضمائر على حقيقة السنن الجارية في الكون، وعلى حقيقة قَدَر الله في الأمور، وعلى حقيقة حكمة الله من وراء التقدير القدير. ثم على حقيقة الأجل المكتوب، والموت المقدور الذي لا يؤجله قعود، ولا يقدمه خروج، ولا يمنعه حرص ولا حذر ولا تدبير..

وأما بقية أشخاص القصة فكانت أدوارهم ثانوية، بحيث تنتهي شخصياتهم بنهاية الدور الذي يقومون به، فهم عناصر مساعدة في تحقيق النمو القصصي، وتعضيد الشخصيات الرئيسة في القصة.

فالساحر له دور تمهيدي، ولكنه مع ذلك له أهمية كبرى في القصة، إذ أنه كان المُبَرِّر المنطقي المعقول لوجود شخصية الغلام، وبروزها على مسرح الأحداث، ولذلك نجده ينتهي من عرض القصة، بعد أن حقق وظيفته في إيجاد الغلام على الساحة، ثم بعد ذلك لا تهتم به القصة، ولا تُخبرنا عن أي شيء عنه.

والراهب هو الآخر، كان له دور من لون آخر بالنسبة للغلام، وهو صياغة شخصية الغلام وطَبعها بطابَع جديد من القيم والمبادىء، مما أعطاها كياناً قوياً ذا أبعاد خاصة، وبعد أن يُحقق هذه الوظيفة ينتهي..

والجليس كان دوره الفني يتركز أكثر ما يتركز في أن يقوم بالدلالة على الغلام وكَشْف أمره للملك، ولأمرٍ رفيع ركزت القصة على موقف الغلام منه حين دعاه إلى الدين الجديد، وبيّن له أن الله هو ربّه، هو الشافي، مع أن الجليس ليس الشخص الوحيد الذي عالجه الغلام.. ودعاه إلى التوحيد، ولكن لما كان للجليس دور فني في القصة سيؤديه بعد ذلك، نظراً لصلته بالملك فهو جليسه، لمّا كان الأمر كذلك كان لا بد أن تَعرض القصة لموقف الغلام معه بالتفصيل، فلماذا دَلَّ على الغلام انتهى أيضاً من عَرض القصة فقد قَتَلَه الملك، وانتهى أَمْره من العرض بعد أن سجَّل صورة خالدة للمؤمن الصابر الشهيد..

وأعوان الملك كانت أدوارهم ثانوية تتضح في خدمة الملك، وتنفيذ أوامره التي لا يفتأ يُصدرها في كل حين، وليست لهم أية وظيفة في القصة غير ذلك..

وأما الجماهير المؤمنة، والمرأة وطفلها الرضيع فكانت أدوارهم هي المُشارَكة الواقعية في رسم المشهد الختامي الرائع الذي انتهت به القصة، فقد كانوا أبطال الفصل المثير في نهاية المطاف..

ففي القصة نجد شخصيات جماعية «الناس» حيث جَمع الناس في صعيد واحد، ولكن هذه الجماهير ذات وجود حركي، فَلَإِنْ كانت في البداية تُجمع

وتُساق إلى الميدان بطلب من الملك لمشاهدة صلب الغلام، فإنها بعد الصَّلب تـتَحول إلى جماعة مُتحركة من ذاتها حين انطلقت تهتف «آمنا برب الغلام» مما دفع بالقصة إلى حركة أخرى زادت في نموها وسيرها إلى الأمام في دفع التيار الروائي، فقد فجّر هذا الموقف طغيان الملك، ودفعه إلى أن يأمر بالأخاديد فتُحفر. . وبالمؤمنين أن يُحرقوا فيها. .

والدابّة وهي شخصية حيوانية كان لها دور تكميلي للحَدَث، فقد حققت للغلام يقيناً واقعياً شجّعه على الاستمرار في طريق الدعوة، بإصرار عجيب، كما أنها في الوقت نفسه كشفت للناس أهمية هذا الغلام، وفتحت قلوبهم له، وجعلتهم ينظرون إليه باعتبار كبير، وهذا له أثره في تسهيل مهمة الغلام في الدعوة والتأثير.

مشاهد وصور وحوار:

والحوار في القصة عنصر مهم وبارز، وهو جانب حيوي من بناء القصة الفني، فهو ينتشر فيها انتشاراً واسعاً، وبصورة إيجابية، ذات أثر واضح في تدعيم بنية القصة، وإعطائها نوعاً من الحيوية والإثارة، ويثير في النفس مختلف العواطف والانفعالات، كما أن الحوار يزيد القصة تشويقاً ومتعة، بالإضافة إلى ما يترتب على الحوار من مواقف، وما يبعث من أحداث.

والمقاطع الحوارية في القصة تتناسب مع الأحداث، وتستخدم في نسيجها بصورة رئيسة بنّاءة. . فبعد أن فشلت جميع محاولات الملك في القضاء على الغلام «وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟

قال: كفانِيهم الله. فقال للملكِ: إنك لست بقاتلي حتى تفعلَ ما أمُركَ به.

قال: وما هو؟

قال: تجمع الناسَ في صعيد واحد، وتصلُبني على جِذع، ثم خُذ سهماً

من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغُلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلتَ ذلك قتلتني».

ونجد في القصة الحوار مع النفس فقط، حيث نجد صورة من حوار داخلي، يتمثل في حديث الشخصية مع نفسها، حين اعترض طريق الناس دابة عظيمة سَدّته عليهم قال الغلام لنفسه: «اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟».

ويصور حديث الغلام مع نفسه، مشاعره العميقة، فهو يُمثل حَيرة نفسية يُعانيها، ويطلب ما يزيلها بالدليل الواقعي الحي.

ومن العناصر الفنية البارزة في القصة، عنصر المناجاة، إذ يبدو مُفعماً بالعواطف الروحية الصادقة، مع المعاني الدينية الهادفة..

ونجد الغلام وهو في حيرته الناشئة من تلقينه في وقت واحد من الساحر والراهب معاً، يُشرف على الدابة وقد أخذ حجراً.. يضرع إلى الله في ابتهال ودعاء، يطلب عونه في أن يُريه الحقّ حقاً والباطل باطلاً..

«اللهم إن كان أمرُ الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس..».

كذلك نجد الغلام وحيداً بين يدي أصحاب الملك الذين ذهبوا به إلى ذرى الجبل ليرموه.. نراه يضرع إلى الله يطلب عونه:

«اللهم اكفنيهم بمَ شئت» ثم ناجى الله بنفس الدعاء حين ذهبوا به في البحر ليغرقوه.

إن المشهد المشخص في القصة، عنصر بارز فيها، فنحن نلحظه في بداية القصة، ونلحظه في وسطها، كما نجده في النهاية، ولكنه في النهاية أكثر بروزاً، ذلك أن النهاية تحمل صوراً ومشاهد مثيرة ومُعبّرة، مما يعطي للنهاية قيمة كبرى في تحقيقها للغرض الذي تهدف إليه، إذ أن طبيعة المشهد بما تحفل به من شتى الصور، وحيوية الحركة، تجعل المُتَلَقّي أكثر قدرة على المتابعة للحدث، وأكثر

استيعاباً لمضمون القصة؛ نظراً لما يثيره المشهد من التجاوب العاطفي بالتأثر والانفعال، وما يثيره في عقله من الاستيحاء والتصور، بخلاف ما لو عرضت بطريقة سردية تقريرية، تبعدنا عن حركة الأحداث والشخصيات.

والأحداث تحكي قصة الغلام الذي أحضره الملك إلى ساحره ليعلمه السحر، ولكن الغلام تعلّم الإيمان من الراهب الذي كان في طريقه، والغلام علَّم هذا الإيمان إلى جليس الملك، وإلى غيره من الناس، ثم اكتشف الملك هذه الدعوة الجديدة، فقتل الراهب والجليس، وفشل في قتل الغلام برغم محاولاته الكثيرة، ثم أشار على الملك أن يجمع الناس في مكان واحد، وأن يرميه بسهم قائلاً: «باسم الله رب الغلام»، وفعل الملك ذلك، وقَتَل الغلام، ثم كانت النهاية إيمان الناس برب الغلام، وغَضَب الملك، وإحراق المؤمنين بالنار.

والنهاية هنا مشهد من مشاهد حية تموج بشتى الصور المتحركة، وتحمل مختلف المعاني، وتصور كثيراً من الانفعالات النفسية، وتسجل قمة الانتصار لهذا الغلام الذي قَدّم نفسه ضحية من أجل انتصار دعوته، كما تُصوّر الغضب المجنون، والثورة المُعَربدة التي فجّرها الملك الطاغي على المؤمنين حين أمر بالأخاديد تضرم فيها النيران، ويُلْقَى فيها كل مَن تمسّك بدينه.

وهنا يسجل المشهد الانتصار الحقيقي للمؤمنين الصابرين. إن الثبات على العقيدة والمبدأ هو الانتصار برغم أقسى مظاهر العنف والإرهاب والقتل بالنار، وهذه حقيقة كونية انطلقت من بين شفتي طفل صغير، لم يصل مبلغ القدرة على الكلام، ولكن قدرة الله المهيمنة على هذا الكون وقوانينه تُنطقه ليعلن الانتصار الحقيقي لأصحاب الأخدود وهم يلقون بأنفسهم في النار: «اصبري فإنك على الحق» وماذا بعد الحق؟

والقصة تعرض صور رائعة للإيمان الراسخ في هذا المشهد الشاخص المتحرك، ترسم لنا كيف يواجه الإيمان إحساس التعلق بالحياة فقد «جاءت الأم بولدها متمسكة به إلى النهاية لم تفصلها أهوال الأحداث عنه حتى إذا

جاءت إلى حافة الأخدود، واشتعلت مشاعر الأمومة وكراهية الموت فيها، فترددت أن تقع بابنها، ولكن الطفل يُطفىء في إحساس أُمه لهيب النار ذات الوقود لتلقي بنفسها وتنجو من الضعف، والتقاعس، وكان حديث هذا الصبي هو آخر كلمات القصة عند حافة الأخدود، قمة الانتصار للحق، وتبقى مشاهد العذاب وأخاديد النيران بشررها المتطاير ولهيبها ترتفع ألسنته بأجساد المؤمنين الطاهرة، ويبقى أثر تلك النار في قلب كل مؤمن استضعافاً في الأرض، وجاهلية في الحياة، ترتفع ألسنتها كلما استُشْهِدَ في سبيل تلك الدعوة، ومن أجل التمكين لها في تلك الأرض وهذه الحياة»[1].

وبعد.. ننظر إلى هذه الصور الخالدة فنرى مؤمنين ضاق بهم الكافرون فحفروا لهم أخدوداً وجمعوا فيه حطباً، وأوقدوا فيه ناراً. وعَين الله ترى كل هذا والمؤمنون يَرون فلا يُساوِمُون على دِين ولا يكفرون بخالق ولا يتراجعون عن حق، وتتقبلهم النيران فتكون موت للقاتل وحياة للمقتول.

ونتأمل طويلاً في قوله تعالى: ﴿**قُتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود..**﴾ [البروج: ٤ ـ ٧]..

فمَن الذي فاز؟ ومَن الذي خسر؟ وما ذنب المؤمنين؟

وما هو الخطأ الذي قاموا به في حياتهم حتى ضاق بهم المجتمع الظالم كما يضيق بالمؤمنين في كل مكان وزمان فألقاهم في الأخاديد والنيران.

إنه خطأ واحد وذنب واحد يمكن أن نراه واضحاً في قوله تعالى: ﴿**وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد**﴾ [البروج: ٨]..

هذا ذنبهم في حياتهم وهو ذنب المؤمنين في كل زمان ومكان.

إن رواية الحادث تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفِعْلة وفاعليها، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وما استحقه

---

(١) رفاعي سرور ص ٦٤ وانظر القصص النبوي: ١٥٠.

noor-book.com

من نقمته وغضبه. فهو أمر لم ينتهِ بعد عند هذا الحد، ووراءه في حساب الله ما وراءه.

كذلك تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة. روعة الإيمان المُستعلي على الفتنة، والعقيدة المُنتصرة على الحياة، والانطلاق المُتَجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض. فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم.

ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير: معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد! إنه معنى كريم جداً ومعنى كبير جداً هذا الذي ربحوه وهُم بعد في الأرض. ربحوه وهم يجدون مسّ النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تُزكيه النار؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب، ولأعدائهم الطغاة حساب.. يعقب به السياق: **﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾**.. ومضوا في ضلالتهم سادرين، لم يندموا على ما فعلوا **﴿ثم لم يتوبوا﴾**.. **﴿فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾** [البروج: ١٠]..

وينص على «الحريق».. وهو مفهوم من عذاب جهنم. ولكنه ينطق به وينص عليه ليكون مقابلاً للحريق في الأخدود. وبنفس اللفظ الذي يدل على الحَدَث. ولكن أين حريق من حريق؟ في شدته أو في مدته! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخَلْق. وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق! وحريق الدنيا لحظات وتنتهي، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين وانتصار لذلك المعنى الإنساني الكريم. ومع حريق الآخرة غَضَب الله، والارتكاس الهابط الذميم!

ويتمثل رضى الله وإنعامه على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة: **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾**..

وهذه هي النجاة الحقيقية: ﴿ذلك الفوز الكبير﴾ [البروج: ١١]. والفوز: النجاة والنجاح. والنجاة من عذاب الآخرة فوز. فكيف بالجنات تجري من تحتها الأنهار؟

بهذه الخاتمة يستقر الأمر في نصابه. وهي الخاتمة الحقيقية للموقف. فلم يكن ما وقع منه في الأرض إلا طرفاً من أطرافه، لا يتم به تمامه..

وهذه هي الحقيقة التي يهدف إليها هذا التعقيب الأول على الحادث لتستقر في قلوب القلة المؤمنة في مكة، وفي قلوب كل فئة مؤمنة تتعرض للفتنة على مدار القرون.

إن عرض القرآن لهذا المشهد المفجع في لمحات خاطفة، تُودِع المشاعر بشاعة الحادث بدون تفصيل ولا تطويل.. مع التلميح إلى عظمة العقيدة التي تعالت على فتنة الناس مع شدتها، وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها، وارتفعت إلى الأوج الذي يُشرِّف الإنسان في أجياله جميعاً.

والتلميح إلى بشاعة الفعلة، وما يكمن فيها من بغي وشر وتَسَفُّل، إلى جانب ذلك الارتفاع والبراءة والتطهر من جانب المؤمنين: ﴿النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾ [البروج: ٥ ـ ٧].

بعد ذلك تجيء التعقيبات المتوالية القصيرة متضمنة تلك الأمور العظيمة في شأن الدعوة والعقيدة والتصور الإيماني الأصيل:

إشارة إلى ملك الله في السماوات والأرض وشهادته وحضوره تعالى لكل ما يقع في السماوات والأرض: الله ﴿الذي له ملك السماوات والأرض. والله على كل شيء شهيد﴾..

وإشارة إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق الذي ينتظر الطغاة الفَجَرة السَفَلة، وإلى نعيم الجنة... ذلك الفوز الكبير. الذي ينتظر المؤمنين الذين اختاروا عقيدتهم على الحياة، وارتفعوا على فتنة النار والحريق: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ـ ثم لم يتوبوا ـ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب

الحريق. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ذلك الفوز الكبير﴾ [البروج: ١٠ ـ ١١]. .

وتلويح ببطش الله الشديد، الذي يُبدىء ويعيد: **﴿إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدىء ويعيد﴾** [البروج: ١٢، ١٣]. . وهي حقيقة تتصل اتصالاً مباشراً بالحياة التي أُزهقت في الحادث، وتلقي وراء الحادث إشعاعات بعيدة. .

وإظهار حقيقة البطش وشدته في هذا الموضع يناسب ما مرَّ في القصة من مظهر البطش الهزيل الصغير الذي يَحسبه أصحابه ويَحسبه الناس في الأرض كبيراً شديداً. فالبطش الشديد هو بطش الجبار. الذي له ملك السموات والأرض. لا بطش الضعاف المهازيل الذين يَتَسلَّطون على رقعة من الأرض محدودة، في رقعة من الزمان محدودة. .

ويُظهر التعبير العلاقة بين المخاطَب ـ وهو الرسول ـ ﷺ ـ والقائل وهو الله عز وجل. وهو يقول: **﴿إن بطش ربك﴾**. . ربك الذي تنتسب إلى ربوبيته، وسنَدك الذي تركن إلى معونته. . ولهذه النسبة قيمتها في هذا المجال الذي يبطش فيه الفجار بالمؤمنين!

﴿إنه هو يُبدىء ويُعيد﴾. . والبدء والإعادة وإن اتجه معناهما الكلي إلى النشأة الأولى والنشأة الآخرة. . إلا أنهما حدثان دائبان في كل لحظة من ليل أو نهار. ففي كل لحظة بدء وإنشاء، وفي كل لحظة إعادة لما بُلي ومات. والكون كله في تجدُّد مستمر. . وفي بَلى مستمر. . وفي ظل هذه الحركة الدائبة الشاملة من البدء والإعادة يبدو حادث الأخدود ونتائجه الظاهرة عابرة في واقع الأمر وحقيقة التقدير. فهو بدء لإعادة. أو إعادة لبدء. في هذه الحركة الدائبة الدائرة. .

وبعد ذلك صفات الله تعالى. وكل صفة منها تعني أمراً. . **﴿وهو الغفور الودود﴾** [البروج: ١٤]. .

الغفور للتائبين من الإثم مهما عظم وبشع. . والمغفرة تتصل بقوله تعالى

من قبل: ﴿ثم لم يتوبوا﴾.. فهي من الرحمة والفضل الفائض بلا حدود ولا قيود. وهي الباب المفتوح الذي لا يُغلق في وجه عائد تائب. ولو عظم الذنب وكبرت المعصية..

والودّ هنا هو البلسم المريح لمثل تلك القروح! والودّ يتصل بموقف المؤمنين، الذين اختاروا ربهم على كل شيء. وهو الإيناس اللطيف الحلو الكريم. حين يرفع الله عباده الذين يُؤثرونه ويُحبونه إلى مرتبة، يتحرج القلم من وصفها لولا أن فضل الله يجود بها.. مرتبة الصداقة بين الرب والعبد.. ودرجة الودّ من الله لأودّائه وأحبائه المقربين.. فماذا تكون الحياة التي ضحوا بها وهي ذاهبة؟ وماذا يكون العذاب الذي احتملوه وهو موقوت؟ ماذا يكون هذا إلى جانب قطرة من هذا الودّ الحلو؟ وإلى جانب لمحة من هذا الإيناس الحبيب؟

إن عبيداً من رقيق هذه الأرض. عبيد الواحد من البشر، ليلقون بأنفسهم إلى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه، أو لمجة رضاء تبدو في وجهه.. وهو عبد وهم عبيد.. فكيف بعباد الله. الذين يُؤنسهم الله بودّه الكريم الجليل، الله ﴿ذو العرش المجيد﴾.. العالي المهيمن الماجد الكريم؟ ألا هانت الحياة. وهان الألم. وهان العذاب. وهان كل غال عزيز، في سبيل لمحة رضى يجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد.. ﴿فعّال لما يريد﴾.. هذه صفته الكثيرة التحقق، الدائبة العمل.. فعّال لما يريد.. فهو مطلق الإرادة، يختار ما يشاء، ويفعل ما يريده ويختاره، دائماً أبداً، فتلك صفته ـ سبحانه ـ ﴿ذو العرش المجيد فعّال لما يريد﴾.. وهي صفات تُصوّر الهيمنة المطلقة، والقدرة المطلقة، والإرادة المطلقة.. وكلها ذات اتصال بالحادث.. كما أنها تُطلق وراءه إشعاعات بعيدة الآماد يُريد مرة أن ينتصر المؤمنون به في هذه الأرض لحكمة يريدها. ويريد مرة أن ينتصر الإيمان على الفتنة وتذهب الأجسام الفانية لحكمة يريدها. ويريد مرة أن يأخذ الجبارين في الأرض. ويريد مرة أن يُمهلهم لليوم الموعود.. لحكمة تتحقق هنا وتتحقق هناك في قَدَره المرسوم.

فهذا طرف من فِعْله لما يريد. يناسب الحادث ويناسب ما سيأتي من حديث فرعون وثمود. وتبقى حقيقة الإرادة الطليقة والقدرة المطلقة وراء الأحداث ووراء الحياة والكون تفعل فعلها في الوجود.

فعّال لما يريد. . وهاك نموذجاً من فعله لما يريد. وهي إشارة سريعة إلى سوابِق من أَخْذه للطغاة، وهم مُدجّجون بالسلاح. . ﴿**هل أتاك حديث الجنود: فرعون وثمود؟**﴾ [البروج: ١٧]. . وهما مصرعان متنوعان في طبيعتهما وآثارهما. ووراءهما ـ مع حادث الأخدود ـ إشعاعات كثيرة.

وهي إشارة إلى قصتين طويلتين، ارتكاناً إلى المعلوم من أمرهما للمخاطبين، بعدما ورد ذكرهما كثيراً في القرآن الكريم. ويسميهم الجنود. إشارة إلى قوتهم واستعدادهم. . هل أتاك حديثهم؟ وكيف فَعل ربك بهم ما يريد؟.

وهما حديثان مختلفان في طبيعتهما وفي نتائجهما. . فأما حديث فرعون، فقد أهلكه الله وجنّده ونجّى بني إسرائيل، ومكّن لهم في الأرض فترة، ليحقق بهم قدراً من قدره، وإرادة من إرادته. وأما حديث ثمود فقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم وأنجى صالحاً والقلة معه حيث لم يكن لهم بعد ذلك مُلك ولا تمكين. إنما هي مجرد النجاة من القوم الفاسقين.

وهما نموذجان لفعل الإرادة، وتوجُّه المشيئة. وصورتان من صور الدعوة إلى الله واحتمالاتها المتوقعة، إلى جانب الاحتمال الثالث الذي وقع في قصة أصحاب الأخدود. . وكلها يعرضها القرآن للقلة المؤمنة في مكة، ولكل جيل من أجيال المؤمنين.

ثم يأتي التعقيب الختامي في تقرير قوي جازم فاصل وحكم أخير: ﴿**بل الذين كفروا في تكذيب، والله من ورائهم محيط**﴾ [البروج: ١٩، ٢٠]. .

فشأن الكفار وحقيقة حالهم أنهم في تكذيب يُمْسون به ويُصبحون. والله من ورائهم محيط. . وهم غافلون عما يحيط بهم من قهر الله وعلمه. فهم أضعف من الفيران المحصورة في الطوفان العميم!

وقول الله هو الحق ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ [البروج: ٢٢]. .

والمجيد الرفيع الكريم العريق. . وهل أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم؟ وهو في لوح عظيم. لا نُدرِك نحن طبيعته، لأنه من أمر الغيب الذي تفرّد الله بعلمه. إنما ننتفع بالظل الذي يُلقيه التعبير، والإيحاء الذي يتركه في القلوب. وهو أن القرآن مصون ثابت، قوله هو المرجع الأخير، في كل ما يتناول من الأمور. يذهب كل قول، وقوله هو المرعي المحفوظ. .

ولقد قال القرآن قَولَه في قصة أصحاب الأخدود، وفي الحقيقة التي وراءه. . وهو القول الأخير. .

http://al-maktabeh.com

al-maktabeh
www. .com
مكتبة
المهتدين
http://al-maktabeh.com

قصة أصحاب الكهف

المحتوى	ص
ـ حِكْمة بَالغة وإرادة قاهرة	٣٥١
ـ طريق الإيمان	٣٥٧
ـ ثُوّار مؤمنون	٣٥٩
ـ رَحمة الله	٣٦٣
ـ المشهد العجيب والمفاجأة الضخمة	٣٦٨
ـ تَدبير الله وإرادته	٣٧٣

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة أصحاب الكهف

حكمة بالغة وإرادة قاهرة:

إن القرآن الكريم ـ وهو المصدر الأساسي للعقيدة الإسلامية التي تنشىء التصور والعقلية الإسلامية ـ يقرر أن هناك عالَماً للغيب وعالَماً للشهادة . .

وحقيقة الغيب من مقومات «التصور الإسلامي» الأساسية، لأنها من مقومات العقيدة الإسلامية الأساسية؛ ومن قواعد «الإيمان» الرئيسية. والله ـ سبحانه ـ يصف المؤمنين في مواضع كثيرة من القرآن بأنهم الذين يؤمنون بالغيب، فيجعل هذه الصفة قاعدة من قواعد الإيمان الأساسية، والغيب في هذا الوجود يحيط بالإنسان من كل جانب فهو يسبح في بحر من المجهول. .

إنه الغيب. . إنه المجهول. . والعقل البشري ـ تلك الذبالة القريبة المدى ـ إنما يسبح في بحر المجهول. فلا يقف إلا على جزر طافية هنا وهناك يتخذ منها معالم في الخضم. ولولا عون الله له، وتسخير هذا الكون، وتعليمه هو بعض نواميسه، ما استطاع شيئاً. . ولكنه لا يشكر. . ﴿**وقليل من عبادي الشكور**﴾ [سبأ: ١٣]. . بل إنه في هذه الأيام ليتبجَّح بما كشف له من السنن، وبما آتاه من العلم القليل. . يتبجح فيزعم أحياناً أن «الإنسان يقوم وحده» ولم يعد في حاجة إلى إله يُعينه!

والإسلام يقول كلمة الحق في هذا الموضوع، فالقرآن يقرر ـ كما قُلنا ـ أن هنالك عالَماً للغيب وعالَماً للشهادة. فليس كل ما يحيط بالإنسان غيباً،

وليس كل ما يتعامل معه من قوى الكون مجهولاً . .

إن هناك سُنناً ثابتة لهذا الكون؛ يملك «الإنسان» أن يعرف منها القدر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته، للقيام بالخلافة في هذه الأرض. وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية؛ وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة، وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها. .

وإلى جانب هذه السنن الثابتة ـ في عمومها ـ مشيئة الله الطليقة؛ لا تُقيدها هذه السنن وإن كانت من عَمَلها. وهناك قَدَر الله الذي ينفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها. فهي ليست آلية بحتة، فالقَدَر هو المسيطر على كل حركة فيها، وإن جرت وفق السنّة التي أودعها الله إياها. وهذا القدر الذي يُنفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها «غيب» لا يعلمه أحد علم يقين؛ وأقصى ما يصل إليه الناس هو الظنون و«الاحتمالات». . وهذا ما يعترف به العلم البشري أيضاً. .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «إن هذا الكون خاضع ـ في غالب الأحوال ـ لأسباب طبيعية تتحكم في العالم وتتصرف فيه وهي القوى الكونية التي تسيطر على هذا النظام، وهي الأسباب وخواصُّ الأشياء التي قلما تفارق هذه الأشياء وقلما تخطىء. وفي الناس مَن اقتصر نظره على هذه الظواهر والأسباب الطبيعية واقتصر نظره على هذه الحياة وعلى هذا العالَم المادي المحسوس، ورأى أن المُسبَّبات والنتائج تابعة دائمة لأسبابها وعِلَلها مرافقة لها لازمة، ليس في هذا الوجود مَن يحول بين هذه الأسباب وهذه المُسَببات، ويتصرف فيها بإرادته المطلقة، ويستطيع أن يوجد المسببات من غير أسباب ويبدعها إبداعاً. وتَعَلَّق بهذه الأسباب وعَبَدها كالأرباب، وكفر بكل قوة وراء هذه الأسباب والخواص، وبكل قوة تسيطر على هذا العالم وتحكمه حكماً مطلقاً كلياً، وكَفر بالحياة بعدها وبالبعث والنشور، وبذل جهده ومواهبه في تسخير هذه القوى الكونية والأسباب والخواص وتسخير المادة وهام في سبيلها،

وبالغ في تمجيدها وتقديسها حتى جعلها ربًّا وإلهاً، وأصبح يكفر بكل شيء سوى المادة والقوة، حتى إذا نال منها غايته وسخَّر بعضها أو أخضع بعضها لإرادته وحاجته اعتقد ألوهيته أو أعلن ربوبيته ـ بلسان المقال أو بلسان الحال ـ واستعبد بني جنسه وعاث في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، واستباحها لأغراضه وشهواته أو طموحه أو مَجد أمته ووطنه أو أسرته وحزبه.

وهناك نظرة أخرى في هذا الكون تعارض النظرة الأولى في الأساس والمنهج وهي أن وراء هذه الأسباب الطبيعية والقوى الكونية والخواص المودعة في الأشياء قوة غيبية تملك زمام هذه الأسباب والخواص، وكما أن هذه الأسباب سببٌ لهذه المسببات فالإرادة الإلهية القاهرة سبب لهذه الأسباب نفسها تخلقها وتُسيِّرها وتفكها عن مسبباتها إذا شاءت، فهي سبب الأسباب وهي عِلّة العلل، وإليها المنتهى في سلسلة الأسباب والعلل، وإن خالق هذا الكون وخالق هذه الأسباب لم يفلت من يده زمام هذا الكون في حين من الأحيان، ولم تتحرر هذه الأسباب من رقِّه وحُكمه، وهي لا تتمرد عليه ولا تستعصي، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي ربط الأشياء بالخواص والمُسببات بالأسباب، والمقدمات بالنتائج لحكمة بالغة وإرادة قاهرة، وهو الذي يربط ويفك ويثبت ويمحو، ويوجد الأشياء من العَدَم، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

وأن هنالك أسباباً مؤثِّرة أخرى تعمل في هذا العالم، وفي مصير الأفراد والأمم، كالأسباب الطبيعية أو أشد، وتتبعها نتائج قد تكون أعظم وأضخم من النتائج الطبيعية المادية التي تتبع أسبابها، وهي الإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة، وطاعة الله، والعدل والعبادة، والرحمة والمحبة، إلى غير ذلك من المعنويات، وأسباب تعمل عكسها، كالكفر والبغي، والفساد في الأرض، والظلم والشهوات، والآثام، إلى غير ذلك من المعنويات أيضاً.

وإن مَن تمسّك بالأسباب المعنوية الصالحة ـ من غير تعطيل للأسباب الطبيعية ـ صالحه هذا الكون، وطابت له الحياة، ويسَّره الله لليسرى، وخرق له ـ في بعض الأحيان والمناسبات ـ بعض عاداته، وأخضع له الأسباب

الطبيعية. ومَن تمسك بعكسها من المعنويات والأخلاق والسلوك في الحياة واعتمد على الأسباب الطبيعية فقط وأسّس عليها حياته، حار به هذا الكون وخانته القوى التي أخضعها وهو أحوج ما يكون إليها، وثارت عليه الطبيعة»(١).

إن قصة أصحاب الكهف قصة الصراع بين النَظْرتين أو العقيدتين أو النَفْسِيَتين، صراع بين الإيمان بالمادة وما يتبعها، وبين الإيمان بالغيب والإيمان بالله، وشرح لما تتبع كل نظرة من العقيدة والعمل والأخلاق، والنتائج والآثار، وتحذير من اتخاذ النظرة الأولى التي تؤمن بالمادة والظاهر وتكفر بالله والغيب.

تعرض القصة نموذجاً للإيمان في النفوس المؤمنة. كيف تطمئن به، وتُؤْثره على زينة الأرض ومتاعها، وتلجأ به إلى الكهف حين يعزّ عليها أن تعيش به مع الناس. وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة، ويَقيها الفتنة، ويشملها بالرحمة.

---

(١) مجلة «المسلمون» المجلد السادس، تأملات في سورة الكهف، ص ١٣ ـ ١٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥ ـ ١٧.

(٣) يقول الندوي: «إذا شئت سميتها أفسس أو أفسوس، ذهب أكثر المفسرين إلى ذلك كالبيضاوي والنيسابوري والألوسي وابن كثير وإليه ذهب أكثر المؤرخين والجغرافيين المسيحيين واختاره جبون Gibbon في كتابه الشهير «انحطاط روما وسقوطها، اقرأ قصة: «النائمين السبعة» Seven Sleepers في هذا الكتاب.

أما تحديدها الجغرافي فقد جاء في دائرة المعارف للبستاني أنها إحدى المدن الأيونية الإثني عشرة من الأناضول، موقعها على الجانب الجنوبي من نهر قيسطرة وهي على مسافة ٦٠ كيلومتراً من أزمير، جعلها الرومانيون قاعدة ولاية آسيا الغربية البروقنصلية ومحطاً لتجارة متسعة الدائرة، وما كان لأراضيها من الخصب وتوسط موقعها ونشاط سكانها اليونان جعلها زاهية زاهرة جداً، ولكن أعظم فخر لها هو هيكل ديانا ـ المعبودة اليونانية ـ العظيم الذي يعد من عجائب الدنيا السبع وكان أكبر الهياكل اليونانية.

وذكر (بليكي Blackie) في كتابه Amanual of Bilbe History أن مدينة أفسس Ephesus اشتهرت في التاريخ القديم بفلسفتها وخلاعة أهلها واستهتارهم، وأصبحت مضرب المثل في الفجور والخلاعة، وكانت وثنيتها مزيجاً من الوثنية الغربية والشرقية.

مَن كان أصحاب الكهف والرّقيم؟ ما هي قصتهم؟ وما قيمة هذه القصة ومكانتها في تاريخ الإنسانية، ولماذا خصَّها الله بالذكر حتى جعلها قصة باقية خالدة تُتلى على اختلاف الزمان والمكان؟!

وفي القصة روايات شتى، وأقاويل كثيرة. فقد وردت في بعض الكتب القَديمة وفي الأساطير بصور شتى. ونحن نقف فيها عند حد ما جاء في القرآن، فهو المصدر الوحيد المُستيقن. ونطرح سائر الروايات والأساطير التي اندست في التفاسير بلا سند صحيح. وبخاصة أن القرآن الكريم قد نَهى عن استفتاء غير القرآن فيها، وعن المِراء فيها والجدل رجماً بالغيب.

وقد ورد في سبب نزولها ونزول قصة ذي القرنين أن اليهود أغروا أهل مكة بسؤال الرسول ـ ﷺ ـ عنهما وعن الروح. أو أن أهل مكة طلبوا إلى اليهود أن يصوغوا لهم أسئلة يختبرون بها الرسول ـ ﷺ ـ وقد يكون هذا كله أو بعضه صحيحاً. فقد جاء في أول قصة ذي القرنين: ﴿**ويسألونك عن ذي القرنين. قل: سأتلو عليكم منه ذكراً**﴾ ولكن لم تجيء عن قصة أصحاب الكهف مثل هذه الإشارة. فنحن نمضي في القصة لذاتها في تصحيح القِيَم بميزان العقيدة. وهي نموذج لإيثار الإيمان على باطل الحياة وزخرفها، والالتجاء إلى رحمة الله في الكهف، هرباً بالعقيدة أن تُمَسّ.

إن الطريقة التي اتُبعت في عرض هذه القصة من الناحية الفنية هي طريقة التلخيص الإجمالي أولاً. ثم العرض التفصيلي أخيراً. وهي تُعرض في مشاهد وتترك بين المشاهد فجوات يُعرف ما فيها من السياق[1]. وهي تبدأ هكذا:

﴿أم حسبتَ أن أصحاب الكهف والرّقيم كانوا من آياتنا عجباً. إذ أوى الفتية إلى الكهف، فقالوا: ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهَيىء لنا من أمرنا رشداً. فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً، ثم بعثناهم لنعلم أي

(١) يراجع فصل «القصة في القرآن» في كتاب «التصوير الفني في القرآن».

الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾ [الكهف: ٩ ـ ١٢]. .

وهو تلخيص يُجمل القصة، ويرسم خطوطها الرئيسية العريضة. فنعرف أن أصحاب الكهف فتية ـ لا نعلم عددهم ـ آووا إلى الكهف وهم مؤمنون. وأنه ضَرب على آذانهم في الكهف ـ أي ناموا ـ سنين معدودة ـ لا نعلم عددها ـ وأنهم بُعثوا من رقدتهم الطويلة. وأنه كان هناك فريقان يتجادلان في شأنهم ثم لبثوا في الكهف فبُعِثوا ليتبين أي الفريقين أدق إحصاء. وأن قصتهم على غرابتها ليست بأعجب آيات الله. وفي صفات هذا الكون من العجائب وفي ثناياه من الغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف والرقيم(١).

وبعد هذا التلخيص المُشَوّق للقصة يأخذ السياق في التفصيل. ويبدأ هذا التفصيل بأن ما سيقصه الله منها هو فصل الخطاب في الروايات المتضاربة، وهو الحق اليقين: **﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق. إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى. . ﴾** [الكهف: ١٣]. .

هذا هو المشهد الأول من مشاهد القصة. **﴿إنهم فتية آمنوا بربهم﴾**. . **﴿وزدناهم هدى﴾** بإلهامهم كيف يُدَبّرون أمرهم. **﴿وربطنا على قلوبهم﴾** فإذا هي ثابتة راسخة، مطمئنة إلى الحق الذي عرفت. معتزة بالإيمان الذي اختارت **﴿إذ قاموا﴾**. . والقيام حركة تدل على العزم والثبات. **﴿فقالوا: ربنا ربّ السموات والأرض﴾**. . فهو رب هذا الكون كله **﴿لن ندعو من دونه إلهاً﴾**. . فهو واحد بلا شريك. **﴿لقد قلنا إذن شططاً﴾** [الكهف: ١٤] وتجاوزنا الحق وَحِدْنا عن الصواب.

ثم يلتفتون إلى ما عليه قومهم فيستنكرونه، ويستنكرون المنهج الذي يسلكونه في تكوين العقيدة:

﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه الهة. لولا يأتون عليهم بسلطان بين؟﴾ [الكهف: ١٥]. .

---

(١) الكهف: الفجوة في الصخر، والرّقيم ـ في الغالب ـ هو الكتاب الذي يحمل أسماءهم وربما كان هو الذي وُضِعَ على باب الكهف الذي عثر عليهم فيه.

فهذا هو طريق الاعتقاد: أن يكون للإنسان دليل قوي يستند إليه، وبرهان له سلطان على النفوس والعقول. وإلا فهو الكذب الشنيع، لأنه الكذب على الله: ﴿فمَن أظلم ممن افترى على الله كذباً؟﴾ [الكهف: ١٥]..

طريق الإيمان:

إن القصة «ثورة أشعلها حبّ الله في قلوب فتية أبرار، فمستقرها في كل منهم حَبة القلب، ومسراها مسرى الدم، وآفاقها مسالك الفكر ومسالك الروح جميعاً.

هي ثورة التوحيد على كل شرك، والطهر على كل دَنَس، والكرامة على كل دَنية، والروح المشرق الحي على كل غفلة عن الله.

هي ثورة الحق، حتى يستعيد سلطانه فتقام حدود الله، وتُحرّم محارمه، ولا يتطاول على أمر الله أمر، سواء كان أمر فرد مُتَألِّه فَتَنَ الناس بقوة أُوتيها، أو أمر فئة ظالمة سَوَّلت لها سكرة البغي أنها وقد مَلَكت رقاب الناس أصبحت تملك رؤوسهم ونفوسهم من دون الله.

هي ثورة يجدها الفتية في ذواتهم حين يفرون بدينهم إلى الكهف، فالكهف ينشرها ولا يطويها ﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف، فقالوا: ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهَيِّىء لنا من أمرنا رشداً﴾، ويعرف الفتية المؤمنون طريق العقيدة أن سَلَفَهم حملوها تحت مطارق العذاب من كل لون، حتى إذا بلغ الأمر مداه، فلم تعد عين الله تقع منهم إلا على صِدْق وهِمّة، أشرق النور من خلال العتمة القاسية»[1].. ﴿ينشر لكم ربكم من رحمته ويُهيىء لكم من أمركم مرفقاً﴾ [الكهف: ١٦]..

وتصور القصة محنة الصبر على العقيدة، والفرار بدين الله.. ﴿إنهم إن يَظْهَروا عليكم يرجموكم أو يُعيدوكم في مِلّتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾ [الكهف: ٢٠]..

(١) مجلة المسلمون: «سورة الكهف»، المجلد الخامس، العدد الثاني.

إنه الابتلاء.. إنها سنّة العقائد والدعوات، محنة الصبر على الدين والعقيدة، والفرار إلى الله، «وأشدّ من فتنة العبث بالأجساد، فتنة العبث بالرؤوس والنفوس، فإن الأولى مهما آلَت تنتهي، صَبَر المبتَلُون بها أم لم يصبروا، أما الثانية فهي المدمِّرة التي تعمد إلى استئصال الجذور، وجذور الإيمان في أفكار أصحابها ومشاعرهم وقلوبهم..

والفتنة الأولى دائماً أهون من الثانية، ويكفي من هوانها أن الله قد أَبَاح للمُبتَلَى بها إذا أُكره أن يقول كلمة الكفر ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان[1]، أما الفتنة الثانية فيكفي من هَولها أنها توشك إن هي قَضَتْ وَطرَها أن تقذف بفريستها في هاوية جهنم **﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا. ومَن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** [البقرة: ٢١٧]..»[2].

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في بحثه القيم «تأملات في سورة الكهف» ـ قصة أصحاب الكهف[2]: «في مدينة من المدن الرومية[3] في فجر

---

(١) يقول الله ـ سبحانه ـ: **﴿مَن كفر بالله من بعد إيمانه إلا مَن أُكره وقلبه مُطمئن بالإيمان، ولكن مَن شرَح بالكُفر صدراً فعليهم غضبٌ من الله ولهم عذاب عظيم. ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين. أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون. لا جَرَم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾** [النحل: ١٠٦ ـ ١٠٩]..

والقرآن الكريم يغلظ جريمة مَن كَفَر بالله من بعد إيمانه. لأنه عرف الإيمان وذاقه، ثم ارتد عنه إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة.. ذلك أن العقيدة أمر عظيم جَلَل، لا هَوادة فيها ولا تَرَخُّص، وثمن الاحتفاظ بها فادح، ولكنها ترجحه في نفس المؤمن، وعند الله. وهي أمانة لا يُؤتمن عليها إلا مَن يفديها بحياته، وهانَت الحياة الدنيا، وهان كل ما فيها من نعيم..

أما الذي يرتد عن عقيدته وإيمانه إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة، فقد رماه القرآن بغضب من الله، وبالعذاب العظيم، والحرمان من الهداية، وَوَصَمه بالغفلة، وانطماس القلب والسمع والبصر، وحَكَم عليه بأنه في الآخرة من الخاسرين..

(٢) مجلة المسلمون، المجلد الخامس، العدد الثاني، «سورة الكهف».

التاريخ المسيحي، بلغت المادية وما يتبعها من الوثنية السافرة والأبيقورية الوقحة، أوجهَا وزهوَها، واستهترت الحكومة ورجالها في عبادة الأصنام وعبادة الشهوات وعبادة المادة والقوة، وانطلقت موجة عنيفة من الوثنية والشهوانية جرفت كل القيم الروحية والخلقية، وأصبح المجتمع ـ في هذه العاصمة ـ مجتمعاً مادياً محضاً، لا يدين إلا بالمظاهر والمحسوسات، ولا يؤمن إلا باللذات العاجلة والمنافع الحاضرة، واستولت الحكومة ـ بطبيعة الحال ـ على جميع وسائل المعيشة والرفاهة في حدود المملكة وأصبحت مصدر الرخاء والثراء والمجد والشرف، وأصبح اتِّباع عقيدتها واتجاهها، وتقليد رجالها القنطرة الوحيدة للوصول إلى الحكم والغنى والمجد والشرف، والتفَّ حولها «النفعيون» وأصحاب الطموح من كل جانب، وأصبح الناس طرازاً واحداً أو قطعة واحدة من عُبَّاد الشهوات، وعشَّاق المناصب والوظائف، وهواة الإقطاعات والولايات.

وألحت الحكومة وأسرفت في تطبيق عقيدتها وفَرْض اتجاهها على أهل البلاد وتتبعت كل مَن يخالفها في دين الوثنية واتجاه الإباحية، والتمتع بالحياة، فحرمته نعمة الحياة، وسلبته حقوقه المدنية، فأصبحت الحياة في هذه البلاد أسلوباً واحداً، وصبغة واحدة من الخرافة والخلاعة، لا يحتمل اختلافاً في اللون، أو تنوعاً في العقيدة والأخلاق. وأصبح الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم وأعمارهم ومدارك عقولهم نسخة واحدة من كتاب مطبوع في مطبعة متقنة.

ثُوَّار مؤمنون:

في هذه الدولة الوثنية الجائرة، وفي هذا المجتمع المتهتِّك الخليع، وفي هذا المحيط الضيِّق المطبق، وفي هذا الجو القاتم الخانق وُجِدَ رهط من الناس تسرَّبت إليهم دعوة المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ فصادفت منهم عقولاً واعية وقلوباً خاشعة وضمائر حيَّة ففتحتها ومَلكتها وشغلت من نفوسهم كل مكان، ومن قلوبهم وتفكيرهم كل جانب، وأصبحت لهم إيماناً وعقيدة، ولذة

وقوة، وبداهة ويقيناً، فأصبحوا لا يعيشون بغيرها ولا يبيعونها بأكبر ثمن في العالم، ولو كان هذا الثمن نفوسهم وحياتهم.

ومن هنا بدأ الصراع. بدأ ذلك في نفوسهم أولاً ثم في الخارج ثانياً، وكذلك الصراع يبدأ دائماً في النفوس. لقد اتجهوا اتجاهاً معارضاً للحكومة والمجتمع، فالحكومة وثنية لا تقبل إلا الوثنية، والمجتمع خليع لا يرضى إلا بالخلاعة، ولا حياة ـ فضلاً عن الحكم والغنى ـ إلا بالحكومة والمجتمع. إن فلسفة الأسباب والمسببات، وإن دراسة المدنية والمجتمع وإن واقع الحياة: كل ذلك يفرض عليهم أن يخضعوا للحكومة والمجتمع، فلا شبع من غير طعام، ولا طعام من غير مال، ولا مال إلا عند الحكومة، ولا شرف ولا سمعة إلا بالجاه، ولا جاه إلا بالوظيفة، ولا وظيفة إلا عند الحكومة، ولا هدوء ولا سلامة إلا بمسايرة الناس وموافقة المجتمع، ولا موافقة إلا باتباع العقيدة السائدة والاتجاه العام! هذا هو المنطق المادي الذي يقوم على المشاهدة والتجربة وهذه طبيعة الأشياء.

ولكنهم يعارضون هذا المنطق «السليم» كما يسميه أنصاره، ويستوحون إيمانهم وعقيدتهم، فتجاوز نظرتُهم النافذة المشهودَ الموجودَ، ويتمثل أمامهم ما وراء هذا الشهود، فيرون أن وراء هذه الأسباب التي استولت عليها الحكومات واستحوذ عليها المجتمع سبباً آخر وهو الإرادة الإلهية التي خلقت هذه الأسباب، وهي التي تُسيرها من وراء الستار، فمن أيّدته هذه الإرادة القاهرة لم تُؤثر فيه هذه الأسباب وأربابها، ولم يحتج إلى أصحابها، وسخّر الله له الأحوال والأوضاع، وجعلها مطابقة لحاله وحاجته وهيأ له من أمره رشداً ومرفقاً، وآتاه من لدنه رحمة ونعمة، فلا حاجة إلى الخضوع إلى الأسباب الظاهرة والاستكانة إلى أصحابها الضعفاء الفقراء، ولا بد من الثبات على العقيدة.

وهنا ينتصر الإيمان على التفكير المادي، ويغلب المنطق الإيماني على المنطق البرهاني، وذلك موضع الاعتبار في القصة ومفتاحها ﴿**إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربُّنا ربُّ السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قُلنا إذاً شططا، هؤلاء قومُنا**

اتّخذوا من دونه آلهةً لولا يأتون عليهم بسلطان بَيِّنٍ فمَن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ [الكهف: ١٣ ـ ١٥]..

ولكن ما هو السبيل إلى البقاء على العقيدة، وقد ضاقت الأرض على أهل الإيمان بما رحبت، وجعلت الحكومة البلاد عليهم كِفَّة حابل، وسدت في وجوههم أبواب الرزق والحياة فإما حياة من غير عقيدة وخُلق، وإما عقيدة من غير حياة وحرية؟!

وهناك يُسعفهم الإيمان وينير لهم الطريق، ويقنعهم بأن في أرض الله سعةً، وفي نصرة الله ثقة، وأنهم ليسوا مُضطرين ـ بعدما تخلوا عن اللذات والمطامع ـ إلى البقاء في هذه القرية الظالم أهلها، وجرى على لسانهم **﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويُهيىء لكم من أمركم مِرفقاً﴾** [الكهف: ١٦]..

لقد كان لهم أن يهيموا في أرض الله على وجوههم، ويمضي كل أحد منهم لسبيله، أو يأوي كل فرد منهم إلى مغارة أرض، أو قُلّة جبل كما فعل المسيحيون في عصر رَهبنتهم وانحطاطهم، ولكن الله ألهمهم أن يخرجوا مجتمعين، فارِّين بدينهم وعقيدتهم لاجئين إلى الله منتظرين منه الفَرَج القريب والنصر المبين، وهذا هو منهج الصواب والطريق الأقوم كلما ضاقت على أهل الإيمان الأرض، وانسدّت في وجوههم الأبواب، وأشرف إيمانهم ودينهم على خَطَر وضياع.

ثم ماذا كان؟ لقد حققوا فيهم صفة الإيمان والفتوة، وهما الصفتان الأساسيتان في دستور النصرة الإلهية والتأييد الرباني **﴿إنهم فتية آمنوا بربهم﴾** فحقق الله لهم جميع مواعيدهم: وَعْد الزيادة في الهداية وَوَعْد التثبيت **﴿وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم﴾** وما أحوج المؤمن المهاجر، الثائر على مجتمعه وبيئته، الثائر على القوة القاهرة والحكم المطلق، إلى الهداية والتثبيت، وإلى أن يُربط على قلبه الخفّاق ونفسه المضطربة، وقد أنجز الله وَعْده في هؤلاء الفتية الكرام، فزادهم هدى، وربط على قلوبهم، وأخرج منها الجبن والخوف،

والحيرة والاضطراب وملأها شجاعة وسكينة، وقوة ويقيناً، وفرحاً وسروراً، ورضا بالله وأفعاله، وذلك زادُ المهاجر في سبيل الله، وسلاح المجاهد في سبيل الله، الثائر على عصره المتمرد على بيئته.

ثم ماذا كان؟ لقد خرجوا من العاصمة تاركين المدنية وزخارفها وراءهم، نابذين أسباب الحياة، قد غادروا وطنهم العزيز ومساكنهم الكريمة ـ فالظاهر أنهم كانوا من بيوت رفيعة ومحتد كريم[1] ـ فكان جزاء ذلك أن هداهم الله إلى كهف واسع صحي[2]، ولا تستطيع المنظمات الكبيرة أن تبني مثل هذه الكهوف والملاجىء الواسعة النظيفة الصحية، فكان شأنهم أن يستفيد من منافع الشمس ـ وهو النور والدفء ـ ويسلم من مضارِّها، وهي الحرارة الزائدة، ويدخله الهواء النقي فيضفي على أهله الحياة والنشاط.

وهكذا انقطعت صلتهم عن المدنية الدَنِسة المُتعفنة، وعن أصحابها الغاشمين الفاسقين، واتصلت بأسباب الحياة، والعالم النقي الخارجي، فكانَوا يعيشون في عزلة عن العالم مُتَمَتِّعين بخيراته ومنافعه وليس ذلك إلا جزاء الإيمان الراسخ والجهاد الصادق، ومن تيسير الله وحده وهدايته ﴿**ذلك من آيات الله مَن يهد الله فهو المهتدِ**﴾ [الكهف: ١٧]..

وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحاً صريحاً حاسماً، لا تَردُّد فيه ولا تلعثم.. إنهم فتية، أشداء في أجسامهم، أشداء في إيمانهم. أشداء في استنكار ما عليه قومهم..

ولقد تبين الطريقان، واختلف المنهجان، فلا سبيل إلى الالتقاء، ولا للمشاركة في الحياة. ولا بد من الفرار بالعقيدة. إنهم ليسوا رُسلاً إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل. إنما

---

(١) قال الألوسي في تفسيره: «إنهم كانوا شباناً من أبناء أشراف الروم وعظمائهم» روح المعاني ج ٥ ص ١١.

(٢) في لسان العرب «الكهف كالمغارة في الجبل إلا أنه أوسع منها فإذا صغر فهو غار، وفي الصحاح الكهف كالبيت المنقور في الجبل».

هم فتية تَـبَيَنَّ لهم الهدى في وسط ظالم كافر، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها، وهم لا يُطيقون كذلك أن يُداروا القـوم ويـداوروهم، ويعبـدوا مـا يعبـدون من الآلهـة عـلى سبيـل التقيـة ويخفـوا عبادتهم للّه.

والأرجح أن أمرهم قد كُشف. فلا سبيل لهم إلا أن يَفرُّوا بدينهم إلى الله، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة. وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم:

﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون ـ إلا الله ـ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته، ويهيىء لكم من أمركم مرفقاً﴾ [الكهف: ١٦]..

رحمة الله:

وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنـة، فهؤلاء الفتية الـذين يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم، ويُفارقون أهلهم. ويتجردون من زينـة الأرض ومتاع الحياة. هؤلاء الذين يَأوون إلى الكهف الضَيّق الخشن المظلم. هؤلاء يَسْتَرْوِحون رحمة الله. ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة مُمتدة. **﴿ينشر لكم ربكم من رحمتـه﴾** ولفـظة **﴿ينشر﴾** تلقي ظـلال السعـة والبحبـوحـة والانفساح. فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء.. إن الحدود الضيقة لتنزاح، وإن الجدران الصَلدة لترقّ، وإن الوحشة الموغلة لتشفّ، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق.

وما يفتح الله للناس من رحمة فلا مُمسك لها. وحين تستقر هذه الصورة في قلب بشري يتم فيه تحول كامل في تصوراته ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقِيَمه في هذه الحياة جميعاً.

إنها تقطعه عن شُبهة كل قوة في السموات والأرض وتصله بقوة الله. وتُيئسه من مظنة كل رحمة في السموات والأرض وتصله برحمة الله. وتوصد

أمامه كل باب في السموات والأرض وتفتح أمامه باب الله. وتغلق في وجهه كل طريق في السماوات والأرض وتشرع له طريقه إلى الله.

ورحمة الله تتمثل في مظاهر لا يُحصيها العدّ، ويعجز الإنسان عن مُجرد ملاحقتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه، وتكريمه بما كرمه، وفيما سخّر له من حوله ومن فوقه ومن تحته؛ وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لا يعلمه وهو كثير.

ورحمة الله تتمثل في الممنوع تَمثُّلها في الممنوح. ويجدها مَن يفتحها الله له في كل شيء، وفي كل موضع، وفي كل حال، وفي كل مكان. ولو فَقَدَ كل شيء مما يعدّ الناس فَقْده هو الحرمان.. ويفتقدها مَن يمسكها الله عنه في كل شيء، وفي كل وَضع، وفي كل حالة، وفي كل مكان. ولو وَجَد كل شيء مما يعدّه الناس علامة الوجدان والرضوان!

وما من نعمة ـ يمسك الله معها رحمته ـ حتى تنقلب هي بذاتها نقمة. وما من محنة ـ تحفّها رحمة الله ـ حتى تكون هي بذاتها نعمة.. ينام الإنسان على الشوك ـ مع رحمة الله ـ فإذا هو مِهاد. وينام على الحرير ـ وقد أمسكت عنه ـ فإذا هو شَوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور ـ برحمة الله ـ فإذا هي هوادة ويسر. ويعالج أيسر الأمور ـ وقد تخلّت رحمة الله ـ فإذا هي مشقة وعُسر. ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام. ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مَهلكة وبوار!

ولا ضيق مع رحمة الله. إنما الضيق في إمساكها دون سواه. لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن، أو في جحيم العذاب أو في شعاب الهلاك. ولا وَسعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم، وفي مراتع الرخاء. فمن داخل النفس برحمة الله تتفجّر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة. ومن داخل النفس مع إمساكها تدبّ عقارب القَلَق والتعب والنصب والكدّ والمعاناة!

هذا الباب وحده يُفتح وتُغلق جميع الأبواب، وتُوصَد جميع النوافذ،

وتُسدّ جميع المسالك. . فلا عليك. فهو الفَرَج والفسحة واليسر والرخاء. . وهذا الباب وحده يُغلق وتُفتح جميع الأبواب والنوافذ والمسالك فما هو بنافع. وهو الضيق والكرب والشدة والقلق والعناء!

ومن رحمة الله أن تحسّ برحمة الله! فرحمة الله تضمّك وتَغمرك وتَفيض عليك. ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة. ورجاؤك فيها وتَطَلُّعك إليها هو الرحمة. وثِقَتك بها وتوقّعها في كل أمر هو الرحمة. والعذاب هو العذاب في احتجابك عنها أو يَأْسك منها أو شَكّك فيها. وهو عذاب لا يَصبّه الله على مؤمن أبداً. ﴿**إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾ [يوسف: ٨٧]. .

ورحمة الله لا تعزّ على طالب في أي مكان ولا أي حال. وَجَدها إبراهيم ـ عليه السلام ـ في النار. ووجدها يوسف ـ عليه السلام ـ في الجبّ كما وجدها في السجن. ووجدها يونس ـ عليه السلام ـ في بطن الحوت في ظلمات ثلاث. ووجدها موسى ـ عليه السلام ـ في اليمّ وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدوّ له مُتربّص به ويبحث عنه. ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور. فقال بعضهم لبعض: ﴿**فأووا إلى الكهف يَنشر لكم ربكم من رحمته**﴾. . ووجدها محمد رسول الله ـ ﷺ ـ وصاحبه في الغار والقوم يَتَعقّبونهما ويقصّون الآثار. . ووجدها كل مَن أَوَى إليها يأساً من كل ما سواها. مُنقطعاً عن كل شُبهة في قوة، وعن كل مظنة في رحمة الله، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب.

ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا مُمسك لها. ومتى أمسكها فلا مُرسل لها. ومن ثم فلا مخافة من أحد. ولا رجاء في أحد. ولا مخافة من شيء، ولا رجاء في شيء. ولا خوف من فوت وسيلة، ولا رجاء مع الوسيلة. إنما هي مشيئة الله. . وما بين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرة منه؛ بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجُّه إليه في طاعة وفي رجاء وفي ثقة وفي استسلام.

أي طمأنينة؟ وأي قرار؟ وأي وضوح في التصورات والمشاعر والقيم

والموازين تُقرره هذه الصورة في الضمير؟!

ورحمة الله ترسم الحياة صورة جديدة، وتُنشيء في الشعور قِيَماً لهذه الحياة ثابتة؛ وموازين لا تَهتزّ ولا تتأرجح ولا تتأثّر بالمؤثرات كلها. ذهبت أم جاءت. كبرت أم صغرت. جَلَّت أم هانت. كان مصدرها الناس أو الأحداث أو الأشياء!

صورة واحدة لو استقرت في قلب إنسان لصمد كالطّود للأحداث والأشياء والأشخاص والقوى والقيم والاعتبارات. ولو تضافر عليها الإنس والجن. وهم لا يفتحون رحمة الله حين يُمسكها، ولا يُمسكونها حين يفتحها..

إنه الإيمان..

وما قيمة الظواهر؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية؟

إن هنالك عالَماً آخر في جَنَبات القلب المغمور بالإيمان، المأنوس بالرحمٰن. عالَماً تُظَلِّله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان.

ويسدل الستار على المشهد. ليرفع على مشهد آخر، والفتية قد نَفَّذوا ما استقرّ عليه رأيهم، فها هم أولاء في الكهف وقد ضرب عليهم النعاس(١). ها هم أُولاء نراهم رأي العين. فما يدع التعبير هنا شكاً في أننا نراهم يقيناً:

﴿وترى الشمس إذا طَلعت تَزاوَر عن كهفهم ذات اليمين، وإذا

---

(١) يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: ويظهر أنهم لم يقضوا حياتهم في هذا الكهف الإيماني في بطالة وتعطُّل، ولم يكونوا هناك في ظلام وعمىً، ومن غير دستور وهداية، والظاهر أنهم أخذوا معهم بعض الصُحف والأوراق المكتوبة ولعلها صحائف من التوراة والإنجيل وأثارة من علوم الأنبياء وتعاليمهم احتفظوا بها عند خروجهم من المدينة، وليكن ذلك دستور جميع الثائرين على بيئتهم ومجتمعهم المهاجرين اللاجئين، المضطرين إلى الفرار والعُزلة، إذا كان لا بد من الفرار والعُزلة. ولما نفذ زادهم الذي حملوه سلَّط الله عليهم نوماً هنيئاً عميقاً طويلاً لم يحتاجوا معه إلى طعام وشراب ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً﴾ [الكهف: ١١]..

غربت تَقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه . . ﴾ [الكهف: ١٧].

وهو مشهد تصويري عجيب، ينقل بالكلمات هيئة الفتية في الكهف[١]، كما يلتقطها شريط مُتحرك. والشمس تطلع على الكهف فتميل عنه كأنها مُتعمّدة. ولفظ ﴿تَزاور﴾ تُصوّر مدلولها وتُلقي ظل الإرادة في عملها. والشمس تغرب فَتُجاوزهم إلى الشمال وهم في فجوة منه . .

وقبل أن يكمل نقل المشهد العجيب يُعلّق على وَضْعهم هكذا في الكهف والشمس لا تنالهم بأشعتها وتقرب منهم بضوئها. وهم في مكانهم لا يموتون ولا يتحركون. ﴿من يهدِ الله فهو المهتدِ. ومَن يُضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ [الكهف: ١٧] . .

وللهدى والضلال ناموس فمَن اهتدى بآيات الله فقد هداه الله وفق ناموسه وهو المُهتدي حقاً. ومَن لم يأخذ بأسباب الهدى ضل، وجاء ضلاله وفق الناموس الإلهي فقد أضلّه الله إذن، ولن تجد له من بعد هادياً[٢] . .

(١) القرآن يسميهم بأصحاب الكهف والرقيم، وقد ذهب المفسرون في تفسير الرقيم مذاهب، فمن قائل أنه لوح من حجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف وأَمْرهم أو أسماءهم ثم وُضِعَ على باب الكهف، ومن قائل أنه اسم قرية أو بلد، وقد اختار العلاّمة الكيلاني في مقالته عن أصحاب الكهف أنه الكتاب المرقوم الذي كان رفيقهم في الكهف، ويؤيده ما نقله صاحب روح المعاني عن ابن عباس قال: إنه كتاب كان عندهم فيه الشرع الذي تمسّكوا به من دين عيسى ـ عليه السلام ـ (ج ٥ ص ١١) وهو مختارنا (الندوي ـ المسلمون، المجلد السادس ص ٢٠).

(٢) ويقول الأستاذ الندوي: لقد حاول الثائرون على نواميس الله وشرائعه، وعلى الطبيعة، وبذلوا جهدهم ومواهبهم وعلومهم وذكاءهم في الحصول على حياة رخية صافية هنيئة، وسخّروا لأنفسهم القوى الكونية، وأخضعوا لهم أسباب الراحة والرخاء وهناء البال فحُرموا النتيجة، وثارت عليهم الحياة والطبيعة، وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وأصبحوا فريسة اكتشافاتهم ووسائلهم، وفريسة الأمراض الطريفة والمشاكل الغريبة، والحروب المُدَمِّرة ﴿ومَن يُضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ [الكهف: ١٧] . .

المشهد العجيب والمفاجأة الضخمة:

ثم يمضي السياق يُكمل المشهد العجيب: ﴿**وتحسبهم أيقاظاً وهم رُقود، ونُقلّبهم ذات اليمين وذات الشمال، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد. لو اطَّلعتَ عليهم لَوَلّيتَ منهم فراراً، ولَمُلئتَ منهم رُعباً**﴾ [الكهف: ١٨]..

إنَّا لننظرهم وهم في فجوة منه.. إن الألفاظ لتقوم بالمعجزة مرة أخرى، فتنقل هيئتهم وحركتهم كأنما تَشخص وتتحرك على التوالي.. وهم يَقلبون من جنب إلى جنب في نومتهم الطويلة. فيحسبهم الرائي أيقاظاً وهم رقود. وكلبهم ـ على عادة الكلاب ـ باسط ذراعيه بالفناء قريباً من باب الكهف كأنه يحرسهم. وهم في هَيئتهم هذه يثيرون الرعب في قلب مَن يَطّلع عليهم. إذ يراهم نياماً كالأيقاظ، يَتَقلَّبون ولا يستيقظون. وذلك من تدبير الله كي لا يعبث بهم عابث حتى يحين الوقت المعلوم.

وهكذا تضطلع الألفاظ بالتصوير وبالحركة في كل هذه السهولة.

وفجأة تدبّ فيهم الحياة. فلننظر ولنسمع:

﴿**وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم. قال قائل منهم: كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم. قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم..**﴾ [الكهف: ١٩]..

إن السياق يحتفظ بالمفاجأة في عرض القصة، فيعرض هذا المشهد، والفتية يستيقظون وهم لا يعرفون كم لبثوا منذ أن أدركهم النعاس.. إنهم يَفركون أعينهم، ويلتفت أحدهم إلى الآخرين فيسأل: كم لبثتم؟ كما يسأل مَن يستيقظ من نوم طويل. ولا بد أنه كان يحسّ بآثار نوم طويل. ﴿**قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم**﴾!

ثم رأوا أن يتركوا هذه المسألة التي لا طائل وراء البحث فيها، ويَدَعوا أمرها الله ـ شأن المؤمن في كل ما يعرض له مما يجهله ـ وأن يأخذوا في شأن عملي. فهم جائعون. ولديهم نقود فضية خرجوا بها من المدينة:

﴿**قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم، فابعثوا أحدكم بِوَرِقكم هذه إلى المدينة**

فلينظر أيها أزكى طعاماً، فليأتكم برزق منه﴾ [الكهف: ١٩]. . أي فليختر أطيب طعام في المدينة فليأتكم بشيء منه. وهم يحذرون أن ينكشف أمرهم ويُعرف مخبؤهم، فيأخذهم أصحاب السلطان في المدينة فيقتلوهم رجماً ـ بوصفهم خارجين على الدين لأنهم يعبدون إلهاً واحداً في المدينة المُشرِكة! أو يَفتنوهم عن عقيدتهم بالتعذيب. وهذه هي التي يَتَّقونها. لذلك يُوصون الرسول أن يكون حَذِراً لَبِقاً.

﴿وليتلطَّف ولا يُشعرن بكم أحداً. إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذن أبداً﴾ [الكهف: ١٩، ٢٠]. فما يُفلح مَن يرتد عن الإيمان إلى الشرك، وإنها للخسارة الكبرى.

وهكذا نشهد الفتية يتناجون فيما بينهم، حَذِرين خائفين، لا يدرون أن الأعوام قد كَرَّت، وأن عجلة الزمن قد دارت، وأن أجيالاً قد تعاقبت، وأن مدينتهم التي يعرفونها قد تغيرت معالمها، وأن المُتسلطين الذين يخشونهم على عقيدتهم قد دالت دولتهم، وأن قصة الفتية الذين فَرُّوا بدينهم في عهد الملك الظالم قد تناقلها الخَلَف عن السَلَف؛ وأن الأقاويل حولهم متعارضة؛ حول عقيدتهم، وحول الفترة التي مضت منذ اختفائهم.

وهنا يُسدل الستار على مشهدهم في الكَهف ليُرفع على مشهد آخر. وبين المَشهدين فجوة متروكة في السياق القرآني.

ونفهم أن أهل المدينة اليوم مؤمنون، فهم شديدو الحفاوة بالفتية المؤمنين بعد أن انكشف أمرهم بذهاب أحدهم لشراء الطعام، وعرف الناس أنه أَحد الفتية الذين فَرُّوا بدينهم منذ عهد بعيد.

ولنا أن نتصور ضخامة المفاجأة التي اعترت الفتية ـ بعد أن أيقن زميلهم أن المدينة قد مضى عليها العهد الطويل منذ أن فارقوها؛ وأن الدنيا قد تَبَدَّلت من حولهم فلم يعد لشيء مما يُنكرونه ولا لشيء مما يعرفونه وجود! وأنهم من جيل قديم مضت عليه القرون. وأنهم أُعجوبة في نَظَر الناس وحِسّهم، فلن يمكن أن يُعاملوهم كَبَشَر عاديين. وأن كل ما يربطهم بجيلهم من قرابات

ومعاملات ومشاعر وعادات وتقاليد. . كله قد تقطَّع، فهم أشبه بالذكرى الحية منهم بالأشخاص الواقعية. . فيرحمهم الله من هذا كله فيَتوفَّاهم.

لنا أن نتصور هذا كله. أما السياق القرآني فيعرض المشهد الأخير، مشهد وفاتهم، والناس خارج الكهف يتنازعون في شأنهم: على أي دين كانوا، وكيف يُخلِّدونهم ويحفظون ذِكراهم للأجيال. ويعهد مباشرة إلى العبرة المُستقاة من هذا الحادث العجيب:

﴿**وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وَعْد الله حق، وأن الساعة لا رَيب فيها. إذ يتنازعون بينهم أمرهم، فقالوا: ابنوا عليهم بُنياناً ربهم أعلم بهم. قال الذين غَلبوا على أمرهم: لنتخذن عليهم مسجداً**﴾ [الكهف: ٢١]. .

إن العبرة في خاتمة هؤلاء الفتية هي دلالتها على البعث بِمَثَل واقعي قريب محسوس. يُقرب إلى الناس قضية البعث. فيعلموا أن وَعْد الله بالبعث حق، وأن الساعة لا ريب فيها. . وعلى هذا النحو بعث الله الفتية من نومتهم وأعثر قومهم عليهم.

وقال بعض الناس: ﴿**ابنوا عليهم بُنياناً**﴾ لا يُحدّد عقيدتهم ﴿**ربهم أعلم بهم**﴾ وبما كانوا عليه من عقيدة.

وقال أصحاب السلطان في ذلك الأوان: ﴿**لنتخذن عليهم مسجداً**﴾ والمقصود مَعبد، على طريقة اليهود والنصارى في اتخاذ المعابد على مقابر الأنبياء والقديسين. وكما يصنع اليوم مَن يُقلّدونهم من المسلمين مخالفين لهدى الرسول ـ ﷺ ـ الذي قال: «لَعَن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد»(١).

ويسدل الستار على هذا المشهد. ثم يُرفع لنسمع الجَدَل حول أصحاب الكهف ـ على عادة الناس يتناقلون الروايات والأخبار، ويزيدون فيها ويُنقصون، ويضيفون إليها من خيالهم جيلاً بعد جيل، حتى تتضخم

---

(١) أورده ابن كثير في التفسير.

وتتحول، وتكثر الأقاويل حول الخبر الواحد أو الحادث الواحد كلما مرت القرون:

﴿سيقولون: ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون: خمسة سادسهم كلبهم - رجماً بالغيب، ويقولون: سبعة وثامنهم كلبهم. قل: ربي أعلم بِعدّتهم. ما يعلمهم إلا قليل. فلا تُمار فيهم إلا مراءً ظاهراً، ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً﴾..

لقد طواهم المجهول بعد أن تمَّت الحكمة الدينية من بَعثهم، فَلْيُوكِل سرّهم إلى المجهول أيضاً **﴿قل: ربي أعلم بعدّتهم...﴾** [الكهف: ٢٢]..

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «وهنا تظهر المعجزة الكبرى من معجزات قصة أصحاب الكهف، ففي مدة نومهم واعتزالهم في الكهف تغيَّرت الأوضاع في البلد، في مملكة روما وتوابعها، فانقرضت دولة الوثنية والخلاعة وطُويَ رجالها وأصحابها في تقلّبات الزمان، وقامت على أنقاض هذه الدولة الوثنية الخليعة دولة تؤمن بالله وبالمسيح وتنتصر للدين الجديد الذي حاربته الحكومة الماضية طويلاً وطاردت أتباعه ورجاله، وتُجِلُّ كل مَن انتمى إلى هذا الدين وتُرحب بكل مَن يدين بهذه العقيدة.

وهنالك يُبعث أصحاب الكهف من رَقدتهم الطويلة التي استغرقت ثلاثة قرون وزيادة **﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً﴾** [الكهف: ٢٥] ويتساءلون بينهم عن مدة هذا النوم، فيختلفون في التقدير والتحديد ثم يَكِلون أمره إلى الله لأنه ليس من مُهمات الدين والدنيا **﴿قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم﴾** [الكهف: ١٩]..

وحينئذ يشعرون بالجوع فينتدبون أحدهم ليأتي لهم بطعام زكيٍّ ويرسلونه مع النقود الفضية التي حَملوها من مدينتهم، ويوصونه بالاحتراس من فُشوِّ السرّ وبالتلطف، لأنهم لا يزالون يعتقدون أن رجال الحكومة بالمرصاد.

ولقد تسامع أهل البلد بقصة اضطهاد فتية مؤمنين في دولة الوثنيين الفجّار، وسمعوا ما جرى لهم، وكيف غادروا وَطنهم واختفوا عن الأنظار،

وانقطع أثرهم، وقد قامت الدولة المسيحية الفتاة، تُحيي آثار النصرانية المُضطهدة وتُجدد معالمها، وتُحيي ذكرى أبطالها وشهدائها وتُفكّر في تخليد ذكرهم وبناء تذكارهم وفي مقدمة هؤلاء الأبطال «أصحاب الكهف والرقيم».

وكانت قصة «أصحاب الكهف» حديث البلد، إذ خرج رائدهم مُتَسَتِّراً متلطفاً خائفاً يترقب، يبحث عن طعام لذيذ ويرجع به سريعاً إلى أصحابه ويقنع من الغنيمة بالإياب فإذا هو بغية البلد، وإذا هو وأصحابه من الأبطال الذين تتغنى البلاد ـ حكومة وشعباً ـ بمجدهم وجهادهم وبطولتهم.

يُعثر عليه ـ عن طريق العُملة القديمة التي كان يحملها أو اللهجة التي كان يتكلم بها أو الزي الذي كان يلبسه، فالقرآن لا يعني بهذه التفاصيل التي هي موضوع الرواية لا الهداية ـ ويشيع الخبر في البلد، وأنحاء المملكة ويصبح الشغل الشاغل للناس، ويقبل الناس، زرافات ووحداناً، إلى هذا الكهف الذي آواهم ويسعدون بزيارتهم، ويُمسك القرآن ـ على عادته ـ عن ذكر تفاصيل احتفاء الناس بهم وإجلالهم وتقديرهم لهم، ولكنه يقول في قوة وتأكيد: ﴿**وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وَعْدَ الله حق وأن الساعة لا ريب فيه**﴾ [الكهف: ٢١] فقد كان هذا الانقلاب الذي حدث في الحكومة والشعب، وعثور الناس عليهم بعد هذه الغيبة الطويلة إنجازاً لِوَعْده في رفع منارهم وتخليد آثارهم وقَهْر عدوهم، ودليلاً على أن الله يُقلِّب الليل والنهار، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث مَن في القبور، وهل كان يُرجى أن تزول هذه الدولة القاهرة وتنهض المسيحية المقهورة، ويخرج أصحاب الكهف بعد هذه المدة الطويلة من كهف يشبه المقبرة الواسعة فتحيط بهم هالة التقديس والإكبار، وتفتح لهم الدولة ذراعيها ويبسط لهم البلد أحضانه، ويوطِّىء لهم أكنافه؟ أليس في ذلك عبرة لسادة قريش وعظماء مكة، وتسلية للمسلمين المُستضعفين؟

ومكثوا ما شاء أن يمكثوا ثم وافاهم الأجل المحتوم، فأصبحوا في مُحبيهم والمعجبين بهم موضوع خلاف ونزاع، وذهب الناس فيهم مذاهب، وذلك في أسلوب تخليد ذكرهم وبناء تذكارهم، ولم يقتصر الأمر على الاحتفاء بشأنهم في

عصرهم والحرص على تخليد ذكرهم بل أصبح هؤلاء من رجال التاريخ والديانة الذين ظل الناس يختلفون فيهم ويتباحثون وتتكون مذاهب وطوائف، لكل أنصار **﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم، رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمارِ فيهم إلا مراءً ظاهراً ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً﴾** [الكهف: ٢٢]. . ».

فهذا الجدل حول عدد الفتية لا طائل وراءه. وإنه ليستوي أن يكونوا ثلاثة أو خمسة أو سبعة، أو أكثر. وأمرهم موكول إلى الله، وعلمهم عند الله. وعند القليلين الذين تَثَبَّتوا من الحادث عند وقوعه أو من روايته الصحيحة. فلا ضرورة إذن للجدل الطويل حول عددهم.

والعبرة في أمرهم حاصلة بالقليل وبالكثير. لذلك يوجه القرآن الرسول ـ ﷺ ـ إلى ترك الجدل في هذه القضية، وإلى عدم استفتاء أحد من المتجادلين في شأنهم. تمشياً مع منهج الإسلام في صيانة الطاقة العقلية أن تُبَدَّد في غير ما يفيد. وفي ألاَّ يَقْفُو المسلم ما ليس له به علم وثيق. وهذا الحادث الذي طواه الزمن هو من الغيب الموكول إلى علم الله، فليترك إلى علم الله.

تدبير الله وإرادته:

وبمناسبة النهي عن الجدل في غيب الماضي، يرد النهي عن الحكم على غيب المستقبل وما يقع فيه؛ فالإنسان لا يدري ما يكون في المستقبل حتى يقطع برأي فيه:

﴿ولا تقولن لشيء: إني فاعل ذلك غداً ـ إلا أن يشاء الله ـ واذكر ربك إذا نسيت، وقل: عسىٰ أن يهدينِ ربي لأقرب من هذا رشداً﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

إن كل حركة وكل نأمة، بل كل نفس من أنفاس الحي، مرهون بإرادة الله. وسجل الغيب مسبل يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة؛ وعين الإنسان لا

تمتد إلى ما وراء الستر المسدل؛ وعقله مهما علم قاصر كليل. فلا يقل إنسان: إني فاعل ذلك غداً. وغداً في غيب الله وأستار غيب الله دون العواقب.

وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان، لا يُفكر في أمر المستقبل ولا يُدبّر له؛ وأن يعيش يوماً بيوم، لحظة بلحظة. وألا يصل ماضي حياته بحاضره وقابله.. كلا. ولكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التي تُدبره؛ وأن يعزم ما يعزم ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم، ويستشعر أن يَدَ الله فوق يده، فلا يستبعد أن يكون للّه تدبير غير تدبيره. فإن وَفَّقه الله إلى ما اعتزم فَبِها. وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبّر لم يَحزن ولم ييأس، لأن الأمر للّه أولاً وأخيراً.

فليفكر الإنسان وليدبر؛ ولكن ليشعر أنه إنما يفكر بتيسير الله، ويدبر بتوفيق الله، وأنه لا يملك إلا ما يمدّه الله به من تفكير وتدبير.

ولن يدعو هذا إلى كَسَل أو تراخ، أو ضعف أو فتور؛ بل على العكس يمده بالثقة والقوة والاطمئنان والعزيمة. فإذا انكشف ستر الغيب عن تدبير للّه غير تدبيره، فليتقبل قضاء الله بالرضى والطمأنينة والاستسلام. لأنه الأصل الذي كان مجهولاً له فكشف عنه الستار.

هذا هو المنهج الذي يأخذ به الإسلام قلب المسلم. فلا يشعر بالوحدة والوحشة وهو يُفكر ويُدبّر. ولا يحس بالغرور والتبطر وهو يفلح وينجح. ولا يستشعر القنوط واليأس وهو يَفشل ويخفق. بل يبقى في كل أحواله متصلاً بالله، قوياً بالاعتماد عليه، شاكراً لتوفيقه إياه، مُسلماً بقضائه وقَدَره غير مُتَبطر ولا قنوط.

﴿**واذكر ربك إذا نسيت**﴾.. إذا نسيت هذا التوجيه والاتجاه فاذكر ربك وارجع إليه.

﴿**وقل عسىٰ أن يهدينِ ربي لأقرب من هذا رشداً**﴾.. من هذا النهج الذي يَصِل القلب دائماً بالله، في كل ما يهمّ به وكل ما يتوجه إليه.

وتجيء كلمة ﴿**عسىٰ**﴾ وكلمة ﴿**لأقرب**﴾ للدلالة على ارتفاع هذا

المرتقى، وضرورة المحاولة الدائمة للاستواء عليه في جميع الأحوال.

وإلى هنا لم نكن نعلم: كم لبث الفتية في الكهف. فلنعرفه الآن لنعرفه على وجه اليقين:

﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنين، وازدادوا تسعاً. قل: الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض. أبصر به وأسمع﴾ [الكهف: ٢٥، ٢٦]..

فهذا هو فصل الخطاب في أمرهم، يُقرره عالم غيب السموات والأرض. ما أَبْصَره، وما أَسْمَعه! سبحانه. فلا جدال بعد هذا ولا مراء.

ويُعقب على القصة بإعلان الوحدانية الظاهرة الأَثَر في سير القصة وأحداثها:

﴿ما لهم من دونه من ولي. ولا يُشرك في حكمه أحداً﴾ [الكهف: ٢٦].

وبتوجيه الرسول ـ ﷺ ـ إلى تلاوة ما أوحاه ربه إليه، وفيه فصل الخطاب ـ وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل ـ والاتجاه إلى الله وحده، فليس من حِمى إلا حِماه. وقد فرّ إليه أصحاب الكهف فشملهم برحمته وهداه:

﴿واتل ما أُوحي إليك من كتاب ربك لا مُبَدّل لكلماته، ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ [الكهف: ٢٧]..

وهكذا تنتهي قصة أصحاب الكهف، تسبقها وتتخللها وتعقبها تلك التوجيهات التي من أَجلها يُساق القصص في القرآن. مع التناسق المطلق بين التوجيه الديني والعرض الفني في السياق..

«وهكذا تنتهي هذه القصة الخالدة..، قصة الصراع بين الإيمان والمادية، أو قصة الصراع بين الاعتماد على الأسباب وبين الاعتماد على خالق الأسباب، تنتهي بانتصار الإيمان على المادية، وصدق الاعتماد على خالق الأسباب.

لقد آثر الفتية المؤمنون الإيمان على المادة، وآثروا الآجل على العاجل،

وآثروا أن يعيشوا غرباء وهم مؤمنون على أن يعيشوا أغنياء أو أمراء وهم كافرون، وآثروا أن يعيشوا بعيداً عن الوطن والأقارب والأحباب لا حظّ لهم في متعة الحياة ولذة العيش وعِزّ الحكومة، على أن يُشركوا بالله ويُرضوا شهواتهم ويتعاونوا على الإثم والعدوان، لقد فرُّوا من مُقتضى النفس إلى مقتضى الروح، ومن مقتضى العقل إلى مقتضى الإيمان فتحقق أنهم كانوا أعمق عقلاً وأبْعد نظراً، وأن العاقبة للمتقين، لقد فَرُّوا من الأسباب إلى خالق الأسباب فلم ينتقلوا من هذا العالم حتى خضعت لهم الأسباب وخضعت لهم حكومة فَرُّوا من عقابها بالأمس.

وبعد انتهاء القصة يوصي اللّهُ ـ سبحانه ـ النَبيَّ ـ ﷺ ـ بالتمسك بحبل الله، والتمسك بالسبب الأكبر الأقوى، أو العروة الوثقى، وهو سبيل الإيمان وسبيل القرآن، ويوصيه بلزوم أولئك المؤمنين الذين سعدوا بالإيمان والمعرفة واليقين والذكر والدعاء، وإن كان حَظّهم قليلاً من الأسباب، ومن متع الدنيا وزخارفها، ويُوصيه بمجانبة أولئك الجُهّال الغافلين الذين حُرِموا الإيمان والمعرفة واليقين وما يتبع ذلك من الذكر والدعاء، ومَلَكوا مقداراً كبيراً من الأسباب والقوى والخيرات، وإنما هي وصية عامة لِقُرّاء القرآن وأتباعه والمؤمنين به بل هم أحوج إلى تنفيذها والعمل بها:

﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يُريدون وجهه، ولا تَعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تُطع مَن أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمرهُ فُرطاً﴾ [الكهف: ٢٨]..

لقد كانت هذه خطة أصحاب الكهف وأصحاب الإيمان والمعرفة في كل عصر، وهي إيثار الإيمان والعمل الصالح والصلة الروحية بالله على المظاهر والظواهر والأسباب والقوى، والتمرُّد على المادة وأصحابها والاستهانة بزخارف الدنيا ومُتَعِها، وهي دعوة قصة أصحاب الكهف ودعوة القرآن **﴿ولا تمدنَّ عَينيك إلى ما مَتَّعنا به أزواجاً منهم زَهرة الحياة الدنيا لِنَفْتِنَهم فيه ورِزقُ ربك خير وأبقى﴾**..»[1] [طه: ١٣١]..

(١) أبو الحسن الندوي، تأملات في سورة الكهف، مجلة المسلمون، المجلد السادس، ص ١١٨.

قصة أصحاب الغَار

المحتوى	ص
- عَرض وتَقديم	٣٧٩
- صُوَر من أَعماق الفِطرة الإنسانية	٣٨٣
- في ظلال الحبّ الرقيقة	٣٩٠
- حَقيقة الخوف في الوجدان الإنساني	٤٠١
- قَلب عامر بالإيمان والتَّقوى	٤١٠
- تربية وسلوك	٤١٨

http://al-maktabeh.com

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://al-maktabeh.com

أصحاب الغار

إن طبيعة هذا الدين سهلة وواضحة، فهو يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة.. كل تنظيماته، وكل تشريعاته، وكل آدابه، وكل توجيهاته تنبثق من هذا الأصل الكبير، وروح هذه القاعدة هو الإخلاص في جميع الأعمال والأقوال البارزة والخفية.

وقد سلكت القصة النبوية سلوك القرآن الكريم في ترسيخ هذه القاعدة في القلوب والعقول، واتخذت في ذلك أسلوباً مشوقاً لتطهير النفوس والأخلاق، حتى تزكو الأفئدة والأرواح، وتقوم الرقابة في الضمائر، وينبعث الحياء والخوف من غضب الله وحده وعقابه.

إن قصة أصحاب الغار تحكي جانب عريض من سرّ هذا الدين وطبيعته، فهي تحدد في مسارها القصصي البناء السلوكي في إطار العقيدة، وهي تجعلِ الآداب والسلوك والمعاملة تنطلق كلها من روح هذه العقيدة، كما تؤكد أيضاً على شمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب النفس كلها في إطار الحياة الشخصية والاجتماعية والإنسانية..

كان رسول الله ـ ﷺ ـ يتعهد أصحابه بقصة أصحاب الغار[1] يَعِظُهم

---

(١) يقول الإمام ابن حجر في «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» ٦/٣٩٤: «عقب المصنف قصة أصحاب الكهف بحديث الغار إشارة إلى ما ورد أنه قد قيل أن الرقيم المذكور في قوله تعالى ﴿أم حسبتَ أن أصحاب الكهف والرقيم﴾ والرقيم هو الغار الذي أصاب فيه الثلاثة ما =

http://al-maktabeh.com

بها ويُذكرهم، وقد كررها أكثر من مرة، وفي أكثر من مجلس[1]، حيث كان

= أصابهم وذلك فيما أخرجه البزار والطبراني بإسناد حسن عن النعمان بن بشير أنه سمع النبي - ﷺ - يذكر الرقيم قال: «انطلق ثلاثة فكانوا في كهف فوقع الجبل على باب الكهف فأوصد عليهم» فذكر الحديث. .

(١) لقد وردت هذه القصة بأكثر من رواية وعن طريق أكثر من راو، وفي أكثر من عرض، مما نحس معه ببعض الاختلاف الشكلي، الذي ربما تصرّف فيه الرسول - ﷺ - مرة عن مرة، دون اختلاف في الجوهر أو المدلول الذي تهدف إليه القصة. [انظر القصة في الحديث النبوي ص ٦٨، ٦٩]. وقد أخرج حديث أصحاب الغار: البخاري (٢٢١٥) في البيوع، عن يعقوب بن إبراهيم، ومسلم (٢٧٤٣) في الذكر: باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، عن إسحاق بن منصور وعبد بن حميد، وابن حبان في صحيحه (الإحسان ٨٩٧)، ثلاثتهم عن أبي عاصم، بنفس الإسناد.

وأخرجه البخاري (٢٣٣٣) في الحرث والمزارعة، عن إبراهيم بن المنذر، ومسلم (٢٧٤٣) في الذكر والدعاء، عن محمد بن إسحاق المسيبي، كلاهما عن أبي ضمرة أنس بن عياض، عن موسى بن عقبة، به.

وأخرجه البخاري (٣٤٦٥) في أحاديث الأنبياء: باب حديث الغار، و(٥٩٧٤) في الأدب: باب إجابة دعاء مَن بَرَّ والديه، والبغوي في «شرح السنّة» (٣٤٢٠) من طريقين عن نافع به.

وأخرجه أحمد في «المسند»، والبخاري (٢٢٧٢) في الإجارة، ومسلم (٢٧٤٣)، من طريقين عن سالم، عن ابن عمر به.

وعن النعمان بن بشير عند أحمد في «المسند»، والبزار (٣١٧٨) و(٣١٧٩) و(٣١٨٠)، أورده الهيثمي في «المجمع» ٨/١٤٢، وقال: رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» و«الكبير» والبزار بنحوه من طرق، ورجال أحمد ثقات. ثم أورد الهيثمي رواية أخرى عن النعمان بن بشير من ثلاثة أوجه حسان، أحدها عند البزار وأحمد، وكلها عند الطبراني.

وعن أنس عند أحمد في «المسند»، والبزار (١٨٦٨)، والطبراني في الدعاء، قال الهيثمي: رواه أحمد مرفوعاً، ورواه أبو يعلى، وكلاهما رجاله رجال الصحيح. «المجمع» ٨/١٤٠. ولم يعزه إلى البزار.

وعن علي عند البزار (١٨٦٧)، أورده الهيثمي، وقال: رجاله ثقات.

قال الحافظ: وعن عقبة بن عامر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وابن أبي أوفى، بأسانيد ضعيفة، وقد استوعب طرقه أبو عوانة في «صحيحه» والطبراني في الدعاء. انظر «الفتح» ٦/٥١٠ - ٥١١.

وعن أبي هريرة عند ابن حبان في صحيحه (الإحسان ٩٧١) بإسناد حسن، والبزار (١٨٦٩)، وأورده الهيثمي في «المجمع» ٨/١٤٢، ١٤٣ وقال: رواه البزار والطبراني في =

يحرص ـ ﷺ ـ على تقرير ما تهدف إليه القصة من غايات وما تتحدث عنه من موضوعات . .

يقول الرسول ـ ﷺ ـ: «مَن استطاع منكم أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله! قالوا: يا رسول الله، وما صاحب فرق الأرز؟ قال: خرج ثلاثة فغيمت عليهم السماء . . »[1].

وفي رواية «بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم ـ من بني إسرائيل[2] ـ يمشون إذ أصابهم مطر فأَوَوا إلى غار فانطبق عليهم» وفي رواية: «حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم» وفي رواية: «إنه والله يا هؤلاء، لا ينجيكم إلا الصدق فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صَدَق فيه».

قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنتُ لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً. فنأى بي طلب الشَّجر يوماً فلم أُرِح[3] عليهما حتى ناما فحلبتُ لهما غَبُوقَهما، فوجدتُهما نائمين، فكرهتُ أن أوقظهما، وأن أغْبِقَ قبلهما أهلاً أو مالاً[4]، فلبثتُ ـ والقدحُ على يدي ـ أنتظر استيقاظهما حتى بَرَق الفجر، والصبية يتضاغون عند قدمي ـ فاستيقظا فشربا غَبُوقَهما. اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فَفَرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه.

= «الأوسط» بأسانيد، ورجال البزار وأحد أسانيد الطبراني رجالها رجال الصحيح [الإحسان هامش حديث رقم ٨٩٧ و ٩٧١].

(١) المسند (شاكر) ٨/١٧٨ ـ ١٨٠.

(٢) في حديث عقبة بن عامر عند الطبراني في الدعاء. وقد ذكر الإمام البخاري حديث أصحاب الغار في أحاديث الأنبياء في باب ما ذُكر عن بني إسرائيل. انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/٣٨٥ ـ ٣٩٤.

(٣) أي: أرجع.

(٤) «ولا مالاً» أي من رقيق وخادم.

http://www.al-maktabeh.com

قال الآخر: «اللهم إنه كانت لي ابنةُ عَمٍّ كانت أحبَّ الناس إليَّ» وفي رواية «كنتُ أُحبُّها كأشدِّ ما يحبُّ الرجال النساء، فأَردتُها على نفسها فامتنعت مِني حتى أَلَمَّت بها سَنَة من السنين(١)، فجاءتني، فأعطيتُها عشرين ومئة دينار على أن تُخَلِّي بيني وبين نفسها فَفَعلت، حتى إذا قدرتُ عليها» وفي رواية «فلما قعدتُ بين رِجْلَيْها، قالت: اتقِ الله ولا تفُضَّ الخاتم إلا بحقه. فانصرفتُ عنها، وهي أحبُّ الناس إليّ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتُها، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافْرُج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أَنَّهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم استأجرتُ أُجراء وأعطيتُهم أجرهم غيرَ رجل واحد ترك الذي له وذهب، فَثَمَّرتُ أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أَدِّ إليَّ أجري، فقلتُ: كلُّ ما ترى من أجرك: من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبد الله لا تستهزىء بي! فقلتُ: لا أستهزىء بك، فأخذه كُلَّهُ فاستاقه فلم يترك منه شيئاً، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافْرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»(٢).

وفي رواية «فقال واحد منهم: اللهم إن كنتَ تعلم أنه كان لي أجير عَمِلَ لي على فَرَق(٣) من أُرز(٤) فذهب

---

(١) السَّنَة: الجَدْب، يقال: أخذتهم السَّنَةُ إذا أجدبوا وأقحطوا.

(٢) متفق عليه، انظر البخاري (٢٧٣٣)، (٣٤٦٥) و(٥٩٧٤) و(٢٢٧٢)، (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٣) قوله: «على فَرَق»: بفتح الفاء والراء، بعدها قاف، وقد تسكن الراء، والفتح أجود وأشهر، وهو مكيال يسع ثلاثة آصع.

(٤) قوله: «من أُرز» قال ابن حجر: «فيه ست لغات: فتح الألف وضمها مع ضم الراء، وبضم الألف مع سكون الراء وتشديد الزاي وتخفيفها».

وقد ذكر البخاري هذا الحديث في المزارعة أنه فَرَق ذرة.. وقدّم ابن حجر بياناً للجمع بين الروايتين فذكر أنه يجمع بينهما بأن الفرق كان من الصنفين وأنه لما كانا حبين متقاربين أطلق أحدهما على الآخر. ثم قال: «ويحتمل أنه استأجر أكثر من واحد وكان بعضهم بفرق ذرة وبعضهم بفرق أرز، يؤيد ذلك أنه وقع في رواية سالم «استأجرت أجراء =

وتركه(١)، وأني عمدتُ إلى ذلك الفَرق فزرعته، فصار من أمـره أني اشتريتُ منه بقراً، وأنه أتاني يطلب أجره، فقلتُ: اعمد إلى تلك البقر فَسُقْها، فقال لي: إنما لي عندك فَـرَق من أرز، فقلتُ له: اعمـد إلى تلك البقـر فـإنها من ذلـك الفَرَق، فسـاقَها، فـإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك من خشيتـك فَفَـرِّج عنا، فانساحت عنهم الصخرة».

صُوَر من أعماق الفطرة الإنسانية:

يسبق القصة مطلع يحفل بعنصر تشويقي يحفـز المستمع إلى الاهتـمام بمتابعة القصة والحرص على معرفتها. يقول الرسول ـ ﷺ ـ: «مَن استـطاع منكم أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله! قالوا: يا رسول الله، وما صاحب فرق الأرز؟ قال: «خرج ثلاثة فَغيَّمت عليهم السماء. . »».

= فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب»، وفي حديث النعمان بن بشير نحوه، ووقع في حديث عبد الله بن أبي أوفى عند الطبراني في الدعاء «استأجرتُ قوماً كل واحد منهم بنصف درهم، فلما فرغوا أعطيتهم أجورهم، فقال أحدهم: والله لقد عملت عمل اثنين والله لا آخذ إلا درهماً، فذهب وتركـه، فبذرت من ذلـك النصف درهم. . » إلى آخره. ويجمع بينهما بأن الفرق المذكور كان قيمته نصف درهم إذ ذاك فتح الباري ٦/٣٩٥.

(١) قوله: «فذهب وتركه» في رواية موسى بن عقبة «فأعطيته فأبى ذاك أن يأخذ»، وفي رواية للبخاري في المزارعة: «فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضتُ عليه حقّه فرغب عنه»، وفي حديث أبي هريرة: «فعمل لي نصف النهار فأعطيته أجراً فسخطه ولم يأخذه».

ووقع في حديث النعمان بن بشير بيان السبب في ترك الرجل أجرته ولفظه: «كان لي أجراء يعملون فجاءني عمّال فاستأجرت كل رجل منهم بأجر معلوم فجاء رجل ذات يـوم نصف النهار فاستأجرته بشرط أصحابه، فعمل في نصف نهاره كما عمل رجل منهم في نهاره كله، فرأيتُ علي في الذمام أن لا أنقصه مما استأجرت به أصحابه لما جهد في عمله، فقال رجل منهم تعطي هذا مثل ما أعطيتني، فقلت: يا عبد الله لم أبخسك شيئاً من شرطك، وإنما هو مالي أحكم فيه بما شئت، قال: فغضب، وذهب وترك أجره».

وأما ما وقع في حديث أنس: «فأتاني يطلب أجره، وأنا غضبان، فزبرته، فانـطلق وترك أجره» فلا ينافي ذلك، وطريق الجمع: أن الأجير لما حَسَد الذي عُمِلَ نصف النهار، وعاتب المستأجر، غضب منه، وقال له: «لم أبخسك شيئاً. . إلى آخره، وزبره، فغضب الأجير وذهب». ووقع في حديث علي: «وترك واحد منهم أجره، وزعم أن أجره أكثر من أجور أصحابه». فتح الباري ٦/٣٩٥.

قبل أن يشرع الرسول ـ ﷺ ـ في سرد القصة على أصحابه، يقدم تمهيداً مُشوقاً، يجعل السامعين أكثر انتباهاً وتطلعاً لسماع القصة، كما أنه يفتح القلوب للتدبُّر والتعمق لما ترمي وتهدف إليه القصة، فيكون هذا التمهيد رمزاً ومَثَلاً، فهو يَحُثُّهم على أن يكونوا مثل صاحب فَرَق الأُرْز! ولكن صاحب فَرَق الأُرز هذا مجهول لهم، وهم لا يعرفون عنه شيئاً، «قالوا: يا رسول الله، وما صاحب فَرَق الأُرْزِ؟».

إنه ليموج في نفوسهم وعقولهم شدة الاهتمام لمعرفة الخَبَر؛ فحبّ الاستطلاع والمعرفة يدفعهم للتعرف إلى هذا الصاحب، ومن ناحية أخرى، فلا بد أنه ذو شأن عجيب وأمر غريب، وإلا لما نصحهم الرسول ـ ﷺ ـ بأن يكونوا مثله، ثم إنهم قبل ذلك كله وبعده حريصون على معرفته، لأنهم حريصون على الاستجابة لنداء الرسول ـ ﷺ ـ وتوجيهه؛ ولذلك بادروا بالسؤال الذي يُعَبِّر عن اهتمامهم وتشوّقهم لسماع قصة صاحب فَرَق الأُرز، حين قالوا: «يا رسول الله، وما صاحب فَرَق الأُرْز؟»[1].

إن تلك المقدمة التمهيدية للقصة، لا تُعتبر في الواقع بداية حقيقية للقصة، وإنما هي مَعبر، بما تقوم به من إشاعة الجو المناسب، وتهيئة النفوس، والشوق الشديد لمعرفة أحداث القصة، فتنشأ علاقة طيبة، لكنها مثيرة الأحاسيس، بين المتلقي والقصة، بسبب ما تثيره تلك المقدمة في نفس السامع، أو القارىء من أحاسيس وتطلعات وأشواق، ولكن البداية الحقيقية للقصة نجدها في بداية الأحداث التي تتفرع عنها تفاصيل القصة، وتنمو منها أجزاؤها، وتمثل المرحلة الأولى في هيكل القصة العام[2].

وفي هذا الجو الذي أشاعته المقدمة التمهيدية، حيث تَنَبَّهت الحواس كلها، وتَفَتَّحت البصيرة والعقل، راح الرسول ـ ﷺ ـ يسرد عليهم القصة. .

(١) القَصص في الحديث النبوي: ١١٨.
(٢) المصدر السابق: ١٢٤.

http://al-maktabeh.com

تبدأ القصة بالتركيز على عرض الظروف والملابسات، التي تشارك في صنع الأحداث، أو في توجيهها وجهة معينة، فتجعل السامع أو القارىء يحسّ أنه أمام لوحة شاخصة ومعبّرة تأخذ بالقلب والحواس كلها لتسير به في شوق مُمتع مع حوادث القصة. فهو ـ ﷺ ـ يقول: «خرج ثلاثة فيمن كان قبلكم يرتادون لأهلهم، فأصابتهم السماء، فلجؤوا إلى جبل، فوقعت عليهم صخرة . . »[1]. وفي رواية: «بينما ثلاثة نَفَر يتمَشّون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل، فانحطت على فَمِ غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم . . »[2]. وفي رواية: « . . خرج ثلاثة، فغيمت عليهم السماء، فدخلوا غاراً، فجاءت صخرة من أعلى الجبل حتى طبقت الباب عليهم . . »[3].

هؤلاء الثلاثة الذين خرجوا يبحثون لأهلهم عن مواطن للماء والعشب، نجدهم يلجأون إلى غار بسبب ما واجههم من انتشار الغيوم الثقيلة في السماء، وما أخذهم من المطر الغزير، فهذا الظرف غير المناسب هو الذي دفعهم إلى الغار الذي انطبقت عليهم فيه صخرة لتسدّ الباب، وليواجهوا بالتالي مصيراً مجهولاً[4].

ونحن أمام البيان النبوي الرائع بحيث نحسّ أن الأحداث تتتابع على أساس من قانون الأسباب والنتائج، فالقصة تصرح بالمبرر الذي جعل الثلاثة يدخلون الغار الذي انسدّ عليهم فيما بعد، وهو أنهم خرجوا فانتشرت في السماء غيوم داكنة، وبدأ المطر بالنزول، فكان لا بد لهم من أن يلجأوا إلى غار يحتمون به من الماء . .

وقد يسأل سائل، فما الذي أغلق عليهم الغار؟ ما سببه؟.

الواقع أن القصة لا تصرح بالسبب الذي أدّى إلى أن ينغلق عليهم الغار

---

(١) ابن حبان في صحيحه. انظر إلى الإحسان رقم (٩٧١).
(٢) صحيح مسلم.
(٣) المسند (شاكر) ٨/١٧٨ (٥٩٧٣).
(٤) القصص في الحديث النبوي: ١٢٥.

http://al-maktabeh.com

بالصخرة، ولكنها في الوقت نفسه، تدلنا بطريق غير مباشرة على السبب الذي أَدّى إلى ذلك، وهو أنه كان بسبب المطر الذي انهمر بشدة، كما نفهم ذلك، من لجوئهم إلى الغار أساساً احتماءً به من المطر، فتغييم السماء ونزول المطر هو الذي ألجأهم إلى الغار، ومن الأشياء المعهودة أن مياه الأمطار الغزيرة المنجرفة من أعالي الجبال تدفع أمامها الصخور الكبيرة التي يمكن أن تسدّ المسالك الصغيرة وأفواه بعض الكهوف، وهذا ما يشاهد كثيراً في المناطق الجبلية والأودية القريبة منها.

لقد تركت القصة للخيال أن يأخذ تصوره، فيرسم حركة رَعِيدة، وانجراف رهيب، وسيول جارفة تحمل صخرة عظيمة فتسدّ الباب[1].

وتنشأ المشكلة منذ بداية القصة، فما يكاد الثلاثة يدخلون الغار حتى تَنْهَدّ عليهم صخرة عظيمة تسد الباب: «إن ثلاثة كانوا في كهف فوقع الجبل على باب الكهف فأوصد عليهم، قال قائل منهم: تذاكروا أيكم عمل حسنة لعل الله عز وجل برحمته يرحمنا»[2]..

ولا شك أنهم حاولوا إزاحة الصخرة خوفاً من المستقبل الرهيب الذي يتهددهم في هذا الغار المصمت، وقد أطبق عليهم الظلام، وعبثاً حاولوا، وإنهم ليقضون حيارى يَلفّهم غموض النهاية، ويُخيم عليهم هَمٌّ قاتل، وفي ذَروة شُعورهم بالمأساة يتذكرون القوة الإلٓهية الواحدة التي يمكن أن تُنقذهم مما هم فيه فَيتوجهون إلى الله بالدعاء. «خرج ثلاثة فيمن كان قبلكم.. فلجؤوا إلى جبل، فوقعت عليهم صخرة، فقال بعضهم، عَفَا الأثر، وَوَقع الحجر، ولا يعلم مكانكم إلا الله، ادعوا الله بأوثق أعمالكم»[3].. وفي رواية: «فقال

(١) القصص في الحديث النبوي ١٩٠ ـ ١٩١.
(٢) المسند (شاكر) ١٧٨/٨ ـ ١٨٠.
(٣) الإحسان في صحيح ابن حبان رقم ٩٧١.

بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عَمِلْتُموها صالحةً للّه فادعوا الله تعـالى بها، لعَلَّ الله يَفرجُها عنكم»[1]. .

وتصور القصة أعماق الوجدان الإنساني في لحظات الكربـة والضيق، ترسم الهول الملفوف يزلزل القلب الملهوف للنجاة. . ولكن أنَّى ذلك؟! وقد «عَفَـا الأثر، ووقـع الحجر، ولا يعلم مكـانكم إلا الله، ادعـوا الله بـأوثق أعمالكم». .

إنها صورة في خوالج النفس البشرية، تصور وقفة هؤلاء الثلاثة وقـد أطبق عليهم الحجر العظيم، تصور توقُّف التيار الدافع لمعنى الحياة كما توقف الصخرة أمَلَ النجاة. تصور ضيق الشدة في النفوس، وموت كل رجـاء في القلوب إلا من الله وحده.

إن فطرة الإنسان تبرز عارية حين يمسّه الضر؛ ويسقط عنها الـركام؛ وتزول عنها الحجب، فتتجه إلى ربها، وتنيب إليه وحده؛ وهي تدرك أنه لا يكشف الضرّ غـيره ﴿**أَمَّن يُجيب المضـطرَّ إذا دعـاه ويكشف الســوء**﴾ [النمل: ٦٢]. .

إن الضرّ يسقط عن الفطرة كل ركام فلا تـرى إلا الله، وتتجه إليـه وحده، فالمضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجـأ إلا الله يدعـوه ليكشف عنه الضر والسوء ذلك حين تضيق الحلقة، وتشتد الخنقة، وتغيب القوى، فلا ينفع شيء؛ وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجرداً من أسباب النجاة والخلاص. . هـا هم أولاء في الغار، وقـد أحكمت الصخرة عليهم الخناق، وقد عفا على آثارهم المطر الغزير، فلا يعلم بمكانهم وحالهم إلا الله وحده. .

في هذه اللحظة لم تجد الفطرة الإنسانية إلا القوة الوحيـدة التي تملك الغوث والنجدة، واتجه الثلاثة إلى الله، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، هو

---

(١) صحيح مسلم.

وحده دون سواه، يجيبه ويكشف عنه السوء، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق. . «فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا يُنْجيكم إلا الصدق فَلْيَدْعُ كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صَدَق فيه. . . »[١].

إن البيان النبوي يتجلى في روعته حين يكشف عن طبيعة النفس الإنسانية حين تواجه الخطر، فهذه مشكلة حيوية بما تحويه من عنصر «درامي» يتجلى في هذا الموقف، التي تثير في نفس أصحاب الغار في القصة صراعاً يؤدي إلى تفكير معين، فالموقف الذي أوجد المشكلة التي نلحظها هنا، ذلك الخطر الداهم الذي واجَه الثلاثة حين انسدّ عليهم الغار بالصخْرة من الجبل، فإذا بهم يتحاورون في هذه المشكلة الداهمة التي أغلقت كل المنافذ، وقطعت كل السُبل، وينتهي بهم الأمر ـ كما تقدم ـ إلى أنه لا مَخرج لهم إلا أن يتجهوا إلى الله بالدعاء بصالح أعمالهم[٢].

والدعاء مخ العبادة، وهو الصلة بين العبد وخالقه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله عز وجل يقول: أنا عند ظن عبدي[٣] بي، وأنا معه إذا دعاني»[٤].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾»[٥].

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) وقد تعرّض الإمام النووي لهذا فقال في كتاب «الأذكار» باب دعاء الإنسان وتوسله بصالح عمله إلى الله تعالى، وذكر هذا الحديث.

(٣) قال القاضي: قيل معناه بالغفران له إذا استغفر، والقبول إذا تاب، والإجابة إذا دعا، والكفاية إذا طلب الكفاية؛ وقيل المراد به الرجاء. . . وهذا أصح اهـ (شرح النووي ص ٢ ج ١٧).

(٤) رواه البخاري ومسلم واللفظ له والترمذي، والنسائي وابن ماجه.

(٥) رواه أبو داود والترمذي واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال صحيح الإسناد.

والإسلام يحث على الرجاء إلى الله عز وجل والتضرّع إليه سبحانه، والدعاء بين يديه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تَعْجِزُوا في الدعاء، فإنه لن يَهْلِكَ مع الدعاء أحد»(١).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يردّ القَدَر إلا الدعاء(٢)، ولا يزيد في العمر إلا البِرّ، وإن الرجل لَيُحْرَمُ الرزق بالذَّنب يُذْنِبه»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يُغني حَذَرٌ من قَدَر(٤)، والدعاء يَنفعُ مما نَزَل ومما لم يَنْزِل، وإن البلاء لَيَنْزِلُ فَيلْقَاهُ الدعاء فَيَعْتَلِجَان إلى يوم القيامة»(٥).

يعتلجان: أي يتصارعان ويتدافعان.

وعن سلمان الفارسيّ رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا يَرُدُّ القَضَاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البِرُّ»(٦).

وبعد، نعود إلى الثلاثة في الغار وقد سدّت الصخرةُ بابَه، وطواهم الظلامُ في طياته، وقد أطبق عليهم الهول بسكونه، وتسلَّل الرعب إلى قلوبهم بجنونه..

وفي هذا المشهد المعتم المظلم ترسم القصة الخطر يغشاهم، وقد تعرَّت

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.
(٢) معناه التضرع إلى الله يدعو إلى رحمته سبحانه فيخفف في قضائه، ويكشف البلاء، ويرفع الشدة، ويزيح العسر والضيق.
(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم، واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد.
(٤) لا ينفع الاحتياط واليقظة في منع ما أراده الله: أي الإنسان عرضة لكل شيء قدره سبحانه، والتضرع إلى الله جل وعلا يخفف وطأة المصاب، ويزيل من شدة وقعه المز فيلطف الله في قدره.
(٥) رواه البزار والطبراني والحاكم وقال: صحيح الإسناد.
(٦) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

http://al-maktabeh.com

نفوسهم، فَهبَّت الفطرة إلى خالقها، واتجهت القلوب إلى بارئها، وإذا بنور وضيء يأخذ مكانه في أرواحهم، فيتحرك الأمل الخاشع تقوده خشية الله وتقواه «فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عَمِلْتُموها صالحة للّه، فادعوا الله تعالى بها، لَعلَّ الله يَفْرُجها عنكم». .

ووقف الثلاثة واحداً إثر واحد، وقفوا بين يدي الله رب العالمين، وقفوا في ابتهال داعين متوسلين، وأفئدتهم راجفة، طامعة راجية، وقفوا في إخلاص وَوَجل، بقلب حاضر وعمل خالص، وقفوا يدعون الله بِحسّ متوفز، وقلب مستيقظ، وضمير مستنير.

وإن المشهد لترسمه القصة في روعة باهرة ساكنة، ترسم هيئتهم الجسدية ومشاعرهم القلبية في لمحة واحدة: وجوههم باسرة، وأبصارهم خاشعة، ونفوسهم خاوية، وقلوبهم من فضل الله راجية خائفة. .

ها هم أولاء يقفون في الغار الصامت، وقد توجهوا إلى الله في خشية وطمع ورجاء، الرجاء في رحمته أن يستجيب دعاءهم ويُنجيهم من الضرّ والغم، ويُفرج عنهم مما هم فيه. .

ولنمضِ مع واحد واحد نصغي بقلوب مفتوحة وأرواح شفيفة وضيئة:

١ ـ ظلال الحب الرقيقة:

أقام الإسلام نظام الأسرة على أساس ثابت متين ودقيق مستمد من الواقع. وهو في الوقت ذاته يقيم بناء المجتمع لتسود فيه الحسنى والمعروف الجميل، وتنبع في ربوعه المشاعر الودودة الطيبة.

تعرض القصة النبوية صفحة للأسرة الربانية، الأسرة المتحابة الطيبة التي تفيض بالحنان والبر والإحسان، ولنستمع إلى هذه القصة لعل الرحمة تفيض على القلوب فترفع الحياة الإنسانية إلى ما أراده الله لها، وتعيش القلوب على قبس من نور، وتتصل الأرواح بروح الله في حكاية واحد من الثلاثة أصحاب الغار:

«فقال رجل منهم: اللهمَّ كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنتُ لا أَغْبُقُ قَبلهما أهلاً ولا مالاً[1]، فنأى[2] بِي طَلَبُ شجَرٍ يوماً فلم أَرُح[3] عليهما حتى ناما، فحلبتُ لهما غَبُوقهما، فوجدتُهما نائمين، فكَرِهتُ أن أَغْبُقَ قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدحُ على يَدي، أنتظرُ استيقاظهما حتى بَرِق[4] الفجرُ، زاد بعض الرواة (والصبية يتضاغون عند قدمي) فاستيقظا فشربا غَبُوقهما، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاء وجهكَ، فَفَرِّج عَنَّا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت[5] شيئاً لا يستطيعون الخروج منها. . »[6].

وفي رواية: «اللهمَّ إنه كان لي والدان شيخان كبيران وامرأتي ولِي صِبْيَةٌ صغار أرعى عليهم. فإذا أرحتُ عليهم حَلَبْتُ[7] فبدأتُ بوالديّ فَسَقَيْتُهما قبل بَنِيّ، وأنه نأى بِي ذات يوم الشجر[8] فلم آتِ حتى أمسيتُ، فوجدتُهما قد ناما، فحلبتُ كما كنتُ أحلبُ، فجئت بالحِلاب[9] فقمتُ عند رؤوسهما أكرهُ أن أوقِظهما من نَومهما، وأكرهُ أنْ أسقي الصِّبْيَة قبلَهما، والصِّبيةُ يتضاغَون[10] عند

---

(١) الغبوق: بفتح الغين المعجمة: هو الذي يشرب بالعشي؛ ومعناه كنتُ لا أُقدِّم عليهما في شرب اللبن أهلاً ولا غيرهم.

(٢) بَعُد.

(٣) أذهب إليهما، أو أرح بضم الهمزة وكسر الراء، وهو مأخوذ من أرحت الإبل أي رددتها إلى مأواها بالليل، وليس مأخوذاً من راح إذا ذهب.

(٤) تلألأ وأضاء.

(٥) انفرجت.

(٦) البخاري ومسلم.

(٧) معناه إذا رددت الماشية من المرعى إليهم وإلى موضع مبيتها وهو مراحها بضم الميم (شرح النووي ١٧/٥٥).

(٨) وفي بعض النسخ ناء بي. فالأول يجعل الهمزة قبل الألف وبه قرأ أكثر القراء السبعة والثاني عكسه، وهما لغتان وقراءتان، ومعناه بُعد، والثاني: البعد.

(٩) بكسر الحاء وهو الإناء الذي يحلب فيه يسع حلبة ناقة. قال القاضي: وقد يريد بالحلاب هنا اللبن المحلوب.

(١٠) أي يصيحون ويستغيثون باكين من الجوع.

قدميّ، فلم يزل ذلك دأبي[1] ودأبهم حتى طَلَع الفجر. فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وَجْهك فافرج لنا منها فُرْجَة نرى منها السماء، فَفَرج الله منها فُرجة فرأوا منها السماء».

حرص الإسلام على أن يضمِّن القصة كثيراً من القيم الإسلامية في السلوك مع الجماعة وفي معاملة الوالدين، وتعرض القصة الإبن البار، حيث ظلّ ساهراً واقفاً بإناء اللَّبن، لا يسمح لنفسه ولا لأولاده الذين يتضاغون حوله بالشرب من اللبن قبل أن يشرب والداه اللذان لا يريد أن يوقظهما، وظلّ كذلك حتى أيقظهما الصبح.

وفي هذه القصة فضل بر الوالدين، وفضل خدمتهما، وإيثارهما عمن سواهما من الأولاد والزوجة وغيرهم..

لقد شدّد الإسلام على أهمية بر الوالدين في تحقيق مرضاة الله تعالى وسعادة الدارين، وربط التقرب إلى الله ببرهما، واعتبر ذلك أساس كل فضيلة وباب كل خير وسعادة..

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى عبادة الله وحده مقرونة بالإحسان إلى الوالدين:

﴿وقضى ربُّك أَلاَّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغنَّ عندكَ الكِبَر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُما وقل لهما قولاً كريماً. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما رَبَّياني صغيراً﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]..

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملتهُ أُمُّه وَهْناً على وَهْن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير﴾ [لقمان: ١٤].

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ [النساء: ٣٦].

---

(١) أي حالي اللازمة.

﴿لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً﴾ [البقرة: ٨٣].

﴿قل: تعالوا أتلُ ما حرّم ربكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ [الأنعام: ١٥١].

إن التشريعات والتوجيهات ـ في منهج الله ـ إنما تنبثق كلها من أصل واحد، وترتكز على ركيزة واحدة. إنها تنبثق من العقيدة في الله، وترتكز على التوحيد المطلق سمة هذه العقيدة.. ومن ثم يتصل بعضها ببعض، ويتناسق بعضها مع بعض، ويصعب فصل جزئية منها عن جزئية، وتصبح دراسة أي منها ناقصة بدون الرجوع إلى أصلها الكبير الذي تلتقي عنده؛ ويصبح العمل ببعضها دون البعض الآخر غير واف بتحقيق صفة الإسلام؛ كما أنه غير واف بتحقيق ثمار المنهج الإسلامي في الحياة.

من العقيدة في الله تنبع كل التصورات الأساسية للعلاقات الإنسانية. تلك التصورات التي تكيف ضمير الفرد وواقع المجتمع؛ والتي تجعل المعاملات عبادات ـ بما فيها من اتباع لمنهج الله ومراقبة الله ـ والعبادات قاعدة للمعاملات ـ بما فيها من تطهير للضمير والسلوك ـ والتي تحيل الحياة في النهاية وحدة متماسكة؛ تنبثق من المنهج الرباني، وتتلقى منه وحده دون سواه، وتجعل مردها في الدنيا والآخرة إلى الله.

هذه السمة الأساسية في العقيدة الإسلامية، وفي المنهج الإسلامي، وفي دين الله تبرز آيات الإحسان إلى الوالدين بعبادة الله وتوحيده، وينطلق التشريع الإسلامي بالإحسان إلى الوالدين. ومعظم الأوامر تتجه إلى توصية الذرية بالوالدين ـ وإن كانت لم تغفل توجيه الوالدين إلى الذرية، فقد كان الله أرحم بالذراري من آبائهم وأمهاتهم في كل حال. والذرية بصفة خاصة أحوج إلى توجيهها للبر بالوالدين. بالجيل المدبر المولي. إذ الأولاد ـ في الغالب ـ يتوجهون بكينونتهم كلها، وبعواطفهم ومشاعرهم واهتماماتهم إلى الجيل الذي يخلفهم، لا الجيل الذي خلفهم! وبينما هم مدفوعون في تيار الحياة إلى الأمام، غافلون عن التلفت إلى الوراء، تجيئهم هذه التوجيهات من الرحمن الرحيم، الذي لا

يترك والداً ولا مولوداً، والذي لا ينسى ذرية ولا والِدَيْن، والذي يُعلِّم عباده الرحمة بعضهم ببعض. .

ومن هدي القرآن كان التوجيه النبوي إلى الإحسان بالوالدين والبر لهما، واعتبار ذلك من أعظم الأعمال وأحبها إلى الله سبحانه.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ـ ﷺ ـ أيُّ العَمل أحبُّ إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها. قلتُ: ثم أي؟ قال: بِرُّ الوالدين. قلتُ: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله»[١] .

وهكذا تتناول القصة جانب هام من الأمور الاجتماعية يتصل بأمور العقيدة التي يحرص الإسلام على تأكيدها في فكر الناس، وعلى تعميقها في الوجدان الإنساني.

إن برّ الوالدين والإحسان لهما، هي أهم قضية من أمور العقيدة والمعاملة والسلوك الإنساني بعد التوحيد، وتحرص القصة على إبراز أهمية هذه القضية، وتربي ذلك في عقل المسلم، وفي ضميره أن برّ الوالدين هو أعظم الأعمال في الأرض بعد توحيد الله سبحانه، وقد حرصتْ على التأكيد على هذا السلوك الأخلاقي في موقف الإبن البار في قوله: «فجئتُ بالحِلاب فقمتُ عند رؤوسهما أَكره أن أُوقظهما من نَومهما. . .» . .

والتشريع الإسلامي بعد أن يضع القاعدة ويقيم الأساس بتوحيد المعبود يأتي التكليف. . فالرابطة الأولى بعد رابطة العقيدة، هي رابطة الأسرة ومن ثم يربط القرآن برّ الوالدين[٢] بعبادة الله، إعلاناً لقيمة هذا البر عند الله.

إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد، إلى التضحية بكل شيء حتى بالذات. وكما تمتص النبتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات،

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) طاعتهما.

http://al-maktabeh.com

ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر؛ كذلك يمتص الأولاد رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هم شيخوخة فانية[1] - إن أمهلهما الأجل - وهما مع ذلك سعيدان!

فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله، ويندفعون بدورهم إلى الأمام. إلى الزوجات والذرية.. وهكذا تندفع الحياة. ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء. إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف!

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً**﴾.

ومن ثم يأتي التوجيه النبوي الذي هو وَحيٌ من الله: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: جاء رجلٌ إلى نبيّ الله - ﷺ - فاستأذَنَهُ في الجهاد فقال: «أحيٌّ والداك؟ قال: نعم. قال: فيهما فجاهد»[2].

وفي رواية لمسلم قال: أقبلَ رجلٌ إلى رسول الله - ﷺ - فقال: «أُبايِعُكَ على الهجرة والجهاد أبتغي الأجرَ من الله. قال: فهل من وَالِدَيْك أحدٌ حيّ؟ قال: نعم. بل كلاهُما حيّ. قال: فتبتغي[3] الأجرَ من الله؟ قال: نعم. قال: فارجع إلى والديك، فأحسن صُحْبَتَهُما».

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رجلاً من أهل اليمن هاجرَ إلى رسول الله - ﷺ - فقال: هل لك أَحَدٌ باليمن؟ قال: أبواي. قال: أَذِنَا لك؟

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا يجزي وَلَدٌ والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه» رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، ومعنى مملوكاً: أي عبداً ملكه الغير.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي. ومعنى «فيهما فجاهد»: أي أكرمهما محبة، وبرهما، وانقاد لأوامرهما، ابتغاء ثواب الله تعالى في الجهاد.

(٣) أي تطلب.

قال: لا. قال: فارجع إليهما، فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرّهما»(١).

بهذه العبارات الندية، والصور المضيئة الموحية يرسم الإسلام وجدان البر والرحمة في قلوب الأبناء. ذلك أن الحياة وهي مندفعة في طريقها بالأحياء، تُوجِّه اهتماماتهم القوية إلى الأمام. إلى الذرية. إلى الناشئة الجديدة. إلى الجيل المقبل. وقلما تُوجه اهتماماتهم إلى الوراء. إلى الأبوة. إلى الحياة المولية. إلى الجيل الذاهب! ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها لتنعطف إلى الخلف، وتتلفت إلى الآباء والأمهات.

والقصة ترسم البرّ في صورة مضيئة، فهو يُنجي من المخاوف والمهالك، وبه يُستجاب الدعاء.. فهاهو ذا البار المؤمن يدعو ربه ـ وقد أطبق عليه وعلى صاحبيه صخرة عظيمة سدَّت عليهم الغار ـ، ها هو ذا يتوسَّل إلى الله بهذا العمل الصالح: الفرج والخلاص والنجاة: «اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنتُ لا أغبقُ قبلهما أهلاً ولا مالاً»... وذكر صورة من برِّه لوالديه.. ثم قال «فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء، ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء»..

وتتردد الوصية بالوالدين في التشريع الإسلامي والمنهج الرباني وخاصة في حالة الكبر والشيخوخة: **﴿إما يبلغن عندكَ الكِبَر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما. وقل لهما قولاً كريماً. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة. وقل ربِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيراً﴾**..

---

(١) أي أحسن إليهما بطاعتك. رواه أبو داود.

وعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: جئت أُبايعك على الهجرة، وتركتُ أبويَّ يبكيان. فقال: «ارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما» أي أدخل السرور عليهما وأجلب لهما الفرح. رواه أبو داود.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ـ ﷺ ـ يستأذنه في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد». رواه مسلم وأبو داود وغيره.

يأخذ الإسلام في تظليل الفكر الإنساني بظلال رقيقة.. تُذكِّر الإنسان بطفولته الضعيفة، وتستجيش الوجدان ومشاعر العطف والحب والحنان تجاه الوالدين في شيخوختهما.. فالكِبَر له جلاله، وضعف الكبر له إيحاؤه فالولد قد امتص كل رحيق في روح وجسد والديه، فإذا هما في شيخوخة ضعيفة.. وكانت سُنّة الحَق في الخَلق أن يَبرّ الولد بوالديه في كبرهما فهو الملجأ وعنده الحماية في حالة الضعف.. وله في ذلك الجزاء الكبير الأوفى، عن أنس رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله - ﷺ -، فقال: «إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه. قال: هل بقي من والديك أحد. قال: أمي. قال: قَابِل الله في برِّها، فإذا فعلتَ ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد»[١].

وعن معاوية بن جاهِمَة أن جاهمة جاء إلى النبي - ﷺ -، فقال: يا رسولَ الله أردتُ أن أغزو، وجئت أستشيرك؟ فقال: هل لَك من أُم؟ قال: نعم. قال: فالزمها، فإن الجنة عند رِجْلِها»[٢].

ورواه الطبراني بإسناد جيد، ولفظه قال: «أتيتُ النبي - ﷺ - أستشيره في الجهاد، فقال النبي - ﷺ -: «ألك والدان؟ قلتُ: نعم. قال: الزَمْهُما، فإن الجنة تحت أَرْجُلِهما».

وقد شرّع الإسلام آداب ومراتب من الرعاية والسلوك مع الوالدين، وأول هذه المراتب ألا يندّ من الولد ما يدلّ على الضجر والضيق، وما يشي بالإهانة وسوء الأدب **﴿فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما﴾**، كما أمر الله سبحانه أن يكون كلام الولد مع والديه ما يشي بالإكرام والاحترام **﴿وقُل لهما قولاً كريماً﴾**.. وهي مرتبة إيجابية عليا في السلوك الإسلامي.. ثم يشف التعبير القرآني ويلطف، ويبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان **﴿واخفض لهما جناح**

---

(١) رواه أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط، وإسنادهما جيد، ميمون بن نجيح وثقه ابن حبان، وبقية رواته ثقات مشهورون.

(٢) كناية عن شدة إكرامها ورضاها، والتذلل لها قال تعالى: **﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾** رواه ابن ماجه والنسائي، واللفظ له والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

الذل من الرحمة﴾.. فهي الرحمة ترقّ وتلطف حتى لكأنها الذل الذي لا يرفع عيناً، ولا يرفض أمراً. وكأنما للذل جناح يخفضه إيذاناً بالسلام والاستسلام.

ثم يتملى الإنسان الذكرى الحانية. ذكرى الطفولة الضعيفة يرعاها الوالدان، وهما اليوم، في مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان.. وبعد أن يتأدب الإبن بالسلوك الرباني مع والديه يتوجه إلى الله ﴿وقلْ ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾.. التوجه إلى الله أن يرحمهما فرحمة الله أوسع، ورعاية الله أشمل، وجناب الله أرحب، وهو أقدر على جزائهما بما بذلا من دمهما وقلبهما مما لا يقدر على جزائه الأبناء..

روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده ـ بإسناده ـ عن بريدة عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أُمَّه يطوف بها، فَسأَلَ النبي ـ ﷺ ـ هل أَدَّيت حقها؟ قال: «لا. ولا بزفرة واحدة»..

هكذا.. ولا بزفرة.. في حمل أو في وضع، وهي تحمله وَهْناً على وهن..

لقد جاءت القصة النبوية والأحاديث الشريفة لتقتفي أثر القرآن الكريم، ولتشارك في التأكيد على العلاقة الإنسانية بين الوالد ووالديه، والإحسان لهما وطاعتهما، وذلك تعميقاً في إحساس المسلم، وتجسيداً له في موقف مهيب مروّع حين أطبق الخوف المميت على أفئدة أصحاب الغار حين أطبقت الصخرة عليهم. وكان البر بالوالدين من المواقف العظيمة التي تقبَّل الله من أصحابها هذا العمل الصالح فَنَفَّسَ الله عنهم كربتهم وفَرَّج عنهم مصيبتهم واستجاب دعاءهم..

إن وشيجة الأبوة والبنوة هي أول وشيجة بعد وشيجة الإيمان في المكان والقوة والأهمية، لذلك كانت الوصية الدائمة للإحسان إلى الوالدين ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً﴾..

فهي وصية لجنس الإنسان كله، قائمة على أساس إنسانيته، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى وراء كونه إنساناً. وهي وصية بالإحسان مطلقة من

كل شرط ومن كل قيد. فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك. وهي وصية صادرة من خالق الإنسان وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضاً. فما يعرف في عالم الطير أو الحيوان أو الحشرات وما إليها أن صغارها مكلفة برعاية كبارها. والمشاهد الملحوظ فقط تكليف فطرة هذه الخلائق أن ترعى كبارها صغارها في بعض الأجناس. فهي وصية ربما كانت خاصة بجنس الإنسان.

وهكذا نجد في التشريع الإسلامي تكرار توصية الولد بالوالدين.. فالوالدان قد بذلا لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال، في غير تأفف ولا شكوى، بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلان! بل في نشاط وفرح وسرور كأنهما هما اللذان يأخذان!

فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاة! فأما الوليد فهو في حاجة إلى الوصية المكررة ليلتفت إلى الجيل المضحي المدبر المولّي الذاهب في أدبار الحياة، بعدما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة! وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوّض الوالدين بعض ما بذلاه، ولو وقف عمره عليهما..

والقصة النبوية تصور ذلك البر الصادق تجاه الوالدين اللذين قد بذلا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بها الأبوة والأمومة، والتي لا يجزيها أبداً إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله ورسوله في الوالدين.. والقصة ترسم صورة حيَّة من صور الإحسان والبر تراها القلوب لتقتفي أثرها إحساناً وإرشاداً..

وفي ظلال تلك الصورة الحانية يؤكد الإسلام أن برّ الوالدين هو جماع الخير[1]، وبه تفرّج الكروب وتغفر الذنوب: عن ابن عمر رضي الله عنهما

---

(١) كذلك فإن عقوق الوالدين هو من أكبر الكبائر: عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فما زال =

= يُكرِّرها حتى قلنا: ليته سَكت» رواه البخاري ومسلم والترمذي.

لقد جمع الرسول في حديثه هذا أعظم الذنوب عند الله عز وجل لا تعدلها معصية ولا تساويها فاحشة، ولا ينفع معها عمل صالح، ولا فرض مُؤَدًّى، ولا نافلة مقربة. في الكبيرة سخط الله وغضبه! فما بالك بأكبر الكبائر؟ وتجتمع هذه الكبائر الثلاث حول محور الشيطان وهو نكران الحق. وغمطه: المشرك بالله ينكر وحدانية الله في وظائفه سبحانه وهي حق، والعاق ينكر فضل وإحسان والديه وهو حق، وشاهد الزور، يعين الظالم ليأكل أموال الناس وهي حق.

سُئل كعب الأحبار عن عقوق الوالدين ما هو؟ قال: إذا أقسم عليه أبوه أو أمه لم يبرّ قسمه، وإذا أمره بأمر لم يطعه، وإذا ائتمنه خانه. [الزواجر لابن حجر ج ٢: ص ٥٨]..

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ـ ﷺ ـ صعد المنبر فقال: «آمين. آمين. آمين» قيل: يا رسول الله، إنك حين صَعِدْتَ المنبر، قلت: آمين. آمين. آمين، قال: إن جبريل أتاني فقال: مَن أدرك شهرَ رمضان، ولم يُغفر له فدخل النار فأبعده الله قل آمين، فقلتُ: آمين، ومَن أدرك أبويه أو أحدهما، فلم يَبَرَّهما، فمات فدخل النار فأبعده الله. قل: آمين. فقلت: آمين. ومَن ذُكِرْتَ عنده، فلم يُصلِّ عليك فمات فدخل النار فأبعده الله. قل: آمين، فقلت: آمين» أخرجه ابن حبان بإسناد حسن، انظر تخريجه في الإحسان رقم ٩٠٧ و٩٠٨. ورواه الطبراني عن جابر بن سَمُرة بأسانيد أحدها حسن انظر الترغيب والترهيب ٣١٨/٣.

وما برّ الولد أباه أو أمه مَن سدد إليهما الطرف بالغضب أو نظر إلى أحدهما نظرة شزر عند الغضب [انظر الأغاني ج ٣ ص ١٩١]..

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، والرَّجلة» رواه النسائي والبزار بإسناد جيد، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

والدَّيوث: بتشديد الياء هو الذي يقرّ أهله على الفاحشة، والرّجلة: بفتح الراء وكسر الجيم هي المترجلة المتشبهة بالرجال.

وعن عمرو بن مُرّة الجُهَني رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله شهدتُ أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصلّيتُ الخمس، وأدّيتُ زكاة مالي، وصمتُ رمضان، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «مَن مات على هذا كان مع النبيين والصِّديقين والشهداء يوم القيامة هكذا، ونَصَب أُصْبُعَيْه ما لم يَعُقّ والديه» رواه أحمد والطبراني بإسنادين أحدهما صحيح، ورواه ابن حبان، وابن خزيمة في صحيحهما باختصار.

ومعنى الحديث عظيم وجليل: فمَن حافظ على توحيد الله وإخلاص العمل له سبحانه مع العمل بسنّة رسول الله ـ ﷺ ـ مع أداء الصلاة في أوقاتها والزكاة والصيام، أدخله الله الجنة بجوار الأنبياء والأبرار المتقين والشهداء والصالحين، على شريطة أن يكون باراً بوالديه مطيعاً =

قال: أتى النبي - ﷺ - رجلٌ فقال: «إني أذنبتُ ذنباً عظيماً فهل لي من توبة؟ فقال: هل لك من أُم؟ قال: لا، قال: هل لك من خالة؟ قال: نعم. قال فَبِرّها»[1].

وجاء عن مكحول أنه قال: بر الوالدين كفارة للكبائر.

٢ - حقيقة الخوف في الوجدان الإنساني:

إن الإسلام يستهدف في تشريعاته وتوجيهاته تحقيق منهجه المتكامل، لحساب «الإنسان» ولحساب «المجتمع المسلم» ولحساب الخُلق والصلاح والخير في إطلاقه وعمومه.

والإسلام نظام واقعي، يصور الفطرة البشرية في أعماقها بصدق، ويراعي هذه الفطرة ولا يصادمها أو يحيد عن طبيعتها. وهو يدعو الناس لتهذيب طبائعهم والارتفاع بها، ويصل في ذلك إلى نماذج تقرب من الخيالات والأحلام، ولكن في تهذيبه لا يدعو إلى تغيير الطبائع، وإنما يؤمن بأن أفضل ما يستطيع الإنسان أن يصل إليه هو ما يجيء تمشياً مع الفطرة بعد تهذيبها والارتفاع بها عن مجرد الشهوة وجوعة الجسد..

والشهوة أقوى آلة الشيطان على الإنسان، ولا يدفعها المرء إلا بالإيمان واليقين، واتباع المنهج الرباني في الزواج، الذي هو أعمق وأقوى وأدوم رابطة تصل بين اثنين، وذلك على شريعة الله سبحانه في هذا اللقاء، فالإسلام يحدد الطريقة التي يجتمع عليها الرجل والمرأة وذلك في مؤسسة الأسرة النظيفة..

وتعرض القصة النبوية ظروف وملابسات واقعية تحدث في حياة رجل دفعه الشيطان في طريق الحرام والفاحشة، ولنقرأ هذه القصة النبوية في قلوب

= لهما.. وفي هذا بيان واضح جلي أن عقوق الوالدين يُحبط الثواب ويضيع الحسنات، فلا يجد الإنسان العاق ما يقيه يوم القيامة من العذاب.

(١) رواه الترمذي، واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، إلا أنهما قالا: «هل لَكَ والدان بالتثنية»، وقال الحاكم: صحيح على شرطهما.

http://al-maktabeh.com

مفتوحة تتلقى التوجيه الحكيم في حكاية واحد من الثلاثة أصحاب الغار: «وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنةُ عَمٍّ أحببتُها كأشدِّ ما يحبُّ الرجال النساءَ. وطلبتُ إليها نفسها، فأَبَتْ حتى آتيها بمئة دينار، فتعبتُ حتى جمعتُ مئة دينار، فجئتها بها، فلما وقعتُ بين رِجْليها قالت: يا عبد الله اتقِّ الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه(١)، فقمتُ عنها، فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فُرجة، فَفَرَجَ لهم. . »(٢).

وفي رواية: «. . قد عملت حسنة مرة، كان لي فضل فأصابت الناس شدة، فجاءتني امرأة تطلب مني معروفاً، قال: فقلتُ: والله ما هو دون نفسك فأبت عليَّ، فذهبت ثم رجعت، فذكرتني بالله، فأبيتُ عليها، وقلتُ: والله ما هو دون نفسك فأبت عليَّ، وذهبت، فذكرت لزوجها فقال لها: أعطيه نفسك وأغني عيالك، فرجعت إليَّ فناشدتني بالله فأبيت عليها، وقلتُ: والله ما هو دون نفسك، فلما رأت ذلك أسلمت إليَّ نفسها، فلما تكشفتها وهممتُ بها، ارتعدت من تحتي، فقلتُ لها: ما شأنك؟ قالت: أخاف الله ربَّ العالمين، قلتُ لها: خفتيه في الشدة ولم أخفه في الرخاء، فتركتها وأعطيتُها ما يحقّ عليَّ بما تكشفتها. . . »(٣).

ترسم هذه القصة صورة اجتماعية حزينة حين يهجم الفقر بثقله على الناس. . صورة للجدب والفاقة والحرمان. إنها الصورة الشاكية الباكية. الصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية في شعور المرأة وزوجها. .

إن البيان النبوي يصور حادثة الحرمان والشدة والضيق في النموذج الإنساني وبالطبيعة البشرية، ويعبر عنه بالحادث المحسوس، والمشهد المنظور، والانفعالات الوجدانية. .

---

(١) أي بنكاح وزواج لا بزنا.
(٢) صحيح مسلم.
(٣) المسند (صادر) ٤/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

http://al-maktabeh.com

إن أبعاد الموقف هنا تتمثل في هذه الشدة التي أصابت الناس، مما جعل امرأة ممن يعاني تلك الشدة، تلجأ إلى رجل وسَّع الله عليه وأعطاه غِنى وفضل مال.

والبُعد الثاني يبرز في موقف الرجل من المرأة حيث طلبَ نَفْسها مقابلاً لما يعطيها من معروف، ولكن المرأة تتأبى وتتردد، وتلاقي من ذلك حرجاً شديداً. حاولتْ معه مرات. حاولت أن توقظ في ضميره أي معنى يجعله يتراجع عن موقفه، فهي تناشده بالله، وتلحّ عليه، ولكنه يأبى، وهي لا تجد إزاء حرجها الشديد إلا أن تحمل مصيبتها إلى زوجها تراجعه وتشاوره، ولكن الفاقة ثقيلة، والجوع مؤلم، فلم يُبصر الزوج إلا عياله الجياع، ولا سبيل إلى سد جوعهم إلا بأن تسلم نفسها إلى هذا الطامع في جسدها، وهذا بُعد ثالث تلم به الصورة[1].

إنَّ هذا العرض المصوَّر في القصة يكشف لنا عن أزمة نفسية حادة تنطوي عليها هذه المرأة الحريصة أشدّ ما يكون الحرص على عفافها وطهرها، وبخاصة وهي تملك ضميراً حيًّا يتردد في تضاعيفه خوف الله وخشيته، مما يصعد مأساتهم أكثر، ولذلك فنحن نراها تتردد أكثر من مرة ومرة، وهي في كل مرة تأتي إلى الرجل فيها تطلبِ المعروف لتنقذ نفسها وأولادها الجياع تأبى أن تُسلِّم نفسها إليه، وتُحاول أن تُذكِّرهُ بالله، وتخوفه منه، ولكنه يأبى، وما لها من حيلة - كما ترى - إلا أن تُسلِّم نفسها، وإذا شعورها بمصيبتها ينعكس على جسدها الذي لا يعرف الحرام.. جسدها الذي عبَّر هو الآخر عن إبائه لهذا الفعل «ارتعدت من تحتي»[2]..

إنها حركة لا إرادية أبلغ من كل قول في التعبير عن إحساس هذه المرأة وانفعالاتها المُرَّة إزاء ما هي مقدمة عليه من هاوية سحيقة مؤلمة!!

---

(١) القصص في الحديث النبوي ١٢٤.
(٢) المصدر السابق ١٧٤.

تعرض القصة مشاهد حيَّة شاخصة. . وتبرز الصور وتبدو بألوانها الحزينة، وكأن المشهد يُمثَّل أمامنا، واقعاً ملموساً، تتملّاه العين مع الحسّ والخيال. . هذا طرف من حياة إنسانية واقعية، تغمرها الانفعالات الوجدانية، وترسم القصة هذا المشهد بكل أحاسيسه، عواطف آدمية، وخلجات إنسانية في أعماق النفس والوجدان، هبَّت مذعورة، اهتزَّ الجسد الخائف من الله، الخائف من مسِّ سقر، اهتز الجسد في توفّز وحساسية وإرهاف. فهي تصور العواطف والانفعالات، وتبرزها من خلال سلوك المرأة وتصرفها، فهي تصور عما يدور بداخلها من مشاعر وانفعالات.

إننا نحسّ سريان هذا الروع الخائف والارتعاد المزلزل. والخيال شاخص إلى هذه الصورة المعبرة التي تستحيل الكلمات فيها كائناً بأحاسيس خائفة وحزن عميق. . بلمسة واحدة في لفظة «ارتعدت من تحتي». .

إن هذا الرجل لا يريد من هذه المرأة إلا ما يريد الذئب، لا يريد من النعجة إلا لحمها. . لقد شعرت المرأة بحرج شديد مؤلم وهي تتردد أكثر من مرة أن الموت جوعاً وحرماناً أعزّ عليها، ولكن مصيبتها في أولادها الجياع. .

وبعد، فإنها قصة امرأة متزوجة، حين تواجه مشكلة الجوع والحرمان الذي يهددها ويهدد أولادها الجياع، وحين تذهب إلى رجل غني تطلب منه معروفاً يرفض إلا إذا قدمت له نفسها، إنها أمام مشكلة حرجة للغاية، إنها أمام مشكلة مؤلمة للغاية، إنها بين أن تفقد شرفها وتقع في المعصية، وبين أن تموت هي وأولادها جوعاً. . هذه هي الصورة التي كانت في أعماقها. .

ويثور في نفسها صراع عنيف غاية العنف، تصور القصة جانباً منه في هذا التردد الكثير على هذا الرجل، وفي كل مرة تُذَكِّره بالله، فإذا رفض عادت من حيث أَتَتْ، وهكذا إلى أن يصل الأمر بها إلى أن تعرض الأمر على زوجها، ويبدو أن الصراع قد بلغ منها مبلغاً كبيراً، أرادت معه أن تتخفف بعض الشيء بإشراك زوجها في مسؤولية هذا الموقف، والتخفف بنقل بعض انفعالاتها إلى زوجها. .

وحين تسلم نفسها في نهاية الأمر تتفجَّر ذروة الصراع عند هذه المرأة العفيفة المنطوية على خوف الله وخشيته، وإذا بالجسد الذي يتأبًى على الحرام، يعبر بطريقته الخاصة حين ارتعد، إحساساً منه بهول الكارثة المقبلة، وهي حالة ملفتة جعلت الرجل يتساءل: «فقلتُ لها: ما شأنك؟ قالت: أخاف الله رب العالمين!» . .

وهنا يفجر الموقف حالة من الصراع من الجانب الآخر عند الرجل نفسه، فإذا ضميره يصحو، وإذا هو يحسّ بالله، وخوف الله يملأ قلبه فزعاً فيقول: «خفتيه في الشدة ولم أخفه في الرخاء فتركها. . . »[1].

لقد عاشت تلك المرأة على تقوى الله في خوف وَوَجل في كلماتها وحركة جسدها، واستشعرت قُرب الله منها واطلاعه عليها فارتعدت من نَظَره إليها فيما حرّم، لقد عاشت بهذا الخوف كأنه ينقل إليها صوت النار وهي تسري وتحرق. . فلقد أجابت الرجل حين سألها ما شأنك؟ «قالت: أخاف الله رب العالمين» . .

«أخاف الله رب العالمين» . . تعبير جليل . . بمجرد سماعه بقلب مفتوح . . فقد فتح أمام الرجل صفحة أعماله بل صفحة حياته، وقد أيقظه من وهدة الخطيئة . . فقال: «خفتيه في الشدة» . . خفتيه وأنتِ في محنة واضطرار . . خفتيه وأنت في فاقة وحاجة . . إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبداً، ولا يكف عن النظر والتقليب فقال: «خفتيه في الشدة ولم أخفه في الرخاء، فَتَركْتُها وأعطيتُها ما يحقّ عليَّ . . » .

لقد تركها خوفاً من الله . . تركها وقد قَدَر على الحرام في الخلوة، فعلم أن الله يراه، تركها من خشيته وحده . . لقد عمل الخوف من الله في سلوكه فِعلاً، فكانت الخشية منه سبحانه في حسّه واقعاً . .

---

(١) المصدر السابق ٢٢٤ .

http://al-maktabeh.com

يقول الإمام الغزالي: «اعلم أن الخوف عبارة عن تألُّم القلب واحتراقه بسبب توقُّع مكروه في المستقبل». .

وآثار الخوف على الجوارح بِكَفِّها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرَّط واستعداداً للمستقبل، ولذلك قيل: ليس الخائف مَن يبكي ويمسح عينيه بل مَن يترك ما يخاف أن يُعاقب عليه. وقال أبو القاسم الحكيم: مَن خاف شيئاً هرب منه، ومَن خاف الله هرب إليه.. **﴿ففروا إلى الله إني لكم منذ نذير مبين﴾** [الذاريات: ٥٠]. .

فبذلك تحترق الشهوات بالخوف وتتأدَّب الجوارح، ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة، ويفارقه الكِبَر. . ، بل يصير مُستوعب الهمّ بخوفه والنظر في خطر عاقبته. . هذا حال مَن غلبه الخوف واستولى عليه. .

إذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدَّد له بسبب الكفّ اسم العفّة، وهو كف عن مقتضى الشهوة. .»(١) وقد أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال: **﴿ولقد وَصَّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾** [النساء: ١٣١]، وقال: **﴿وخافونِ إن كنتم مؤمنين﴾** [آل عمران: ١٧٥]. .

فَأَمَر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان؛ فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعُف، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه. .

قال أبو سليمان الداراني: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب. . وكان وهيب بن الورد يقول: خَفِ الله على قَدَرِ قدرته عليك، واستحيي منه على قدر قُربه منك. .

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ١٩٥.

http://al-maktabah.com

راوَدَ بعضهم أعرابيةً، وقال لها: ما يرانا إلا الكواكب، فقالت: فأين مُكَوكِبُها؟.

قال الحارث المحاسبي: المراقبة علم القلب بقرب الربّ.

وكان الإمام أحمد يُنْشِد:

إذا ما خَلَوْتَ الدَّهرَ يوماً فلا تَقُلْ   خَلَوتُ ولكِنْ قُل عَلَيَّ رَقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يَغْفُلُ سَاعةً   ولا أَنَّ ما يَخْفَى عَلَيه يَغِيبُ

وكان ابن السماك ينشد:

يا مُدمن الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحي   والله في الخَلْوةِ ثَانيكا
غَرَّكَ من رَبِّك إمْهَالُه   وسَتْرُهُ طُولَ مَساوِيكَا

والقصة النبوية ترسم حقيقة الخوف في الوجدان الإنساني.. ترسم الخوف من الله في قلب المرأة وجوارحها وجسدها.. ترسم آثار الخوف في إيقاعات عنيفة عميقة.. الإيقاعات التي اهتزّ لها الجسد ورجف وارتعد.

لقد كان الخوف صورة وحقيقة رآها الرجل، وقال للمرأة: «خفتيه في الشدة».. كان الخوف صورة تقرع بعنف على قلب الرجل، وكان الصوت العالي الذي أيقظ الإيمان في أعماقه، لقد كان الصيحة القوية، هزت المخمور بشهوته، السادر في غيّه.. وهبت نسائم اليقين في قلب الرجل ترسم خطاً أساسياً في ملامح النفس فقام وترك المرأة خوفاً من الله في حساسية مرهفة، وشعور بالتقصير في جناب الله..

إن الإنسان إنسان بهذا السمو والارتفاع والإيمان، وليس إنساناً بترك نفسه لهواها، وإطاعة جواذبه إلى دركها حيث تهدر إنسانيته ويرتد شيئاً توقد به النار التي وقودها الناس والحجارة..

والقصة تدعو إلى الإيمان الصادق، والانتصار على هوى النفس، والانطلاق من أَسْر الشهوة، والتصرف بها في توازن يليق بتكريم الله ﴿وأما مَن

خـاف مقـام ربـه ونهى النفس عن الهـوى فـإن الجنـة هي المـأوى﴾ [النازعات: ٤١]. .

وفي هذه القصة نجد عرضاً لأحرج موقف يمكن أن تمر به امرأة أُم، حين تجد أطفالها يقتلهم الجوع أو يكاد، والطعام قريب، ولكن لا بد للوصول إليه من تقديم أعز ما تملكه المرأة العفيفة ثمناً له، والقصة تعرض الموقف في صورة فنية معبرة تبعث في النفس مشاعر الأسى المرّ، والرثاء الحزين وهي تتردد بين صاحب المال تطلب معروفه، وهو يأبى إلا أن تُقدم نفسها، فترجع مقهورة إلى أطفالها الجياع، ثم تعود مرة ومرة تُذكره بالله، ولكنه يأبى، وإنها لبَين نارين محرقتين، وإذا بها تفرّ إلى زوجها تذكر له ما هي فيه، فيقـول لها: «أعـطيه نفسك وأغني عيالك. .».

يا للهول! إنها كمن تفرّ من الرمضاء للنار، أين المفر، أين السبيل، وترى أن الطُرق تُسَدُّ أمامها، ولا سبيل إلا أن تُسلِّم نفسها. .

إنها صورة حزينة ومؤلمة، تصور حالة نفسية في أشد حالات الكـرب تموج بالتضـايق والضجر والحـرج والحيرة. . إنـه عرض مُؤثِّـر يجعلنا نتـابع الأحداث والتطورات بقلوب تهتز، ومشاعر ترتجف، تعاطفاً مـع هذه المـرأة المسكينة التي توصف في القصة بأنها «امرأة تطلب معروفاً» وهو وصف يحدد مكانتها الاجتماعية، فهي فقيرة معدومة الحال.

ويبرز في القصة ضعف أمام عاطفة الأمومة الحانية، الذي دفع بالأم إلى أن تُضحي بأعز ما تملك، كما تعرضه صـورة إنسانيـة متحركـة بأحـاسيسها وعواطفها، وقد صوَّرتها في شدة وحاجة، ذهبت تسعى في الأرض بحثاً عما يقيم أودها وأود أطفالها الجياع، وجاءت إلى رجل تطلب منه معروفاً، فأبى إلا أن تقدم نفسها له ثمناً لذلك، فـأبت إباء الشريفـة الحريصـة على عـرضها وعفافها. . وعادت إلى أطفالها بلا شيء. . ولكنها لم تصبر، فعادت إلى الرجل تُذكره بالله وتحاوله، ولكنه أبى مرة أخرى، فعادت إلى أطفالها، ولكنها أمام منظر الأولاد، وهم يتضورون جوعاً لم تلبث أن عادت إلى الرجل مرة ثالثة،

وناشدته الله فأبى، فلما رأت ذلك أسلمت نفسها إليه. .

إنه الضعف الإنساني أمام العاطفة الأصيلة، الذي أدركها في هذا الموقف العصيب، فماذا تفعل؟! وهي تشاهد أطفالها يموتون موتاً بطيئاً، وهي تملك أن تنقذهم من الموت. . ولكنه إنقاذ بثمن باهظ. . باهظ جداً. . ويتمثل خيال تلك المرأة المسكينة، وهي في هذا الهول النفسي المُدَمِّر حريصة على الحصانة والعفاف، وتَجِدّ بإصرار على المحافظة على شرفها وعرضها ما أمكنها، حتى حين تُسَلِّم نفسَها تحت مطارق الظروف القاهرة، والآلام النفسية الشديدة، إنما تفعله بعد صراع مرير في النفس الحزينة، فقد هَدَّتها ظروف المحنة، وروّعتها آلام الشدة والجوع (١).

والقصة تصوّرها، وهي تقسر قسراً عنيفاً، بعد تردد واضطراب، فهي ترفض هذا الموقف وهي مجبرة مقهورة. .

إن الإسلام يُربي المجتمع على الفضيلة ويُهيىء بتوجيهاته النفوس للعفة والاستعلاء والشفافية والإشراق، فالزنا نكسة حيوانية تذهب بكل معاني الإنسانية، وترد الكائن الإنساني مسخاً مشوَّهاً. مَسخاً كل همّه إرواء جوعة اللحم والدم في لحظة عابرة، ليس وراءها عاطفة حقيقية راقية، لأن العاطفة تحمل طابع الاستمرار. وهذا ما يفرقها من الانفعال المنفرد المتقطع، الذي يحسبه الكثيرون عاطفة يتغنون بها، وإنما هي انفعال حيواني يتزيّا بزي العاطفة الإنسانية في بعض الأحيان!

وتؤكد القصة على تطهير النفوس والأخلاق، وتزكية القلوب والأرواح؛ وبعث وتنمية الرقابة والتقوى في الضمائر، والطمع في رضى الله وثوابه، والحياء والخوف من غضبه وعقابه.

فالأخلاق لا تقوم إلا على أساس من عقيدة تنشىء التقوى في القلب،

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ١٩٦، ٢٦٥، ٢٧٠، ٢٩٨.

http://al-maktabeh.com

التقوى التي تحرس الضمير أن يغفل، أو أن يضعف، وتحرسه أن يحيد عن الطريق الحق والصراط المستقيم. .

٣ ـ قلب عامر بالإيمان والتقوى:

تحرص القصة على إبراز دور الإخلاص والنية في العمل، فَحَظُّ العامل من عمله نيته، فإن كانت صالحة فعمله صالح، وله أجره، وإن كانت فاسدة، فعمله فاسد، وعليه وِزْره، فصلاحُ الأعمال وفسادها بحسب صلاح النيات وفسادها «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»(١).

فالعمل الصالح هو الذي يقصد به الإنسان وَجْه الله، وابتغاء مرضاته، وعلى ذلك يكون خيراً له، ويُثاب عليه، وإن لم يقصد ذلك لم يكن خيراً له، ولا ثواب له عليه، فإنما يقصد بذلك عَرَضَ الدنيا **﴿مَن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحَبِطَ ما صنعوا فيها، وباطلٌ ما كانوا يعملون﴾** [هود: ١٥، ١٦]. .

إن للجهد في هذه الأرض ثمرته. سواء تطلع صاحبه إلى أُفق أعلى أو توجَّه به إلى منافعه القريبة وذاته المحدودة. فمَن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعَمِلَ لها وحدها، فإنه يلقى نتيجة عمله في هذه الدنيا؛ ويتمتع بها كما يريد ـ في أجل محدود ـ ولكن ليس له في الآخرة إلا النار، لأنه لم يقدم للآخرة شيئاً، ولم يحسب لها حساباً، فكل عمل الدنيا يلقاه في الدنيا. ولكنه باطل في الآخرة لا يُقام له فيها وزن، وحابط يؤدي إلى الهلاك!

وترسم القصة أُفقاً عالياً سامياً للبشرية، تُطلعنا على الذُرى السامقة السَمحة الوضيئة، يدعو الرسول ـ ﷺ ـ قلوب المسلمين لِتلْمس فؤاداً امتلأ

---

(١) رواه البخاري ومسلم، وانظر تخريجه وتفسيره في جامع العلوم والحكم ١/٥٩ «الحديث الأول».

يقيناً وبِرًّا وودًّا، يدعو الرسول المؤمنين في ألطف لفظ وأحياه: «مَن استطاع منكم أن يكون مثل صاحب فَرَقِ الأَرْزِ فليكن مثله، قالوا: يا رسول الله، وما صاحبُ فَرَقِ الأَرْزِ، قال: خرجَ ثلاثة، فغيَّمت عليهم السماء، فدخلوا غاراً، فجاءت صخرة من أعلى الجبل حتى طبقت الباب عليهم، فعالجوها، فلم يستطيعوها، فقال بعضهم لبعض: لقد وقعتم في أمر عظيم، فَلْيَدْعُ كل رجل بأحسن ما عَمِلَ، لعلَّ الله تعالى أن يُنجينا من هذا.. وقال الثالث: اللهم إنك تعلم أني كنتُ استأجرتُ أجيراً بِفَرَقٍ من أُرْز، فلما أمسىٰ عرضتُ عليه حقه، فأبى أن يأخذه، وذهبَ وتركني، فَتَحرَّجتُ منه، وثَمَّرتُه له، وأصلحته، حتى اشتريتُ منه بقراً وراعيها، فلقيني بعد حين، فقال: اتقِ الله، وأعطني أجري، ولا تظلمني، فقلتُ: انطلق إلى ذلك البقر وراعيها فَخُذها، فقال: اتق الله، ولا تسخر بي، فقلتُ: إني لستُ أسخر بك، فانطلقَ فاستاقَ ذلك، فإن كنتَ تعلم أني إنما فعلتُه ابتغاء مرضاتك خشية منك، فافرج عنا، فتدحرجت الصخرة، فخرجوا يمشون».

وفي رواية «كان لي أجراء يعملون، فجاءني عُمال لي فاستأجرتُ كل رجل منهم بأجر معلوم، فجاءني رجل ذات يوم وسط النهار، فاستأجرته بشطر أصحابه، فعمل في بقية نهاره كما عَمِلَ كل رجل منهم في نهاره كله، فرأيت في الذمام[1] أن لا أنقصه مما استأجرت به أصحابه، لما جهد في عمله، فقال رجل منهم: أتعطي هذا مثل ما أعطيتني ولم يعمل إلا نصف نهار، فقلتُ: يا عبد الله لم أبخسك شيئاً من شرطك، وإنما هو مالي أحكمُ فيه ما شئت، قال: فغضب، وذَهَبَ وترك أجره...»[2].

ومن مظاهر الشر في النفس الإنسانية داء الغيرة والحسد، وهو موقف لا أخلاقي، تُصوره القصة، قيمة مذمومة تظهر في قول الأجير وتصرّفه

---

(١) في الكتاب المطبوع: «في الزمام».
(٢) المسند (صادر) ٤/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

«أتعطي هذا مثل ما أعطيتني ولم يعمل إلا نصف نهار.. فغضب وذهب وترك أجره..».

والملاحظ في تشييد بناء القصة أن هذا الموقف الذي اتخذه الأجير دفع مسار القصة إلى النمو، بوضعها أمام موقف جديد، مما جعل صاحب العمل يتخذ سلوكاً معيناً، ويتجه اتجاهاً خاصاً يُمليه عليه الموقف، ومن ثم تتلون الأحداث التالية بألوان رائعة من التحرّج والتقوى «فغضب، وذهبَ، وترك أجره».. «فتحرّجتُ منه، وثَمَّرته، وأصلحته، حتى اشتريتُ منه بقراً وراعيها، فلقيني بعد حين، فقال: اتَّقِ الله، وأعطني أجري، ولا تظلمني، فقلتُ: انطلق إلى ذلك البقر وراعيها فخذها...».

إن القصة تعرض صورة شفّة كريمة نبيلة، لمؤمن تقي، سخيٍّ كريم رحيم.. صورة تستجيش المشاعر، وتُحرك القلوب، وتُناجي الوجدان، وتُخاطب الأرواح، وتَصل إلى النفس فتبعث فيها الخير والصلاح..

وتُبرز القصة صورة صادقة للتحرج والتقوى: «فلما أمسىٰ عرضتُ عليه حَقّه، فأبى أن يأخذه، وذَهب وتركني، فتحرّجتُ منه، وثَمَّرته له..».

وترسم الكلمات حَساسية في الضمير، وشَفافية في الشعور، وخَشية مستمرة، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يبلغُ العبدُ أن يكون من المتقين حتى يَدَعَ ما لا بأسَ به، حَذَراً مما به بأس»(١).

وقال أبو الدرداء: تَمام التقوى أن يتقي اللّهَ العبدُ، حتى يَتقيه من مثقال ذرَّة وحتى يتركَ بعض ما يَرى أنه حلال، خَشية أن يكون حراماً، حجاباً بينه وبين الحرام.

وقال الحسن البصري: ما زالتِ التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥١) وقال: حسن غريب، ورواه ابن ماجه (٤٢١٥).

http://al-maktabeh.com

وقال سفيان بن عُيَيْنة: إنما سُموا المتقين لأنهم اتَّقَوْا ما لا يُتَّقَى[١].

وروي عن ابن عُمر رضي الله عنهما قال: إنِّي لأحبُّ أن أَدَعَ بيني وبين الحرام سترةً من الحلال لا أخرقها.

وقال ميمون بن مهران: لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال[٢].

وقال سفيان بن عُيَيْنَة: لا يصيبُ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال، وحتى يدعَ الإثمَ وما تشابَه منه[٣].

وقال موسى بن أعين: المتقون تنزَّهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام، فسماهم الله متقين.

وقال عمر بن عبد العزيز: ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرَّمَ الله، وأداء ما افترض الله، فمَن رُزِقَ بعد ذلك خيراً، فهو خير إلى خير.

التقوى هي النور الذي يضيء الضمير، ويحرسه أن يغفل، ويحرسه أن يضعف أمام زينة الشهوات وجواذبها..

إن تقوى الله تجعل في القلب فُرقاناً يكشف له منعرجات طريق الحياة، فيرى الحق حقاً فيتبعه، ويرى الباطل باطلاً فيجتنبه.

إن الأمور تظل متشابكة في الحس والعقل، وتظل متشابكة في النَظَر والفكر، وينطقُ الحقُّ في أعماق الوجدان ولكن لا يَستجيب له القلب والعقل، وما يزال الشيطان يُغري ويُلبس على الإنسان حتى يُزحزحه عن الحق.. ذلك ما لم تكن هناك التقوى.. فإذا كانت استنار العقل وَوَضح الحق واطمأن

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ٧/٢٤٨.
(٢) المصدر السابق ٤/٨٤.
(٣) المصدر السابق ٧/٢٨٨.

http://al-maktabeh.com

القلب واستراح الضمير، وفرحت الروح، وسلكت النفس سبيل الرشد والسلام..

وترسم القصة هذه الحقيقة بألوان مضيئة متلألئة في الواقع الإنساني «.. فأبى أن يأخذ أجره، وذَهَبَ وتركني، فتحرّجتُ منه، وثمّرته له، وأصلحته، حتى اشتريتُ منه بقراً وراعيها، فلقيني بعد حين، فقال: اتقِ الله، وأعطني أجري، ولا تظلمني، فقلتُ: انطلق إلى ذلك البقر وراعيها فَخُذْها، فقال: اتقِ الله، ولا تسخر بي، فقلتُ: إني لست أسخَرُ بك، فانطلقَ فاستاق ذلك....».

إنها التقوى التي تبرزها القصة في صورة متحركة شاخصة، تراها القلوب، وتتلمسها الأرواح، فهي نظافة ونقاء في السلوك، وأداءٌ للحقوق، ورحمة بالعباد، وصبر على تنفّش النفس وأطماعها وضعفها..

لقد كانت الفتوى في الأجير الذي أَبى أن يأخذ أَجره وذهب، كانت الفتوى: «ولو شئتُ لم أُعطه إلا الفَرَق»[1]، وفي رواية: «ولو شئتُ لم أعطِهِ إلا أجره»[2].

لقد اتفق الرجل مع الأجير على فَرَقٍ من أُرز أُجرةً على عمل يُقدمه للرجل... ها هو ذا الأجير يعود إلى الرجل «فقال: اتق الله، وأعطني أجري، ولا تظلمني..»..

هذه هي الفتوى، ولكن التقوى لها أهلها وكلمتها.. ها هو ذا الرجل يقول للأجير «انطلق إلى ذلك البقر وراعيها فَخُذها، فقال: اتقّ الله... ولا تسخر بي..».

ونقف أمام قول الأجير: «اتق الله ولا تسخر بي».. إنها كلمات تصور

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه. انظر الإحسان رقم ٨٩٧.

(٢) انظر الإحسان رقم ٩٧١.

المعنى الذهني والحالة النفسية، تصور الإنسان في حيرته.. إنها معاني ترسم آثار كلمة الرجل على نفس الأجير...

إننا نكاد نلمح إحساس الأجير في أعماقه حين سمع قول الرجل «انطلق إلى ذلك البقر وراعيها فَخُذْها».. يقف مشدوهاً لا يكاد يُصَدِّقُ ما سمعت أذناه.. لم يتحرك ولم يتحول.. وقال بِنَغَمٍ حَزين، يموج منه أَلَمٌ دَفين قديم: «اتق الله.. ولا تَسْخر بي..».

إنها صورة ترسمها القصة للحيرة التي انتابت الأجير حين سمع كلام الرجل، لقد توزَّع قلبه، وتَفَرَّق إحساسه، لا يدري.. أهي الحقيقة؟! وانطلق الضُعف الشاكي من أعماقه يُذكره بخشية الله والحياء منه «اتق الله.. ولا تَسخر بي»..

ثم ها هو ذا الرجل في حوار قصير قد مُلىء صدقاً يقول للأجير «إني لست أسخر بك»..

وانشرحت أسارير الأجير فرحاً حين رأى صورة الخير، صورة الإخلاص، صورة إفاضة البر والسعادة على الناس، رأى صورة التقوى حقاً في رجل... ها هو ذا ينظر بطرف إلى البقر وراعيها.. ثم تتراجع نظراته ثانية إلى الرجل.. «فانطلق فاستاق ذلك»..

هذه هي الصورة الأخيرة في هذا المشهد، تمثل «الروعة الباهرة».. الروعة التي تُبده، وتُشده الحسّ، وتبعث الفرح في الروح، فينبعث السرور متلألئاً يشيع السعادة في المتلقي..

وفي غمرة السكون الضاحك الذي يملأ النفس، تنقلنا القصة إلى الغار، لنسمع كلام الرجل في موقف الابتهال الخاشع المنيب؛ ها هو ذا الرجل يناجي ربه السميع العليم: «فإن كنتَ تعلم أني إنما فعلته ابتغاء مرضاتك، خشية منك، فافرج عنا، فتدحرجت الصخرة، فخرجوا يمشون»..

إن العمل الصالح لا بد له من القاعدة الأصيلة يرتكز عليها. قاعدة الإخلاص للّه، وابتغاء مرضاته، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً، وابتُغي به وجهه»[1]، وبغير هذه القاعدة لا يكون العمل مُتقبلاً من الله، إنما هو هباء كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، والإخلاص والتقوى هما المحور الذي تدور عليهما القلوب في السلوك الإنساني.

إن العمل في سبيل الله وابتغاء مرضاته هو شأن المؤمن لا سواه، فصاحب فُرَقِ الأرْزِ لم يَقدم على عمله هذا الذي رسمته القصة النبوية إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى «فإن كنتَ تعلم أني فعلتُه ابتغاء مرضاتك، خشية منك».. يا رب إنك تعلم السر وأخفى.. إنك تعلم ما في نفسي، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري. إنك أنت عَلّام الغيوب، إنما فعلتُ ذلك ابتغاء مرضاتك وخشية منك.. لم أفعل ذلك عن هوى ولا عن غرض. لم أفعل ذلك رياءً، أتلفَّتُ للناس أرى ماذا يقولون! لم أفعل ذلك لأتعالى وأشمخ! لم أفعل ذلك إلا ابتغاء وجهك. خالصاً متجرداً لمرضاتك..

إنه قلب عامر بالإيمان. نديّ بالإخلاص. أعطى ما أعطى بسخاء عظيم ابتغاء مرضاة الله، أعطى عن ثقة ثابتة في الخير، نابعة من الإيمان، عميقة الجذور في الضمير، ومن ثم يطمئن لقبول الله عمله، ويطمئن لبركة الله في ماله، ويطمئن لثواب الله ورحمته، ويطمئن إلى الخير والإحسان من الله جزاء الخير والإحسان لعباد الله، وها هوذا يسأل الله تعالى بهذا العمل الصالح: «فإن كنتَ تعلم أني فعلتُه ابتغاء مرضاتك، خشية منك... فافرج عنا..» وثَبَتَ الإخلاص في العمل فكانت الإجابة «فتدحرجت الصخرة، فخرجوا يمشون»..

---

(١) رواه النسائي عن أبي أمامة ٦/٢٥، والطبراني (٧٦٢٨) وحسّنه الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» ٤/٣٨٤، وجوّد إسناده ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ١/٨١، والسيوطي في «الدر المنثور» ٥/٤٧٢.

إنها صـورة عميقة الإيحـاء تلك التي ترسمهـا القصة لـذلك الـرجل الكريم، وهي صورة مضيئة ارتسمت آثارها في حياة المؤمنين على مر العصور، وما يكاد الإنسان يُتم قراءتها حتى يبدو له هذا النموذج الإنساني الكريم كأنما يراه، نابضاً حياً بمشاعره الصادقة الطيّبة، نرى صورة متلألئة تتفتح لها البصيرة المستنيرة، وتُدركها الفطرة المستقيمة. نرى صورة الفرح الروحي يملأ كيـان الرجل وهو يُقدِّم للأجير البقر وراعيها. . ذلك الفرح الشفيف الذي لامسته أرواحنا، الفرح والرضى والثقة وقد ملأت حياة هذا الرجل. .

إن العمل الخالص، والعطاء ابتغاء مرضاة الله، لـذة سماويـة عجيبة ليست في شيء من هذه الأرض. إنها تجاوب العنصر السـماوي الخالص في الطبيعة البشرية، إنها لا تطلب لها جزاءً خارجياً لأن جزاءها كامن فيها. وعلى هذا نفهم سعادة الرجل وهو يقدم للأجير البقر وراعيها. .

إن البذل والعطاء الخالص المخلص للّه، لهو الفرح النقي الذي ينبع من النفس ويرتد إليها بدون حاجة إلى عناصر خارجة عن الذات الإنسانية، إنه يحمل جزاءه كاملاً. إنه يحمل جزاءه فيه. .

وإلى هذه الحقيقة ترمي القصة النبوية وهي تدعو إلى الخير والإحسان لعباد الله حتى ترتفع وتزكو بما تعمل وهي بعد في هذه الأرض. . وجزاء الله بعد ذلك كله فضل عظيم. .

وهكذا عالجت القصة قِيَماً دينية عظيمة، عالجت الأمانة والعفة والتقوى في مال الآخرين، عالجت ذلك في مـوقف إنساني، صَـوَّرته في مشهـد مثير لكوامن الخير في النفس الإنسانية، فقد ترك العامل أجره وذهب مغاضبـاً، فتحرّج الرجل، فحفظ له حقه وثمَّره ونمَّاه، وأصبح مالاً كثيراً وثروة عظيمة، وحين عاد الأجير بعد زمن أعطاه ذلك كله ابتغاء مرضاة الله وفي سبيله. .

لقد أكدت القصة في عرضها التربوي على أداء الأمانة، والسماحة في

المعاملة(١)، والتحرج والتقوى(٢)، وهذا العمل لم يُعدّ صالحاً إلا بصلاح النية، وصلاح النية بصلاح القلب.

لقد حرصت القصة إلى إبراز عنصر الخير في النفس الإنسانية في صورة واقعية حيث تُربِّي في المُتَلَقِّي شعورَ التقوى، وشعور التحرُّج، وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله التي تَفضَّل الله بها على عباده..

وبعد، فقد أكدت القصة على قيمة الإخلاص. إخلاص القلب كله للّه، وتجرده من كل شائبة، ومن كل غَرَض وصفائه، وخُلوِّه من التعلق بغير الله. فهذه سلامة القلب التي تجعل للعمل قيمة ووزناً عند رب العالمين.

تربية وسلوك:

وهكذا اخْتتِمت القصة «فَفَرّج الله..».. «فتدحرجت الصخرة، فخرجوا يمشون»..

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلاً أتى النبي ـ ﷺ ـ يتقاضاه فأغلظَ له، فَهَمَّ به أصحابُه، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «دَعُوه فإنَّ لصاحبِ الحقِّ مقالاً» ثم قال: «أعطوه سِنًا مثل سِنّه» قالوا: يا رسول الله لا نجدُ إلا أَمْثَلَ من سِنه، قال: «أعطوه، فإن خيركم أحسنكم قضاءً» رواه البخاري ٤/٣٩٤، ومسلم (١٦٠١).

ومعنى قوله «يتقاضاه»: يطلب منه ماله عنده. وقوله: «فَهَمَّ به أصحابه» أي أن يفعلوا به جزاء إغلاظه. والأمثل: الأعلى.

وعن أبي مسعود البدري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «حُوسِبَ رجلٌ ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يُخالِطُ الناسَ، وكان مُوسِراً، وكان يأمرُ غلمانَه أن يتجاوزوا عن المُعْسِر. قال الله عزَّ وجل: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه». رواه مسلم (١٥٦١).

(٢) روي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه اشترى من رجل أرضاً، فأبطأ عليه، فلقيه، فقال له: ما منَعَك من قَبْضِ مَالِك؟ قال: إنك غَبَنْتَني، فما ألقى من الناس أحداً إلا هو يلومني. قال: أَوَ ذلك يمنعك؟ قال: نعم. قال: فَاخْتَر بين أرضك ومالِك، ثم قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أدخل الله عز وجل الجنةَ رجلاً كان سهلاً مشترياً، وبائعاً، وقاضياً، ومقتضياً». حديث حسن لغيره. أخرجه الإمام أحمد في المسند (رقم ٤١٠) و(٥٠٨) انظر تمام تخريجه في طبعة مؤسسة الرسالة للمسند المجلد الأول ص ٤٧٠.

وكانت الخاتمة على هذا المشهد.. مشهد رحمة الله تتدارك هؤلاء العباد.. يا للرضى.. ويا للسعادة.. ويا للفرحة.. ويا للطمأنينة التي تغمر قلوبنا ونحن نرى الفرحة وقد علت على وجوه أصحاب الغار، وقد خرجوا من ضيق الصخرة، خرجوا يمشون مستبشرين مسرورين..

لقد تميزت القصة بِغنى موضوعاتها، إذ تناولت جوانب مهمة من قيم الإسلام وتعاليمه، فهي تشارك في بناء العقيدة والسلوك في الشخصية الإسلامية، كما تُربي في وجدان المسلم بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فهو سبحانه فارج الهمّ وكاشف الغمّ، ومجيب دعوة المضطر إذا دعاه، كما تُنشيء في ضمير المسلم أن الله سميع قريب مجيب الدعاء، وهو الفعَّال لما يريد.. فمن العناصر الفنية البارزة في القصة، عنصر المناجاة، وهو يأتي على النحو الذي يأتي عليه في قصص القرآن الكريم[1]، فقد اعتمدت هذه القصة على هذا العنصر الروحي في بنائها الفني، وهي تسعى إلى أهداف خلقية وتعليمية، حيث نجد أصحاب الغار الثلاثة وهم في مأزق مخيف، وقد خيَّم الظلام على خيالهم في النجاة، بعد أن أظلمت الدروب عليهم، لم يجدوا أمامهم إلا أن يلجأوا إلى الله يدعونه ويتوسلون إليه بصالح أعمالهم، وقد قام كل واحد منهم يناجي ربه بصالح عمله، وفي كل مرة ينتهي واحد منهم من دعائه تنفرج الصخرة قليلاً، حتى إذا دعا الثالث وفرغ من مناجاته انزاحت الصخرة كلها وخرجوا سالمين[2].

إن هذه القصة تعرض وتصور أحداث إنسانية عادية مألوفة، ففي قصصها الثلاث الداخلية، التي كان الرجال الثلاثة يعرضونها في مناجاتهم لربهم، وقد وقعت عليهم الصخرة فَسَدَّت باب الغار، حيث كان كل واحد

---

(١) انظر رسالة الدكتوراه للدكتور محمد أحمد البيومي «سيدنا محمد في إبداعه الأدبي» عام ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م، وهي مخطوطة في مكتبة كلية اللغة العربية بالأزهر برقم ٤٨٢ ص ١١٨ - ١٢١.

(٢) القصص في الحديث النبوي ص ٢٢٧.

منهم يعرض قصة حدثت له، وما كان له فيها من عمل صالح يرجو بعرضه هنا أن يتوسل به إلى الله ليكشف عنهم هذا البلاء الشديد، فكانت أحداث قصصهم من قبيل أحداث الحياة التي يوجد أمثالها في الواقع، وهذا لا ينفي عنها صفة الإثارة التي تنطوي عليها أحداث هذا القصص في الواقع[1].

والقصة النبوية قصة ملتزمة، فالرسول ـ ﷺ ـ وهو يسرد هذه القصة التي تلقّى مادتها من الوحي ـ كسائر قصص الماضي والمستقبل ـ كان يستخدمها من ضمن الوسائل الكثيرة التي يتبعها في سبيل تحقيق الغرض الديني، وهو الهدف الأصيل الأساسي الذي من أجله بُعث ـ ﷺ ـ والذي من أجله يصطنع الأساليب الكثيرة في الدعوة والتبليغ.

ومن هنا نجد القصة النبوية خاضعة خضوعاً تاماً لذلك الغرض الديني، وملتزمة به، شأنها في ذلك شأن القصة في القرآن الكريم تماماً[2]، فما كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعرض القصص بمختلف أنواعها لذاتها كأنماط قصصية ذات طريقة فنية جميلة، أي أنه لم يعرضها لذات الفن القصصي وإن كان هذا يتحقق تبعاً، وإنما يعرضها وهو يستهدف فقط، ما تتحدث عنه من موضوعات دينية، وما تعرضه من مبادىء وأفكار، وما تتناوله من قضايا جاء بها القرآن الكريم[3].

ونجد هنا الاكتفاء في عرض القصة بما يحقق الغرض الديني المراد، بحيث اقتصر العرض لأحداث القصة ومواقفها على ما يؤدي إلى الأثر المنشود، فقد اختارت المواقف الكفيلة بإيجاد التأثير المعين، وعند ذلك توقف العرض القصصي، وقد تحقق المراد، وقد احتاجت القصة لتحقيق الأثر المطلوب إلى

---

(١) المصدر السابق ٣١٢.
(٢) انظر فصل القصة في القرآن في كتاب «التصوير الفني» ص ١١١.
(٣) القصص في الحديث النبوي ص ٤٢٧.

نوع من التفصيل فهي قصة متوسطة المساحة أدت إلى الغرض الديني الذي خضعت له[1]. .

إن هذه القصة تحقق أكثر من غرض من الأغراض، فهي تهدف فيما تهدف إلى التربية الفكرية والسلوكية، كما أنها تحمل في مسارها ألواناً من العظة والاعتبار، فكانت توجيهاً رائعاً إلى العمل الصالح ودعوة غير مباشرة، تفهم من خلال سياق القصة، وطريقة عرض أحداثها، وما تضمنته في تضاعيفها من قصص داخلية مؤثرة، صوّرت قيمة العمل الصالح وثمرته بطريقة تُرغّب فيه وتحث على فعله، وتدفع الإنسان دفعاً شعورياً للالتزام.

لقد امتازت القصة بقدرتها على تصوير نواحي الحياة، وعرض الشخصيات بما تحمله من أخلاق وأفكار واتجاهات نفسية ويقظة وجدانية، فقد استطاعت أن تحرك وجدان الإنسان، وتثير فيه الانتباه والتقوى حتى يكون حَيًّا يقظاً ما دام على قيد الحياة، فيعيش مع تعاليم الإسلام وأخلاقه وقيمه السامية[2].

ثم تبقى في النفس بقية من قول الرسول ـ ﷺ ـ: «مَن استطاع أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله. .». . «فليكن مثله». .

لقد كان المحور الذي تدور عليه القصة النبوية هو محور التربية، فكانت ترسم صوراً متحركة تلمس، الوجدان الإنساني برفق وحكمة، لمسات تصل القلب بنور الله، فهي تربي الضمائر، وتستجيش المشاعر، وترفع المقاييس الأخلاقية للحياة.

وفي القصة سلوك وآداب للنفس، سلوك وآداب في البيت والأسرة، سلوك وآداب في المجتمع، كل هذه التربية، وذاك السلوك ينبع من معين واحد

---

(١) المصدر السابق ٤٣١، ٤٣٢.

(٢) انظر القصص في الحديث النبوي: ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٧.

http://al-maktabeh.com

هـو العقيدة في الله، العمـل المتصل في روحـه بشفافيـة الصدق، وإشراقـة الإخلاص[1]، وطهارة النية والإرادة.

---

(١) يقول الإمام السبكي الكبير في تعليقه على حديث أصحاب الغار: «ظهر لي أن الضرورة قد تلجىء إلى تعجيل جزاء بعض الأعمال في الدنيا، وأن هذا منـه، ثم ظهر لي أنـه ليس في الحديث رؤية عمل بالكلية لقول كل منهم «إن كنتَ تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك»، فلم يعتقد أحد منهم في عمله الإخلاص، بل أحال أمره إلى الله، فإذاً لم يجزموا بالإخلاص فيه، مع كونه أحسن أعمالهم، فغيره أَوْلى، فيستفاد منه أن الذي يصلح مثل هذا أن يعتقد الشخص تقصيره في نفسه، ويُسيء الظن بها، ويبحث على كل واحد من عمله يظن أنه أخلص فيه، فيفوض أمره إلى الله، ويُعلق الدعاء علِى علم الله به، فحينئذ يكون إذا دعاه راجياً للإجابة، خائفاً من الردّ، فإن لم يغلب على ظنه إخلاصه، ولو في عمل واحد، فليقف عند حـدّه، ويستحي أن يسأل بعمل ليس بخالص. قال «وإنما قالوا ادعوا الله بصالح أعمالكم» في أول الأمر، ثم عند الدعاء لم يطلقوا ذلك، ولا قال واحد منهم أدعوك بعملي، وإنما قال: إن كنتَ تعلم، ثم ذكر عمله. . » انتهى ملخصاً.

يقول الإمام ابن حجر في شرح الحديث: وفيه فضل الإخلاص في العمل، وفضل بر الوالدين وخدمتهما وإيثارهما على الولد والأهل، وتحمل المشقة لأجلهما. . وفيه فضل العفة والانكفاف عن الحرام مع القدرة، وأن ترك المعصية يمحو مقدمات طلبها، وأن التوبة تجبّ ما قبلها. . وفيه فضل أداء الأمانة، وإثبات الكرامة للصالحين. فتح الباري ٦/٣٩٨.

قصة المُتكلِّمون في المهد

المحتوى	ص
ـ عَرض وتَقديم	٤٢٥
ـ عيسى بن مريم	٤٢٨
ـ جُريج العابد	٤٣١
ـ صُوَر إنسانية	٤٤٥
ـ الرَّضيع والأم	٤٥١

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

المتكلمون في المهد

سلكت القصة النبوية سبيل القرآن الكريم، وزخرت بعجائب صنع الله، وبالمعجزات والخوارق التي لا يصدقها ولا يسيغها ولا يحتملها إلا الإيمان بالغيب، الإيمان بقدرة الله المطلقة، ومشيئته القاهرة كولادة عيسى ـ عليه السلام ـ الخارقة للعادة، ونطقه المبكر جداً، وغيرها الكثير مما تقدم في قصص الرحمن في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة(١):

(١) «قال القرطبي في هذا الحصر نَظَر إلا أنه ـ ﷺ ـ قال ذلك قبل أن يعلم الزيادة على ذلك. . ، ويحتمل أن يكون كلام الثلاثة المذكورين مقيداً بالمهد، وكلام غيرهم من الأطفال بغير مهد لكنه يعكر عليه أن في رواية ابن قتيبة أن الصبي الذي طرحته أمه في الأخدود كان ابن سبعة أشهر وصرح بالمهد في حديث أبي هريرة، وفيه تعقيب على النووي في قوله أن صاحب الأخدود لم يكن في المهد والسبب في قوله ما وقع في حديث ابن عباس عند أحمد والبزار وابن حبان والحاكم «لم يتكلم في المهد إلا أربعة» فلم يذكر الثالث الذي هنا، وذكر شاهد يوسف والصبي الرضيع الذي قال لأمه وهي ماشطة بنت فرعون لما أراد فرعون إلقاء أمه في النار اصبري يا أمه فأنا على الحق.

وأخرج الحاكم نحوه من حديث أبي هريرة فيجتمع من هذا خمسة، ووقع ذكر شاهد يوسف أيضاً في حديث عمران بن حصين لكنه موقوف، وروى ابن أبي شيبة من مرسل هلال ابن يساف مثل حديث ابن عباس إلا أنه لم يذكر ابن الماشطة وفي صحيح مسلم من حديث صهيب في قصة أصحاب الأخدود أن امرأة جيء بها لتلقى في النار أو لتكفر، ومعها صبي يرضع، فتقاعست فقال لها: «يا أمه اصبري فإنك على الحق» وزعم الضحاك في تفسيره أن يحيى تكلم في المهد، أخرجه الثعلبي. فإن ثبت صاروا سبعة» فتح الباري ٦/ ٣٧١.

www.al-maktabeh.com

عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلاً عابداً فاتخذ صومعة فكان فيها، فأَتَتْه أُمه وهو يُصلي فقالت: يا جُريج، فقال: يا ربِّ أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته فانصرفت. فلما كان من الغد أَتَتْه وهو يُصلي، فقالت: يا جريج، فقال: أي ربِّ أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: أي ربِّ أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تُمِتْه حتى ينظر إلى وجوه الموسات. فتذكّر بنو إسرائيل جريجاً وعبادَتَهُ، وكانت امرأة بغيّ يُتَمَثَّل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفْتِنَنَّهُ، فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته، فأَمْكَنَتْهُ من نفسها فوقَعَ عليها، فحملَتْ، فلما ولدت قالت: هو من جُريج، فأتوه فاستنزلوه وهدّموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيتَ بهذه البغيِّ فولدت منك، قال: أين الصبي؟ فجاءوا به فقال: دعوني حتى أُصَلِّ، فَصَلَّى، فلما انصرف أتى الصبيَّ فطعَنَ في بطنه وقال: يا غلامُ مَنْ أبوكَ؟ قال: فلانٌ الراعي، فأقبلوا على جُريج يُقبلونه ويتمسَّحون به وقالوا: نبني لك صومَعَتَك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا. وبَيْنَا صَبيٌّ يرضَعُ مِن أُمه، فمرَّ رجل راكب على دابة فارهة[١] وشارةٍ حَسَنةٍ[٢]، فقالت أُمه: اللهم اجعل إبني مثل هذا، فَترَكَ الثدي وأقبل إليه فنَظَر إليه فقال: «اللهم لا تجعلني مثله، ثم أَقْبَل على ثَديه فجعل يَرْتَضِعُ» فكأني أنظر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يحكي ارتضاعَهُ بأُصْبُعِه السَّبابة في فيه، فجعل يمصُّها، قال: «ومروا بجارية وهم يضربونها، ويقولون: زَنَيْتِ سَرَقْتِ، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت أُمه: اللهم لا تجعل ابني مِثْلَها، فتركَ الرَّضاع ونَظَر إليها فقال: اللهم اجعلني مِثلها، فهنالِك تراجعا الحديث[٣] فقالت: مَرَّ رجلٌ حَسَنَ الهيئة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مِثْلَه فقلتُ: اللهم لا تجعلني مثله، ومَرُّوا بهذه الأَمَة وهم يضربونها

(١) أي حاذقة نفيسة.

(٢) وهي الجمال الظاهر.

(٣) أي حَدَّثتِ الصبي وحَدَّثها.

http://al-maktabeh.com

ويقولون: زَنَيْتِ سَرَقْتِ، فقلتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت: اللهم اجعلني مثلها؟! قال: إن ذلك الرجل كان جَبَّاراً فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زَنَيْتِ، ولم تَزْنِ وسرقتِ، ولم تسرق، فقلتُ: اللهم اجعلني مِثْلَها»[1].

يسبق القصة تمهيد سريع بمقدمة تربط السامع لأول وهلة بما يأتي بعد هذه المقدمة «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة»، فهذه المقدمة على قصرها، قد اشتملت على أمر مهم جداً، وغير عادي، لما فيه من جانب الغرابة، وهي «الكلام في المهد» وهذا في حد ذاته يثير اهتمام المستمع، وإثارة التساؤل في نفسه كيف كان ذلك؟!!

إنها مقدمة مشوقة، أدّت مهمة كبيرة في إيجاد «الارتباط الشديد» بين المستمع وأحداث القصة، فأصبح من أوكل كلمات القصة حريصاً على سماعها بتلهف كبير حتى آخر كلمة فيها.

وبهذا تؤدي القصة هدفها في التأثير على نفسية المتلقي، الذي قد تهيَّأ للعيش بكل حواسه في أحداثها، وهو يحرص على الاندماج في أحداثها بدوافع كثيرة من إشباع رغبة الاستطلاع في نفسه من ناحية، وإشباع حاجته الملحة التي أثارها هذا التساؤل: كيف كان ذلك الأمر الخارق للعادة ولِمَ كان؟..

والمقدمة هنا تمهيد لأكثر من قصة تُذكر في الحديث النبوي، إذ يشير الحديث إلى ثلاث قصص؛ قصة عيسى عليه السلام، وقصة جريج، وقصة الطفل الرضيع مع أمه.

وقد جاء التمهيد للقصص الثلاث التي أشار إليها الحديث ضمناً أو صراحة لأنها كلها تدور حول محور واحد، ويجمعها الموضوع والفكرة، بل إننا حين نتعمقها كلها بالنظر الدقيق الفاحص نجد هناك صلات عميقة وهادفة بين القصص الثلاث في كل من أسباب القصة وغايتها في النهاية، وهناك أوجه

---

(١) أخرجه البخاري ٦/٣٤٤، ٣٤٨، ومسلم (٢٥٥٠) (٨)، وأخرجه أحمد ٢/٤٣٦.

شبه واضحة تشير إلى الصلات الهادفة للقصص الثلاث:

١ ـ الكلام في المهد.

٢ ـ كل متكلم في المهد من الثلاثة، نطق لإحقاق حق، وإزالة تهمة وريبة.

٣ ـ بروز عنصر «الأم» في كل القصص الثلاث.

٤ ـ وجود الاتهام «بالفاحشة السيئة» في جميع القصص الثلاث[١].

ونمضي مع القصة المثيرة في شوق كبير وعميق، لنرى ونسمع ظروف وملابسات، تبعث في الحس جذوة التطلع المشتاق لما فيها من حوادث تحرك الروح والنفس، وتُنَبِّه الوجدان بما تستحضره في الأذهان.

أ ـ عيسى ابن مريم:

لم تُفَصِّل القصة النبوية في الحديث عن عيسى ـ عليه السلام ـ اعتماداً على ما لدى السامع من معرفة بتفصيلاتها مما ورد في القرآن الكريم.

«وقد ذكر القرآن من صفات الله تعالى وأفعاله ما لا يُقْبَل ولا يُصدَّق إلا بالإيمان بالغيب، ومن الوقائع والحوادث وآلاء الله وأيامه، وأخبار الرسل وما أجرى على أيديهم من المعجزات، وما أظهر لهم من الآيات، ما لا يُطيقه ولا يُسيغه إلا الإيمان بالغيب، وما لا يقبل التعليل العقلي، ولا التطبيق بنواميس الطبيعة إلا بتكلف شديد مضحك، وخروج عن قوانين اللغة العربية، وجراءة على الله، وتَجَنٍّ على اللغة وأبنائها، ووقاحة شديدة[٢]، كانفلاق البحر لموسى وقومه، وانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بضرب موسى، وارتفاع الجبل كالظُلَّة على طائفة من بني إسرائيل، وحياتها بعد موتها، ومَسْخ فريق منهم قردة خاسئين، وحياة المقتول الذي جُهِلَ قاتله، بضرب جزء من البقرة المذبوحة، وتحول النار برداً وسلاماً على إبراهيم، ومنطق الطير الذي عَلَّمه سليمان،

---

(١) القصص في الحديث النبوي ص ٩٩، ١٠٠.

(٢) اقرأ أمثلته الواضحة في تفسير سيد أحمد خان ومحمد علي اللاهوري.

وفَهمه لحديث النمل، ومُطاوعة الرياح له، وسيرها به غُدوّها شهر ورواحها شَهر، وانتقال عَرش ملكة سَبأ في طرفة عين، وقصة ذي النون، وخروجه من بطن الحوت، وولادة عيسى الخارقة للعادة، وغيرها مما جاء في القرآن صراحة في سور كثيرة»[1]، وقد تقدَّم هذا في مواضع عديدة في هذا الكتاب، ولا يقبله إلا الإيمان بالغيب، الإيمان الذي آمن بالله الذي وسعت قدرته كل شيء.

إن حادثة ولادة عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ أعجب ما شهدته البشرية في تاريخها كله، وقد شاءت إرادة الله سبحانه ومشيئته الحكيمة أن تُبرز هذه العجيبة، ليشهدها البشر، ثم تظل في سجل الوجود مَعْلَماً تتلفَّت إليه الأجيال، لِتَعْلَمَ وتَتَذكر دوماً حرية القدرة الربانية وطلاقة الإرادة الإلهية ﴿**إنما أمرنا إذا أردناه أن نقول له كن فيكون**﴾ [يٓس: ٨٢].

ولنمضِ مع القرآن في إيمان وتسليم، فليس على الله ـ سبحانه ـ هَينٌ وصعب فهو جَلَّ وعَلاَ على كل شيء قدير، ولنتحسس بقلوبنا لمسات القدرة العظيمة، وحركتها اللطيفة في الكلمات والعبارات والظلال الرحيمة:

﴿**واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً. فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثَّل لها بشراً سوياً. قالت: إني أعوذ بالرحمٰن منك إن كنتَ تقياً. قال: إنما أنا رسول رَبِّك لأَهَبَ لَكِ غلاماً زكياً. قالت: أنَّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشرٌ ولم أَكُ بغياً. قال: كذلكِ قال رَبُّك هو عليَّ هَينٌ ولنجعله آيةً للناس ورحمةً مِنّا وكان أَمْراً مقضياً. فحملتهُ فانتبذت به مكاناً قصياً. فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت: يا ليتني مِتُّ قَبْلَ هذا وكنتُ نسياً منسياً. فناداها من تحتها ألا تحزني قد جَعَلَ ربُّك تحتك سرياً...**﴾ [مريم: ١٦ ـ ٢٤]..

وفي غمرة المحنة وشدتها، وحِدّة الألم وقسوته، وغمرة الهول وثقله تقع المفاجأة الكبرى.. الطفل يتكلم!! يا للّه! طفلٌ وُلِدَ اللحظة يُناديها من

(١) أبو الحسن الندوي: النبوة والأنبياء: ص ٥٥.

http://al-maktabeh.com

تَحتها، يُطمئن قلبها، ويَصلها بربها، ويرشدها إلى طعامها وشرابها. . طفلها الوليدُ يناديها: لا تحزني، فربُّكِ لم يَنسكِ ولم يتركك. . فكُلي واشربي. فهذا طعام وذاك شراب. . واطمئني قلباً، ثم يَدلّها على حُجّتها وبرهانها! فأما إذا واجهتِ أَحَداً فأعلنيه بطريقة غير الكلام، أنك نذرت للّه صوماً عن حديث الناس، وانقطعت إليه للعبادة. ولا تُجيبي أحداً عن سؤال. . ﴿**فإما تَرَيِنَّ من البشر أحداً فقولي إني نذرتُ للرحمٰن صوماً فلن أُكَلِّم اليوم إنسيًّا**﴾. .

وبعد دهشة طويلة وعَجَبٌ عَريض من كلام الطفل اطمأنت مريم إلى أن هذه إرادة الرحمٰن، وأنه سبحانه معها، هذا الطفل الذي ينطق في المهد هو حُجتها، وهو آيةً للناس، ﴿**فأَتَتْ به قومها تحمله. . ! قالوا: يا مريم لقد جئتِ شيئاً فرياً. يا أُخت هارون ما كان أبوكِ امرأ سوءٍ، وما كانت أمكِ بغياً!!!**﴾. .

وقد عَلَتْ الدهشة وجوه أهلها، وهم يَرون ابنتهم الطاهرة العابدة تَحمِلُ طفلًا! ثم انطلقوا في تقريع شديد وتأنيب أليم، ثم رَمَوها بأَلْسَع الألفاظ في سخط لئيم وتهكم مرير. . فِعْلُك هذا لا تفعله إلا البغايا الدنيات. . .

وتنظر مريم إلى القوم بصَمْتٍ خَجول، وهُدوء يطول، ثم تُنفِّذُ الأُمُّ الطاهرة البَتول وصيَّة الطفل العجيب التي لَقَّنها إياها: ﴿**فأشارت إليه**﴾ هكذا فَعَلَتْ. . أَشَارت إليه في طمأنينة هادئة وسكينة راضية، ونلمح العجب في عيون القوم وهي تشير لهم إلى الطفْل ليسألوه عن سرّها!

﴿**قالوا: كيف نُكلّم مَن كان في المهد صبياً**﴾؟!. .

ولكن ها هي ذي الخارقة المعجزة العجيبة تتدخل ثانية في هذا الموقف العصيب الرهيب الذي تواجهه هذه العابدة الصامتة: ﴿**قال: إني عبد الله، آتاني الكتاب، وجعلني نبياً، وجعلني مُباركاً أينما كنتُ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حَيًّا وبَرًّا بوالدتي، ولم يجعلني جباراً شقياً، والسلام عَليَّ يومَ ولدتُ ويوم أموتُ ويوم أُبعث حيّاً**﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣]. .

ونكاد نلمح القوم كيف استقبلوا هذه الخارقة، فَبُهِتُوا في صمت

مُضطرب، ها هي ذي عيـون الناس تمتـد برهبـة إلى جلال الأُم الـطاهرة، وتنحني القلوب لهذا الطفل العجيب.

ويدعنا السياق القرآني في مشهد حاضر، يتملَّاه الخيال بحسّ مُرهف، والقوم يتلقون مريم وابنها بالأفئدة الهادئة المشدوهة في تقديس وتكريم، وتأهيل وتعظيم..

وبَعْدُ، لقد كـان حدثـاً عجباً ميـلاد عيسى ـ عليه السـلام ـ نرى أن الإيقاعات في شطر القصة الأول، تحضِّر المشاعر والقلوب، وتُهيىء العقول والنفوس لتلقي هذه الحقيقة التي ألقاها هذا الطفل العـظيم.. ها هي ذي النفوس قد استعدت، وتفتّحت القلوب وامتدت: ﴿**قال: إني عبد الله، آتاني الكتاب، وجعلني نبياً...**﴾ ثم يـأتي التعقيب بالغـرض المقصود في تقـرير حاسم واضح ﴿**ذلك عيسى ابن مريم. قول الحق الذي فيه يمترون. ما كان للّه أن يتخذ من وَلدٍ سبحانه. إذا قضى أمـراً فإنمـا يقول لـه كن فيكون**﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥]..

ولن نسترسل هنا في الحديث عن الغايات العديدة السامية وراء هذه المعجزة الباهرة، فقد فصّلنا القول في بيان ذلك في قصة عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ فيما تقدَّم في الفصل السابق.

٢ ـ جُرَيج العابد:

تهـدف القصة الإسـلامية إلى تعميق الـوعي الغيبي، وربط إحساس المؤمن بالله إيماناً وتسليماً، فهذه البشرية هي من صُنع الله، وكل شيء في خَلْق الله عجيب عجيب، فالله هو الخالق، وهو سبحانه صاحب القدرة، العليم الخبير، يفعل ما يشاء وقت ما يشاء.

وحركة القدرة في هذا الـوجود تبلغ حَـدّ الروعـة المدهشـة التي تُبهر الإنسان إذا لاحَقَها بقلب مُتفتح وبَصيرة مُستنيرة..

والقصة النبوية تُواجه القلب البشري بما يُوقظه ويُحركه، تَقوده إلى التأمُّل

والتدبُّر، وإلى التطلُّع والرجاء.. ثم تدعه في النهاية تحت مؤثرات يد القدرة الإلٰهية الطليقة، تَدَعُه بعد أن تخاطب فطرته خطاباً مباشراً: أنه ليس شيء في هذا الكون إلا بتقدير الحكيم القدير، المطلع على ما يغيب وما يحضر، القوي القادر ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾ [يٓس: ٨٢]، فَتَوَجُّه الإرادة لأمر كاف وحده لوجوده كائناً ما يكون..

وقصة جريج رحلة في تاريخ بني إسرائيل البعيد، رحلة في الغيب العجيب، رحلة شاسعة الآماد، عميقة الأغوار، عميقة الأبعاد، رحلة في خفايا الحياة، رحلة مع روح القدرة التي تُوجِّه كل شيء في هذا الكون والوجود..

إنها تُوحي في ثَمَرة هَدْيها وتَوجيهها أنه لا مكان في الحياة الإنسانية للمصادفة العمياء، ولا لِلَفْتَة العارضة ﴿**ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير**﴾ [الحديد: ٢٢].. وكل أمر لحكمة. ولكن حكمة الغيب العميقة قد لا تتكشف للنظرة الإنسانية القصيرة.. والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها. ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تُنشىء الآثار والنتائج، وإنما هي الإرادة الطليقة التي تُنشىء الآثار والنتائج كما تنشىء الأسباب والمقدمات سواء ﴿**لا تدري لَعلَّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً**﴾ [الطلاق: ١].. والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها، والله هو الذي يُقَدِّر آثارها ونتائجها.. والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله وإلى حكمته وعلمه هو وحده الملاذ الأمين..

ولنمضِ مع كلمات الرسول ـ ﷺ ـ في قصة جريج، نتلقَّى ظلالها بأرواح مُرفرفة، وقلوب خافقة، نتلقى إيحاءاتها ونستقبلها بالإحساس المفتوح والبصائر المستنيرة..

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كان في بني إسرائيل رَجلٌ يقال له: جُريج،

فأنشأ صومعة، يَعْبُد الله فيها، فأَتَتْهُ أُمه ذات يوم، فنادته، فلم يَلْتَفِتْ إليها، ثم أَتَتْه يوماً ثانياً، فنادته، فلم يلتفت إليها، ثم أَتَتْه يوماً ثالثاً، فقال: صلاتي وأُمي، فقالت: اللهم لا تُمِتْهُ أو يَنْظُر في وجوه المومسات. . .»(١).

وفي رواية مسلم: «وكان جُريج رجلاً عابداً، فاتخذ صومعة، فكان فيها فأَتَتْهُ أُمه وهو يُصَلِّي، فقالت: يا جُريج، فقال: يا ربِّ أمي وصلاتي، فأقبلَ على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أَتَتْه وهو يُصلي، فقالت: يا جُريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أَتَتْه وهو يصلي، فقالت: يا جُريج، فقال: أي ربِّ أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تُمِتْهُ حتى ينظر إلى وجوه المومسات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادَتَه، وكانت امرأة بغيّ يُتَمثَّل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتِنَنَّهُ لكم» وفي رواية ابن حبان: «فقالت بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل: إن شئتم أن أفتنه فَتَنْتُه، قالوا: قد شئنا».

قال: «فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأَتَتْ راعياً كان يأوي إلى صومعته، فَأَمْكَنَتْهُ من نفسها، فَوقعَ عليها، فحملت، فلما وَلَدَتْ، قالت: هو من جُريج، فأتوه فاستنزلوه، وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زَنَيْتَ بهذه البغي، فولدت منك، فقال: أين الصبي؟ فجاءوا به، فقال: دعوني حتى أُصلي، فصلَّى، فلما انصرف أتى الصبيَّ، فَطعَنَ في بطنه، وقال: يا غلام، مَن أبوك؟ قال: فلانٌ الراعي، قال: فأقبلوا على جريج، يُقَبِّلونه، ويتمسَّحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا»(٢).

---

(١) رواه ابن حبان بإسناد صحيح على شرط الشيخين (انظر الإحسان ٦٤٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٥٠) (٨) في البر والصلة: باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها، وأخرجه أحمد ٢/٣٠٧ و٣٠٨، والبخاري (٢٤٨٢) في المظالم: باب إذا هدم حائطاً فليبنِ مثله، و(٣٤٣٦) في الأنبياء: باب قول الله ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ من طريقين عن جرير بن حازم، وأخرجه أحمد ٢/٤٣٣ ـ ٤٣٤، ومسلم من طريقين عن سليمان بن المغيرة، وأخرجه أحمد ٢/٤٣٤ عن أبي سعيد مولى بني هاشم، =

وفي رواية للإمام أحمد[1] أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كان رجل في بني إسرائيل تاجراً، وكان ينقص مرة ويزيد أخرى، فقال ما في هذه التجارة خير لألتمسنَّ تجارة هي خير من هذه فبنى صومعة، وترهَّبَ فيها وكان يقال له جريج . . .» فذكر الحديث.

حين نلقي نظرة على مقدمة القصة نجد تمهيد تقريري، ومقدمة تنطلق في جوها أحداث القصة، فهذه المقدمة التقريرية تعطينا تفصيلات عن جريج، وهو الشخص الذي تدور حوله أحداث القصة فهو:

١ ـ رجل من بني إسرائيل.

٢ ـ كان تاجراً، وكانت تجارته غير مستقرة على حال، فهو مرة في خسارة، ومرة في ربح، وهو بين ذلك في عناء وهمّ دائم، مما جعله يلتمس سبيلاً أفضل، إذ تحول إلى الرهبنة والتفرغ للعبادة.

٣ ـ كان عابداً. . «كان في بني إسرائيل رجل عابد يقال له جُريج، فابتنى صومعة[2] وتعبَّد فيها، قال: فذكر بنو إسرائيل يوماً عبادة جريج، فقالت بغي منهم: لئن شئتم لأحبيننّه؟! فقالوا: قد شئنا. .».

إن هذه البداية تقوم بإشاعة الجو المناسب بين المتلقي والقصة، بسبب ما تثيره من أحاسيس وتطلعات وأشواق. .

وفي رواية «وكان في بني إسرائيل رجلٌ يقال له جريج كان يصلي جاءته

= وعلقه البخاري (١٢٠٦) في العمل في الصلاة: باب إذا دعت الأم ولدها في الصلاة، ووصله أبو نعيم، وأبو بكر الإسماعيلي كما في «تعليق التعليق» ٢/٤٤٤ من طريقين عن الليث.

(١) ٢/٤٣٤ عن أبي سعيد مولى بني هاشم، قال: حدثنا أبو عوانة؛ عن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة «أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال. .» [الإحسان ٦٤٨٩].

(٢) يقول ابن حجر «ودلّ ذلك على أنه كان بعد عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ وأنه كان من أتباعه لأنهم الذين ابتدعوا الترهُّب وحبس النفس في الصوامع. والصومعة بفتح المهملة وسكون الواو هي البناء المرتفع المحدد أعلاه، وزنها فوعلة من صمعت إذا دققت لأنها دقيقة الرأس».

أُمُّه[1] فَدَعَتْهُ فقال: أُجيبها أو أُصلي[2] فقالت: اللهم لا تُمته حتى تُريه وجوه المومسات. .»[3].

وتمضي القصة في بيانها النبوي: «قال: فذكر بنو إسرائيلٍ عبادة جُريج، فقالت بغيٍ منهم إن شئتم لأحبينّه» وفي رواية: «إن شئتم لأفتننّه؟! قالوا: قد شِئنا»، فأَتَتْه، فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأمكنت نفسها من راع كان يُؤوي غنمه إلى أصل صومعة جريج، فوَقَع عليها، فَحَمَلَتْ. .».

وفي حديث عمران بن حصين أنها كانت بنت ملك القرية، «ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأنها خرجت من دار أبيها بغير علم أهلها متنكرة وكانت تعمل الفساد إلى أن ادعت أنها تستطيع أن تفتن جريجاً، فاحتالت بأن خرجت في صورة راعية ليمكنها أن تأوي إلى ظل صومعته لتتوصل إلى فتنته»[4]. .

وانطلقت البغي في كيدها المتين، وقد سخرت لفتنة جريج كل ما أُوتيت من جمال «وكانت امرأة بغي يُتَمثَّل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننَّهُ لكم»،

---

(١) في حديث عمران بن حصين وكانت أمه تأتيه فتناديه فيشرف عليها، فيكلمها، فأَتَتْه يوماً وهو في صلاته. وفي رواية أبي رافع عند أحمد «فأتته أمه ذات يوم فنادته قالت: أي جريج أَشْرِف عليَّ أُكلمك أنا أمك. .».

(٢) زاد البخاري في المظالم: «فأَبى أن يجيبها»، ومعنى قوله «أمي وصلاتي» أي اجتمع عليَّ إجابة أمي وإتمام صلاتي فوفقني لأفضلهما. وفي رواية أبي رافع «فصادفته يُصلي فوضعت يدها على حاجبها فقالت: يا جريج فقال: يا رب أمي وصلاتي، فاختار صلاته، فرجعت، ثم أَتَتْه فصادفته يُصلي فقالت: يا جريج أنا أمك، فَكلِمْني، فقال مثله، وفي حديث عمران بن حصين أنها جاءته ثلاث مرات فنادته في كل مرة ثلاث مرات، وفي رواية الأعرج عند الإسماعيلي فقال: أمي وصلاتي لربي أُوثر صلاتي على أمي ذكره ثلاثاً. وكل ذلك محمول على أنه قال في نفسه لا أنه نطق، ويحتمل أن يكون نطق به على ظاهره لأن الكلام كان مباحاً عندهم وكذلك كان في صدر الإسلام. وفي حديث يزيد عن حوشب عن أبيه رفعه «لو كان جريج عالماً لَعَلِمَ أن إجابةَ أُمِّه أَوْلى من صلاته».

(٣) جمع «مومسة» بضم الميم وسكون الواو وكسر الميم بعدها مهملة، وهي الزانية.

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/٣٧٢ ـ ٣٧٣.

وسخرت كل ما أُوتيت من دهاء ملون خفي، انطلقت بتصميم خسيس يدفعها للشر إبليس، انطلقت في إصرار عنيد، فأقدمت إقداماً جريئاً وَقِحاً قبيحاً لفتنة هذا الرجل العابد . .

استخدمت كل أساليب الغواية الدنية، وأمدها الشيطان بتجاربه وخبراته، ولكن جُريجاً لم يلتفت إليها، ولم تَلِنْ قناة إيمانه لريح الفتنة العاصفة، فما فتنة أضرّ على الرجال من النساء[1] . .

إنها محنة شديدة عميقة تعرض لها جريج حين راودته هذه البغي عن نفسها، لتفتنه عن دينه، فهي متهالكة لإيقاعه في كيدها ومكرها، وكان بإيمانه وخوفه من الله يتأبى على الحرام، ويستعيذ بالله، فأكرمه ربّه فَنجّاه من هذه الوقيعة الأثيمة، وصرف عنه هذا الكيد اللئيم العظيم.

وكانت من الغيظ واليأس من صلابة جريج وإيمانه، وعدم قدرتها على إغوائه وفتنته، أن عدلت البغي عن مواجهته بالفتنة، فاستعانت بالشيطان، فعدلت إلى طريق أخبث وإلى حبائل أمكر، مما أتاح لها إحكام الطوق على ثمرة من ثمرات الحق «فأمكنت نفسها من راع كان يُؤوي غنمه إلى أصل صومعة جُريج، فوقَع عليها، فحملت، فلما ولدت، قالت: هو من جُريج . .».

وبعد انقضاء أيام حَمْلها، وَلَدت غلاماً، فأتت به قوم بني إسرائيل تَحمِلُه، أَتَتْ قومها، والكيدُ والشر يغلي في عروقها، وأشرفت عليهم، تكاد تميز من الغيظ من جريج الذي لم «يلتفت إليها»، وَقَفَت البغي بين قومها وعيونهم

(١) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما تركتُ بعدي فِتْنَةً أَضَرَّ على الرجال من النساء» رواه البخاري (٩/١١٨)، ومسلم (٢٧٤٠).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الدنيا حُلْوةٌ خَضِرَةٌ، وإن الله مُستخلفكُم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» رواه مسلم (٢٧٤٢). والمعنى أن الله جاعلكم خلفاء من القرون الذين قبلكم، فينظر هل تعملون بشرعه وطاعته، أم بمعصيته وأهواءكم وشهواتكم. واحذروا الافتتان بالدنيا والنساء. . انظر فصل «مسخ وانتكاس» في كتاب «دستور الأسرة في ظلال القرآن».

تتلفت إلى خَبَر فِتْنَتها بهذا الرجل العابد.. وساد صمت هادىء وهم ينظرون إليها تحمل طفلها، وامتدت الآذان لسماع الخبر.. إنهم يطلبون من نفسها خبيئاً قد أَخْفَتْه، وَمَضَتْ لحظات تنتقل عيون القوم بين الغلام وبين أُمه التي تحمله، وقطع السكون صوت لَهوف «فَسُئِلَتْ مِمَّن هذا؟!».. «فقالت: من جُريج»، وفي رواية «فقيل لها مِمَّن هذا؟ فقالت: هو من صاحب الصومعة».. «نَزَل إليَّ من صومعته فأصابني»(١).

لقد حَدَّثت القوم عن فريتها في خَطَل وتَبَجُّح، زعمت أنها قد نجحت بعد أن بذلت كل فِتْنَتَها الحسَنة، وكيدها الفتّان حتى قامت بهذا الأمر، وقفت مزهوة بانتصار كيدها، وتعالت بمكرها الشيطاني، ولم تجد غضاضَةً في فِعلها، فأهدت إليهم خبراً يَنتظرون، وامتطَّت في كبرياء وَضِيعَة خسيسة، لقد أجهزت على جريج الذي يُمثل العبادة والطهر والعفاف، أجهزت على معاني الشرف والفضيلة، أجهزت على كل ثناء على العبادة والتمسك بأخلاق الدين، لقد كان القوم «يتذاكرون جريجاً وعبادته».. أما الآن فلم يبقَ لطالب في جُريج مطلب..

تصور القصة النبوية الإنسان بما فُطر عليه من طِباع، وتعكس جانب الشرّ حين يُسيطر عليه، فهي ترسم شخصيته في صورة نزوة شريرة استعرت في داخل البغي من بني إسرائيل، فدفعتها إلى ارتكاب أكثر من جريمة كما تصور ذلك القصة.

لقد أثار ثناء الناس على جريج في نفس هذه البغي شعوراً حاداً بالنقمة عليه، فهذا الرجل بصلاحه، ترى فيه هذه المرأة صورة معاكسة لما هي عليه من انحراف، إنه بصلاحه يُذكرها بالطريق القويم الذي لا تسير هي عليه، ومن هنا، من صلاحه وفسادها نشأت النقمة، وكم تود ـ شأن المنحرفين دائماً ـ لو ينحرف عن هذا الطريق، حتى لا يبقى شاهداً على فسادها، ومن هنا

---

(١) رواية أبي رافع والأعرج. (انظر فتح الباري ٦/٣٧٣).

al-maktabeh.com

انطلقت في تبجُّح في محاولة لإغوائه، وحين فشلت في هذا، أسعفها تفكيرها الشرير بطريقة أخرى تستطيع أن تلوث سمعته، فأمكنت الراعي منها، وحملت منه، ولما وَضَعَتْ، اتهمت بالوليد الرجل الصالح كما تقدم . .

إنها صورة لقلب قاسٍ مُتحجر، صورة لفساد الفطرة وسوء الطوية، إنه الاضطراب والتخبُّط الذي يُصابُ به المنحرفون حين يسمعون عن الخير وأهله، فهم يريدون، ويكافحون بتصميم أسود على إزهاق الحق في صُوَرِهْ . . صورة زرية تدعو إلى الاحتقار والسخرية، زرية بما فيها من ضعف والتواء.

إن أهل الباطل والشر والفساد لا يطيقون وجود الحق والخير والصلاح، إنهم يشعرون بالحرج والضيق، لذلك يُسفر أهل الباطل عن حقيقة وجدانهم تجاه الخير وأهله، وهذه حتمية لا بد منها، فإن أهل الباطل ينتفضون منذ البدء مذعورين لدعوة الصلاح والخير والرشاد، ومن هنا ندرك لماذا كانت مواجهة أهل الباطل لدعوة الرسل الكرام، ومواقفهم الملتوية الهابطة من أهل الفضيلة والأخلاق على مدار الزمان وفي كل مكان . .

وهكذا رسمت القصة هذه الصورة الكالحة، رسمت خطوط الوجدان الأسود المنحرف، في الإصرار على لَوْيِ الحق، وتلويثه بنتن وعفن الباطل . . ها هي ذي بغيٌ من بغايا بني إسرائيل حين سمعت قومها يتذاكرون جريجاً وعبادته تقول: «إن شئتم أن أفتنه فَتَنْتُه».

لقد أَحسَّت هذه المرأة البغي بهزيمتها أمام وجود العفة والطهارة، أمام الخير والصلاح متمثلاً في جريج، متمثلاً في وجود إنساني . .

إن الباطل لا يرضى أن يكون للحق وجود في شخصية إنسانية، فالتركيب الذي أقام عليه أهل الفساد حياتهم يجعلهم في حساسية شديدة تجاه وجود الخير، ولن يترك الباطل صورة الحق في واقع ما، فهو يخشى أن يظل الحق حَيًّا على الأرض، ومن ثم يعاديه بشتى الوسائل، ولا يدعه يسلم أو يستريح . .

إنها العقدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان وفي كل مكان . . «فأَتَتْه، فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأمكنتْ نفسها من راع . . .

فحملت، فولدت غلاماً، فقالوا: مِمَّن؟ قالت: من جُريـج . . »، وفي رواية «فذهبوا إلى الملك فأخبروه قال: أدركوه فأتوني به»[1] . . «فأتوه فاستنزلوه، فشتموه وضربوه، وهَدّموا صومعته . . ».

وترسم القصة صورة في حركة . . حركة حيّة تنبض بها الصورة في لون قاتم، صورة تنبض بالغضب الصارخ الجامح، ويتراءى في هذا المشهد الصاخب جريج، هذا الرجل العابد الصالح، تسود فكره وتُغطيه حيرة داكنة، حيرة تدفعه إلى قَلَق صامت ومفاجأة مدهشة . . فلماذا هذا الصخب الغليظ، والاعتداء المشين، والضجيج السميك، لقد شتموه، وضربوه، وهدّموا صومعته «فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زَنَيْتَ بهذه البغي، فولدت منك!!!».

وفي رواية أبي رافع «فأقبلوا بفؤوسهم ومساحيهم إلى الدير، فنادوه فلم يكلمهم، فأقبلوا يهدمون ديره»، وفي حديث عمران «فما شعر حتى سمع بالفؤوس في أصل صومعته، فجعل يسألهم: ويلكم ما لَكُم؟! فلم يجيبوه، فلما رأى ذلك أخذ الحبل فتدلى . . »، وفي رواية « . . فأخذوا في هدم صومعته، فلما رأى ذلك نزل فجعلوا في عُنقه وعنقها حبلاً، وجعلوا يطوفون بهما في الناس».

وفي رواية أبي سلمة «فقال له الملك: ويحك يا جريج، كنا نراك خير الناس، فَأَحْبَلْتَ هذه اذهبوا فاصلبوه»، وفي حديث عمران: «فجعلوا يضربونه، ويقولون: مُراء تخادع الناس بعملك»، وفي رواية الأعرج: «فلما مروا به نحو بيت الزواني خرجن ينظرن، فتبسّم، فقالوا: لِمَ يضحك حين مَرَّ بالزواني»[2] .

هنا تظهر منطقة الثقل في القصة حيث تبرز المشكلة المثيرة التي تواجه صاحب الموقف «التهمة بالزنا»، وما صاحب ذلك الاتهام من سبٍّ وضرب،

---

(١) من رواية أبي سلمة رضي الله عنه عند الإمام أحمد.

(٢) وقد ذَكَرَ دعاء أمه: «اللهم لا تُمِتْهُ حتى ينظر إلى وجوه المومسات».

http://al-maktabeh.com

وتوبيخ، وأذى أليم، وبلاء جسيم، مع أنه بريء من كل ما أُلصق به زوراً، وحتى جمهور المستمعين يشاركون (صاحب الموقف) في هذه الأزمة؛ لأنهم يعرفون أنه بريءُ، فقد كشفت لهم القصة عن الموقف الذي تمَّ بين البغي وبين الراعي؛ فالحقيقة ظاهرة لهم، ولكنها خافية عن جماهير القصة، هذه الجماهير المندفعة في غير روية، تصبّ جام غضبها على المتهم، الذي هو في حسبانهم في تلك اللحظات مُنافق مخادع، يَتَزيًّا بلباس العابدين الصالحين «زنيتَ بهذه البغي» وهذا هو الدليل: «فَولَدتْ منك»!

يا للمصيبة.. إنها طامة كبرى تقع على رأس (جريج)، مشكلة في أقصى درجات الحدة، أَنْسَتْهُ مأساته في ضربه وهدم صومعته!

إن القصة تثير فينا الانفعال إزاء ما يجري للعابد الصالح البريء، الشفقة والعطف أمام موقف الناس منه، وقد اتهمته تلك البغي بأنه زنى بها، وليس ذلك فقط، بل ولدت منه..

إنه مشهد شاخص في صُور مُتلاحقة، يتقاطر الحزن من متابعتها حين هجموا عليه من كل اتجاه، فأنزلوه من صومعته، وشتموه، وضربوه، ثم هَوَتْ الصومعة تحت ضربات الغوغاء، فأصبحت كومة من حجارة متصدعة.. ونحن نعلم براءته وعفته وصلاحه، فيثير هذا المشهد في نفوسنا مشاعر الإشفاق والأسى لما أصاب هذا العابد الطاهر.

إنها صور شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، تموج في أعماقنا، تدفع سمات الاندفاع، المنبعثة من الموقف، فتتلاقى مشاعرنا بحوادث القصة، وتتفاعل مع رهبة الموقف الذي يواجه العابد جريج..

وتدع القصة للخيال جناحه، فينطلق، بعد أن رسمت لوحة يائسة لموقف جريج، والناس تُواجهه بالجريمة الوقحة، والبَيِّنَة الواضحة، فهو في ضرب وشتم وتحقير وتأنيب مستمر، ونحسبه قد دُهش طويلاً، وبُهِتَ طويلاً، وهو في موقف المشدوه في هذا الهول المرعب المحيِّر..

ويدع المشهد للحسّ أن يتأثر عن طريق الخيال، ليستقر في النهاية معنى

الاستحالة في مواجهة الناس، بالكلمة والبرهان، فهم في غَضَب ثائر لا يُطفىء لهيبه، وقد وَاجهوه بجريمته وآثارها المخزية. .

والصورة التي مُلئت حزناً وأَسىً في هذا المشهد الكئيب هي التي رسمت الصراع الذاتي في أعماق النفس الإنسانية، أعماق جُريج، نجده يواجه صَلْد الجماهير، وقد طُمست أعينهم، فهم لا يُميزون بين الحق والباطل، بين البريء العفيف، والمجرم الحقير. .

إن الصورة تبرز الحيرة الحزينة التي تنتاب العابد وهو يُواجه هذا كله، يتوزَّع قلبه في خطوط المشكلة المتعددة المتباعدة، ويتفرق إحساسه هنا وهناك، إنها ترسم حالة نفسية معنوية هي ذروة الضيق والحرج والحزن العميق. .

إنها لحظة ثقيلة ترسمها القصة في أعماق الشعور الإِنساني، صورة شاخصة، فيها الحركة المتحيرة. . لا كلام يَنفع، ولا حُجة تَدفع، ولا حيلة تَنجح، فقد أُغلقت النوافذ، وأُوصدت الأبواب. .

وهكذا تعرض القصة النبوية مشكلة حيوية واقعية، حين يتعرض البريء الشريف العفيف، لتهمة تُدنِّس نصاعة حياته، وتُلوث طهارة سمعته. إن مثل هذا الموقف يثير في نفس صاحبه صراعاً يؤدي إلى توجُّه خاص، وتفكير معين. .

نجد «جريج» في مواجهة الخطر، وهو يواجه غضبة الجماهير المُضلَّلَة، المُتَدفِّقة عليه في صومعته، يضربونه ويشتمونه، وهم يتهمونه بالزنا، والقصة لا تُخفي ضعف موقف (جريج)، وقُصوره عن دفع الحجة التي صاغها بُهتان كبير، وكَيْد لَئيم.

إنه موقف صعب عسير، فهو يُواجه نهاية أَليمة حزينة لحياة طاهرة عفيفة، فقد أُحكمت قيود المحنة، وهو مستسلم لأمر الله، مُوقناً بعون ورحمته، ولكن كيف. . ؟!

وبعدُ، إن هذا الموقف الذي يضجّ ألماً، ويَطمُّ حُزناً وهَمًّا وغَمًّا، هذا

الموقف المفزع الذي تتسارع فيه اللحظات متتالية، يُثير عند (جريج) بلا شك شتى الانفعالات المتصارعة، والمترددة بين مُواجهة لفضيحة كبيرة، وبين شعوره الحقيقي بأنها تهمة أُلصقت به، وأنه بريءٌ منها تماماً، مما جعله بدافع الثقة بنفسه وبراءته يتصرف بشكل ما «فقال: أين الصبي؟ فجاءوا به..»، ثم طلب منهم أن يدعوه يُصلي قبل أن يرجموه «فقال: دعوني حتى أُصلِّي..».

وهكذا.. وفي وَمْضة، يقف الموج الطاغي في النفس.. وفي تلك اللحظات الباكية الحزينة طوى الرجل نفسه على عزيمة حذّاء ماضية أن يتوجه إلى الله وحده، فهو السميع العليم، فقام «فتوضأ وصَلّى»[1]، واتجه قلبه في رجاء ضارع طويل، فهو سبحانه يُجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء..

ها هو ذا (جريج) في مشهد صامت بين الحشود الكثيفة يُصلي، لقد فَزِعَ إلى الصلاة، فهي الصلة بينه وبين الله، فهو العابد الذي صَدَقَ ما عاهد الله عليه في حياته، يسأل الله المجيب الرحيم أن ينقذه مما هو فيه.. وفي روحانية وتكريم منه سبحانه غَمَر ذلك المشهد سكون مضيء، وانطلقت روح العابد تَتَحسَّس حَبْل الله المتين، وأخذت نفسه تَتَذوَّق ثمرات الأمل الودود الرحيم، واستقبل القلب المكسور الحزين لمسات السكينة والرضى، وامتزجت النفس بنور هادىء، فسكنت إلى كلمة الله، مطمئنة رخية..

لقد طوى الحزن رَحْلَهُ، وحَمَلَ معه الشدة والضيق والفزع التي دَسَّها في كيان (جريج)، وألقى الله في روع العابد أنه ناج بقدرته، وألهمهُ سبحانه ما يفعل[2]، فانشرحت أساريره، وانقلب الهمَّ الثقيل أملاً ضاحكاً، وإذا بجريج العابد يقوم من صلاته، قام، والرعاع تحيط به كالسيل الجارف، يَمُوجون حُقداً فائراً، قام جريج مُتكئاً على طمأنينة لَيِّنة، وعلى مرأى ومسمع

---

(١) رواية أبي هريرة رضي الله عنه عند الإمام البخاري.

(٢) في مرسل الحسن عند ابن المبارك في «البر والصلة»: «أنه سألهم أن يَنظروه فأنظروه، فرأى في المنام من أمره أن يطعن في بطن المرأة فيقول: أيتها السخلة من أبوك ففعل. فقال: راعي الغنم».

من الجماهير، وفي سكون مهيب اقترب من الغلام الذي اتُّهم بأنه أبوه من الفاحشة، اقترب منه، وطَعنَ هذا الرضيع بإصبعه وهو يقول: «بالله يا غلام، مَنْ أبوك؟ قال: أنا ابن الراعي. . ».

وفي رواية أبي سلمة «فأتى المرأة والصبي، وفمه في ثديها، فقال له جريج: يا غلام مَنْ أبوك؟ فنَزَع الغلام فاهه من الثدي، وقال: أبي راعي الضأن. . ».

لقد بُهتَ القومُ، وعَلَتْ قلوبهم سَحابة كثيفة ثَقُلَتْ دَهشةً، وملأت نفوسهم عجباً، فكلمات الرضيع هزّت المستمعين هَزاً عنيفاً، وانتزعت من قلوبهم بذور الحقد والشر التي ألقتها تلك البغي الفاجرة بكيدها المتين.

والحوار هنا كان له الروعة الفائقة في تجلية الحقيقة، فهو الحوار المعجز العجيب الذي ارتسم في الكلمات المحسوسة في المشهد المنظور بين العابد والغلام بعد الصلاة. قال العابد: «بالله يا غلام، مَنْ أبوك؟». . «قال: أنا ابن الراعي». .

إنها لوحة ناطقة! حوار مُصوَّر. . لوحة شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، وقد استوت لها كل عناصر التخييل، يَنسىٰ المتلقي أن هذا الكلام يُتلى، ويتخيل أنها صورة تُعرض، وحادث يقع، وتقع العين على هذا المشهد، فترى سمات الانفعال الملون بشتى الوجدانات، المنبعثة من هذا الحوار، فتنتفض قلوب الجماهير حُرَّة، خاشعة للّه في رَهبة وسكون، وخوف عميق، ثم تتحرك الكلمات في حياء وخجل، تتحرك في هدوء بهيج لتقدم الاعتذار الرقيق في تعبير رفيق «فأقبلوا على جُريج، يُقَبِّلونه، ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا». .

وتضع القصة المتلقي أمام صورة مُعبِّرة، تُلِحّ على الحسّ والوجدان، فلا يستطيع أن يتحوّل عنها إلا بجهد ومشقة، وهي من أعجب الصور التي ترسمها الكلمات. . إنه مشهد حيّ شاخص. . إنه يبرز حقيقة تهفو إليها

القلوب فهو سبحانه الذي ﴿**له دعوة الحق**﴾ وهو جَلّ وعلا يقول ﴿**أَمَّن يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء**﴾ . .

وفي القصة توكيد على وحدانية الله سبحانه التي تعني قيامه ـ سبحانه ـ على كل موجود، وهو صاحب الأمر كله. لقد سمع سبحانه قول البغي عن عبده الصالح «إن شئتم لأفتننّه لكم»، وقد عَلِمَ خبيئة الشرّ التي أضمرتها، فهو السميع العليم الذي ﴿**يعلم الجهر وما يخفى**﴾ . . ﴿**وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء**﴾ . .

كذلك لا يقع شيء في هذا الوجود إلا بإذن الله ﴿**وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله**﴾. فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها، وتنشىء آثارها وتحقق نتائجها. . وهذه قاعدة كلية في التصور الإسلامي توضحها القصة النبوية في ضمير المؤمن، وإن أمر الغيب كله للّه، وجلب نفع أو دفع ضر كله بيد الله، وله القدرة المطلقة في عالم الأسباب، وله القهر كذلك على العباد، وعنده الحكمة والخبرة في كل شيء. . وهو سبحانه وتعالى يُجري خوارق ومعجزات، تحدث بإرادته لنصرة عباده وأوليائه الصالحين، فقد أنطق الله الغلام الرضيع، حيث كشف بنطقه المعجز، الغمّة التي أحاطت بجريج، والناس من حوله يشتمونه ويتهمونه بالزنا مع البغي الفاجرة.

ما أحوج مَنْ يواجه الطُغيان وجبروته وهو يواجه الفساد بالتواء أهله وكيده وانحلاله. . ما أحوج مَن يواجه أهل الضلال بمكرهم اللئيم. . ما أحوج مَن يواجه هذا الشر كله، أن يستصحب في قلبه اليقين بأن الضار الناضح هو الله، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأن الله هو القاهر فوق عباده، فلا مُعَقِّب لحكمه، ولا رادّ لما قضاه، ولا دافع لإرادته. .

لقد رسمت القصة النموذج الإنساني، الذي حقَّق في واقعه الجانب الأخلاقي الفاضل. إنه موقف الخير والشرف والعفة، في شخصية (جريج)، الرجل العابد، الزاهد الصالح، الذي استعصى على إغراء البغي، ومحاولتها في إغرائه وإغوائه.

إن هذا الموقف العفيف هيأ المناسبة لتعميق الحقيقة الخالدة، وإبراز سنّة الله الثابتة في نصرة أوليائه، والدفاع عنهم.. رسمت القصة هذه الحقيقة الروحية في مشهد حاضر.. يُسمع ويُرى، لقد صُوّرت هذه المعجزة في لوحة ناطقة، انبسطت فيها ألوان من الرحمة الإلّهية، واستقبلها القلب في سكون وسكينة، وقد نسجتها خطوط القدرة الفاعلة، تُحركها لمسات من النور تماوجه العواطف، وتعانقه الأرواح، ويشهده الحسّ والخيال، وتفيض العيون بالدمع من التأثُّر، والفرح برحمة الله التي تدرك العبد الصالح، فقد تكشفت الحقيقة، وانجلت الأزمة على لسان هذا الطفل فقد أنطقه الله ليكشف سبحانه حقيقة المجرم، وغموض الجريمة!!! والموقف هنا حافل بالمفاجأة والحيوية، نظراً للحدث غير العادي الذي احتواه، مما أَدَّى أيضاً إلى بروز موقف جديد في المرحلة الأخيرة من القصة.. «فأقبلوا على جُريج، يُقَبِّلُونه، ويتمسَّحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا»..

قال الحافظ في (الفتح) عن قصة جريج: «في الحديث عِظَمُ بِرِّ الوالدين، وإجابة دعائهما ولو كانَ الولد معذوراً، لكن يختلف الحال في ذلك بحسب المقاصد، وفيه أن صاحب الصدق مع الله لا تضرّه الفتن، وفيه قوة يقين جريج المذكور وصحة رجائه، لأنه استنطق المولود مع كون العادة أنه لا يَنطق، ولولا صحة رجائه بنطقه ما استنطقه، وفيه أن الأمرين إذا تعارضا بُدىء بأهمِّهما، وأن الله يجعل لأوليائه عند ابتلائهم مخارج، وإنما يتأخر ذلك عن بعضهم في بعض الأوقات تهذيباً لهم، وزيادة لهم في الثواب، وفي إثبات كرامات الأولياء، ووقوع الكرامة لهم باختيارهم وطلبهم، وفيه أن المفزع في الأمور المهمة إلى الله يكون بالتوجه إليه في الصلاة».

صُوَر إنسانيّة:

وأخيراً لا بد من كلمة عن وظيفة الشخصية في تحقيق غايات القصة في نفوس مُتلقيها، فقد حملت الشخصيات المعاني والأفكار التي يُراد من المتلقي أن

يُدركها بصورة غير مباشرة عبر هذه الشخصيات التي تحركت أمامه في القصة. .

في هذه القصة خمس شخصيات، منها ثلاث شخصيات رئيسة، واثنتان ثانويتان هما (الراعي) و(الغلام)، فكل من (جريج) و(البغي) و(الناس) الذين هم بنو إسرائيل، أشخاص رئيسة، لهم أدوار أصيلة وثابتة في القصة.

أما جريج فهو الشخصية (الأصل) والأساس في القصة، وبسبب وجود هذه الشخصية تنشأ في القصة الشخصيات الأخرى بما فيها الشخصيات الرئيسة الأخرى.

والقصة تبدأ بالحديث عنه وعن عبادته وصلاحه، حتى أنه بنى صومعة يَتعبَّد فيها، وهو بهذا الصلاح، وبهذه العبادة الفريدة لَفَتَ الأنظار إليه، حتى صار حديثاً في مجالس بني إسرائيل، مما دفعهم إلى الائتمار به.

وحين تتعرض له (البغي) لا يلتفت إليها، فهو مَثَل للعفّة والتصون، وتُوَجَّه إليه تهمة الزنا، ويواجهه الناس بالغلام المنسوب إليه، بعد أن شتموه وضربوه، ومن هذا الموقف يتحرك في تصرف معين يمليه عليه الواقع الذي هو فيه، فيطلب منهم أن يدعوه يصلي، فهو واثق من نفسه ومن براءته، فيقوم ويُصلي ويتوسل إلى علاّم الغيوب، ويدعو الذي لا تخفى عليه خافية لينقذه مما هو فيه من ورطة، ويستغيث ربّه حتى أنطق اللّهُ الغلامَ بالحقيقة، فنلاحظ هنا استمرارية (جريج) على طول العرض القصصي بوصفه شخصية رئيسة في القصة.

وهكذا تحرص القصة النبوية على الاستفادة من الشخصية وتوظيفها، بحيث تدفعها إلى الحركة الدائمة بوضعها أمام مواقف جديدة، تصنعها المشكلة أساساً لهذا الغرض، مما يجعل الشخصية تتخذ سلوكاً معيناً، نجد (جريج) العابد يوضع في أصعب المواقف، وأكثرها حَرَجاً وحساسية، فما كان منه إلا أن يلجأ إلى الصلاة والدعاء، وهو تصرف نابع من إيمان نَديّ عميق، واطمئنانه إلى أن الله سيكون معه. .

تلك شخصية مُوحَّدة بارزة، ونمـوذج إنساني واضـح في كل مـراحل القصة، فهو نموذج الهدوء والحلم، والثقة بالله، واليقين بقدرته، ولم يُخرجه إحكام الفتنة، وإطباق المحنة عن تلك الثقة وذلك اليقين، بل اتَّجه إلى الرحمٰن الرحيم بأَمَلٍ مُضيء، فاستجاب له ربه السميع المجيب.

وبعد ظهور الحق وإزهاق الباطل، والتفاف الجماهير تُقَبِّله، وتَتَمَسَّـح ببركته، ثم عَزْمَهم على بناء صومعته من ذهب يغلبه الطبع الرضي، وتَغلبه التقوى، ويُدركه إيمانه فيقول: «لا، أعيدوها من طين كما كانت».

وكذلك البغي شخصية أساسية في كيان القصة، فهي تبرز منذ الفصل الأول للقصة، وهي تشارك القوم في حديثهم عن (جريج)، بل إنها تتقدم في تأكيد على قدرتها للقيام بغوايته، حيث عـرضت على القـوم الإيقاع بـه إن شاءوا، ووافقوا على ذلك، وانطلقت إلى جريج، تتعرض له، لتغويه وتفتنه، ولما لم تفلح معه، لجأت إلى كيد النساء العظيم حين أمكنت نفسها من راع، وَقَع عليها، فحملت، وولدت منه غلاماً، ثم نسبته إلى جريج، مما دفع الناس إلى ثورة عارمة على (جريج)، وهكذا نلاحظ وظيفتها في القيام بدور (الشر) بنجاح كبير.

وتبدو هذه المرأة منطوية على روح الإجـرام بشكل مؤكـد، إذ أنها لا تكتفي بجريمة الزنا، حتى تضيف لها اتهام (جريج) العـابد بـأنه هـو الذي زنا بها.

إن ريح الشرّ تتوثب داخل كيان هذه المرأة التي صاغ نَفْسَها الشيطان، فقد ارتكبت إثماً كبيراً بهذا الإفك والبهتان العـظيم للنيل من سمعـة وحياة العابد العفيف، فهذه المرأة تُمثل دور الإثم والخطيئة بصورة قوية، ومع أنها بغي، وهذا كاف في بيان إغراقها في الشر، فإنها تتوغَّل في هذا السبيل الهابط، وتنتدب نفسها للتمرغ في الوحل المقيت أمام القوم من بني إسرائيل الـذين أغاظهم صلاحُ العابد (جريج)، فقد نهضت بمهمة الشيطان لإغرائه، وإفساد دينه، وحين تفشل في ذلك معه، تتعرض للراعي فتحمل منه، ثم تتهم بهذا

الحمل الحرام ذلك العبد الصالح، ويشاركها في هذا الموقف الدنيء (الجماهير) التي شجعتها في بداية القصة على أن تُصبي وتفتن جريجاً، وتصرفه عن عبادته.

والعنصر الرئيس الثالث في شخصيات القصة هو (هذه الجماعة من بني إسرائيل) التي تذاكرت عبادة جريجٍ في مجالسها، وانطلقت في هذه المجالس تفكر في الإيقاع بهذا العابد حسداً من عند أنفسهم، وكان لهم دورهم في تشجيع وتأزيز الشر في البغي على محاولة إغواء (جريج)، وهم يبرزون مرة أخرى على مسرح الأحداث حين يحين الحين، وتلد هذه البغي، وتتهم به (جريجاً) فيندفع هؤلاء يحركون الناس ضد العابد، وينطلقون في غوغائية مجنونة محمومة على العابد وصومعته، وهو سلوك جماعي لا أخلاقي ترفضه القصة في مغزاها من خلال رفضها لفعلتهم حين اتفقوا مع البغي للإيقاع بجريج وإغوائه..

ولكنهم حين تتكشف لهم الحقيقة عندما نطق الغلام بقدرة الله تبارك وتعالى، يؤوبون إلى الحق، ويندمون على فعلهم الأثيم النكير، ويَثبون على جريج يُقَبِّلونه، ويتودَّدون إليه، ويعرضون عليه أن يبنوا صومعته من ذهب، ولكنه يفضل أن تُبنى من طين كما كانت، وذلك في مشهد ختامي رائع.

إن الحياة البشرية ما تني تطلع علينا بمثل هذه المحنة وإن تلونت بأصباغ أُخرى، الفتنة القاسية المُرّة في تلبيس الحق على الجماهير الإنسانية، والتشهير بأهل الحق في كل زمان ومكان..

إن الناس ـ لو خُلِّيَ بينهم وبين الحق والصلاح، والطهر والعفاف ـ لا يتبعون إلا هذا الخير الكريم، ولكنها أبواق الشر المُضَلِّلة في إلصاق التهم الخسيسة بهذا الخير البيِّن الواضح، فهذه البغي نموذج إنساني متكرر لكيد الباطل الكالح الأسود الحسود المنكود..

وحين نرجع إلى الشخصيتين الأخرتين: (الراعي) و (الغلام) نجد أنهما شخصيتان ثانويتان، كل منهما ذات دور محدد في القصة، بحيث ينتهي بانتهاء

هذا الدور، فـ (الراعي) يظهر حين دعت إليه الحاجة، وذلك حين فشلت (البغي) مع (جريج)، وكانت تطمع في إغوائه لتحمل منه، ولما أعرض عنها، كان لا بد أن تتجه بؤرة الشر في أعماقها إلى شخص آخر يؤدي معها هذا الدور، وكان هذا الشخص هو (الراعي) فواقَعَها، وبعد ذلك اختفى، وانتهى دوره.

والغلام من حيث هو شخصية ثانوية ينتهي بعد أن يؤدي دوره العجيب المزدوج، حقاً كان دور هذا الغلام من أعجب العجب.. فقد كان هو الدليل على اتهام جريج بالزنا من هذه (البغي) فقد قالوا: «إنك زنيتَ بهذه البغي فولدت غلاماً، قال: وأين هو؟ قالوا: هو هذا».

فقد كان هذا الغلام شاهد الإثبات في اعتبار هؤلاء الذين يتهمون جريجاً..

ومثار العجب أن هذا الغلام كان أيضاً شاهد النفي عن جريج، حين قام هذا العابد البريء، فصلّى ودعا، ثم أقبل على الغلام «وقال: بالله يا غلام مَن أبوك؟ قال: أنا ابن الراعي!».

واعجباً.. كان دوره أن يكون شاهد الإثبات.. وشاهد النفي في الوقت نفسه.

وهكذا تدور شخصيات القصة في وظيفتها الفنية، بين أدوار رئيسة، وأدوار ثانوية، وهي ذات وظيفة، إنها تبرز على ساحة القصة محققة هدفاً معيناً، فدور الشخصية دور مزدوج، ذلك أنها تحقق في وقت واحد وظيفة فنية، ووظيفة موضوعية، فكانت هذه الشخصيات تعبر عن قيم ومعان وأفكار تهدف القصة لترسيخها وتأكيدها، فشخصية جريج توظف بصورة إيجابية، فهي من الشخصيات التاريخية من بني إسرائيل التي تحمل المعاني والأفكار والقيم الإسلامية التي يدعو إليها الدين، وتعمقها القصة في النفوس، وتؤكد عليها في سلوك الناس، فقد وُصِفَ جريج بأنه «رجل عابد» مما حَدَّد له وضعاً اجتماعياً معيناً، وتذكر المرأة بأنها «بغي منهم»، ولم تقل القصة «امرأة منهم»،

وذلك لأن في وصفها بالبغاء ما يعطي شخصية هذه المرأة بُعْداً أخلاقياً في سلوكها في المجتمع الذي تعيش فيه، حتى يتسنى لنا من خلال معرفة وضعها الاجتماعي هذا، أن نضع تصرفها إزاء جريج، واستعدادها لإغوائه، أن نضعه في إطاره الصحيح، وليكون موقفها متطابقاً تماماً مع شخصيتها.

كما تختار القصة لفظة (الراعي)، لما فيها من إيحاء خاص له دلالته على شخصية الرجل الذي أمكنت البغي نفسها منه.

وكان للحوار الدور البارز في بناء القصة، فقد ساعد على رسم الشخصيات وجعلها أكثر حضوراً، كاملة الوضوح فيما تحمل من مشاعر الشخصية وعواطفها وأحاسيسها المختلفة، كما نجد أن هذا الحوار يطور الأحداث ويدفعها إلى الأمام، فقد كان انطلاق البغي إلى العابد.. ثم إلى الراعي، وما استتبع ذلك من أحداث، إنما كان الدافع إليه ذلك الحوار في مجلس القوم حين تذاكروا عبادة جريج وصلاحه..

لقد كانت القصة مسرحاً حافلاً بالنشاط في مشاهد حيوية، تعتمد على تتابع الأحداث تتابعاً سريعاً، فتوجد للقارىء أو السامع جواً مليئاً بالحركة، يتابعه بشوق وتلهف، بالحس والخيال، فهي تحرص على ترابط الحدث من الداخل، بحيث يؤدي هذا الترابط إلى وحدة في الأثر لدى المتلقي بصورة قوية ومركزة من خلال تطور الحدث، ويجعل ورودها إلى النفس أيسر، وَوَقْعها في الوجدان أعمق[1]..

إن البيان النبوي يصور الواقع الإنساني في شخصيات القصة، فهي نماذج تناثرت في ثنايا المجتمع البشري في كل زمان وفي كل مكان، وقد رُسِمَت شاخصة، لا تخطئها العين في المجتمعات الإنسانية على مر الأيام، ففي الإنسانية خيراً، فهي لم تعدم النماذج الطيبة، العفيفة، الصادقة، الصابرة..

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ١٠٠، ١٣٤، ١٩٤، ١٩٦، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٦٦، ٢٩٢، ٢٩٨، ٣٠٨، ٣١٠، ٣٢٠، ٣٩٧، ٣٩٩، ٤٠٤، ٤٦٩، ٤٧٣.

فهذه النماذج توقظ الإحساس، وتحرك الوجدان، لترتقي بالبشرية إلى أفق العقيدة العالي هناك، وتهتدي بهدي البصيرة، ويفتح الإنسان حسّه وقلبه لِتَلَقِّي الأصداء المضيئة، والأنوار العلوية . .

لقد انجلت الكربة، وانساحت الغمة عن جريج، وأعاد القوم بناء الصومعة التي أُتخذت رمزاً للشرف والفضيلة، ومنارة للصدق والإخلاص . . «فَرَدُّوها فرجع فِي صومعته، فقالوا له: بالله مِمَّ ضحكت؟ فقال: ما ضحكت إلا من دعوة دَعَتْها عليَّ أمي»(١) . .

وهكذا يتوافق المطلع والختام في القصة، وقد حققت الهدف الديني كاملاً . . فيها عبرة لِمَن يعقل، وذكرى لِمَن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

٣ ـ الرضيع والأم:

لقد سلك الرسول ـ ﷺ ـ نهج القرآن الكريم في نشر الوعي واليقظة في القلوب، وتعميق مبادىء الإسلام في النفوس، حيث نجده ـ ﷺ ـ يتخذ من القصة أسلوباً مهماً في التعريف بقيم الإسلام ومعانيه، ويُربي عليها الصحابة الكرام. يَتعهَّدهم ويَعظهم، ويُوجههم من خلالها إلى الإيمان بهذا الدين عقيدةً في الفكر، وتصوراً وطريقة في السلوك، ومنهجاً قويماً في واقع الحياة.

---

(١) من رواية أبي سلمة رضي الله عنه. قال ابن حَجر: «وفي الحديث إيثار إجابة الأم على صلاة التطوع، لأن الاستمرار فيها نافلة، وإجابة الأم وبرّها واجب . . وقد تقدم من حديث يزيد بن حوشب عن أبيه أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لو كان جريج فقيهاً لَعَلِمَ أَنَّ إجابة أُمِّه أَوْلَى من عبادة ربه».

والظاهر أن أُم جريج كانت تشتاق إليه فتزوره في صومعته، وتقنع برؤيته وتكليمه، وكأنه إنما لم يخفف صلاته ليجيبها لأنه خشي أن ينقطع خشوعه . .

وفيه الرفق بالتابع إذا جرى منه ما يقتضي التأديب لأن أم جريج مع غضبها منه لم تدع عليه إلا بما دعت به خاصة، ولولا طلبها الرفق به لدعت عليه بوقوع الفاحشة أو القتل. وفيه أن صاحب الصدق مع الله لا تضره الفتن . .».

وفي قصة (الرضيع والأم) يقول الرسول ـ ﷺ ـ: «. . . وكانت امرأة ترضع ابناً لها من بني إسرائيل فَمرَّ بها رجل راكب». . وفي رواية «. . وبينما امرأة في حجرها ابن لها ترضعه إذ مَرَّ بها راكب ذو شارة. . ».

التمهيد هنا يعطينا صورة عن حالة أهم شخصياتها (الأم ـ والطفل) أم فقيرة بائسة تقف على قارعة الطريق أمام الغادين والرائحين، تطعم وليدها من ثديها، وبينما هي على تلك الحال، إذ تجد نفسها أمام راكب ذي شارة، إنها أمام رجل غير عادي، عليه مظاهر العز والمنعة والغنى فهو ذو شارة يتميز بها عن غيره.

من هذا الموقف تبدأ أحداث القصة. .

«وبينما امرأة في حجرها ابن لها ترضعه، إذ مَرَّ بها راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثل هذا، قال: فترك ثديها، وأقبل على الراكب فقال: اللهم لا تجعلني مثله، قال: ثم عاد إلى ثديها يمصّه، [قال أبو هريرة: فكأني أنظر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يحكي على صنيع الصبي ووضعه أصبعه في فمه فجعل يمصّها] ثم مَرَّ بأَمَة تُضرب، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، قال: فَترك ثديها، وأقبل على أُمِّه فقال: اللهم اجعلني مثلها، قال: فذلك حين تراجعا الحديث، فقالتْ: حَلْقَى[1]!. . مَرَّ الراكب ذو الشارة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مثله، فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله، ومُرّ بهذه الأَمَة، فقلْتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلتَ، اللهم اجعلني مثلها[2]؟!»[3].

---

(١) أي مصيبة حالقة، وهي هنا على التعجب. انظر ابن الأثير «النهاية في غريب الحديث» ١/٢٥١، وانظر الزمخشري: «الفائق» ١/٣١٣، تحقيق: البجاوي وآخر، عيسى الحلبي، ط الثانية.

(٢) ومعنى قوله: «اللهم اجعلني مثلها» أي «اللهم اجعلني سالماً من المعاصي كما هي سالمة، وليس المراد مثلها في النسبة إلى باطل تكون منه بريئاً». النووي على شرح صحيح مسلم ١٦/١٠٧.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم، وأبو يعلى، وابن حبان في صحيحه، وأخرجه أحمد، انظر المسند (شاكر) ١٥/٢٠٩ وانظر تتمة تخريج الحديث في الإحسان (رقم ٦٤٨٨، ٦٤٨٩).

«فقال: يا أمتاه، إن الراكب ذو الشارة جَبَّار من الجبابرة، وإن هـذه الأَمَـة يقولـون: زَنَتْ، ولم تـزن، وسرقت، ولم تسرق، وهي تقـول: حسبي الله». .

إن الأم الحيرى من أمر ابنها تراجعه الحديث، وقد اطمأنت إلى نطقه غير المألوف، عَلَّها تجد عنده ما يريحها من هـذه الحيرة المستبدّة التي نشأت من التناقض بين دعائها له، ودعائه لنفسه.

وإذا به يتجه إليها، ويكشف لها ولنا معنى السرّ في تلك المفارقة، ويُفسّر ذلك الموقف الغامض العجيب ببيان حقيقة الراكب الذي يبدو في مظهر الخير، وتلك الجارية التي تبدو في مظهر الشرّ. .

والواقع أن كل منهما على نقيض ما يظهر للناس من أمره، وهو كشف غيبي يجريه الله القدير الفعّال لما يريد، على لسان هذا الرضيع. .

وهذه القصة مصدرها الوحي، وهي من قبيل الغيب الذي كشف الله عنه لنبيه - ﷺ - من أحداث الماضي البعيد لبني إسرائيل، فهي من أحداث التاريخ الإنساني، تخيَّرها الرسول - ﷺ -، فصلاً مهماً في التربية والتوجيه والتعليم.

وهي من النوع الذي يثير في المتلقي الانفعالات المتزاحمة، وتحرك المشاعر المتشوقة، فهي تستهوي السامع، وتشدّه في استرسال حتى تُبرز الحقيقة، وتطبعها حَيَّة في أعماقه، لتعيش في دائرة تفكيره ووجدانه.

إن عنصر التشويق ذو أهمية كبيرة في إضفاء الحيوية على القصة، وضمان استمرار المتلقي في متابعة الأحداث، وإثارة تَرقُّبه، فهو يطور الحدث، ويبدع مواقف جديدة. .

ونجد هنا المفارقات المتناقضة وذلك في المخالفة العجيبة بين دعاء الأم ودعاء طفلها الرضيع، حين كانت تدعو له بأن يكون مثل الرجل المهيب صاحب الشارة بما يدلّ على أنه عظيم من العظماء، فيدعو بأن لا يجعله الله

مثله، ويمرون بأَمة تُضرب فتقول الأم: «اللهم لا تجعل ابني مثلها، فيقول هو: اللهم اجعلني مثلها». .

فنحن هنا أمام حالة عجيبة بين دعاء الطرفين في القصة، مما يشوقنا إلى معرفة السبب الكامن وراء هذا الواقع الذي أثار الأم نفسها حيث راجعت الكلام مع ابنها تسأله عن مخالفتها، وبخاصة أنها تدعو له بالخير كما هو ظاهر الحال.

وكثير من الناس تخدعهم مظاهر الأمور، فَيُفْتَنون بها عن الحقيقة، تبهرهم الفتنة، فتكبر في خيالهم، وترتفع في ذهنهم إلى آفاق، فتتشهى هذه النفوس هذا المظهر الخادع اللامع. .

لقد عمدت القصة إلى إيقاظ الحس الإنساني أمام ظواهر الأمور، فهي ترسم صورة من صور الحقيقة في تقرير جوهر القيم، فترخص من قيمة الزينة الظاهرة وهي تعرض تعلق القلوب بأستار خادعة، مُطمسة للحقيقة. .

إن التأثر والغرور بالمظهر الخادع يُفسد الرؤية، ويَسدّ المنافذ، ويُعمي القلوب. وشخصية المرأة التي تعرضها القصة نموذج إنساني مكرر تستهويه زينة الدنيا، ومظهرها البرّاق، فتطير لها القلوب الخاوية، وتتهاوى لها النفوس الضعيفة، وتمتد لها العيون القاصرة. .

وترسم القصة أبعاد الشخصية بوضوح في مظهرها وشكلها الخارجي، نجد وصف الرجل الراكب بأنه «راكب ذو شارة» وفي رواية[1] «فارس متكبر ذو شارة حسنة».

والشارة هي جمال المظهر في الملبس والمركب، فالرجل صاحب هيئة ومنظر وملبس حسن يُتَعَجَّب منه ويُشار إليه، فهذا المظهر الحسن هو الذي دفع الأم إلى الإعجاب بهذا الراكب والدعاء لولدها بأن يكون مثله.

---

(١) في رواية خلاس عن أبي هريرة عند الإمام أحمد.

http://al-maktabeh.com

ومن أجل التأثير بالحادثة وهو ما صيغت القصة من أجله، فهي تعرض (الحَدَث) في صورة أكثر إثارة وأعمق تشويق. . نجد خارقة معجزة يجريها الله تبارك وتعالى في نطق الغلام الرضيع، مُبيناً مخالفته لدعاء أُمه، وكاشفاً الحقيقة التي حجبتها المظاهر الخادعة، حين أنطقه الله في بيان حقيقة الراكب صاحب الهيئة الحسنة، والشارة الحسنة: «إن الراكب ذو الشارة جَبَّار من الجبابرة» وفي رواية «أما الراكب فإنه كافر»(١). . وكذلك بيان حقيقة الأَمَة الضعيفة التي تُضرب وتُهان بغير حق وعدوان، في ظلم وجور وبهتان، فقد مُرَّ بها وهي «تُلعن»(٢)، وفي رواية وهي «تُرجم»(٣)، وقد أنطق الله الغلام الرضيع قائلاً: «وإن هذه الأَمَة يقولون: سرقتْ، ولم تسرق، ويقولون: زَنَتْ، ولم تَزْنِ، وهي تقول حسبي الله»(٤). .

وهكذا نجد أن القصة تضع أمامنا معالم الشخصية التي تتحرك فيها، أو تشارك في صنع أحداثها، فترسم لنا نوعية الشخصية من خلال العرض، كما أنها تضع الشخصية في موقف جديد، بحيث تدفعه إلى اتجاه سلوك آخر، يكون نابعاً من ذاتيتها هي.

وتبدو (المشكلة) التي تعالجها القصة في تعقيد الأحداث، بحيث نحسّ أن عنصر المشكلة موجود، وبشكل واضح، له آثاره البعيدة في كيان القصة، وتصبح المشكلة محوراً يُوجِّه حركتها، ويدفع بها إلى التطور في إبراز مواقف جديدة.

وتبرز المشكلة على ساحة القصة بعد دعاء المرأة أن يكون ابنها مثل الراكب ذي الشارة، نجد الغلام الرضيع وقد ترك ثدي أُمه، وأقبل على الراكب، «فقال: اللهم لا تجعلني مثله».

---

(١) في رواية الأعرج عن أبي هريرة في صحيح البخاري «أخبار بني إسرائيل»، وهو كذلك في صحيح ابن حبان (الإحسان ٦٤٨٨).

(٢) ابن حبان (الإحسان رقم ٦٤٨٨).

(٣) ابن حبان (الإحسان رقم ٦٤٨٩).

(٤) انظر القصص في الحديث النبوي ٢٩٩.

http://al-maktabeh.com

فالمشكلة تنهض في تصعيد مُشوّق بمفاجأة خارقة، بظهور الغلام الرضيع يردّ على أُمه، وهذه المفاجأة الخارقة تثير المتلقي لمتابعة القصة بشوق واهتمام كبير، بحيث يتفاعل مع تطورها ونموها حتى النهاية، وذلك في التفسير للأحداث الغامضة على لسان الغلام، وهذا التفسير يعطي للقصة روعتها، ويدعم مضمونها، ويجعله أكثر حيوية.

ويأخذ الحوار دوره الهام في بناء القصة، في كشف مغزاها، والإبانة عن غرضها الذي ترمي إليه، بحيث يكون ثمرة مفيدة عالقة بقوة وحيوية في النفس الإنسانية..

«فقالت: حَلْقَى! مَرَّ الراكب ذو الشارة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مثله، فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله، ومُرَّ بهذه الأَمَة، فقلتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلتَ: اللهم اجعلني مثلها!!».

فقال: «يا أمتاه، إن الراكب ذو الشارة جبَّار من الجبابرة، وإن هذه الأَمَـة، يقولـون: زَنَتْ، ولم تـزن، وسرقت، ولم تسرق، وهي تقـول: حسبي الله».

إن هذه القصة لمسة موحية للقلب البشري، فهي تفتح أمام الإنسان عَالَماً آخر غير العالم المشهود الذي تبصره العيون، وهي تبرز جوهر الحقيقة التي غَشَّاها المظهر الخادع، كما أنها تُلقي بظلال الغيب على أحداث الحياة.. إنه مَن يَدري فلعل وراء هذا الأمر المُحَبَّب ضَلالاً وشراً وفساداً، ووراء الأمر الظاهر سوءه خيراً وطُهراً وصدقاً.

إن العليم بالحقيقة هو علَّام الغيوب، المطلع على خفايا الأمور المستورة.. وقد أنطق الله هذا الغلام الرضيع ليقول الحقيقة الخفية..

والقصة من العمق والغنى في تبصيرنا ببعض الحقائق المستترة، في تلك المنحنيات الخافية في باطن حياتنا، فهي تكشف الحقيقة التي تكمن وراء المظهر الخارجي للإنسان، حيث تحاول أن تصور لنا الوجه الآخر لكل من الراكب ذي الشارة، والأَمة المسكينة، وما ينطوي وراء الأول من حقيقة خافية هي

الشر والكفر والجبروت، وما وراء هذه الجارية المظلومة من خير وصلاح، كما تعكس ما ينخدع به الإنسان من مظاهر برّاقة، تحول بينه وبين أن يرى الحقيقة الناصعة.

كما أن القصة تنظر للإنسان نظرة واقعية، وتعرضه على حقيقته من غيرما تزييف أو تشويه، فهي تعرضه في صورته السوية بما تنطوي عليه من خير ومن شر، وضعف وقوة. وهي ترسم مشهداً واقعياً للضعف الإنساني يُلقي بظلاله القاتمة على العيون والقلوب، فالإنسان يغتر بالمظاهر، وينخدع ببريقها دون أن يفطن إلى ما تخفيه في طياتها من شر كما تصور القصة إعجاب الأم بالرجل الراكب ذي الشارة، فصارت تدعو لوليدها بأن يكون مثله، مع أنه طاغية كافر جبار كما كشف عن ذلك الصبي فيما بعد.. وحين أخذت تدعو لوليدها مرة أخرى بأن لا يكون مثل تلك الجارية التي تُضرب، مع أنها جارية صالحة عفيفة، تُضرب ظلماً، وتُتّهم زوراً، وهي تقول: حسبي الله!

وترسم القصة صورة للمرأة وتأثرها بالمظاهر، فمن طبيعة المرأة الملحوظة فيها في الواقع، تأثرها السريع بالمظهر، مهما كان هذا المظهر كاذباً خدّاعاً، طالما أنها تراه برّاقاً يُغري بلمعانه الزاهي، وهي لا تكلف نفسها عناء البحث في ما وراء هذا المظهر أو ذاك، وما ينطوي عليه من زيف وفساد، وهي لا تكاد تجد نفسها أمام مثل هذا المظهر حتى تنساق بسهولة عجيبة وراءه.

وفي مقابل ذلك تتخذ المرأة موقف الرفض السريع لكل شيء يفقد المظهرية الزاهية، مهما كان منطوياً على الخير والصلاح.

وهكذا رسمت القصة صورة عميقة الدلالة في نفسية المرأة، صورة في مشهد تتماوج فيه ألوان العاطفة بسرعة وفي غير انتظام.. فهذه الأم يعجبها مظهر الفارس ذو شارة. ففي رواية مسلم «فمرّ رجل راكب على دابّة فارهة وشارة حسنة».. وعلى موجة ما ترى ينبعث خيالها طولاً وعرضاً بلا عمق ولا بيان، فيسري على قلبها أمنية طائرة في ما ترى في دعاء عريض «فقالت: اللهم اجعل ابني مثل هذا»..

وفي هذا المقطع من القصة يظهر في المشهد المعروض، ألوانية الحركة تموج داخل أعماق المرأة، وهو واضح لا يخفى، ينطلق من مظهر آخر قد سرى، وانتقل بلمساته إلى الأعماق، فهي تقول في دعاء رضي متموج حين «مُرَّ بأَمَة تُضرب»: «اللهم لا تجعل ابني مثلها»..

فهذه الأم يُعجبها مظهر الفارس في هيئته الحسنة، ولباسه الجميل، ومركبه الفاره، فتبادر بالدعوة لولدها أن يكون مثله دون أن تتأمل حقيقته وأن تعرفها..

وحين مرت بالأَمَة، وهي تُضرب، تقف ضدها، وتدعو لولدها أن لا يكون مثلها دون تعرُّف لحقيقة الموقف، ولا حقيقة هذه الجارية ذات المظهر الباهت البسيط، غير المغري.

إنها غريزة حب المظهر في المرأة، وهي التي تدفعها إلى الانجراف وراء المظهر الغرور، وقد كان الطفل الرضيع، بقدرة الله المتصرف في كونه، ينطق بعد دعاء أمه له بما يخالف ذلك الدعاء، مما جعلها تراجعه وتسأله حيث قالت: «حلقى؟! مَرَّ الراكب ذو الشارة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مثله، فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله، ومَرَّ بهذه الأَمَة، فقلتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها...».

ونلاحظ هنا في مراجعتها، أنها حين تذكر (الراكب) لا تذكره بلفظ (الراكب) فقط، ولكنها تنص على صفته «الراكب ذو الشارة»، وحين تذكر الأَمَة تقول: «هذه الأَمَة» تستعمل اسم الإشارة القريب، الموحي بأنها دانية وضيعة[1]، مما يؤكد تركيز المرأة على الناحية المظهرية في الحالتين، ولذلك فقد جاء ردّ (الرضيع) كاشفاً للحقيقة، مُبيناً للأسباب التي من أجلها خالفَ دعاء أمه، وكأنه الخضر ـ عليه السلام[2] ـ صاحب موسى ـ ﷺ ـ..

---

(١) وقع في رواية خلاس عن أبي هريرة عند أحمد أنها كانت حبشية أو زنجية وأنها ماتت فَجرُّوها حتى ألقوها، وهذا معنى قوله في رواية الأعرج تجرر.

(٢) انظر الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ص ٤٥٢.

«يا أمتاه؟ إن الراكب ذو الشارة جَبَّار من الجبابـرة، وإن هذه الأَمَـة يقولون: زنت، ولم تزن، وسرقت، ولم تسرق، وهي تقول: حسبي الله!»..

يُعد الغموض العنصر الحيوي الهام في بناء القصة، الذي يثير التطلعات لمعرفة السر وإزالة الغموض.. فالجو كله غامض مجهول، ثم يأخذ السرّ في التجلي[1].

وهذا له دلالته، فالمظهر الإنساني، والصورة الخـارجية لـه، هي هذا الغطاء السميك، المتلون في أبعاده، هو غامض مجهول، فإذا كشف الغطاء أخذت الحقيقة تبرز بوضوح.

يقول الإمام ابن حجر[2]: «وفي الحديث أن نفوس أهل الدنيا تقف مع الخيال الظاهر فتخاف سوء الحال بخلاف أهل التحقيق فوقوفهم مع الحقيقة الباطنة فلا يبالون بذلك مع حسن السريرة كما قال تعالى حكاية عن أصحاب قارون حيث خرج عليهم **﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾**.. **﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير﴾**، وفيه أن البشر طُبعوا على إيثار الأولاد على الأنفس بالخير لطلب المرأة الخير لابنها، ودفع الشر عنه، ولم تذكر نفسها»..

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي ص: ١٠٧، ١٤٢، ١٩٧، ٢١١، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٩٦، ٣٥٤، ٤٠٣.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/ ٣٧٥.

http://al-maktabeh.com

القسم الرابع

صفحات من السجل الأسود لبني إسرائيل

المحتوى

ـ مَواقف بني إسرائيل من النُبوّة والأنبياء	٤٦٣
ـ دَعْوىٰ وكَذِب وافتراء	٤٨٤
ـ ظُلم مبين، وكَيد مَتين في مواجهة الرسول الأمين	٤٩٦
ـ الهِتاف الأخير	٥٠٨
ـ كَشف العداء وتحديد الخطوط	٥٢١
ـ تاريخ عريق في الكُفر والمعصية	٥٣٠
ـ فَساد في الخُلق والسُّلوك والعَقيدة	٥٣٧
ـ التصور الفاسد، وسوء الأدب البذيء	٥٥٠
ـ تحريف وتزوير	٥٦٠
ـ قاعدة واحدة	٥٧٢
ـ تَحذير وتَنوير	٥٧٨
ـ اعتراضات زائفة	٥٨٨
ـ قصة واهية وحجّة فارغة	٥٩٢
ـ بين السحر والكفر	٥٩٧
ـ الدسائس اليهودية	٦٠٣
آ ـ حملة التشكيك والتضليل الماكرة	٦٠٣
ب ـ ملابسات تحويل القِبلة والكيد الشرير	٦١٣

http://al-maktabeh.com

- كلمة الحقّ والقَول الفصل ٦٢٥
- لوثة يهودية ٦٣٥

http://al-maktabeh.com

صفحات من السجل الأسود لبني إسرائيل

مواقف بني إسرائيل من النبوة والأنبياء:

يأخذ القرآن في استعراض بعض مواقف اليهود، مُندِّداً بموقفهم من النبي ﷺ ورسالته، وتعنتهم في طلب الآيات والأمارات منه، ويقرن بين موقفهم هذا وما كان لهم من مواقف مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ ثم مع رسول الله من بعده عيسى ـ عليه السلام ـ وأمه مريم، فإذا هم جبلّة واحدة في أجيالهم المتتابعة..

والقرآن يُوَحِّد بين الجيل الذي يواجه الرسول ـ ﷺ ـ والجيل الذي واجه عيسى ـ عليه السلام ـ.. والجيل الذي واجه موسى كذلك من قبل، ليؤكد هذا المعنى، ويكشف عن هذه الجِبلّة:

﴿يسألك أهل الكتاب أن تُنزل عليهم كتاباً من السماء.. فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا: أرنا الله جهرة! فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات؛ فعفونا عن ذلك..﴾ [النساء: ١٥٣]..

لقد وقف اليهود في الجزيرة من الإسلام ونبي الإسلام ذلك الموقف العدائي المتعنت المكشوف، وكادوا له ذلك الكيد المُبَيَّت المستمر العنيد، الذي وصفه القرآن تفصيلاً، واستعرضه ألواناً.

http://al-maktabeh.com

إنهم يتعنتون فيطلبون إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أن يأتيهم بكتاب من السماء.. كتاب مخطوط يُنَزِّله عليهم من السماء مُجَسَّماً يلمسونه بأيديهم..

ويتولى الله ـ سبحانه ـ الإجابة عن نبيه. ويقص عليه وعلى الجماعة المسلمة ـ في مواجهة اليهود ـ صفحة من تاريخهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم موسى ـ عليه السلام ـ الذين يزعمون أنهم يؤمنون به؛ ويرفضون التصديق بعيسى ـ عليه السلام من بعده وبمحمد ﷺ!.

إن هذه الجِبلَّة ليست جديدة عليهم؛ وليست طابع هذا الجيل وحده منهم، إنما هي جِبِلَّتهم من قديم.

إنهم هم هم من عهد موسى ـ نبيهم وقائدهم ومنقذهم ـ إنهم هم هم غلظ حسّ فلا يدركون إلا المحسوسات.. وهم هم تعنتاً وإعناتاً فلا يُسلمون إلا تحت القهر والضغط.. وهم هم كفراً وغدراً فسرعان ما ينقلبون فينقضون عهداً ـ لا مع الناس وحدهم ولكن مع ربهم كذلك ـ وهم هم قِحّة وافتراء؛ فلا يعنيهم أن يثبتوا من قول؛ ولا يتورعون كذلك عن الجهر بالنكر.. وهم هم طمعاً في عرض الدنيا؛ وأكلاً لأموال الناس بالباطل؛ وإعراضاً عن أمر الله وعما عنده من ثواب..

إنها حملة تفضحهم وتكشفهم؛ وتدل قوتها وتنوع اتجاهاتها، على ما كان يقتضيه الموقف لمواجهة خبث الكيد اليهودي للإسلام ونبي الإسلام في ذلك الأوان.. وهو هو خبث الكيد الذي ما يزالون يزاولونه ضد هذا الدين وأهله حتى الآن.

﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾..

فلا عليك من هذا التَعَنُّت، ولا غرابة فيه ولا عجب منه: ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا: أرنا الله جَهرة﴾.

ولم تبلغ الآيات البينات التي أظهرها الله لهم على يد موسى نبيهم أن

تلمس حسهم؛ وتوقظ وجدانهم وتقود قلوبهم إلى الطمأنينة والاستسلام؛ فإذا هم يطلبون رؤية الله ـ سبحانه ـ عياناً! وهو مطلب طابَعه التَبَجُّح الذي لا يصدر عن طبع خالطته بشاشة الإيمان؛ أو فيه استعداد للإيمان.

﴿فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾..

ولكن الله ـ سبحانه ـ عفا عنهم؛ وتقبل فيهم دعاء موسى ـ عليه السلام ـ وضراعته إلى ربه؛ كما تقدم بيانه: **﴿فلما أخذتهم الرجفة، قال: ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي. أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء. أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين..﴾** [الأعراف: ١٥٥]..

﴿ثم اتخذوا العجل ـ من بعد ما جاءتهم البينات ـ﴾ [النساء: ١٥٣]..

عجل الذهب، الذي صاغه لهم السامري، مما كانوا قد أخذوه ـ حيلة ـ من نساء المصريين وهم خارجون من مصر ـ فإذا هم يعكفون عليه؛ ويتخذونه إلهاً في غيبة موسى عنهم في مناجاة ربه، في الموعد الذي حدده له، لينزل عليه الألواح فيها هدى ونور.

ويواجه القرآن الكريم بني إسرائيل بهذا الكفر الهابط الوضيع **﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾** [البقرة: ٩٢]..

فهل اتخاذكم العجل من بعد ما جاءكم موسى بالبينات، وفي حياة موسى نفسه، كان من وحي الإيمان؟ وهل يتفق هذا مع دعواكم أنكم تؤمنون بما أُنزل إليكم؟.

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة. بل كان هناك الميثاق تحت الصخرة، وكان هناك التمرد والمعصية:

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور. خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا. قالوا: سمعنا وعصينا، وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾ [البقرة: ٩٣]. .

والسياق هنا يلتفت من الخطاب إلى الحكاية. . يخاطب بني إسرائيل بما كان منهم، ويلتفت إلى المؤمنين ـ وإلى الناس جميعاً ـ فيطلعهم على ما كان منهم. . ثم يُلقن الرسول ـ ﷺ ـ أن يجبههم بالترذيل والتبشيع لهذا اللون من الإيمان العجيب الذي يَدّعونه إنما كان يأمرهم بكل هذا الكفر الصريح: ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين!﴾ [البقرة: ٩٣]. .

ونقف هنا لحظة أمام التعبيرين المُصَوِّرَين العجيبين: ﴿قالوا: سمعنا وعصينا﴾. . ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾. .

إنهم قالوا: سمعنا. ولم يقولوا عصينا. ففيم إذن حكاية هذا القول عنهم هنا؟.

إنه التصوير الحي للواقع الصامت كأنه واقع ناطق. لقد قالوا بأفواههم: سمعنا. وقالوا بأعمالهم: عصينا. والواقع العملي هو الذي يمنح القول الشفوي دلالته. وهذه الدلالة أقوى من القول المنطوق. .

وهذا التصوير الحي للواقع يومىء إلى مبدأ كلي من مبادىء الإسلام: إنه لا قيمة لقول بلا عمل. إن العمل هو المعتبر. أو هي الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة الواقعة، وهي مناط الحكم والتقدير.

فأما الصورة الغليظة التي ترسمها: ﴿وأُشربوا في قلوبهم العجل﴾ فهي صورة فريدة. لقد أُشربوا. أُشربوا بفعل فاعل سواهم. أُشربوا ماذا؟ أُشربوا العجل! وأين أُشربوه؟ أُشربوه في قلوبهم!.

ويظل الخيال يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة، وتلك الصورة

الساخرة الهازئة: صورة العجل يُدخل في القلوب إدخالاً، ويُحشر فيها حشراً، حتى ليكاد ينسى المعنى الذهني الذي جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤديه، وهو حُبّهم الشديد لعبادة العجل، حتى لكأنهم أُشربوه إشراباً في القلوب! هنا تبدو قيمة التعبير القرآني المصور بالقياس إلى التعبير الذهني المفسر. . إنه التصوير. . السمة البارزة في التعبير القرآني الجميل.

ويواجه القرآن بني إسرائيل بهذه الحوادث في تاريخهم في عهد موسى ـ عليه السلام ـ ذلك أنه يعتبر تاريخهم كله وُحدة، قَديمهُ كحديثه، وَوَسَطه كطرفيه. . كله مُخالفة وتمرد وعصيان وانحراف!.

ثم تداركهم الله بالعفو: ﴿ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك﴾ [النساء: ١٥٣]. . فلم يرعووا وأدركتهم جِبلّتهم الغليظة المنتكسة في مواجهة الحق والخَلْق. . واليهود هم اليهود في ظلمة أرواحهم وقسوة قلوبهم على تطاول العصور وكرّ الدهور. لقد واجهوا موكب الإيمان الكريم الذي يقود خطاه ذلك الرهط العظيم من رسل الله. . واجهوه بالضلال والعَمَىٰ والطغيان والهوى، والاضطهاد والبغي، والتهديد والتقتيل والتنكيل. . موقف واحد وجبّلة واحدة. .

ثم يمضي القرآن يواجه بني إسرائيل بمواقفهم تجاه النبوات وتجاه الأنبياء. . أنبيائهم هم، وما كان من سوء صنيعهم معهم كلما جاءهم بالحق، الذي لا يخضع للأهواء. .

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب، وقفينا من بعده بالرسل؛ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القُدس. أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذبتم، وفريقاً تقتلون؟﴾ [البقرة: ٨٧]. .

ولقد كانت حجة بني إسرائيل في إعراضهم عن الإسلام، وإبائهم الدخول فيه، أن عندهم الكفاية من تعاليم أنبيائهم، وأنهم ماضون على

شريعتهم ووصاياهم.. فهنا يفضحهم القرآن ويكشف عن حقيقة موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ووصاياهم. ويُثْبِت أنهم هم كلما واجهوا الحق، الذي لا يخضع لأهوائهم.

وفيما تقدم واجههم بالكثير من مواقفهم مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ وقد آتاه الله الكتاب. ويزيد هنا أن رُسلهم توالت تَتْرى، يقفو بعضهم بعضاً؛ وكان آخرهم عيسى بن مريم. وقد آتاه الله المعجزات البينات، وأيده بروح القدس جبريل ـ عليه السلام ـ فكيف كان استقبالهم لذلك الحشد من الرسل ولآخرهم عيسى ـ عليه السلام ـ؟.

كان هذا الذي يستنكره عليهم؛ والذي لا يملكون هم إنكاره، وكتبهم ذاته تقرره وتشهد به:

﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم: ففريقاً كذَّبتم وفريقاً تقتلون!﴾!.

ومحاولة إخضاع الهُداة والشرائع للهوى الطارىء والنزوة المتَقلبة. ظاهرة تبدو كلما فَسدت الفطرة، وانطمست فيها عدالة المنطق الإنساني ذاته. المنطق الذي يقتضي أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت ـ غير المصدر الإنساني المُتَقلّب ـ مصدر لا يميل مع الهوى، ولا تغلبه النزوة. وأن يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الرضى والغضب، والصحة والمرض، والنزوة والهوى، لا أن يخضعوا الميزان ذاته للنزوة والهوى!.

وهكذا يَعرض القرآن طَرَف من تاريخ بني إسرائيل ـ اليهود ـ يتجلّى فيه كيف أنهم ليسوا على شيء؛ ويتبين معه ضرورة تبليغهم الدعوة، ومخاطبتهم بالإسلام، ليأووا منه إلى دين الله. ثم لتتبين حقيقتهم التي لم تتغير؛ وتنكشف للمسلمين هذه الحقيقة، فتسقط في أعينهم قيمة يهود،

وتنفر قلوبهم من الولاء لهم والتناصر معهم، وهم على مثل هذه الحال في أمر الحق والدين:

﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل، وأرسلنا إليهم رسلاً. كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم: فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون..﴾ [المائدة: ٧٠]..

إنه تاريخ قديم! فليس موقفهم من رسول الإسلام - ﷺ - بالأول ولا بالأخير! إنهم مَرَدُوا على العصيان والإعراض؛ ومردوا على النكول عن ميثاق الله، ومردوا على اتخاذ هواهم إلههم لا دين الله، ولا هدى الرسل، ومردوا على الإثم والعدوان على دعاة الحق وحملة دعوة الله..

﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، فبشرهم بعذاب أليم. أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة. وما لهم من ناصرين﴾ [آل عمران: ٢١، ٢٢].

فهذا هو المصير المحتوم: عذاب أليم. لا يُحدّده بالدنيا أو بالآخرة. فهو متوقع هنا وهناك. وبطلان لأعمالهم في الدنيا والآخرة في تعبير مُصوّر. فالحبوط هو انتفاخ الدابة التي ترعى نبتاً مسموماً، توطئة لهلاكها.. وهكذا أعمال هؤلاء قد تنتفخ وتتضخم في الأعين. ولكنه الانتفاخ المؤدي إلى البطلان والهلاك! حيث لا ينصرهم ناصر ولا يدفع عنهم حام!.

وذكر الكفر بآيات الله مصحوباً بِقَتْل النبيين بغير حق - وما يمكن أن يُقتل نبي ثم يكون هناك حق - وقَتْل الذين يأمرون بالقسط من الناس - أي الذين يأمرون باتباع منهج الله القائم بالقسط المُحقِّق وَحْده للقسط..

ذكر هذه الصفات يوحي بأن التهديد كان موجهاً لليهود، فهذه سمتهم في تاريخهم يُعْرَفون بها متى ذُكرت!.

ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجهاً للنصارى كذلك. فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرومانية المسيحية ـ بما فيهم من جاهَروا بتوحيد الله تعالى وبشرية المسيح ـ عليه السلام ـ وهؤلاء ممن يأمرون بالقسط.. كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع.. وكثير ما هم في كل زمان..

ولم يشهد تاريخ أمة ما شهده تاريخ إسرائيل من قسوة وجحود واعتداء وتنكر للهداة. فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم ـ وهي أشنع فعلة تصدر من أمة مع دعاة الحق المخلصين ـ وقد كفروا أشنع الكفر، واعتدوا أشنع الاعتداء، وعصوا أبشع المعصية. وكان لهم في كل ميدان من هذه الميادين أفاعيل ليست مثلها أفاعيل!.

وقد حقَّ عليهم وَعْد الله ووعيده ﴿**وضُربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾ [البقرة: ٦١]..

لقد كفروا بآيات الله، ونقضوا ميثاقه، وقتلوا أنبياءه بغير حق. وتَبَجَّحوا فقالوا: إن قلوبنا لا تقبل موعظة، ولا يصل إليها قول، لأنها مُغَلَّفة دون كل قول!.

وفعلوا كل الأفاعيل الأخرى التي يقصها الله ـ سبحانه ـ على رسوله وعلى المسلمين ـ في مواجهة اليهود ـ في سياق القصص القرآني..

﴿**فبما نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم قلوبنا غلف**﴾ [المائدة: ١٥٥]..

وعند قولهم: ﴿**قلوبنا غلف**﴾.. وهي القولة التي كانوا يجيبون بها على دعوة الرسول ـ ﷺ ـ إما تيئيساً له من إيمانهم واستجابتهم، وإما استهزاءً بتوجيه الدعوة إليهم، وتبجحاً بالتكذيب وعدم الإصغاء، وإما هذا

وذلك معاً. . عند قولهم هذا ينقطع السياق للرد عليهم: ﴿بل طبع الله عليها ـ بكفرهم ـ فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ [النساء: ١٥٥]. .

فهي ليست مُغَلّفة بطبعها. إنما هم كفرهم جرَّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته، فلا يقع منهم الإيمان، إلا قليلاً، ممن لم يستحق بفعله، أن يطبع الله على قلبه. أي أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق واستشرفوه، فهداهم الله إليه ورزقهم إياه. وهم قلة قليلة من اليهود[1]. كعبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسد بن سعية، وأسد بن عبيد الله.

لقد طبع الله على قلوبهم بكفرهم، وأبعدهم عن الهدى. . لقد كفروا كفراً قبيحاً، فخسروا أنفسهم في الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز، ولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين.

وبماذا خرجوا في النهاية؟ خرجوا بالكفر، هو وحده الذي كسبوه وأخذوه!.

وكان الذي حملهم على هذا كله هو حَسَدهم لرسول الله ـ ﷺ ـ أن يختاره للرسالة التي انتظروها فيهم، وحقدهم لأن يُنزل الله من فضله على من يشاء من عباده. وكان هذا بغياً منهم وظلماً فعادوا من هذا الظلم بغضب على غضب، وهناك ينتظرهم عذاب مهين، جزاء الاستكبار والحسد والبغي الذميم.

لقد قص الله على المسلمين من أنباء بني إسرائيل في هذا ما يُحذِّرهم

---

(١) والنص القرآني عام ينطبق على كل من يهتدي منهم لهذا الدين، يقوده العلم الراسخ أو الإيمان البصير. ونستطيع أن نذكر منهم، ولا نزكي على الله أحداً ـ في الزمن الحديث «محمد أسد» النمساوي، وكان اسمه ليوبولد فايس. وقد اهتدى وأسلم، وسمى نفسه محمد أسد. وهو صاحب كتاب «الإسلام على مفترق الطرق».

من الوقوع في مثله، حتى لا تسلب منهم الخلافة في الأرض والأمانة التي ناطها بهم الله، فلما وقعوا في مثل ما وقع به بنو إسرائيل، وطرحوا منهج الله وشريعته، وحكّموا أهواءهم وشهواتهم، وقتلوا فريقاً من الهداة وكذبوا فريقاً. ضربهم الله بما ضرب به بني إسرائيل من قبل، من الفرقة والضعف، والذلة والهوان، والشقاء والتعاسة..

إلا أن يستجيبوا لله ولرسوله، وإلا أن يُخضعوا أهواءهم لشريعته وكتابه، وإلا أن يَفُوا بعهد الله معهم ومع أسلافهم، وإلا أن يأخذوه بقوة، ويذكروا ما فيه لعلهم يهتدون.

ذلك كان موقفهم مع أنبيائهم، يُبينه ويقرره، ثم يُجابههم بموقفهم من الرسالة الجديدة والنبي الجديد، فإذا هم هم، كأنهم أولئك الذين جابهوا الأنبياء من قبل:

﴿وقالوا: قلوبنا غلف. بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون..﴾ [البقرة: ٨٨]..

إن الأسلوب هنا يعنف ويشتد، ويتحول ـ في بعض المواضع ـ إلى صواعق وحمم كما سيأتي بيانه.. إنه يجبههم جبهاً شديداً بما قالوا وما فعلوا، ويجردهم من كل حججهم ومعاذيرهم، التي يسترون بها استكبارهم عن الحق، وأثرتهم البغيضة، وعزلتهم النافرة، وكراهتهم لأن ينال غيرهم الخير، وحسدهم أن يؤتي الله أحداً من فضله.. جزاء موقفهم الجحودي المنكر من الإسلام ورسوله الكريم..

قالوا: إن قلوبنا مُغلّفة لا تنفذ إليها دعوة جديدة، ولا تستمع إلى داعية جديد! قالوها تيئيساً لمحمد ـ ﷺ ـ وللمسلمين، من دعوتهم إلى هذا الدين، أو تعليلاً لعدم استجابتهم لدعوة الرسول..

ويقول الله رداً على قولتهم: **﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾**. أي أنه

طردهم وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم. فهم قد كفروا ابتداءً فجازاهم الله على الكفر بالطرد وبالحيلولة بينهم وبين الانتفاع بالهدى.. ﴿**فقليلاً ما يؤمنون**﴾..

أي قليلاً ما يقع منهم الإيمان بسبب هذا الطرد الذي حق عليهم جزاء كفرهم السابق، وضلالهم القديم.

أو أن هذه حالهم: أنهم كفروا فقلما يقع منهم الإيمان، حالة لاصقة بهم يذكرها تقريراً لحقيقتهم.. وكلا المعنيين يتفق مع المناسبة والموضوع.

وقد كان كفرهم قبيحاً، لأنهم كفروا بالنبي الذي ارتقبوه، واستفتحوا به على الكافرين، أي ارتقبوا أن ينتصروا به على من سواهم. وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم:

﴿**ولما جاءهم كتاب من عند الله مُصَدّق لما معهم ـ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ـ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به**﴾ [البقرة: ٨٩]..

وهو تصرف يستحق الطرد والغضب لقبحه وشناعته.. ومن ثم يصبّ عليهم اللعنة ويصمهم بالكفر: ﴿**فلعنة الله على الكافرين**﴾ [البقرة: ٨٩].

ويفضح السبب الخفي لهذا الموقف الشائن الذي وقفوه؛ بعد أن يقرر خسارة الصفقة التي اختاروها:

﴿**بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله، بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده. فباءوا بغضب على غضب، وللكافرين عذاب مهين**﴾ [البقرة: ٩٠].

بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا.. لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما، يكثر أو يقل. أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ولكن هذا هو الواقع. وإن بدا

تمثيلاً وتصويراً. لقد خسروا أنفسهم.. ذلك هو الخسران المبين..

وهذه الطبيعة التي تبدو هنا في يهود هي الطبيعة الكنود، طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصّب شديد؛ وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها؛ ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى، التي تربط البشرية جميعاً..

وهكذا عاش اليهود في عزلة، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة؛ ويتربصون بالبشرية الدوائر؛ ويكنون للناس البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن، ويُذيقون البشرية رَجْع هذه الأحقاد فِتَناً يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض، وحروباً يثيرونها لِيَجرُّوا من ورائها المغانم، ويروون بها أحقادهم التي لا تنطفىء، وهلاكاً يسلطونه على الناس، ويسلطه عليهم الناس..

وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة: **﴿بغياً.. أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾**..

﴿وإذا قيل لهم: آمنوا بما أُنزل الله قالوا: نؤمن بما أنزل علينا، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾ [البقرة: ٩٣]..

وكان هذا هو الذي يقولونه إذا دُعوا إلى الإيمان بالقرآن وبالإسلام. كانوا يقولون: **﴿نؤمن بما أُنزل علينا﴾**..

ففيه الكفاية، وهو وحده الحق، ثم يكفرون بما وراءه. سواء ما جاءهم به عيسى ـ عليه السلام ـ، وما جاءهم به محمد خاتم النبيين ﷺ.

والقرآن يعجب من موقفهم هذا، ومن كفرهم بما وراء الذي معهم **﴿وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾**..

وما لهم وللحق؟ وما لهم أن يكون مصدقاً لما معهم! ما داموا لم يستأثروا هم به؟ إنهم يعبدون أنفسهم، ويتعبدون لعصبيتهم. لا بل إنهم

ليعبدون هَواهم، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياؤهم به.. ويلقن الله نبيه ـ ﷺ ـ أن يجبههم بهذه الحقيقة وفضحاً لدعواهم: **﴿قل فَلِمَ تَقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين؟﴾** [البقرة: ٩١]..

لِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل، إن كنتم حقاً تؤمنون بما أُنزل إليكم؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاءوكم بما تَدَّعون أنكم تؤمنون به؟.

لا بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى ـ نبيكم الأول ومنقذكم الأكبر ـ: **﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾** [البقرة: ٩٢]..

لقد نقضوا ميثاقهم مع الله.. قتلوا أنبياءهم بغير حق، وبَيَّتوا القتل والصلب لعيسى ـ عليه السلام ـ وهو آخر أنبيائهم.

﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً. وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسىٰ ابن مريم رسول الله﴾ [النساء: ١٥٦، ١٥٧]..

ويكرر القرآن صفة الكفر كلما ذكر إحدى منكراتهم. فقد ذكرها عند قتلهم الأنبياء بغير حق ـ وما يُقتل نبي بحق أبداً فهي حال لتقرير الواقع ـ وذكرها هنا بمناسبة قولهم على مريم بهتاناً عظيماً. وقد قالوا على مريم الطاهرة ذلك المنكر الذي لا يقوله إلا اليهود! فرموها بالزنا مع يوسف النجار ـ لعنة الله عليهم ـ! ثم تبجحوا بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه، وهم يتهكمون بدعواه الرسالة فيقولون: قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله!.

وحين يصل السياق إلى هذه الدعوى منهم يقف كذلك للرد عليهم، وتقرير الحق فيها: **﴿وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شُبِّهَ لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم إلا اتِّباعَ الظن. وما قتلوه يقيناً. بل رفعه الله إليه..﴾** [النساء: ١٥٧، ١٥٨]..

بذلك يحسم القرآن الكريم قصة الصلب.. ونعود مع القرآن في

كشف مناكر اليهود، وما نالهم عليها من الجزاء الأليم في الدنيا والآخرة. .

لقد حَرَّفوا كتابهم ـ التوراة ـ ونسوا شرائعها فلم يُنفذوها، ووقفوا من خاتم النبيين ـ عليه الصلاة والسلام ـ موقفاً لئيماً ماكراً عنيداً وخانوه وخانوا مواثيقهم معه. فباءوا بالطرد من هدى الله، وقست قلوبهم فلم تعد صالحة لاستقبال هذا الهدى. .

﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية، يُحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذُكِّروا به. .﴾ [المائدة: ١٣]. .

وصدق الله. فهذه سمات يهود التي لا تفارقهم. . لعنة تبدو على سيماهم، إذ تنضح بها جبلتهم الملعونة المطرودة من الهداية. وقسوة تبدو في ملامحهم الناضبة من بشاشة الرحمة، وفي تصرفاتهم الخالية من المشاعر الإنسانية، ومهما حاولوا ـ مكراً ـ إبداء اللين في القول عند الخوف وعند المصلحة، والنعومة في الملمس عند الكيد والوقيعة، فإن جفاف الملامح والسمات ينضح ويشي بجفاف القلوب والأفئدة. . وطابعهم الأصيل هو تحريف الكَلِمَ عن مواضعه.

تحريف كتابهم أولاً عن صورته التي أنزلها الله على موسى ـ عليه السلام ـ إما بإضافة الكثير إليه مما يتضمن أهدافهم الملتوية ويبررها بنصوص من الكتاب مُزَوَّرة على الله! وإما بتفسير النصوص الأصلية الباقية وفق الهوى والمصلحة والهدف الخبيث!.

ونسيان وإهمال لأوامر دينهم وشريعتهم، وعدم تنفيذها في حياتهم ومجتمعهم، لأن تنفيذها يُكلفهم الاستقامة على نهج الله الطاهر النظيف القويم.

وسِجلّ بني إسرائيل مع أنبيائهم حافل بالتكذيب والإعراض، حافل بالقتل والاعتداء! حافل بتحكيم الشهوات والأهواء.

ولعله من أجل ذلك قَصَّ الله تاريخ بني إسرائيل على الأمة المسلمة في تفصيل وتطويل.. لعلها تتقي أن تكون كبني إسرائيل؛ ولعلها تحذر مزالق الطريق، أو لعل الواعين منها الموصولين بالله يدركون هذه المزالق؛ أو يتأسُّون بأنبياء بني إسرائيل حين يصادفون ما صادفوا وأجيال من ذراري المسلمين تنتهي إلى ما انتهى إليه بنو إسرائيل، حين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم؛ فَتُحَكِّم الهوى؛ وترفض الهدى، وتُكَذِّب فريقاً من الدعاة إلى الحق، وتقتل فريقاً؛ كما صنع بغاة بني إسرائيل، في تاريخهم الطويل!.

لقد صنع بنو إسرائيل تلك الآثام كلها، وهم يحسبون أن الله لن يفتنهم بالبلاء، ولن يأخذهم بالعقاب. حسبوا هذا الحسبان غفلة منهم عن سنة الله؛ وغروراً منهم بأنهم «شعب الله المختار»!.

﴿وحسبوا ألا تكون فتنة. فَعموا وصَمُّوا، ثم تاب الله عليهم، ثم عَموا وصَمُّوا ـ كثير منهم ـ والله بصير بما يعملون﴾ [المائدة: ٧١]..

طَمَس الله على أبصارهم فلا يفقهون مما يرون شيئاً؛ وطمس على مسامعهم فلا يفيدون مما يسمعون شيئاً..

﴿ثم تاب الله عليهم﴾.. وأدركهم برحمته.. فلم يرعووا ولم ينتفعوا: ﴿ثم عموا وصموا. كثير منهم..﴾.

﴿والله بصير بما يعملون﴾.. وهو مجازيهم بما يراه ويَعلمه من أمرهم.. وما هم بمُغلِتين..

ويكفي أن يعرف الذين آمنوا هذا التاريخ القديم عن يهود، وهذا الواقع الجديد؛ لتنفر قلوبهم المؤمنة من وَلائهم، كما نَفَر قلب عبادة بن الصامت؛ فلا يتولاهم إلا المنافقون من أمثال عبد الله بن أبي بن سلول!.

وسجل بني إسرائيل مع أنبيائهم سجل أسود، مظلم معتم، وقد ملأوا

صفحاته بالظلم والجحود، فأصبحت السمة الرئيسة لطبيعة إسرائيل التحلل من العهد، ونقضها للمواثيق مع ربها ومع نبيها.. حتى لتبلغ أن تقتل أنبياءها بغير الحق، وتكفر بآيات ربها، وتعبد العجل وتجدف في حق الله فترفض الإيمان لنبيها حتى ترى الله جهرة؛ وتخالف عما أوصاها به الله وهي تدخل القرية فتفعل وتقول غير ما أُمرت به؛ وتعتدي في السبت، وتنسى ميثاق الطور، وتماحل وتجادل في ذبح البقرة التي أمر الله بذبحها لحكمة خاصة، وتنكص عن الأرض المقدسة، وهي مع نبيها موسى على أبوابها وتتوقح وتقول قولتها الوقحة..

وهذا كله مع الادعاء العريض بأنها هي وحدها المهتدية؛ وأن الله لا يَرضَىٰ إلا عنها، وأن جميع الأديان باطلة وجميع الأُمم ضالّة عداها!.

إنها دعاوى عريضة عجيبة. فقد كانوا دائماً يدّعون أنهم هم وحدهم المهتدون، وهم وحدهم شعب الله المختار، وهم وحدهم الذين ينالهم ثواب الله؛ وأن فضل الله لهم وحدهم دون شريك.. وهنا يُكذّب القرآن هذه الدعوى العريضة، ويقرر قاعدة من قواعده الكلية، التي تتخلل القصص القرآني، أو تسبقه أو تتلوه. يقرر قاعدة وحدة الإيمان.. ووحدة العقيدة، متى انتهت إلى إسلام النفس لله، والإيمان به إيماناً ينبثق منه العمل الصالح. وأن فضل الله ليس حِجْراً محجوراً على عصبية خاصة، إنما هو للمؤمنين أجمعين، في كل زمان وفي كل مكان، كُلٌّ بحسب دينه الذي كان عليه، حتى تجيء الرسالة التالية بالدين الذي يجب أن يصير المؤمنون إليه، فالقرآن يقرر أن كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من جميع المِلَل، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون..

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا، والنصارى، والصابئين ـ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ـ فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: ٦٢]..

والـذين آمنوا يعني بهم المسلمين. والـذين هادوا هم اليهـود ـ إما بمعنى عادوا إلى الله، وإما بمعنى أنهم أولاد يهوذا ـ والنصارى هم أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ والصابئون: الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبـادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيـدة يرتضـونها، فـاهتدوا إلى التـوحيد، وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى، مِلّة إبراهيم، واعتزلـوا عبادة قومهم دون أن تكون لهم دعوة فيهم. فقال عنهم المشركون: إنهم صَبَأوا ـ أي مالوا عن دين آبائهم ـ كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك. ومن ثم سُمُّوا الصابئة. وهذا القول أرجح من القول بأنهم عبدة النجوم كما جاء في بعض التفاسير.

والآية تقرر أن من آمن بـالله واليوم الآخـر من هؤلاء جميعاً وعمـل صالحاً، فإن لهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

فالعبرة بحقيقة العقيدة، لا بعصبية جنس أو قوم.. وذلك طبعاً قبل البعثة المحمدية.. أما بعدها فقد تحدد شكل الإيمان الأخير..

﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنونْ يؤمنون بما أُنزل إليك، وما أُنزل من قبلك. والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة، والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ [النساء: ١٦٢]..

وهي صفات المسلمين التي تُميزهم: إقامة الصـلاة وإيتاء الـزكاة، والإيمان بالله واليوم الآخر. وجزاء الجميع مـا يقرره الله لهم ﴿أولئـك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾..

ويستطرد القرآن في مـواجهة أهـل الكتاب ـ واليهـود منهم في هذا المـوضع خـاصة ـ ومـوقفهم من رسالـة محمد ـ ﷺ ـ وزعمهم أن الله لم يُرسله، وتفريقهم بين الرسل، وتَعَنّتهم وهم يطلبون أمارة على رسالته، وآية على نبوته.. فيقرر أن الوحي للرسول ليس بِدعاً، وليس غريباً، فهو سنة الله

في إرسال الرسل جميعاً، من عهد نوح إلى عهد محمد. وكلهم رُسل أُرسلوا للتبشير والإنذار، اقتضت هذا رحمة الله بعباده، وأَخْذَه الحجة عليهم، وإنذاره لهم قبل يوم الحساب.. وكلهم جاءوا بوحي واحد، لهدف واحد؛ فالتفرقة بينهم تعنّت لا يستند إلى دليل. **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده..﴾** [النساء: ١٦٣]..

وإذا أنكروا هم وتعنتوا فإن الله يشهد ـ وكفى به شاهداً ـ والملائكة يشهدون: **﴿لكن الله يشهد بما أُنزل إليك. أنزله بعلمه. والملائكة يشهدون. وكفى بالله شهيداً﴾** [النساء: ١٦٦].

وفي هذه الشهادة من الله.. ثم من ملائكته ومنهم من حملها إلى رسوله.. إسقاط لكل ما يقوله أهل الكتاب. فمن هم والله يشهد؟ والملائكة تشهد؟ وشهادة الله وحدها فيها الكفاية؟!.

وفي هذه الشهادة تسرية عن الرسول ـ ﷺ ـ وما يلقاه من كيد اليهود وعنتهم.

وفيها كذلك تصديق وتثبيت وتطمين للمسلمين أمام حملة يهود التي يدل على ضخامتها هذه الحملة القرآنية المنوعة الأساليب والإيحاءات في ردّها والقضاء عليها.

وعندئذ يجيء التهديد الرعيب للمنكرين في موضعه، بعد شهادة الله ـ سبحانه ـ وشهادة الملائكة بِكَذِبهم وتَعَنُّتهم والتوائهم.

﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً. إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً. وكان ذلك على الله يسيراً﴾ [النساء: ١٦٧ ـ ١٦٩]..

إن هذه الأوصاف وهذه التقريرات ـ مع كونها عامة ـ تنطبق أول

ما تنطبق، على حال اليهود، وتصور موقفهم من هذا الدين وأهله؛ بل من الدين كله؛ سواء منهم من عاصروا فجر الدعوة في المدينة، أو من سبقوهم منذ أيام موسى ـ عليه السلام ـ أو من جاءوا بعدهم إلى يومنا هذا ـ إلا القلة النادرة المستثناة من الذين فتحوا قلوبهم للهدى فهداهم الله.

وهؤلاء ـ وكل من ينطبق عليهم وصف الكفر والصدّ ـ قد ضلوا ضلالاً بعيداً. ضلوا عن هدى الله، وضلوا طريقهم القويم في الحياة. ضلوا فِكْراً وتصوراً واعتقاداً، وضلوا سلوكاً ومجتمعاً وأوضاعاً. ضلوا في الدنيا وضلوا في الآخرة. ضلوا ضلالاً لا يُرتجى معه هدى.. ﴿**ضلوا ضلالاً بعيداً**﴾..

ويعيد السياق وصفهم بالكفر، ليضم إليه الظلم: ﴿**إن الذين كفروا وظلموا**﴾..

والكفر في ذاته ظلم: ظلم للحق، وظلم للنفس، وظلم للناس.. والقرآن يعبر عن الكفر أحياناً بأنه الظلم.. وقوله: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾ بعدما قرر أنهم الكافرون في الآية السابقة عليها في سورة المائدة...

وهؤلاء لم يرتكبوا ظلم الشرك وحده، ولكن ارتكبوا معه ظلم الصدّ عن سبيل الله أيضاً، فأمعنوا في الكفر.. أو أمعنوا في الظلم.. ومن ثم يقرر الله بعدله جزاءهم الأخير:

﴿**إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً ـ إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً**﴾..

فليس من شأن الله ـ سبحانه ـ أن يغفر لأمثال هؤلاء، بعدما ضلوا ضلالاً بعيداً، وقطعوا على أنفسهم كل طريق للمغفرة.. وليس من شأن الله ـ سبحانه ـ أن يهديهم طريقاً إلا طريق جهنم. وقد قطعوا على أنفسهم كذلك كل طريق للهدى، وأوصدوا في وجوه أنفسهم كل طريق إلا طريق

جهنم، فأبعدوا فيه وأوغلوا، واستحقوا الخلود المؤبد فيها بإبعادهم في الضلال والكفر والصدّ والظلم، بحيث لا يُرجى لهم من هذا الإبعاد مآب!.

﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾..

فهو القاهر فوق عباده، وليس بينه وبين أحد من العباد صِهْر ولا نَسَب، يجعل أَخْذَهم بهذا الجزاء العادل المستحق عليهم عسيراً. وليس لأحد من عباده قوة ولا حيلة تجعل أَخْذَه عسيراً على الله أيضاً..

ولقد كان ـ اليهود ـ كما كان النصارى يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه. وكانوا يقولون: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً مَعْدودات﴾ [آل عمران: ٢٤].. وكانوا يقولون: نحن شعب الله المختار.. فجاء القرآن لينفي هذا كله. ويَضَعهم في موضعهم.. عباداً من العباد.. إن أحسنوا أُثيبوا، وإن أساءوا ـ ولم يستغفروا ويتوبوا ـ عُذِّبوا.. وكان ذلك على الله يسيراً..

وهكذا فإن القرآن الكريم يعالج بناء التصور الإسلامي الصحيح في ضمير الجماعة وهي تواجه العقائد المنحرفة، وتواجه أصحاب هذه العقائد، سواء منهم المشركون أو أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ وتصحح هذه العقائد وتقرر وجه الحق في الانحرافات التي تفسدها.

ويخوض القرآن بالجماعة المسلمة معركة حامية مع أهل الكتاب بصفة عامة، واليهود من أهل الكتاب بصفة خاصة. فهم الذين وقفوا للدعوة الجديدة منذ أن وصل رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة، ومنذ أن تبين اليهود خطر هذه الدعوة الجديدة على كيانهم ووضعهم الممتاز في يثرب، ودعاويهم في التفرد بالقرب من الله، وأنهم شعب الله المختار، ومن ثم حَرْبهم للدعوة الجديدة بكل سلاح!.

والقرآن يكشف طبيعتهم ووسائلهم، وتاريخهم مع أنبيائهم أنفسهم، مما يصور موقفهم من دعوة الحق أياً كان مُمَثّلها، ولو كان هو نبيهم وقائدهم ومنقذهم!.

وقد تبين مما سبق طبيعة التصور الإسلامي، الذي يجعل دين الله واحداً، ويجعل رسل الله موكباً يحمل هذا الدين؛ ويجعل التفرقة بين الرسل، والتفرقة بين ما جاءوا به كفراً صراحاً. هذا البيان الذي أوضحه القرآن الكريم كان بصدد التنديد باليهود ـ من أهل الكتاب ـ الذين يُنكرون النبوة والأنبياء ـ بعد أنبيائهم ـ تعصباً وحقداً..

ومما سبق بيانه أيضاً فقد كشف القرآن عن طبيعة بني إسرائيل.. كشف عن تعنتهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم: موسى ـ عليه السلام ـ مما يكشف عن طبيعة السوء فيهم، وموقفهم تجاه الحق ودعوته أياً كان الداعي إلى هذا الحق؛ ولو كان هو نبيهم الأكبر موسى، وكذلك موقفهم من عيسى ـ عليه السلام ـ وأُمه وإطلاق قالة السوء فيها ـ مما يكرهه الله ولا يحبه ـ فيبدو عندئذ موقفهم من الرسول ـ ﷺ ـ ومن دعوة الحق الأخيرة مفهوماً ومكشوفاً!.

كذلك ذكر القرآن دعاوى اليهود على المسيح ـ عليه السلام ـ، وتبجّحهم بقتله! ثم يقرر حقيقة الأمر، وطبيعة هذا الزعم. ويذكر كيف عاقب الله اليهود على ظلمهم وصدهم عن سبيل الله، وأَخْذِهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل.. بحرمانهم من بعض الطيبات التي أُحلّت لهم في الدنيا، وبالعذاب الأليم الذي ينتظرهم في الآخرة. مستثنياً الراسخين في العلم والمؤمنين الذين عرفوا الحق وآمنوا به واتبعوه..

ويرد على تكذيب اليهود برسالة النبي ـ ﷺ ـ بتقرير أنها أمر طبيعي مألوف لا يثير عجباً ولا غرابة ولا استنكاراً..

إذ هو جاء على سنة الله في إرسال الرسل للبشر؛ من لدن نوح ـ عليه السلام ـ؛ ثم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وداود.. وغيرهم ممن يُقرّ اليهود برسالة بعضهم ويُنكرون رسالة بعضهم تَعنُّتاً وحقداً.. وهو الأمر الطبيعي أن يرسل الله

لعباده رسلاً مبشرين ومنذرين.. ﴿**لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾ [النساء: ١٦٥]..

فهو أمر ضروري، فوق أنه طبيعي..

إنها جولة القرآن مع اليهود. وقد كشفت عن طبيعتهم ووسائلهم وعادة السوء فيهم من قديم، وردت كيدهم بهذا الكشف، وقررت كلمة الحق في رسالة محمد - ﷺ - وأقامت الحجة على الناس بشهادة الله - سبحانه -..

لقد كان اليهود يدّعون الإيمان بأنبيائهم، وينكرون رسالة عيسى ورسالة محمد؛ كما كان النصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى - فضلاً عن تأليهه - وينكرون رسالة محمد كذلك.

وكان القرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء؛ ويقرر التصور الإسلامي الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسوله؛ بدون تفريق بين الله ورسله؛ وبدون تفريق كذلك بين رسله جميعاً. وبهذا الشمول كان الإسلام هو «الدين» الذي لا يقبل الله من الناس غيره، لأنه هو الذي يتفق مع وحدانية الله؛ ومقتضيات هذه الوحدانية..

﴿**إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله؛ ويقولون: نؤمن بِبَعْض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً. والذين آمنوا بالله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم، أولئك سوف يؤتيهم أجورهم؛ وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢]..

دعوى وكذب وافتراء:

وقصة بني إسرائيل هي أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم، والعناية بعرض مواقفها وعبرتها عناية ظاهرة، توحي بحكمة الله في علاج أمر هذه الأمة المسلمة، وتربيتها للخلافة الكبرى.. ففي القرآن تذكير

بني إسرائيل بأنعم الله عليهم وجحودهم لهذا الإنعام المتواصل.. وقد انتهت قلوبهم إلى قساوة وجفاف وجدب، أشد من قسوة الحجارة وجفافها وجدبها.

لقد كان اليهود ينتظرون مبعث الرسول الأخير منهم، فيجمعهم بعد فرقة، وينصرهم بعد هزيمة، ويعزهم بعد ذل. وكانوا يستفتحون بهذا على العرب، أي يطلبون الفتح بذلك النبي الأخير.

ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون هذا النبي من العرب، من الأميين غير اليهود؛ فقد علم الله أن يهود قد فرغ عنصرها من مؤهلات القيادة الجديدة الكاملة للبشرية، وأنها زاغت وضلت. وأنها لا تصلح لحمل الأمانة بعدما كان منها في تاريخها الطويل!.

وكانت هناك دعوة إبراهيم خليل الرحمن ـ عليه الصلاة والسلام ـ تلك الدعوة التي أطلقها في ظل البيت هو وإسماعيل ـ عليه السلام ـ:

﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك، ويُعلمهم الكتاب والحكمة ويُزكِّيهم. إنك أنت العزيز الحكيم﴾ [البقرة: ١٢٩]..

كانت هناك هذه الدعوة من وراء الغيب، ومن وراء القرون، محفوظة عند الله لا تضيع، حتى يجيء موعدها المقدور في علم الله، وفق حكمته، وحتى تتحقق في وقتها المناسب في قَدَر الله وتنسيقه، وحتى تؤدي دورها في الكون حسب التدبير الإلهي الذي لا يستقدم معه شيء، ولا يستأخر عن موعده المرسوم.

وتحققت هذه الدعوة ـ وفق قَدَر الله وتدبيره ـ بنصها الذي تعيده سورة الجمعة لِتُذَكِّر بحكاية ألفاظ إبراهيم.. **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾** [الجمعة: ٢].. كما قال إبراهيم! حتى صفة الله في دعاء إبراهيم: **﴿إنك**

أنت العزيز الحكيم﴾ هي ذاتها التي تعقب على التذكير بمنة الله وفضله في سورة الجمعة: **﴿وهو العزيز الحكيم﴾** [الجمعة: ٣]..

وإن اختيار الله لأمة أو جماعة أو فرد لِيُحَمِّلَهم الأمانة الكبرى، وليكون مستودع نور الله وموضع تَلَقِّي فَيضه، والمركز الذي تتصل فيه السماء بالأرض.. إن اختيار الله هذا لفضلٌ لا يعدله فضل.. **﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم﴾** [الجمعة: ٤]..

فضل عظيم.. يربى على كل ما يبذله المؤمن من نفسه وماله وحياته؛ ويربى على متاعب الطريق وآلام الكفاح وشدائد الجهاد..

إن هذا الفضل العظيم تصغر إلى جانبه جميع القيم، وجميع النعم، كما تصغر إلى جانبه جميع التضحيات والآلام..

ويُفيد القرآن الكريم أن اليهود قد انتهى دورهم في حمل أمانة الله؛ فلم تعد لهم قلوب تحمل هذه الأمانة التي لا تحملها إلا القلوب الحية الفاقهة المدركة الواعية المتجردة العاملة بما تحمل:

﴿مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً. بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله! والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [الجمعة: ٥]..

فبنو إسرائيل حملوا التوراة، وكُلِّفُوا أمانة العقيدة والشريعة.. **﴿ثم لم يحملوها﴾**.. فَحَمْلَها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه، وينتهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع. ولكن سيرة بني إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم ـ وكما هي في حقيقتها ـ لا تدل على أنهم قَدَّروا هذه الأمانة، ولا أنهم فَقِهُوا حقيقتها، ولا أنهم عملوا بها. ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام، وليس له منها إلا ثقلها. فهو ليس صاحبها. وليس شريكاً في الغاية منها!.

وهي صورة زرية بائسة، ومثل سيِّىء شائن، ولكنها صورة معبرة عن حقيقة صادقة **﴿بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾** . .

ومثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها . . كل الذين حملوا أمانة العقيدة ثم لم يحملوها. والمسلمون الذين غبرت بهم أجيال كثيرة، والذين يعيشون في هذا الزمان، وهم يحملون أسماء المسلمين ولا يعملون عمل المسلمين. وبخاصة أولئك الذين يقرأون القرآن والكتب، وهم لا ينهضون بما فيها . .

أولئك كلهم، كالحمار يحمل أسفاراً. وهم كثيرون كثيرون! فليست المسألة مسألة كتب تُحْمَل وتُدرَس. إنما هي مسألة فقه وعمل بما في الكتب . .

وكان اليهود يزعمون ـ كما يزعمون حتى اليوم ـ أنهم شعب الله المختار، وأنهم هم أولياؤه من دون الناس وأن غيرهم هم «الجوييم»[1] أو الأمميون أو الأميون. وأنهم من ثم غير مطالبين بمراعاة أحكام دينهم مع غيرهم من الأميين: **﴿قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾** [آل عمران: ٧٥] . . إلى آخر هذه الدعاوى التي تفتري الكذب على الله بلا دليل! .

ويمضي القرآن ـ وهو يخوض المعركة بالجماعة المسلمة مع اليهود في المدينة ـ يعجب من أمر هؤلاء الخلق؛ الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار؛ ويثنون على أنفسهم؛ ويزكونها؛ بينما هم يُحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه، ويتطاولون على الله ورسوله ـ كما سبق ـ وبينما هم يؤمنون بالجبت

---

(١) «جوييم» باللغة العبرية أي أُمميون ـ نسبة إلى الأمم ـ بوصفهم شعب الله المختار وغيرهم هم الأمم! .

والـطاغوت ـ كمـا سيجيء ـ كاذبين على الله في تـزكيتهم لأنفسهم، وفي زعمهم أنهم مقربون إليه مهما عملوا من السوء!:

﴿ألم تر إلى الذين يـزكون أنفسهم؟ بـل الله يُزَكّي من يشـاء، ولا يظلمون فتيلاً. انظر كيف يفترون على الله الكذب! وكفى به إثماً مبينـاً﴾ [النساء: ٤٩، ٥٠]..

ودعوى اليهود أنهم شعب الله المختار هي دعواهم من قـديم. وقد اختارهم الله فعلاً لحمل الأمانة وأداء الرسالة، وفَضَّلَهم على العالمين في ذلـك الأوان؛ وأهلك لهم فرعـون وملأه، وأورثهم الأرض المقـدسـة.. ولكنهم هم انحرفوا بعد ذلك عن منهج الله؛ وعتوا في الأرض عتواً كبيراً، واجترحوا السيئات التي تضج منها الأرض، وأحل لهم أحبارهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحله لهم، واتبعوهم؛ ولم ينكروا عليهم حق الألوهية هذا الذي ادعوه عملياً ـ بهذا التحريم والتحليل ـ وقـد بدل هؤلاء الأحبـار في شـريعة الله، ليـرضوا ذوي السلطان والشـرفاء؛ وليملقـوا كذلـك رغبـات الجماهير وأهواءهم. **وبذلك اتخذوا أحبارهم أربابـاً من دون الله**. وأكلوا الربا..

ووهنت علاقتهم بدين الله وكتابه الذي أنزله عليهم.. وعلى الرغم من ذلك كله ـ وغيره كثير ـ فقد ظلوا **يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه**. **وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة**. وأنه لا يهتدي ولا يقبل عند الله **إلا من كان هوداً!**.

كأَنَّ المسألة مسألة قرابة ونَسَب ومحاباة بينهم وبين الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ فالله لا تصل بينه وبين أحد من خلقه قرابة ولا نسب؛ إنما تربط عباده به العقيدة المستقيمة والعمل الصالح، والاستقامة على منهج الله.. فمن أخلّ بهذا فقد غضب الله عليه.. ويشتد غضبه إذا كان قد آتى الضالين الهدى فانحرفوا عنه!.

وما شأن هؤلاء اليهود إلا شأن من يزعمون الإسلام اليوم، ويحسبون أنهم من أمة محمد ـ ﷺ ـ وأن الله لا بد ناصرهم، ومخرج لهم اليهود من أرضهم.. بينما هم ينسلخون انسلاخاً كاملاً من دين الله الذي هو منهجه للحياة؛ فينبذونه من حياتهم؛ ولا يتحاكمون إلى كتاب الله لا في أقضيتهم ولا في اقتصادهم، ولا في اجتماعهم، ولا في آدابهم، ولا في تقاليدهم. وكل ما لهم من الإسلام أسماء المسلمين! وأنهم وُلِدُوا في أرض كان المسلمون يسكنونها ذات يوم! ويقيمون فيها دين الله، ويحكمون منهجه في الحياة!.

والله يعجب رسوله ـ ﷺ ـ من أمر أولئك اليهود الذين يزكون أنفسهم، وأمر «المسلمين» المعاصرين أعجب، وأشد إثارة للتعجيب والتعجب!!.

إنه ليس الناس هم الذين يُزكّون أنفسهم؛ ويشهدون لها بالصلاح والقرب من الله واختيار الله. إنما الله هو الذي يزكي من يشاء.

فهو أعلم بالقلوب والأعمال. ولن يظلم الناس شيئاً، إذا هم تركوا هذا التقدير لله ـ سبحانه ـ واتجهوا إلى العمل. لا إلى الادعاء.

فلئن عملوا ـ وهم ساكتون متواضعون في حياء من الله، وبدون تزكية ولا ادعاء ـ فلن يُغْبَنوا عند الله، ولن ينسى لهم عمل؛ ولن يبخس لهم حق.

والله ـ سبحانه ـ يشهد على اليهود أنهم ـ إذ يزكُّون أنفسهم ويدّعون أن الله راض عنهم ـ يفترون عليه الكذب. ويشنع بفعلتهم هذه، ويوجه الأنظار إلى بشاعتها: ﴿**انظر كيف يفترون على الله الكذب. وكفى به إثماً مبيناً!**﴾..

وما أرى أننا ـ الذي ندعي الإسلام لأننا نحمل أسماء المسلمين، ونعيش في أرض كان يسكنها المسلمون! بينما نحن لا نجعل الإسلام في شيء من منهجنا في الحياة.. وما أحسبنا ونحن ندعي الإسلام، فَنُشَوِّه

الإسلام بصورتنا وواقعنا، ونؤدي ضده شهادة مُنَفِّرة منه! ثم ونحن ندعي أن الله مختار لنا لأننا أمة محمد ـ ﷺ ـ بينما دين محمد ومنهجه مطرود من واقع حياتنا طرداً . .

ما أحسبنا إلا في مثل هذا الموضع، الذي يعجب الله ـ سبحانه ـ منه رسوله ـ ﷺ ـ ويدمغ أصحابه بافتراء الكذب على الله، وارتكاب هذا الإثم المبين! والعياذ بالله! .

إن دين الله منهج حياة. وطاعة الله هي تحكيم هذا المنهج في الحياة. والقرب من الله لا يكون إلا بطاعته. . فلننظر أين نحن من الله ودينه ومنهجه. ثم لننظر أين نحن من حال هؤلاء اليهود، الذين يعجب الله من حالهم، ويدمغهم بإثم الافتراء عليه في تزكيتهم لأنفسهم! فالقاعدة هي القاعدة. والحال هي الحال. وليس لأحد عند الله نَسب ولا صِهر ولا محاباة! .

ويمضي السياق في التعجيب من أمر أولئك الذين يُزَكُّون أنفسهم. . بينما هم يؤمنون بالباطل وبالأحكام التي لا تستند إلى شرع الله، وليس لها ضابط منه يعصمها من الطغيان «الجبت والطاغوت» وبينما هم يشهدون للشرك والمشركين بأنهم أهدى من المؤمنين بكتاب الله ومنهجه وشريعته، ويحمل عليهم ـ بعد التعجيب من أمرهم، وذكر هذه المخازي عنهم ـ حملة عنيفة؛ ويُرذّلهم ترذيلاً شديداً؛ ويظهر كامن طباعهم من الحسد والبخل؛ والأسباب الحقيقية التي تجعلهم يقفون هذا الموقف إلى جانب انحرافهم عن دين إبراهيم ـ الذي يفخرون بالانتساب إليه ـ ويُنهي هذه الحملة بتهديدهم بجهنم: ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾ . .

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً! أولئك الذين لعنهم الله. ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً. أم لهم نصيب من

الملك؟ فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً. أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة؛ وآتيناهم ملكاً عظيماً. فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه؛ وكفى بجهنم سعيراً﴾ [النساء: ٥١ - ٥٥]. .

لقد كان الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، أَوْلَى الناس أن يتبعوا الكتاب؛ وأن يكفروا بالشرك الذي يعتنقه من لم يأتهم من الله هدى؛ وأن يُحَكِّموا كتاب الله في حياتهم، فلا يتبعوا الطاغوت - وهو كل شرع لم يأذن به الله، وكل حكم ليس له من شريعة الله سند - ولكن اليهود - الذين كانوا يُزكّون أنفسهم، ويتباهون بأنهم أحباء الله - كانوا في الوقت ذاته يتبعون الباطل والشرك بإتباعهم للكهانة وتركهم الكهان والأحبار يُشرّعون لهم ما لم يأذن به الله. وكانوا يؤمنون بالطاغوت؛ وهو هذا الحكم الذي يقوم على غير شريعة الله. . وهو طاغوت لما فيه من طغيان - بادعاء الإنسان إحدى خصائص الألوهية - وهي الحاكمية - وبعدم انضباطه بحدود من شرع الله، تلزمه العدل والحق. فهو طغيان، وهو طاغوت؛ والمؤمنون به والمتبعون له، مشركون أو كافرون. يَعجب الله من أمرهم، وقد أُوتوا نصيباً من الكتاب، فلم يلتزموا بما أوتوه من الكتاب!.

ولقد كانوا يضيفون إلى الإيمان بالجبت والطاغوت، موقفهم في صف المشركين الكفار، ضد المؤمنين الذين آتاهم الله الكتاب أيضاً:

﴿ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ . .

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة - أو عن سعيد بن جبير - عن ابن عباس. قال: «كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة، حُيَيّ بن أخطب، وسلام بن الحقيق، وأبو رافع، والربيع بن الحقيق، وأبو عامر، ووحوح بن عامر، وهودة بن قيس. فأما وحوح وأبو عامر وهودة، فمن بني وائل، وكان سائرهم من بني النضير. فلما

قدموا على قريش قالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهل العلم بـالكتاب الأول. فاسألوهم: أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم. فقالوا: دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه. فأنزل الله ـ عز وجل ـ: **﴿ألم تـر إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب﴾**.. إلى قوله ـ عز وجل: **﴿وآتينـاهم ملكاً عظيماً﴾**..

وهذا لَعْن لهم، وإخبار بأنه لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة. لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين. وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم. وقد أجابوهم، وجاءوا معهم يوم الأحزاب؛ حتى حفر النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه حول المدينة الخندق، وكفى الله شرّهم..

وكان عجيباً أن يقول اليهود: إن دين المشركين خير من دين محمد ومن معه، وأن المشركين أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بكتاب الله ورسوله ـ ﷺ ـ ولكن هذا ليس بالعجيب من اليهود.. إنه موقفهم دائماً من الحق والباطل، ومن أهل الحق وأهل الباطل.. إنهم ذوو أطماع لا تنتهي، وذوو أهواء لا تعتدل، وذوو أحقاد لا تزول! وهم لا يجدون عند الحق وأهله عوناً لهم في شيء من أطماعهم وأهوائهم وأحقادهم. إنما يجدون العون والنصرة ـ دائماً ـ عند الباطل وأهله. ومن ثم يشهدون للباطل ضد الحق؛ ولأهـل الباطل ضد أهل الحق!.

هذه حال دائمة، سببها كذلك قائم.. وكان طبيعياً منهم ومَنْطِقياً أن يقولوا عن الذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً! وهم يقولونها اليوم وغداً. إنهم يُشوّهون بوسائل الدعاية والإعـلام التي في أيديهم كـل حركة إسلامية ناجحة على ظهر الأرض؛ ويُعينون عليها أهل الباطل لتشويهها وتحطيمها ـ بالضبط كما كانوا يُعينون مشركي قريش ويستنصرون بهم في الوقت ذاته ـ لتشويه الحركة الإسلامية الأولى وتحطيمها.

ولكنهم أحياناً ـ لخبثهم ولتمرّسهم بالحِيَل الماكرة ولملابسات العصر

الحديث ـ قد لا يثنون ثناءً مكشوفاً على الباطل وأهله.. بل يكتفون بتشويه الحق وأهله. ليعينوا الباطل على هَدْمه وسَحْقه. ذلك أَنَّ ثناءهم المكشوف ـ في هـذا الزمـان ـ أصبـح مُتَّهمـاً، وقـد يُثيـر الشبهـات حـول حلفـائهم المستورين، الذين يعملون لحسابهم، في سحق الحركات الإسلامية في كل مكان..

بل لقد يبلغ بهم المكر والحذق أحياناً، أن يتظاهروا بعداوة وحرب حلفائهم، الذين يسحقون لهم الحق وأهله. ويتظاهروا كذلك بمعركة كاذبة جوفاء من الكلام. لِيُبْعِدوا الشبهة تماماً عن أخلص حلفائهم، الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة!.

ولكنهم لا يَكُفّون أبداً عن تشويه الإسلام وأهله.. لأن حقدهم على الإسـلام، وعلى كل شَبـح من بعيـد لأي بعث إسـلامي، أضخم من أن يداروه.. ولو للخداع والتمويه!.

إنها جِبِلّة واحدة، وخطة واحدة، وغاية واحدة.. هي التي من أجلها يجبههم الله باللّعنة والطرد، وفقدان النصير. والذي يفقد نصرة الله فما له من ناصر وما له من مُعين ولو كان أهل الأرض كلهم له ناصر وكلهم له معين:

﴿أولئك الذين لعنهم الله. ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾..

ولقد يهولنا اليوم أن نجد دول الغرب كلها نصيراً لليهود. فنسأل: وأين وَعْد الله بأنَّه لَعَنَهم، وأن من يلعن الله فلن تجد له نصيراً؟.

ولكن الناصر الحقيقي ليس هو الناس. ليس هو الدول. ولو كانت تملك القنابل الأيدروجينية والصواريخ. إنما الناصر الحق هو الله. القاهر فوق عباده: ومَنْ هؤلاء العباد من يملكون القنابل الأيدروجينية والصواريخ!.

والله ناصر من يَنصره: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ [الحج: ٤٠] والله معين من يؤمن به حق الإيمان، ويتبع منهجه حق الإتبـاع؛ ويتحاكم إلى منهجه في رضى وفي تسليم..

ولقد كان الله ـ سبحانه ـ يخاطب بهذا الكلام أمة مؤمنة به، مُتّبعة لمنهجه، مُحْتَكِمَةً إلى شريعته. وكان يهوّن من شأن عدوها ـ اليهود ـ وناصريهم. وكان يعد المسلمين النصر عليهم لأنهم ـ اليهود ـ لا نصير لهم. وقد حقَّق الله لهم وَعْده. وَعْده الذي لا يناله إلا المؤمنون حقاً. والذي لا يتحقق إلا على أيدي العصبة المؤمنة حين تقوم.

فلا يهولنا ما نلقاه من نصرة الملحدين والمشركين والصليبيين لليهود. فهم في كل زمان ينصرونهم على الإسلام والمسلمين.. فليست هذه هي النصرة.. ولكن كذلك لا يخدعنا هذا.. فإنما يتحقق هذا الأمر للمسلمين! يوم يكونون مسلمين!.

وليحاول المسلمون أن يُجَرّبوا ـ مرة واحدة ـ أن يكونوا مسلمين. ثم يروا بأعينهم إن كان يبقى لليهود نصير. أو أن ينفعهم هذا النصير!.

وبعد التعجيب من أمر اليهود وموقفهم وقولهم؛ وإعلان اللعنة عليهم والخذلان.. يأخذ في استنكار موقفهم من الرسول ـ ﷺ ـ والمسلمين؛ وغيظهم من أن يمنّ الله عليهم هذه المِنّة.. مِنّة الدين والنصر والتمكين. وحَسَدَهم لهم على ما أعطاهم الله من فضله، وهم لم يُعطوهم من عندهم شيئاً!.

ويكشف في الوقت ذاته عن كزازة طبيعتهم؛ واستكثار أي عطاء يناله غيرهم؛ مع أن الله قد أفاض عليهم وعلى آبائهم، فلم يُعَلّمهم هذا الفيض السماحة؛ ولم يمنعهم من الحَسَد والكنود: ﴿**أم لهم نصيب من المُلك؟ فإذاً لا يُؤتون الناس نقيراً! أم يَحسُدون الناس على ما آتاهم الله من فضله؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة، وآتيناهم ملكاً عظيماً**﴾ [النساء: ٥٣، ٥٤].

يا عجباً! إنهم لا يُطيقون أن ينعم الله على عبد من عباده بشيء من عنده.. فهل هم شركاؤه ـ سبحانه ـ هل لهم نصيب في مُلكه، الذي يمنح

منه ويفيض؟ لو كان لهم نصيب لضَنُّوا ـ بكزازتهم وشُحّهم ـ أن يعطوا الناس نقيراً. .

والنقير النقرة تكون في ظهر النواة ـ وهذه لا تسمح كزازة يهود وأثرتها البغيضة أن تعطيها للناس، لو كان لها في المُلك نصيب!.

والحمد لله أن ليس لها في الملك نصيب. . وإلا لهلك الناس جميعاً وهم لا يعطون حتى النقير!!.

أم لعله الحسد. . حَسد رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمين، على ما آتاهم الله من فضله. . من هذا الدين الذي أنشأهم نشأة أخرى ووهب لهم ميلاداً جديداً، وجعل لهم وجوداً إنسانياً متميزاً؛ ووهبهم النور والثقة والطمأنينة واليقين؛ كما وهبهم النظافة والطهر، مع العز والتمكين؟.

وإنه فعلاً للحسد من يهود. مع تفويت أطماعها في السيادة الأدبية والاقتصادية على العرب الجاهلين المتفرقين المتخاصمين. . يوم أن لم يكن لهم دين. . ولكن لماذا يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من النبوة والتمكين في الأرض؟ وهم غارقون في فضل الله من عهد إبراهيم. . الذي آتاه الله وآله الكتاب والحكمة ـ وهي النبوة ـ وآتاهم الملك كذلك والسيادة. وهم لم يَرْعوا الفضل ولم يحتفظوا بالنعمة، ولم يصونوا العهد القديم، بل كان منهم فريق من غير المؤمنين. ومن يؤت هذا الفضل كله لا يليق أن يكون منهم جاحدون كافرون!.

﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً. فمنهم من آمن به، ومنهم من صدّ عنه﴾ [النساء: ٥٤، ٥٥]. .

إنه لمن أَلأَم الحسد: أن يحسد ذو النعمة الموهوب! لقد يحسد المحروم ويكون الحسد منه رذيلة! أَمَّا أن يحسد الواجد المغمور بالنعمة، فهذا هو الشرّ الأصيل العميق! شر يهود! المتميز الفريد!.

ومن ثم يكون التهديد بالسعير، هو الجزاء المقابل لهذا الشرّ النكير: ﴿**وكفى بجهنم سعيراً**﴾ [النساء: ٥٥]. .

ظلم مبين وكيد متين في مواجهة الرسول الأمين:

لقد قُرىء القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه: ﴿**النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل**﴾ [الأعراف: ١٥٧]. . وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة، التي كانوا يتواصون بتَكَتُّمها!.

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلهم زمانه، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى في الجزيرة العربية. ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم. فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم، كرهوا هذا وحاربوه!.

وعلى أية حال فالنص القرآني بذاته هو الفيصل في مثل هذه الأخبار. وهو القول الأخير. . ﴿**فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين. ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يُدعى إلى الإسلام؟ والله لا يهدي الظالمين، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾ [الصف: ٦ ـ ٩]. .

ويبدو أن هذه الآيات جاءت على الأكثر بصدد استقبال بني إسرائيل ـ اليهود والنصارى ـ للنبي الذي بَشَّرت به كُتبهم. والتنديد بهذا الاستقبال، وكيدهم للدين الجديد الذي قَدَّر الله أن يُظهره على الدين كله، وأن يكون هو الدين الأخير!.

ويمضي القرآن الكريم في مناقشة قضية الوحي من زاوية واقعية مشهودة. فماذا يُنكرون من أمر الوحي والرسالة؟ وليس في الأمر غريب

ولا عجيب: ﴿قل: ما كنت بِدْعاً من الرسل. وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يُوحي إليّ. . وما أنا إلا نذير مبين﴾ [الأحقاف: ٩]. .

إنه - ﷺ - ليس أول رسول. فقد سبقته الرسل. وأمره كأمرهم. وما كان بدعاً من الرسل. بشر يعلم الله أنه أهل للرسالة فيوحي إليه، فيصدع بما يؤمر. هذا هو جوهر الرسالة وطبيعتها. . والرسول حين يتصل قلبه لا يسأل ربه دليلاً، ولا يطلب لنفسه اختصاصاً. إنما يمضي في سبيله، يبلغ رسالة ربه، حسبما أوحي بها إليه: ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم. إن أتبع إلا ما يُوحَىٰ إليّ﴾. . فهو لا يمضي في رسالته لأنه يعلم الغيب؛ أو لأنه يطلع على ما يكون من شأنه وشأن قومه وشأن الرسالة التي يُبَشّر بها. إنما هو يمضي وفق الإشارة وحسب التوجيه. واثقاً بربه، مستسلماً لإرادته، مطيعاً لتوجيهه، يضع خطاه حيث قادها الله. والغيب أمامه مجهول، سِرّه عند ربه. وهو لا يتطلع إلى السر من وراء الستر لأن قلبه مطمئن، ولأن أدبه مع ربه ينهاه عن التطلع لغير ما فتح له. فهو واقف أبداً عند حدوده وحدود وظيفته: ﴿وما أنا إلا نذير مبين﴾. .

وإنه لأدب الواصلين، وإنها لطمأنينة العارفين، يتأسون فيها برسول الله - ﷺ - فيمضون في دعوتهم لله. لا لأنهم يعرفون مآلها، أو يعلمون مستقبلها. أو يملكون فيها قليلاً أو كثيراً. ولكن لأن هذا واجبهم وكفى. وما يطلبون من ربهم برهاناً فبرهانهم في قلوبهم. وما يطلبون لأنفسهم خصوصية فخصوصيتهم أنه اختارهم. وما يتجاوزون الخط الدقيق الذي خطه لهم، ورسم لهم فيه مواقع أقدامهم على طول الطريق. ثم يواجههم بشاهد قريب، لشهادته قيمتها، لأنه من أهل الكتاب الذين يعرفون طبيعة التنزيل:

﴿قل: أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مِثْله، فآمن واستكبرتم؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [الأحقاف: ١٠].

وقد تكون هذه واقعة حال، ويكون واحد أو أكثر من بني إسرائيل، عرف أن طبيعة هذا القرآن هي طبيعة الكتب المنزلة من عند الله، بحكم معرفته لطبيعة التوراة. فآمن. وقد وردت روايات أنها نزلت في عبد الله بن سلام. لولا أن هذه الآية مكية (سورة الأحقاف) وعبد الله بن سلام إنما أسلم في المدينة. وقد ورد كذلك أن هذه الآية مدنية توكيداً لنزولها في شأن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ كما ورد أنها مكية وأنها لم تنزل فيه.

وقد تكون إشارة إلى واقعة أخرى في مكة نفسها. فقد آمن بعض أهل الكتاب على قلة في العهد المكي. وكان لإيمانهم، وهم أهل كتاب، قيمته وحجيته في وسط المشركين الأميين. ومن ثم نوه به القرآن في مواضع متعددة، وواجه به المشركين الذين كانوا يكذبون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. .

لقد تكرر في القرآن الكريم ذكر معرفة أهل الكتاب ـ وهم اليهود والنصارى ـ لهذا القرآن؛ أو لصحة رسالة محمد ـ ﷺ ـ وتنزيل هذا القرآن عليه من عند الله. . تكرر ذكر هذه الحقيقة سواء في مواجهة أهل الكتاب أنفسهم، عندما كانوا يقفون من النبي ـ ﷺ ـ ومن هذا الدين وقفة المعارضة والإنكار والحرب والعداء (وكان هذا غالباً في المدينة) أو في مواجهة المشركين من العرب؛ لتعريفهم أن أهل الكتاب، الذين يعرفون طبيعة الوحي والكتب السماوية، يعرفون هذا القرآن، ويعرفون صدق رسول الله ـ ﷺ ـ في أنه وَحْي أوحى به ربه إليه كما أوحى إلى الرسل من قبله. . **﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾** [الأنعام: ٢٠]. .

وهذه الآية ـ كما نرجح ـ مكية[١]. وذكر أهل الكتاب فيها على هذا النحو ـ إذن ـ يفيد أنها كانت مواجهة للمشركين بأن هذا القرآن الذي

---

(١) انظر في ظلال القرآن سورة الأنعام ص ١٠٦٠.

ينكرونه، يعرفه أهل الكتاب كما يعرفون أبناءهم؛ وإذا كانت كثرتهم لم تؤمن به فذلك لأنهم خسروا أنفسهم، فهم لا يؤمنون. شأنهم في هذا شأن المشركين، الذين خسروا أنفسهم، فلم يدخلوا في هذا الدين.

وقد جرى المفسرون على تفسير مثل هذا التقرير: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾.. على أنهم يعرفون أنه منزل من عند الله حقاً؛ وعلى أن النبي - ﷺ - رسول من عند الله حقاً، يوحي إليه بهذا القرآن..

وهذا جانب من مدلول النص فعلاً، ولكنا نلمح - باستصحاب الواقع التاريخي وموقف أهل الكتاب من هذا الدين فيه - أن هناك جانباً آخر من مدلول النص؛ لعل الله - سبحانه - أراد أن يُعَلِّمه للجماعة المسلمة، ليستقر في وَعْيها على مدار التاريخ، وهي تواجه أهل الكتاب بهذا الدين..

إن أهل الكتاب يعرفون أن هذا الكتاب حق من عند الله؛ ويعرفون - من ثم - ما فيه من سلطان وقوة؛ ومن خير وصلاح؛ ومن طاقة دافعة للأمة التي تدين بالعقيدة التي جاء بها، وبالأخلاق التي تنبثق منها؛ وبالنظام الذي يقوم عليها. ويحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله؛ ويعلمون جيداً أن الأرض لا تسعهم وتسع أهل الدين!.. إنهم يعرفون ما فيه من حق، ويعرفون ما هم فيه من باطل.. ويعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها، وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم، لا يمكن أن يُهادنها هذا الدين، أو يُبقي عليها.. وأنها - من ثم - معركة لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض، ويستعلي هذا الدين، ويكون الدين كله لله.. أي أن يكون السلطان في الأرض كله لله؛ وأن يُطارَد المُعتدون على سلطان الله في الأرض كلها. وبذلك وحده يكون الدين كله لله..

إن أهل الكتاب يعلمون جيداً هذه الحقيقة في هذا الدين.. ويعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم.. وهم جيلاً بعد جيل يدرسون هذا الدين دراسة

دقيقة عميقة؛ وينقبون عن أسرار قوته؛ وعن مداخله إلى النفوس ومساربه فيها؛ ويبحثون بجد: كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة في هذا الدين؟ كيف يلقون بالريب والشكوك في قلوب أهله؟ كيف يُحرّفون الكلم فيه عن مواضعه؟ كيف يصدون أهله عن العلم الحقيقي به؟ كيف يُحولونه من حركة دافعة تحطم الباطل والجاهلية وتسترد سلطان الله في الأرض وتطارد المعتدين على هذا السلطان، وتجعل الدين كله لله.. إلى حركة ثقافية باردة، وإلى بحوث نظرية ميتة، وإلى جدل لاهوتي أو فقهي أو طائفي فارغ؟ كيف يفرغون مفهوماته في أوضاع وأنظمة وتصورات غريبة عنه مدمرة له، مع إيهام أهله أن عقيدتهم محترمة مصونة؟! كيف في النهاية يملأون فراغ العقيدة بتصورات أخرى ومفهومات أخرى واهتمامات أخرى، ليجهزوا على الجذور العاطفية الباقية من العقيدة الباهتة؟!.

إن أهل الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة؛ لا لأنهم يبحثون عن الحقيقة ـ كما يتوهم السُذَّج من أهل هذا الدين! ـ ولا لينصفوا هذا الدين وأَهْله ـ كما يتصور بعض المخدوعين حينما يرون اعترافاً من باحث أو مستشرق بجانب طيب في هذا الدين! ـ كلا إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة، لأنهم يبحثون عن مقتل لهذا الدين! لأنهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها أو يُمَيِّعوها! لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها! لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف يبني نفسه في النفوس لِيَبْنُوا على غراره التصورات المضادة التي يريدون ملء فراغ الناس بها!.

وهم من أجل هذه الأهداف والملابسات كلها يعرفونه كما يعرفون أبناءهم! ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ [البقرة: ١٤٦]..

ومن واجبنا نحن أن نعرف ذلك.. وأن نعرف معه أننا نحن الأَوْلى بأن نعرف ديننا كما نعرف أبناءنا!.

إن الواقع التاريخي من خلال أربعة عشر قرناً ينطق بحقيقة واحدة.. هذه هذه الحقيقة التي يقررها القرآن الكريم في هذه الآية: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾.. ولكن هذه الحقيقة تتضح في هذه الفترة وتتجلى بصورة خاصة..

إن البحوث التي تُكتب عن الإسلام في هذه الفترة تصدر بمعدل كتاب كل أسبوع؛ بلغة من اللغات الأجنبية.. وتنطق هذه البحوث بمدى معرفة أهل الكتاب بكل صغيرة وكبيرة عن طبيعة هذا الدين وتاريخه، ومصادر قوته، ووسائل مقاومته، وطرق إفساد توجيهه! ومعظمهم ـ بطبيعة الحال ـ لا يفصح عن نيته هذه؛ فهم يعلمون أن الهجوم الصريح على هذا الدين كان يثير حماسة الدفاع والمقاومة؛ وأن الحركات التي قامت لطرد الهجوم المسلح على هذا الدين ـ المُمَثَّل في الاستعمار ـ إنما كانت ترتكز على قاعدة من الوعي الديني أو على الأقل العاطفة الدينية؛ وأن استمرار الهجوم على الإسلام ـ ولو في الصورة الفكرية ـ سيظل يثير حماسة الدفاع والمقاومة! لذلك يلجأ معظمهم إلى طريقة أخبث.. يلجأ إلى إزجاء الثناء لهذا الدين، حتى يُنَوِّم المشاعر المُتَوفزة، ويُخدر الحماسة المُتَحَفِّزة، وينال ثقة القارىء واطمئنانه.. ثم يَضع السمّ في الكأس ويُقدّمها مُترعة.. هذا الدين نعم عظيم.. ولكنه ينبغي أن يتطور بمفهوماته ويتطور كذلك بتنظيماته ليجاري الحضارة «الإنسانية» الحديثة، وينبغي ألا يقف موقف المعارضة للتطورات التي وقعت في أوضاع المجتمع، وفي أشكال الحكم، وفي قيم الأخلاق!، وينبغي ـ في النهاية ـ أن يتمثل في صورة عقيدة في القلوب، ويَدَع الحياة الواقعية تنظمها نظريات وتجارب وأساليب الحضارة «الإنسانية» الحديثة!، ويقف فقط ليبارك ما تقرره الأرباب الأرضية من هذه التجارب والأساليب.. وبذلك يظل ديناً عظيماً..!.

وفي أثناء عرض مواضع القوة والعمق في هذا الدين ـ وهي ظاهرياً تبدو في صورة الإنصاف الخادع والثناء المُخَدّر ـ يقصد المؤلف قومه من

أهل الكتاب؛ لينبههم إلى خطورة هذا الدين، وإلى أسرار قوته؛ ويسير أمام الأجهزة المدمرة بهذا الضوء الكشّاف، ليُسَدّدوا ضرباتهم على الهدف. وليعرفوا هذا الدين كما يعرفون أبناءهم!.

إن أسرار هذا القرآن ستظل تتكشف لأصحابه، جديدة دائماً؛ كلما عاشوا في ظلاله؛ وهم يخوضون معركة العقيدة؛ ويتدبرون بوعي أحداث التاريخ؛ ويطالعون بوعي أحداث الحاضر. ويرون بنور الله. الذي يكشف الحق، وينير الطريق..

إن هذا الدين هو الرسالة الأخيرة، فهي الرسالة الشاملة، التي لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل.. ولقد كانت الرسالات قبلها رسالات محلية قومية محدودة بفترة من الزمان ـ ما بين عهدي رسولين ـ وكانت البشرية تخطو على هدى هذه الرسالات خطوات محدودة، تأهيلاً لها للرسالة الأخيرة. وكانت كل رسالة تتضمن تعديلاً وتحويراً في الشريعة يناسب تدرج البشرية. حتى إذا جاءت الرسالة الأخيرة جاءت كاملة في أصولها، قابلة للتطبيق المتجدد في فروعها، وجاءت للبشر جميعاً، لأنه ليست هنالك رسالات بعدها للأقوام والأجيال في كل مكان. وجاءت وفق الفطرة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعاً. ومن ثم حملها النبي الأمي الذي لم يدخل على فطرته الصافية ـ كما خرجت من يد الله ـ إلا تعليم الله. فلم تشب هذه الفطرة شائبة من تعليم الأرض ومن أفكار الناس! ليحمل رسالة الفطرة إلى فطرة الناس جميعاً: **﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو يحيي ويميت. فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، واتبعوه لعلكم تهتدون﴾** [الأعراف: ١٥٨]..

وهذه الآية التي يُؤمر فيها رسول الله ـ ﷺ ـ أن يواجه برسالته الناس جميعاً، هي آية مكية في سورة مكية.. وهي تجبه المزوّرين من أهل

الكتاب، الذين يزعمون أن محمداً ـ ﷺ ـ لم يكن يدور في خلده وهو في مكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهلها، وأنه إنما بدأ يفكر في أن يتجاوز بها قريشاً، ثم يجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب، ثم يجاوز بها الجزيرة العربية إلى ما وراءها.. كل أولئك بعد أن أغراه النجاح الذي ساقته إليه الظروف! وإن هي إلا فِرْية من ذيول الحرب التي شَنّوها قديماً على هذا الدين وأهله. وما يزالون ماضين فيها! وليست البلية في أن يرصد أهل الكتاب كيدهم كله لهذا الدين وأهله. وأن يكون «المستشرقون» الذين يكتبون مثل هذا الكذب هم طليعة الهجوم على هذا الدين وأهله.. إنما البلية الكبرى أن كثيراً من السُذَّج الأغرار ممن يُسَمُّون أنفسهم بالمسلمين يتخذون من هؤلاء المزوّرين على نبيهم ودينهم، المحاربين لهم ولعقيدتهم، أساتذة لهم، يتلقون عنهم في هذا الدين نفسه، ويستشهدون بما يكتبونه عن تاريخ هذا الدين وحقائقه، ثم يزعم هؤلاء السُّذَج الأغرار لأنفسهم أنهم «مثقفون»!.

وهذا النداء الأخير في هذه الآية يتضمن لفتات دقيقة ينبغي أن نقف أمامها لحظات:

ـ إنه يتضمن ابتداء ذلك الأمر بالإيمان بالله ورسوله.. وهو ما تتضمنه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، في صورة أخرى من صور هذا المضمون الذي لا يقوم بدونه إيمان ولا إسلام. ذلك أن هذا الأمر بالإيمان بالله سبقه في الآية التعريف بصفات الله تعالى: ﴿**الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو يحيي ويميت**﴾.. فالأمر بالإيمان بالله الذي هذه هي صفاته الحقة. كما سبقه التعريف برسالة النبي ـ ﷺ ـ إلى الناس جميعاً.

ـ ثم يتضمن ثانية أن النبي الأمي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يُؤمن بالله وكلماته.. ومع أن هذه بديهية، إلا أن هذه اللفتة لها مكانها ولها

قيمتها. فالدعوة لا بُدّ أن يسبقها إيمان الداعي بحقيقة ما يدعو إليه، ووضوحه في نفسه، ويقينه منه. لذلك يجيء وصف النبي المرسل إلى الناس جميعاً بأنه ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾.. وهو نفس ما يدعو الناس إليه ونَصّه..

ـ ثم يتضمن أخيراً لفتة إلى مقتضى هذا الإيمان الذي يدعوهم إليه. وهو اتِّباعه فيما يأمر به ويُشَرِّعه، واتباعه كذلك في سُنّته وعَمَله. وهو ما يقرره قول الله سبحانه: ﴿فاتبعوه لعلكم تهتدون﴾.. فليس هناك رجاء في أن يهتدي الناس بما يدعوهم إليه رسول الله ـ ﷺ ـ إلا باتباعه فيه. ولا يكفي أن يؤمنوا به في قلوبهم ما لم يتبع الإيمان الإتباع العملي.. وهو الإسلام..

إن هذا الدين يعلن عن طبيعته وعن حقيقته في كل مناسبة.. إنه ليس مجرد عقيدة تستكن في الضمير.. كما أنه كذلك ليس مجرد شعائر تُؤَدَّى وطقوس.. إنما هو الاتباع الكامل لرسول الله ـ ﷺ ـ فيما يُبَلّغه عن ربه، وفيما يُشرعه ويسنه.. والرسول لم يأمر الناس بالإيمان بالله ورسوله فحسب. ولم يأمرهم كذلك بالشعائر التعبدية فحسب. ولكنه أبلغهم شريعة الله في قوله وفعله. ولا رجاء في أن يهتدي الناس إلا إذا اتبعوه في هذا كله.. فهذا هو دين الله. وليس لهذا الدين من صورة أخرى إلا هذه الصورة التي تشير إليها هذه اللفتة: ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ بعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله.. ولو كان الأمر في هذا الدين أمر اعتقاد وكفى، لكان في قوله: ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ الكفاية!.

إن التوجهات القرآنية ترفع معالم الطريق أمام الأمة المسلمة تهتدي بها في طريقها الطويل الشاق، بين العداوات المتعددة المظاهر المتوحدة الطبيعة..

ويُبين القرآن بوضوح موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها ـ ﷺ ـ وللجماعة المسلمة

الناشئة على أساسها.. وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى..

لقد كان اليهود هم أول من اصطدم بالدعوة في المدينة؛ وكان لهذا الاصطدام أسبابه الكثيرة..

كان لليهود في يثرب مركز ممتاز بسبب أنهم أهل كتاب بين الأُميين من العرب ـ الأوس والخزرج ـ ومع أن مشركي العرب لم يظهروا ميلاً لاعتناق ديانة أهل الكتاب هؤلاء، إلا أنهم كانوا يَعدُّونهم أعلم منهم وأحكم بسبب ما لديهم من كتاب. ثم كان هنالك ظرف موات لليهود فيما بين الأوس والخزرج من فرقة وخصام ـ وهي البيئة التي يجد اليهود دائماً لهم فيها عملاً! ـ فلما أن جاء الإسلام سلبهم هذه المزايا جميعاً.. فلقد جاء بكتاب مُصدّق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه. ثم إنه أزال الفرقة التي كانوا يَنْفُذون من خلالها للدسّ والكَيد وجَرّ المغانم، ووحد الصف الإسلامي الذي ضم الأوس والخزرج، وقد أصبحوا منذ اليوم يُعْرَفون بالأنصار، إلى المهاجرين، وأَلّف منهم جميعاً ذلك المجتمع المسلم المتضامّ المتراصّ الذي لم تعهد له البشرية من قبل ولا من بعد نظيراً على الإطلاق.

ولقد كان اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأن فيهم الرسالة والكتاب. فكانوا يتطلعون أن يكون الرسول الأخير فيهم كما توقعوا دائماً. فلما أن جاء من العرب ظلوا يتوقعون أن يعتبرهم خارج نطاق دعوته، وأن يقصر الدعوة على الأميين من العرب! فلما وجدوه يدعوهم ـ أول من يدعو ـ إلى كتاب الله، بحكم أنهم أعرف به من المشركين، وأجدر بالاستجابة له من المشركين.. أخذتهم العزّة بالإثم، وعَدُّوا توجيه الدعوة إليهم إهانة واستطالة!.

ثم إنهم حسدوا النبي ـ ﷺ ـ حسداً شديدا. حسدوه مرتين: مرة لأن

الله اختاره وأنزل عليه الكتاب ـ وهم لم يكونوا يشكّون في صحته ـ وحسدوه لما لقيه من نجاح سريع شامل في محيط المدينة . .

على أنه كان هناك سبب آخر لحنقهم ولموقفهم من الإسلام موقف العداء والهجوم منذ الأيام الأولى : ذلك هو شعورهم بالخطر من عزلهم عن المجتمع المدني الذي كانوا يزاولون فيه القيادة العقلية والتجارة الرابحة والربا المُضَعّف! هذا أو يستجيبوا للدعوة الجديدة. ويذوبوا في المجتمع الإسلامي. وهما أمران ـ في تقديرهم ـ أحلاهما مرّ! .

لهذا كله وقف اليهود من الدعوة الإسلامية هذا الموقف الذي تصفه آيات القرآن الكريم، في تفصيل دقيق، نقتطف هنا بعض الآيات التي تشير إليه :

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون. وآمنوا بما أنزلتُ مُصَدّقاً لِمَا معكم. ولا تكونوا أول كافر به، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، وإياي فاتقون. ولا تَلبسوا الحق بالباطل وتَكتموا الحق وأنتم تعلمون. وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين. أتأمرون الناس بالبِرّ وتنسون أنفسكم؟ وأنتم تتلون الكتاب؟ أفلا تعقلون؟﴾ [البقرة: ٤٠ ـ ٤٤] . .

وبعد تذكيرهم طويلاً بمواقفهم مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ وجحودهم لنِعَم الله، وفُسوقهم عن كتابهم وشريعتهم. . ونَكثهم لعهد الله معهم. . جاء في سياق الخطاب لتحذير المسلمين منهم :

﴿أفتطمعون أن يُؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يُحرفونه من بعد ما عَقَلوه وهم يعلمون؟ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أَتُحدّثُونهم بما فتح الله عليكم ليُحاجُّوكم به عند ربكم؟ أفلا تعقلون؟﴾ [البقرة: ٧٥، ٧٦] . .

﴿وقالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة. قل: أَتَّخذتم عند الله عهداً فلن يُخلف الله عهده؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون؟﴾ [البقرة: ٨٠]..

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين﴾ [البقرة: ٨٩]..

﴿وإذا قيل لهم: آمنوا بما أَنزل الله. قالوا: نُؤمن بما أُنزل علينا، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مُصَدِّقاً لما معهم﴾ [البقرة: ٩١]..

﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مُصدّق لما معهم نَبذَ فريق من الذين أُوتوا الكتاب كتابَ الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ [البقرة: ١٠١].. ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ [البقرة: ١٠٥]..

﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ [البقرة: ١٠٩]..

﴿وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. تلك أمانيهم﴾..

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تَتَّبع مِلّتهم﴾ [البقرة: ١٢٠].. الخ.. الخ.

وكانت معجزة القرآن الخالدة أن صفتهم التي دَمَغَهم بها هي الصفة الملازمة لهم في كل أجيالهم من قبل الإسلام ومن بعده إلى يومنا هذا. مما جعل القرآن يُخاطبهم في عهد النبي ـ ﷺ ـ كما لو كانوا هم أنفسهم الذين كانوا على عهد موسى ـ عليه السلام ـ وعلى عهود خلفائه من أنبيائهم باعتبارهم جبلة واحدة. سماتهم هي هي، ودَورهم هو هو، وموقفهم من الحق والخَلْق موقفهم على مدار الزمان!.

ومن ثم يكثر الالتفات في القرآن من خطاب قوم موسى، إلى خطاب اليهود في المدينة، إلى خطاب أجيال بين هذين الجيلين. ومن ثم تبقى كلمات القرآن حية كأنما تواجه موقف الأمة المسلمة اليوم وموقف اليهود منها. وتتحدث عن استقبال يهود لهذه العقيدة ولهذه الدعوة اليوم وغداً كما استقبلتها بالأمس تماماً! وكأن هذه الكلمات الخالدة هي التنبيه الحاضر والتحذير الدائم للأمة المسلمة، تجاه أعدائها الذين واجهوا أسلافها بما يواجهونها اليوم به من دسّ وكَيد، وحرب مُنَوّعة المظاهر، مُتَحِدَة الحقيقة!.

لقد واجه القرآن الكريم بني إسرائيل، أولئك الذين واجهوا الدعوة في المدينة مواجهة نكرة؛ وقاوموها مقاومة خفية وظاهرة؛ وكادوا لها كيداً موصولاً، لم يفتر لحظة منذ أن ظهر الإسلام بالمدينة؛ وتبين لهم أنه في طريقه إلى الهيمنة على مقاليدها، وعزلهم من القيادة الأدبية والاقتصادية التي كانت لهم، مذ وَحَّد الأوس والخزرج، وسَدّ الثغرات التي كانت تنفذ منها يهود، وشرع لهم منهجاً مستقلاً، يقوم على أساس الكتاب الجديد..

هذه المعركة التي شنها اليهود على الإسلام والمسلمين منذ ذلك التاريخ البعيد ثم لم يخب أوارها حتى اللحظة الحاضرة، بنفس الوسائل، ونفس الأساليب، لا يتغير إلا شكلها؛ أما حقيقتها فباقية، وأما طبيعتها فواحدة، وذلك على الرغم من أن العالم كله كان يطاردهم من جهة إلى جهة، ومن قرن إلى قرن، فلا يجدون لهم صدراً حنوناً إلا في العالم الإسلامي المفتوح، الذي ينكر الاضطهادات الدينية والعنصرية، ويفتح أبوابه لكل مسالم لا يؤذي الإسلام ولا يكيد للمسلمين!.

الهتاف الأخير:

لقد كان من المنتظر أن يكون اليهود في المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة ويؤمن للرسول الجديد؛ مذ كان القرآن يُصدّق ما جاء في التوراة في عمومه؛ ومذ كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول، وعندهم

أوصافه في البشارات التي يتضمنها كتابهم؛ وهم كانوا يَستفتحون به على العرب المشركين.

إنها الجولة الواسعة مع بني إسرائيل في القرآن الكريم؛ بل الحملة الشاملة لكشف موقفهم وفضح كيدهم؛ بعد استنفاد كل وسائل الدعوة معهم لترغيبهم في الإسلام، والانضمام إلى موكب الإيمان بالدين الجديد.

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأوفوا بعهدي أُوفِ بعهدكم وإياي فارهبون. وآمنوا بما أنزلت مُصدّقاً لما معكم، ولا تكونوا أول كافر به، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، وإياي فاتقون..﴾ [البقرة: ٤٠ ـ ٤١]..

يبدأ هذا الدرس بنداء علوي جليل إلى بني إسرائيل، يُذَكِّرهم بنعمته ـ تعالى ـ عليهم ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفي بعهده معهم، وإلى تقواه وخشيته؛ يُمهّد بها لدعوتهم إلى الإيمان بما أنزله مصدقاً لما معهم. ويُنَدّد بموقفهم منه، وكفرهم به أول من يكفر!.

إن المستعرض لتاريخ بني إسرائيل ليأخذه العجب من فيض الآلاء التي أفاضها الله عليهم، ومن الجحود المنكر المتكرر الذي قابلوا به هذا الفيض المدرار. وهنا يُذكّرهم الله بنعمته التي أنعمها عليهم إجمالاً قبل البدء في تفصيل بعضها مما سيأتي. يُذكرهم بها ليدعوهم بعدها إلى الوفاء بعهدهم معه ـ سبحانه ـ كي يتم عليهم النعمة ويمدّ لهم في الآلاء:

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأوفوا بعهدي أُوفِ بعهدكم﴾..

فأي عهد هذا الذي يُشار إليه في هذا المقام؟ أهو العهد الأول، عهد الله لآدم: **﴿فإما يأتينكم مني هُدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الناس هم فيها خالدون﴾** [البقرة: ٣٨، ٣٩]..

أم هو العهد الكوني السابق على عهد الله هذا مع آدم. العهد المعقود بين فطرة الإنسان وبارئه: أن يعرفه ويعبده وحده لا شريك له. وهو العهد الذي لا يحتاج إلى بيان، ولا يحتاج إلى برهان، لأن فطرة الإنسان بذاتها تتجه إليه بأشواقها اللدنية، ولا يصدها عنه إلا الغواية والانحراف؟.

أم هو العهد الخاص الذي قطعه الله لإبراهيم جَدّ إسرائيل: ﴿**وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن، قال: إني جاعلك للناس إماماً، قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين**﴾ [البقرة: ١٢٤]..

أم هو العهد الخاص الذي قطعه الله على بني إسرائيل وقد رفع فوقهم الطُّور، وأَمَرهم أن يأخذوا ما فيه بقوة، والذي تقدم ذكره فيما سبق؟.

إن هذه العهود جميعاً إن هي إلا عهد واحد في صميمها. إنه العهد بين البارىء وعباده أن يُصْغوا قلوبهم إليه، وأن يُسلِّموا أنفسهم كلها له. وهذا الدين الواحد. وهذا هو الإسلام الذي جاء به الرسل جميعاً، وسار موكب الإيمان يحمله شعاراً له على مدار القرون.

ووفاء بهذا العهد يدعو الله بني إسرائيل أن يخافوه وَحْده وأن يُفردوه بالخشية: ﴿**وإياي فارهبون**﴾..

ووفاء بهذا العهد كذلك يدعو الله بني إسرائيل أن يؤمنوا بما أنزله على رسوله، مُصدّقاً لما معهم، وألَّا يُسارعوا إلى الكفر به، فيصبحوا أول الكافرين؛ وكان ينبغي أن يكونوا أول المؤمنين:

﴿**وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به**﴾ [البقرة: ٤١]..

فما الإسلام الذي جاء به محمد ـ ﷺ ـ إلا الدين الواحد الخالد. جاء به في صورته الأخيرة؛ وهو امتداد لرسالة الله، ولعهد الله منذ البشرية الأولى، يضم جناحيه على ما مضى، ويأخذ بيد البشرية فيما سيأتي؛ ويوحد

بين «العهد القديم»[1] و «العهد الجديد»[2].

ويضيف ما أراده الله من الخير والصلاح للبشرية في مستقبلها الطويل؛ ويجمع بذلك بين البشر كلهم إخوة متعارفين؛ يلتقون على عهد الله، ودين الله؛ لا يتفرقون شيعاً وأحزاباً، وأقواماً وأجناساً؛ ولكن يلتقون عباداً لله، مستمسكين جميعاً بعهده الذي لا يتبدل منذ فجر الحياة.

ويَنهىٰ الله بني إسرائيل أن يكون كفرهم بما أنزله مصدقاً لما معهم، شراء للدنيا بالآخرة، وإيثاراً لما بين أيديهم من مصالح خاصة لهم ـ وبخاصة أحبارهم الذين يخشون أن يُؤمنوا بالإسلام فيخسروا رياستهم، وما تدرّه عليهم من منافع وإتاوات ـ ويدعوهم إلى خشيته وحده وتقواه.. ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، وإياي فاتقون﴾ [البقرة: ٤١]..

والثمن والمال والكسب الدنيوي المادي.. كله شَنْشَنة يهود من قديم!! وقد يكون المقصود بالنهي هنا هو ما يكسبه رؤساؤهم من ثمن الخدمات الدينية والفتاوى المكذوبة، وتحريف الأحكام حتى لا تقع العقوبة على الأغنياء منهم والكبراء، كما ورد في مواضع أخرى، واستبقاء هذا كله في أيديهم بصدّ شعبهم كله عن الدخول في الإسلام، حيث تفلت منهم القيادة والرياسة..

على أن الدنيا كلها ـ كما قال الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم في تفسير هذه الآية ـ ثمن قليل: حين تقاس إلى الإيمان بآيات الله، وإلى عاقبة الإيمان في الآخرة عند الله.

ويمضي السياق يُحذّرهم ما كانوا يُزاولونه من تلبيس الحق بالباطل، وكتمان الحق وهم يعلمونه، بقصد بلبلة الأفكار في المجتمع المسلم، وإشاعة الشك والاضطراب:

---

(١) التوراة. (٢) الإنجيل.

http://al-maktabeh.com

﴿ولا تَلبسوا الحق بالباطل. وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ [البقرة: ٤٢]. .

فهو يُنَدِّد بتلبيسهم الحق بالباطل وكتمان الحق لِيُمَوِّهوا على الناس ـ وعلى المسلمين خاصة ـ ويُشيعوا الفتنة والبلبلة في الصفّ الإسلامي، والشك والارتياب في نفوس الداخلين في الإسلام الجديد. .

لقد زاول اليهود هذا التلبيس والتخليط وكتمان الحق في كل مناسبة عرضت لهم، كما فَصَّل القرآن في مواضع منه كثيرة؛ وكانوا دائماً عامل فتنة وبلبلة في المجتمع الإسلامي، وعامل اضطراب وخلخلة في الصف المسلم. وسيأتي من أمثلة هذا التلبيس الشيء الكثير!.

ثم يدعوهم إلى الاندماج في موكب الإيمان، والدخول في الصف، وأداء عباداته المفروضة، وترك هذه العزلة والتعصب الذميم، وهو ما عرفت به يهود من قديم: ﴿وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، واركعوا مع الراكعين﴾ [البقرة: ٤٣]. .

ثم ينكر عليهم ـ وبخاصة أحبارهم ـ أن يكونوا من الدعاة إلى الإيمان بحكم أنهم أهل كتاب بين مشركين، وهم في الوقت ذاته يصدون قومهم عن الإيمان بدين الله، المُصَدِّق لدينهم القديم:

﴿أتأمرون الناس بالبِرّ وتَنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب؟ أفلا تعقلون؟﴾ [البقرة: ٤٤]. .

ومع أن هذا النص القرآني كان يواجه ابتداء حالة واقعة من بني إسرائيل، فإن في إيحائه للنفس البشرية، ولرجال الدين بصفة خاصة، دائم لا يخصّ قوماً دون قوم ولا يعني جيلاً دون جيل.

إن آفة رجال الدين ـ حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة ـ أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم؛ يأمرون بالخير ولا

يفعلونه؛ ويَدْعون إلى البر ويهملونه، ويحرفون الكَلِمَ عن مواضعه، ويُؤَوّلون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص، ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين، لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان! كما يفعل أحبار يهود[1]!.

ومن ثم يوجه القرآن اليهود الذي كان يواجههم أولاً، ويوجه الناس كلهم ضمناً، إلى الاستعانة بالصبر والاستعانة بالصلاة..

وفي حالة اليهود كان مطلوباً منهم أن يُؤثروا الحق الذي يعلمونه على المركز الخاص الذي يتمتعون به في المدينة، وعلى الثمن القليل ـ سواء كان ثمن الخدمات الدينية أو هو الدنيا كلها ـ وأن يدخلوا في موكب الإيمان وهم يَدْعون الناس إلى الإيمان! وكان هذا كله يقتضي قوة وشجاعة وتجرداً. واستعانة بالصبر والصلاة:

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة. وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين، الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، وأنهم إليه راجعون﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]..

والغالب أن الضمير في إنّها ضمير الشأن، أي أن هذه الدعوة إلى الاعتراف بالحق في وَجْه هذه العوامل كبيرة وصعبة وشاقة، إلا على الخاشعين الخاضعين لله، الشاعرين بخشيته وتقواه، الواثقين بلقائه والرجعة إليه عن يقين.

والاستعانة بالصبر تتكرر كثيراً؛ فهو الزاد الذي لا بد منه لمواجهة كل مشقة، وأوّل المشقات مشقة النزول عن القيادة والرياسة والنفع والكسب احتراماً للحق وإيثاراً له، واعترافاً بالحقيقة وخضوعاً لها.

فما الاستعانة بالصلاة؟.

---

(١) يراجع فصل «آفة الدين» في كتاب طريق الدعوة ـ الجزء الأول.

http://al-maktabeh.com

إن الصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب. صلة يستمد منها القلب قوة، وتحس فيها الروح صلة؛ وتجد فيها النفس زاداً أنفس من أعراض الحياة الدنيا. . ولقد كان رسول الله - ﷺ - إذا حَزَبَه أمر فَزِعَ إلى الصلاة، وهو الوثيق الصلة بربه الموصول الروح بالوحي والإلهام. . وما يزال هذا الينبوع الدافق في متناول كل مؤمن يريد زاداً للطريق، وريّاً في الهجير، ومدداً حين ينقطع المدد، ورصيداً حين ينفد الرصيد. .

واليقين بلقاء الله - واستعمال ظَنَّ ومشتقاتها في معنى اليقين كثير في القرآن وفي لغة العرب عامة - واليقين بالرجعة إليه وحده في كل الأمور. . هو مناط الصبر والاحتمال؛ وهو مناط التقوى والحساسية. كما أنه مناط الوزن الصحيح للقيم: قيم الدنيا وقيم الآخرة.

ومتى استقام الميزان في هذه القيم بدت الدنيا كلها ثمناً قليلاً، وعَرَضاً هزيلاً؛ وبَدَت الآخرة على حقيقتها، التي لا يتردد عاقل في اختيارها وإيثارها.

وكذلك يجد المُتَدبّر للقرآن في التوجيه الذي قصد به بنو إسرائيل أول مرة، توجيهاً دائماً مستمر الإيحاء للجميع. .

ثم يعود القرآن في تذكير بني إسرائيل بِنِعَم الله التي أسبغها عليهم في تاريخهم الطويل. مخاطباً الحاضرين منهم كما لو كانوا هم الذين تلقوا هذه النِعَم على عهد موسى - عليه السلام - وذلك باعتبار أنهم أمة واحدة متضامنة الأجيال، مُتّحدة الجِبِلّة. كما هم في حقيقة الأمر وفق ما بدا من صفاتهم ومواقفهم في جميع العصور!.

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأنّي فَضَّلتكم على العالمين. واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل منها شفاعة، ولا يُؤخذ منها عدل، ولا هم يُنصرون﴾ [البقرة: ٤٧، ٤٨]. .

وتَفْضِيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما بعدما عتوا عن أَمْر ربهم، وعصوا أنبياءهم، وجَحدوا نعمة الله عليهم، وتخلّوا عن التزاماتهم وعهدهم، فقد أعلن الله حُكْمَه عليهم باللعنة والغضب والذلّة والمسكنة، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد.

وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله وعهده؛ وإطماع لهم لينتهزوا الفرصة المتاحة على يدي الدعوة الإسلامية، فيعودوا إلى موكب الإيمان، وإلى عهد الله، شكراً على تفضيله لآبائهم، ورغبة في العودة إلى مقام التكريم الذي يناله المؤمنون..

ومع الإطماع في الفضل والنعمة يعاود تخويفهم باليوم الذي يُخاف، يوم لا يجدون من ينصرهم ويعصمهم من العذاب:

﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا يُقبل منها شفاعة، ولا يُؤخذ معها عَدْل، ولا هم يُنصرون﴾..

بعدئذ يمضي القرآن يُعدِّد آلاء الله على بني إسرائيل، وكيف استقبلوا هذه الآلاء، وكيف ظلموا وفَسقوا وانحرفوا عن الطرْيق. وفي مقدمة هذه النعم كانت نجاتهم من آل فرعون ومن العذاب الأليم.. يستحضر أمام خيالهم مشهد نجاتهم كأنه حاضر..

﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يُذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم. وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠]..

وقد وردت تفصيلات هذه النجاة فيما تقدم في موضعها في هذا الكتاب. أما هنا فهو مجرد التذكير لقوم يعرفون القصة من كتبهم وأقاصيصهم المحفوظة. إنما يُذكّرهم القرآن بها في صورة مشهد، ليستعيدوا تصورها،

ويتأثروا بهذا التَصَوُّر، وكأنهم هم الذين كانوا ينظرون إلى فَرَق البحر، ونجاة بني إسرائيل بقيادة موسى ـ عليه السلام ـ على مشهد منهم ومرأى! وخاصية الاستحياء هذه من خصائص التعبير القرآني العجيب.

وبعد التقرير الحاسم الجازم لاستقبال القوم لآلاء الله ونعمه ورسله بالجحود والكفر والعصيان ينتقل القرآن الكريم بالخطاب إلى بني إسرائيل. كأنما ليهتف بهم الهتاف الأخير، بعد مجابهتهم بتاريخهم المليء بالمعصية والانحراف والالتواء وجَدَلهم الطويل مع الحقّ المبين، واستعراض سلوكهم مع ربهم ومع أنبيائهم.. يجيء الالتفات إليهم، وهم على أبواب الإهمال والإغفال والتجريد النهائي من شرف الأمانة.. أمانة العقيدة التي نيطت بهم من قديم.. والقرآن يكرر لهم الدعوة ذاتها التي وجهها إليهم فيما سبق.. يا بني إسرائيل..

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي عليكم، وأني فضلتكم على العالمين. واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا يُقبل منها عدل، ولا تَنفعها شفاعة، ولا هم يُنصرون﴾ [البقرة: ١٢٢، ١٢٣]..

ومن رحمته تعالى ببني إسرائيل دعوتهم للالتحاق بموكب الهداية والإيمان بالرسالة الأخيرة.. لقد أكرمهم الله بهذا الهتاف المُتَكَرِّر. فهو يدعوهم إلى هذا الخير العظيم، ويُرغبهم في هذه الفرصة السانحة والأخيرة ليؤمنوا بخاتم الرسل، والله يريد بهم هذا الخير ليخلّصوا قلوبهم من ذلك الشرّ الأسود الذي سطّر حياتهم وتاريخهم الطويل..

إنها دعوة للرشد، وهتاف إلى الإيمان.. نعمة الإيمان التي ستكون خيراً لهم، فهو سبحانه يُحرّك قلوبهم ومشاعرهم للاستجابة لهذا الهتاف الأخير...

﴿ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم. منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ [آل عمران: ١١٠]..

وهو ترغيب لأهل الكتاب في الإيمان. فهو خير لهم. خير لهم في هذه الدنيا، يستعصمون به من الفرقة والهَلْهَلة التي كانوا عليها في تصوراتهم الاعتقادية، والتي ما تزال تحرمهم تجمع الشخصية. إذ تعجز هذه التصورات عن أن تكون قاعدة للنظام الاجتماعي لحياتهم، فتقوم أنظمتهم الاجتماعية ـ من ثم ـ على غير أساس، عرجاء أو معلقة في الهواء ككل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس اعتقادي شامل، وعلى تفسير كامل للوجود، ولغاية الوجود الإنساني، ومقام الإنسان في هذا الكون.. وخير لهم في الآخرة يَقِيهم ما ينتظر غير المؤمنين من مصير.

ثم هو بيان كذلك لحالهم، لا يبخس الصالحين منهم حقهم: **﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾**..

وقد آمن من أهل الكتاب جماعة وحَسُنَ إسلامهم. منهم عبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد، وثعلبة بن شعبة، وكعب بن مالك.. وإلى هؤلاء تشير الآية هنا بالإجمال ـ وفي آية أخرى بالتفصيل[1] ـ أما الأكثرون فقد فسقوا عن دين الله، حين لم يَفُوا بميثاق الله مع النبيين: أن يؤمن كل منهم بأخيه الذي يجيء بعده، وأن ينصره. وفسقوا عن دين الله وهم يأبون الاستسلام لإرادته في إرسال آخر الرسل من غير بني إسرائيل، واتباع هذا الرسول وطاعته والاحتكام إلى آخر شريعة من عند الله، أرادها للناس أجمعين.

ولما كان بعض المسلمين ما يزالون على صلات مُنَوّعة باليهود في المدينة، ولما كانت لليهود حتى ذلك الحين قوة ظاهرة: عسكرية واقتصادية يَحسب حسابها بعض المسلمين، فقد تَكَفَّل القرآن بتهوين شأن هؤلاء الفاسقين في نفوس المسلمين، وإبراز حقيقتهم الضعيفة بسبب كفرهم

---

(١) يراجع فصل «رحلة بني إسرائيل مع خطوات التاريخ» في هذا الكتاب.

وجرائمهم وعصيانهم، وتفرقهم شيعاً وفرقاً، وما كتب الله عليهم من الذِلّة والمسكنة:

﴿لن يضـــروكم إلا أَذى. وإن يُقــاتلوكم يُــولُّــوكم الأدبــار، ثم لا يُنصرون، ضُربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ـ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ـ وباءوا بغضب من الله، وضُربت عليهم المسكنة. ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيـات الله، ويقتلون الأنبياء بغيـر حق، ذلك بمـا عصوا وكـانوا يعتدون﴾ [آل عمران: ١١١ ـ ١١٢]. .

بهذا يضمن الله للمؤمنين النصر وسلامة العاقبة، ضمانة صريحة حيثما التقوا بأعدائهم هؤلاء، وهم معتصمون بدينهم وربهم في يقين:

﴿لن يضــروكم إلا أذى. وإن يقــاتلوكم يــولــوكـم الأدبــار ثم لا ينصرون﴾ . .

فلن يكون ضرراً عميقاً ولا أصيلاً يتناول أصل الدعوة، ولن يؤثر في كينونة الجماعة المسلمة، ولن يجليها من الأرض. . إنما هو الأذى العارض في الصدام، والألم الذاهب مع الأيام. . فأما حين يشتبكون مع المسلمين في قتال، فالهزيمة مكتـوبة عليهم ـ في النهـاية ـ والنصـر ليس لهم على المؤمنين، ولا ناصر لهم كـذلك ولا عـاصم من المؤمنين. . ذلك أنـه قد **﴿ضربت عليهم الذلة﴾** وكتبت لهم مصيراً. فهم في كـل أرض يذلّـون، لا تَعصمهم إلا ذمة الله وذمة المسلمين ـ حين يدخلون في ذمتهم فتعصم دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وتنيلهم الأمن والطمأنينة ـ ولم تعرف يهود منذ ذلـك الحين الأمن إلا في ذمة المسلمين. ولكن يهـود لـم تعاد أحـداً في الأرض عداءها للمسلمين! . . **﴿وباءوا بغضب من الله﴾** . . كأنما رجعوا من رحلتهم يحملون هذا الغضب: **﴿وضربت عليهم المسكنة﴾** . . تعيش في ضمائرهم وتكمن في مشاعرهم.

ولقد وقع ذلـك كله بعد نـزول هذه الآيـة. فما كـانت معركـة بين

المسلمين وأهل الكتاب إلا كتب الله فيها للمسلمين النصر ـ ما حافظوا على دينهم واستمسكوا بعقيدتهم، وأقاموا منهج الله في حياتهم ـ وكَتَب لأعدائهم المذلة والهوان إلا أن يعتصموا بذمة المسلمين أو أن يتخلى المسلمون عن دينهم.

إن القرآن الكريم يُبين ويشير إلى الحرب المشبوبة على الجماعة المسلمة، وعلى العقيدة الإسلامية، وعلى القيادة الإسلامية كذلك، من أهل الكتاب ـ وبخاصة اليهود ـ وحُلَفائِهم من المنافقين في المدينة، والمشركين في مكة، وما حولهما..

ونَلتقي كذلك بالمنهج الرباني.. وهو يأخذ بيد الجماعة المسلمة السائرة بين الأشواك الخبيثة، والأحابيل الماكرة، يقودها، ويوجهها، ويحذرها، ويكشف لها طبيعة أعدائها، وطبيعة المعركة التي تخوضها، وطبيعة الأرض التي تدور فيها المعركة، وزواياها وجوانبها الخبيثة. ومن علامات الإعجاز في هذا القرآن، أن النصوص القرآنية التي نزلت لتواجه معركة معينة، ما تزال هي بذاتها تُصوِّر طبيعة المعركة الدائمة المتجددة بين الجماعة المسلمة في كل مكان.. وعلى توالي الأجيال، وبين أعدائها التقليديين؛ الذين ما يزالون هُم هُم، وما تزال حوافزهم هي هي في أصلها، وإن اختلفت أشكالها وظواهرها وأسبابها القريبة، وما تزال أهدافهم هي هي في طبيعتها وإن اختلفت أدواتها ووسائلها، وما تزال زلزلة العقيدة، وزعزعة الصف، والتشكيك في القيادة الربانية، هي الأهداف التي تصوب إليها طلقاتهم الماكرة، للوصول من ورائها إلى الاستيلاء على مقاليد الجماعة المسلمة، والتصرف في مقاديرها، واستغلال أرضها وجهدها وغلاتها وقواها وطاقاتها، كما كانت يهود تستغل الأوس والخزرج في المدينة، قبل أن يعزّهم الله ويجمعهم بالإسلام، وبالقيادة المسلمة وبالمنهج الرباني.

وقد حفلت بعض سور القرآن ـ وخاصة سورتا البقرة وآل عمران ـ

بـالحديث عن تلك المؤامـرات التي لا تنقطع من اليهـود ضـد الجمـاعـة المسلمة، بالاتفاق مع المنافقين ومع المشركين. ونكتفي هنا بإثبات طرف من هذه الحملة العنيفة:

﴿ألم تَـرَ إلى الذين أوتـوا نصيباً من الكتـاب يشتـرون الضـلالـة، ويريدون أن تضلوا السبيل، والله أعلم بأعدائكم، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً..﴾ [النساء: ٤٤، ٤٥]..

﴿ألم تَـرَ إلى الـذين أوتـوا نصيبـاً من الكتـاب يؤمنـون بـالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. أولئـك الـذين لعنهم الله، ومن يلعن الله فـلن تجـد لـه نـصيـراً..﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٢]..

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يُفرّقوا بين الله ورُسله، ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقاً، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١]..

ومن هذه المقتطفات وأمثالها في القرآن تتبين بعض أفاعيل اليهود، التي يتصدى لها القرآن بالكشف والتنديد، وبـالتكذيب والتفنيـد.. وهذه الحملة، وتسمية اليهود فيها بالكافرين، ووصفهم بأنهم «أعداء»، تَشِي بشدّة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من هذه الأفاعيل، وبضرورة التعرض لها بالتفنيد والتكذيب، وكشف ما وراءها من أهداف خبيثة، وبواعث خبيثة، من هذه الجبلة الخبيثة؛ التي لم تستسلم أبداً للهُدى في تاريخها الطويل؛ ولم تستقم على الهدى إلا ريثما تنحرف وتقتل أنبياءها بغير الحق. والتي كان يدفعها الحقد والحسد للنبي ـ ﷺ ـ أَنْ آتاه الله الرسالة ـ وهو من غيرهم ـ وللمسلمين أن جمعهم الله على الهدى؛ فتكيد لهم هـذا الكيد الـذي لم ينقطع منذ أن اقتحم الإسلام المدينة عليهم، إلى يومنا هذا. والذي ما يزال

هو هو اليوم وغداً يَـتَلَقَّى كل تَجَمُّع إسلامي، وكل حركة إسلامية، وكل بعث إسلامي، على مدار القرون!.

ولقد كان التشكيك في نبوة محمد - ﷺ - ورسالته، هو الهدف الأول لحملات اليهود؛ الذي يسهل بعد بلوغه تحويل المسلمين عن قيادتهم الأمينة - بعد تحويلهم عن عقيدتهم القويمة. ومن ثم يسهل تفتيت الصف المسلم، وإيهان تماسكه. فهذا التماسك حول العقيدة القويمة والقيادة الأمينة، هو الذي يتعب اليهود وأعداء الجماعة المسلمة - في كل زمان - وهو الذي يكلفهم الجهد والمشقة. ومن ثم تَتَّجِه جهودهم أولاً لتحطيمه. وتسليم مقادة المسلمين إلى الهوى والجاهلية من جديد!.

ومن ثم نجد في القرآن بياناً للحقيقة البسيطة في رسالة النبي - ﷺ - فهي ليست بِدعاً من الرسالات؛ ولا غريبة من الغرائب، التي لا عهد للأرض بها؛ أو لا عهد بها لبني إسرائيل أنفسهم. إنما هي حلقة من سلسلة الحجة التي يأخذها الله على العِبَاد قبل الحساب. فقد أوحى إليه كما أوحى إلى الرسل من قبله. وقد آتاه الله النبوة والحكم، كما آتى أنبياء بني إسرائيل! فلا غرابة في رسالته، ولا غرابة في قيادته، ولا غرابة في حاكميته. وكلها مألوف في عالم الرسالات. وكل تعلات بني إسرائيل في هذا الأمر كاذبة، وكل شبهاتهم كذلك باطلة. ولهم سوابق مثلها مع نبيهم الأكبر موسى - عليه السلام -، ومع أنبيائهم من بعده، وبخاصة مع عيسى - عليه السلام -، ومن ثم لا يجوز أن يلقي بَالَهُ إليها أَحَدٌ من المسلمين.

كشف العداء وتحديد الخطوط:

يتحدث القرآن عن بداية المعركة مع المعسكرات المعادية المتربصة بالجماعة الإسلامية الناشئة في المدينة:

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، يشترون الضلالة، ويريدون أن تضلوا السبيل؟ والله أعلم بأعدائكم..﴾ [النساء: ٤٤]..

في هذا الدرس تعجيب من حال اليهود وتصرفاتهم في مواجهة الدين الجديد والجماعة التي تمثله.

إنه التعجيب الأول ـ من سلسلة التعجيبات الكثيرة ـ من موقف أهل الكتاب ـ من اليهود ـ يُوجّه الخطاب فيه إلى الرسول ـ ﷺ ـ أو إلى كل من يرى هذا الموقف العجيب المستنكر..

لقد كان من شأن الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب.. الهداية.. فقد آتاهم الله التوراة، على يدي موسى ـ عليه السلام ـ، لتكون هداية لهم من ضلالتهم الأولى.. ولكنهم يَدَعون هذا النصيب. يَدَعون الهداية. ويشترون الضلالة! والتعبير بالشراء يعني القصد والنية في المبادلة! ففي أيديهم الهدى ولكنهم يتركونه ويأخذون الضلالة. فكأنما هي صفقة عن علم وعن قصد وعمد. لا عن جهل أو خطأ أو سهو! وهو أمر عجيب مستنكر، يستحق التعجيب منه والاستنكار.

ولكنهم لا يقفون عند هذا الأمر العجيب المُسْتَنكَر. بل هم يريدون أن يُضلُّوا المهتدين.. يريدون أن يُضلُّوا المسلمين.. بشتى الوسائل وشتى الطرق.. فهم لا يكتفون بضلال أنفسهم الذي يشترونه؛ بل يحاولون طمس معالم الهدى من حولهم؛ حتى لا يكون هناك هدى ولا مهتدون!.

وفي هذه اللمسة الأولى، والثانية، تنبيه للمسلمين وتحذير؛ من ألاعيب اليهود وتدبيرهم.. ويا له من تدبير! وإثارة كذلك لنفوس المسلمين ضد الذين يريدون لهم الضلالة بعد الهدى.

وقد كان المسلمون يَعْتَزُّون بهذا الهدى؛ ويعادون من يحاول رَدّهم عنه إلى جاهليتهم[1] التي عرفوها وعرفوا الإسلام. فكرهوها وأحبوا الإسلام! وكرهوا كل من يحاول ردهم إليها في قليل أو كثير. وكان القرآن يخاطبهم هكذا، عن علم من الله، بما في صدورهم من هذا الأمر الكبير.

ومن ثم يُعقّب على إبراز هذه المحاولة من اليهود، بالتصريح بأن هؤلاء أعداء للمسلمين. وبتطمين الجماعة المسلمة إلى ولاية الله ونصره، إزاء تلك المحاولة:

﴿والله أعلم بأعدائكم. وكفى بالله ولياً. وكفى بالله نصيراً﴾ [النساء: ٤٥]..

وهكذا يصرح العداء ويستعلن، بين الجماعة المسلمة واليهود في المدينة وتتحدد الخطوط..

وقد كان التعجيب من أهل الكتاب عامة ـ وكان المفهوم أن المعنيين هم يهود المدينة ـ ولكن السياق لا يكتفي بهذا المفهوم. بل يمضي فَيُعَيِّن اليهود. ثم يصف حالهم وتصرفاتهم وسوء أدبهم مع الرسول ـ ﷺ ـ في هذه الفترة التي يبدو أنها كانت في أوائل سنوات الهجرة، قبل أن تَخضر شوكتهم في المدينة:

﴿من الذين هادوا، يُحرفون الكلم عن مواضعه؛ ويقولون: سمعنا وعصينا. واسمع ـ غير مسمع ـ وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين﴾ [النساء: ٤٦]..

لقد بلغ من التوائهم، وسوء أدبهم مع الله عز وجل: أن يحرفوا الكلام عن المقصود به. والأرجح أن ذلك يعني تأويلهم لعبارات التوراة بغير المقصود منها. وذلك كي ينفوا ما فيها من دلائل على الرسالة الأخيرة؛ ومن أحكام كذلك وتشريعات يصدقها الكتاب الأخير؛ وتدل وحدتها في الكتابين على المصدر الواحد؛ وتبعاً لهذا على صحة رسالة النبي ـ ﷺ ـ، وتحريف الكَلِم عن المقصود به، ليوافق الأهواء، ظاهرة ملحوظة في كل رجال دين ينحرفون عن دينهم، ويتخذونه حرفة وصناعة، يوافقون به أهواء ذوي السلطان في كل زمان؛ وأهواء الجماهير التي تريد التفلُّت من الدين.. واليهود أبرع من يصنع ذلك. وإن كان في زماننا هذا من محترفي دين

المسلمين من يُنافسون ـ في هذه الخصلة ـ اليهود!.

ثم بلغ من التوائهم وسوء أدبهم مع رسول الله ـ ﷺ ـ أن يقولوا له: سمعنا يا محمد ما تقول. ولكننا عصينا! فلا نؤمن ولا نتبع ولا نطيع! ـ مما يدل على أن هذه الآيات نزلت في وقت مبكر، حيث كانت لليهود هذه الجرأة على مواجهة النبي ـ ﷺ ـ ثم يضيفون إلى التَبَجُّح سوء الأدب والخلق والالتواء أيضاً. إذ يقولون للرسول ـ ﷺ ـ: ﴿واسمع ـ غير مسمع ـ وراعنا﴾..

ففي ظاهر اللفظ أنهم يقولون: اسمع ـ غير مأمور بالسمع (وهي صيغة تأدب) ـ وراعنا: أي انظر إلينا نظرة رعاية لحالنا أو نظرة اهتمام لوضعنا. بما أنهم أهل كتاب، فلا ينبغي أن يُدْعَوا إلى الإسلام كالمشركين!.

أما في الليِّ الذي يلوونه، فهم يقصدون: اسمع ـ لا سمعت، ولا كنت سامعاً! ـ (أخزاهم الله). وراعنا يميلونها إلى وصف «الرعونة»! وهكذا.. تبجح وسوء أدب، والتواء ومداهنة، وتحريف للكلم عن مواضعه وعن معانيه..

إنها يهود!!!...

وبعد أن يحكي القرآن هذا عنهم، يقرر المنهج اللائق بأهل الكتاب؛ والأدب الجدير بمن أوتوا نصيباً منه. ويُطمعهم ـ بعد ذلك كله ـ في الهداية والجزاء الحسن والفضل والخير من الله. لو ثابوا إلى الطريق القويم. وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم. وأنها هكذا كانت وهكذا تكون:

﴿ولو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا، واسمع وانظرنا، لكان خيراً لهم وأقوم، ولكن لعنهم الله بكفرهم، فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ [النساء: ٤٦]..

فهم لا يواجهون الحق بهذه الصراحة وهذه النصاعة وهذه الاستقامة. ولو أنهم واجهوه هكذا بالألفاظ الصريحة التي لا التواء فيها:

﴿سمعنا وأطعنا، واسمع وانظرنا﴾. .

لكان هذا خيراً لهم، وأقوم لطبيعتهم وأنفسهم وحالهم. ولكن واقع الأمر أنهم ـ بسبب كفرهم ـ مطرودون من هداية الله. فلا يؤمن منهم إلا القليل.

وصدق قول الله. . فلم يدخل في الإسلام ـ في تاريخه الطويل ـ إلا القليل من اليهود. ممن قسم الله لهم الخير، وأراد لهم الهدى؛ باجتهادهم للخير وسعيهم للهدى. أما كتلة اليهود، فقد ظلت طوال أربعة عشر قرناً، حرباً على الإسلام والمسلمين. منذ أن جاورهم الإسلام في المدينة إلى اللحظة الحاضرة. وكيدهم للإسلام كان هو الكيد الواجب الذي لا ينقطع، العنيد الذي لا يكف، المُنَوّع الأشكال والألوان والفنون، منذ ذلك الحين! وما من كيد كاده أحد للإسلام في تاريخه كله وبما في ذلك كيد الصليبية العالمية والاستعمار بشتى أشكاله ـ إلا كان من ورائه اليهود. أو كان لليهود فيه نصيب!.

بعد ذلك يتجه الخطاب إلى الذين أوتوا الكتاب ـ اليهود ـ دعوة إلى الكتاب المصدق لما بين أيديهم؛ وتهديداً لهم بالمسخ واللعن المتوقعين من وراء عنادهم وأفاعيلهم. ودمغاً لهم بالشرك والانحراف عن التوحيد الخالص، الذي عليه دينهم، والله لا يغفر أن يشرك به. . وفي الوقت ذاته بيان عام لحدود المغفرة الواسعة؛ وبشاعة الشرك حتى إنّه ليخرج من هذه الحدود:

﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا، مصدقاً لما معكم. . ﴾ [النساء: ٤٧]. .

إنه نداء لهم بالصفة التي كان من شأنها أن يكونوا أول المستجيبين؛ وبالسبب الذي كان من شأنه أن يكونوا أول المسلمين. . فهم أوتوا الكتاب، فليس غريباً عليهم هذا الهدى. والله الذي آتاهم الكتاب هو الذي يدعوهم

إلى الإيمان بما أُنزل مُصدقاً لما معهم. فليس غريباً عليهم كذلك، وهو مُصدّق لما معهم. .

ولو كان الإيمان بالبينة. أو بالأسباب الظاهرة. لآمنت يهود أول من آمن. ولكن يهود كانت لها مصالح ومطامح. وكانت لها أحقاد وعناد. وكانت هي بِطَبْعِها منحرفة صلبة الرقبة. . كما تعبر عنهم التوراة بأنهم: «شعب صلب الرقبة!». . ومن ثم لم تؤمن. ومن ثم يجيئها التهديد العنيف القاسي: ﴿**من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها. أو نلعنهم كما لَعَنَّا أصحاب السبت. وكان أَمْر الله مفعولاً**﴾ [النساء: ٤٧]. .

وطمس الوجوه إزالة معالمها المميزة لآدميتها؛ وردها على أدبارها، دفعها لأن تمشي القهقرى. . وقد يكون المقصود هو التهديد بمعناه المادي؛ الذي يفقدهم آدميتهم ويردهم يمشون على أدبارهم؛ ويكون كذلك اللعن الذي أصاب أصحاب السبت (وهم الذين احتالوا على صيد السمك يوم السبت، وهو محرم عليهم في شريعتهم) هو مسخهم بالفعل قردة وخنازير. كما قد يكون المقصود طمس معالم الهدى والبصيرة في نفوسهم، وردهم إلى كفرهم وجاهليتهم، قبل أن يؤتيهم الله الكتاب. والكفر بعد الإيمان، والهدى بعد الضلال، طمس للوجوه والبصائر، وارتداد على الأدبار دونه كل ارتداد.

وسواء كان هذا هو المقصود أو ذاك. . فهو التهديد الرعيب العنيف، الذي يليق بطبيعة يهود الجاسية الغليظة؛ كما يليق بفعالهم اللئيمة الخبيثة!.

وقد كان ممن ارتدع بهذا التهديد: كعب الأحبار فأسلم:

أَخْرج ابن أبي حاتم: حدثنا أبي. حدثنا ابن نفيل. حدثنا عمرو بن واقد، عن يونس بن جليس، عن أبي إدريس عائذ الله الخولاني، قال: كان أبو مسلم الخليلي مُعَلّم كعب. وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فبعثه إليه ينظر: أهو هو؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة. فإذا

تال يقرأ القرآن يقول: ﴿**يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم، من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها. .**﴾ فبادرت الماء فاغتسلت، وإني لأَمَسّ وجهي مخافة أن أُطمس! ثم أسلمت(١).

والتعقيب على هذا التهديد: ﴿**وكان أمر الله مفعولاً**﴾. . فيه توكيد للتهديد، يناسب كذلك طبيعة اليهود!.

ثم يجيء تعقيب يتضمن تهديداً آخر في الآخرة. تهديداً بعدم المغفرة لجريمة الشرك، مع فتح أبواب الرحمة الإلهية كلها لما دون ذلك من الذنوب:

﴿**إن الله لا يغفر أن يُشرك به؛ ويغفر ما دون ذلك ـ لمن يشاء ـ ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً**﴾ [النساء: ٤٨]. .

وسياق الآية هكذا يتضمن اتهام اليهود بالشرك؛ ودعوتهم إلى الإيمان الخالص والتوحيد. ولا يذكر هنا القول أو الفعل الذي يعده عليهم شركاً. .

وقد ورد في مواضع أخرى تفصيل لهذا: فقد روى القرآن عنهم قولهم: ﴿**عُزيز ابن الله**﴾ [التوبة: ٣٠]. . لقول النصارى: ﴿**المسيح ابن الله**﴾ [التوبة: ٣٠]. . وهو شرك لا شك فيه! كذلك روى عن هؤلاء وهؤلاء أنهم ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾ [التوبة: ٣١]. . وهم لم يكونوا يعبدون الأحبار والرهبان. إنما كانوا ـ فقط ـ يُقرُّون لهم بحق التشريع. حق التحليل والتحريم. الحق الخاص بالله، والذي هو من خصائص الألوهية. ومن ثم اعتبرهم القرآن مشركين. . ولهذا الاعتبار قيمة خاصة في التصور الإسلامي الصحيح لحد الإسلام وشرط الإيمان.

وعلى أية حال فاليهود على عهد الرسالة المحمدية كانت عقائدهم في

---

(١) المشهور أن كعباً أسلم في أيام عمر بن الخطاب. وهناك رواية أخرى أخرجها ابن جرير عن إسلامه في أيام عمر لعلها الأوثق. . وهي تبني إسلامه كذلك على سماعه لهذه الآية.

الجزيرة حافلة بالوثنيات، منحرفة عن التوحيد. والتهديد هنا مُوَجّه إليهم بأن الله يغفر ما دون الشرك ـ لمن يشاء ـ ولكنه لا يتسامح في إثم الشرك العظيم. ولا مغفرة عنده لمن لقيه مشركاً به؛ لم يرجع في الدنيا عن شركه.

ويمضي القرآن الكريم في فضح أفاعيل اليهود، وكشف المكر السيء، والكيد الخبيث، الذي كانوا يزاولونه لتقطيع حبل الله بين قلوب المؤمنين في المدينة. ومن ثم يناشد العصبة المسلمة للاعتصام بحبل الله المتين.. **﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداءً، فألَّفَ بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً. وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها. كذلك يُبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾** [آل عمران: ١٠٣]..

إن الأخوة تنبثق في العقيدة من التقوى والإسلام.. أساسها الاعتصام بحبل الله ـ أي عهده ونهجه ودينه ـ وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، وعلى أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة!.

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾..

هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى. وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائماً. وهو يذكرهم هذه النعمة. يذكرهم كيف كانوا في الجاهلية «أعداء».. وما كان أعدى من الأوس والخزرج في المدينة أحد. وهما الحيان العربيان في يثرب. يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحَيَّيْن جميعاً. ومن ثم تجد يهود مجالها الصالح الذي لا تعمل إلا فيه، ولا تعيش إلا معه. فألَّفَ الله بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام.. وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب

المتنافرة.. وما كان إلا حبل الله الذي يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة الله إخواناً.

وما يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة في الله، تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية، والثارات القبلية، والأطماع الشخصية والرايات العنصرية. ويتجمع الصف تحت لواء الله الكبير المتعال..

﴿واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء، فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾..

ويذكرهم كذلك نعمته عليهم في إنقاذهم من النار التي كانوا على وشك أن يقعوا فيها، إنقاذهم من النار بهدايتهم إلى الاعتصام بحبل الله ـ الركيزة الأولى ـ وبالتأليف بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً ـ الركيزة الثانية ـ:

﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾..

والنص القرآني يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط: «القلب». فلا يقول: فَأَلَّفَ بينكم. إنما ينفذ إلى المكمن العميق: ﴿فألف بين قلوبكم﴾ فيصور القلوب حزمة مؤلفة متآلفة بيد الله وعلى عهده وميثاقه. كذلك يرسم النص صورة لما كانوا فيه. بل مشهداً حياً متحركاً تتحرك معه القلوب: ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾.. وبينما حركة السقوط في حفرة النار متوقعة، إذا بالقلوب ترى يد الله، وهي تدرك وتنقذ! وحبل الله وهو يمتد ويعصم. وصورة النجاة والخلاص بعد الخطر والترقب! وهو مشهد متحرك حَيٌّ تَتْبَعه القلوب واجفة خافقة، وتكاد العيون تتملاه من وراء الأجيال!.

وقد ذكر محمد بن إسحاق في السيرة وغيره أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج. وذلك أن رجلاً من اليهود مَرّ بملأ من الأوس والخزرج، فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلاً معه، وأمره أن

يجلس بينهم، ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم «بُعاث»! وتلك الحروب. ففعل. فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم، وغضب بعضهم على بعض، وتشاوروا، ونادوا بشعارهم. وطلبوا أسلحتهم. وَتَوَعَّدوا إلى «الحَرَّة»... فبلغ ذلك النبي ـ ﷺ ـ فأتاهم، فجعل يُسَكِّنهم، ويقول: «أَبِدَعْوى الجاهلية وأنا بين أظهركم» وتلا عليهم هذه الآية، فندموا على ما كان منهم، واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح ـ رضي الله عنهم ـ.

وكذلك بَيَّن الله لهم فاهتدوا، وحق فيهم قول الله ـ سبحانه ـ في التعقيب في الآية: **﴿كذلك يُبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾**..

فهذه صورة من جهد يهود لتقطيع حبل الله بين المتحابين فيه، القائمين على منهجه، لقيادة البشرية في طريقه.. هذه صورة من ذلك الكيد الذي تكيده يهود دائماً للجماعة المسلمة، كلما تجمعت على منهج الله واعتصمت بحبله. وهذه ثمرة من ثمار طاعة أهل الكتاب. كادت ترد المسلمين الأولين كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض. وتقطع بينهم حبل الله المتين، الذين يتآخون فيه مجتمعين. على أن مدلول الآية أوسع مدى من هذه الحادثة. فهي تشي ـ مع ما تقدم وما سيأتي من بيان ـ بأنه كانت هناك حركة دائبة من اليهود لتمزيق شمل الصف المسلم في المدينة، وإثارة الفتنة والفرقة بكل الوسائل. والتحذيرات القرآنية المتوالية من إطاعة أهل الكتاب، ومن الاستماع إلى كيدهم ودسهم، ومن التفرق كما تفرقوا.. هذه التحذيرات تَشي بشدة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من كيد اليهود في المدينة، ومن بذرهم لبذور الشقاق والشك والبلبلة باستمرار.. وهو دأب يهود في كل زمان، وهو عملها اليوم وغداً في الصف المسلم، في كل مكان!.

تاريخ عريق في الكفر والمعصية:

لقد أنزل الله على موسى ـ عليه السلام ـ التوراة، فهي ـ كما أنزلها ـ

http://al-maktabeh.com

كتاب الله الذي جاء لهداية بني إسرائيل: **﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور. يحكم بها النبيون الذين أسلموا، للذين هادوا، والربانيون والأحبار، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾** [المائدة: ٤٤]..

والشهادة لكتاب الله أن يؤديها الناس في صياغة حياتهم كلها وفق توجيهاته، كما يؤدوا له الشهادة في قومهم بإقامة شريعته بينهم، وأن يصونوا الحياة من الشر والفساد..

ولكن بني إسرائيل نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واشتروا الضلالة بالهدى، وحرفوا كلام الله عن مواضعه، وقست قلوبهم، وسارعوا في الكفر والمعصية والاعتداء، واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وعطّلوا شريعة الله في إقامة أحكامها في الحياة، وسكتوا عن المنكر لموافاة أهل الأهواء على حساب كتاب الله وآياته..

ويمضي القرآن الكريم في التأكيد على هذا المبدأ العظيم الذي جاءت به شرائع الله في النهي عن المنكر وذلك لصيانة المجتمع من أن يعبث به كل ذي هوى وكل ذي شهوة وكل ذي مصلحة.

ولا تفلح أمة لا تشتد في إنكار المنكر والنهي عنه، وتسترخي في أمر العقيدة.. وإلا ساد المنكر، وصارت الرذيلة والباطل والظلم والشر، تنمو كلها بسرعة لتغطي صفحة الحياة وصورة المجتمع، فيصبح المنكر معروفاً، والمعروف منكراً..

وفي ضوء هذا المبدأ العظيم لَعَن الله كفار بني إسرائيل الذين نكثوا عما استُحفظوا من كتاب الله، ونكلوا عن الشهادة لدينه.. **﴿لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يَتَناهون عن مُنكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾** [المائدة: ٧٨، ٧٩]..

وفي القرآن البيان والتقرير الشامل عن موقف أنبياء بني إسرائيل من كفار بني إسرائيل، على مدى التاريخ؛ مُمَثلاً في موقف داود وموقف عيسى ـ عليهما السلام ـ وكلاهما لعن كفار بني إسرائيل، واستجاب الله لهما بسبب عصيانهم وعدوانهم، وبسبب انحلالهم الاجتماعي، وسكوتهم على المنكر يفشو فيهم فلا يتناهون عنه، وبسبب تَولِّيهم الكافرين؛ فباءوا بالسخط واللعنة، وكتب عليهم الخلود في العذاب.

﴿لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم. ذلك بما عصوا وكان يعتدون﴾..

وهكذا يبدو أن تاريخ بني إسرائيل في الكفر والمعصية واللعنة عريق. وأن أنبياءهم الذين أُرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم، هم في النهاية الذين تَوَلّوا لعنتهم وطردهم من هداية الله؛ فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة على بني إسرائيل.

والذين كفروا من بني إسرائيل هم الذين حَرّفوا كتبهم المنزلة، وهم الذين لم يتحاكموا إلى شريعة الله ـ كما مرّ في المواضيع القرآنية المتعددة ـ وهم الذين نقضوا عهد الله معهم لينصرنّ كل رسول ويُعزرونه ويتبعونه:

﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾..

فهي المعصية والاعتداء؛ يتمثلان في كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء. وقد حفل تاريخ بني إسرائيل بالمعصية والاعتداء.. كما فصل الله في كتابه الكريم.

ولم تكن المعصية والاعتداء أعمالاً فردية في مجتمع بني إسرائيل. ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها؛ وأن يسكت عنها المجتمع. ولا يقابلها بالتناهي والنكير: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون!﴾.

إن العصيان والعدوان قد يقعان في كل مجتمع من الشريرين المفسدين. فالأرض لا تخلو من الشر؛ والمجتمع لا يخلو من الشذوذ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبح عُرفاً مصطلحاً عليه؛ وأن يصبحا سهلاً يجترىء عليه كل من يهم به..

وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات؛ ويصبح الجزاء على الشر رادعاً وجماعياً تقف الجماعة كلها دونه؛ وتوقع العقوبة الرادعة عليه.. عندئذ ينزوي الشر، وتنحسر دوافعه. وعندئذ يتماسك المجتمع فلا تنحل عُراه. وعندئذ ينحصر الفساد في أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع، ولا يسمح لها بالسيطرة؛ وعندئذ لا تشيع الفاحشة. ولا تصبح هي الطابع العام!.

والمنهج الإسلامي ـ بعرضه لهذه الظاهرة في المجتمع الإسرائيلي ـ في صورة الكراهية والتنديد، يريد للجماعة المسلمة أن يكون لها كيان حي متجمع صلب؛ يدفع كل بادرة من بوادر العدوان والمعصية، قبل أن تصبح ظاهرة عامة؛ ويريد للمجتمع الإسلامي أن يكون صلباً في الحق، وحَسّاساً تجاه الاعتداء عليه، ويريد للقائمين على الدين أن يؤدوا أمانتهم التي استحفظوا عليها، فيقفوا في وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء.. ولا يخافوا لومة لائم. سواء جاء هذا الشر من الحكام المُتَسلّطين بالحكم؛ أو الأغنياء المتسلطين بالمال؛ أو الأشرار المتسلطين بالأذى؛ أو الجماهير المتسلطة بالهوى. فمنهج الله هو منهج الله، والخارجون عليه عَلَو أم سفلوا سواء.

والإسلام يُشدد في الوفاء بهذه الأمانة؛ فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر إذا هي سكتت عليه؛ ويجعل الأمانة في عنق كل فرد، بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة.

روى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن عبد الله بن مسعود، قال: قال

neo-al-maktabeh.com

رسول الله - ﷺ -: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم. فضرب الله بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم: ﴿**ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون**﴾..

وكان الرسول - ﷺ - متكئاً فجلس، فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً».

وروى أبو داود - بإسناده - عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يَلْقَى الرجل، فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»، ثم قال: ﴿**لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم**﴾ إلى قوله: ﴿**فاسقون**﴾. ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً - أو تقصرنه على الحق قصراً -».

فليس هو مجرد الأمر والنهي، ثم تنتهي المسألة، إنما هو الإصرار، والمقاطعة، والكف بالقوة عن الشر والفساد والمعصية والاعتداء.

وروى مسلم - بإسناده - عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه. وذلك أضعف الإيمان».

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن عدي بن عميرة قال: - سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن الله لا يُعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم - وهم قادرون على أن ينكروه - فلا ينكرونه. فإذا فعلوا عذب الله العامة والخاصة».

وتتوارد النصوص القرآنية والنبوية تترى في هذا المعنى؛ لأن هذا التماسك في كيان الجماعة بحيث لا يقول أحد فيها ـ وهو يرى المنكر يقع من غيره ـ: وأنا ما لي؟ وهذه الحمية ضد الفساد في المجتمع، بحيث لا يقول أحد ـ وهو يرى الفساد يسري ويشيع ـ وماذا أصنع والتعرض للفساد يلحق بي الأذى؟! وهذه الغيرة على حرمات الله، والشعور بالتكليف المباشر بصيانتها والدفع عنها للنجاة من الله.. هذا كله هو قوام الجماعة المسلمة الذي لا قيام لها إلا به..

ويمضي القرآن في الحديث عن بني إسرائيل، فيصف حالهم على عهد الرسول ـ ﷺ ـ وهي حالهم في كل زمان وفي كل مكان، فهم يَتَولّون الذين كفروا، ويتناصرون معهم ضد الجماعة المسلمة. وعلة ذلك ـ مع أنهم أهل كتاب ـ أنهم لم يؤمنوا بالله والنبي وأنهم لم يدخلوا في دين الله الأخير. فهم غير مؤمنين. ولو كانوا مؤمنين ما تَوَلّوا الكافرين: **﴿ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم: أن سَخِطَ الله عليهم. وفي العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أُنزل إليه ما اتخذوهم أولياء. ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾** [المائدة: ٨٠، ٨١]..

وهذا التقرير كما ينطبق على حال اليهود ـ على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ ينطبق على حالهم اليوم وغداً، وفي كل حين. كذلك ينطبق على الفريق الآخر من أهل الكتاب في معظم أرجاء الأرض اليوم.. مما يدعو إلى التدبر العميق في أسرار هذا القرآن، وفي عجائبه المدخرة للجماعة المسلمة في كل آن..

لقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين؛ ويؤلبونهم على المسلمين، **﴿ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾**.. كما حكى عنهم القرآن الكريم. وقد تجلى هذا كله على أَتَمِّه

في غزوة الأحزاب، ومن قبلها ومن بعدها كذلك؛ إلى اللحظة الحاضرة. .

وما قامت إسرائيل في أرض فلسطين أخيراً إلا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد من الماديين الملحدين!.

فأما الفريق الآخر من أهل الكتاب، فهو يتعاون مع المادية الإلحادية كلما كان الأمر أمر المسلمين! وهم يتعاونون مع الوثنية المشركة كذلك، كلما كانت المعركة مع المسلمين! حتى و «المسلمون» لا يمثلون الإسلام في شيء، إلا في أنهم من ذراري قوم كانوا مسلمين! ولكنها الإحنة التي لا تهدأ على هذا الدين، ومَن ينتمون إليه، ولو كانوا في انتمائهم مُدّعين!.

وصدق الله العظيم: ﴿ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا﴾..

﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم: أن سخط الله عليهم، وفي العذاب هم خالدون﴾..

فهذه هي الحصيلة التي قدمتها لهم أنفسهم.. إنها سخط الله عليهم، وخلودهم في العذاب. فما أبأسها من حصيلة! وما أبأسها من تقدمة تقدمها لهم أنفسهم؛ ويا لها من ثمرة مُرّة. ثمرة توليهم الكافرين!.

فمن منا يسمع قول الله ـ سبحانه ـ عن القوم؟ فلا يتخذ من عند نفسه مقررات لم يأذن بها الله: في الولاء والتناصر بين أهل الدين؛ وأعدائه الذين يتولون الكافرين! وما الدافع؟ وما دافع القوم لتولي الذين كفروا؟ إنه عدم الإيمان بالله والنبي:

﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أُنزل إليهم ما اتخذوهم أولياء. ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾..

هذه هي العلة.. إنهم لم يؤمنوا بالله والنبي.. إن كثرتهم فاسقة.. إنهم يتجانسون ـ إذن ـ مع الذين كفروا في الشعور والوجهة؛ فلا جَرَم يتولون الذين كفروا ولا يتولون المؤمنين..

وتبرز لنا من هذا التعقيب القرآني ثلاث حقائق بارزة:

الحقيقــة الأولى: أن أهــل الكتــاب جميعــاً ـ إلا القلة التي آمنت بمحمد ﷺ ـ غير مؤمنين بالله. لأنهم لم يؤمنوا برسولـه الأخير. ولم ينفِ القـرآن الكريم عنهم الإيمـان بالنبي وحـده. بل نفى عنهم الإيمـان بالله كذلك..

وهو تقرير من الله ـ سبحانه ـ لا يقبل التأويل. مهما تكن دعواهم في الإيمان بالله.. وبخاصة إذا اعتبرنا ما هم عليه من انحراف التصور للحقيقة الإلهية كما سلف في آيات القرآن الكريم.

والحقيقة الثانية: أن أهل الكتاب جميعاً مدعوون إلى الـدخول في دين الله، على لسان محمد ـ ﷺ ـ فإن استجابوا فقد آمنوا، وأصبحوا على دين الله. وإن تَوَلّوا فهم كما وصفهم الله.

والحقيقة الثالثة: أنه لا ولاء ولا تنـاصر بينهم وبين المسلمين، في شأن من الشؤون. لأن كل شأن من شؤون الحياة عند المسلم خاضع لأمر الدين. ويبقى أن الإسلام يأمر أهله بالإحسان إلى أهل الكتاب في العشرة والسلوك؛ وبحماية أرواحهم وأموالهم وأعراضهم في دار الإسلام؛ وبتركهم إلى ما هم فيه من عقائدهم كائنة مـا تكون؛ وإلى دعـوتهم بالحسنى إلى الإسـلام ومجادلتهم بـالحسنى كذلـك. والوفـاء لهم ـ ما وفـوا ـ بعهـدهم ومسالمتهم للمسلمين.. وهم في أية حال ـ لا يُكْرَهون على شيء في أمر الدين..

هذا هو الإسلام.. في وضوحه ونصاعته. وفي بره وسماحته.. والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل..

فساد في الخلق والسلوك والعقيدة:

لقد حفلت آيات القرآن الكريم بأفاعيل اليهود الماكرة الخبيثة التي

كـانوا يـواجهون بهـا الرسـول ـ ﷺ ـ والجماعـة المسلمـة، ويكشف الله ـ سبحانه ـ حقيقـة القوم وقـد التوت قلوبهم وانحـرفت أرواحهم فانـطلقوا مسرعين في الكفر والفسوق والعصيان:

﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر، من الـذين قالوا: آمنا، بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ومن الذين هادوا.. سماعـون للكذب، سماعون لقوم آخرين لم يأتوك. يحرفون الكلم من بعض مواضعه يقـولـون: إن أوتيتم هـذا فخـذوه، وإن لم تؤتـوه فـاحـذروا..﴾ [المائدة: ٤١].

هذه الآيات تشي بأنها مما نزل في السنوات الأولى للهجرة؛ حيث كان اليهود ما يزالون بالمدينة ـ أي قبـل غزوة الأحـزاب على الأقل وقبـل التنكيل ببني قريظة إن لم يكن قبل ذلـك، أيام أن كـان هناك بنـو النضير وبنو قينقاع، وأولاهما أُجليت بعد أحد والثانية أُجليت قبلها ـ ففي هذه الفترة كان اليهود يقومون بمناوراتهم هذه؛ وكان المنافقون يأرزون إليهم كما تأرز الحَيَّـة إلى الجُحر! وكـان هؤلاء وهؤلاء يسارعـون في الكفـر؛ ولـو قـال المنـافقون بـأفواههم: آمنـا.. وكان فعلهم هـذا يُحزن الـرسـول ـ ﷺ ـ ويُؤذيه..

والله ـ سبحانه ـ يُعزي رسولـه ـ ﷺ ـ ويُواسيـه؛ ويُهون عليـه فعال القوم، ويكشف للجماعة المسلمة حقيقة المسارعين في الكفـر من هؤلاء وهؤلاء؛ ويُوجّه الرسول ـ ﷺ ـ إلى المنهج الذي يسلكه معهم حين يأتون إليـه متحاكمين؛ بعـدما يكشف لـه عما تـآمروا عليـه قبل أن يـأتـوا إليـه وما بيتوه..

رُوي أن هذه الآيات نزلت في قوم من اليهود ارتكبوا جرائم ـ تختلف الروايات في تحديدها ـ منها الزنا ومنها السرقة.. وهي من جرائم الحدود في التوراة؛ ولكن القوم كانوا قد اصطلحوا على غيرها؛ لأنهم لم يريدوا أن

يطبقوها على الشرفاء فيهم في مبدأ الأمر. ثم تهاونوا فيها بالقياس إلى الجميع، وأحلوا محلها عقوبات أخرى من عقوبات التعازير (كما صنع الذين يزعمون أنهم مسلمون في هذا الزمان!) . .

فلما وقعت منهم هذه الجرائم في عهد رسول الله - ﷺ - تآمروا على أن يستفتوه فيها. . فإذا أفتى لهم بالعقوبات التعزيرية المخففة عملوا بها، وكانت هذه حجة لهم عند الله. . فقد أفتاهم بها رسول الله! . . وإن حكم فيها بمثل ما عندهم في التوراة لم يأخذوا بحكمه. . فَدَسُّوا بعضهم يستفتيه. . ومن هنا حكاية قولهم: ﴿**إن أوتيتم هذا فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا**﴾ . .

وهكذا بلغ منهم العبث، وبلغ منهم الاستهتار، وبلغ منهم الالتواء أيضاً في التعامل مع الله والتعامل مع رسول الله - ﷺ - هذا المبلغ . .

وهي صورة تمثل أهل كل كتاب حين يطول عليهم الأمد، فتقسو قلوبهم، وتبرد فيها حرارة العقيدة، وتنطفىء شعلتها؛ ويصبح التفصي من هذه العقيدة وشرائعها وتكاليفها هو الهدف الذي يبحث له عن الوسائل؛ ويبحث له عن «الفتاوى» لعلها تجد مخرجاً وحيلة؛ أليس الشأن كذلك اليوم بين الذين يقولون: إنهم مسلمون: ﴿**من الذين قالوا: آمنا، بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم!**﴾ أليسوا يتلمسون الفتوى للاحتيال على الدين لا لتنفيذ الدين؟ أليسوا يتمسحون بالدين أحياناً لكي يقر لهم أهواءهم ويوقع بالموافقة عليها! .

فأما إن قال الدين كلمة الحق وحكم بالحق فلا حاجة بهم إليه. . ﴿**يقولون: إن أوتيتم هذا فخذوه؛ وإن لم تؤتوه فاحذروا**﴾! .

إنه الحال نفسه. ولعله لهذا كان الله - سبحانه - يقص قصة بني إسرائيل بهذا الإسهاب وهذا التفصيل، لتحذر منها أجيال «المسلمين» وينتبه الواعون منها لمزالق الطريق.

والله ـ سبحانه ـ يقول لرسوله في شأن هؤلاء المسارعين بالكفر، وفي شأن هؤلاء المتآمرين المبيتين لهذه الألاعيب: لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر. فهم يسلكون سبيل الفتنة، وهم واقعون فيها، وليس لك من الأمر شيء، وما أنت بمستطيع أن تدفع عنهم الفتنة وقد سلكوا طريقها ولجوا فيها:

﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾ [المائدة: ٤١]. . وهؤلاء دنست قلوبهم، فلم يرد الله أن يطهرها، وأصحابها يلجون في الدنس:

﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾. . وسيجزيهم بالخزي في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة: **﴿لهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾** [المائدة: ٤١]. . فلا عليك منهم، ولا يحزنك كفرهم، ولا تحفل بأمرهم. فهو أمر مقضي فيه.

ثم يمضي القرآن في بيان حال القوم، وما انتهوا إليه من فساد في الخلق والسلوك والعقيدة قبل أن يُبين لرسول الله ـ ﷺ ـ كيف يتعامل معهم إذا جاءوا إليه متحاكمين:

﴿سمَّاعون للكذب، أكَّالون للسُحت. فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم. وإن تعرض عنهم فلم يضروك شيئاً. وإن حكمت فاحكم بالقسط، إن الله يحب المقسطين﴾ [المائدة: ٤٢]. .

كرر أنهم سماعون للكذب، مما يشي بأن هذه أصبحت خصلة لهم. . تهش نفوسهم لسماع الكذب والباطل، وتنقبض لسماع الحق والصدق. .

وهذه طبيعة القلوب حين تفسد، وعادة الأرواح حين تنطمس. . ما أَحَبّ كلمة الباطل والزور في المجتمعات المنحرفة، وما أثقل كلمة الحق

والصدق في هذه المجتمعات.. وما أروج الباطل في هذه الآونة وما أشد بوار الحق في هذه الفترات الملعونة!.

وهؤلاء: سماعون للكذب. أكالون للسحت.. والسحت كل مال حرام.. والربا والرشوة وثمن الكلمة والفتوى! في مقدمة ما كانوا يأكلون، وفي مقدمة ما تأكله المجتمعات التي تنحرف عن منهج الله في كل زمان!.

وسمي الحرام سحتاً لأنه يقطع البركة ويمحقها. وما أشد انقطاع البركة وزوالها من المجتمعات المنحرفة. كما نرى ذلك بأعيننا في كل مجتمع شارد عن منهج الله وشريعة الله.

ويجعل الله الأمر للرسول بالخيار في أمرهم إذا جاءوه يطلبون حكمه - فإن شاء أعرض عنهم - ولن يضروه شيئاً - وإن شاء حكم بينهم. فإذا اختار أن يحكم حكم بينهم بالقسط، غير متأثر بأهوائهم، وغير متأثر كذلك بمسارعتهم في الكفر ومؤامراتهم ومناوراتهم..

والرسول - ﷺ - والحاكم المسلم، والقاضي المسلم، إنما يتعامل مع الله في هذا الشأن؛ وإنما يقوم بالقسط لله ﴿**إن الله يحب المقسطين**﴾..

فإذا ظلم الناس وإذا خانوا، وإذا انحرفوا، فالعدل فوق التأثر بكل ما يصدر منهم. لأنه ليس عدلاً لهم؛ وإنما هو لله.. وهذا هو الضمان الأكيد في شرع الإسلام وقضاء الإسلام، في كل مكان وفي كل زمان..

وهذا التخيير في أمر هؤلاء اليهود يدل على نزول هذا الحكم في وقت مبكر. إذ أنه بعد ذلك أصبح الحكم والتقاضي لشريعة الإسلام حتمياً. فدار الإسلام لا تطبق فيها إلا شريعة الله. وأهلها جميعاً ملزمون بالتحاكم إلى هذه الشريعة. مع اعتبار المبدأ الإسلامي الخاص بأهل الكتاب في المجتمع المسلم في دار الإسلام؛ وهو ألا يُجبروا إلا على ما هو وارد في شريعتهم من الأحكام؛ وعلى ما يختص بالنظام العام. فيباح لهم ما هو مباح في

شرائعهم، كامتلاك الخنزير، وأَكْله، وتملك الخمر وشربه دون بيعه للمسلم.

ويحرم عليهم التعامل الربوي لأنه محرم عندهم. وتوقع عليهم حدود الزنا والسرقة لأنها واردة في كتابهم وهكذا. كما توقع عليهم عقوبات الخروج على النظام العام والإفساد في الأرض كالمسلمين سواء، لأن هذا ضروري لِأَمْن دار الإسلام وأهلها جميعاً: مسلمين وغير مسلمين. فلا يتسامح فيها مع أحد من أهل دار الإسلام. .

وفي تلك الفترة التي كان الحكم فيها على التخيير، كانوا يأتون ببعض قضاياهم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، مثال ذلك ما رواه مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زَنَيا. فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتم. إن فيها الرَجْم. فَأَتَوا بالتوراة فنشروها. فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا آية الرجم. فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم! فأمر بهما رسول الله ـ ﷺ ـ فَرُجِمَا. فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة». (أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري).

ومثال ذلك ما رواه الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن ابن عباس قال:

«أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مئة وسق.

فكانوا على ذلك حتى قَدِمَ النبي ـ ﷺ ـ فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمئة وَسق فقالت الذليلة:

وهل كان في حَيّين دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد، دية بعضهم نصف دية بعض؟ إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا، وفرقاً منكم. فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم! فكادت الحرب تهيج بينهما.

ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ـ ﷺ ـ حَكَماً بينهم. ثم ذكرت العزيزة، فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، ولقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضَيْماً منا وقهراً لهم! فدسوا إلى محمد من يُخبر لكم رأيه.. إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تُحكِّموه! فدسوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله ـ ﷺ ـ فلما جاءوا رسول الله ـ ﷺ ـ أخبر الله رسوله ـ ﷺ ـ بأمرهم كله وما أرادوا. فأنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر**﴾ إلى قوله: ﴿**الفاسقون**﴾.. ففيهم والله أُنزل، وإياهم عَنَى الله عز وجل..».

(أخرجه أبو داود من حديث أبي الزناد عن أبيه).. وفي رواية لابن جرير عَيَّن فيها «العزيزة» وهي بنو النضير و«الذليلة» وهي بني قريظة.. مما يدل ـ كما قلنا ـ على أن هذه الآيات نزلت مبكرة قبل إجلائهم والتنكيل بهم..

وقد عقب السياق بسؤال استنكاري على موقف يهود ـ سواء كان في هذه القضية أو تلك فهو موقف عام منهم وتَصَرُّف مُطّرد ـ فقال:

﴿**وكيف يُحكِّمونك ـ وعندهم التوراة فيها حكم الله ـ ثم يتولون من بعد ذلك؟**﴾ [المائدة: ٤٣]..

فهي كبيرة مُستنكَرة أن يحكموا رسول الله ـ ﷺ ـ فيحكم بشريعة الله وحكم الله، وعندهم ـ إلى جانب هذا ـ التوراة فيها شريعة الله وحكمه؛ فيتطابق حكم رسول الله ـ ﷺ ـ وما عندهم في التوراة؛ مما جاء القرآن مصدقاً له ومهيمناً عليه.. ثم من بعد ذلك يتولون ويعرضون. سواء كان

التولي بعدم التزام الحكم، أو بعدم الرضى به..

ولا يكفي السياق بالاستنكار. ولكنه يقرر الحكم الإسلامي في مثل هذا الموقف: ﴿**وما أولئك بالمؤمنين**﴾ [المائدة: ٤٣]..

فما يمكن أن يجتمع الإيمان، وعدم تحكيم شريعة الله، أو عدم الرضى بحكم هذه الشريعة. والذين يزعمون لأنفسهم ولغيرهم أنهم «مؤمنون» ثم هم لا يُحكِّمون شريعة الله في حياتهم، أو لا يرضون حكمها إذا طُبِّق عليهم.. إنما يَدَّعون دعوى كاذبة؛ وإنما يصطدمون بهذا النص القاطع:

﴿**وما أولئك بمؤمنين**﴾.. فليس الأمر في هذا هو أمر عدم تحكيم شريعة الله من الحكام فحسب؛ بل إنه كذلك عدم الرضى بحكم الله من المحكومين، يخرجهم من دائرة الإيمان، مهما ادعوه باللسان.

ذلك كان حكم الله على المحكومين الذين لا يقبلون حكم شريعة الله في حياتهم.. فالآن يجيء حكمه ـ تعالى ـ على الحاكمين، الذين لا يحكمون بما أنزل الله الحكم الذي تتوافى جميع الديانات التي جاءت من عند الله عليه: ويبدأ بالتوراة:

﴿**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور. يحكم بها النبيون الذين أسلموا، للذين هادوا، والربانيون والأحبار، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء؛ فلا تخشوا الناس واخشون، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون. وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسن بالسن، والجروح قصاص. فمن تصدق به فهو كفارة له. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾ [المائدة: ٤٤، ٤٥]..

ويكشف القرآن الكريم عن حقيقة بواعث اليهود في مواجهة الرسول ـ ﷺ ـ والمؤمنين به:

﴿قل: يا أهل الكتاب، هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله، وما أُنـزل إلينا، وما أنزل من قبل، وأن أكثركم فاسقون؟ قل: هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله؟ من لَعَنه الله، وغَضِبَ عليه، وجعل منهم القردة والخنازير، وعَبَدَ الطاغوت.. أولئك شرٌ مكاناً، وأضلّ عن سواء السبيل﴾ [المائدة: ٥٩، ٦٠]..

إن هذا السؤال الذي وَجَّه الله رسوله إلى توجيهه لأهل الكتاب، هو من ناحية سؤال تقريري لإثبات ما هو واقع بالفعل منهم؛ وكشف حقيقة البواعث التي تدفع بهم إلى موقفهم من الجماعة المسلمة ودينها وصَلاتها.

وهو من ناحية سؤال استنكاري، لاستنكار هذا الواقع منهم، واستنكار البواعث الدافعة عليه.. وهو في الوقت ذاته توعية للمسلمين، وتنفير لهم من مولاة القوم.

إن أهل الكتاب لم يكونوا ينقمون على المسلمين في عهد الرسول ـ ﷺ ـ وهم لا ينقمون اليوم على طلائع البعث الإسلامي ـ إلا أن هؤلاء المسلمين يؤمنون بالله؛ وما أنزل الله إليهم من قرآن؛ وما صدق عليه قرآنهم مما أنزله الله من قبل من كتب أهل الكتاب..

إنهم يُعادون المسلمون لأنهم مسلمون! لأنهم ليسوا يهوداً ولا نصارى.. ولأن أهل الكتاب فاسقون منحرفون عما أنزله الله إليهم؛ وآية فسقهم وانحرافهم أنهم لا يؤمنون بالرسالة الأخيرة وهي مصدقة لما بين أيديهم ـ لا ما ابتدعوه وحرفوه ـ ولا يؤمنون بالرسول الأخير، وهو مصدق لما بين يديه؛ معظم لرسل الله أجمعين.

إنهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء، التي لم تضع أوزارها قط، ولم يخب أوارها طوال ألف وأربع مئة عام؛ منذ أن قام للمسلمين كيان في المدينة؛ وتميزت لهم شخصية؛ وأصبح لهم وجود مستقل؛ ناشىء عن

دينهم المستقل، وتصورهم المستقل، ونظامهم المستقل، في ظل منهج الله الفريد.

ونقف وقفة قصيرة في هذا الموضع عند قوله تعالى ـ بعد تقرير أن سبب النقمة هو الإيمان بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ـ أن بقية السبب:

﴿وأن أكثرهم فاسقون﴾..

فهذا الفسق هو شطر الباعث! فالفسق يحمل صاحبه على النقمة من المستقيم.. وهي قاعدة نفسية واقعية؛ تثبتها هذه اللفتة القرآنية العجيبة.. إن الذي يفسق عن الطريق وينحرف لا يطيق أن يرى المستقيم على النهج الملتزم.. إن وجوده يشعره دائماً بفسقه وانحرافه. إنه يتمثل له شاهداً قائماً على فسقه هو وانحرافه.. ومن ثم يكرهه وينقم عليه. يَكْرَه استقامته وينقم منه التزامه؛ ويسعى جاهداً لِجَرّه إلى طريقه؛ أو للقضاء عليه إذا استعصى قياده!.

إنها قاعدة مُطَّردة، تتجاوز موقف أهل الكتاب من الجماعة المسلمة في المدينة، إلى موقف أهل الكتاب عامة من المسلمين عامة.. إلى موقف كل فاسق مُنحرف من كل عصبة ملتزمة مستقيمة.. والحرب المشبوبة دائماً على الخَيِّرين في مجتمع الأشرار، وعلى المستقيمين في مجتمع الفاسقين، وعلى الملتزمين في مجتمع المنحرفين.. هذه الحرب أمر طبيعي يستند إلى هذه القاعدة التي يُصورها النص القرآني العجيب..

ولقد علم الله ـ سبحانه ـ أن الخير لا بد أن يَلْقَىٰ النقمة من الشر، وأن الحق لا بد أن يواجه العداء من الباطل، وأن الاستقامة لا بد أن تثير غيظ الفُسّاق، وأن الالتزام لا بد أن يجر حقد المنحرفين.

وعلم الله ـ سبحانه ـ أن لا بد للخير والحق والاستقامة والالتزام أن تدفع عن نفسها وأن تخوض المعركة الحتمية مع الشر والباطل والفسق والانحراف.

وإنها معركة لا خيار فيها، ولا يملك الحق ألا يخوضها في وجه الباطل. لأن الباطل سيهاجمه، ولا يملك الخير أن يتجنبها لأن الشر لا بد سيحاول سَحقه..

وغفلة ـ أي غفلة ـ أن يظن أصحاب الحق والخير والاستقامة والالتزام أنهم متروكون من الباطل والشر والفسق والانحراف؛ وأنهم يملكون تجنب المعركة؛ وأنه يمكن أن تقوم هناك مصالحة أو مهادنة!.

وخير لهم أن يستعدوا للمعركة المحتومة بالوعي والعدّة؛ من أن يستسلموا للوَهْم والخديعة.. وهم يومئذ مأكولون مأكون!.

ثم نمضي مع السياق القرآني في توجيه الله ـ سبحانه ـ لرسوله ـ ﷺ ـ لمواجهة أهل الكتاب، بعد تقرير بواعثهم واستنكار هذه البواعث في النقمة على المسلمين.. فإذا هو يجبههم بتاريخ لهم قديم، وشأن لهم مع ربّهم، وعقاب أليم:

﴿قل: هل أُنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله؟ من لَعَنه الله وغَضِبَ عليه، وجعل منهم القردة والخنازير، وعَبَد الطاغوت. أولئك شر مكاناً، وأضل عن سواء السبيل!﴾.

وهنا تطالعنا سحنة يهود، وتاريخ يهود!.

إنهم هم الذين لَعنهم الله وغَضِبَ عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير. إنهم هم الذين عبدوا الطاغوت..

وقصة لعنة الله لهم وغضبه عليهم واردة في مواضعها في هذا الكتاب؛ وكذلك قصة جعله منهم القردة والخنازير..

فأما قضية عبادتهم للطاغوت، فتحتاج إلى بيان هنا، لأنها لفتة ذات دلالة خاصة.

إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان الله، وكل حكم لا يقوم على شريعة الله، وكل عدوان يتجاوز الحق. .

والعدوان على سلطان الله وألوهيته وحاكميته هو أشنع العدوان وأشده طغياناً، وأدخله في معنى الطاغوت لفظاً ومعنى. .

وأهل الكتاب لم يعبدوا الأحبار والرهبان؛ ولكن اتبعوا شرعهم وتركوا شريعة الله. فَسمَّاهم الله عباداً لهم؛ وسماهم مشركين. .

وهذه اللفتة هنا ملحوظ فيها ذلك المعنى الدقيق. فهم عبدوا الطاغوت. . أي السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها. . وهم لم يعبدوها بمعنى السجود لها والركوع، ولكنهم عبدوها بمعنى الإتباع والطاعة. وهي عبادة تخرج صاحبها من عبادة الله ومن دين الله[1].

والله ـ سبحانه ـ يُوجّه رسوله ـ ﷺ ـ لمجابهة أهل الكتاب بهذا التاريخ؛ وبذلك الجزاء الذي استحقوه من الله على هذا التاريخ. . كأنما هم جيل واحد بما أنهم جِبلّة واحدة. . يوجهه ليقول لهم: إن هذا شر عاقبة:

﴿قل: هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله﴾. .

أي شر من نقمة أهل الكتاب على المسلمين، وما يكيدون لهم وما يؤذونهم بسبب إيمانهم. وأين نقمة البشر الضعاف من نقمة الله وعذابه؟، وحُكْمه على أهل الكتاب بالشر والضلال عن سواء السبيل: ﴿**أولئك شر مكاناً، وأضل عن سواء السبيل**﴾. .

ويمضي السياق في التنفير من موالاتهم بعرض صفاتهم وسماتهم

---

(١) يراجع كتاب: «المصطلحات الأربعة» للسيد أبي الأعلى المودودي. فصل «العبادة» ويراجع كتاب «هذا الدين» فصل: «منهج متفرد» ويراجع كتاب «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» فصل: التوحيد. ويراجع كتاب «طريق الدعوة» الجزء الثاني.

ـ بعد عرض تاريخهم وجزائهم ـ ويجيء التحذير والتوعية منهم بكشف ما يُبَيِّتون. . ويبرز اليهود كذلك في الصورة، لأن الحديث عن وقائع جارية، ومعظم الشرّ كان يجيء من قِبَل يهود:

﴿وإذا جاءوكم قالوا: آمنا. وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به. والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ [المائدة: ٦١]. .

إنها عبارات تُنشيء صوراً متحركة ومشاهد حية ـ على طريقة التعبير القرآنية الفريدة ـ ومن وراء القرون يملك قارىء القرآن أن يشهد ـ بعين التَصَوُّر ـ هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم القرآن من يهود ـ على الأرجح ـ فالسياق يتحدث عنهم، وإن كان من الجائز أنه يعني كذلك بعض المنافقين في المدينة. . يشهدهم يجيئون للمسلمين فيقولون: آمنا. . ويشهد في جعبتهم «الكفر» وهم يدخلون به ويخرجون؛ بينما ألسنتهم تقول غير ما في الجعبة من كفر داخلين خارجين!.

ولعلهم من يهود أولئك الذين يُبيتون البلبلة وهم يقولون بعضهم لبعض: آمنوا بهذا القرآن وَجْه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون. . أي لعل المسلمين يرجعون عن دينهم بسبب هذه البلبلة والتشكيك الخبيث اللئيم. . **﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾**.

يقولها الله ـ سبحانه ـ لأنها الحقيقة؛ ثم لكي يطمئن المؤمنون إلى كلاءة ربهم لهم، وحفظهم من كيد عدوهم؛ وإحاطته علماً بهذا الكيد المكتوم، ثم ليهدد أصحاب هذا الكيد لعلهم ينتهون!.

ويمضي السياق يرسم حركاتهم كأنها منظورة تشهد وتلحظ من خلال التعبير:

﴿وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان، وأكلهم السحت. لبئس ما كانوا يعملون﴾ [المائدة: ٦٢]. .

التصور الفاسد وسوء الأدب البذيء:

إن التصور الإسلامي عن الله ـ سبحانه ـ هو القاعدة الكبرى للإيمان، فهو الذي ينشىء الطمأنينة في الوجدان الإنساني؛ ويفيض بالسكينة على القلب البشري، فالربّ الإله في الإسلام هو الرحمن الرحيم بعباده، فهو لا يُدَبِّر لهم المكائد الانتقامية، كما تزعم الأساطير المزوّرة في «العهد القديم» كالذي جاء في أسطورة برج بابل في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين[1]..

والقرآن يستعرض لبعض أفاعيل يهود وأقاويلها. يبدو في سوء الأدب مع الله ـ سبحانه ـ بعد سوء الفعل مع المسلمين. وهم يبخلون بالوفاء بتعهداتهم المالية للرسول ـ ﷺ ـ ثم يزيدون فيقولون: ﴿**إن الله فقير ونحن أغنياء!**﴾ [آل عمران: ١٨١]..

ويبدو فيه التعلل الواهي، الذي يدفعون به دعوة الإسلام الموجهة إليهم؛ وكذب هذا التعلل، ومخالفته لواقعهم التاريخي المعروف.

هذا الواقع الذي ينضح بمخالفتهم لعهد الله معهم، وبكتمانهم لما أمرهم الله ببيانه من الحق، ونَبْذه وراء ظهورهم، وشرائهم به ثمناً قليلاً.

---

(١) «وكانت الأرض كلها لغة واحدة وكلاماً واحداً. وكان أنهم لما رحلوا من المشرق وجدوا بقعة في أرض شنعار فأقاموا هناك. وقال بعضهم لبعض: تعالوا نضع لبناً وننضجه طبخاً فكان لهم اللبن بدل الحجارة والحمر كان لهم بدل الطين. وقالوا: تعالوا نبني لنا مدينة وبرجاً رأسه إلى السماء ونُقم لنا اسماً كي لا نتبدد على وجه الأرض كلها. فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب: هو ذا هم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة وهذا ما أخذوا يفعلونه. والآن لا يكفون عما هُمو به حتى يصنعوه. هلم نهبط ونُبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض كلها وكفوا عن بناء المدينة. ولذلك سميت بابل لأن الرب هناك بلبل لغة الأرض كلها. ومن هناك شَتَّتهم الربّ على كل وجهها».

وبقتلهم أنبياءهم بغير حق، وقد جاءوهم بالخوارق التي طلبوها، وجاءوهم بالبينات فرفضوها.

وهذا الكشف المخجل لأفاعيل اليهود مع أنبيائهم، وأقاويلهم على ربهم، كان هو الأمر الذي يقتضيه سوء موقفهم من الجماعة المسلمة، وتأثير كيدهم ودسهم وإيذائهم ـ هم والمشركون ـ للمسلمين. كما كانت تقتضيه تربية الله للجماعة المسلمة تربية واعية؛ تُبَصِّرهم بما حولهم، وبمن حولهم؛ وتُعَرِّفهم طبيعة الأرض التي يعملون فيها، وطبيعة العقبات والفِخاخ المنصوبة لهم، وطبيعة الآلام والتضحيات المرصودة لهم في الطريق..

وقد كان الكيد اليهودي للجماعة المسلمة في المدينة أقسى وأخطر من عداوة المشركين لهم في مكة. ولعله ما يزال أخطر ما يرصد للجماعات المسلمة في كل مكان، على مدار التاريخ..

وهذا التوجيه الإلهي للجماعة المسلمة في المدينة ما يزال هو هو، قائماً اليوم وغداً، يُبصِّر كل جماعة مسلمة تعتزم سلوك الطريق، لإعادة نشأة الإسلام ولاستئناف حياة إسلامية في ظل الله.. يُبصِّرها بطبيعة أعدائها ـ وهم هم مشركين وملحدين وأهل كتاب ـ الصهيونية العالمية والصليبية العالمية والشيوعية! ـ ويُبصِّرها بطبيعة العقبات والفخاخ المرصودة في طريقها، وبطبيعة الآلام والتضحيات والأذى والابتلاء. ويُعلِّق قلوبها وأبصارها بما هنالك.. بما عند الله..

﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شر لهم، سَيُطَوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة. ولله ميراث السموات والأرض، والله بما تعملون خبير. لقد سمع الله قول الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء. سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقول ذوقوا عذاب الحريق..﴾ [آل عمران: ١٨٠، ١٨١]..

والظاهر أن الآيات في عمومها نزلت بمناسبة دعوة اليهود إلى الوفاء

بالتزاماتهم المالية الناشئة عن معاهدتهم مع الرسول ـ ﷺ ـ ودعوتهم كذلك إلى الإيمان بالرسول ـ ﷺ ـ والإنفاق في سبيل الله.

وقد نزل هذا التحذير التهديدي، مع فَضح تعلات اليهود في عدم الإيمان بمحمد ـ ﷺ ـ رداً على ما بدا من سوء أدبهم مع ربهم، ومن كذب تعلاتهم، ونزلت معه المواساة للرسول ـ ﷺ ـ عن تكذيبهم، بما وقع للرسل قبله مع أقوامهم. ومنهم أنبياء بني إسرائيل، الذين قتلوهم بعدما جاءوهم بالبينات والخوارق كما هو معروف في تاريخ بني إسرائيل:

﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شر لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة..﴾.

إن مدلول الآية عام. فهو يشمل اليهود الذين بخلوا بالوفاء بتعهداتهم، كما يشمل غيرهم ممن يبخلون بما آتاهم الله من فضله؛ ويحسبون أن هذا البخل خير لهم، يحفظ لهم أموالهم، فلا تذهب بالإنفاق.

والنص القرآني ينهاهم عن هذا الحسبان الكاذب؛ ويقرر أن ما كنزوه سيطوقونه يوم القيامة ناراً.. وهو تهديد مفزع..

والتعبير يزيد هذا البخل شناعة حين يذكر أنهم **﴿يبخلون بما آتاهم الله من فضله﴾**.. فهم لا يبخلون بمال أصيل لهم. فقد جاءوا إلى هذه الحياة لا يملكون شيئاً.. ولا جلودهم..! فآتاهم الله من فضله فأغناهم. حتى إذا طلب إليهم أن ينفقوا «من فضله» شيئاً لم يذكروا فضل الله عليهم. وبخلوا بالقليل، وحسبوا أن في كنزه خيراً لهم. وهو شر فظيع.

وهم ـ بعد هذا كله ـ ذاهبون وتاركوه وراءهم. فالله هو الوارث: **﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾**.. فهذا الكنز إلى أمد قصير. ثم يعود كله إلى الله. ولا يبقى لهم منه إلا القدر الذي أنفقوه ابتغاء مرضاته، فيبقى مدخراً لهم عنده، بدلاً من أن يطوقهم إياه يوم القيامة!.

ثم يندد باليهود الذين وجدوا في أيديهم المال ـ الذي آتاهم الله من فضله ـ فحسبوا أنفسهم أغنياء عن الله، لا حاجة بهم إلى جزائه، ولا إلى الأضعاف المضاعفة التي يَعِدُها لمن يبذل في سبيله ـ وهو ما يسميه تفضلاً منه ومِنّة إقراضاً له سبحانه ـ وقالوا في وقاحة: ما بال الله يطلب إلينا أن نُقرضه من مالنا. ويعطينا عليه الأضعاف المضاعفة، ويَنْهىٰ عن الربا والأضعاف المضاعفة؟! وهو تلاعب بالألفاظ ينم عن القحة وسوء الأدب في حق الله:

﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء. . ﴾.

وسوء تصور اليهود للحقيقة الإلهية شائع في كتبهم المحرفة. ولكن هذه تبلغ مبلغاً عظيماً من سوء التصور ومن سوء الأدب معاً. . ومن ثم يستحقون هذا التهديد المتلاحق: ﴿سنكتب ما قالوا﴾. .

لنحاسبهم عليه، فما هو بمتروك ولا منسي ولا مهمل. . وإلى جانبه تسجيل آثامهم السابقة ـ وهي آثام جنسهم وأجيالهم متضامنة فيه ـ فكلهم جبلة واحدة في المعصية والإثم: ﴿وقَتْلَهم الأنبياء بغير حق﴾. .

وقد حفظ تاريخ بني إسرائيل سلسلة أثيمة في قتل الأنبياء، آخرها محاولتهم قتل المسيح ـ عليه السلام ـ. وهم يزعمون أنهم قتلوه، متباهين بهذا الجرم العظيم. . !.

﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾. . .

والنص على «الحريق» هنا مقصود لتبشيع ذلك العذاب وتفظيعه. ولتجسيم مشهد العذاب بِهَوْلِه وتأججه وضرامه. . جزاء على الفعلة الشنيعة: قتل الأنبياء بغير حق. وجزاء على القولة الشنيعة: إن الله فقير ونحن أغنياء. .

﴿ذلك بما قدَّمت أيديكم﴾ [آل عمران: ١٨٢]. . جزاء وفاقاً،

لا ظلم فيه، ولا قسوة: **﴿وأن الله ليس بظلَّام للعبيد﴾**..

والتعبير بالعبيد هنا، إبراز لحقيقة وَضْعهم ـ وهم عبيـد من العبيد ـ بالقياس إلى الله تعالى. وهو يزيد في شناعة الجرم. وفظاعة سوء الأدب. الذي يتجلى في قول العبيد: **﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾** والذي يتجلى كذلك في قتل الأنبياء.. ونقف أمام هذا التصور الفاسد للعقيدة الذي يظهر بوضوح في هذه القولة الآثمة الكافرة الفاجرة...

إن الله ـ سبحانه ـ يهتف بـالناس أن ينـظروا في علاقتهم بـه تبارك وتعالى، وفي حقيقة أنفسهم: **﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميـد؛ إن يشأ يُـذْهبكم ويأت بخلق جـديد، ومـا ذلك على الله بعزيز﴾** [فاطر: ١٥ ـ ١٧]..

إن الناس في حاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة ليخرجوا مما هم فيه من ظلمات التخبط والالتواء والزيغ والضلال إلى نور الله وهداه. في حاجة إلى تذكيرهم بأنهم هم الفقراء المحاويج إلى الله. وأن الله غني عنهم كل الغنى. وأنهم حين يُـدَعون إلى الإيمـان بالله وعبـادته وحمـده على آلائه فإن الله غني عن عبادتهم وحَمْدهم، وهو المحمود بذاته. وأنهم لا يُعجزون الله ولا يعزّون عليه فهو إن شاء أن يذهب بهم ويأتي بخلق جديد من جنسهم أو من جنس آخر يخلفهم في الأرض، فإن ذلك عليه يسير..

الناس في حاجة إلى أن يُذكَّروا بهذه الحقيقة، لئلا يـركبهم الغرور وهم يرون أن الله ـ جلَّ وعلا ـ يعني بهم، ويرسل إليهم الرسل؛ ويجاهد الرُسل أن يردوهم عن الضلالة إلى الهدى، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور. ويَركبهم الغـرور فيظنـون أنهم شيء عظيم على الله! وأن هُـداهم وعبادتهم تزيد شيئاً في ملكه تعالى[1]! والله هو الغني الحميد.

---

(١) في الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ فيما يروي عن ربِّه =

إنَّ الله ـ سبحانه ـ يمنح العباد من رعايته، ويفيض عليهم من رحمته، ويغمرهم بسابغ فضله ـ بإرسال رسله إليهم، واحتمال هؤلاء الرسل ما يحتملون من إعراضهم وإيذائهم، وثباتهم على الدعوة إلى الله بعد الإعراض والإيذاء.. إن الله ـ سبحانه ـ إنما يعامل عباده هكذا رحمة منه وفضلاً وكرماً ومَنّاً. لأن هذه صفاته المتعلقة بذاته. لا لأن هؤلاء العباد يزيدون في مُلكه شيئاً بهداهم، أو ينقصون من مُلكه شيئاً بعماهم. ولا لأن هؤلاء العباد مخلوقات نادرة عزيزة صعبة الإعادة أو الاستبدال، فيغتفر لهم ما يقع منهم لأنهم صنف لا يُعاد ولا يُستبدل.

وإن الإنسان ليدهش ويحار في فضل الله ومَنّه وكرمه، حين يرى هذا الإنسان الصغير الضئيل الجاهل القاصر، الضعيف العاجز، ينال من عناية الله ورعايته كل هذا القدر الهائل!.

والإنسان ساكن صغير من سكان هذه الأرض. والأرض تابع صغير من توابع الشمس. والشمس نجم مما لا عدّ له، ولا حصر من النجوم. والنجوم إن هي إلا نقط صغيرة ـ على ضخامتها الهائلة ـ متناثرة في فضاء الكون الذي لا يعلم الناس حدوده، وهذا الفضاء الذي تتناثر فيه تلك النجوم كالنقط التائهة إن هو إلا بعض خلق الله!.

= عزّ وجلّ أنه قال: «... يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضَرِّي فَتَضُروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنُّكم كانوا على أتقى قلب رَجُل واحد منكم، ما زادَ ذلك في مُلكي شيئاً، يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجرِ قلب رجل واحد منكم، ما نَقَص ذلك من مُلكي شيئاً.. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم، ثم أُوَفِّيكم إياها، فَمن وَجَدَ خيراً، فليحمد الله، ومن وَجَد غير ذلك، فلا يلومَنَّ إلا نفسه».

رواه مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه. انظر شرحه في «جامع العلوم والحكم» لابن رجب، الحديث الرابع والعشرون، تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، ٢/٣٢.

ثم ينال الإنسان من الله كل هذه الرعاية.. يُنشئه، ويستخلفه في الأرض، ويهبه كل أدوات الخلافة ـ سواء في تكوينه وتركيبه أو تسخير القوى والطاقات الكونية اللازمة له في خلافته ـ ويضلّ هذا المخلوق ويتبجح حتى ليشرك بربه أو يُنكره. فيرسل الله إليه الرسل، رسولاً بعد رسول، وينزل على الرسل الكتب والخوارق. ويَطّرد فضل الله ويفيض حتى لينزل في كتابه الأخير للبشر قصصاً يُحدث بها الناس، ويقص عليهم ما وقع لأسلافهم، ويحدثهم عن ذوات أنفسهم، ويكشف لهم عما فيها من قوى وطاقات، ومن عجز وضعف، بل إنه ـ سبحانه ـ ليحدث عن فلان وفلان بالذات، فيقول لهذا: أنت فعلتَ وأنت تركت، ويقول لذاك: هاك حلاً لمشكلتك، وهاك خلاصاً من ضيقتك!.

كل ذلك، وهذا الإنسان هو الساكن الصغير من سكان هذه الأرض، التابعة الصغيرة من توابع الشمس، التائهة في هذا الوجود الكبير حتى ما تكاد تُحَسّ! والله ـ سبحانه ـ هو فاطر السموات والأرض، وخالق هذا الوجود بما فيه ومَن فيه بكلمة. بمجرد تَوَجُّه الإرادة. وهو قادر على أن يخلق مثله بكلمة وبمجرد تَوَجُّه الإرادة..

والناس خلقاء أن يُدركوا هذه الحقيقة ليدركوا مدى فضل الله ورعايته ورحمته. وليستحيوا أن يستجيبوا للفضل الخالص والرعاية المجردة والرحمة الفائضة بالإعراض والجحود والنكران.

فهي من هذه الناحية لمسة وجدانية موحية، إلى جانب أنها حقيقة صادقة واقعة. والقرآن يلمس بالحقائق قلوب البشر، لأن الحقيقة حين تجلى أفعل في النفس، ولأنه هو الحق وبالحق نزل. فلا يتحدث إلا بالحق، ولا يقنع إلا بالحق، ولا يعرض إلا الحق، ولا يشير بغير الحق..

لقد مضى القرآن الكريم يعدد آلاء الله ونعمه على بني إسرائيل، فقد حَباهم وأفاض عليهم، وآثرهم وفضّلهم على العالمين.. فاستقبلوا هذه

الآلاء وذلك الفضل العميم بالغرور والطغيان، فقد جحدوا وكفروا.. وقالوا كلمتهم الشنيعة: ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾..

قالوها في تَبَجُّح وتَوَقُّح.. قالوها وقد انطفأت شعلة الإيمان في أفئدتهم، فجفت قلوبهم وقست وعميت.. فهم في عمى عن رؤية دلائل الحق، وعمى عن رؤية الحقيقة. لقد كفروا وظلموا، فهم في ظلمات الضلال يعمهون.. في ظلمات من شتى الأنواع والأشكال. ظلمات تعزّ فيها الرؤية الصحيحة عن عظمة الله الحق المبين..

ويعرض القرآن الكريم نموذجاً آخر من قولهم الإثم في أبشع صوره.. يحكي قول اليهود الغبي اللئيم:

﴿وقالت اليهود يَدُ الله مغلولة ـ غُلّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان يُنفق كيف يشاء﴾ [المائدة: ٦٤]..

وذلك من سوء تصور يهود لله ـ سبحانه ـ. فقد حكى القرآن الكريم الكثير من سوء تصورهم ذاك. وقد تقدم قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء عندما سُئلوا النفقة! وقالوا: يد الله مغلولة، يُعللون بذلك بُخلهم؛ فالله ـ بزعمهم ـ لا يعطي الناس ولا يعطيهم إلا القليل.. فكيف يُنفقون؟!.

وقد بلغ من غلظ حسهم، وجلافة قلوبهم، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه وهو البخل بلفظه المباشر؛ فاختاروا لفظاً أشد وقاحة وتهجماً وكفراً فقالوا: يد الله مغلولة!.

ويجيء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم، ولعنهم وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم: **﴿غُلَّت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾**.

وكذلك كانوا، فهم أبخل خَلْق بمال!.

ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم؛ ويصف الله ـ سبحانه ـ بوصفه الكريم، وهو يفيض على عباده من فضله بلا حساب:

﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ . .

وعطاياه التي لا تكف ولا تنفد لكل مخلوق ظاهرة للعيان. . شاهدة باليد المبسوطة، والفضل الغامر، والعطاء الجزيل، ناطقة بكل لسان. ولكن يهود لا تراها؛ لأنها مشغولة عنها باللَّم والضَّمْ، وبالكنود وبالجحود، وبالبذاءة حتى في حق الله!.

ويحدث الله رسوله - ﷺ - عما سيبدو من القوم، وعما سيحل بهم، بسبب حقدهم وغيظهم من اصطفاء الله له بالرسالة، وبسبب ما تكشفه هذه الرسالة من أمرهم في القديم والحديث: **﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أُنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾** [المائدة: ٦٤]. .

فبسبب من الحقد والحسد، وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله سيزيد الكثيرون منهم طغياناً وكفراً. لأنهم قد أَبوا الإيمان، لا بد أن يَشْتَطُّوا في الجانب المقابل؛ ولا بد أن يزيدوا تبجحاً ونكراً، وطغياناً وكفراً. فيكون الرسول - ﷺ - رحمة للمؤمنين، ووبالاً على المنكرين.

هؤلاء الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، والذين قتلوا الأنبياء. . هم الذين يزعمون أنهم لا يؤمنون بمحمد - ﷺ - لأن الله عَهِدَ إليهم بزعمهم - ألا يؤمنوا لرسول، حتى يأتيهم بقربان يقدمونه، فتقع المعجزة، وتهبط نار تأكله، على نحو ما كانت معجزة بعض أنبياء بني إسرائيل، وما دام محمد لم يقدم لهم هذه المعجزة فهم على عهد مع الله!!.

هنا يجبههم القرآن بواقعهم التاريخي. . لقد قتلوا هؤلاء الأنبياء الذين جاءوهم بالخوارق التي طلبوها وجاءوهم بآيات الله بينات:

﴿الذين قالوا: إن الله عَهِدَ إلينا ألا نؤمن لرسول، حتى يأتينا بقربان تأكله النار. قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قُلتم، فَلِمَ قَتَلْتموهم إن كنتم صادقين؟﴾ [آل عمران: ١٨٣]. .

وهي مجابهة قوية، تكشف عن كذبهم والتوائهم وإصرارهم على الكفر، وتبجحهم بعد ذلك وافترائهم على الله!.

وهنا يلتفت إلى الرسول - ﷺ - مُسَلّياً مواسياً، مهوناً عليه ما يلقاه منهم، وهو ما لقيه إخوانه الكرام من الرسل على توالي العصور:

﴿فإن كذبوك فقد كُذِّب رسل من قبلك، جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾ [آل عمران: ١٨٤]..

فما هو أول رسول يتلقى بالتكذيب. والأجيال المتعاقبة - وبخاصة من بني إسرائيل - تلقوا بالتكذيب رسلاً جاءوهم بالبينات والخوارق، وجاءوهم بالصحائف المتضمنة للتوجيهات الإلهية - وهي الزبر - وجاءوهم بالكتاب المنير كالتوراة والإنجيل.. فهذا هو طريق الرسل والرسالات.. وما فيه من عناء ومشقة. وهو وحده الطريق.

وأمام هذا الزيغ الإسرائيلي يتوجَّه القرآن الكريم إلى الجماعة المسلمة، يحدثها عن القِيَم التي ينبغي أن تحرص عليها، وتضحي من أجلها، ويهيب بها إلى الصبر والتقوى والعزم والاحتمال:

﴿كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أُجوركم يوم القيامة، فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. لتبلون في أموالكم وأنفسكم، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيراً، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ [آل عمران: ١٨٥، ١٨٦]..

إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس: حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودة بِأَجَل، ثم تأتي نهايتها حتماً.. الكلُّ يموت.. كل نفس تفارق هذه الحياة.. لا فارق بين نفس ونفس في تَذَوُّق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع. إنما الفارق في شيء آخر. الفارق في قيمة أخرى. الفارق في المصير الأخير: **﴿وإنما تُوفَّون أجوركم**

يوم القيامة. فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾..

وهكذا نجد التوجيهات الربانية تتوالى على المسلمين في ثنايا الاستعراض المثير لمواقف بني إسرائيل المُضَلِّلة الكاذبة الخادعة.. نجد توجيه المسلمين إلى حقيقة القيم الباقية والقيم الزائلة. فالحياة في هذه الأرض محدودة بأجل. وكل نفس ذائقة الموت على كل حال. إنما الجزاء هناك، والكسب والخسارة هناك.. وهم مُبتلون في أموالهم وأنفسهم، والأذى سينالهم من أعدائهم المشركين وأهل الكتاب، فلا عاصم لهم إلا الصبر والتقوى، والمضي على النهج، الذي يزحزحهم من النار.. ثم الفوز بالجنة!.

تحريــف وتزويــر:

يُحدث القرآن الكريم الجماعة المسلمة عن بني إسرائيل، ويُبصرها بأساليبهم ووسائلهم في الكيد والفتنة، ويُحذرها كيدهم ومكرهم على ضوء تاريخهم وجبلّتهم، فلا تنخدع بأقوالهم ودعاويهم ووسائلهم الماكرة في الفتنة والتضليل. ويدل طول الحديث في القرآن، وتنوع أساليبه على ضخامة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من الكيد المنصوب لها والمرصود لدينها من أولئك اليهود!.

وبَين آن وآخرٍ يلتفت القرآن إلى بني إسرائيل ليواجههم ـ على مشهد من المسلمين ـ بما أُخذ عليهم من المواثيق، وبما نَقضوا من هذه المواثيق؛ وبما وَقع منهم من انحرافات ونكول عن العهد وتكذيب بأنبيائهم، وقَتلهم لهؤلاء الأنبياء الذين لا يُطاوعونهم على هواهم، ومن مخالفة لشريعتهم، ومن التوائهم وجدالهم بالباطل، وتحريفهم لما بين أيديهم من النصوص.

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله

ليحكم بينهم، ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون؟﴾ [آل عمران: ٢٣]. .

إنه سؤال التعجيب والتشهير من هـذا الموقف المتنـاقض الغريب. موقف الذين أوتوا نصيباً من الكتاب. وهو التـوراة لليهود ومعهـا الإنجيل للنصارى. وكل منهما «نصيب» من الكتاب باعتبار أن كتـاب الله هو كـل ما أنزل على رسله، وقرر فيه وحدة ألوهيته ووحدة قوامته. فهو كتاب واحد في حقيقته، أوتي اليهود نصيبـاً منه، وأوتي النصـارى نصيباً منـه، وأوتي المسلمون الكتاب كله باعتبار القرآن جامعاً لأصول الدين كله، ومُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتاب. .

سؤال التعجيب من هؤلاء **﴿الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾**. . ثم هم يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم في خلافاتهم، وليحكم بينهم في شؤون حياتهم ومعاشهم، فلا يستجيبون جميعاً لهذه الدعوة، إنمـا يتخلف فريق منهم ويعـرض عن تحكيم كتاب الله وشـريعته. الأمـر الذي يتنـاقض مع الإيمان بأي نصيب من كتاب الله، والذي لا يستقيم مع دعوى أنهم أهـل كتاب. .

هكذا يعجب الله من أهل الكتاب حين يعرض بعضهم ـ لا كلهم ـ عن الاحتكام إلى كتاب الله في أمور الاعتقاد وأمور الحياة. فكيف بمن يقولون: إنهم مسلمون، ثم يُخرجون شريعة الله من حياتهم كلها. ثم يظلون يزعمون أنهم مسلمون!.

إنه مَثَل يضربه الله للمسلمين أيضاً كي يعلموا حقيقة الدين وطبيعة الإسلام؛ ويحذروا أن يكونوا موضعاً لتعجيب الله وتشهيره بهم. فإذا كان هذا هو استنكار موقف أهل الكتاب الذين لم يدَّعوا الإسلام، حين يعرض فريق منهم عن التحاكم إلى كتـاب الله، فكيف يكون الاستنكـار إذا كان «المسلمـون» هم الذين يعـرضون هـذا الإعـراض. . إنـه العجب الـذي

لا ينقضي، والبلاء الذي لا يُقَدَّر، والغضب الذي ينتهي إلى الشقوة والطرد من رحمة الله! والعياذ بالله!.

ثم يكشف عن علة هذا الموقف المُسْتَنكَر المتناقض:

﴿ذلك بأنهم قالوا: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، وغَرّهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ [آل عمران: ٢٤]..

هذا هو السبب في الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله؛ والتناقض مع دعوى الإيمان ودعوى أنهم أهل كتاب.. إنه عدم الاعتقاد بجدّية الحساب يوم القيامة، وجدّية القسط الإلهي الذي لا يُحابي ولا يميل. يتجلى هذا في قولهم: **﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾**...

وإلا فلماذا لا تمسهم النار إلا أياماً معدودات؟ ولماذا وَهُم ينحرفون أصلاً عن حقيقة الدين وهي الاحتكام في كل شيء إلى كتاب الله؟ لماذا إذا كانوا يعتقدون حقاً بعَدْل الله؟ بل إذا كانوا يحسّون أصلاً بجدية لقاء الله؟ إنهم لا يقولون إلا افتراء، ثم يَغُرّهم هذا الافتراء: **﴿وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾**..

وحقاً! إنه لا يجتمع في قلب واحد جدّية الاعتقاد بلقاء الله، والشعور بحقيقة هذا اللقاء، مع هذا التميّع في تصور جزائه وعَدْله...

وحقاً! إنه لا يجتمع في قلب واحد الخوف من الآخرة والحياء من الله، مع الإعراض عن الإحْتِكام إلى كتاب الله، وتحكيمه في كل شأن من شؤون الحياة..

ومثل أهل الكتاب هؤلاء مثل من يزعمون اليوم أنهم مسلمون،. ثم يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولّون ويُعرضون. وفيهم من يتبجّحون ويتوقحون، ويزعمون أن حياة الناس دنيا لا دين! وأن لا ضرورة لإقحام الدين في حياة الناس العملية وارتباطاتهم الاقتصادية والاجتماعية، بل

العائلية، ثم يظلون بعد ذلك يزعمون أنهم مسلمون! ثم يعتقد بعضهم في غرارة بلهاء أن الله لن يعذبهم إلا تَطهيراً من المعاصي، ثم يُساقون إلى الجنة! أليسوا مسلمين؟ إنه نَفس الظن الذي كان يظنه أهل الكتاب هؤلاء، ونَفس الغرور بما افتروه ولا أصل له في الدين.. وهؤلاء وأولئك سواء في تنصُّلهم من أصل الدين، وتَمَلُّصهم من حقيقته التي يرضاها الله: الإسلام.. الاستسلام.. والطاعة والاتباع. والتلقي من الله وحده في كل شأن من شؤون الحياة.

ويقص القرآن على المسلمين من أحوال بني إسرائيل: إنهم فريقان. فريق أُمي جاهل، لا يدري شيئاً من كتابهم الذي نزل عليهم، ولا يعرف منه إلا أوهاماً وظنوناً، وإلا أماني في النجاة من العذاب، بما أنهم شعب الله المختار، المغفور له كل ما يعمل وما يرتكب من آثام!.

وفريق يستغل هذا الجهل وهذه الأميّة فيزوّر على كتاب الله، ويُحرف الكلم عن مواضعه بالتأويلات المُغْرضة، ويكتم منه ما يشاء، ويبدي منه ما يشاء ويكتب كلاماً من عند نفسه يذيعه في الناس باسم أنه من كتاب الله.. كل هذا ليربح ويكسب، ويحتفظ بالرياسة والقيادة:

﴿ومنهم أُميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله، لِيَشْتروا به ثمناً قليلاً. فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون﴾ [البقرة: ٧٨، ٧٩].

فكيف ينتظر من أمثال هؤلاء وهؤلاء أن يستجيبوا للحق، وأن يستقيموا على الهدى، وأن يتحرجوا من تحريف ما يقف في طريقهم من نصوص كتابهم نفسه؟ إن هؤلاء لا مطمع في أن يؤمنوا للمسلمين. وإنما هو الويل والهلاك ينتظرهم. الويل والهلاك لهم مما كتبت أيديهم من تزوير على الله؛ والويل والهلاك لهم مما يكسبون بهذا التزوير والاختلاق!.

من تلك الأماني التي لا تستقيم مع عدل الله، ولا تتفق مع سنته، ولا تتمشى مع التصور الصحيح للعمل والجزاء.. أن يحسبوا أنهم ناجون من العذاب مهما فعلوا، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات يخرجون بعدها إلى النعيم..

عَلام يعتمدون في هذه الأُمنية؟ علام يحددون الوقت كأنهم مستوثقون؟ وكأنها معاهدة محدودة الأجل معلومة الميقات؟.

لا شيء إلا أماني الأُميين الجُهّال، وأكاذيب المُحتالين العلماء! الأماني التي يلجأ إليها المنحرفون عن العقيدة الصحيحة، حين يطول بهم الأمد، وينقطع ما بينهم وبين حقيقة دينهم، فلا يبقى لهم منه إلا اسمه وشكله، دون موضوعه وحقيقته ويظنون أن هذا يكفيهم للنجاة من العذاب بحكم ما يُعلنونه بألسنتهم من أنهم على دين الله.

ويُوجِّه القرآن الكريم الخطاب إلى بني إسرائيل، وهو يعرض عليهم متناقضات موقفهم من ميثاقهم مع الله...

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم: لا تسفكون دماءكم، ولا تُخرجون أنفسكم من دياركم. ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾ [البقرة: ٨٤]..

فماذا كان بعد الإقرار وهم شاهدون حاضرون؟.

﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان. وإن يأتوكم أسارى تفادوهم، وهو محرم عليكم إخراجهم. أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟﴾ [البقرة: ٨٥]..

ولقد كان هذا الذي يواجههم به واقعاً قريب العهد قبيل غَلَبة الإسلام على الأوس والخزرج. كان الأوس والخزرج مشركين، وكان الحيّان أشد ما يكون حيّان من العرب عداء.

وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحي وذاك من المشركين. . كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه؛ فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي اليهودي من الفريق الآخر ـ وهذا حرام عليهم بنصّ ميثاق الله معهم ـ وكانوا يُخرجونهم من ديارهم إذا غلب فريقهم ويَنهبون أموالهم ويأخذون سباياهم ـ وهذا حرام عليهم بنص ميثاق الله معهم ـ ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فادوا الأسارى، وفكوا أسر المأسورين من اليهود هنا أو هناك، عندهم أو عند حلفائهم أو أعداء حلفائهم على السواء ـ وذلك عملاً بحكم التوراة وقد جاء فيها: إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا أخذته فأعتقته. .

هذا التناقض هو الذي يُواجههم به القرآن؛ وهو يسألهم في استنكار: ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟**﴾. .

وهذا هو نقض الميثاق الذي يتهددهم بالخزي في الحياة الدنيا، والعذاب الأشد في الآخرة. مع التهديد الخفي بأن الله ليس غافلاً عنهم ولا متجاوزاً:

﴿**فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يُردُّون إلى أشد العذاب. وما الله بغافل عما تعملون**﴾ [البقرة: ٨٥]. .

ثم يلتفت إلى المسلمين وإلى البشرية جميعاً، وهو يعلن حقيقتهم وحقيقة عملهم:

﴿**أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة. فلا يُخَفَّف عنهم العذاب ولا هم ينصرون**﴾ [البقرة: ٨٦]. .

وكَذبُوا إذن في دعواهم أن لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة. . فهؤلاء هم هناك: ﴿**فلا يُخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون**﴾. .

وقصة شرائهم الحياة الدنيا بالآخرة هنا في هذه المناسبة: هي أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع الله، هو استمساكهم بميثاقهم مع المشركين في حلف يقتضي مخالفة دينهم وكتابهم. فإن انقسامهم فريقين، وانضمامهم إلى حلفين، هي هي خطة إسرائيل التقليدية، في إمساك العصا من الوسط؛ والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط، لتحقيق بعض المغانم على أية حال؛ وضمان صوالح اليهود في النهاية سواء انتصر هذا المعكسر أم ذاك!.

وهي خطة من لا يثق بالله، ولا يستمسك بميثاقه، ويجعل اعتماده كله على الدهاء، ومواثيق الأرض، والاستنصار بالعباد لا برب العباد. والإيمان يُحرِّم على أهله الدخول في حلف يناقض ميثاقهم مع ربهم، ويناقض تكاليف شريعتهم، باسم المصلحة أو الوقاية، فلا مصلحة إلا في اتباع دينهم، ولا وقاية إلا بحفظ عهدهم مع ربهم.

ويستعرض القرآن جدالهم مع الجماعة المسلمة وحججهم ودعاويهم الباطلة، ويُلقن الرسول ـ ﷺ ـ أن يفضح دعاويهم، ويُفنِّد حججهم، وكشف زيف ادعاءاتهم، ويرد على كيدهم بالحق والواضح الصريح..

فلقد زعموا أن لن تمسّهم النار إلا أياماً معدودة بحكم ما لهم من المكانة الخاصة عند الله!.

﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة. قل: أتخذتم عند الله عهداً فلن يُخلف الله عهده؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون؟﴾ [البقرة: ٨٠]..

ولقن الله نبيه ـ ﷺ ـ أن يرد عليهم قولهم هذا.. **﴿أتخذتم عند الله عهداً فلن يُخلف الله عهده؟﴾**..

هذا هو التلقين الإلهي للحجة الدامغة. فأين العهد؟ **﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون؟﴾**..

http://al-maktabeh.com

وهذا هو الواقع. فالاستفهام هناللتقرير. ولكنه في صورة الاستفهام يحمل كذلك معنى الإنكار والتوبيخ!.

ثم لقد كانوا يطلقونها دعوى عريضـة.. إنهم شعب الله المختار.. إنهم وحدهم المهتدون. إنهم وحدهم الفائزون في الآخرة. إنه ليس لغيرهم من الأمم في الآخرة عند الله نصيب.

وهذه الدعوة تتضمن أن المؤمنين بمحمد ـ ﷺ ـ لا نصيب لهم في الآخرة. والهدف الأول هو زعزعة ثقتهم بدينهم وبـوعود رسـولهم ووعود القرآن لهم. فهم يدَّعون أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس. فلقَّن الله رسوله ـ ﷺ ـ أن يتحداهم، وأَمَرَه أن يدعو اليهود إلى مباهلة، بدعوتهم إلى تمني الموت، وذلك رداً على دعواهم أنهم أولياء الله من دون الناس، وأنهم شعب الله المختـار، وأن بعثة الـرسول في غيـرهم لا تكـون! كمـا يدّعون!.

﴿قل: يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولا يتمنونه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين..﴾ [الجمعة: ٦، ٧]..

وهكذا يمضي القرآن بكشف أباطيلهم: ﴿قل إن كـانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ [البقرة: ٩٤]..

لقد أمر الله نبيه ـ ﷺ ـ بدعوة اليهود إلى المباهلة.. والمباهلة معناها أن يجتمع الفريقان المتنازعان وجهاً لوجه، ودعاؤهما معاً إلى الله أن يُنكل بالمبطل منهما..

لقد كانت دعوة أن يجتمع اليهود والمسلمون، ثم يدعون الله أن يميت ويهلك الكاذب منهما: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من

دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ . .

ويعقب على هذا التحدي بتقرير أنهم لن يتمنوه ولن يقبلوا المباهلة، ولن يطلبوا الموت لعلمهم أنهم كاذبون فيما يدعون! .

فهم يخشون أن يستجيب الله فيأخذهم. وهم يعلمون أن ما قدموه من عمل لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة. وعندئذ يكونون قد خسروا الدنيا بالموت الذي طلبوه، وخسروا الآخرة بالعمل السيء الذي قدّموه. . ومن ثم فإنهم لن يقبلوا التحدي. فهم أحرص الناس على حياة. وهم والمشركون في هذا سواء:

﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم. والله عليم بالظالمين. ولتجدنَّهم أحرص الناس على حياة. ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يُعمّر ألف سنة. وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمّر، والله بصير بما يعملون﴾ [البقرة: ٩٥، ٩٦].

لن يتمنوه، لأن ما قدمته أيديهم للآخرة لا يُطمعهم في ثواب، ولا يؤمنهم من عقاب. إنه مدخر لهم هناك والله عليم بالظالمين، وما كانوا يعملون.

وليس هذا فحسب. ولكنها خصلة أخرى في يهود، خصلة يصورها القرآن صورة تفيض بالزراية وتنضح بالتحقير والمهانة:

﴿ولتجدنَّهم أحرص الناس على حياة﴾ . . أية حياة، لا يهمهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق! حياة فقط! حياة بهذا التنكير والتحقير! حياة ديدان أو حشرات! حياة والسلام! .

إنها يهود، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء. وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة. فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس، وعَنت الجباه جبناً وحرصاً على الحياة. . أي حياة! .

يود أحدهم لو يعمر ألف سنة. ذلك أنهم لا يرجون لقاء الله، ولا يحسون أن لهم حياة غير هذه الحياة. وما أقصر الحياة الدنيا وما أضيقها حين تحسّ النفس الإنسانية أنها لا تتصل بحياة سواها، ولا تطمع في غير أنفاس وساعات على الأرض معدودة..

إن الإيمان بالحياة الآخرة نِعمة. نعة يفيضها الإيمان على القلب. نعمة يهبها الله للفرد الفاني العاني. المحدود الأجل الواسع الأمل. وما يغلق أحد على نفسه هذا المنفذ إلى الخلود، إلا وحقيقة الحياة في روحه ناقصة أو مطموسة.

فالإيمان بالآخرة ـ فوق أنه إيمان بِعَدْل الله المطلق، وجزائه الأوفى ـ هو ذاته دلالة على فيض النفس بالحيوية، وعلى امتلاء بالحياة لا يقف عند حدود الأرض، إنّما يتجاوزها إلى البقاء الطليق، الذي لا يعلم إلا الله مداه، وإلى المرتقى السامي الذي يتجه صعداً إلى جوار الله.

وهكذا يمضي القرآن في هذه المواجهة، وهذا الكشف، وهذا التوجيه.. ومن شأن هذه الخطة أن تُضعف ـ أو تُبطل ـ كيد اليهود في وسط الصف المسلم، وأن تكشف دسائسهم وأحابيلهم؛ وأن تدرك الجماعة المسلمة طريقة اليهود في العمل والكيد والادعاء، على ضوء ما وقع منهم في تاريخهم القديم.

وقد خاف كل مَنْ دَعاهم رسول الله ـ ﷺ ـ إلى هذه المباهلة ونكلوا عنها، ولم يقبلوا التحدي فيها. مما يدلّ على أنهم في قرارة نفوسهم كانوا يعرفون صدق رسول الله ـ ﷺ ـ وحقيقة هذا الدين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن يزيد الزرقي، حدثنا أبو يزيد، حدثنا فرات، عن عبد الكريم بن مالك الجزري، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال أبو جهل ـ لعنه الله ـ إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لو فعل لأخذته

الملائكة عياناً. ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ـ ﷺ ـ لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالاً»(١).

وفي القرآن الكريم جَزْم بأنهم لن يقبلوا هذه المباهلة التي دُعوا إليها، وقد نكلوا عنها لشعورهم ببطلان دعواهم. ويعقب السياق القرآني على هذا بتقرير حقيقة الموت الذي يفرون منه، وأنه ملاقيهم مهما فَرُّوا، وأنهم مردودون إلى عالم الغيب والشهادة فَمُنبئهم بما كانوا يعملون..

وهو تقرير لا يخص اليهود وحدهم، إنما يلقيه القرآن ويدعه يفعل فعله في نفوس المؤمنين كذلك. فهذه الحقيقة لا بد أن تستقر في نفوس حملة أمانة الله في الأرض، لينهضوا بتكاليفها وهم يعرفون الطريق!.

وقد لا يكون هذه مباهلة ولكن مجرد تَحَدّ لهم، بما أنهم يزعمون أنهم أولياء لله من دون الناس. فماذا يُخيفهم إذن الموت، ويجعلهم أجبن خلق الله؟ وهم حين يموتون ينالون ما عند الله مما يلقاه الأولياء والمقربون؟!.

ثم عقب على هذا التحدي بما يفيد أنهم غير صادقين فيما يَدَّعون، وأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا بين أيديهم ما يطمئنون إليه، وما يرجون الثواب والقربى عليه، إنما قَدَّموا المعصية التي تخيفهم من الموت وما وراءه. والذي لم يُقَدّم الزاد يجفل من ارتياد الطريق:

﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين. قيل: إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم، ثم تُردون إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ [الجمعة: ٧، ٨]..

وتقرير حقيقة الموت وما بعده، يكشف عن قلة الجدوى في فرارهم

---

(١) ورواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم.

من الموت، فهو حتم لا مهرب منه، وما بعده من رجعة إلى الله، وحساب على العمل حتم كذلك لا ريب فيه..

وهي لفتة من اللفتات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخاطبين. تقر في الأخلاد حقيقة ينساها الناس، وهي تلاحقهم أينما كانوا..

فهذه الحياة إلى انتهاء. والبعد عن الله فيها ينتهي للرجعة إليه، فلا ملجأ منه إلا إليه. والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لا محالة. فلا مهرب ولا فكاك.

روى الطبري في معجمه من حديث معاذ بن محمد الهذلي، عن يونس، عن الحسن، عن سُمرة مرفوعاً: «مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب، تطلبه الأرض بِدَيْن، فجاء يسعى، حتى إذا أعيا وأنهر دخل جُحْره، فقالت له الأرض: يا ثعلب! ديْني. فخرج له حصاص. فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات».

وهي صورة متحركة موحية عميقة الإيحاء..

وفي ظلال حقيقة الموت الجاثمة أمام الأحياء، تخفت الأنفاس، وتسكن الجوارح. ويتحدد ظل الموت ليطال كل حي، ويطوي كل حركة.. فكل شيء زائل. وكل شيء ذاهب، المال والجاه. والسلطان والقوة. والحياة والمتاع. وهذه الأرض ومَن عليها. وهذا الكون كله:

﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾.. يا للهول المرعب المزلزل.. إنه قادم لا ريب فيه.. يوم شديد. تَصوُّره فوق كل تصور.. وعذابه فوق كل احتمال.. هذا القادم القريب الذي ستلاقونه!!.

﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه، ووفيت كل نفس ما كسبت، وهم لا يظلمون؟﴾ [آل عمران: ٢٥]..

كيف؟ إنه التهديد الرعيب الذي يشفق القلب المؤمن أن يتعرض له وهو يستشعر جدّية هذا اليوم وجدية لقاء الله، وجدية عدل الله؛ ولا يتميع تصوره وشعوره مع الأماني الباطلة والمفتريات الخادعة.. وهو بعد تهديد قائم للجميع.. مشركين وملحدين، وأهل كتاب ومُدّعي إسلام، فهم سواء في أنهم لا يُحققون في حياتهم الإسلام!.

فكيف إذا جرى العدل الإلهي مجراه؟ ﴿ووفيت كل نفس ما كسبت﴾.. بلا ظلم ولا محاباة؟ ﴿وهم لا يظلمون﴾.. كما أنهم لا يُحابون في حساب الله؟.

سؤال يُلْقَى ويُترك بلا جواب.. وقد اهتزّ القلب وارتجف وهو يستحضر الجواب!.

قاعدة واحدة:

ومرة أخرى يُذكّرهم الله يوم القيامة ويُحذرهم من الخسران. يناديهم ليثوبوا ويتقوا ويسلموا.. فهو يعاود تخويفهم اليوم الذي يُخاف، يوم لا يجدون من ينصرهم ويعصمهم من العذاب: ﴿**واتقوا يوماً لا تَجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا يُقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل، ولا هم يُنصرون**﴾ [البقرة: ٤٨]..

فالتبعة فردية، والحساب شخصي، وكل نفس مسؤولة عن نفسها، ولا تغني نفس عن نفس شيئاً.. وهذا هو المبدأ الإسلامي العظيم. مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان، وعلى العدل المطلق من الله. وهو أقوم المبادىء التي تشعر الإنسان بكرامته، والتي تستجيش اليقظة الدائمة في ضميره. وكلاهما عامل من عوامل التربية، فوق أنه قيمة إنسانية تضاف إلى رصيده من القيم التي يُكرّمه بها الإسلام.

﴿**ولا يُقبل منها شفاعة. ولا يُؤخذ منها عَدل ولا هم ينصرون**﴾..

www.al-maktabeh.com

فلا شفاعة تنفع يومئذ مَن لم يُقدّم إيماناً وعملاً صالحاً؛ ولا فدية تؤخذ منه للتجاوز عن كفره ومعصيته؛ ولا نـاصر يعصمهم من الله ويُنجيهم من عذابه.. وقد عبر هنا بالجمع باعتبار مجموع النفوس التي لا تجزي نفس منها عن نفس، ولا يُقبل منها شفاعة، ولا يُؤخذ منها عدل، وانصرف عن الخطاب في أول الآية إلى صيغة الغيبة في آخرها للتعميم. فهذا مبدأ كلي ينال المخاطبين وغير المخاطبين من الناس أجمعين..

ثم يأتي القرآن بالجواب القاطع والقـول الفصل في هـذه الدعـوى ـ دعوى بني إسرائيل ـ في صورة كلية من كليات التصور الإسلامي، تنبع من فكرته الكلية عن الكون والحياة والإنسان: إن الجـزاء من جنس العمل، ووفق هذا العمل..

﴿بلى! من كَسَب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ [البقرة: ٨١، ٨٢]..

هنا نجد القرآن الكريم يقرر قاعدته الخلقية الواحدة، وميزانه الخلقي الواحد. ويربط نظرته هذه بالله وتقواه..

ولا بد أن نقف قليلاً أمام ذلك التصوير الفني المعجز لحالة معنوية خـاصة، وأمـام هذا الحكم الإلهي الجـازم نكشف عن شيء من أسبابـه وأسراره: الخطيئة كسب؟ إن المعنى الذهني المقصود هو اجتراح الخطيئة. ولكن التعبير يُومىء إلى حالة نفسية معروفة..

إن الذي يجترح الخطيئة إنما يجترحها عادة وهو يلتذها ويستسيغها؛ ويحسبها كسباً له ـ على معنى من المعاني ـ ولو أنها كانت كريهة في حِسّه ما اجترحها، ولو كان يحس أنها خسارة ما أقدم عليها متحمساً، وما تركها تملأ عليه نفسه، وتحيط بعالمه، لأنه خليق لو كرهها وأحس ما فيهـا من

خسارة أن يهرب من ظلها ـ حتى لو اندفع إلى ارتكابها ـ وأن يستغفر منها، ويلوذ إلى كنف غير كنفها. وفي هذه الحالـة لا تحيط به، ولا تمـلأ عليه عالمه، ولا تغلق عليه منافذ التوبة والتكفير. .

وفي التعبير: ﴿**وأحاطت به خطيئته**﴾. . تجسيم لهذا المعنى. وهذه خاصية من خواص التعبير القرآني، وسمة واضحة من سماته؛ تجعل له وَقْعاً في الحس يختلف عن وَقْع المعاني الذهنية المجردة، والتعبيرات الذهنية التي لا ظل لها ولا حركة. وأي تعبير ذهني عن اللجاجة في الخطيئة ما كان ليشع مثل هذا الظل الذي يصور المجترح الآثم حبيس خطيئته: يعيش في إطارها، ويتنفس في جوها، ويحيا معها ولها.

ثم يتبع هذا الشطر بالشطر المقابـل من الحكم. . ﴿**والذين آمنـوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون**﴾. .

فمن مقتضيـات الإيمـان أن ينبثق من القلب في صـورة العمـل الصالح. . وهذا ما يجب أن يدركه من يَدَّعون الإيمان. .

وما أحوجنا ـ نحن الذين نقول إنا مسلمون ـ أن نستيقن هذه الحقيقة: أن الإيمان لا يكون حتى ينبثق منه العمل الصالح. فأما الذين يقولون: إنهم مسلمون ثم يُفسدون في الأرض، ويحاربون الصلاح في حقيقته الأولى وهي إقرار منهج الله في الأرض، وشريعته في الحياة، وأخلاقـه في المجتمع، فهؤلاء ليس لهم من الإيمان شيء، وليس لهم من ثواب الله شيء، وليس لهم من عذابه واق ولو تعلقوا بأمانيّ كأمانيّ اليهود التي بَيّن الله لهم وللناس في هذا البيان.

إن الإيمـان ليس دعوى بـاللسان، ولا هيـاماً في الـوجدان، إلا أن يصاحبه طاعة الله، والسير على هداه، والـوفاء بعهـده، ومن ثم التقوى، والسعي لتحقيق منهجـه في الحياة. . فليس الأمـر مشاعـر تجيش. ولكنه طاعة لله وعمل بمنهجه. .

وهكذا تتبين القضية فليس عند الله محاباة لجنس أو قوم أو عشيرة أو أسرة أو شعب أو أمة. . وبذلك تسقط جميع الدعاوى الباطلة، وتسقط جميع الحجج الواهية. . ويرتفع ميزان الله عالياً، فالعاقبة للمتقين الذين يخشون الله، ويَرعون عهده، ويتحرجون من غضبه، ويبتغون رضاه:

﴿بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يُحب المتقين. إن الذين يَشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً، أُولئك لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يُكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يُزكيهم. ولهم عذاب أليم﴾ [آل عمران: ٧٦، ٧٧]. .

فهي قاعدة واحدة من راعاها وفاء بعهد الله وشعوراً بتقواه أحبه الله وأكرمه. ومن اشترى بعهد الله وبأيمانه ثمناً قليلاً ـ من عَرض هذه الحياة الدنيا أو بالدنيا كلها وهي متاع قليل ـ فلا نصيب له في الآخرة. ولا رعاية له عند الله ولا قبول، ولا زكاة له ولا طهارة. وإنما هو العذاب الأليم.

ونلمح هنا أن الوفاء بالعهد مرتبط بالتقوى. ومن ثم لا يتغير في التعامل مع عدو أو صديق. فليس هو مسألة مصلحة. إنما هو مسألة تعامل مع الله أبداً. دونما نظر إلى من يتعامل معهم.

وهذه هي نظرية الإسلام الأخلاقية بصفة عامة. في الوفاء بالعهد وفي سواه من الأخلاق: التعامل هو أولاً تعامل مع الله، يلحظ فيه جناب الله، ويتجنب به سخطه ويطلب به رضاه. فالباعث الأخلاقي ليس هو المصلحة؛ وليس هو عرف الجماعة، ولا مقتضيات ظروفها القائمة. فإن الجماعة قد تضل وتنحرف، وتروج فيها المقاييس الباطلة. فلا بد من مقياس ثابت ترجع إليه الجماعة كما يرجع إليه الفرد على السواء. ولا بد أن يكون لهذا المقياس فوق ثباته قوة يستمدها من جهة أعلى. . أعلى من اصطلاح الناس ومن مقتضيات حياتهم المتغيرة. . ومن ثم ينبغي أن تستمد القيم والمقاييس من الله؛ بمعرفة ما يرضيه من الأخلاق والتطلع إلى رضاه والشعور بتقواه. .

بهـذا يضمن الإسلام تـطلع البشريـة الـدائم إلى أفق أعلى من الأرض؛ واستمدادها القيم والموازين من ذلك الأفق الثابت السامق الوضيء.

ثم يمضي القرآن في تفنيد دعاوى أهل الكتاب: اليهود والنصارى.. فهو يُفند دعواهم الكاذبة في أن الجنة من حقهم وحدهم.. وقولهم: إنهم هم المهتدون وحدهم! وإن الجنة وَقْف عليهم لا يدخلها سواهم!.

ويقص الله التهم المتبادلة بين فريقي أهل الكتاب إذ يقول اليهود: ليست النصـارى على شيء، وتقول النصـارى ليست اليهـود على شيء؛ وكذلك يقول المشركون عن الجميع! فكل فريق يجبه الفريق الآخر بأنهم ليسوا على شيء! ويقرر في ثنايا عرض هذه الدعاوى العريضة حقيقة الأمر، ويقول كلمة الفصل في العمل والجزاء:

﴿وقـالوا: لن يـدخل الجنـة إلا من كـان هـوداً أو نصـارى. تلك أمانيهم﴾ [البقرة: ١١١]..

والذين كانوا يواجهون المسلمين في المدينة كانوا هم اليهود؛ إذ لم تكن هناك كتلة من النصارى تقف مواقف اليهود. ولكن النص هنا عام يواجه مقولات هؤلاء وهؤلاء. ثم يجبه هؤلاء بهؤلاء! ويحكي رأي المشركين في الطائفتين جميعاً!.

فالقرآن يقص حكاية قوليهم مزدوجة. وإلا فقد كانت اليهود تقول: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ـ أي من يهود ـ وكانت النصارى تقول: لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى..

وهذه القولة كتلك، لا تستند إلى دليل، سوى الادعاء العريض! ومن ثم يلقن الله رسوله ـ ﷺ ـ أن يجبههم بالتحدي وأن يطالبهم بالدليل: **﴿قل: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾** [البقرة: ١١١].

وهنا يقرر قاعدة من قواعد التصوير الإسلامي في ترتيب الجزاء على

العمل بلا محاباة لأمة ولا لطائفة ولا لفرد. إنما هو الإسلام والإحسان، لا الاسم والعنوان: ﴿**بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن، فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [البقرة: ١١٢]. .

ومن قبل قرر هذه القاعدة في العقاب رداً على قولهم: ﴿**لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة**﴾. . فقال: ﴿**بلى! من كسب سيئة وأحاطت به خطيئة فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾. .

إنها قاعدة واحدة بطرفيها في العقوبة والمثوبة. طرفيها المتقابلين: ﴿**من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته**﴾. . فهو حبيس هذه الخطيئة المحيطة، في معزل عن كل شيء وعن كل شعور وعن كل وجهة إلا وجهة الخطيئة. . و﴿**من أسلم وجهه لله وهو محسن**﴾. . فأخلص ذاته كلها لله، وَوَجَّه مشاعره كلها إليه، وخلص لله في مقابل خلوص الآخر للخطيئة. .

وسمة الإسلام الأولى: إسلام الوجه ـ والوجه رمز على الكل ـ ولفظ أسلم ـ يعني الاستسلام والتسليم ـ. الاستسلام المعنوي والتسليم العملي. ومع هذا فلا بد من الدليل الظاهر على هذا الاستسلام ﴿**وهو محسن**﴾. . فسمة الإسلام هي الوحدة بين الشعور والسلوك، بين العقيدة والعمل، بين الإيمان القلبي والإحسان العملي. . بذلك تستحيل العقيدة منهجاً للحياة كلها؛ وبذلك تتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها؛ وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله:

﴿**فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾. .

الأجر المضمون لا يضيع «عند ربهم». . والأمن الموفور لا يساوره خوف، والسرور الفائض لا يمسه حزن. . وتلك هي قاعدة واحدة هي القاعدة العامة التي يستوي عندها الناس جميعاً. فلا محسوبية عند الله سبحانه ولا محاباة!.

ولقد كانوا ـ يهوداً أو نصارى ـ يطلقون تلك الدعوى العريضة، بينما يقول كل منهما عن الفريق الآخر إنه ليس على شيء: وبينما كان المشركون يجبهون الفريقين بالقولة ذاتها: ﴿**وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ـ وهم يتلون الكتاب ـ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم**﴾ [البقرة: ١١٣]. .

والذين لا يعلمون هم الأميون العرب الذي لم يكن لهم كتاب؛ وكانوا يرون ما عليه اليهود والنصارى من الفرقة ومن التقاذف بالاتهام، ومن التمسك بخرافات وأساطير لا ترتفع كثيراً على خرافات العرب وأساطيرهم في الشرك ونسبة الأبناء ـ أو البنات ـ لله ـ سبحانه ـ؛ فكانوا يزهدون في دين اليهود ودين النصارى ويقولون: إنهم ليسوا على شيء!.

والقرآن يسجل على الجميع ما يقوله بعضهم في بعض؛ عقب تفنيد دعوى النصارى واليهود في ملكية الجنة! ثم يدع أمر الخلاف بينهم إلى الله: ﴿**فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**﴾ [البقرة: ١١٣]. .

فهو الحكم العدل، وإليه تصير الأمور. . وهذه الإحالة إلى حكم الله هي وحدها المجدية في مواجهة قوم لا يستمدون من منطق، ولا يعتمدون على دليل، بعد دحض دعواهم العريضة في أنهم وحدهم أهل الجنة، وأنهم وحدهم المهديون!.

تحذيـر وتنويـر:

لقد مضى القرآن الكريم وهو يُحدّث الجماعة المسلمة عن حال اليهود ومواقفهم، التي يتجلى فيها الكفر والفسوق، والعصيان والالتواء، والانحراف، والنكول عن العهد والميثاق. ويواجه اليهود بهذه المواقف على مشهد من المسلمين. . فقد تجرأوا بسوء تصورهم على الله، وقالوا ما قالوه

من أقبح وأشنع كلمات.. ثم امتد فسوقهم وكفرهم فاعتدوا على أنبيائهم بالقتل والتعذيب.. واحتالوا على ربهم، وبدّلوا كتاب الله الذي أنزله إليهم، وحَرّفوا نصوصه، ولوّوا كلماته وألفاظه بما يخدم أهواءهم الهابطة المنتكسة..

لقد زاغوا شوطاً بعيداً في غياهب الظلم والعدوان، فأزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وانطمست معالم الحق في وجدانهم وفطرتهم، وضلوا عن سبيل الرشاد.. لقد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم فهي كالحجارة الصلدة التي لا تنبض فيها حياة.. وهذه الطبيعة الجاسية المنحرفة هي سمة القوم.. وفي ظل هذا التصوير، وظل هذا الإيحاء، يلتفت القرآن إلى المؤمنين، الذين يطمعون في هداية بني إسرائيل، ويحاولون أن يبثوا في قلوبهم الإيمان، وأن يفيضوا عليها النور.. يلتفت إلى أولئك المؤمنين بسؤال يوحي باليأس من المحاولة، وبالقنوط من الطمع:

﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم؟ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون؟**﴾ [البقرة: ٧٥]..

ألا إنه لا مطمع ولا رجاء في أن يؤمن أمثال هؤلاء. فللإيمان طبيعة أخرى، واستعداد آخر..

إن الطبيعة المؤمنة سمحة هينة لينة، مفتحة المنافذ للأضواء، مستعدة للاتصال بالنبع الأزلي الخالد بما فيه من نداوة ولين وصفاء.. وبما فيها من حساسية وتحرج وتقوى. هذه التقوى التي تمنعها أن تسمع كلام الله ثم تُحرّفه من بعد تعقله. تحرفه عن علم وإصرار. فالطبيعة المؤمنة طبيعة مستقيمة، تتحرج من هذا التحريف والالتواء.

والفريق المشار إليه هنا هو أعلم اليهود وأعرفهم بالحقيقة المنزلة عليهم في كتابهم هم الأحبار والربانيون، الذين يسمعون كلام الله المنزل على نبيهم موسى في التوراة ثم يُحرفونه عن مواضعه، ويؤولونه التأويلات

البعيدة التي تخرج به عن دائرته. لا عن جهل بحقيقة مواضعه، ولكن عن عمد للتحريف، وعلم بهذا التحريف. يدفعهم الهوى، وتقودهم المصلحة، ويحدوهم الغرض المريض! فمن باب أولى ينحرفون عن الحق الذي جاء به محمد - ﷺ - وقد انحرفوا عن الحق الذي جاء به نبيهم موسى - عليه السلام - ومن باب أولى - وهذا خراب ذممهم، وهذا إصرارهم على الباطل وهم يعلمون بطلانه - أن يعارضوا دعوة الإسلام، ويروغوا منها ويختلقوا عليها الأكاذيب!.

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم؟ أفلا تعقلون؟﴾ [البقرة: ٧٦]..

أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وهم يُضيفون إلى خراب الذمة، وكتمان الحق، وتحريف الكَلِمَ عن مواضعه.. الرياء والنفاق والخداع والمراوغة؟ وقد كان بعضهم إذا لقوا المؤمنين قالوا: آمنا.. أي آمنا بأن محمداً مرسل؛ بحكم ما عندهم في التوراة من البشارة به، وبحكم أنهم كانوا ينتظرون بعثته، ويطلبون أن ينصرهم الله به على من عداهم. وهو معنى قوله: **﴿وكان من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾**.. ولكن: **﴿إذا خلا بعضهم إلى بعض﴾**.. عاتبوهم على ما أفضوا للمسلمين من صحة رسالة محمد - ﷺ - ومن معرفتهم بحقيقة بعثته من كتابهم، فقال بعضهم لبعض: **﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم﴾**.. فتكون لهم الحجة عليكم؟..

وهنا تدركهم طبيعتهم المحجبة عن معرفة صفة الله وحقيقة علمه؛ فيتصورون أن الله لا يأخذ عليهم الحجة إلا أن يقولوها بأفواههم فيا للسخرية من العقل والتعقل الذي يتحدثون عنه مثل هذا الحديث!!.

ومن ثم يعجب القرآن من تصورهم هذا قبل أن يمضي في استعراض

www.al-maktabeh.com

ما يُبيتون وما يُخفون: ﴿**أوَ لا يعلمون أن الله يعلم ما يُسرُّون وما يعلنون؟**﴾ [البقرة: ٧٧].

وهكذا يكشف القرآن عن سلوك أهل الكتاب من انحراف، ويبين لما في جدالهم من مغالطة، ويفضح لما يريدونه بالمسلمين من سوء. ومن ثم يجيء التحذير للجماعة المسلمة من أن تتخذ من أعدائها الطبيعيين بطانة، وأن تجعل منهم أمناء على أسرارها ومصالحها، وهم للذين آمنوا عدو..

يجيء هذا التحذير في صورة شاملة خالدة، ما نزال نرى مصداقها في كل وقت، وفي كل أرض. صورة رسمها هذا القرآن الحي، فغفل عنها أهل هذا القرآن. فأصابهم من غفلتهم وما يزال يصيبهم الشر والأذى والمهانة:

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خَبالاً. ودُّوا ما عَنِتُم. قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر. قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم، وتؤمنون بالكتاب كله، وإذا لقوكم قالوا: آمنا، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ. قل: موتوا بغيظكم، إن الله عليم بذات الصدور..**﴾ [آل عمران: ١١٨ ـ ١١٩]..

إنها صورة كاملة السمات، ناطقة بدخائل النفوس، وشواهد الملامح، تسجل المشاعر الباطنة، والانفعالات الظاهرة، والحركة الذاهبة الآيبة. وتسجل بذلك كله نموذجاً بشرياً مكروراً في كل زمان وفي كل مكان. ونستعرضها اليوم وغداً فيمن حول الجماعة المسلمة من أعداء. يتظاهرون للمسلمين ـ في ساعة قوة المسلمين وغلبتهم ـ بالمودة. فتكذبهم كل خالجة وكل جارحة..

وينخدع المسلمون بهم فيمنحونهم الودّ والثقة، وهم لا يريدون للمسلمين إلا الاضطراب والخبال، ولا يقصرون في إعنات المسلمين ونشر الشوك في طريقهم، والكيد لهم والدس، ما واتتْهم الفرصة في ليل أو نهار.

وما من شك أن هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم هذا الرسم العجيب، كانت تنطبق ابتداء على أهل الكتاب ـ اليهود ـ المجاورين للمسلمين في المدينة؛ وترسم صورة قوية للغيظ الكظيم الذي كانوا يضمرونه للإسلام والمسلمين، وللشر المُبَيّت، وللنوايا السيئة التي تجيش في صدورهم؛ في الوقت الذي كان بعض المسلمين ما يزال مخدوعاً في أعداء الله هؤلاء، وما يزال يفضي إليهم بالمودة، وما يزال يأمنهم على أسرار الجماعة المسلمة؛ ويتخذ منهم بطانة وأصحاباً وأصدقاء، لا يَخشىٰ مغبة الإفضاء إليهم بدخائل الأسرار. فجاء هذا التنوير، وهذا التحذير، يُبصّر الجماعة المسلمة بحقيقة الأمر، ويُوعّيها لكيد أعدائها الطبيعيين، الذين لا يخلصون لها أبداً، ولا تغسل أحقادهم مودة من المسلمين وصحبتهم.

ولم يجيء هذا التنوير وهذا التحذير ليكون مقصوراً على فترة تاريخية معينة، فهو حقيقة دائمة، تواجه واقعاً دائماً. كما نرى مصداق هذا فيما بين أيدينا من حاضر مكشوف مشهود...

والمسلمون في غفلة عن أمر ربهم: أَلَّا يتخذوا بِطانة من دونهم. بِطانة من ناس هم دونهم في الحقيقة والمنهج والوسيلة. وألا يجعلوهم موضع الثقة والسرّ والاستشارة.. المسلمون في غفلة عن أمر ربهم هذا يتخذون من أمثال هؤلاء مرجعاً في كل أمر. وكل شأن، وكل وضع، وكل نظام، وكل تَصَوُّر، وكل منهج، وكل طريق!.

والمسلمون في غفلة من تحذير الله لهم، يوادُّون من حاد الله ورسوله؛ ويفتحون لهم صدورهم وقلوبهم. والله سبحانه يقول للجماعة المسلمة الأولى كما يقول للجماعة المسلمة في أي جيل: ﴿ودُّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾ [آل عمران: ١١٨].

والله سبحانه يقول: ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم، وتؤمنون

بالكتاب كله، وإذا لقوكم قالوا: آمنا، وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ [آل عمران: ١١٩]. .

والله سبحانه يقول: **﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾** [آل عمران: ١٢٠]. .

ومرة بعد مرة تصفعنا التجارب المُرّة، ولكننا لا نفيق. . ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة والمؤامرة تلبس أزياء مختلفة ولكننا لا نعتبر. ومرة بعد مرة تنفلت ألسنتهم فَتَنمّ عن أحقادهم التي لا يذهب بها ودّ يبذله المسلمون، ولا تغسلها سماحة يعلمها لهم الدين. . ومع ذلك نعود، فنفتح لهم قلوبنا ونتخذ منهم رفقاء في الحياة والطريق!. . .

وتبلغ بنا المجاملة، أو تبلغ بنا الهزيمة الروحية أن نجاملهم في عقيدتنا فنتحاشى ذكرها، وفي منهج حياتنا فلا نقيمه على أساس الإسلام، وفي تزوير تاريخنا وطمس معالمه كي نتقي أي صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين! ومن ثم يحل علينا جزاء المخالفين عن أمر الله: ومن هنا نذل ونضعف ونستخذي. ومن هنا نَلْقىٰ العنت الذي يودّه أعداؤنا لنا، ونَلْقَىٰ الخبال الذي يدسونه في صفوفنا. .

وها هو ذا كتاب الله يُعلّمنا ـ كما عَلَّم الجماعة المسلمة الأولى ـ كيف نتقي كيدهم، وندفع أذاهم، وننجو من الشر الذي تكنّه صدورهم، ويفلت على ألسنتهم منه شواظ: **﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً. إن الله بما يعملون محيط﴾** [آل عمران: ١٢٠]. .

فهو الصبر والعزم والصمود أمام قوتهم إن كانوا أقوياء؛ وأمام مكرهم وكيدهم إن سلكوا طريق الوقيعة والخداع. .

الصبر والتماسك لا الانهيار والتخاذل؛ ولا التنازل عن العقيدة كلها أو بعضها اتقاء لشرهم المتوقع أو كسباً لودهم المدخول. .

ثم هو التقوى: الخوف من الله وحده. ومراقبته وحده.. هو تقوى الله التي تربط القلوب بالله، فلا تلتقي مع أحد إلا في منهجه، ولا تعتصم بحبل إلا حبله.. وحين يتصل القلب بالله فإنه سيحقر كل قوة غير قوته؛ وستشد هذه الرابطة من عزيمته، فلا يستسلم من قريب، ولا يوادّ من حادّ الله ورسوله، طلباً للنجاة أو كسباً للعزة!.

هذا هو الطرِيق: الصبر والتقوى.. التماسك والاعتصام بحبل الله. وما استمسك المسلمون في تاريخهم كله بعروة الله وحدها، وحققوا منهج الله في حياتهم كلها.. إلا عَـزُّوا وانتصروا، ووقاهم الله كيد أعدائهم، وكانت كلمتهم هي العليا.

وما استمسك المسلمون في تاريخهم كله بعروة أعدائهم الطبيعيين، الذين يحاربون عقيدتهم ومنهجهم سراً وجهراً، واستمعوا إلى مشورتهم، واتخذوا منهم بطانة وأصدقاء وأعواناً وخبراء ومستشارين.. إلا كتب الله عليهم الهزيمة، ومَكَّن لأعدائهم فيهم، وأَذَلّ رقابهم، وأذاقهم وبال أمرهم..

والتاريخ كله شاهد على أن كلمة الله خالدة؛ وأن سنة الله نافذة. فمن عمي عن سنة الله المشهودة في الأرض، فلن ترى عيناه إلا آيات الذلّة والانكسار والهوان.

ويحسن قبل أن ننهي هذا البيان أن نقرر حقيقة أخرى، عن سماحة الإسلام في وجه كل هذا العداء. فهو يأمر المسلمين ألا يتخذوابطانة من هؤلاء. ولكنه لا يحرضهم على مقابلة الغل والحقد والكراهية والدسّ والمكر بمثلها. إنما هي مجرد الوقاية للجماعة المسلمة وللصف المسلم، وللكينونة المسلمة.. مجرد الوقاية ومجرد التنبيه إلى الخطر الذي يحيطها به الآخرون.. أما المسلم فَبِسَمَاحة الإسلام يتعامل مع الناس جميعاً، وبنظافة الإسلام يعامل الناس جميعاً؛ وبمحبة الخير الشامل يَلْقَىٰ الناس جميعاً؛

يتقي الكيد ولكنه لا يكيد، ويحذر الحقد ولكنه لا يحقد. إلا أن يُحارَب في دينه، وأن يفتن في عقيدته، وأن يصدّ عن سبيل الله ومنهجه. فحينئذ هو مطالب أن يحارب، وأن يمنع الفتنة، وأن يُزيل العقبات التي تصدّ الناس عن سبيل الله، وعن تحقيق منهجه في الحياة. يُحارب جهاداً في سبيل الله لا انتقاماً لذاته. وحباً لخير البشر لا حقداً على الذين آذوه. وتحطيماً للحواجز الحائلة دون إيصال هذا الخير للناس. لا حباً للغلب والاستعلاء والاستغلال.. وإقامة للنظام القويم الذي يستمتع الجميع في ظلّه بالعدل والسلام. لا لتركيز راية قومية ولا لبناء إمبراطورية!.

ويمضي القرآن الكريم في كشف خباياهم وحركتهم الخائنة الجافية:

﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم﴾..

وهو خطاب للرسول ـ ﷺ ـ يصور حال يهود في المجتمع المسلم في المدينة. فهم لا يكفون عن محاولة خيانة رسول الله ـ ﷺ ـ وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة. بل كانت هذه هي حالهم طوال إقامتهم معه في المدينة ـ ثم في الجزيرة كلها ـ وما تزال هذه حالهم في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ. على الرغم من أن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الوحيد الذي آواهم، ورفع عنهم الاضطهاد، وعاملهم بالحسنى، ومَكّن لهم من الحياة الرغيدة فيه. ولكنهم كانوا دائماً ـ كما كانوا على عهد الرسول ـ عقارب وحيات وثعالب وذئاباً تضمر المكر والخيانة، ولا تني تمكر وتغدر. إن أعوزتهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين نصبوا لهم الشباك وأقاموا لهم المصائد، وتآمروا مع كل عدو لهم، حتى تحين الفرصة، فينقضوا عليهم، قساة جفاة لا يرحمونهم، ولا يرعون فيهم إلاًّ ولا ذِمّة. أكثرهم كذلك.. كما وصفهم الله ـ سبحانه ـ في كتابه، وكما أنبأنا عن جبلتهم التي أورثها إياهم نقضهم لميثاق الله من قديم.

والتعبير القرآني الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله ـ ﷺ ـ في المدينة، تعبير طريف:

﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم. فاعف عنهم واصفح، إن الله يُحب المحسنين﴾ [المائدة: ١٣]. .

الفعلة الخائنة، والنية الخائنة، والكلمة الخائنة، والنظرة الخائنة. . يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة. . «خائنة». . لتبقى الخيانة وحدها مجردة، تملأ الجو، وتلقي ظلالها وحدها على القوم. . فهذا هو جوهر جبلتهم، وهذا هو جوهر موقفهم، مع الرسول ـ ﷺ ـ ومع الجماعة المسلمة. .

إن هذا القرآن هو مُعَلّم هذه الأمة ومرشدها ورائدها وحادي طريقها على طول الطريق. وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها، وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله. ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها، وتسمع توجيهاته، وتقيم قواعده وتشريعاته في حياتها، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها في يوم من الأيام. . ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها؛ وحين اتخذت القرآن مهجوراً ـ وإن كانت ما تزال تتخذ منه ترانيم مطربة، وتعاويذ ورقى وأدعية! ـ أصابها ما أصابها.

ولقد كان الله ـ سبحانه ـ يقص عليها ما وقع لبني إسرائيل من اللعن والطرد وقسوة القلب وتحريف الكلم عن مواضعه، حين نقضوا ميثاقهم مع الله، لتحذر أن تنقض هي ميثاقها مع الله، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد، ناقض للعقد. . فلما غفلت عن هذا التحذير، وسارت في طريق غير الطريق، نزع الله منها قيادة البشرية؛ وتركها هكذا ذيلاً في القافلة! حتى تثوب إلى ربها؛ وحتى تستمسك بعهدها، وحتى تُوَفّي بعقدها. فيفي الله بوعده من التمكين في الأرض ومن القيادة للبشر والشهادة على الناس. . وإلا بقيت هكذا ذيلاً للقافلة. . وَعْد الله لا يخلف الله وَعْدَه. . .

وما تزال الأمة المسلمة تعاني من دسائس اليهود ومكرهم ما عاناه أسلافها من هذا المكر ومن تلك الدسائس؛ غير أن الأمة المسلمة لا تَنْتَفِع

ـ مع الأسف ـ بتلك التوجيهات القرآنية، وبهذا الهدى الإلهي، الذي انتفع به أسلافها، فغلبوا كيد اليهود ومكرهم في المدينة، والدين ناشىء، والجماعة المسلمة وليدة..

وما يزال اليهود ـ بلؤمهم ومكرهم ـ يُضَلِّلون هذه الأمة عن دينها، ويصرفونها عن قرآنها، كي لا تأخذ منه أسلحتها الماضية، وعدّتها الواقية. وهم آمنون ما انصرفت هذه الأمة عن موارد قوتها الحقيقية، وينابيع معرفتها الصافية..

وكل من يُصْرِف هذه الأمة عن دينها وعن قرآنها فإنما هو من عملاء يهود؛ سواء عرف أم لم يعرف، أراد أم لم يرد، فسيظل اليهود في مأمن من هذه الأمة ما دامت مصروفة عن الحقيقة الواحدة المفردة التي تستمد منها وجودها وقوتها وغلبتها ـ حقيقة العقيدة الإيمانية والمنهج الإيماني والشريعة الإيمانية ـ فهذا هو الطريق. وهذه هي معالم الطريق:

﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله، ثم يُحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون؟ وإذا لقوا الذين آمنا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم؟ أفلا تعقلون؟ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون؟﴾ [البقرة: ٧٥ ـ ٧٧]..

كانت صورة الجفاف والقسوة والجدب هي التي صَوَّر الله بها قلوب بني إسرائيل كما سبق بيانه. صورة الحجارة الصلدة التي لا تنض منها قطرة، ولا يلين لها مَمَسّ، ولا تنبض فيها حياة.. وهي صورة توحي باليأس من هذه الطبيعة الجاسية الجامدة الخاوية..

﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم﴾..

ولقد كان توجيه الله لنبيه ﷺ في ذلك الحين الذي نزلت فيه هذه الآية: **﴿فاعفُ عنهم واصفح، إن الله يحب المحسنين﴾** [المائدة: ١٣]،

والعفو عن قبائحهم إحسان، والصفح عن خيانتهم إحسان.

ولكن جاء الوقت الذي لم يعد فيه للعفو والصفح مكان. فأمر الله نبيه - ﷺ - أن يُجليهم عن المدينة. ثم أن يأمر بإجلائهم عن الجزيرة كلها. وقد كان..

اعتراضات زائفة وحجة باطلة:

ويُتابع القرآن دروسه، ويواجه كيد اليهود ودسَّهم للجماعة المسلمة في المدينة، وطبيعة بني إسرائيل..

لقد كان اليهود يَتصيَّدون كل حُجّة، وكل شُبهة، وكل حيلة، لينفذوا منها إلى الطعن في صحة الرسالة المحمدية، وإلى بَلْبَلة الأفكار وإشاعة الاضطراب في العقول والقلوب.. فلما قال القرآن: إنه مُصدِّق لما في التوراة بَرزوا يقولون: فما بالُ القرآن يُحلِّل من الأطعمة ما حرَّم على بني إسرائيل؟ وتذكر الروايات أنهم ذكروا بالذات لحوم الإبل وألبانها.. وهي محرمة على بني إسرائيل. وهناك مُحرمات أخرى كذلك أحلَّها الله للمسلمين.

والقرآن يُقرر رداً على اعتراض بني إسرائيل على إباحته لبعض المحرمات اليهودية من الطعام:

﴿كُلُّ الطعام كان حِلاً لبني إسرائيل - إلا ما حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنزَّل التوراة - قل: فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ [آل عمران: ٩٣ - ٩٤]..

وهنا يَردّهم القرآن إلى الحقيقة التاريخية التي يتجاهلونها للتشكيك في صحة ما جاء في القرآن من أنه مُصدّق للتوراة، وأنه مع هذا أحل للمسلمين بعض ما كان محرماً على بني إسرائيل.. هذه الحقيقة هي أن كل

الطعام كان حِلاً لبني إسرائيل ـ إلا ما حَرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنزَّل التوراة ـ وإسرائيل هو يعقوب ـ عليه السلام ـ وتقول الروايات: إنه مرض مَرَضاً شديداً، فَنذر لله لئن عافاه ليمتنعن ـ تطوعاً ـ عن لحوم الإبل وألبانها وكانت أحب شيء إلى نفسه. فقَبِلَ الله منه نَذره.

وجرت سُنة بني إسرائيل على اِتّباع أبيهم في تحريم ما حَرَّم..

ولقد حاول اليهود جدالاً كثيراً حول ما أُحلَّه القرآن وما حرّمه.. فقد كانت هُناكَ محرمات على اليهود خاصة، وأُحلَّها الله للمسلمين. حرمها على بني إسرائيل عُقوبة لهم على معصيات ارتكبوها.. عقوبة خاصة لليهود على ظلمهم وبُعدهم عن شرع الله!.

فقد حرَّم الله على اليهود كل ذي ظُفر من الحيوان ـ أي كل حيوان قدمه غير مشقوقة، وذلك كالإبل والنعام والأوز والبط. وحَرم كذلك شحم البقر والغنم ـ إلا شحم الظهر، أو الدهن الملتف بالأمعاء، أو ما اختلط منه بالعظم.. وكان ذلك عُقوبة لهم على بغيهم بتجاوز أوامر الله وشرائعه: **﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظُفر. ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما ـ إلا ما حملت ظهورهما أو الحَوايا أو ما اختلط بعظم ـ ذلك جزيناهم ببغيهم، وإنا لصادقون﴾** [الأنعام: ١٤٦]..

وكانت هذه المطاعم قبل هذا التحريم حلالاً لبني إسرائيل..

يردهم الله ـ سبحانه ـ إلى هذه الحقيقة، ليبين أن الأصل في هذه المطاعم هو الحل، وأنها حُرمت عليهم لملابسات خاصة بهم. فإذا أحلّها للمسلمين فهذا هو الأصل الذي لا يُثير الاعتراض، ولا الشك في صحة هذا القرآن، وهذه هي الشريعة الأخيرة.

والنصّ يُبين سبب هذا التحريم، وهو سبب خاص باليهود، ويُؤكد أن هذا هو الصدق، لا مايقولونه هم من أن إسرائيل ـ عليه السلام ـ جَدّهم، هو

الذي حرّم هذا على نفسه فهم يتبعونه فيما حرّم على نفسه.

لقد كان هذا مباحاً حلالاً لنبي الله إسرائيل. ولكنه حُرّم عليهم بعدما بَغوا، فجازاهم الله بهذا الحرمان من الطيبات..

﴿فإن كذَّبوك فقل: ربكم ذو رحمة واسعة، ولا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين﴾ [الأنعام: ١٤٧]..

فقل: ربكم ذو رحمة واسعة بنا، وبمن كان مؤمناً من عباده، وبغيرهم من خلقه. فرحمته ـ سبحانه ـ تَسَع المُحسن والمُسيء، وهو لا يُعَجِّل على من استحق العقاب؛ حلماً منه ورحمة. فإن بعضهم قد يثوب إلى الله.. ولكن بأسه شديد لا يردّه عن المجرمين إلا حلمه، وما قَدَّره من إمهالهم إلى أجل مرسوم.

وهذا القول فيه من الإطماع في الرحمة بقدر ما فيه من الإرهاب بالبأس. والله الذي خَلَق قلوب البشر، يُخاطبها بهذا وذاك، لعلها تهتز وتتلقى وتستجيب.

ويتحدى القرآن بني إسرائيل أن يرجعوا إلى التوراة، وأن يأتوا بها ليقرأوها، وسيجدون فيها أن أسباب التحريم خاصة بهم، وليست عامة: **﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾** [آل عمران: ٩٣]..

ثم يُهدد من يفتري الكذب منهم على الله بأنه ظالم، لا ينصف الحقيقة، ولا ينصف نفسه، ولا ينصف الناس..

﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ [آل عمران: ٩٤]..

وعقاب الظالم معروف، فيكفي أن يوصموا بهذه الوصمة، ليتقرر نوع العذاب الذي ينتظرهم. وهم يفترون الكذب على الله. وهم إليه راجعون..

﴿فبظلم من الذين هادوا حَرَّمنا عليهم طَيِّباتٍ أُحلَّت لهم. وبِصَدِّهم عن سبيل الله كثيراً. وأخذهم الربا وقد نُهـوا عنه. وأَكْلِهم أمـوال الناس بالباطل. وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾ [النساء: ١٦٠ - ١٦١]..

وهكذا يضيف القرآن الكريم إلى ما سبق من مناكرهم هذه المنكرات الكبيرة: الظلم، والصد الكثير عن سبيل الله. فهم مُمعِنون فيه ودائبون عليه. وأخذهم الربا - لا عن جهل ولا عن قلة تنبيه - فقد نُهوا عنه فأصرُّوا عليه! وأَكْلِهم أموال الناس بالباطل بالربا وبغيره من الوسائل.

بسبب من هذه المنكرات، ومما أسلفه القرآن منها.. حُرِّمت عليهم طيبات كانت حلالاً لهم، وأعدَّ الله للكافرين منهم عذاباً أليماً..

لقد جادلوا طويلاً في مطاعم حرَّمها الله عليهم عقوبة لهم، بينما كانت مُباحة للمسلمين. وكذلك رُوي أنهم جادلوا في المحرمات التي حرّمها الله على المسلمين[1] مع أنها محرمة عليهم في التوراة. وكان الهدف دائماً هو التشكيك في صحة الأوامر القرآنية وصدق الوحي بها من الله.

وهكذا تتكشف هذه الحملة عن كشف طبيعة اليهود وتاريخهم؛ وفضح تعلاتهم وعدم الاستجابة للرسول وتعنتهم؛ ودمغهم بالتعنت مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم؛ ويُسر ارتكابهم للمنكر وجهرهم بالسوء في حق الأنبياء والصالحين. بل قتلهم والتبجح بقتلهم!.

---

(١) لقد بين الله - سبحانه - المحرمات من المآكل نصاً وتحديداً باستعمال أداة القصر «إنما»: ﴿إنما حَرَّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلَّ به لغير الله. فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه. إن الله غفور رحيم﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقد حرم الله على المسلمين من الخبائث، بينما حرم على اليهود من الطيبات بسبب ظلمهم. جعل هذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم ولم يكن محرماً على آبائهم في عهد إبراهيم الذي كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فكانت حلالاً له الطيبات ولبنيه من بعده، حتى حرّم الله بعضها على اليهود في صورة عقوبة لهم خاصة، ومن تاب بعد جهالته فالله غفور رحيم..

وتسقط بذلك وتتهاوى دسائس اليهود في الصف المسلم وكيدهم ومكرهم وحبائلهم. وتعرف الجماعة المسلمة ـ ما ينبغي أن تعرفه الأمة المسلمة في كل حين ـ عن طبيعة اليهود وجبلتهم، ووسائلهم وطرائقهم؛ ومدى وقوفهم للحق في ذاته سواء جاء من غيرهم أو نبع فيهم. فهم أعداء للحق وأهله، وللهدى وحملته. في كل أجيالهم وفي كل أزمانهم. مع أصدقائهم ومع أعدائهم.. لأن جبلتهم عدوة للحق في ذاته؛ جاسية قلوبهم، غليظة أكبادهم لا يحنون رؤوسهم إلا للمطرقة! ولا يسلمون للحق إلا وسيف القوة مُصَلّت على رقابهم..

وما كان هذا التعريف بهذا الصنف من الخلق، لِيَقْصر على الجماعة المسلمة الأولى في المدينة. فالقرآن هو كتاب هذه الأمة ما عاشت، فإذا استَفْتَتْه عن أعدائها أفتاها، وإذا استنصحته في أمرهم نصح لها؛ وإذا استرشدت به أرشدها. وقد أفتاها ونصح لها وأرشدها في شأن يهود، فدانت لها رقابهم.. ثم لما اتخذته مهجوراً دانت هي لليهود، كما رأيناها تتجمع فتغلبها منهم الشرذمة الصغيرة، وهي غافلة عن كتابها.. القرآن.. شاردة عن هَديه، مُلقية به وراءها ظهرياً! متبعة قول فلان وفلان!! وستبقى كذلك غارقة في كيد يهود وقهر يهود، حتى تثوب إلى القرآن..

قصة واهية وحجة فارغة:

ويتابع القرآن مواجهة بني إسرائيل، أولئك الذين قاوموا الدعوة الإسلامية بمكر وخبث عميق، وحماقة مكشوفة، وغيظ لئيم، وحقد دفين.. يمضي القرآن الكريم بتلقين جديد من الله لرسوله ـ ﷺ ـ يتحداهم به، ويعلن الحقيقة التي تضمنها على رؤوس الأشهاد في مواجهة قصة فارغة من أي منطق عاقل:

﴿قل: من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله، مصدقاً لما

بين يديه، وهُدى وبُشرى للمؤمنين. مَن كان عدواً لله وملائكته ورُسله وجبريل وميكال، فإن الله عدو للكافرين﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨]. .

وفي قصة هذا التحدي نطلع على سمة أخرى من سمات يهود. سمة عجيبة حقاً. . لقد بلغ هؤلاء القوم من الحنق والغيظ من أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده مبلغاً يتجاوز كل حد، وقادهم هذا إلى تناقض لا يستقيم في عقل. .

لقد سمعوا أن جبريل ينزل بالوحي من عند الله على محمد ـ ﷺ ـ ولما كان عداؤهم لمحمد قد بلغ مرتبة الحقد والحنق فقد لجَّ بهم الضغن أن يخترعوا قصة واهية وحجة فارغة، فيزعموا أن جبريل عدوهم، لأنه ينزل بالهلاك والدمار والعذاب؛ وأن هذا هو الذي يمنعهم من الإيمان بمحمد من جراء صاحبه جبريل! ولو كان الذي ينزل إليه بالوحي هو ميكائيل لآمنوا، فميكائيل يتنزّل بالرخاء والمطر والخصب!.

إنها الحماقة المضحكة، ولكن الغيظ والحقد يسوقان إلى كل حماقة. وإلا فما بالهم يعادون جبريل؟ وجبريل لم يكن بَشراً يعمل معهم أو ضدهم، ولم يكن يعمل بتصميم من عنده وتدبير؟ إنما هو عبد الله يفعل ما يأمره ولا يعصي الله ما أمره!.

فما كان له من هوى شخصي، ولا إرادة ذاتية، في أن يُنزله على قلبك، إنما هو مُنفِّذ لإرادة الله وإذنه في تنزيل هذا القرآن على قلبك. .

والقلب هو موضع التلقي، وهو الذي يفقه بعد التلقي، ويستقر هذا الكتاب فيه ويحفظ. . والقلب يعبر به في القرآن عن قوة الإدراك جُملة وليس هو العضلة المعروفة بطبيعة الحال.

نَزَّله على قلبك. . **﴿مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين﴾**. .

والقرآن يصدق في عمومه ما سبقه من الكتب السماوية، فأساس دين الله واحد في جميع الكتب السماوية وجميع الديانات الالهية.. وهو هدى وبشرى للقلوب المؤمنة، التي تتفتح له وتستجيب.. وهذه حقيقة ينبغي إبرازها...

إن نصوص القرآن لتسكب في قلب المؤمن من الإيناس، وتفتح له من أبواب المعرفة، وتفيض فيه من الإيحاءات والمشاعر ما لا يكون بغير الإيمان. ومن ثم يجد فيه الهدى، كما يستروح فيه البشرى. وكذلك نجد القرآن يكرر هذه الحقيقة في مناسبات شتى.. **﴿هدى للمتقين﴾**.. **﴿هدى لقوم يؤمنون﴾**.. **﴿هدى لقوم يوقنون﴾**.. **﴿شفاء ورحمة للمؤمنين﴾**.. فالهدى ثمرة الإيمان والتقوى واليقين..

وبنو إسرائيل لم يكونوا يؤمنون أو يتقون أو يوقنون!.

وكانوا ـ كعادتهم في تفريق الدين وتفريق الرسل ـ قد فرقوا بين ملائكة الله الذين يسمعون أسماءهم وأعمالهم، فقالوا: إنهم على صداقة مع ميكائيل أما مع جبريل فلا! لذلك جمعت الآية التالية جبريل وميكائل وملائكة الله ورسله، لبيان وحدة الجميع، ولإعلان أن من عادى أحداً منهم فقد عاداهم جميعاً، وعادى الله ـ سبحانه ـ فعاداه الله. فهو من الكافرين..

﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله، وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾..

ثم يتجه بالخطاب إلى الرسول ـ ﷺ ـ يُثبته على ما أنزل عليه من الحق، وما آتاه الله من الآيات البينات، مقرراً أنه لا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون المنحرفون.. ويندد ببني إسرائيل الذين لا يستقيمون على عهد. سواء عهودهم مع ربهم وأنبيائهم من قبل، أو عهودهم مع رسول الله ـ ﷺ ـ كما يندد بنبذهم لكتاب الله الذي جاء مصدقاً لما معهم:

﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون، أو كلما

عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم؟ بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ [البقرة: ٩٩، ١٠٠]. .

لقد كشف القرآن عن علة كفر بني إسرائيل. . إنه الفسوق وانحراف الفطرة، فالطبيعة المستقيمة لا يسعها إلا الإيمان بتلك الآيات. وهي تفرض نفسها فرضاً على القلب المستقيم. فإذا كفر بها اليهود ـ أو غيرهم ـ فليس هذا لأنه لا مُقنع فيها ولا حجة، ولكن لأنهم هم فاسدو الفطرة فاسقون.

ثم يلتفت إلى المسلمين ـ وإلى الناس عامة ـ مندداً بهؤلاء اليهود، كاشفاً عن سمة من سماتهم الوبيئة. . إنهم جماعة مفككة الأهواء ـ رغم تعصبها الذميم ـ فهم لا يجتمعون على رأي، ولا يثبتون على عهد، ولا يستمسكون بعروة. ومع أنهم متعصبون لأنفسهم وجنسهم، يكرهون أن يمنح الله شيئاً من فضله لسواهم، إلا أنهم ـ مع هذا ـ لا يستمسكون بوحدة، ولا يحفظ بعضهم عهد بعض، وما من عهد يقطعونه على أنفسهم حتى تندّ منهم فرقة فتنقض ما أبرموا، وتخرج على ما أجمعوا:

﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم؟ بل أكثرهم لا يؤمنون﴾. .

وقد أخلفوا ميثاقهم مع الله تحت الجبل، ونبذوا عهودهم مع أنبيائهم من بعد، وأخيراً نبذ فريق منهم عهدهم الذي أبرموه مع النبي ـ ﷺ ـ أول مقدمه إلى المدينة؛ وهو العهد الذي وادعهم فيه بشروط معينة، بينما كانوا هم أول من أعان عليه أعداءه؛ وأول من عاب دينه، وحاول بث الفرقة والفتنة في الصف المسلم، مخالفين ما عاهدوا المسلمين عليه. .

وبئس هي من خلة في اليهود! تقابلها في المسلمين خلة أخرى على النقيض، يعلنها رسول الله ـ ﷺ ـ في قوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم»[1]. . يسعى بذمتهم أدناهم،

(١) رواه الإمام أحمد.

فلا يخيس أحد بعهده إذا عاهد، ولا ينقض أحد عقده إذا أبرم، ولقد كتب أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ وهو قائد لجيش عمر ـ رضي الله عنه ـ وهو الخليفة يقول: إن عبداً من أهل بلد العراق. وسَأَلَه رَأْيه. فكتب إليه عمر: إن الله عظيم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا. . فوفوا لهم وانصرفوا عنهم. .

وهذه سمة الجماعة الكريمة المتماسكة المستقيمة. وذلك فرق ما بين أخلاق اليهود الفاسقين وأخلاق المسلمين الصادقين.

﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ [البقرة: ١٠١]. .

وكان هذا مظهراً من مظاهر نقض فريق لكل عهدٍ يعاهدونه. فلقد كان ضمن الميثاق الذي أخذه الله عليهم، أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه، وأن ينصروه ويحترموه. فلما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، خاسوا بذلك العهد، ونبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم، يستوي في هذا النبذ كتاب الله الذي معهم، والذي يتضمن البشرى بهذا النبي وقد نبذوه، والكتاب الجديد مع النبي الجديد وقد نبذوه أيضاً!.

وفي الآية ما فيها من سخرية خفية، يحملها ذلك النص على أن الذين أوتوا الكتاب هم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. فلو كانوا هم المشركين الأميين لكان نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم مفهوماً! ولكنهم هم الذين أوتوا الكتاب. هم الذين عرفوا الرسالات والرسل. هم الذين اتصلوا بالهدى ورأوا النور. . وماذا صنعوا؟.

إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم! والمقصود طبعاً أنهم جحدوه وتركوا العمل به، وأنهم أبعدوه عن مجال تفكيرهم وحياتهم. ولكن التعبير المُصور ينقل المعنى من دائرة الذهن إلى دائرة الحسّ؛ ويُمثل عملهم

بحركة مادية مُتَخيلة، تُصَوِّر هذا التصرف تَصويراً بَشِعاً، زرياً، ينضح بالكنود والجحود، ويتسم بالغلظة والحماقة، ويفيض بسوء الأدب والقحّة؛ ويَدَع الخيال يَتَملَّى هذه الحركة العنيفة. حركة الأيدي تنبذ كتاب الله وراء الظهور..

بين السحر والكفر:

ثم ماذا؟ ماذا بعد أن نبذوا كتاب الله المصدق لما معهم؟؟ ألعلهم قد لاذوا بما هو خير منه؟ ألعلهم قد لجأوا إلى حقّ لا شُبهة فيه؟ أَلَعلّهم قد استمسكوا بكتابهم الذي جاء القرآن يصدقه؟ كلا.. لا شيء من هذا كله.. إنهم نَبَذوا كتاب الله وراء ظهورهم ليجروا خلف أساطير غامضة لا تستند إلى حقيقة ثابتة.

﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سليمان، وما كَفَر سليمان، ولكن الشياطين كفروا. يُعلِّمون الناس السحر..﴾ [البقرة: ١٠٢]..

لقد تركوا ما أنزل الله مصدقاً لما معهم؛ وراحوا يَتَتَبَّعُون ما يَقصّه الشياطين عن عهد سليمان، وما يُضلِّلون به الناس من دعاوى مكذوبة عن سليمان، إذ يقولون: إنَّه كان ساحراً، وإنه سَخَّر ما سَخَّر عن طريق السحر الذي كان يعلمه ويستخدمه.

والقرآن ينفي عن سليمان ـ عليه السلام ـ أنه كان ساحراً، فيقول: **﴿وما كفر سليمان﴾**.

فكأنه يَعدّ السحر واستخدامه كفراً ينفيه عن سليمان ـ عليه السلام ـ ويُثبته للشياطين: **﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾**..

ثم ينفي أن السحر مُنزّل من عند الله على الملكين: هاروت وماروت. اللذين كان مقرهما بابل: **﴿وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾**..

ويبدو أنه كانت هناك قصة معروفة عنهما، وكان اليهود أو الشياطين يَدّعون أنهما كانا يعرفان السحر ويُعلمانه للناس، ويزعمان أن هذا السحر أُنزل عليهما! فنفى القرآن هذه الفرية أيضاً. فرية تنزيل السحر على الملكين.

ثم يبين الحقيقة، وهي أن هذين الملكين كانا هناك فتنة وابتلاء للناس لحكمة مُغَيَّبة. وأنهما كانا يقولان لكل من يجيء إليهما، طالباً منهما أن يُعلِّماه السحر: **﴿وما يُعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾** [البقرة: ١٠٢]..

ومرة أخرى نجد القرآن يعتبر السحر وتَعلّمه واستخدامه كفراً؛ ويذكر هذا على لسان المَلَكين: هاروت وماروت.

وقد كان بعض الناس يُصرّ على تعلم السحر منهما، على الرغم من تحذيره وتبصيره. وعندئذ تحقّ الفتنة على بعض المفتونين:

﴿فيتعلَّمون منهما ما يُفَرقون به بين المرء وزوجه﴾.. وهو الأذى والشر الذي حذَّرهم منه الملكان..

وهنا يبادر القرآن فيقرر كلية التصور الأساسية، وهي أنه لا يقع شيء في هذا الوجود إلا بإذن الله:

﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ [البقرة: ١٠٢].

فبإذن الله تفعل الأسباب فعلها وتنشىء آثارها وتحقق نتائجها.. وهذه قاعدة كلية في التصور لا بد من وضوحها في ضمير المؤمن تماماً.

وأقرب ما يمثل هذه القاعدة في مثل هذا المقام، أنك إذا عرضت يدك للنار فإنها تحترق. ولكن هذا الاحتراق لا يكون إلا بإذن الله. فالله هو الذي أودع النار خاصية الحَرق وأودع يدك خاصية الاحتراق بها. وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها؛ كما وقع لإبراهيم

ـ عليه السلام ـ وكذلك هذا السحر الذي يُفرقون به بين المرء وزوجه، يُنشيء هذا الأثر بإذن الله. وهو قادر على أن يوقف هذه الخاصية فيه حين لا يأذن لحكمة خاصة يريدها.. وهكذا بقية ما نتعارف عليه بأنه مؤثرات وآثار. كل مؤثر مودع خاصية التأثير بإذن الله، فهو يعمل بهذا الإذن، ويمكن أن يوقف مفعوله كما أعطاه هذا المفعول حين يشاء.

ثم يقرر القرآن حقيقة ما يتعلمون، وما يفرقون به بين المرء وزوجه.. إنه شرٌّ عليهم هم أنفسهم لا خير: ﴿**ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم**﴾.. ويكفي أن يكون هذا الشر هو الكفر ليكون ضَرّاً خالصاً لا نفع فيه!.

﴿**ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خَلاق**﴾ [البقرة: ١٠٢]..

ولقد علموا أن الذي يشتريه لا نصيب له في الآخرة، فهو حين يختاره ويشتريه يفقد كل رصيد له في الآخرة وكل نصيب..

فما أسوأ ما باعوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون حقيقة الصفقة: ﴿**ولبئس ما شَرَوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون**﴾ [البقرة: ١٠٢].. ﴿**ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون**﴾ [البقرة: ١٠٣].

وينطبق هذا القول على الذين كانوا يتعلمون السحر من الملكين ببابل، وعلى الذين يتبعون ما تقصه الشياطين عن عهد سليمان ومُلْكه، وهم اليهود الذين ينبذون كتاب الله وراءهم ظهرياً، ويتبعون هذا الباطل وهذا الشر الذميم.

وبعد فلا بد من كلمة هنا عن السحر، وعما يفرق بين المرء وزوجه، مما كان أولئك اليهود يَجْرُون خلفه، ويتركون كتاب الله وراء ظهورهم من أجله..

إنه ما يزال مشاهداً في كل وقت أن بعض الناس يملكون خصائص لم

يكشف العلم عن كُنهها بعد. لقد سُمِّي بعضها بأسماء ولكنه لم يُحدَّد كُنهها ولا طرائقها!.. هذا «التليباني» ـ التخاطر عن بعد ـ ما هو؟ وكيف يتم؟ كيف يملك إنسان أن يدعو إنساناً على أبعاد وفواصل لا يصل إليها صوت الإنسان في العادة ولا بصره، فيتلقى عنه، دون أن تقف بينهما الفواصل والأبعاد؟.

وهذا التنويم المغناطيسي ما هو وكيف يتم؟ كيف يقع أن تسيطر إرادة على إرادة، وأن يتصل فكر بفكر، فإذا أحدهما يوحي إلى الآخر، وإذا أحدهما يتلقى عن الآخر، كأنما يقرأ من كتاب مفتوح؟.

إن كل ما استطاع العلم أن يقوله إلى اليوم في هذه القوى التي اعترف بها، هو أن أعطاها أسماء! ولكنه لم يقل: ما هي؟ ولم يقل قط كيف تتم؟.

وثمة أمور كثيرة أخرى يُماري فيها العلم. إما لأنه لم يجمع منها مشاهدات كافية للاعتراف بها، وإما لأنه لم يهتد إلى وسيلة تُدخلها في نطاق تجاربه.. هذه الأحلام التنبئية ـ وفرويد الذي يحاول إنكار كل قوة روحية لم يستطع إنكار وجودها ـ كيف أرى رؤيا عن مستقبل مجهول، ثم إذا هذه النبوءة تصدق في الواقع بعد حين؟ وهذه الأحاسيس الخفية التي ليس لها اسم بعد. كيف أحس أن أمراً ما سيحدث بعد قليل أو أن شخصاً ما قادم بعد قليل، ثم يحدث ما توقعت على نحو من الأنحاء!.

إنه من المكابرة في الواقع أن يقف إنسان لينفي ببساطة مثل هذه القوى المجهولة في الكائن البشري، لمجرد أن العلم لم يهتد بعد إلى وسيلة يُجَرّب بها هذه القوى.

وليس معنى هذا هو التسليم بكل خرافة، والجري وراء كل أسطورة.. إنما الأسلم والأحوط أن يقف العقل الإنساني أمام هذه المجاهيل موقفاً مرناً.. لا يَنفي على الإطلاق ولا يُثبت على الإطلاق، حتى يتمكن بوسائله المتاحة له بعد ارتقاء هذه الوسائل من إدراك ما يعجز الآن

عن إدراكه؛ أو يُسَلِّم بأن في الأمر شيئاً فوق طاقته، ويعرف حدوده، ويحسب للمجهول في هذا الكون حسابه..

السحر من قبيل هذه الأمور. وتعليم الشياطين للناس من قبيل هذه الأمور. وقد تكون صورة من صوره: القُدرة على الإيحاء والتأثير، إما في الحواس والأفكار، وإما في الأشياء والأجسام.. وإن كان السحر الذي ذكر القرآن وقوعه من سَحَرة فرعون كان مُجرّد تَخَيّل لا حقيقة له: ﴿**يُخيل إليه من سحرهم أنها تسعى**﴾ [طه: ٦٦].. ولا مانع أن يكون مثل هذا التأثير وسيلة للتفريق بين المرء وزوجه، وبين الصديق وصديقه. فالانفعالات تنشأ من التأثرات. وإن كانت الوسائل والآثار، والأسباب والمسببات، لا تقع كلها إلا بإذن الله، على النحو الذي أسلفنا.

أما مَن هما الملكان: هاروت وماروت؟ ومتى كانا ببابل؟ فإن قصتهما كانت متعارفة بين اليهود. بدليل أنهم لم يُكَذّبوا هذه الإشارة ولم يعترضوا عليها. وقد وردت في القرآن الكريم إشارات مجملة لبعض الأحداث التي كانت معروفة عند المخاطبين بها؛ وكان في ذلك الإجمال كفاية لأداء الغَرَض، ولم يكن هناك ما يدعو إلى تفصيل أكثر. لأن هذا التفصيل ليس هو المقصود.

ولا نحب أن نجري نحن ـ في هذا الكتاب ـ خلف الأساطير الكثيرة التي وردت حول قصة المَلَكين. فليست هناك رواية واحدة مُحَقَّقة يوثق بها.

ولقد مضى في تاريخ البشرية من الآيات والابتلاءات ما يناسب حالتها وإدراكها في كل طور من أطوارها. فإذا جاء الاختيار في صورة مَلَكين ـ أو في صورة رَجلين طيبين كالملائكة ـ فليس هذا غريباً ولا شاذاً بالقياس إلى شتى الصور وشتى الابتلاءات الخارقة، التي مرت بها البشرية، وهي تحبو، وهي تخطو، وهي تقفو أشعة الشعلة الإلهية المنيرة في غياهب الليل البهيم!.

والمفهومات الواضحة المحكمة في هذه الآيات تُغني عن السعي وراء المُتَشَابه فيها بالقياس إلينا بعد ذلك الزمن المديد. وحسبنا أن نعلم منها ضلال بني إسرائيل في جَريهم وراء الأساطير. ونَبْذهم كتاب الله المُستيقن، وأن نعرف أن السحر من عمل الشيطان؛ وأنه من ثم كُفر يُدَان به الإنسان(١)، ويفقد به في الآخرة كل نصيب وكل رصيد.

---

(١) قال الإمام الذهبي: «الساحر لا بد وأن يكفر. قال الله تعالى: ﴿ولكن الشياطين كفروا يُعلمون الناس السحر﴾ وما للشيطان الملعون غرض في تعليمه الإنسان السحر إلا ليشرك به... فترى خلقاً كثيراً من الضلال يدخلون في السحر ويظنونه حراماً فقط. وما يشعرون أنه الكفر..

وحَدّ الساحر: القتل، لأنه كفر بالله أو مضارع الكفر. قال النبي ـ ﷺ ـ: «اجتنبوا السبع الموبقات» فذكر منها السحر. والموبقات المهلكات، فليتق العبد ربه ولا يدخل فيما يخسر به الدنيا والآخرة. وجاء عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «حدّ الساحر ضربه بالسيف» (رواه الترمذي). والصحيح أنه من قول جندب.

وعن بجالة بن عبدة أنه قال: أتانا كتاب عمر ـ رضي الله عنه ـ قبل موته بسنة أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. (رواه البخاري).

وعن وهب بن منبه قال: قرأت في بعض الكتب: يقول الله عز وجل: لا إله إلا أنا ليس مني من سَحَر ولا من سُحر له، ولا من تكهن ولا من تكهن له، ولا من تطيّر ولا من تطيِّر له.

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن خمر، وقاطع رحم، ومصدق بالسحر». (رواه الإمام أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه، وأبو يعلى، والحاكم وصححه).

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً قال: «الرقى والتمائم والتولة شرك» (رواه أحمد وأبو داود، وابن حبان والحاكم وصححاه) انظر الترغيب والترهيب.

التمائم: جمع تميمة، وهي خرزات وحروز يعلقها الجهال على أنفسهم وأولادهم ودوابهم يزعمون أنها ترد العين، وهذا من فعل الجاهلية، ومن اعتقد ذلك فقد أشرك.

والتولة: بكسر التاء وفتح الواو: نوع السحر. وهو تحبيب المرأة إلى زوجها، وجعل ذلك من الشرك لاعتقاد الجهال أن ذلك يؤثر بخلاف ما قدَّر الله تعالى. قال الخطابي رحمه الله: وأما الرقية بالقرآن. أو بأسماء الله تعالى فهي مباحة، لأن النبي ـ ﷺ ـ كان يُرقي الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ فيقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان =

الدسائس اليهودية:

أ ـ حَمْلة التشكيك والتضليل الماكرة:

ويمضي القرآن في كشف دسائس اليهود وكيدهم للإسلام والمسلمين، وتحذير الجماعة المسلمة من ألاعيبهم وحيلهم، وما تُكِنُّه نفوسهم من الحقد والشر، وما يُبيتون لهم من الكيد والضر، ونهى الجماعة المسلمة عن التَشَبُّه بهؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب في قول أو فعل؛ ويكشف للمسلمين عن الأسباب الحقيقية الدفينة التي تكمن وراء أقوال اليهود وأفعالهم، وكيدهم ودسّهم، وألاعيبهم وفتنهم، التي يطلقونها في الصف الإسلامي.

ويتجه الخطاب في القرآن الكريم إلى «الذين آمنوا» يناديهم بالصفة التي تُميزهم، والتي تربطهم بربهم ونبيهم، والتي تستجيش في نفوسهم الاستجابة والتلبية.. ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا: راعِنا وقولوا انظرنا. واسمعوا. وللكافرين عذاب أليم**﴾ [البقرة: ١٠٤]..

وبصفة الإيمان ينهاهم أن يقولوا للنبي ـ ﷺ ـ: ﴿**راعنا**﴾ ـ من الرعاية والنظر ـ وأن يقولوا بدلاً منها مرادفها في اللغة العربية: ﴿**انظرنا**﴾.. ويأمرهم بالسمع بمعنى الطاعة، ويُحذِّرهم من مَصير الكافرين وهو العذاب الأليم..

وتذكر الروايات أن السبب في ذلك النهي عن كلمة: ﴿**راعِنا**﴾.. أن سُفهاء اليهود كانوا يميلون ألسنتهم في نطق هذا اللفظ، وهم يُوجهونه للنبي ـ ﷺ ـ حتى يُؤدي معنى آخر مُشتقاً من الرعونة. فقد كانوا يخشون أن يشتموا النبي ـ ﷺ ـ مواجهة، فيحتالون على سَبّه ـ صلوات الله وسلامه

= «هامة ومن كل عين لامّة». وبالله المستعان وعليه التكلان». [كتاب الكبائر ـ الكبيرة الثالثة].

عليه ـ عن هذا الطريق الملتوي، الذي لا يسلكه إلا صغار السفهاء!.

ومن ثم جاء النهي للمؤمنين عن اللفظ الذي يتخذه اليهود ذريعة، وأُمروا أن يستبدلوا به مرادفه في المعنى، الذي لا يملك السفهاء تحريفه وإمالته، كي يُفَوِّتوا على اليهود غَرَضَهم الصغير السفيه!.

واستخدام مثل هذه الوسيلة من اليهود يشي بمدى غيظهم وحقدهم، كما يشي بسوء الأدب، وخسّة الوسيلة، وانحطاط السلوك. والنهي الوارد بهذه المناسبة يوحي برعاية الله لنبيه وللجماعة المسلمة، ودفاعه ـ سبحانه ـ عن أوليائه، بإزاء كل كيد وكل قصد شرير من أعدائهم الماكرين.

ثم يكشف للمسلمين عما تُكِنّه لهم صدور اليهود حولهم من الشر والعداء، وعما تَنْغل به قلوبهم من الحقد والحسد، بسبب ما اختصهم به الله من الفضل. لِيَحْذَروا أعداءهم، ويستمسكوا بما يحسدهم هؤلاء الأعداء عليه من الإيمان، ويشكروا فضل الله عليهم ويحفظوه:

﴿ما يَوَدّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَّل عليكم من خير من ربكم. والله يختص برحمته من يشاء. والله ذو الفضل العظيم﴾ [البقرة: ١٠٥]..

ويجمع القرآن بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر.. وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة فهما على قَدَم سواء من هذه الناحية؛ وكلاهما يضمر للمؤمنين الحقد والضغائن، ولا يودّ لهم الخير. وأعظم ما يكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين. هو أن يختارهم الله لهذا الخير وينزل عليهم هذا القرآن، ويحبوهم بهذه النعمة، ويعهد إليهم بأمانة العقيدة في الأرض، وهي الأمانة الكبرى في الوجود.

ولقد سبق الحديث عن حقدهم وغيظهم من أن يُنزل الله من فضله على من يشاء من عباده، حتى لقد بلغ بهم الغيظ أن يعلنوا عداءهم لجبريل

ـ عليه السلام ـ إذ كان يَنزل بالوَحْي على الرسول ـ ﷺ ـ: ﴿**والله يختص برحمته من يشاء**﴾ . .

فالله أعلم حيث يجعل رسالته، فإذا اختص بها محمداً ـ ﷺ ـ والمؤمنين به، فقد علم ـ سبحانه ـ أنه وأنهم أهل لهذا الاختصاص.

وليس أعظم من نِعمة النبوة والرسالة، وليس أعظم من نعمة الإيمان والدعوة إليه: ﴿**والله ذو الفضل العظيم**﴾ . .

وفي هذا التلميح ما يستجيش في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل، وفي التقرير الذي سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا ما يستجيش الشعور بالحذَر والحرص الشديد. . وهذا الشعور وذاك ضروريان للوقوف في وجه حَملة البَلْبَلة والتشكيك التي قادها ـ ويقودها ـ اليهود، لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين، وهي الخير الضخم الذي ينفسونه على المسلمين!.

واشتدت حملة اليهود عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة بعد ستة عشر شهراً من الهجرة. وكان النبي ـ ﷺ ـ قد اتجه بالصلاة ـ عقب الهجرة ـ إلى بيت المقدس ـ قِبْلة اليهود ومُصَلّاهم ـ فاتخذ اليهود من هذا التَوَجُّه حجة على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة، مما جعل الرسول ـ ﷺ ـ يرغب ولا يُصرّح في التَحوُّل عن بيت المقدس، إلى الكعبة، بيت الله المُحرّم.

وظلت هذه الرغبة تعتمل في نفسه حتى استجاب له ربه فَوَجَّهه إلى القبلة التي يرضاها ـ كما سيأتي ـ ونظراً لما يحمله هذا التحول من دحض لحجة بني إسرائيل فقد عزّ عليهم أن يفقدوا مثل هذه الحجة، فشنوها حملة دعاية ماكرة في وسط المسلمين، بالتشكيك في مصدر الأوامر التي يُكلّفهم بها رسول الله ـ ﷺ ـ وفي صحة تَلَقّيه عن الوحي . .

أي إنهم ما وَجَّهُوا المِعْول إلى أساس العقيدة في نفوس المسلمين! ثم قالوا لهم: إن كان التوجه إلى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلاتكم وعبادتكم طوال هذه الفترة. وإن كان صحيحاً ففيم التحول عنه؟.

أي إنهم وَجَّهُوا المِعْول إلى أساس الثقة في نفوس المسلمين برصيدهم من ثواب الله، وقبل كل شيء في حكمة القيادة النبوية!.

ويبدو أن هذه الحملة الخبيثة الماكرة آتت ثمرتها الكريهة في بعض نفوس المسلمين. فأخذوا يسألون الرسول - ﷺ - في قَلَق وزعزعة؛ ويطلبون البراهين والأدلة، الأمر الذي لا يتفق مع الطمأنينة المطلقة إلى القيادة، والثقة المطلقة بمصدر العقيدة. فَنَزل القرآن يُبين لهم أن نَسْخ بعض الأوامر والآيات يتبع حكمة الله الذي يختار الأحسن لعباده؛ ويعلم ما يصلح لهم في كل موقف. ويُنَبّههم في الوقت ذاته إلى أن هدف اليهود هو رَدّهم كُفاراً بعد إيمانهم؛ حَسداً من عند أنفسهم على اختيار الله لهم، واختصاصهم برحمته وفضله، بتنزيل الكتاب الأخير عليهم، وانتدابهم لهذا الأمر العظيم. ويكشف لهم ما وراء أضاليل اليهود من غَرَض دفين!.

لقد كانت الحملة - كما أسلفنا - تتعلق بنسخ بعض الأوامر والتكاليف. وبخاصة عند تحويل القبلة إلى الكعبة. الأمر الذي أبطل حجتهم على المسلمين: ﴿ما نَنْسخ من آيةٍ أو نُنْسِها نَأْتِ بخير منها أو مثلها﴾ [البقرة: ١٠٦]..

وسواء كانت المناسبة هي مناسبة تحويل القبلة - كما يدل سياق هذه الآيات وما بعدها في سورة البقرة - أم كانت مناسبة أخرى من تعديل بعض الأوامر والتشريعات والتكاليف، التي كانت تُتابع نمو الجماعة المسلمة، وأحوالها المتطورة. أم كانت خاصة بتعديل بعض الأحكام التي وردت في التوراة مع تصديق القرآن في عمومه للتوراة..

سواء كانت هذه أم هذه أم هذه، أم هي جميعاً المناسبة التي اتخذها

اليهود ذريعة للتشكيك في صلب العقيدة.. فإن القرآن يُبين هنا بياناً حاسماً في شأن النسخ والتعديل؛ وفي القضاء على تلك الشُبهات التي أثارتها يهود، على عادتها وخطتها في محاربة هذه العقيدة بشتى الأساليب.

فالتعديل الجزئي وفق مقتضيات الأحوال ـ في فترة الرسالة ـ هو لصالح البشرية، ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها. والله خالق الناس، ومرسل الرسل، ومنزل الآيات، هو الذي يقدر هذا. فإذا نسخ آية ألقاها في عالم النسيان ـ سواء كانت آية مقروءة تشتمل حُكماً من الأحكام، أو آية بمعنى علامة وخارقة تجيء لمناسبة حاضرة وتُطوى كالمعجزات المادية التي جاء بها الرسل ـ فإنه يأتي بخير منها أو مثلها! ولا يعجزه شيء، وهو مالك كل شيء، وصاحب الأمر كله في السموات وفي الأرض.. ومن ثم تجيء هذه التعقيبات: ﴿**ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير؟ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض؟ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير**﴾ [البقرة: ١٠٦ ـ ١٠٧].

والخطاب هنا للمؤمنين يحمل رائحة التحذير، ورائحة التذكير بأن الله هو وليهم وناصرهم وليس لهم من دونه ولي ولا نصير..

ولعل هذا كان بسبب انخداع بعضهم بحملة اليهود التضليلية؛ وبَلْبلة أفكارهم بحججهم الخادعة؛ وإقدامهم على تَوجيه أسئلة للرسول ـ ﷺ ـ لا تتفق مع الثقة واليقين. يدل على هذا ما جاء في الآية التالية من صريح التحذير والاستنكار:

﴿**أم تُريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئِلَ موسى من قَبل؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل**﴾ [البقرة: ١٠٨]..

فهو استنكار لِتَشَبُّه بعض المؤمنين بقومِ موسى في تعنتهم، وطلبهم للبراهين والخوارق، وإعناتهم لرسولهم كلما أَمَرهم بِأَمْر أو أبلغهم بتكليف، على نحو ما حكى القرآن الكريم عنهم في مواضع كثيرة..

وهو تحذير لهم من نهاية هذا الطريق، وهي الضلال، واستبدال الكفر بالإيمان، وهي النهاية التي صار إليها بنو إسرائيل. كما أنها هي النهاية التي يتمنى اليهود لو قادوا إليها المسلمين!.

﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ [البقرة: ١٠٩]..

وذلك ما يفعله الحقد اللئيم بالنفوس.. الرغبة في سلب الخير الذي يهتدي إليه الآخرون.. لماذا؟.

لا، لأن هذه النفوس الشريرة لا تعلم. ولكنها لأنها تعلم! ﴿حَسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾..

والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الإسلام والمسلمين، وما زالت تفيض، وهو الذي انبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلها وما تزال. وهو الذي يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه، ويعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهود اليهود لزعزعة العقيدة في نفوسهم؛ وردّهم بعد ذلك إلى الكفر الذي كانوا فيه، والذي أنقذهم الله منه بالإيمان، وخصهم بهذا بأعظم الفضل وأجلّ النعمة التي تحسدهم عليها يهود!.

وهنا ـ في اللحظة التي تتجلى فيها هذه الحقيقة، وتنكشف فيها النية السيئة والحسد اللئيم ـ هنا يدعو القرآن المؤمنين إلى الارتفاع عن مقابلة الحقد بالحقد، والشرّ بالشر، ويدعوهم إلى الصفح والعفو حتى يأتي الله بأمره، وقتما يريد:

﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره. إن الله على كل شيء قدير﴾ [البقرة: ١٠٩]..

وامضوا في طريقكم التي اختارها الله لكم، واعبدوا ربكم وادّخروا عنده حسناتكم..

وهكذا.. يوقظ القرآن وَعْيَ الجماعة المسلمة ويركزه على مصدر الخطر، ومكمن الدسيسة؛ ويُعبىء مشاعر المسلمين تجاه النوايا السيئة والكيد اللئيم والحسد الذميم.. ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشحونة كلها إلى جناب الله، ينتظرون أمره، ويُعلّقون تصرفهم بإذنه.. وإلى أن يحين هذا الأمر يدعوهم إلى العفو والسماحة، لينقذ قلوبهم من نَتَن الحقد والضغينة. ويَدَعها طَيّبة في انتظار الأمر من صاحب الأمر والمشيئة..

ثم يعود القرآن إلى ترذيل محاولات اليهود تشكيك المسلمين في صحة الأوامر والتبليغات النبوية ـ وبخاصة ما يتعلق منها بتحويل القبلة ـ ويعدها سعياً في منع ذكر الله في مساجده، وعملاً على خرابها:

﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى في خرابها؟ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين. لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم. ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فَثَمّ وجه الله، إن الله واسع عليم﴾ [البقرة: ١١٤، ١١٥]..

وأقرب ما يتوارد إلى الخاطر أن هاتين الآيتين تتعلقان بمسألة تحويل القبلة؛ وسعي اليهود لصد المسلمين عن التوجه إلى الكعبة.. أَوّلَ بيت وُضِعَ للناس وأول قبلة.. وهناك روايات متعددة عن أسباب نزولهما غير هذا الوجه..

وعلى أية حال فإن إطلاق النص يوحي بأنه حكم عام في منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه، والسعي في خرابها. كذلك الحكم الذي يرتبه على هذه الفعلة، ويقرر أنه هو وحده الذي يليق أن يكون جزاء لفاعليها. وهو قوله: **﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾**.. أي أنهم يستحقون الدفع والمطاردة والحرمان من الأمن، إلا أن يلجأوا إلى بيوت الله مُستجيرين محتمين بحرمتها مستأمنين (وذلك كالذي حدث في عام الفتح بعد ذلك إذ نادى منادي رسول الله ـ ﷺ ـ يوم الفتح: من دخل

المسجد الحرام فهو آمن.. فلجأ إليها المستأمنون من جبابرة قريش، بعد أن كانوا هم الذين يصدون رسول الله - ﷺ - ومن معه ويمنعونهم زيارة المسجد الحرام).

ويزيد على هذا الحكم ما يتوعدهم به من خزي في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة: **﴿لهم في الدنيا خزي، ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾**..

وهناك تفسير آخر لقوله: **﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾**.. أي أنه ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا في خوف من الله وخشوع لجلالته في بيوته. فهذا هو الأدب اللائق ببيوت الله، المناسب لمهابته وجلالته العظيم.. وهو وجه من التأويل جائز في هذا المقام. والذي يجعلنا نرجح أن الآيتين نزلتا في مناسبة تحويل القبلة، هو الآية الثانية منهما:

﴿ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله، إن الله واسع عليم﴾..

فهي توحي بأنها جاءت رداً على تضليل اليهود في ادعائهم أن صلاة المسلمين إذن إلى بيت المقدس كانت باطلة، وضائعة ولا حساب لها عند الله! والآية تَردّ عليهم هذا الزعم، وهي تُقرر أن كل اتجاه قبلة، فثمّ وجه الله حيثما تَوَجَّه إليه عابد، وإنما تخصيص قِبلة معينة هو توجيه من عند الله فيه طاعة، لا أن وَجْه الله - سبحانه - في جهة دون جهة. والله لا يُضيّق على عباده. ولا ينقصهم ثوابهم. وهو عليم بقلوبهم ونياتهم ودوافع اتجاهاتهم. وفي الأمر سعة. والنية لله **﴿إن الله واسع عليم﴾**..

إن القرآن الكريم يَفضح مقولات اليهود، ويُفند أباطيلهم، ويَكشف الدوافع الكامنة وراء أضاليلهم، ويكشف لرسول الله - ﷺ - عن حقيقة المعركة بينه وبين اليهود والنصارى، وطبيعة الخلاف الذي لا حلّ له إلا

بثمن لا يملكه ولا يستطيعه! ولو أداه لتعرض لغضب الله مولاه؛ وحاشاه!.

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تَتَبِع مِلَّتهم. قل: إن هدى الله هو الهدى..﴾ [البقرة: ١٢٠]..

وسيظل اليهود والنصارى يُحاربونك، ويكيدون لك، ولا يُسالمونك ولا يَرضون عنك، إلا أن تحيد عن هذا الأمر، وإلا أن تترك هذا الحق، وإلا أن تتخلى عن هذا اليقين، تتخلى عنه إلى ما هم فيه من ضلال وشرك وسوء تصور كالذي سبق بيانه:

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾..

فتلك هي العلة الأصيلة. ليس الذي ينقصهم هو البرهان؛ وليس الذي ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق، وأن الذي جاءك من ربك الحق. ولو قَدَّمت إليهم ما قدمت، ولو توددت إليهم ما توددت.. لن يرضيهم من هذا كله شيء، إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق.

إنها العقيدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ومكان.. إنها هي العقيدة. هذه حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة.. إنها معركة العقيدة هي المشبوبة بين المعسكر الإسلامي وهذين المعسكرين اللذين يتخاصمان فيما بينهما؛ وقد تتخاصم شيع المِلّة الواحدة فيما بينها، ولكنها تلتقي دائماً في المعركة ضد الإسلام والمسلمين!.

إنها معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها. ولكن المعسكرين في العداوة للإسلام والمسلمين يُلَوّنانها بألوان شتى، ويرفعان عليها أعلاماً شتى، في خبث ومكر وتورية. إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة. ومن ثم استدار الأعداء العريقون فَغَيَّروا أعلام المعركة.. لم يعلنوها حرباً باسم العقيدة ـ على

حقيقتها ـ خوفاً من حماسة العقيدة وجيشانها. إنما أعلنوها باسم الأرض، والاقتصاد، والسياسة، والمراكـز العسكريـة. . وما إليهـا. وألقوا في رَوع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها! ولا يجوز رفع راياتها، وخوض المعركة باسمها، فهذه سمة المتخلفين المتعصبين! ذلك كي يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها. . بينما هم في قرارة نفوسهم: الصهيونية العالمية والصليبية العالمية يخوضون المعركة أولاً وقبل كـل شيء لتحطيم هـذه الصخرة العـاتية التي نـطحوهـا طويـلاً، فَأَدْمَتْهم جميعاً!!.

إنها معركة العقيدة. إنها ليست معركة الأرض. ولا الغلّة. ولا المراكز العسكرية. ولا هذه الرايات المزيفة كلها. إنهم يُزيفونها علينا لغرض في نفوسهم دفين. ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها، فإذا نحن خُدعنـا بخديعتهم فلا نلومن إلا أنفسنا. ونحن نبتعد عن تـوجيه الله لنبيـه ـ ﷺ ـ ولأمته وهو ـ سبحـانه ـ أصـدق القائلين: **﴿ولن تـرضى عنك اليهـود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾**. .

فذلك هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه. وما سواه فمرفوض ومردود!.

ولكن الأمـر الحازم، والتـوجيه الصـادق: **﴿قـل إن هـدى الله هـو الهدى﴾**. .

على سبيل القصر والحصـر. هدى الله هـو الهدى. ومـا عداه ليس بهدى. فلا براح منه، ولا فكاك عنه، ولا محـاولة فيـه، ولا ترتضيـه على حسابه، ولا مساومة في شيء منه قليل أو كثير، ومن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر. وحذار أن تميل بك الرغبة في هدايتهم وإيمانهم، أو صـداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط الدقيق:

﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير﴾ [البقرة: ١٢٠].

بهذا التهديد المفزع، وبهذا القطع الجازم، وبهذا الوعيد الرعيب.. ولمن؟ لنبي الله ورسوله وحبيبه الكريم!.

إنها الأهواء.. إن مِلْتَ عن الهدى.. هدى الله الذي لا هُدى سواه.. وهي الأهواء التي تقفهم منك هذا الموقف؛ وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل.

والذين يتجردون منهم من الهوى يتلون كتابهم حق تلاوته، ومن ثم يؤمنون بالحق الذي معك؛ فأما الذين يكفرون به فهم الخاسرون، لا أنت ولا المؤمنون! ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته. أولئك يؤمنون به. ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون**﴾ [البقرة: ١٢١]..

وأي خسارة بعد خسارة الإيمان، أعظم آلاء الله على الناس في هذا الوجود؟.

ب ـ ملابسات تحويل القبلة والكيد الشرير:

ويبين القرآن الكريم الملابسات التي أحاطت على حادث تحويل القبلة، والدسائس التي حاولها اليهود في الصف المسلم بمناسبته، والأقاويل التي أطلقوها من حوله، ومعالجة هذه الأقاويل في نفوس بعض المسلمين، وفي الصف المسلم على العموم..

إن تحويل القبلة من بين المقدس إلى الكعبة كان في المدينة بعد ستة عشر أو سبعة عشر شهراً من الهجرة.

ومجموع الروايات المتعلقة بهذا الحادث يمكن أن يستنبط منها ـ بالإجمال ـ أن المسلمين في مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة منذ أن فُرضت الصلاة ـ وليس في هذا نص قرآني ـ وأنهم بعد الهجرة وُجِّهوا إلى بيت المقدس بأمر إلهي للرسول ـ ﷺ ـ يرجح أنه أمر غير قرآني. ثم جاء الأمر

القرآني الأخير: ﴿فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ [البقرة: ١٤٤]. . فنسخه.

وعلى أية حال فقد كان التَوَجُّه إلى بيت المقدس ـ وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ـ سبباً في اتخاذ اليهود ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام؛ إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول، بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة؛ وأنهم هم الأصل، فَأَوْلَى بمحمد ومن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يَدْعوهم إلى الدخول في الإسلام!.

وفي الوقت ذاته كان الأمر شاقاً على المسلمين من العرب، الذين أَلِفوا في الجاهلية أن يُعظموا حرمة البيت الحرام، وأن يجعلوه كعبتهم وقبلتهم. وزاد الأمر مشقة ما كانوا يسمعونه من اليهود من التبجح بهذا الأمر، واتخاذه حجة عليهم!.

وكان الرسول ـ ﷺ ـ يُقَلِّب وجهه في السماء متجهاً إلى ربه، دون أن ينطق لسانه بشيء تأدباً مع الله، وانتظاراً لتوجيهه بما يرضاه. . ثم نزل القرآن يستجيب لما يعتمل في صدر الرسول ـ ﷺ ـ: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها، فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ [البقرة: ١٤٤]. .

وتقول الروايات: إن المسلمين حينما سمعوا بتحويل القبلة، كان بعضهم في منتصف صلاة، فحولوا وجوههم شطر المسجد الحرام في أثناء صلاتهم، وأكملوا الصلاة تجاه القبلة الجديدة.

عندئذ انطلقت أبواب يهود ـ وقد عزّ عليهم أن يتحول محمد ـ ﷺ ـ والجماعة المسلمة عن قبلتهم، وأن يفقدوا حجتهم التي يرتكنون إليها في تعاظمهم وفي تشكيك المسلمين في قيمة دينهم ـ انطلقت تُلقي في صفوف المسلمين وقلوبهم بذور الشك والقلق في قيادتهم وفي أساس عَقيدتهم. .

قالوا لهم: إن كان التوجه ـ فيما مضى ـ إلى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة، وإن كان حقاً فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل، وضائعة صلاتكم إليه كلها..

وعلى أية حال فإن هذا النسخ والتغيير للأوامر ـ أو للآيات ـ لا يصدر من الله، فهو دليل على أن محمداً لا يتلقى الوحي من الله!.

﴿سيقول السفهاء من الناس: ما ولاَّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قل: لله المشرق والمغرب. يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم..﴾ [البقرة: ١٤٢]..

من السياق القرآني ومن سياق الأحداث في المدينة يتضح أن المقصود بالسفهاء هم اليهود. فهم الذين أثاروا الضجة التي أُثيرت بمناسبة تحويل القبلة كما أسلفنا. وهم الذين أثاروا هذا التساؤل: **﴿ما وَلَّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟﴾** وهي المسجد الأقصى.

وسنلاحظ أن علاج القرآن لهذا التساؤل ولتلك الفتنة يشي بضخامة آثار تلك الحملة في نفوس بعض المسلمين وفي الصف المسلم في ذلك الحين.. والذي يظهر من صيغة التعبير هنا: **﴿سيقول السفهاء من الناس: ما وَلَّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟﴾**.

إن هذا كان تمهيداً لإعلان تحويل القبلة، وأَخْذاً للطريق على الأقاويل والتساؤلات التي عَلِمَ الله أن السفهاء سيطلقونها.. أو كان رداً عليها بعد إطلاقها ـ كما جاء في حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه[1] ـ اتخذ

---

(١) عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: أول ما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة نزل على أجداده ـ أو قال أخواله ـ من الأنصار؛ وأنه صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهراً؛ أو سبعة عشر شهراً؛ وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر؛ وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه، فمر على أهل مسجد وهم راكعون. فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ـ ﷺ ـ قِبَلَ الكعبة، فداروا كما هم قِبَلَ البيت. =

هذه الصيغة للإيحاء بأن ما قالوه كان مُقَدَّراً أَمْره، ومعروفة خطّته، ومُعدّة إجابته. وهي طريقة من طرق الرد أعمق تأثيراً.

وهو يبدأ في علاج هذا التساؤل، والرد عليه بتلقين الرسول - ﷺ - ما يواجههم به، ويُقرُّ به الحقيقة في نصابها؛ وفي الوقت نفسه يصحح التصور العام للأمور: ﴿**قل: لله المشرق والمغرب، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾..

إن المشرق لله والمغرب لله. فكل مُتَّجه فهو إليه في أي اتجاه. فالجهات والأماكن لا فضل لها في ذاتها. إنما يفضلها ويخصصها اختيار الله وتوجيهه.. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فإذا اختار لعباده وجهة، واختار لهم قبلة، فهي إذن المختارة. وعن طريقها يسيرون إلى صراط مستقيم..

وبذلك يقرر حقيقة التصور للأماكن والجهات، وحقيقة المصدر الذي يتلقى منه البشر التوجهات، وحقيقة الاتجاه الصحيح وهو الاتجاه إلى الله في كل حال..

ثم.. ما شأن أهل الكتاب وهذه القبلة الجديدة؟:

﴿**وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم**﴾ [البقرة: ١٤٤]..

إنهم ليعلمون أن المسجد الحرام هو بيت الله الأول الذي رفع قواعده إبراهيم. جدّ هذه الأمة الوارثة وجدّ المسلمين أجمعين. وإنهم ليعلمون أن الأمر بالتوجه إليه حق من عند الله لا مِرْية فيه..

= وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قِبَلَ بيت المقدس، فلما ولى وجهه قِبَلَ البيت أنكروا ذلك، فنزلت: ﴿**قد نرى تقلب وجهك في السماء..**﴾ فقال السفهاء - وهم اليهود -: ﴿**ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها**﴾. أخرجه مالك والشيخان والترمذي.

ولَكِنَّهم مع هذا سيفعلون غير ما يوحيه هذا العلم الذي يعلمونه. فلا على المسلمين منهم؛ فالله هو الوكيل الكفيل برد مكرهم وكيدهم:

﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ [البقرة: ١٤٤]..

إنهم لن يقتنعوا بدليل، لأن الذي ينقصهم ليس هو الدليل؛ إنما هو الإخلاص والتجرد من الهوى، والاستعداد للتسليم بالحق حين يعلمونه:

﴿ولئن آتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ [البقرة: ١٤٥]..

فهم في عناد يقوده الهوى، وتؤرثه المصلحة، ويحدوه الغرض.. وإن كثيراً من طيبي القلوب ليظنون أن الذي يصد اليهود والنصارى عن الإسلام أنهم لا يعرفونه، أو لأنه لم يقدم إليهم في صورة مقنعة.. وهذا وهم..

إنهم لا يريدون الإسلام لأنهم يعرفونه! يعرفونه فهم يخشونه على مصالحهم وعلى سلطانهم، ومن ثم يكيدون له ذلك الكيد الغاصب الذي لا يفتر، بشتى الطرق وشتى الوسائل. عن طريق مباشر وعن طرق أخرى غير مباشرة. يحاربونه وجهاً لوجه، ويحاربونه من وراء ستار. ويحاربونه بأنفسهم ويستهوون من أهله من يحاربه لهم تحت أي ستار..

وهم دائماً عند قول الله تعالى لنبيه الكريم: **﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾**..

وفي مواجهة هذا الإصرار من أهل الكتاب على الإعراض عن قبلة الإسلام ومنهجه الذي ترمز هذه القبلة له، يقرر حقيقة شأن النبي - ﷺ - وموقفه الطبيعي: **﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾** [البقرة: ١٤٥]..

ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلاً. واستخدام الجملة الإسمية المنفية هنا أبلغ في بيان الشأن الثابت الدائم للرسول - ﷺ - تجاه هذا الأمر. وفيه إيحاء قوي للجماعة المسلمة من ورائه. فلن تختار قبلة غير قبلة رسولها

التي اختارها له ربه ورضيها له ليرضيه؛ ولن ترفع راية غير رايتها التي تنسبها إلى ربها؛ ولن تتبع منهجاً إلا المنهج الإلهي الذي ترمز له هذه القبلة المختارة.. هذا شأنها ما دامت مسلمة، فإذا لم تفعل فليست من الإسلام في شيء.. إنما هي دعوى..

ويستطرد فيكشف عن حقيقة الموقف بين أهل الكتاب بعضهم وبعض؛ فهم ليسوا على وفاق، لأن الأهواء تُفرّقهم:

﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ [البقرة: ١٤٥]..

والعداء بين اليهود والنصارى، والعداء بين الفرق اليهودية المختلفة، والعداء بين الفرق النصرانية المختلفة أشد عداء..

وما كان للنبي - ﷺ - وهذا شأنه وهذا شأن أهل الكتاب، وقد علم الحق في الأمر، أن يتبع أهواءهم بعدما جاءه من العلم:

﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً من الظالمين﴾ [البقرة: ١٤٥]..

ونقف لحظة أمام هذا الجد الصارم، في هذا الخطاب الإلهي من الله - سبحانه - إلى نبيه الكريم الذي حَدَّثه منذ لحظة ذلك الحديث الرفيق الودود..

إن الأمر هنا يتعلق بالاستقامة على هدي الله وتوجيهه؛ ويتعلق بقاعدة التَمَيُّز والتجرد إلا من طاعة الله ونهجه، ومن ثم يجيء الخطاب فيه بهذا الحزم والجزم، وبهذه المواجهة والتحذير: ﴿إنك إذاً لمن الظالمين﴾..

إن الطريق واضح، والصراط مستقيم.. فإما العلم الذي جاء من عند الله. وإما الهوى في كل ما عداه. وليس للمسلم أن يتلقى إلا من الله. وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب. وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد.

وإلى جانب هذا الإيحاء الدائم نلمح كذلك أنه كانت هناك حالة واقعة من بعض المسلمين، في غمرة الدسائس اليهودية وحملة التضليل الماكرة، تستدعي هذه الشدة في التحذير، وهذا الجزم في التعبير.

إن القرآن يقرر معرفة أهل الكتاب الجازمة بأن الحق في هذا الشأن وفي غيره هو ما جاء به القرآن، وما أَمَر به الرسول. ولكنهم يكتمون الحق الذي يعلمونه، للهوى الذي يضمرونه:

﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ [البقرة: ١٤٦]. .

ومعرفة الناس بأبنائهم هي قمة المعرفة، وهي مَثَل يُضرب في لغة العرب على اليقين الذي لا شبهة فيه. . فإذا كان أهل الكتاب على يقين من الحق الذي جاء به النبي - ﷺ - ومنه هذا الذي جاء به في شأن القبلة، وكان فريق منهم يكتمون الحق الذي يعلمونه علم اليقين. . فليس سبيل المؤمنين إذن أن يتأثروا بما يلقيه أهل الكتاب هؤلاء من أباطيل وأكاذيب.

وليس سبيل المؤمنين أن يأخذوا من هؤلاء الذين يستيقنون الحق ثم يكتمونه شيئاً في أمر دينهم، الذي يأتيهم به رسولهم الصادق الأمين.

وهنا يوجه الخطاب إلى النبي - ﷺ - بعد هذا البيان بشأن أهل الكتاب: **﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾** [البقرة: ١٤٧].

ورسول الله - ﷺ - ما امْتَرَىٰ يوماً ولا شك. وحينما قال له ربه في آية أخرى: **﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾** [يونس: ٩٤]. . قال: «لا أشك ولا أسأل».

ولكن توجيه الخطاب هكذا إلى شخصه - ﷺ - يحمل إيحاء قوياً إلى مَن وراءه من المسلمين. سواء منهم مَن كان في ذلك الحين يتأثر بأباطيل

اليهود وأحابيلهم، ومَن يأتي بعدهم ممن تؤثر فيهم أباطيل اليهود وغير اليهود في أمر دينهم.

وما أجدرنا نحن اليوم أن نستمع إلى هذا التحذير؛ ونحن في بلاهة منقطعة النظير ـ نروح نستفتي المستشرقين ـ من اليهود والنصارى ـ في أمر ديننا، ونتلقى عنهم تاريخنا، ونأمنهم على القول في تراثنا، ونسمع لما يدسّونه من شكوك في دراساتهم لقرآننا وحديث نبينا، وسيرة أوائلنا؛ ونرسل إليهم بعثات من طلابنا يتلقون عنهم علوم الإسلام، ويتخرجون في جامعاتهم، ثم يعودون إلينا مدخولي العقل والضمير.

إن هذا القرآن قرآننا. قرآن الأمة المسلمة. وهو كتابها الخالد الذي يخاطبها فيه ربها بما تَعمله وتَحذره. وأهل الكتاب هم أهل الكتاب. والكفار هم الكفار. والدين هو الدين!.

ثم يمضي القرآن في عرض نماذج من أهل الكتاب؛ فيعرض نموذج المُضَلِّلين، الذين يَتخذون من كتاب الله مادة للتضليل، يلوون ألسنتهم به عن مواضعه، ويؤولون نصوصه لتوافق أهواء معينة، ويشترون بهذا كله ثمناً قليلاً.. عرضاً من عرض هذه الحياة الدنيا: ومن بين ما يلوون ألسنتهم به ويحرفونه ويُؤَوّلونه ما يختص بمعتقداتهم التي ابتدعوها عن المسيح عيسى بن مريم، مما اقتضته أهواء الكنيسة وأهواء الحكام سواء:

﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، ويقولون: هو من عند الله وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ [آل عمران: ٧٨]..

هذا النموذج من بني إسرائيل ـ فيما يبدو من هذه الآيات ـ كانوا يتلمسون في كتاب الله الجُمَل ذات التعبير المجازي؛ فيلوون ألسنتهم بها ـ أي في تأويلها واستخراج مدلولات منها هي لا تدل عليها بغير ليّها وتحريفها ـ ليوهموا الدهماء أن هذه المدلولات المبتدعة هي من كتاب الله؛

ويقولون بالفعل: هذاما قاله الله، وهو ما لم يقله ـ سبحانه ـ وكانوا يهدفون من هذا إلى إثبات ألوهية عيسى ـ عليه السلام ـ ومعه «روح القدس» ـ تعالى الله عما يصفون ـ ويَروون عن عيسى ـ عليه السلام ـ كلمات تؤيد هذا الذي يدّعونه، فردّ الله عليهم هذا التحريف وهذا التأويل، بأنه ليس من شأن نبي يخصه الله بالنبوة ويصطفيه لهذا الأمر العظيم أن يَأْمر الناس أن يتخذوه إلهاً هو والملائكة. فهذا مستحيل:

﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة، ثم يقول للناس: كونوا عباداً لي من دون الله. ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون؟﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠]. .

إن النبي يوقن أنه عبد، وأن الله وحده هو الرب، الذي يتجه إليه العباد بعبوديتهم وبعبادتهم. فما يمكن أن يدعي لنفسه صفة الألوهية التي تقتضي من الناس العبودية. فلن يقول نبي للناس: **﴿كونوا عباداً لي من دون الله﴾** ولكن قولوا لهم: **﴿كونوا ربانيين﴾**. . منتسبين إلى الرب، عباداً له وعبيداً، توجهوا إليه وحده بالعبادة، وخُذوا عنه وحده منهج حياتكم، حتى تخلصوا له وحده فتكونوا «ربانيين». . بحكم عِلْمكم للكتاب وتدارسكم له. فهذا مقتضى العلم بالكتاب ودراسته.

والنبي لا يأمر الناس أبداً أن يتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً، فالنبي لا يأمر الناس بالكفر بعد أن يُسلِموا لله ويستسلموا لألوهيته، وقد جاء ليهديهم إلى الله لا ليضلهم، وليقودهم إلى الإسلام لا ليكفرهم!.

ومن ثم يتجلى الكذب على الله. . وتسقط في الوقت ذاته قيمة كل ما يقوله هذا الفريق وما يعيده لإلقاء الريب والشكوك في الصف المسلم. وقد عرّاهم القرآن هذه التعرية على مرأى ومسمع من الجماعة المسلمة!.

وهكذا نرى أن اليهود كانوا أشد الناس عداوة للجماعة المسلمة، فلم

يكونوا يحاربونها في الميدان بالسيف والرمح فحسب، ولم يكونوا يُؤلّبون عليها الأعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب. . إنما كانوا يحاربونها أولاً في عقيدتها. كانوا يحاربونها بالدس والتشكيك، ونشر الشبهات وتدبير المناورات! لقد كان اليهود يُبدئون ويُعيدون في مسألة تحويل القِبلة إلى الكعبة، وقد تبين أن اتخاذ الكعبة قِبلة للمسلمين هو الأصل وهو الأَوْلى، وأن اتخاذ بيت المقدس فترة بعد الهجرة كان لحكمة معينة بَيَّنها الله. . مع هذا فقد ظل اليهود يُبدئون في هذا الموضوع ويُعيدون، ابتغاء البلبلة والتشكيك واللبس للحق الواضح الصريح ـ على مثال ما يصنع اليوم أعداء هذا الدين بكل موضوع من موضوعات هذا الدين! وهنا يرد الله كيدهم ببيان جديد:

﴿قل: صدق الله، فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين. إن أَوّلَ بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين. فيه آيات بينات: مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً. .﴾ [آل عمران: ٩٥ ـ ٩٧]. .

ولعل الإشارة هنا في قوله: ﴿صَدَق الله﴾ تعني ما سبق تقريره في هذا الأمر، من أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون مثابة للناس وأَمْناً، وليكون للمؤمنين بدينه قِبْلَة ومُصَلّى. ومن ثم يجيء الأمر باتباع إبراهيم في ملته. وهي التوحيد الخالص المُبَرّأ من الشرك في كل صورة.

واليهود كانوا يزعمون أنهم هم ورثة إبراهيم. فها هو ذا القرآن يدلهم على حقيقة دين إبراهيم؛ وأنه الميل عن كل شرك. ويؤكد هذه الحقيقة مرتين: مرة بأنه كان حنيفاً. ومرة بأنه ما كان من المشركين. فما بالهم هم مشركين!!.

ثم يُقرر أن الاتجاه للكعبة هو الأصل. فهي أول بيت وُضع في الأرض للعبادة وخصص لها، مذ أمر الله إبراهيم أن يرفع قواعده، وأن يخصصه للطائفين والعاكفين والركع السجود. وجعله مباركاً وجعله هدى للعالمين.

فهذا هو البيت الذي اختاره الله للمسلمين قبلة. . هو بيت الله الذي جعل له هذه الكرامة. وهو أول بيت أُقيم في الأرض للعبادة. وهو بيت أبيهم إبراهيم. والإسلام هو ملة إبراهيم. فبيته هو أَوْلَى بيت بأن يتجه إليه المسلمون. وهو مثابة الأمان في الأرض. وفيه هدى للناس، بما أنه مثابة هذا الدين.

لقد وقف اليهود من الجماعة المسلمة هذا الموقف الذي أبانه القرآن الكريم للتشكيك في صدق النبوة والرسالة والدين. . فعمدوا أولاً إلى عقيدة الجماعة الإيمانية التي منها انبثق كيانها، ومنها قام وجودها، فيعملون فيها معاول الهدم والتوهين. ذلك أنهم كانوا يُدركون كما يدركون اليوم تماماً ـ أن هذه الأمة لا تُؤتى إلا من هذا المدخل؛ ولا تَهِن إلا إذا وهنت عقيدتها، ولا تُهزم إلا إذا هُزمت روحها؛ ولا يبلغ أعداؤها منها شيئاً وهي ممسكة بعروة الإيمان، مرتكنة إلى ركنه، سائرة على نهجه، حاملة لرايته، مُمثلة لحزبه، منتسبة إليه، معتزة بهذا النسب وحده. .

ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة هو الذي يُلهيها عن عقيدتها الإيمانية، ويحيد بها عن منهج الله وطريقه، ويخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة.

إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة. وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوها على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات، فإنهم يحاولون أولاً أن يغلبوها على العقيدة، لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئاً. والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها، ملتزمة بمنهجها، مدركة لكيد أعدائها. . ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهد الجبارين في خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة. ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من استعمار واستغلال، وهم آمنون من عزمة العقيدة في الصدور!.

وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة، والتشكيك فيها، والتوهين من عراها، استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة. ولكن لنفس الغاية القديمة: ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم!!!﴾ [آل عمران: ٦٩].. فهذه هي الغاية الثابتة الدفينة!.

لهذا كان القرآن يدفع هذا السلاح المسموم أولاً.. كان يأخذ الجماعة المسلمة بالتثبيت على الحق الذي هي عليه؛ وينفي الشبهات والشكوك التي يلقيها أهل الكتاب؛ ويجلو الحقيقة الكبيرة التي يتضمنها هذا الدين؛ ويقنع الجماعة المسلمة بحقيقتها وقيمتها في هذه الأرض، ودورها ودور العقيدة التي تحملها في تاريخ البشرية.

وكان يأخذها بالتحذير من كيد الكائدين، ويكشف لها نواياهم المستترة ووسائلهم القذرة، وأهدافهم الخطرة، وأحقادهم على الإسلام والمسلمين، لاختصاصهم بهذا الفضل العظيم.. ﴿ذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [الجمعة: ٤]..

وكان يأخذها بتقرير حقيقة القوى وموازينها في هذا الوجود. فيبين لها هزال أعدائها، وهوانهم على الله، وضلالهم وكفرهم بما أنزل الله إليهم من قبل وقتلهم الأنبياء. كما يبين أن الله معها، وهو مالك الملك المعز المذل وحده بلا شريك. وأنه سيأخذ هؤلاء الأعداء بالعذاب والنكال.. ﴿إن الذين يحادُّون الله ورسوله أولئك في الأذلين. كتبَ الله لأغلبن أنا ورُسلي. إن الله قوي عزيز﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١].

ولا يخالج المؤمن شك في أن وَعْد الله هو الحقيقة الكائنة التي لا بد أن تظهر في الوجود. وأن الذين يحادُّون الله ويكيدون لدينه وحملة رسالته هم الأذلُّون، وأن الله ورسله هم الغالبون. وأن هذا هو الكائن والذي لا بد أن يكون. ولتكن الظواهر غير هذا ما تكون!.

كلمة الحق والقول الفصل:

إن الحديث عن اليهود، ومواقفهم من الرسول ـ ﷺ ـ ومن الأمة المسلمة؛ هي طرف من الحديث الطويل الذي تضمنه القرآن الكريم.. فقد تناول الحديث عن فساد عقيدة اليهود والنصارى معاً، وسوء طَوية اليهود وسوء فعلهم، سواء مع أنبيائهم من قبل أو مع الرسول ـ ﷺ ـ ونصرة المشركين عليه..

كما تناول الحديث الحكم على عقيدة اليهود والنصارى التي انتهوا إليها، بأنها «الكفر» لتركهم ما جاء في كتبهم وتكذيبهم بما جاءهم به رسول الله ـ ﷺ ـ والتوكيد بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربهم.

لقد كانت هذه الأمة تتلقى هذا القرآن لتقرر ـ وفق توجيهاته وتقريراته ـ خطتها وحركتها، ولتتخذ ـ وفق هذه التوجيهات والتقريرات ـ مواقفها من الناس جميعاً. فهذا الكتابُ كان هو مُوجهها ومحركها ورائدها ومرشدها.. ومن ثم كانت تَغلب ولا تُغلب، لأنها تخوض معركتها مع أعدائها تحت القيادة الربانية المباشرة؛ مذ كان نبيها يقودها وفق الإرشادات الربانية العلوية..

وهذه الإرشادات الربانية ما تزال، والتقريرات التي تضمنها ذلك الكتاب الكريم ما تزال. والذين يحملون دعوة الإسلام اليوم وغداً خليقون أن يتلقوا هذه التقريرات وتلك الإرشادات كأنهم يُخاطَبون بها اللحظة؛ ليقرروا على ضوئها مواقفهم من شتى طوائف الناس؛ ومن شتى المذاهب والمعتقدات والآراء، من شتى الأوضاع والأنظمة وشتى القيم والموازين.. اليوم وغداً وإلى آخر الزمان...

﴿لَتَجِدَنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا..﴾ [المائدة: ٨٢]..

http://al-maktabeh.com

إن صيغة العبارة تحتمل أن تكون خطاباً للرسول ـ ﷺ ـ وأن تكون كذلك خطاباً عاماً خرج مخرج العموم، لأنه يتضمن أمراً ظاهـراً مكشوفـاً يجده كل إنسان. وهي صيغة لها نظائرها في الأسلوب العربي الذي نزل به القرآن الكريم.. وهي في كلتا الحالتين تفيد معناها الظاهر الذي تؤديه..

فإذا تقرر هذا فإن الأمر الذي يلفت النظر في صياغة العبارة هو تقديم اليهود على الذين أشركوا في صدد أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا؛ وأن شدّة عداوتهم ظاهرة مكشوفة وأَمْر مُقرر يراه كل من يَرى، ويجده كل من يتأمل!.

نعم إن العطف بالواو في التعبير العربي يفيد الجمع بين الأمرين ولا يفيد تعقيباً ولا ترتيباً.. ولكن تقديم اليهود هنا، حيث يقوم الظن بأنهم أقل عداوة للذين آمنوا من المشركين ـ بما أنهم أصلاً أهل كتاب ـ يجعل لهذا التقديم شأناً خاصاً غير المألوف من العطف بالواو في التعبير العربي! إنه ـ على الأقل ـ يُوجّه النظر إلى أنهم أهل كتاب لم يغير من الحقيقة الواقعة، وهي أنهم كالذين أشركوا أشد عداوة للذين آمنوا! ونقول: إن هذا «على الأقل». ولا ينفي هذا احتمال أن يكون المقصود هو تقديمهم في شدة العداء على الذين أشركوا.

وحين يستأنس الإنسان في تفسير هذا التقرير الرباني بالواقع التاريخي المشهود منذ مولد الإسلام حتى اللحظة الحاضرة، فإنه لا يتردد في تقرير أن عِدَاء اليهود للذين آمنوا كان دائماً أشد وأقسى وأعمق إصراراً وأطول أمداً من عداء الذين أشركوا!.

لقد واجه اليهود الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى التي قامت فيها دولة الإسلام بالمدينة. وكادوا للأمة المسلمة منذ اليوم الأول الذي أصبحت فيه أمة. وتضمن القرآن الكريم من التقريرات والإشارات عن هذا العداء وهذا الكيد ما يكفي وحده لتصوير تلك الحرب المريرة التي شنها اليهـود

على الإسلام وعلى رسول الإسلام ـ ﷺ ـ وعلى الأمة المسلمة في تاريخها الطويل؛ والتي لم تَخْبُ لحظة واحدة قرابة أربعة عشر قرناً، وما تزال حتى اللحظة يتسعر أوارها في أرجاء الأرض جميعاً.

لقد عقد الرسول ـ ﷺ ـ أول مقدمه إلى المدينة، معاهدة تعايش مع اليهود؛ ودعاهم إلى الإسلام الذي يُصدّق ما بين أيديهم من التوراة.. ولكنهم لم يفوا بهذا العهد ـ شأنهم في هذا كشأنهم مع كل عهد قطعوه مع ربهم أو مع أنبيائهم من قبل، حتى قال الله فيهم: **﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون. أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم؟ بل أكثرهم لا يؤمنون. ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نَبَذَ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾** [البقرة: ٩٩ ـ ١٠١]..

ولقد أضمروا العداء للإسلام والمسلمين منذ اليوم الأول الذي جمع الله فيه الأوس والخزرج على الإسلام، فلم يعد لليهود في صفوفهم مدخل ولا مخرج، ومنذ اليوم الأول الذي تحددت فيه قيادة الأمة المسلمة وأمسك بزمامها محمد رسول الله ـ ﷺ ـ فلم تعد لليهود فرصة للتسلط!.

ولقد استخدموا كل الأسلحة والوسائل التي تفتقت عنها عبقرية المكر اليهودية، وأفادتها من قرون السبي في بابل، والعبودية في مصر، والذل في الدولة الرومانية. ومع أن الإسلام قد وَسِعَهم بعدما ضاقت بهم المِلل والنِحَل على مدار التاريخ، فإنهم ردوا للإسلام جميله عليهم أقبح الكيد وألأم المكر منذ اليوم الأول.

ولقد ألبوا على الإسلام والمسلمين كل قوى الجزيرة العربية المشركة؛ وراحوا يجمعون القبائل المتفرقة لحرب الجماعة المسلمة: **﴿ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾** [النساء: ٥١]..

ولما غلبهم الإسلام بقوة الحق ـ يوم أن كان الناس مسلمين ـ استداروا يكيدون له بدس المفتريات في كتبه ـ لم يسلم من هذا الدس إلا كتاب الله الذي تكفل بحفظه ـ سبحانه ـ ويكيدون له بالدس بين صفوف المسلمين، وإثارة الفتن عن طريق استخدام حديثي العهد بالإسلام ومن ليس لهم فيه فقه من مسلمة الأقطار. ويكيدون له بتأليب خصومه عليه في أنحاء الأرض.. حتى انتهى بهم المطاف أن يكونوا في العصر الأخير هم الذين يقودون المعركة مع الإسلام في كل شبر على وجه الأرض؛ وهم الذين يستخدمون الصليبية والوثنية في هذه الحرب الشاملة، وهم الذين يقيمون الأوضاع ويصنعون الأبطال الذين يتسمون بأسماء المسلمين، ويشنونها حرباً صليبية صهيونية على كل جَذر من جذور هذا الدين!.

وصدق الله العظيم: **﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾** [المائدة: ٨٢]..

إن الذي ألَّب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة في المدينة؛ وجمع بين اليهود من بني قريظة وغيرهم؛ وبين قريش في مكة، وبين القبائل الأخرى في الجزيرة.. يهودي..

والذي ألَّب العوام، وجمع الشراذم، وأطلق الشائعات، في فتنة مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ وما تلاها من النكبات.. يهودي..

والذي قاد حملة الوَضْع والكذب في أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ وفي الروايات والسير.. يهودي..

ثم إن الذي كان وراء إثارة النعرات القومية في دولة الخلافة الأخيرة؛ ووراء الانقلابات التي ابتدأت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال «الدستور» بها في عهد السلطان عبد الحميد، ثم انتهت بإلغاء الخلافة جملة على يدي «البطل» أتاتورك.. يهودي..

وسائر ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على طلائع البعث الإسلامي في كل مكان على وجه الأرض ووراءه يهود!.

ثم لقد كان وراء النزعة المادية الإلحادية.. يهودي.. ووراء النزعة الحيوانية الجنسية.. يهودي.. ووراء معظم النظريات الهدامة لكل المقدسات والضوابط.. يهود[1].

ولقد كانت الحرب التي شنها اليهود على الإسلام أطول أمداً، وأعرض مجالاً، من تلك التي شنها المشركون والوثنيون ـ على ضراوتها ـ قديماً وحديثاً..

إن المعركة مع مشركي العرب لم تمتد إلى أكثر من عشرين عاماً في جملتها. وكذلك كانت المعركة مع فارس في العهد الأول.

أما في العصر الحديث فإن ضراوة المعركة بين الوثنية الهندية والإسلام ضراوة ظاهرة؛ ولكنها لا تبلغ ضراوة الصهيونية العالمية.. (التي تعد الماركسية مجرد فرع لها) وليس هناك ما يماثل معركة اليهود مع الإسلام في طول الأمد وعرض المجال إلا معركة الصليبية..

فإذا سمعنا الله ـ سبحانه ـ يقول: **﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾**..

ويقدم اليهود في النص على الذين أشركوا.. ثم راجعنا هذا الواقع التاريخي، فإننا ندرك طَرَفاً من حكمة الله في تقديم اليهود على الذين أشركوا!.

إنهم هذه الجبلة النكدة الشريرة. التي ينغل الحقد في صدورها

---

(١) يراجع فصل: اليهود الثلاثة: ماركس وفرويد ودركايم في كتاب «التطور والثبات» لمحمد قطب.

http://al-maktabeh.com

على الإسلام وعلى نبي الإسلام، فَيُحَذِّر الله نبيه وأهل دينه منها. . ولم يغلب هذه الجبلة النكدة الشريرة إلا الإسلام وأهله يوم أن كانوا أهله! . . ولن يخلص العالم من هذه الجبلة النكدة إلا الإسلام يوم يفيء أهله إليه. .

لقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حرباً شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم. حاربوه بالاتهام: ﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين﴾ [الصف: ٦]. . كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجديد. وحاربوه بالدس والوقيعة داخل المعسكر الإسلامي، للإيقاع بين المهاجرين والأنصار في المدينة، وبين الأوس والخزرج من الأنصار.

وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة. وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما وقع في غزوة الأحزاب.

وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى في حديث الإفك على يدي عبد الله بن أبي سلول، ثم ما جرى في فتنة عثمان على يد عدو الله عبد الله بن سبأ.

وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التي دسوها في الحديث وفي السيرة وفي التفسير ـ حين عجزوا عن الوضع والكذب في القرآن الكريم. ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة. فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام، وظلتا تغيران عليه أو تؤلبان عليه في غير وناة ولا هدنة في جيل من الأجيال.

حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق، وحاربوه في الأندلس في المغرب، وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حرباً شعواء حتى مَزَّقوها وقَسَّموا تركة ما كانوا يسمونه «الرجل المريض». . واحتاجوا أن يخلقوا أبطالاً مُـزَيَّفين في أرض الإسلام يعملون لهم في تنفيذ أحقادهم

ومكايدهم ضد الإسلام. فلما أرادوا تحطيم «الخلافة» والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامي صنعوا في تركيا «بطلاً»!.. ونفخوا فيه. وتراجعت جيوش الحلفاء التي كانت تحتل الأستانة أمامه لتحقق منه بطلاً في أعين مواطنيه. بطلاً يستطيع إلغاء الخلافة، وإلغاء اللغة العربية، وفصل تركيا عن المسلمين، وإعلانها دولة مدنية لا علاقة لها بالدين! وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية في بلد من بلاد المسلمين، ليقيموا مكانه عصبية غير عصبية الدين! وراية غير راية الدين.

لقد صدّق الواقع التاريخي ما حذر الله الأمة المسلمة إياه؛ من اليهود ومن النصارى سواء. وإذا كان الواقع التاريخي قد حفظ لليهود وقفتهم النكدة للإسلام منذ اليوم الأول الذي دخل فيه الإسلام عليهم المدينة؛ في صورة كيد لم ينته ولم يَكُفّ حتى اللحظة الحاضرة؛ وإذا كان اليهود لا يزالون يقودون الحملة ضد الإسلام في كل أرجاء الأرض اليوم في حقد خبيث وكيد لئيم.. فإن هذا الواقع قد حفظ كذلك للنصارى الصليبيين أنهم اتخذوا من الإسلام موقف العداء منذ واقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيوش الروم ـ فيما عدا الحالات التي وقع فيها أن قلوب البعض استجابت للإسلام ودخلت فيه. وفيما عدا حالات أخرى آثرت فيها طوائف من النصارى أن تحتمي بعدل الإسلام من ظلم طوائف أخرى من النصارى كذلك؛ يلاقون من ظلمها الوبال ـ أما التيار العام الذي يمثل موقف النصارى جملة فهو تلك الحروب الصليبية التي لم يَخْبُ أوارها قط ـ إلا في الظاهر ـ منذ التقى الإسلام والرومان على ضفاف اليرموك!.

لقد تجلت أحقاد الصليبية على الإسلام وأهله في الحروب الصليبية المشهورة طوال قرنين من الزمان، كما تجلت في حروب الإبادة التي شنتها الصليبية على الإسلام والمسلمين في الأندلس، ثم في حملات الاستعمار

والتبشير على الممالك الإسلامية في إفريقية أولاً، ثم في العالم كله أخيراً. .

ولقد ظلت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية حليفتين في حرب الإسلام ـ على كل ما بينهما من أحقاد ـ ولكنهم كانوا في حربهم للإسلام كما قال عنهم العليم الخبير: ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ [المائدة: ٥١]. . حتى مزقوا دولة الخلافة الأخيرة. ثم مضوا في طريقهم ينقضون هذا الدين عروة عروة. وبعد أن أجهزوا على عروة «الحكم» ها هم أولاء يحاولون الإجهاز على عروة «الصلاة»!.

ثم ها هم أولاء يعيدون موقف اليهود القديم مع المسلمين والوثنيين. فيؤيدون الوثنية حيثما وُجِدت ضد الإسلام. عن طريق المساعدات المباشرة تارة، وعن طريق المؤسسات الدولية التي يشرفون عليها تارة أخرى! وليس الصراع بين الهند وباكستان على كشمير وموقف الصليبية منها ببعيد.

ذلك فوق إقامة واحتضان وكفالة الأوضاع التي تتولى سحق حركات الإحياء والبعث الإسلامية في كل مكان على وجه الأرض. وإلباس القائمين بهذه الأوضاع أثواب البطولة الزائفة ودق الطبول من حولهم، ليستطيعوا الإجهاز على الإسلام، في زحمة الضجيج العالمي حول الأقزام الذين يلبسون أردية الأبطال!.

هذا موجز سريع لما سجله الواقع التاريخي طوال أربعة عشر قرناً؛ من مواقف اليهودية والصليبية تجاه الإسلام؛ لا فرق بين هذه وتلك؛ ولا افتراق بين هذا المعسكر وذاك في الكيد للإسلام، والحقد عليه، والحرب الدائبة التي لا تفتر على امتداد الزمان. .

وهذا ما ينبغي أن يعيه الواعون اليوم وغداً؛ فلا ينساقوا وراء حركات التمييع الخادعة أو المخدوعة، التي لا تنظر إلى متابعة تقريرات القرآن عامة؛ ودون متابعة للواقع التاريخي الذي يصدق هذا كله ـ ثم تتخذ من ذلك

وسيلة لتخدير مشاعر المسلمين تجاه المعسكرات التي تضمر لهم الحقد وتُبَيِّت لهم الكيد، الأمر الذي تبذل فيه هذه المعسكرات جهدها، وهي بصدد الضربة الأخيرة الموجهة إلى جذور العقيدة.

إن هذه المعسكرات لا تخشى شيئاً أكثر مما تخشى الوعي في قلوب العصبة المؤمنة ـ مهما قَلَّ عددها وعدتها ـ فالذي يُنِيمُون هذا الوعي هم أعدى أعداء هذه العقيدة. ويكون بعضهم من الفرائس المخدوعة؛ ولكن ضررهم لا يقل ـ حينئذ ـ عن ضرر أعدى الأعداء، بل إنه ليكون أشدّ أذى وضراً.

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم.. فلنقرأه إذن على بصيرة:

﴿فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا سحر مبين. ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً وهو يُدعى إلى الإسلام؟ والله لا يهدي القوم الظالمين، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ [الصف: ٦ ـ ٩]..

﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهِهِم. والله متمّ نوره ولو كره الكافرون﴾..

وهذا النص القرآني يعبر عن حقيقة، ويرسم في الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء! فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم: **﴿هذا سحر مبين﴾**.. ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد. وهي صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل!.

﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾.. وصدق وَعْد الله. أَتَمّ نوره في حياة الرسول ـ ﷺ ـ فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج

الإلهي المختار. صورة ذات معالم واضحة وحدود مرسومة، تترسمها الأجيال لا نظرية في بطون الكتب، ولكن حقيقة في عالم الواقع، وأَتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً يحبونه، ويجاهدون في سبيله، ويرضى أحدهم أن يُلْقَى في النار ولا يعود إلى الكفر. فتمت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء. وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين. وتنبض وتنتفض قائمة ـ على الرغم من كل ما جُرّد على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد. لأن نور الله لا يمكن أن تُطفئه الأفواه، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد، في أيدي العبيد! وإن خُيل للطغاة الجبارين، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بلغوا هذا الهدف البعيد!.

لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين، فكان من الحتم أن يكون: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون﴾**..

وشهادة الله لهذا الدين بأنه «الهدى ودين الحق» هي الشهادة. وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة. ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله. ظهر في ذاته كَدِين، فما يثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته. فأما الديانات الوثنية فليست في شيء في هذا المجال. وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمتها، وهو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها، فهو هي، في الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان.

ولقد حُرفت تلك الديانات وشُوِّهَتْ ومُزقت وزِيدَ عليها ما ليس منها، ونقصت من أطرافها، وانتهت لحال لا تصلح معه لشيء من قيادة الحياة. وحتى لو بقيت من غير تحريف ولا تشويه فهي نسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتجددة أبداً، لأنها جاءت في تقدير الله لأمد محدود.

فهذا تحقيق وَعْد الله من ناحية طبيعة الدين وحقيقته. فأما من ناحية

واقع الحياة، فقد صدق وعد الله مرة، فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله فدانت له معظم الرقعة المعمورة في الأرض في مدى قرن من الزمان. ثم زحف زحفاً سلمياً بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقية، حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا في إبان الحركات الجهادية الأولى.. وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة ـ منذ أن قضت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الخلافة الأخيرة في تركيا على يدي «البطل» الذي صنعوه! ـ وعلى الرغم من كل ما يُرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد، ومن تحطيم للحركات الإسلامية الناهضة في كل بلد من بلاد الإسلام على أيدي «أبطال» آخرين من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء.

وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يُؤدِّيها، ظاهراً بإذن الله على الدين كله تحقيقاً لوعد الله، الذي لا تقف له جهود العبيد المهازيل، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل!.

ولقد كانت تلك الآيات حافزاً للمؤمنين المخاطَبين بها على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها بعد أن لم يَرعها اليهود والنصارى.. وكانت تطميناً لقلوبهم وهم يُنفذون قَدَر الله في إظهار دينه الذي أراده ليظهر، وإن هم إلا أداة.. وما تزال حافزاً ومطمئناً لقلوب المؤمنين الواثقين بوعد ربهم، وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وَعْد الله مرة أخرى في واقع الحياة. بإذن الله.

لوثة يهودية:

لقد مكر اليهود مكراً شديداً، وبذروا في كل وقت وحين الشرَّ والفساد في كل نواحي الحياة، حتى إنهم استغلوا لوثة الإلحاد التي ظهرت في الجاهلية الحديثة التافهة في إنكار الله أبشع استغلال!.

والحقيقة أن هناك شَكّاً كثيراً فيما إذا كان هؤلاء المُلحدون يُصدّقون أنفسهم! فأغلب الظن أنها بدأت مناورة في وجه الكنيسة؛ ثم استغلها اليهود لرغبتهم في تدمير قاعدة الحياة البشرية الأساسية، كي لا يبقى على وجه الأرض من يقوم على هذه القاعدة غيرهم ـ كما يقولون في بروتوكولات حكماء صهيون ـ ومن ثم تَنهار البشرية وتَقع تحت سيطرتهم؛ بما أنهم هم وحدهم الذين سيحافظون على مصدر القوة الحقيقية الذي توفره العقيدة!.

واليهود ـ مهما بلغ من كَيدهم ومكرهم ـ لا يملكون أن يغلبوا الفطرة البشرية، التي تجد في قراراتها الإيمان بوجود إله ـ وإن كانت تضلّ فقط في معرفة الإله الحق بصفاته الحقة؛ كما أنها تنحرف بعدم توحيد سلطانه في حياتها، فتوصم بالشرك والكفر على هذا الأساس ـ ولكن بعض النفوس تفسد فطرتها، وتتعطل فيها أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية. وهذه النفوس وحدها هي التي يمكن أن يفلح معها كيد اليهود الذي يستهدف نفي وجود الله فيها. ولكن هذه النفوس المعطلة الفطرة ستظل قليلة وشاذة في مجموع البشر في كل زمان.. والملحدون الحقيقيون على ظهر الأرض لا يتجاوزون بضع ملايين في الاتحاد السوفيتي[1] والصين من بين مئات الملايين الذين يحكمهم المُلحدون بالحديد والنار؛ على الرغم من الجهد الناصب خلال سبعين عاماً في نزع الإيمان بكل وسائل التعليم والإعلام!.

إنما يفلح اليهود في حقل آخر. وهو تحويل الدين إلى مجرد مشاعر وشعائر. وطرده من واقع الحياة. وإيهام المعتقدين به أنهم يمكن أن يظلوا مؤمنين بالله؛ مع أن هناك أرباباً أخرى هي التي تُشرع لحياتهم من دون الله!

(١) لقد كان الاتحاد السوفيتي هو القوة العظمى التي كان يرهبها الغرب الرأسمالي ويحسب حسابها، وكان هذا العملاق الشديد قد تشكل بقوة الحديد والنار على الإلحاد وإنكار الله، ومحاولة خنق الفطرة الإنسانية.. ولكن الله ـ سبحانه ـ محيط بهم وبمكرهم، وإن كان مكرهم من القوة والتأثير أبعد شيء عن تصور الضعف والزوال.. ثم سقط ومال؛ وتبدد وزال، وتبعثر وتمزق، وكأنه وهمٌ قد مضى وخيال قد زال..

ويصلون بـذلك إلى تـدمير البشـرية فعـلاً، حتى مع وَهْمهـا أنها لا تـزال تؤمن بالله.

وهم يستهـدفون الإسـلام ـ قبل كـل دين آخر ـ لأنهم يعـرفـون من تاريخهم كله، أنهم لم يغلبهم إلا هذا الدين يوم كان يحكم الحياة. وأنهم غالبو أهله طالما أهله لا يحكمونه في حياتهم؛ مع تَوَهّمهم أنهم ما يزالون مسلمين مؤمنين بالله! فهذا التخدير بوجود الدين ـ وهو غير موجود في حياة الناس ـ ضروري لتنجح المؤامرة.. أو يأذن الله فيصحو الناس!.

وأحسب ـ والله أعلم ـ أن اليهود الصهيونيين، والنصارى الصليبيين، كليهما، قد يئسوا من هذا الدين في هذه المنطقة الإسلامية الـواسعة في إفريقية وآسيا وأوروبا كذلك.. يئسوا من أن يُحولوا الناس فيها إلى الإلحاد ـ عن طريق المذاهب المادية ـ كما يئسوا كذلك من تحويلهم إلى ديانات أخرى عن طريق التبشير أو الاستعمار. ذلك أن الفطرة البشرية بذاتها تنفر من الإلحاد وترفضه حتى بين الوثنيين ـ فضلاً على المسلمين ـ وأن الديانات الأخرى لا تجرؤ على اقتحام قلب عَرَف الإسلام، أو حتى وَرِثَ الإسلام!.

وأحسب ـ والله أعلم ـ أنه كان من ثمرة اليأس من هذا الدين أن عَدَل اليهود والصهيونيون والنصارى الصليبيون عن مواجهـة الإسلام جَهـرة عن طريق الشيوعية أو عن طريق التبشير؛ فعدلوا إلى طرائق أخبث، وإلى حبائل أمكر.. لجأوا إلى إقـامة أنـظمة وأوضـاع في المنطقـة كلها تَـتَـزَيّا بـزي الإسلام؛ وتتمسح في العقيدة؛ ولا تنكر الدين جملة.. ثم هي تحت هذا الستار الخادع، تنفذ جميع المشروعات التي أشارت بها مؤتمرات التبشير وبروتوكلات صهيون، ثم عجزت عن تنفيذها كلها في المدى الطويل!.

إن هذه الأنظمة والأوضاع ترفع راية الإسلام ـ أو على الأقـل تعلن احترامها للدين ـ بينما هي تحكم بغير ما أنزل الله؛ وتقصي شريعة الله عن الحياة؛ وتحل ما حرم الله؛ وتنشر تصورات وقيماً مادية عن الحياة والأخلاق

تدمر التصورات والقيم الإسلامية؛ وتسلط جميع أجهزة التوجيه والإعلام لتدمير القيم الأخلاقية الإسلامية، وسحق التصورات والاتجاهات الدينية؛ وتنفذ ما نصت عليه مؤتمرات المبشرين وبروتوكولات الصهيونيين، من ضرورة إخراج المرأة المسلمة إلى الشارع، وجعلها فتنة للمجتمع، باسم التطور والتحضر ومصلحة العمل والإنتاج، بينما ملايين الأيدي العاملة في هذه البلاد متعطلة لا تجد الكفاف! وتيسر وسائل الانحلال وتدفع الجنسين إليها دفعاً بالعمل والتوجيه. . كل ذلك وهي تزعم أنها مسلمة وأنها تحترم العقيدة! والناس يتوهمون أنهم يعيشون في مجتمع مسلم، وأنهم هم كذلك مسلمون! أليس الطيبون منهم يُصلون ويصومون؟ أما أن تكون الحاكمية لله وحده أو أن تكون للأرباب المتفرقة، فهذا ما قد خدعتهم عنه الصهيونية والصليبية والتبشير والاستعمار والاستشراق وأجهزة الإعلام الموجهة؛ وأفهمتهم أنه لا علاقة له بالدين. وأن المسلمين يمكن أن يكونوا مسلمين، وفي دين الله؛ بينما حياتهم كلها تقوم على تصورات وقيم وشرائع وقوانين ليست من هذا الدين!.

وإمعاناً في الخداع والتضليل، وإمعاناً من الصهيونية العالمية والصليبية العالمية في التخفي، فإنها تُثير حروباً مصطنعة ـ باردة أو ساخنة ـ وعداوات مصطنعة في شتى الصور، بينها وبين هذه الأنظمة والأوضاع التي أقامتها والتي تكفلها بالمساعدات المادية والأدبية، وتحرسها بالقوى الظاهرة والخفية، وتجعل أقلام مخابراتها في خدمتها وحراستها المباشرة!.

تثير هذه الحروب المصطنعة والعداوات المصطنعة، لتزيد من عمق الخدعة؛ ولتبعد الشبهة عن العملاء، الذين يقومون لها بما عجزت هي عن إتمامه في خلال ثلاثة قرون أو تزيد؛ من تدمير القيم والأخلاق؛ وسحق العقائد والتصورات؛ وتجريد المسلمين في هذه الرقعة العريضة من مصدر قوتهم الأول. . وهو قيام حياتهم على أساس دينهم وشريعتهم. . وتنفيذ

المخططات الرهيبة التي تضمنتها بروتوكولات الصهيونيين ومؤتمرات المبشرين؛ في غفلة من الرقباء والعيون!.

فإذا بقيت بقية في هذه الرقعة لم تجز عليها الخدعة؛ ولم تستسلم للتخدير باسم الدين المزيف؛ وباسم الأجهزة الدينية المسخرة لتحريف الكَلِمَ عن مواضعه؛ ولوصف الكفر بأنه الإسلام؛ والفسق والفجور والانحلال، بأنه تطور وتقدم وتجدد.. إذا بقيت بقية كهذه سُلّطت عليها الحرب الساحقة الماحقة؛ وصُبّت عليها التهم الكاذبة الفاجرة وسُحقت سحقاً، بينما وكالات الأنباء العالمية وأجهزة الإعلام العالمية خرساء صماء عمياء!!!.

ذلك بينما الطيبون السذّج من المسلمين يحسبون أنها معركة شخصية، أو طائفية، لا علاقة لها بالمعركة المشبوبة مع هذا الدين؛ ويروحون يشتغلون في سذاجة بلهاء ـ من تأخذه الحمية للدين منهم وللأخلاق ـ بالتنبيه إلى مخالفات صغيرة، وإلى منكرات صغيرة، ويحسبون أنهم أدُّوا واجبهم كاملاً بهذه الصيحات الخافتة.. بينما الدين كله يُسحق سحقاً، ويُدمَّر من أساسه؛ وبينما سلطان الله يغتصبه المغتصبون، وبينما الطاغوت ـ الذي أُمروا أن يكفروا به ـ هو الذي يحكم حياة الناس جملة وتفصيلاً!.

إن اليهود الصهيونيين والنصارى الصليبيين يفركون أيديهم فرحاً بنجاح الخطة وجواز الخدعة؛ بعدما يئسوا من هذا الدين أن يقضوا عليه مواجهة باسم الإلحاد، أو يُحَوّلُوا الناس عنه باسم التبشير، فترة طويلة من الزمان..

إلا أن الأمل في الله أكبر؛ والثقة في هذا الدين أعمق، وهم يمكرون والله خير الماكرين. وهو الذي يقول: ﴿**وقد مكروا مكرهم، وعند الله مكرهم، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال، فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله، إن الله عزيز ذو انتقام**﴾ [إبراهيم: ٤٦، ٤٧]..

أما مواجهة دليل الخلق ودليل الحياة للوثنة الإلحاد، فهي مواجهة قوية، لا يجد الملحدون إزاءها إلا المماحلة والمغالطة والالتواء:

إن وجود هذا الكون ابتداء، بهذا النظام الخاص، يستلزم ـ بمنطق الفطرة البديهي وبمنطق العقل الواعي على السواء ـ أن يكون وراءه خالق مُدبّر. فالمسافة بين الوجود والعدم مسافة لا يملك الإدراك البشري أن يعبرها، إلا بتصور إله ينشىء ويخلق ويوجد هذا الوجود.

والذين يُلحدون يعمدون إلى هذه الفجوة فيريدون ملأها بالمكابرة. ويقولون: إنه لا داعي لأن نفترض أنه كان هناك عَدَم قبل الوجود!.. ومن هؤلاء فيلسوف عرف بأنه فيلسوف «الروحية» المدافع عنها في وجه «المادية». وعلى هذا الأساس ربما أشاد به بعض المخدوعين من «المسلمين» واستأنسوا بأقواله لدينهم كأنما ليؤازروا دين الله بقول عبد من العبيد.. هذا الفيلسوف هو «برجسون» اليهودي!!.

إنه يقول: إن هذا الوجود الكوني لم يسبقه عدم! وإن فرض الوجود بعدم العدم ناشىء من طبيعة العقل البشري الذي لا يستطيع أن يتصور إلا على هذا النحو. فإلى أي منطق يا ترى يستند برجسون إذن في إثبات أن الوجود الكوني لم يسبقه عدم؟.

إلى العقل؟ لا. فإن العقل ـ كما يُقرر ـ لا يمكن أن يتصور إلا وجوداً بعد عدم! إلى وحيٍ من الله؟ إنه لا يدعي هذا. وإن كان يقول: إن حدس المتصوفة كان دائماً يجد إلهاً ولا بد أن نصدق هذا الحدس المطرد (الإله الذي يتحدث عنه برجسون ليس هو الله إنما هو الحياة!).. فأين المصدر الثالث الذي يعتمد عليه (برجسون) إذن في إثبات أن الوجود الكوني غير مسبوق بعدم؟ لا ندري!.

إنه لا بد من الالتجاء إلى تصور خالق خَلَق هذا الكون.. لا بد من الالتجاء إلى هذا التصور لتعليل مجرد وجود الكون.. فكيف إذا كان الحال

أنه لم يوجد مجرد وجود. ولكنه وجد محكوماً بنواميس لا تتخلف، محسوباً فيها كل شيء بمقاييس، قصارى العقول البشرية أن تدرك أطرافاً منها، بعد التدبر الطويل[1]! كذلك نشأة هذه الحياة. والمسافة بينها وبين المادة ـ أياً كان مدلول المادة ولو كان هو الإشعاع ـ لا يمكن تعليلها إلا بتصور وجود إله خالق مدبر. يخلق الكون بحالة تسمح بنشأة الحياة فيه؛ وتسمح بكفالة الحياة أيضاً بعد وجودها.

والحياة الإنسانية بخصائصها الباهرة درجة فوق مجرد الحياة. . وأصل الإنسان من طين. . أي من مادة هذه الأرض وجنسها؛ ولا بد من إرادة مُدبّرة تمنحه الحياة، وتمنحه خصائص الإنسان عن قصد واختيار.

وكل المحاولات التي بذلها الملحدون لتعليل نشأة الحياة باءت بالفشل ـ عند العقل البشري ذاته ـ منها محاولة (ديورانت) المتفلسف الأمريكي للتقريب بين نوع الحركة الذي في الذرة ـ وهو يسميه درجة من الحياة ـ ونوع الحياة المعروف في الأحياء. وذلك في جهد مستميت لملء الفجوة بين المادة الهامدة والحياة النابضة. بقصد الاستغناء عن الإله الذي ينشىء الحياة في الموات!.

ولكن هذه المحاولة المستميتة لا تنفعه ولا تنفع الماديين في شيء. . ذلك أنه إن كانت الحياة صفة كامنة في المادة، ولم يكن وراء هذه المادة قوة أخرى ذات إرادة، فما الذي يجعل الحياة التي في المادة الكونية تتبدى في

---

(١) الهاربون من الكنيسة التي كانت تستطيل على رقاب العباد باسم «الله» كان كل هَمّهم في القرن الثامن عشر والتاسع عشر إنكار «الله». ولكن «المثاليين» منهم اختاروا «العقل» ليعطوه كل خصائص الله وصفاته! و«الماديين» منهم اختاروا «الطبيعة» ليعطوها هذه الخصائص والصفات، لأنه لم يكن لهؤلاء ولا لهؤلاء مفرّ من افتراض شيء فوق الطاقة البشرية يَكلُون إليه تفسير هذا الوجود وما يجري فيه. . وفقط كانوا يريدون إنكار الله. ليخلصوا من قبضة الكنيسة!!. .

درجات بعضها أرقى وأعقد من بعض؟ فتتبدى في الذرة مجرد حركة آلية غير واعيـة. ثم تتبدى في النبـات في صورة عضـوية. ثم تتبـدى في الأحياء المعروفة في صورة عضوية أكثر تركيباً وتعقيـداً.. ما الـذي جعل المـادة - المتضمنة للحياة كما يقال - يأخذ بعضها من عنصر الحياة أكثر مما يأخذ البعض الآخر، بلا إرادة مُدبّرة؟ ما الذي جعل الحياة الكامنة في المـادة، تختلف في مدارجها المترقية؟!.

إننا نفهم هذا التفاوت يوم نُقدّر أن هناك إرادة مدبرة هي التي تصنع ذلك مختارة مريدة. فأما حين تكون المادة (الحيـة ولنفرض ذلـك!) هي وحدها، فإنه يستحيل على العقل البشـري ذاته أن يفهم هـذا التفاوت أو يُعلّله!.

إن التعليل الإسلامي لانبثاق الحياة في درجاتها المتفاوتة هـو الحل الوحيد لهذه الظاهرة التي لا تعللها المحاولات البائسة!.

وإذ كنـا - في هذا الكتـاب - لا نخرج عن المنهـج القرآني، فـإننا لا نمضي أكثر من هذا في مواجهة لـوثة الإلحـاد ببراهين الخَلْق والتـدبير والحياة.. فالقرآن الكريم لم يجعل قضية وجـود الله قضيته. لعلم الله أن الفطرة ترفض هذه اللوثة. إنما القضية هي قضية توحيد الله، وتقرير سلطانه في حياة العبد؛ وهي القضية التي تتوخاها آيات القرآن..

http://al-maktabeh.com

القسم الخامس

مِن قَصَص الرحمان

المحتوى | ص

المحتوى	ص
ـ قصة أصحاب الجنة	٦٤٥
ـ كَرامة في سَحابة	٦٦٣
ـ قصة الكِفْل	٦٧٩
ـ قصة قاتل المئة	٧١٣
ـ قصة عيسىٰ عليه السلام ـ والسارق	٧٣٣
ـ قصة الورع الصادق	٧٣٧
ـ حِكمة وتَقدير وتَدبير	٧٤٣
ـ قصة الأَمانة والإِيمان	٧٤٧
ـ بيت المقدس ومسائل سليمان عليه السلام	٧٦١
ـ سَفينة الحياة	٧٦٥

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة أصحاب الجنة

المحتوى	ص
ـ تقديم وتقرير	٦٤٧
ـ عاقبة المكر والكيد	٦٥٣
ـ الصفحة المقابلة	٦٥٨

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة أصحاب الجنة

يضرب القرآن الكريم مثلاً على عاقبة البطر، وهم أصحاب الجنة ـ جنة الدنيا ـ تهديداً للمتعالين في الأرض. تهديداً لكبراء قريش المُعتَزّين بأموالهم وأولادهم ممن لهم مال وبنون؛ الكائدون للدعوة بسبب ما لَهم من سلطان محدود.

﴿إنا بلوناهم كما بَلَونا أصحابَ الجنة إذ أقسموا ليُصْرِمُنَّها مُصبحين، ولا يستثنون، فطاف عليهم طائف من ربك وهم نائمون، فأصبحت كالصّريم، فتَنادَوا مُصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين، فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخُلَها عليكم مسكين، وغَدَوْا على حَرْد قادرين، فلما رأَوْها قالوا إنا لضالون﴾ [القلم: ١٧ ـ ٢٦].

هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى للمعاندين المفسدين الذين أعطاهم الله المال والبنين ليبتليهم فيما أتاهم. فلم ينهضوا بحق العطاء، ولم يوفوا بحق المال، وكان البطر الذي يبطره المكذبون.

يضرب القرآن لكفار قريش مثلاً بقصة يبدو أنها كانت معروفة عندهم، شائعة بينهم، ويُذكِّرهم فيها بعاقبة البطر بالنعمة، ومنع الخير والاعتداء على حقوق الآخرين؛ ويشعرهم أن ما بين أيديهم من نِعَم المال والبنين، إنما هو ابتلاء لهم كما ابتُلي أصحاب هذه القصة، وأن له ما بعده، وأنهم غير متروكين لما هم فيه. فهو الابتلاء، وهي الفتنة.. فهؤلاء فيما أنعم الله عليهم من متاع

الدنيا لاهين، وفي هذه الغمرة غافلين مشغولين بما هم فيه، ولا يشعرون بما وراء المال والبنين من مصير ومآل وشر مستطير.

لقد غفل هؤلاء الغافلون لأن قلوبهم في غمرة عن الحق، لم يمسسها نوره المحيي، لانشغالها عنه، واندفاعها في تيه الدنيا، حتى تفيق على الهول، لتلقى العذاب الأليم، وتلقى معه اللوم والتوبيخ..

﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين، ولا يستثنون. فطاف عليهم طائف من ربك وهم نائمون، فأصبحت كالصّريم..﴾ [القلم: ١٧ - ٢٠]..

وهذه القصة قد تكون متداولة ومعروفة، ولكن السياق القرآني يكشف عما وراء حوادثها من فعل الله وقدرته، ومن ابتلاء وجزاء لبعض عباده. ويكون هذا هو الجديد في سياقها القرآني.

ومن خلال نصوصها وحركاتها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه في تفكيرها وتصورها وحركتها بأهل الريف البسطاء السُّذَّج. ولعلّ هذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة، الذين كانوا يعاندون ويجحدون، ولكن نفوسهم ليست شديدة التعقيد، إنما هي أقرب إلى السذاجة والبساطة!

والقصة من ناحية الأداء تمثل إحدى طرق الأداء الفني للقصة في القرآن؛ وفيه مفاجآت مشوّقة، كما أن فيه سخرية بالكيد البشري العاجز أمام تدبير الله وكيده. وفيه حيوية في العرض حتى لكأن السامع - أو القارىء - يشهد القصة حية تقع أحداثها أمامه وتتوالى(١). فلنحاول أن نراها كما هي في سياقها القرآني:

ها نحن أولاء أمام أصحاب الجنة - جنة الدنيا لا جنة الآخرة - وها هم أولاء يُبيتون في شأنها أمراً. لقد كان للمساكين حظّ من ثمر هذه الجنة - كما

---

(١) يراجع فصل: القصة في القرآن في كتاب «التصوير الفني في القرآن».

تقول الروايات[1] ـ على أيام صاحبها الطيّب الصالح. ولكن الورثة يريدون أن يستأثروا بثمرها الآن، وأن يحرموا المساكين حظَّهم.. فلننظر كيف يصنعون.. ولننظر كيف تجري الأحداث إذن!

﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة. إذ أقسموا لَيَصْرِمُنَّها مصبحين ولا يستثنون﴾[2]..

لقد وصف القرآن الكريم الحديقة حين كانت تُستغَلّ في الخير وفي إعطاء المساكين حقهم بـ **﴿الجنة﴾**.

جنّةٌ دانية القطوف، فوّاحة الزهر، أشجارها موقرة الثمار، صاحبها

---

(١) ذكر بعض السلف أن هؤلاء ـ أصحاب الجنة ـ كانوا عرباً من أهل اليمن، قال سعيد بن جبير: كانوا من قرية يقال لها: ضروان على ستة أميال من صنعاء، وقيل: كانوا من أهل الحبشة وكان أبوهم قد خلّف لهم هذه الجنة وكانوا من أهل الكتاب من بني إسرائيل..

وسواء كان أصحاب الجنة عرباً من اليمن أم من غير العرب من بني إسرائيل، فذلك أمر لا تتعلق به عبرة، والقرآن الكريم يطوي مثل هذه الجزئيات ـ كما عرفنا من قبل..

قال ابن كثير في التفسير:

«وقد كان أبوهم يسير في الجنة سيرة حسنة فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ويدخّر لعياله قوت سنتهم ويتصدّق بالفاضل. فلما مات وورثه بنوه قالوا: لقد كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ولو أنّا منعنَاهم لنوفر ذلك علينا فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية رأس المال والربح والصدقات. فلم يبقَ لهم شيء..».

(٢) «أي ليقطعن ثمارها مبكرين قبل أن يراهم أحد من ذوي الحاجات، ولا يستثنون، وأكثر المفسرين يفسرون هذه الآية الكريمة **﴿ولا يستثنون﴾** أي أنهم لا يستثنون في يمينهم فلم يقولوا إن شاء الله، ولكن الذين يبدو لنا في تفسير الآية ـ والله أعلم ـ أنهم عزموا على أن لا يتركوا شيئاً من ثمار جنتهم للفقراء والمساكين فقد أقسموا أن يقطعوا جنتهم ويجذوها مصبحين دون أن يستثنوا من ثمرها شيئاً، إن الاستثناء في اليمين أي قول ـ إن شاء الله ـ اصطلاح متأخر عن العهد المكي: وهو أمر لا يُحمد عليه هؤلاء، فما داموا قد عزموا على أن يمنعوا ذوي الحقوق حقوقهم، وأقسموا على ذلك، حتى لو مضوا أن يقولوا إن شاء الله فإن ذلك ليس مكرمة لهم وليس لهم فيه مثوبة» [الشيخ الدكتور فضل عباس: القصص القرآني: ٤١٩ ـ ٤٢٠].

شاكر لأنعم الله، يعرف حقّ الله فيما أعطاه، يَفِدُ إليه جماعات الفقراء على ما عوّدهم من كل عام، فيعطيهم نصيبهم وافراً..

ولكن أصحاب الجنة الذين ورثوا هذه النعمة بعد موت أبيهم، هيمنت عليهم الأنانية وسيطر عليهم الشحّ.. لقد قرَّر رأيهم على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر، دون أن يستثنوا منه شيئاً للمساكين. وأقسموا على هذا، وعقدوا النية عليه وباتوا بهذا الشرّ فيما اعتزموه.. ولندع أولئك بعد أن أقسموا ليصرمنها مصبحين تداعبهم أحلامهم الشريرة وخيالاتهم المريضة الفاسدة.. فلندعهم في غفلتهم أو في كيدهم الذي بيَّتوه.. فماذا عن الجنة؟ ولننظر ماذا يجري من ورائهم في بهمة الليل وهم لا يشعرون. فإن الله ساهر لا ينام كما ينامون، وهو يدبِّر لهم غير ما يدبرون، جزاء على ما بيّتوا من بطر بالنعمة ومنع للخير، وبُخل بنصيب المساكين المعلوم.. إن هناك مفاجأة تتم في خفية. وحركة لطيفة كحركة الأشباح في الظلام. والناس نيام:

﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصّريم﴾[1].. وهم لا يشعرون..

لقد علم الله سوء نيتهم، ودخيلة نفوسهم، وسمع قولهم، وما انعقد عليه رأيهم من حرمان المسكين وأكل نصيب السائل والمحروم.. فأرسل الله إلى جنتهم طائفاً أقلع نبتها وأسقط ثمرها وأحرق أعوادها وأوراقها.. **﴿فطاف عليها طائف من ربك﴾**.. «بهذه العبارة المصورة الموحية، لقد أحاط بها هذا الطائف، هذه الجائحة السماوية فلم تترك منهم سرباً واحداً، بل لم تترك شجرة بل فرعاً بل ثمرة واحدة، كل هذا وهم نائمون! فأصبحت سوداء أحرقها الإعصار»[2]..

فلندع الجنة وما أَلَمَّ بها مؤقتاً لننظر كيف يصنع المبيتون الماكرون.

---

(١) كأنها مقطوعة الثمار. فقد ذهب الطائف الذي طاف عليها بكل ثمرها!
(٢) القصص القرآني ٤٢٠.

http://al-maktabeh.com

ها هم أولاء يَصحون مبكرين كما دبروا! وهم لا يدرون ما أصاب جنتهم في ظلام الليل المبهم.. ها هم أولاء ينادي بعضهم بعضاً لينفذوا ما اعتزموا: ﴿فتنادوا مصبحين: أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين﴾ [القلم: ٢١، ٢٢]..

يذكر بعضهم بعضاً ويوصي بعضهم بعضاً، ويحمس بعضهم بعضاً!

وهكذا فلما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى قطع الثمار.. «كُلٌّ ينادي الآخر يستعجله قبل أن يفوت الأوان كأن كلاً منهم ينادي صاحبه ينادي بعضهم بعضاً أن اغدوا على حرثكم، واخرجوا مبكرين إن كنتم صارمين..»(١).

ثم يمضي السياق في السخرية منهم، فيصورهم منطلقين، يتحدثون في خفوت، زيادة في إحكام التدبير، ليجتنوا الثمر كله لهم، ويحرموا منه المساكين!

﴿فانطلقوا وهم يتخافتون: أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾!!! [القلم: ٢٣، ٢٤]..

وكأنما نحن الذين نسمع القرآن أو نقرؤه نعلم ما لا يعلمه أصحاب الجنة من أمرها.. أجل فقد شهدنا تلك اليد الخفية اللطيفة تمتد إليها في الظلام، فتذهب بثمرها كله. ورأيناها كأنما هي مقطوعة الثمار بعد ذلك الطائف الخفي الرهيب!

فلنمسك أنفاسنا إذن، لنرى كيف يصنع الماكرون المبيتون.

إن السياق ما يزال يسخر من الماكرين المبيتين: ﴿وغدوا على حرد قادرين﴾!

أجل إنهم لقادرون على المنع والحرمان.. حرمان أنفسهم على أقل تقدير!!

---

(١) المصدر السابق.

http://al-maktabeh.com

يقول الشيخ الدكتور فضل عباس[1]: «وينطلق القوم يمشون على عجل وهم يشعرون أنهم متخلفون كأنما يريدون أن يستدركوا ما فاتهم، هذا ما تعطيه هذه الكلمة الكريمة: ﴿انطلقوا﴾ أما قوله تعالى: ﴿وهم يتخافتون﴾ فما أكثر ما تعطيه هذه الجملة وما تلقيه من ظلال فعلى الرغم من أنهم وحدهم سائرون في الصباح لا يسمعهم أحد ومع ذلك فهم يتسارّون فيما بينهم، ولا داعي لهذا الإسرار ولا حاجة له، ولكن القرآن يصور لنا هذا الجشع، وتلك الأنانية، وصدق الله ﴿قل: لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً﴾ [الإسراء: ١٠٠] كانوا يتخافتون فيما بينهم أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين، وغدوا على حرد قادرين، صاروا في غدوتهم متوهمين أنهم قادرون على حرد: أي قادرون على منع الفقراء والمساكين من أن يدخلوا جنتهم». .

ها هم أولاء يفاجأون. فلننطلق مع السياق ساخرين. ونحن نشهدهم مفجوئين: ﴿فلما رأوها: إنا لضالون﴾ [القلم: ٢٦][2]. . ها هم أولاء على أسوار الحديقة يتساءلون: أهذه جنتنا وقد تركناها بالأمس مُورقة الشجر، دانية القطوف! ما هذه جنتنا الموقرة بالثمار! ما نظن أن هذه حديقتنا وإننا لضالون. . لقد ضللنا إليها الطريق! هذه الحديقة خاوية على عروشها، خَلَتْ من ثمارها اليانعة؛ ولكن أليست هذه المعالم الكثيرة تدل على أن المكان هو المكان. . ها هم أولاء يعودون فيتأكدون:

﴿بل نحن محرومون﴾ [القلم: ٢٧]. . وهذا هو الخبر اليقين!

---

(١) القصص القرآني ٤٢٠.

(٢) قال ابن كثير: أي فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها وهي على الحالة التي قال الله عز وجل قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمة لا ينتفع بشيء منها فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ولهذا قالوا: ﴿إنا لضالون﴾ أي قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها، قاله ابن عباس وغيره، ثم رجعوا عما كانوا فيه وتيقنوا أنها هي فقالوا: ﴿بل نحن محرومون﴾ أي بل هي هذه ولكن لا حظ لنا ولا نصيب.

إنهم ليسوا تائهين إذن.. فهم مُعاقَبون محرومون..

عاقبة المكر والكيد:

والآن وقد حاقت بهم عاقبة المكر والتبييت، وعاقبة البطر والمنع، يتقدَّم أوسطهم وأعقلهم وأصلحهم ـ ويبدو أنه كان له رأي غير رأيهم. ولكنه تابعهم عندما خالفوه وهو فريد في رأيه، ولم يُصرّ على الحق الذي رآه فناله الحرمان كما نالهم(١). ولكنه يذكرهم ما كان من نصحه وتوجيهه:

﴿**قال أوسطهم: ألم أقل لكم: لولا تُسبِّحُون**﴾(٢)؟! [القلم: ٢٨]..

والآن فقط يسمعون للناصح بعد فوات الأوان. ويدرك القوم عِظَم وفداحة ما حَلَّ بهم من العقوبة الإلهية.. ها هم أولاء يعترفون بظلمهم، وأي ظلم أعظم من أن يمنع صاحب الحق حقه، وأي ظلم أعظم من الجحود والكفر بالنعمة التي وَهَبها الله..

﴿**قالوا: سبحان ربنا، إنا كُنَّا ظالمين**﴾ [القلم: ٢٩]..

---

(١) يقول الدكتور فضل عباس في هذا الموضوع: «.. وهنا يتدخل أعقلهم كأنما يريد أن يذكرهم بما كان منه ويقررهم بما حدث، ألم أقل لكم لولا تسبحون، ألم أنهكم عما عزمتم عليه من منع ذوي الحقوق حقوقهم، ألم أحثكم على أن تذكروا الله، ولكن أي أثر لذلك القول، إنه لم يترك أثراً حتى في نفس صاحبه، كان لزاماً على صاحب هذا القول أن يستمر على قوله، أن يستمر على نصيحته وأن يدوم على معارضته، ولكنه ضعف أمامهم، وصاحب الحق حري به أن لا يضعف، ومَن يدري لو أن صاحبهم هذا كان ذا إصرار وحزم وعزيمة لاستطاع أن يقيهم شرَّ ما حلَّ بهم، والقرآن الكريم يبين لنا تلك الحقائق لتكون لنا فيها العبرة فلا نضعف عن حق نوقن به، كما ضعف ذلكم الرجل الذي تحرك في نفسه وازع الخير ولكنه لم يستطع أن يقاوم الهواجس والوساوس في داخله كما ضعف عن مقاومة إصرار أخوته على باطلهم وجشعهم..» [القصص القرآني: ٤٢١].

(٢) قيل معناه: ألم أقل لكم لولا تسبحون؟ أي فهلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم.

لقد مضى قَدَر الله في الظالمين، ومضت سنّته تعالى في المسرفين، وبقي الأسف والأسى يعصر القلوب، ويحرق العروق، ويحزن النفوس.. ها هم أولاء أصحاب الجنة في شرود وذهول وهلع..

ويصور القرآن الكريم هذا الذهول الذي أصابهم بعد أن حَلَّ بهم البلاء **﴿فأقبلَ بعضهم على بعض يتلاومون﴾**! [القلم: ٣٠]..

وكما يتنصَّل كل شريك من التبعة عندما تسوء العاقبة، ويتوجه باللوم إلى الآخرين.. ها هم أولاء يصنعون: **﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾**!.

ولكن التلاوم لا يجدي شيئاً.. ثم ها هم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعاً بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة. عسى أن يغفر الله لهم، ويعوضهم من الجنة الضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير: **﴿قالوا: يا ويلنا! إنا كنا طاغين. عسىٰ ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾** [القلم: ٣١، ٣٢]..

وقبل أن يسدل السياق الستار على المشهد الأخير نسمع التعقيب: **﴿كذلك العذاب. ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾** [القلم: ٣٣]..

يقول الإمام ابن قيم الجوزية: «إن الله سبحانه أخبر عن أهل الجنة الذين بلاهم مما بلاهم به.. فقد كان للمساكين حقٌّ في أموالهم، إذا جدّوا نهاراً، بأن يلتقط المساكين ما يتساقط من الثمر، فأرادوا أن يجدوا[1] ليلاً ليسقط ذلك الحق، ولئلا يأتيهم مسكين، وأنه عاقبهم بأنه أرسل على جنتهم طائفاً وهم نائمون. فأصبحت كالصريم. وذلك لما تحيّلوا على إسقاط نصيب المساكين بأن يصرموها مصبحين قبل مجيء المساكين، فكان في ذلك عبرة لكل محتال على إسقاط حق من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده[2].

---

(١) الجداد: بفتح الجيم وكسرها صرام النخل وهو قطعها.
(٢) إغاثة اللهفان ١/٣٥٨.

ولهذا عاقب الله سبحانه وتعالى مَن احتال على إسقاط نصيب المساكين وقت الجداد بحرمانهم الثمرة كلها[1]. مع أن جداد النخل عمل مباح أي وقت شاء صاحبه لكن لما قصد به أصحابه في الليل الفقراء عاقبهم الله تعالى بإهلاكه. ثم قال: ﴿**ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون**﴾ [القلم: ٣٣]..

ثم جاءت السُّنة بكراهة الجداد بالليل، لكونه ذريعة إلى هذه المفسدة. ونصَّ عليه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل وغيره»[2].

روى ابن كثير في التفسير: «عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هُيىء له» ثم تلا رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿**فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم**﴾.. قد حرموا خير جنتهم وعوقبوا بنقيض قصدهم فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية رأس المال والربح والصدقة فلم يبقَ لهم شيء. قال الله تعالى: ﴿**كذلك العذاب**﴾ أي هكذا عذاب مَن خالف أمر الله وبخل بما أتاه الله وأنعم به عليه ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات وبدّل نعمة الله كفراً ﴿**ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون**﴾ أي هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق».

وقد ورد في حديث رواه الحافظ البيهقي من طريق جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جدّه أن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن الجذاذ بالليل والحصاد بالليل»[3].

وكذلك الابتلاء بالنعمة. فليعلم المشركون أهل مكة ومَن وراءهم إلى يوم القيامة ﴿**إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة**﴾ ولينظروا ماذا وراء

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٢.
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٩٣.
(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

http://al-maktabeh.com

الابتلاء.. ثم ليحذروا ما هو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذاب الدنيا: **﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾**!

إنه تهديد رعيب مخيف لِمَن يبخلون بما آتاهم الله من فضله، ويحسبون أن هذا البخل خير لهم، يحفظ لهم أموالهم ومزارعهم وتجارتهم، فلا تذهب بالإنفاق.. والقرآن الكريم يقرر بأن ما منعوه من حق المساكين سيطوقونه يوم القيامة ناراً: **﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شرٌّ لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة. ولله ميراث السموات والأرض. والله بما تعملون خبير﴾** [آل عمران: ١٨٠]..

تهديد مفزع.. والتعبير يزيد هذا المنع والبخل شناعة حين يذكر أنهم **﴿يبخلون بما آتاهم الله من فضله﴾**.. فهم لا يبخلون بمال أصيل لهم. فقد جاءوا إلى هذه الحياة لا يملكون شيئاً.. ولا جلودهم..! فآتاهم الله من فضله فأغناهم. حتى إذا طلب إليهم أن ينفقوا **﴿من فضله﴾** شيئاً لم يذكروا فضل الله عليهم. وبخلوا بالقليل، وحسبوا أن في منعه خيراً لهم. وهو شر فظيع.. وهم ـ بعد هذا كله ـ ذاهبون وتاركوه وراءهم.. فهذا المال إلى أمد قصير. ولا يبقى لهم منه إلا القدر الذي أنفقوه ابتغاء مرضاته، فيبقى مدخراً لهم عنده، بدلاً من أن يطوقهم إياه يوم القيامة! يطوقهم ناراً تلظى.. ويا لسوئها من أطواق! أطواق تحيط بالظالمين. أطواق تحرق وتشوي.. أطواق من نار حامية تنفذ بحميمها إلى الجسد كله. وهو يوافق ما أسلفوا وما قدموا. يوافق ما بخلوا به من فضل الله..

إن صورة عذابهم في الآخرة بما منعوا من حق الفقراء والمساكين لمرعبة ومخيفة.. مشهد من المشاهد التصويرية المروعة يوم القيامة.

إن مجرد تصور مشهد عملية العذاب ليطيل الحزن والخوف في الخيال والحس.. هذه الأموال وهذه الكنوز تنتهي يوم القيامة إلى نار يحمى عليها في جهنم يطوقون بها. ثم ها هي ذي معدّة لتزيد في عذاب صاحبها الذي كان يلتذ بكنزِها ومنعها أن تذهب في سبيل الله! ها هي ذي

الجباه والجنوب والظهور والصدور تكوى بنار تلظَّى لا يصلاها إلا الأشقى الذي مَنَع حق ربِّه الأعلى ﴿**ومَن يبخل فإنما يبخل عن نفسه. والله الغني وأنتم الفقراء**﴾ [محمد: ٣٨]. .

فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور، يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد، يوم يُحشرون مجردين من كل ما يملكون. فلا يجدون إلا ذلك الرصيد المذخور. فإذا بخلوا بالبذل، فإنما يبخلون على أنفسهم، ويحرمونها بأيديهم!

وهكذا يسوق القرآن الكريم إلى قريش هذه التجربة، تجربة أصحاب الجنة من واقع البيئة، ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط ـ سبحانه ـ بين سنّته في الغابرين وسنّته في الحاضرين؛ ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم. وفي الوقت ذاته يشعر المؤمنين بأن ما يرونه على المشركين ـ من كبراء قريش ـ من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله، له عواقبه، وله نتائجه. وسُنته أن يبتلي بالنعمة كما يبتلي بالبأساء سواء. فأما المتبطرون المانعون للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم، فذلك كان مثلاً لعاقبتهم: ﴿**ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون**﴾. .

إنه لموقف التهديد ببطش الله. ولو ترى إذ وُقِفوا على النار، ورأوا عاقبة البخل والمنع والاستكبار. . هناك ينطلق الندم المخزي المؤلم، فتتتَابهم الحسرة في الموقف المهين الذليل في تفريطهم بحق الله في الحياة الدنيا ﴿**قالوا: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها**﴾ [الأنعام: ٣١]. .

إن القرآن الكريم يعرض الموقف المؤلم، والمشهد الحزين في رنة الحسرة المهينة، وكأنما يأخذ بالسامع ليقفه أمام المشهد يتملاه، وأمام الموقف يتدبره. . يقفه بحركة تكاد الألفاظ تجسمها!

هناك في الدنيا وَقَف أصحاب الجنة ـ جنة الدنيا ـ حين منعوا حق المساكين، وقفوا بعد أن أصبحت كالصريم فقالوا في ضيق خانق ﴿**إنا**

لمحرومون﴾. . ثم **﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾**. .

إنها صور في مشاهد فيها ناس يتحركون. . يتألمون ويتحسرون، يراهم السامع. . يشاهدهم ويتملاهم في حزنهم وضيقهم. . إنها صور تمثل الواقع الصادق في مواجهة الحق، وواقع النفس البشرية. .

وأما المتقون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعيم: **﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾** [القلم: ٣٤]. .

والذي يعطي ويتقي فهو الأسعد في مقابل ذلك الممنوع الأشقى الذي ضلَّ عن هدي ربه الأعلى. . **﴿فأنذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى. الذي كذب وتولى وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى﴾** [الليل: ١٤، ١٨]. .

لقد بيَّن الله في كتابه العزيز مَن هو الأتقى: **﴿الذي يؤتي ماله يتزكى﴾**. . الذي ينفق ماله ليتطهر بإنفاقه، لا ليرائي به ويستعلي، ينفقه تطوعاً لا رداً لجميل أحد، ولا طلباً لشكران أحد، وإنما ابتغاء وجه ربه خالصاً. . ربه الأعلى. .

هؤلاء المتقون. الشديدي الحساسية برقابة الله لهم، ورقابتهم هم لأنفسهم، وقد وصف الله حالهم مع الناس، وحالهم مع المال، فهو مما يليق بالمحسنين **﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾** [الذاريات: ١٩]. .

فهم يجعلون نصيب السائل الذي يسأل فَيُعطَى، ونصيب المحروم الذي يسكت ويستحيي فيحرم. يجعلون نصيب هذا وهذا حقاً مفروضاً في أموالهم. وهم متطوعون بفرض هذا الحق غير المحدود.

إنها سمة المتقين وصورة المحسنين. . إنها الصفحة المقابلة يرسمها القرآن الكريم، فريق آخر، فريق مستيقن لا يخرص، تقي لا يتبجح؛ مستيقظ يعبد ويعطي، ولا يقضي العمر في غمرة وغفلة وذهول.

ثم ماذا ينتظر هذا الأتقى، الذي يُؤتي ماله ابتغاء وجه ربه الأعلى؟ إن الجزاء الذي يطالع القرآن به الأرواح المؤمنة هنا عجيب.. ﴿ولسوف يرضى﴾ [الليل: ٢١]..

إنه الرضى ينسكب في قلب هذا الأتقى. إنه الرضى يغمر روحه. إنه الرضى يفيض على جوارحه. إنه الرضى يشيع في كيانه. إنه الرضى يندي حياته..

ويا له من جزاء! ويا لها من نعمة كبرى!

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والصدقة برهان..»[١]، والبرهان: هو الشُّعاع الذي يلي وجه الشمس، ومنه سُمِّيت الحجة القاطعة برهاناً، لوضوح دلالتها على ما دلت عليه، فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان، وطيب النفس بها علامة على وجود حلاوة الإيمان وطعمه، كما في حديث عبد الله بن معاوية الغاضِري، عن النبي ـ ﷺ ـ: «ثلاث مَن فعلهن فقد طعم طعمَ الإيمان: مَن عَبَد الله وحده، وأنه لا إلّه إلا الله، وأدَّى زكاة ماله طيِّبةً بها نفسُه رافدةً عليه في كل عام»[٢].

وقريباً منه حديث أبي الدرداء فيمن أدى زكاة ماله طيبة بها نفسُه، قال: وكان يقول: «لا يفعل ذلك إلا مؤمن». وسبب هذا أن المال تُحبُّه النفوس، وتبخل به، فإذا سمحت بإخراجه لله عز وجل دَلَّ على صحة إيمانها بالله ووعده ووعيده.

وهكذا تحسم قصة أصحاب الجنة قضية الإنفاق في سبيل الله،

---

(١) من حديث أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الطُّهور شطر الإيمان...» رواه مسلم. انظر «جامع العلوم والحكم» الحديث الثالث والعشرون.

(٢) خرّجه أبو داود في «السنن» (١٥٨٢) رجاله ثقات لكن في سنده انقطاع بين يحيى بن جابر وبين جبير بن نفير، ورواه موصولاً بسند صحيح الطبراني في «الصغير» (٥٥٥)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» ١/ ٢٦٩، ومن طريقه البيهقي ٤/ ٩٥ ـ ٩٦.

وسنّته سبحانه وتعالى، وعذابه الشديد لمَن يمنع حق الفقراء والمساكين! ألم تَرَ كيف فعَل ربُّ العالمين بهؤلاء الذين منعوا حقّ عباد الله المساكين. إن بطشه لشديد مروّع مفزع. إنها سنّة الله لا تدع ريبة لمستريب. ثم ينتظرهم عذاب جهنم وعذاب الحريق ﴿**ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون**﴾ [القلم: ٣٣]..

والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله تهلكة للنفس بالشح، وتهلكة للجماعة بالعجز والضعف ﴿**وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ [البقرة: ١٩٥]..

وقال تعالى: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون. وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم**﴾ [آل عمران: ٩٢]..

وقد فَقِهَ المسلمون معنى هذا التوجيه الإلهي، وحرصوا على أن ينالوا البر ـ وهو جماع الخير ـ بالنزول عما يحبون، وببذل الطيب من المال، سخية به نفوسهم في انتظار ما هو أكبر وأفضل.

عن أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طَلْحة رضي الله عنه أكثرَ الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أَحبُّ أمواله إليه بَيْرحَاء، وكان مُسْتَقْبلَةَ المسجد(١)، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يَدخُلُها وَيَشربُ من ماء فيها طيِّب(٢). قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿**لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا مما تُحبُّون**﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله إن الله تعالى أنزل عليك: ﴿**لن تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا مما تُحبُّون**﴾ وإن أَحَبَّ مالي إليَّ بَيْرحَاء، وإنَّها صدقةٌ للَّه تعالى أرجو بِرَّها(٣) وذُخْرَهَا عند الله تعالى، فَضَعْها يا رسول الله حيثُ أراكَ الله، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ:

---

(١) أي: المسجد النبوي.
(٢) أي: عذب.
(٣) برها: أي: خيرها، و «ذُخْرها» أي: أجرها عند الله تعالى.

http://al-maktabeh.com

«بخٍ[1]! ذلك مالٌ رابح، ذلك مال رابح[2]، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسَّمَها أبو طلحة في أقارِبه، وبني عَمِّه»[3].

وفي الصحيحين أن عمر رضي الله عنه قال: «يا رسول الله لم أصب مالاً قط، هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر. فما تأمرني به؟ قال: «احبس الأصل، وسبل الثمرة»..

وعلى هذا الدرب سار الكثيرون منهم يلبون توجيه ربهم الذي هداهم إلى البر كله، يوم هداهم إلى الإسلام. ويتحررون بهذه التلبية من استرقاق المال، ومن شح النفس، ومن حب الذات؛ ويصعدون في هذا المرتقى السامق الوضيء أحراراً خفافاً طلقاء..

هؤلاء الذين قال الله عنهم في التعليق على قصة أصحاب الجنة: ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ [القلم: ٣٤]..

إنها جنات النعيم التي أعدها الله لعباده المؤمنين في ظلال دانية.. في ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون.. في راحة وخلو بال من الهموم والمشاغل، وفي طمأنينة على ما هم فيه من نعيم.

إنها الجنة في نعيمها: لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً سلاماً، ولهم رزقهم فيها بُكرةً وعشياً. الجو سكون وهدوء يغمره السلام والاطمئنان والودّ والرضى والنجاء والسمر بين الأحباء.. جنة عالية. عالية في ذاتها رفيعة مجيدة. ثم هي عالية الدرجات. وعالية المقامات. إنه جو السعادة

---

(١) «بَخ» بفتح الموحدة وسكون المعجمة وقد تنون مع التثقيل والتخفيف، بالكسر والرفع: كلمة تقال لتفخيم الأمر والإعجاب به.

(٢) قوله ـ ﷺ ـ: «مال رابح» رُوي في الصحيحين «رابح» و«رايح» بالباء الموحدة والياء المثناة، أي: رايحٌ عليك نَفْعه، و«بيرحاء» حديقة نخل، وروي بكسر الباء وفتحها.

(٣) البخاري ٣/ ٢٥٧، ومسلم (٩٩٨).

والنعيم. حياتهم كلها سلام. يرف عليها السلام. ويشيع فيها السلام في ذلك الجو الناعم الآمن.

هذا هو مقام المتقين: الذين آمنوا وعملوا الصالحات. جزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم. هؤلاء هم الذين أحسنوا. أحسنوا الاعتقاد، وأحسنوا العمل، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم، فهم **﴿مما رزقناهم ينفقون﴾** [البقرة: ٣].. فهم يوقنون بأن المال الذي في أيديهم هو من رزق الله لهم، ومن هذا اليقين بنعمة الرزق ينبثق البر بضعاف الخلق. فهم ينفقون مما أتاهم الله من فضله على عيال الخالق من الفقراء والمساكين. وهذه الصفة ذات قيمة في الحياة الإنسانية، كما أنها ذات قيمة كبيرة جداً في ميزان الله في الدنيا والآخرة. فهؤلاء الذين اهتدوا وكذلك أفلحوا.. أولئك هم المتقون الأبرار المقربون..

http://al-maktabeh.com

كرامة في سحابة

إن المؤمن يعترف ابتداءً بأن المال الذي في يده هو من رزق الله له، لا من خَلق نفسه ﴿**إن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين**﴾ [الذاريات: ٥٨]. .

ومن هذا الاعتراف بنعمة الرزق ينبثق البرّ بالإنفاق، البرّ بضعاف الخَلق، والتضامن بين عيال الخالق، والشعور بالآصرة الإنسانية، وبالأخوة البشرية، والإنفاق في سبيل الله هو جماع الخير ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون. وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم**﴾ [آل عمران: ٩٢]. .

وقيمة هذا كله تتجلى في تطهير النفس من الشح البغيض ﴿**ومَن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ [الحشر: ٩، التغابن: ١٦]. .

إن الله سبحانه يخاطب القلوب التي خلقها، فهو يعلم أحوالها، ويعرف مداخلها، ويطّلع على خوافيها، فهو يناديهم ﴿**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**﴾ [الحديد: ٧]، ومع الدعوة لمسة موحية. فهم لا ينفقون من عند أنفسهم. إنما ينفقون مما استخلفهم الله فيه من ملكه. وهو الذي ﴿**له ملك السموات والأرض**﴾ فهو الذي استخلف بني آدم جُملة في شيء من ملكه. . استخلف جيلاً منهم بعد جيل. .

وتقوم دعوة الإنفاق هذه في استثارة الخجل والحياء من الله، وهو المالك الذي استخلفهم وأعطاهم، فماذا هم قائلون حين يدعوهم إلى إنفاق شيء مما استخلفهم فيه ومما أعطاهم؟! وفي نهنهة النفوس عن الشح والله هو المعطي،

ولا نفاد لما عنده، فماذا يمسكهم عن البذل والعطاء، وما في أيديهم رهن بعطاء الله؟!

ولكنه لا يكلهم إلى هذا التذكير وما يثيره من خجل وحياء، ومن سماحة ورجاء. إنما يخاطبهم بمؤثر جديد.

يخجلهم من كرم الله ويطمعهم في فضله: ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ [الحديد: ٧]..

فكيف يتخلف متخلف عن الإيمان والبذل في مواجهة هذا الكرم والفضل؟

وعلى هذا الدرب سارت القصة النبوية توجّه المسلمين إلى البر وتلبية نداء الله للتحرر من استرقاق المال، ومن شح النفس، ومن حبّ الذات، توجّه المؤمنين إلى الصعود في هذا المرتقى السامق الوضيء أحراراً خفافاً طلقاء..

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بينما رجلٌ في فلاة من الأرض فسمعَ صوتاً في سحابة: اِسْقِ حديقة[1] فلان، فَتَنَحَّى ذلك السَّحاب فأفرغَ ماءه في حَرَّةٍ[2]، فإذا شَرْجَةٌ[3] من تلك الشِّراج قد استوعَبَتْ ذلك الماء كُلَّهُ فَتَتَبَّع الماء، فإذا رجل قائمٌ في حديقة يُحوِّلُ الماء بمِسْحاتِه[4]، فقال له: يا عبد الله ما اسْمُك؟ قال: فلان للإسم الذي سَمِعَ في السحابة، فقال له: يا عبد الله لِمَ سألتني عن اسمي. قال: «سمعتُ في السَّحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسْقِ حديقة فلان لاسْمِكَ فما تصنعُ فيها؟ قال: أَمَا إذ قُلْتَ

(١) الحديقة: البستان إذا كان عليه حائط.
(٢) الحَرَّة: بفتح الحاء المهملة، وتشديد الراء: الأرض التي بها حجارة سود.
(٣) الشرجة: بفتح الشين المعجمة، وإسكان الراء بعدها جيم، وتاء تأنيث، مسيل الماء إلى الأرض السهلة.
(٤) المِسْحاة، بالسين والحاء المهملتين: هي المجرفة من الحديد.

هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدَّقُ بِثُلُثِه وآكُلُ أنا وعيالي ثُلُثَهُ، وأردُّ ثُلُثَه»(١).

نقف أمام هذه القصة النبوية وقفة المتهيب أن نمسّها بأسلوب بشري قاصر؛ المتحرج أن نشوبها بتعبير بشري فان.. إن القلب المفتوح الموصول بالله لتصيبه رهبة ورعشة وهو يتملى قَدَرَ الله سبحانه وعلمه.. يتصور علم الله مُطلاً على هذا العبد الذي لا يعلم سِرَّه إلا خالقه: «بينما رجل بفلاة، فَسَمِعَ صوتاً في سحابة..».

تبدأ القصة النبوية بهذا العرض المُشَوِّق:

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بينما رجل في فلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة..».

مقدمة سريعة ولكنها مثيرة ومشوقة، تعطينا فكرة عن واحد من رجال القصة «رجل في فلاة» وفي فلاة من الأرض إشارة إلى ملابسات المكان، فالرجل وحيد في الخلاء الواسع المنبسط، الخالي من الناس والحركة، يلفّه سكون هادئ، وصمت مديد.

وهكذا ترسم المقدمة صورة لحالة الموقف الذي تنطلق منه البداية، ولذلك فالتمهيد يبدأ بـ «بينما» الظرفية حيث تفيد بيان الحالة التي كان عليها الرجل قبل أن يسمع الصوت، وهي بداية تمهيدية فنية، إذ أنها حددت الموقف الذي بنى الحدث فوق أرضيته، وكان يمكن أن تأتي البداية هكذا: «سمع رجل صوتاً في سحابة وهو بفلاة من الأرض». ولو أتت هكذا لفقدت الحيوية الفنية المشوقة والمعبرة، ولخسر بناء القصة فرصة كبيرة تجعله أكثر عطاءً وتأثيراً(٢).

إن البداية بالحدث مباشرة، تعطي القصة حيوية معينة، بما تقدمه للقارىء أو المستمع من مشوقات تجعله يُقبل عليها بأحاسيسه كلها، فإذا هي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢٢٨٨، والمسند (صادر) ٢/٢٩٦.

(٢) القصص في الحديث النبوي: ١٠٩.

noor-al-maktabeh.com

تدع للحسّ أن يتأثر عن طريق الخيال ما شاء له التأثر. «فسمع صوتاً في سحابة». .

إن الألفاظ النبوية المعدودة ترسم الصورة المطوّلة للحدث، وتزيد الصورة حركة وحياة، بالصوت المسموع في الكون الصامت في هدوء وسكون، فنحس سريان الصوت في هذا الكون العريض يجري في عروقنا برحمة، فتأنس به الروح على هينة واتئاد.

ويدعك المشهد أن تتخيل سحابة تتماوج في حركة منتظمة، تمشي في الفضاء، تحمل الخير والبشرى، قد أرسلها رب السماء مجري السحاب، يسوقها صوت رخي رحيم. .

وبعد ذلك يبدأ الحدث المثير من هذا المشهد المعجز البديع، الذي يخاطب الحس والوجدان. .

«فسمع صوتاً في سحابة: اِسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرّة، فانتهى إلى الحرة فإذا هو في أذناب شراج[1]، وإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت الماء كله، فتبع الماء، فإذا رجل في حديقته يحول الماء بمِسْحاته، فقال له: يا عبد الله؟ ما اسمك؟ قال: فلان، بالإسم الذي سمعَ في السحابة فقال له: يا عبد الله لِمَ تسألني عن اسمي؟ قال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اِسقِ حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟؟»

ثم تنسحب النهاية لتأخذ مكانها في الأعماق، فتلامس برحمة الكوامن الخفية للخير في النفس الإنسانية. .

«قال: أما إذا قلتَ هذا، فإني أنظر إلى ما خرج منها فأتصدّق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأرد فيها ثلثه».

---

(١) الشرج: مسيل الماء من الحرة إلى السهل.

http://al-maktabeh.com

إنه التفسير لهذه الظاهرة الكونية، وهو التعبير عن هذه السنّة الإلٓهية الثابتة. إنه يعطي للقصة معنىً جديداً يدعم مضمونها ويجعله أكثر ثراء، كما أنه يلقي تأثيراً أكثر عمقاً وصدقاً عن مفهوم المال في النفس الإنسانية.

ففي هذه النهاية يتركز موطن العبرة، والمغزى الحقيقي وراء القصة، وتأتي تفسيراً يكشف حقيقة الأحداث التي سبقت، ويبين الدافع الذي كان وراءها، فهذا الرجل صاحب الحديقة، كان رجلاً صالحاً، مجاهداً على نفسه وعلى عياله، متصدقاً على الفقراء والمساكين، فهو ينظر إلى ما يخرج منها فيتصدق بثلثه، ويأكل هو وعياله ثلثاً، ويرد فيها الثلث الباقي..

إن هذه القصة تعد بأحداثها وتفاصيلها ذات مصدر واحد، هو مصدر الوحي، فهي من قبيل الغيب الذي كشف الله عنه لنبيه ـ ﷺ ـ ومادتها من أحداث التاريخ الإنساني الواقعة فيما مضى من سالف الدهر، وقد اختارها الرسول ـ ﷺ ـ مادة في التربية والتوجيه الإسلامي.

لقد رسمت القصّة الواقعية الإنسانية في نموذج بشري حقق واقعه الخيّر الفاضل، فهي توضح مسيرته والتزامه، وتعمقها في النفوس.

ونجد لوناً من تصوير الشخصية.. فصاحب الحديقة تعرضه القصة العبد الرحيم، الشاكر، المعترف للّه بفضله ونعمته عليه[1].. ﴿**ومَن شكر فإنما يشكر لنفسه**﴾ [النمل: ٤٠]، فينال من الله زيادة النعمة، وحسن المعونة ﴿**وإذ تأذَّن ربكم: لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾ [إبراهيم: ٧]..

إنها سنّة الله ولن تجد لسنّة الله تبديلا.. والقصة تصور هذه الحقيقة الكبيرة: حقيقة زيادة النعمة بالشكر.

.. إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية. فالخير يُشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة.

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ١٤٢، ١٧٧، ٣٥٤.

http://al-maktabeh.com

وذلك الشكر لا تعود على الله عائدته. فالله غني بذاته محمود بذاته، لا بحمد الناس وشكرهم على عطاياه، والشكر تعود عوائده على العبد الشاكر ﴿ومَن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومَن كفر فإن الله غني حميد﴾ [لقمان: ١٤]..

والله يعجبه الشكر من عباده، ويحبه لهم، ويجزيهم عليه خيراً.. ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ [الزمر: ٧]..

لقد خضعت القصة خضوعاً تاماً للغَرض الديني في الموضوع، وطريقة العرض وإدارة الحوادث، ومع ذلك فهذا الخضوع الديني لم يمنع مطلقاً من أن تبرز الخصائص الفنية في عرض القصة التي بدت بوضوح تخاطب حاسة الوجدان الدينية في أعماق النفس الإنسانية.

وأسلوب القصة تبرز فيه البساطة والوضوح، وهي البساطة التي تموج بالحياة والحركة، والاندفاع التي تجعله أكثر تأثيراً وجاذبية.

ومما ينبغي أن يلتفت النظر إليه في استعمال الألفاظ والعبارات، فالمضمون حاضر دائماً في ضمير اللفظة أو العبارة، والكلمات ترسم صوراً متحركة، تتملاها العين والأذن، ويعيش فيها الحس والخيال، فيهيج الوجدان صادقاً بحركة مخلصة إلى عمل الخير والبر والإحسان.

ويعتبر الغموض ذا أهمية بالغة في تشييد بناء القصة، ودفعه إلى النمو، فهو يسري في جسم القصة، مثيراً في الأحداث شكلاً من التنويع والتفاوت الذي يجعل المتلقي يتنقل بين مستويات مختلفة تستهويه من ناحية، وتثير تطلعاته واستكشافه من ناحية أخرى.. «بينما رجل في فلاة، فسمع صوتاً في سحابة: اِسقِ حديقة فلان».

ولا شك أن الرجل فوجىء بهذا الصوت الذي يسمعه في هذا السحاب ينادي: «اسقِ حديقة فلان»، وكذلك كان هذا الحدث مفاجئاً لنا أيضاً بوصفنا متابعين للقصة. ومفاجأته تأتي من غرابته وندرته، فهو حدث غير مألوف ذلك الصوت الذي يتردد في وسط السحابة، كما أن المفاجأة هنا تحمل في تضاعيفها شيئاً من الغموض يكمن في السر الذي ينطوي عليه هذا الحدث العجيب،

فلا بد أن هناك أسباباً ودوافع وراء هذا الصوت الذي يدعو باسم فلان من الناس، مما دفع بهذا الرجل إلى تتبع هذا الماء في منسوباته لكي يصل إلى كشف السر، وإزالة الغموض.

ومن أجل التأثير الشديد تعرض القصة الحدث المثير في ذاته حين فوجىء الرجل بالصوت «اسقِ حديقة فلان»، فالصوت مثير في ذاته، باعث على العجب، وتزداد إثارته، حين يستجيب ذلك السحاب للنداء فيتنحى ويفرغ ماءه.. وإذا الماء يتجه إلى حديقة الرجل صاحب الإسم..

إن القصة تثير الانتباه الشديد لأمر عظيم تتجلّى أصداءه في هذا الكون الفسيح، وذلك في عرض مشوق، بتحويل مجرى الأحداث في تصعيد المشكلة، وظهور المفاجآت والخوارق التي تُثيرُ كوامن الخير للانطلاق في الواقع الإنساني.

فالمشكلة تبدو بشكل واضح محوراً يوجه حركة القصة، ويدفع بها إلى التطور والاستمرار في إبداع مواقف جديدة.

نجد الرجل الذي كان بالفلاة أمام مشكلة، حدث غير عادي، فهو يسمع باسم واحد من الناس في سحابة يقال لها: اتجهي إلى حديقة فلان فاسقيها، وهذه المشكلة تدفعه إلى تصرف خاص، وإلى حركة في اتجاه معين، وهو تطور في أحداث القصة تبدعه المشكلة، حيث تثير عند هذا الرجل التطلع المثير إلى معرفة وراء هذا الأمر غير العادي، فيحرص على أن يضع يده على السبب فإذا به يتتبع الماء، حتى دخل حديقة رجل وجده قائماً في حديقته يصرف الماء بمِسْحَاته.

ويجب أن نلاحظ هنا أنه لولا تلك المشكلة التي دفعت بالرجل إلى متابعة الماء لمعرفة السر لما كان للقصة أن تعرض لهذا المشهد الجديد «مشهد الحديقة وصاحبها يصرف الماء فيها»، ثم ما كان من حوار بين الرجل وصاحب الحديقة، اكتشف به، واكتشفنا معه السرّ وراء هذا الحدث، فكل هذه التفاصيل والامتدادات في جسم القصة إنما جاء بسبب «المشكلة» وبدافع منها..

والحوار كان له دور بارز في القصة، يأتي في صورة طبيعية من خلال الموقف وبدافع منه، فهو يؤدي وظيفته في كشف مغزى القصة، والإبانة عن غرضها الذي ترمي إليه كما نجد في الحوار بين الرجل الذي سمع الصوت في السحابة، وصاحب الحديقة . .

«فقال له: يا عبد الله؟ ما اسمك؟

قال: فلان، للإسم الذي سمع في السحابة.

فقال له: يا عبد الله! لِمَ تسألني عن اسمي ؟

فقال: إني سمعتُ صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسقِ حديقة فلان لاسمك. . فماذا تصنع فيها؟

قال: أما إذا قلتَ هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأردّ فيها ثلثه».

نلاحظ أن الحوار ينتهي بالكشف عن غرض القصة، وهو تعميق أهمية الصدقة في ميزان الحياة الإنسانية، وبيان فضلها، وعظمها عند الله، كما تعبر عن ذلك هذه القصة النبوية العجيبة.

لقد كانت التربية هي الجانب البارز في القصة، التربية بالقدوة، والتعليم عن طريق النموذج الذي تعرضه، لقد رسم النبي ـ ﷺ ـ النموذج في شخصية واقعية إنسانية وبرز ذلك في الحوار السابق الذي يدل المسلمين على فضل الصدقة، ودور صاحب المال في بنيان المجتمع الإسلامي[١].

لقد حرص النبي ـ ﷺ ـ على أن يضمن القصة قيمة جليلة من قيم الإسلام، ويلقي الضوء على مفهوم المال وأهميته في حياة الناس، وقوته في حركة الحياة. وتصوّره القصة في طابع سلوكي أخلاقي في التعامل بين صاحب المال وأفراد المجتمع.

«. . . فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأردّ فيها ثلثه».

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ١٩٧، ٢١١، ٢١٣، ٣٠٦، ٣١١، ٤٤٨.

http://al-maktabeh.com

وتُعمّق القصة في الوجدان الإنساني أهمية الصدقة وفضلها الهائل الواسع في ميزان الكون العظيم، الصدقة بمفهومها العام، الذي ينطلق من التصور الإسلامي للمال.

إنها المشاركة الطوعية لصاحب المال في حياة المجتمع، وحياة الناس.. إنها دعوة واضحة البيان لإقامة مجتمع نظيف متوازن **﴿كي لا يكون دُولَة بين الأغنياء منكم﴾** [الحشر: ٦] والذين: **﴿يطعمون الطعامَ ـ على حُبّه ـ مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾** [الدهر: ٧].

والإنسان مخلوق بفطرة حب الخير لذاته **﴿وإنه لِحُبِّ الخير لشديد﴾** [العاديات: ٧] مفطور على حبّ الحيازة والضنّ بما يملك: **﴿قُل: لو أنتم تملكون خزائن رَحمةَ ربي، إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق﴾** [الإسراء: ١٠٠].. **﴿وأحضرت الأنفس الشحِّ﴾** [النساء: ١٢٨]..

إن الإسلام يتعامل مع النفس البشرية بواقعها كله. فهو يحاول أن يرفع هذه النفس إلى أعلى مستوى تهيئها له طبيعتها.. ولكنه في الوقت ذاته لا يتجاهل حدود هذه الطبيعة والفطرة؛ ولا يحاول أن يقسرها على ما ليس في طاقتها.. فالإنسان شديد الحب لنفسه.. هذه فطرته. وهذا طبعه. ما لم يخالط الإيمان قلبه. فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه، وتفيض الرحمة من قلبه الرقيق الرفيق، يتجه إلى الله يطلب رضاه.

والقصة ترسم صورة الإنسان المؤمن، الذي لا يجحد نعمة ربه، ولا ينكر جزيل فضله، فيعترف بفضل الله شكراً واقعياً صادقاً، فهو يبدل أثرته وشحّه إيثاراً ورحمة.

إن الإنسان ـ بغير إيمان ـ حقير صغير. حقير المطامع، صغير الاهتمامات. ومهما كبرت أطماعه. واشتد طموحه، وتعالت أهدافه، فإنه يظل مرتكساً في حمأة الأرض، مقيداً بحدود العمر، سجيناً في سجن الذات.. لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض، وأبعد من الحياة الدنيا،

وأعظم من الذات، عالم يصدر عن الله الأزلي، ويعود إلى الله الأبدي، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء.

والقصة تعبر بعمق عن مفهوم المال في الإسلام، والنبي - ﷺ - يذكر عن صاحب الحديقة ما يفعله في خراج أرضه طواعية..

«فإني أنظر ما خرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأرد فيها ثلثه».

إنه سلوك ونظام على الأرض، يقابله عطاء الله الذي لا تنفذ خزائنه.. سلوك الفرد أشبه شيء بالوكيل في هذا المال؛ وأن حيازته له إنما هي وظيفة أكثر منها امتلاكاً، ﴿**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**﴾[1].

إن القصة النبوية ترسم المشهد الإنساني للمؤمن، الذي يضع قدميه على الأرض، وينطلق بروحه إلى السماء. في لحظة واحدة لا تفارق فيها روحه جسده؛ ولا ينفصل إلى جسد على الأرض وروح في السماء!

وهي تصور البر والعطف والخير في مشهد وضيء، تنظر إليه القلوب الظامئة في أيام الجاهلية الجائرة حين تبسط على الناس مفاهيم الظلم والظلام، ومقاييس الشيطان والأوهام، وقيم الترف الظاهرة الجوفاء..

إن الجاهلية وهي تركز أعلامها في النفوس، ترسخ أوتاد الشح في الأعماق، فإذا النفس البشرية - وهي تملك ما تملك - تخشى نفادها ونقصها، فهي شحيحة تمنع الرحمة، وتبخل بالمال على المحاويج الضعاف؛ وإن كانت تبذل في مجالات المفاخرة الشيء الكثير الكثير. فهي العبودية للدرهم والدينار. يقول الرسول - ﷺ -: «بئس عبد الدرهم والدينار».

إنها دعوة للبذل والإنفاق.. فأما عباد الله: فَهُمْ الذين يبذلون بأريحية نفس، ورحمة قلب، وخلوص نية، واتجاه إلى الله بالعمل فكانوا الواحة الظليلة في هذه الهاجرة الشحيحة.

---

(١) انظر العدالة الاجتماعية في الإسلام، (فصل سياسة المال).

al-maktabeh.com

إن الإنسـان ـ حين يخلو قلبه من الإيمـان ـ لا يـدرك حكمـة البـذل والإنفاق. ولا حقيقة القيم في ميزان الله.. فإذا عمر قلبه بـالإيمان اتصـل وعرف ما هنالك.. وخفّت في ميزانه الأعـراض الزهيـدة. وتيقظ للحقيقة الكونية في بيان الرسول ـ ﷺ ـ في الصوت الذي يقول للسحابة: «اسقِ حديقة فلان» وعلاقته بفعل صاحب الحديقة «فأنظر ما خرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأرد فيها ثلثه».

إنه الإيمان والاطمئنان إلى قدر الله **﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾** [النساء: ١٢٧]؛ فهو غير مجهول، وهو غير ضائع، وهو مسجل عند الله. ولن يضيع خير سُجّل عند الله[1]، فهو سبحانه الذي **﴿ينشىء السحاب الثقال﴾** [الرعد: ١٢]..

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن تصدّق بعدل تمرة مِن كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يُربِي أحدكم فُلُوَّه حتى تكون مثل الجبل».

رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه. والفُلُوّ: هو: المهر سمي بذلك لأنه فلّ عن أمه: أي فصل وعزل.

ـ وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما منكم من أحد إلا سَيُكَلِّمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أَيمَنَ منه فلا يرى إلا ما قدّم، فينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم، فينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة».

وفي رواية: «مَن استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل» رواه البخاري ومسلم.

ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا عائشة استتري من النار، ولو بشقٍّ تمرة فإنها تَسُدُّ من الجائع مَسدَّها من الشبعان» رواه أحمد بإسناد حسن.

ـ وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «كل امرىء في ظل صدقتِه حتى يُقْضَى بين الناس». قال يزيد: فكان أبو الخير مَرْثَد لا يُخطئه يوم إلا تصدَّقَ فيه بشيء، ولو بِكَعْكَة أو بَصَلة» رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «سَبَقَ درهم مئة ألف درهم، فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: رجل له مال كثير أَخذ من عُرضِهِ مئة ألف =

وهذه القصة تطوف بالقلب البشري في مجالات وآفاق وآماد وأعماق، فهي ليست ألفاظاً وعبارات، إنما هي صور تلمس الوجدان الإنساني.. فصاحب الحديقة الذي ينفق في سبيل الله بنظام رتيب، يقابله في السماء سحاب ثقال يحمل الخير العميم إليه، وباسمه، على مرأى ومسمع أهل السماء والأرض.

إن هذا التقابل فيه كل المعاني العميقة التي تشير إليه القصة، فهي ليست سرد بارد في ألفاظ. وإنما هي ترسم الحقيقة الكبيرة.. ترسم الصورة الناطقة لمعنى الإنفاق.. الصورة التي يتجاوب فيها هذا الكون بكل ما فيه من عجائب. فالأمر بيد الله، ورزقه ما له من نفاد.. والله بكل شيء عليم..

إنها القدرة الإلهية التي تلاحق القلب أينما توجَّه: تلاحقه بالعلم الكاشف الشامل، يلم بالشارد والوارد، والمستخفي والسارب، ويتعقب كل حيّ، ويجزيه خير الجزاء.

إنه جو المشاهد المتقابلة: إنفاق في سبيل الله «فأتصدّق بثلثه، وآكل أنا

= درهم تصدّق بها، ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدَّق به» رواه النسائي، وابن خزيمة، وابن حبان في صحيحه، واللفظ له، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. قوله: من عِرضه، بضم العين المهملة، وبالضاد المعجمة: أي من جانبه.

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «سبعة يُظلّهم الله في ظِلّه يوم لا ظلّ إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلقٌ في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دَعَتْه امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلمُ شمالُه ما تنفقُ يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» رواه البخاري ومسلم.

ـ وعن معاوية بن حَيْدَة رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الصَّدقة تطفىء غضبَ الربِّ تباركَ وتعالى» رواه الطبراني في الكبير، وفيه صدقة بن عبد الله السمين، ولا بأس به في الشواهد. (الترغيب ٢ / ٣٠).

ـ وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «صنائعُ المعروف: تقي مصارعَ السوء، وصدقة السرّ: تطفىء غَضَبَ الربِّ، وصلة الرحم: تزيد في العُمر». رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن.

وعيالي بثلثه، وأردّ ثلثه»، وسحاب مدرار وفير ميسور «اسقِ حديقة فلان، فتنحّى ذلك السحاب فأفرغَ ماءه. . ».

إن بين فطرة هذا الكائن الإنساني وعمله وبين هذا الكون لغة سرية مفهومة! . . إنها سنّة الله وقَدَره. . الصلة الصادقة التي لا تنقطع **﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾** [المزمل: ٢٠]. .

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة الكِفْل

المحتوى	ص
ـ تقديم وتقرير	٦٧٩
ـ الواقعية الأمينة	٦٨٥
ـ طبيعة المرأة	٦٩٢
ـ أثر المرأة الفاضلة في الرجل	٦٩٥
ـ رحمة الله	٧٠٠
ـ التربية والسلوك	٧٠٥

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة الكفل

كانت التربية جانباً مهماً وبارزاً في القصة النبوية، وكان الرسول ـ ﷺ ـ متأثراً في ذلك بمنهج القرآن الكريم الذي استخدم القصة لجميع أنواع التربية التي احتواها منهجه التربوي[1]، ذلك أن في القصة سحراً عجيباً للنفس وتأثيراً شديداً عليها، قد يكون ناشئاً مما يحصل لَمن يتابع مشاهد القصة ومواقفها من انبعاث الخيال لديه، يتعقب تلك المواقف والمشاهد، ويجري وراءها متنقلاً معها من موقف إلى آخر، ومن حركة إلى شعور، أو مما يحسّ به من مشاركة وجدانية لشخصيات القصة أو بعضها، بما تثيره تلك المشاركة من مشاعر وعواطف، أو من انفعال المتابع بالموقف وهو يتغلغل في المتابعة، وكأنما هو في داخل حركة القصة يشارك في أحداثها، كل تلك الأشياء جعلت للقصة ذلك الأثر القوي في النفس الإنسانية، وتلك الجاذبية الساحرة.

وقد أخضع الرسول ـ ﷺ ـ إمكانات القصة تلك، ووظّفها توظيفاً جيداً في سبيل تحقيق غرض الإسلام التربوي، وكان يسعى إلى ذلك بسلوك طرق مختلفة، لها أثرها الحيوي في تربية الإنسان وتوجيهه والأخذ بيده نحو الأفضل، وهو أثر نابع من الاستجابة الطبيعية التي يحسّ بها الإنسان وهو يتعامل مع تلك الوسائل، لأنها وسائل تتجاوب مع إمكاناته النفسية، وما جُبل عليه من طبائع واستعدادات وقوى، وتوقع على أوتارها ما تنشده من غايات تربوية[2].

---

(١) انظر محمد قطب: «منهج التربية الإسلامية» ص ٢٣٩.

(٢) القصص في الحديث النبوي ص ٤٤٢.

http://al-maktabeh.com

ومن الطرق التربوية في الهدي النبوي طريق العبرة المستقاة من قصص الأقدمين، حيث يتخير الرسول ـ ﷺ ـ من الماضي أحداثاً تفيض بالعظة المؤثرة، ولا شك أن تأثير الموعظة يكون أشد، وأنفذ إلى القلب، حين تبدو عبرتها من خلال عرض قصصي شيق، يربط السامع بأحداث القصة وشخصياتها، من خلال مشاركته الوجدانية لهم، وانفعاله بمواقفهم تعاطفاً معهم أو ضدهم.

والقرآن الكريم في حديثه عن الماضين من أهل الكتاب وغيرهم سلك طريق القصة، لأنها أكثر قدرة على حمل العبرة ونقلها إلى السامعين والقراء، وقد كانت العبرة والعظة في تلك القصص في القرآن غرضاً رئيسياً نصَّ عليه القرآن صراحة: **﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾** [يوسف: ١١١]. .

والموعظة دائماً من أعظم الدوافع في تربية النفوس وأقواها في تحريك رواسبها، وإثارة صحوة القلب فيها، وتوجيهها إلى السير في الطريق الصحيح تأثراً بما تعرضه القصة من تجارب ماضية، تهزّ أعماق الوجدان وتؤثر فيه، ثم إن الموعظة من ناحية أخرى تُلبي حاجة النفس الفطرية الدائمة إلى التوجيه والتهذيب[١]، ومن هنا كان تعهد القرآن، وتعهد الحديث الدائم للمسلمين، بالتربية عن طريق الموعظة الحسنة، والعبرة البالغة.

وقد وجدت القصة النبوية في أخبار بني إسرائيل وغيرهم من الأمم السابقة أحداثاً وتجارب ذات دلالات مؤثرة، وذات مقاصد تربوية هادفة، فجعلت من ذلك كله مادة طيبة صاغت على أساسها قصصها ذات المغزى الوعظي، وجعلت منها دروساً يتذكر بها المؤمنون، ويستخلصون منها العبرة التي تعينهم في ترسم الطريق المستقيم، ولتكون أيضاً رصيداً يُضاف إلى تجاربهم يواجهون به ما يصادفهم من مشكلات أو مواقف مماثلة[٢]. .

---

(١) «منهج التربية الإسلامية» ص ٢٣٠.
(٢) القصص في الحديث النبوي ص ٤٥٣.

http://al-maktabeh.com

ومن هذه القصص التربوية الوعظية قصة الكفل الذي أعاد النبي - ﷺ - التذكير بها أكثر من عشرين مرة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعتُ النبي - ﷺ - أكثر من عشرين مرة[1] يقول: «كان ذو الكفل من بني إسرائيل لا يتورَّع من شيء، فَهَوِيَ امرأةً، فراودها على نفسها، وأعطاها ستين ديناراً، فلما جلس منها، بكت وأُرْعِدَتْ، فقال لها: ما لَكِ؟ فقالت: إني والله لم أعمل هذا العَمَل قطُّ، وما عملتُه إلا من حاجة، قال: فندِمَ ذو الكفل، وقام من غير أن يكونَ منه شيء، فأدركَهُ الموتُ من ليلته، فلما أصبح، وجدوا على بابه مكتوباً: إن الله قد غَفر لك»[2].

وفي رواية: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورَّع عن ذنب عمله، فأَتَتْه امرأة، فأعطاها ستين درهماً على أن يطأها، فلما قَعَد منها مقعد الرجل من امرأته، أُرعدت وبكت! فقال: ما يبكيك أأكرهتك؟ قالت: لا، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنتِ هذا وما فعلته؟!! اذهبي فهي لك، وقال: لا، والله لا أعصي الله بعدها أبداً، فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: «إن الله قد غفر للكفل».

تمهد القصة بتعريف سريع عن صاحبْ القصة، ويسمى الكفل، وفي رواية: ذي الكفل، وهو غير ذي الكفل، النبي الذي ورد ذكره في القرآن كما هو بَيِّنٌ، وكما رجَّح ابن كثير ظنًّا، وإن لم يقطع. . ، وتذكر القصة أنه من بني

---

(١) وفي رواية عن ابن عمر قال: سمعتُ النبي - ﷺ - يحدث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عدّ سبع مرات، ولكني سمعته أكثر من ذلك. .

(٢) أخرجه ابن حبان. ورجاله ثقات رجال الصحيح غير عبد الله بن عبد الله - وهو الرازي مولى بني هاشم - فإنه من رجال أصحاب السنن، وهو صدوق.

وأخرجه أحمد ٢/٢٣، انظر المسند بتحقيق شاكر ٦/٣٣٤ - ٣٣٦، وقال شاكر: «إسناده صحيح»، وأخرجه الترمذي (٢٤٩٦) في صفة القيامة، عن عبيد بن أسباط بن محمد القرشي. . وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم ٤/٢٥٤ - ٢٥٥ ووافقه الذهبي. انظر الإحسان (٣٨٨).

إسرائيل، ثم تحدد المقدمة أبعاد شخصيته المعنوية حين تصفه: «لا يتورع من شيء» وفي رواية: «لا يتورع عن ذنب عمله»، فنحن أمام رجل مسرف على نفسه أيما إسراف، فهو لا يتورع أن يقدم على فعل ما يمتع شهوته وهواه كلما أتيحت له الفرصة، وبعد أن تحدد المقدمة صورة الكفل، تشرع أحداث القصة في البدء.. «فَهَوى امرأة، فراودها على نفسها».

فالقصة تبدأ بتقديم صورة لموقف معين، هو نقطة الانطلاق في مسار القصة، وهذا الموقف يطالعنا من خلال الصورة التي تقدمها البداية، بشكل يكاد يكون كاملاً وفي أبعاد مختلفة: «لا يتورع من شيء».. «لا يتورع عن ذنب عمله».. وبعد هذا التمهيد: «فَهَوِيَ امرأة، فراودها على نفسها..» «فأتته امرأة فأعطاها ستين درهماً على أن يطأها، فلما قَعَد منها مقعد الرجل من امرأته..».

ونحن أمام صورة لموقف، فهذه المرأة تأتي بدافع من حاجتها، إلى رجل ميسور، لتأخذ منه مبلغاً من المال تستعين به على قضاء حوائجها، وهو يستغل حاجتها في أن يطلب منها ثمناً مقابل ما يعطيها من مال، فهو لا يتورع عن ذنب عمله، وهي لا مناص من أن تستسلم وتُمَكِّنه من نفسها[1].

ونقف أمام الكلمات النبوية فنجد فيها التنسيق في تأليف العبارات، بتخير الألفاظ، وتوظيفها بالشكل المناسب لتحقيق المعنى المطلوب، وهناك ألفاظ يستخدمها البيان النبوي في القصة كـ«روابط» تشارك في التلاحم بين أجزاء القصة ومراحلها.

وهنا «لما» تسهم في تحقيق هذا الجانب الإيجابي في سياق القصة «فلما قَعَد منها» «فلما» تقوم بعملية ربط محكم بين البداية والوسط في القصة.

ويلاحظ أن المضمون في الألفاظ والعبارات حاضر دائماً في ضمير اللفظة أو العبارة، حيث أننا نحس أنها توضع في السياق بعناية بحيث تؤدي دوراً

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ١٠٩، ١٢٣.

مزدوجاً؛ إذ أنها في الوقت الذي تقيم فيه المظهر الخارجي الشكلي لمجرى الكلام، تجعلنا أيضاً أكثر شعوراً بالمضمون الذي تهدف القصة إلى تجليته، وبالمعنى الذي يُراد لنا أن نخرج به من القصة في نهاية الأمر(١).

وعبارات القصة تتجلى في نظم متماسك، استخدمت ببراعة في تكوين الصورة الحسية والمعنوية:

«.. فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته، أُرعدت وبكت فقال: **ما يبكيك** أأكرهتك؟ قالت: لا، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنتِ هذا وما فعلته؟!!

اذهبي فهي لك، وقال: لا، والله لا أعصي الله بعدها أبداً، فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: إن الله قد غَفَر للكفل».

إن هذا البيان النبوي صورة واضحة الملامح والنوايا، بحيث تبدو وكأنها تمثل أمامنا تتملاه العين مع الحس والخيال، فهو مشهد إنساني بحركاته ومشاعره، وميوله وعواطفه.

إنها لوحة تصور صراعاً نفسياً رهيباً يهز كيان امرأة عفيفة تجد نفسها تقدم على فعل «الفاحشة» مع إحساسها الصادق بالكراهية والنفور الشديد من هذا الفعل، ولكن لا سبيل لها إلا أن تقدم عليه.

إن القصة النبوية تعرض مشكلة حيوية واقعية في حياة الإنسانية بما تحويه من عنصر درامي يتجلى في بعض المواقف، التي تثير في نفس صاحب الموقف أو صاحبته صراعاً نفسياً مؤلماً يؤدي بالتالي إلى تصرف خاص.

إنه موقف المرأة التي وقعت في الحرمان الطاغي والشدة الرهيبة، إن هذا الموقف بعث في المرأة نوعاً من الصراع الذاتي النفسي، الذي يبعثه الموقف في نفس صاحبته، ثم تقدم على ما تكره، يحملها ذلك ثقل الحاجة الشديد(٢).

---

(١) المصدر السابق ١٦٦.

(٢) المصدر السابق: ١٧٤، ٢٢١.

http://al-maktabeh.com

إنه مشهد من خفايا دروب النفس الإنسانية، متعدد الخطوات، وهو يعرض في بطء وتفصيل، ويترك كل خطوة للقلب والخيال أن يتأمل، وللنفس مدة كافية للتأثر، كيف يصنع لهيب الحرمان، ولظى الشدة في امرأة عفيفة..؟.. إنه يحرق، وناره مستعرة مؤلمة، لا تدع عيناً تنام من الهم والحُزْن، ولا تدع بصيرة ترى، ولا عقلاً يفكر.

ثم استسلم الجسد على كُره.. وها هي مع الرجل الطامع في عفافها وطهارتها، في خلوتهما، يسيطر على وجدانها الخوف من الله، وانتقلت تصوراتها نقلة المؤمن إلى الحقيقة والحصانة والأخلاق التي عاشتها في حياتها كلها.

وتحت ثقل هذا الخوف من الله انتفض قلبها مذعوراً، فأجهشت بالبكاء، بصوت حزين يستثير التقوى في نفس هذا الطامع في الحرام الذي يستغل حاجة المرأة، فيحملها على ما تكره.

هذه هي هزّة الإيمان المبصرة..

إنها امرأة طيبة بريئة، قد تربَّت على الفضيلة، وما فكَّرت في يوم أن تُقدم على مثل هذا العمل.. «ولكنه عمل ما عملتُه قط»..

وهنا يتمثل الخيال مقدار الفزع والخجل الذي سيطر على المرأة.. فتدركها الدموع الضعيفة تدافع عن عرضها.. إنها الدموع الحارّة التي تصرخ برعد يسمعه مَن فتحَ الله بصيرته.. دموع حزينة تسأل الله سبحانه أن ينقذها مما هي فيه، مما أكرهت عليه تحت وطأة الشدة والحرمان.

لقد استجاب السميع القريب إلى ندائها الخفي بدموع ضارعة تستنجد الله سبحانه رب العالمين، فكشَفَ عن حسرتها التي كانت فيها، وحسرتها التي كانت ستحملها في نفسها إلى الأبد.

إن بكاء المرأة في هذا الموقف لهو تعبير صادق عن الهزة النفسية في كيانها، وكانت رحمة الله الواسعة، فتنقل هذه الهزة النفسية إلى الرجل الطامع في الحرام الذي استغل حاجتها.

إن هذه الهزة الوجدانية العميقة كانت صوتاً رحيماً دخل إلى قلب الرجل، فنزعَ خوفُ الله من قلبه ما تمنّاه وسعى إليه من الفعل الحرام، فإذا به يقول: «اذهبي فهي لك، لا والله لا أعصي الله بعدها أبداً». . .

الواقعية الأمينة:

إن القصة تعرض مشهداً واقعياً يعرفه الناس في كل زمان وفي كل مكان، ويتكررُ حين يصيب الناس بؤس الشدة، وآلام الحرمان. .

إنه مشهد متكرر، يمر به الناس غافلين، وفي تأمُّله، وتتبُّع حركته الوئيدة التي تكاد تتم في الخيال، ما يلمس النفس، ويؤثر في الوجدان، ويتيح الفرصة لألوان شتى من التأملات في ما يصيب الناس حين يهجم الحرمان، وتستولي الشدة، حتى تأسر الفضيلة، وتنيم الشرف والأخلاق.

إن الحرمان يُغري النفوس المريضة التي نَسِيت ربها ودينها، ويُملي للخواطر التي تملك المال أن هذه فرصة تعيش في ربوعها، وقد ذلّت الفضيلة في نفوس أهلها، فيطير الميسور بأجنحة ماله وسلطانه ليقبض روح الحصانة والمروءة.

إنه مشهد من مشاهد الحياة الإنسانية، يلفت النبي ـ ﷺ ـ إليه البصر، لينقل القارىء أو السامع إلى دروب النفس، ليقع في النفس ما يقع من عظة وعبرة.

لقد برز الغَرض الديني هنا، وبرزت مشاهد القصة، وبرزت معها شدة الانفعالات وموجات العواطف العنيفة الصارخة أحياناً، والساكنة أحياناً أخرى.

والله سبحانه وتعالى قريب من خلقه، فهو يستجيب دعاءهم، والرحمة والغفران من أبرز صفاته، فمعظم الآيات القرآنية تنطق بذلك، ومنها قوله تعالى: ﴿**قل: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم. وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له**

من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تُنصرون﴾ [الزمر: ٥٢ ـ ٥٣].

والذي راود المرأة عن نفسها في هذه القصة، مُستغلاً حاجتها إلى المال، يستيقظ ضميره من موقف المرأة المضطرب وبكائها من خشية الله، فيتوب، ويَدع المرأة دون أن يمسّها، ويقسم أن لا يعصي الله أبداً، فيموت من ليلته، وفي الصباح يكتب على بابه: «إن الله قد غفر للكفل».

إن هذه القصة تصور الإنسان بصدق وواقعية نظيفة بما فُطر عليه من طباع، وما جُبل عليه من غرائز مختلفة، تتكشف في أحداث القصة، وتعكس ما تنطوي عليه النفس الإنسانية من خير وشر.

والقصة النبوية أمينة مع النفس الإنسانية، ففي الوقت الذي تعرض فيه شخصيات تعكس الجانب الأصيل في الإنسان، وهو جانب الخير، فإنها تعطينا صورة عن جوانب الإنسان الأخرى: جوانب الضعف والشرّ فيه، تلك الجوانب غير الأصيلة فيه.

ولعل جانب الخير في هذه النفس أكثر أصالة وعمقاً، والقصة تعرض علينا هذا الجانب للنفس الإنسانية من منطلقات متعددة. فهذه القصة نجد فيها تأكيداً على هذا المعنى من زاوية أخرى فهي تصور انطواء هذه النفس الإنسانية من الداخل، وفي أعماقها بذرة الخير، التي لا بد أن تخرج إلى حياة الإنسان، فتثمر الخير العميم الذي يُغيِّر سلوكه، ويُنيب إلى الله الذي يغفر له ويرحمه (١)، ويبدله سيئاته حسنات (٢).

والقصة النبوية تنظر للإنسان نظرة واقعية، تحاول أن تعرضه على حقيقته من غير ما تزييف أو تشويه، إنها تعرضه في صورته السوية التي هو عليها

---

(١) المصدر السابق: ٢٤٤ ؛ ٢٦١.

(٢) قال سبحانه: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، ولا يزنون. ومَن يفعل ذلك يلقَ أثاماً يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً. إلا مَن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يُبَدِّل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩]..

بالفعل بما تنطوي عليه تلك الصورة من صفات سلبية، ومن صفات إيجابية، ما فيها من خير، وما فيها من شر، وما فيها من ضعف، وما فيها من قوة.

وتكشف ما لدى الإنسان من قدرة على الارتفاع والسمو إلى مستوى **نفخة الروح**، وما لديه من استعداد للهبوط والارتكاس إلى أوهاق الأرض **وقبضة الطين**[1].

وقد رسمت القصة في خلال التعبير عن الغرض الديني في «النموذج الإنساني»: امرأة عفيفة عضَّتها نوائب الشدة، وكبَّلتها قيود الحرمان، وقادتها المحنة إلى طريق تأباه..

ورجل مندفع يسوقه الهوى، وتقوده الخطيئة، مغتر بالمال، مستجيب للحيوية والقوة وراء الإثم والفجور، فلا يوجد في سلوكه حاجز ـ على اختلاف أنواع الحواجر في المجتمعات الإنسانية ـ فينظر، ولكنه «لا يتورع عن ذنب عمله».

والبيان النبوي يرسم صورة الإنسان على حقيقته، فهو يُصور الأعماق الدقيقة في النفس الإنسانية، فكما أن في الإنسان شراً، ففيه أيضاً خير، وفيه قوة، ولديه قدرة كبيرة على أن ينتصر على جوانب الضعف فيه، وعلى أن يطمس في نفسه المسارب التي يمكن أن يدخل منها الشر، ثم يرتقي صُعداً إلى رحمة الله ومغفرته.

وإذا كان في الإنسان ضعف وشر، وفيه قوة وخير، فأيهما الذي يغلب عليه؟ وأيهما الأصيل فيه؟

والقصة تصور حقيقة الواقع الإنساني بكل جوانبه، ومع اعترافها بضعف الإنسان، وبما تنطوي عليه نفسه من شر، لا تعد الضعف والشر هو الجانب الأصيل في الإنسان، ولا الجانب الغالب عليه، إنما الخير والقوة هما الأصيلان فيه، والشر ليس إلا لحظات ضعف ـ وإن طالت ـ تلم به أحياناً،

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ٤٠٣.

ولكنه لا يلبث أن يستفيق منها، ويعود إلى طبيعته التي فطرهُ اللّهُ عليها.

فالرجل وقد أصرَّ على أن يطأ المرأة مقابل ما يعطيها من المال الذي هي مسيس الحاجة إليه، لتسد به جوعها، وجوع عيالها، أصبح مسيطراً عليها تماماً، فلم ترَ إلا هذا السبيل، وقد أسلمت نفسها له بعد أن يئست من إقناعه بأن يتقي الله فيها، ولما هَمَّ بها أرعدت، وبكت، فتراجع، وهنا استيقظت في نفسه عوامل الخشية للّه، وهنا استفاق من ضعفه ليعود إلى الخير الأصيل المستقر فيه، وليترك المرأة دون أن يمسها بسوء، يتركها بكامل اختياره وإرادته، وبدافع نابع من نفسه هو، وهكذا يغلب جانب الخير على جانب الشر في نفس الإنسان.

وهذا هو الموقف الذي تتخذه القصة النبوية من الإنسان في هذه القضية الخطيرة [١] ، فالنبي - ﷺ - يصور هذا النموذج المتكرر من زوايا النفس وأعماقها، ومن ملابسات حياته المتعارضة. وكلها تلتقي في النهاية عند هذه الحقيقة الهامة.

والقصة صورة رائعة لقدرة الإنسان على الانتصار على ضعفه، وأن الهبوط إنما هو تردٍّ يحدث في غيبة الإيمان، ولذلك فحين يفيق الإنسان، ويستيقظ فيه عنصر الخير لا يلبث أن يعود إلى حالته السوية وكيانه المستقيم، فالرجل كان مُلحاً على المرأة في أن يمارس معها لذة الجنس المحرمة، مستغلاً في ذلك حاجتها وظروفها القاسية، ولكن المرأة لا تزال ترفض هذا الموقف من خلال تردد قوي، وصراع عنيف مزلزل كان يمور موراً في داخل كيانها، وظهرت آثاره على جسد المرأة التي كانت تُذكِّر الرجل بالله، وتلح عليه في التذكير ولكنها عجزت عن إيقاظه وإقناعه ورده إلى الإيمان، ولكن جسدها الطاهر أفلح حيث أخفقت كلماتها، فقد أُرعد هذا الجسد واضطرب في حركة لا إرادية تعبر عن رفض هذا الموقف وإبائه، وهنا استيقظ في الرجل «الإنسان» عامل الخير والفضيله، وخشية الله، وابتعد عن المرأة بكل طواعية واختيار لم

(١) المصدر السابق ٤٠٦.

يمسسها بسوء، وتنازل عن المال الذي بين يديها، وجعله صدقة عليها وعلى عيالها.

نعم لقد تحرك العنصر الأصيل بداخله، ولم يزل يتحرك من وراء السدود والغيوم والأوهاق حتى استطاع أن ينطلق ويبرز على الصفحة، وينتصر على عوامل الضعف والفتنة[1] !

وهذا هو الانتصار في التصور الإسلامي لحقيقة الإنسان..

لقد كانت القصة النبوية تصور الواقعية الإسلامية. تصور حقيقة الواقع الإنساني بأبعاده كلها.

والإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكون من عنصرين رئيسين لهما أثر كبير في سلوكه وواقعه، فهو مخلوق من قبضة الطين التي تمثل فيه الجانب المادي، ومن نفخة الروح التي تمثل فيه الجانب الروحي.

فالمادة والروح عنصران أصيلان في تكوين الإنسان، ومن خلالهما معاً يتحقق كيان الإنسان السوي، بما فيه هذا الكيان من عناصر الضعف المرتبطة بالأرض، بما فيها من ضرورات ورغبات ونزوات وشر، وبما فيه من عناصر القوة المرتبطة بنفخة الروح المشرقة الصافية، بما تنطوي عليه من قوة واعية مدركة لمعان سامية خُلق الإنسان لها، غير معاني المادة والحس، معان تنبع من ذلك الجانب الروحي، الذي هو من روح الله الذي يرقى فوق القيود والحدود، وبما تنطوي عليه أيضاً تلك النفخة من قدرة الإنسان النفسية على أن يختار، وأن يريد.

والإنسان في التصور الإسلامي كائن فيه الخير والقوة، ولديه الاستعداد لسلوك هذا الطريق، كما أن فيه الشر والضعف، ولديه الاستعداد لأن يقع وأن يخضع لتأثيرهما ﴿**ونفس وما سوّاها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح مَن زكّاها. وقد خاب مَن دسّاها**﴾.

والنقطة الأساسية في التصور الإسلامي، أنها وهي تعترف بضعف

(١) المصدر السابق ٤٧٥.

الإنسان، وتسجله عليه في صفحته ﴿وخُلق الإنسان ضعيفاً﴾ إنها وهي تفعل ذلك تعتبر الجانب العلوي فيه هو الجانب الأصل والأقوى، لأنه هو الذي يمنح الإنسان قوة إيجابية، وإرادة فاعلة في أن يختار، وأي الطريقين يختار، وهو بهذه الإيجابية الفاعلة النابعة من جانبه الروحي العلوي، يملك أن ينتصر على لحظة الضعف، ثم إن القرآن الكريم وهو يسجل لحظة الضعف تلك، يسميها ضعفاً، ويصفها بأنها لحظة هبوط فعلاً إلى واقع الأرض، ما كان ينبغي أن تكون، وأنها ليست هي الأصل، ومن هنا جعله الله مسؤولاً عن سلوكه وهو يهبط أو يضعف ﴿**قد أفلح مَن زكّاها. وقد خاب مَن دسّاها**﴾.

والإسلام يرى أن «الإنسان بأمانة التكليف يمكنه أن يرقى إلى قمة الخليقة، وبدون الأمانة جدير بأن يرد إلى أسفل سافلين، فالأمانة التي هي العقل والإرادة الحرة المسؤولة، هي التي ترفعه فوق مقام الملائكة، وهي التي تهبط به إلى زمرة الشياطين»[(١)].

ومن هنا فالإنسان يصبح مكلفاً قابلاً لأن يضعف ويتعثر ويسفل، وقابلاً لأن يستقيم ويرتفع[(٢)] ولذلك جعله الله صاحب إرادة حرة، يترتب عليها مسؤوليته عما يمارسه من سلوك، وفي هذا منتهى العدل الإلّهي، ومنتهى التكريم لهذا الإنسان[(٣)].

ذلك كان هو التصور الإسلامي، ومنه نبعت الواقعية الإسلامية في القصة النبوية، التي استلهمت ذلك التصور وعبّرت عنه، فقد كانت الشخصية الإنسانية في القصة، تنقل لنا بأمانة ودقة واقع الإنسانية الكبير في إطاره الصحيح، الذي يجمع أطراف ذلك الواقع وجوانبه المختلفة بخيره وشره، بقوته وضعفه، بإيمانه وكفره، بما فيه من جوانب روحية وجوانب مادية، واقع الإنسان وهو يهبط إلى الأرض وإلى رغبات

---

(١) د. النعمان القاضي، الإسلام عقيدة وحياة، ص ٣٣، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
(٢) المصدر السابق ص ٣٥. (٣) المصدر السابق ص ٣٦ ـ ٣٨.

الأرض، وواقعه وهو يرتفع إلى مستوى نفخة الروح، وواقعه أيضاً وهو يصارع جوانب الشر ويدافعها، وينتصر عليها في النهاية مؤكداً بذلك أصالة الخير فيه، وقوته في كيانه.

وحين ننتقل إلى نص القصة نجد أن جانب الضعف الإنساني واضح، تسجلها القصة بصدق كامل، فهي تصور مظاهر الضعف في الرجل، خضوعه لضرورات الجسد، وانسياقه وراء رغباته الجنسية الجامحة، حين يسعى لإشباعها ولو بطرق غير مشروعة.

ولكن القصة لا تقول إن ذلك الضعف هو واقع الإنسان كله، إنه جزء من واقع الإنسان ـ لا شك في ذلك ـ ولذلك فهي تلم به هنا ـ بأمانة تامة ـ على أساس أنه جانب من الواقع، والجانب الأدنى الوضيع في الإنسان، والصفحة القائمة في حياته، ولكنها ليست الصفحة الوحيدة، فهناك صفحات أخرى من واقع الإنسان، تفيض بالإشراق والخير والإيمان والحب والفضيلة، ومحاولة الارتفاع والسمو، والحياة على أساس القيم الرفيعة النابعة من نفخة الروح العلية، التي ينطوي عليها كيان الإنسان السوي، ولذلك فالقصة تحرص على أن نقف عندها، وأن نبرزها تطميناً للإنسان، وإنصافاً له ولواقعه، واعتداداً بقيمة الإنسان، وبما فيه من مزايا استحق بسببها أن يكون خليفة الله في الأرض.

لقد رسمت القصة النموذج الإنساني الذي حقق في واقعه هذا الجانب القوي الخيّر الفاضل، ونستطيع أن نقول هنا أن الجوهر الأصيل في هذه القصة، هو ذلك الجانب الفذ في حياة الإنسان، هو الموقف الذي يحقق فيه الإنسان سموه ورفعته، وانتصار الخير والفضيلة فيه، بالمعنى الشامل غير المحدود للخير والفضيلة[1].

إنه موقف الرفض والإباء العنيف للوقوع فريسة لشهوة الجسد، ونزوة الجنس، وصيحات الشيطان ووسوسته!

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ٤٣١، ٤٦١.

http://al-maktabeh.com

طبيعة المرأة:

والقصة تصور بصدق وأمانة طبيعة المرأة في فطرتها الأصيلة، فهي حريصة على التصون والعفاف، حريصة على المحافظة على شرفها وعرضها ما أمكنها ذلك، والمرأة حتى وهي تُسلم نفسها في ظروف قاهرة، تفعل ذلك، إنما تفعله بعد صراع مرير مع نفسها، وظروفها القاهرة التي تلجئها إليه.

فالبيان النبوي يعرض نموذج من الشخصيات الإنسانية الخيّرة، والنسائية بالذات، «شخصية المرأة» المتصونة العفيفة، الحريصة كل الحرص على التمسك بالفضيلة والطهارة.

والقصة تصورها وهي تُقسر قسراً عنيفاً، وهي قبل ذلك تتردد وتضطرب، وتحاول أن تتجنب الوقوع في الإثم بكل وسيلة، ولكن لا سبيل!

ونجدها حين تسلم نفسها بعد لأي واضطرار، ترتعد ويضطرب جسمها وكيانها، في تعبير لا إرادي عن رفضها لهذا الموقف، وتبكي من أعماقها بصوت مرعد حزين، بكاء المجبرة المقهورة[1].

وهي تُسلم نفسها تحت إكراه الحرمان، تنظر إلى الله في خشية وخوف مما تفعل، تفعل ما تفعل وهي في حذر ووجل، وفي تطلع ورجاء إلى الرحمٰن الرحيم أن يرفع عنها هذا الغم الثقيل، والهمّ المحزن الأليم.

وفي لحظة الضعف هذه تحت وطأة الشدة، يبقى القلب واجفاً في ارتعاش وذهول، وهي تحت تأثير هذا الخوف الشديد من الفاحشة، وهي في هذا الرفض الداخلي العميق في كيانها، يرتجف جسدها بحركة لا إرادية مزلزلاً فتنتفض راعدة باكية.

وما ترتعش القلوب هكذا إلا حين تحركها إرادة الإيمان التي تأبى الاستجابة لما يوجب غضب الله وسخطه، فهي صورة اليقظة الدائمة، والحذر

---

(١) القصص في الحديث النبوي ٤٧٤.

الذي يسري مع الدم في العروق في القلوب المؤمنة في الظروف الصعبة.

وهنا يبدو أثر الإيمان في القلب، من الحساسية والإرهاف والتحرج، وحساب العواقب، فهي تشفق من الله خشية، ويحرك الوجل ضميرها ومشاعرها، ومن ثم ترعد وتبكي.

إن هذه الرعدة والدموع، هي ذلك التحدي الصريح المثير، لفعل أكرهتها عليه المحنة، وألجأتها لها الظروف.

لا بد من وقفة أمام هذه الرجفة، وتلك الدموع، وقد استسلمت مقهورة..

إنها تشي بأن خوفها عميق عميق في كيانها.. خوفها من الله تعالى الذي يراها، ويعلم سرها وحركتها، وهو معها يرى ما تفعل، كما أنه يرى ما تخفي في صدرها وأعماقها.

ومن ثم كانت هذه الرجفة والرعدة والدموع.. فهي أولاً رجفة الحياء من رب الأرض والسماء، رجفة الخزي والعار من الوقفة أمام الجبار القهار. فهي ارتجافة باعثها الأكبر ذلك الخوف من الله، فقد اشتدت حساسيتها في تلك اللحظة وتأججت لهيباً، فكانت أشد من لذع النار. «أُرعدت وبكت».

إن هذه الرجفة تشي بشعور الفضيلة والصون والعفاف القوي في هذه المرأة، الذي بقي يندفع بشدة، ويسري في عروقها حتى سال على خدودها دموعاً حزينة، فهي تحت تأثير شدة المحنة، وثقل الحاجة، وقد استسلمت على كُره منها، جلست معقود لسانها، لا تنطق، ونتيجة ذلك الصراع النفسي الذي لا يُقاوَم، انفجرت صيحات الفضيلة صامتة مُعبرة، وإذا بجسدها يرعد، وعيونها تدمع وتبكي! ها هي ذي وقلبها يلتوي ويتألم، فينفجر صارخاً. وإذا كل شيء في جسدها قد نطق.. يتحدث ويبين..

وهذه المرأة تمثل الفضيلة وقد تصلَّبت في كيانها، والعفة وقد استقامت في تفكيرها، والصبر الشاق على المحنة والشدة.. ثم ضعف الإنسان أمام هول

الجوع الذي اعترى حياتها. . فاستسلمت للمحنة، وكسرتها الشدة. . ولكن الفضيلة الصادقة، رغم كل المحن، لا زالت تسري في عروقها، والعفاف ينبع في كيانها. . وهنا ارتعدت وبكت. . فأحسنت التعبير. تعبير النفس التي تتألم حتى لتفيض العيون دموعاً سخية بكل معاني الشرف والعفاف، لأنها لا تجد ما تفعل، ولا تملك الحيلة في أن تدفع ما تكره.

وإنها لصورة مؤثرة معبرة للمرأة الفاضلة العفيفة، وإنها لصورة واقعية رائعة حفظتها القصة النبوية لتبقى في أذهان المصونات الحرائر رمزاً للعفاف، ومَعْلماً وضّاءً للشرف الرصين.

لقد كانت الدموع مثيرة جداً، فقد أخرست في كيان الرجل صوت الشهوة الصارخ في أعماقه، وهي في أشد لحظات الهيجان في ذلك الموقف ليفعل فعلته في فريسته التي طاردها مرات، فإذا بالرجل يقول: «ما يُبكيك أأكرهتك؟».

ماذا قالت العفيفة الشريفة؟ «قالت: لا، ولكنه عمل، ما عملته قط. .».

«هذا عمل ما عملته قط. .» إنه لتعبير عجيب، ينبع عن حقيقة عميقة في موقف دقيق. . في لحظة صامتة تعرت فيها الأجساد والنفوس.

إنه البيان النبوي الذي يصور ببراعة انطلاقة هذا الشعاع الحزين، المضيء بالفضيلة، الذي تحمله هذه المرأة العفيفة. ولكن هذا الشعاع الحزين يحمل كل المعاني. . إنه يدب في القلب فعلاً، دبيب الشِّفاء في الجسم المعلول! يدب فيه بإيقاعه الصادق العفوي، ذي السلطان الخفي العجيب. . فإذا بالرجل يصحو، وقد تَلقَّى ما تلقَّى. . فتهتز أركانه، وتنفتح بصيرته فتتلقى وتستجيب. . وإذا بالطمأنينة بالله تسكب نغماتها على أوتار قلبه، فتسري بسرور في عروقه، وتغلب على كيانه. . فيتفتح الخير وينمو بلمسة من الله ورحمته.

إن عبارة المرأة في ذلك الموقف الذي تصوره القصة، هي عبارة مؤثرة

حقاً، والخيال يتملاها في ذلك الموقف الرهيب الثقيل. وإنها لعبارة تثير حشداً وراء حشد من المعاني والدلائل، تصورها الكلمات النبوية بهذا التعبير العجيب.

أثر المرأة الفاضلة في الرجل:

إن هذه القصة تمثل نموذج مكرور في حياة البشرية، ذلك الذي ترسمه العبارات النبوية الخالدة.. فهناك كثيرات من النساء يحرسن الفضيلة في سلوكهن، وتنبض قلوبهن بالعفاف، ويتحركن بالحق والشرف والتعفف، رغم المحن الطويلة التي تؤذي.. وتفعل تلك المحن ما تفعل من الضغوط المزلزلة التي تدك الراسيات.

إن المرأة دوماً هي اللغة الساحرة في نفس الرجل التي تُغيّر كيانه في عفّتها وحيائها وسلوكها. فالمرأة الفاضلة تحني هامة الرجال، وتلوي أعناقهم عن التطلع عن السوء والفاحشة، وتدفعهم للصعود إلى مراقي الفضيلة والشرف.

إن المرأة هي تلك الروح العجيبة التي تدفع بالهمم الساقطة أن ترتفع، والعزائم الضعيفة أن تُقْوى.. إنها الدواء الناجع لتلك الأرواح الهزيلة، فَتَشْفَى وتَقْوى، وهي البلسم الشافي للقلوب المنخوبة فَتَسْلَم وتنبض بالحق والخير..

إن المرأة بفضيلتها وعفافها سِرٌّ إلهي، عجيبٌ سِحْره، تؤثر في النفوس الصغيرة فتكبر، والبنية المهزولة فتصحو وتنمو وتكبر.. وإذا بالرجل الذي كانت نفسه تتهاوى أمام الشهوة. ننظر إليه كما تصوره القصة النبوية.. وإذا بالفضيلة تُدركه، تحملها المرأة إليه بتعبير لا يُقاوم تأثيره.. وقد دفعته إلى الأفق العالي دفعاً بعزم وتصميم.. وإذا بالرجل يقول: «تفعلين أنتِ هذا وما فعلته؟!!».

لقد فعلت المرأة الفاضلة بالرجل الذي كان يتهاوى في أودية الرذيلة والشهوة، عجباً.. فعلت به ذلك السحر العجيب، فإذا هو يصحو في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة..

لقد كان الرجل يتخلف في مسارب الذنب عن ركب الحق ورؤيته، ويميل به هواه دوماً إلى عَرَض تافه، أو مطلب رخيص. . وإذا به يطرق باب الرحمن في قلب مُنكسر، ورؤية واضحة للحياة، فيرى نفسه في حمى التوّاب، راكعاً قلبه، ساجداً فكره، قائلاً لسانه: «لا والله لا أعصي الله بعدها أبداً». .

إنه تعديل كامل لمفهوم الحياة، وللمشاعر المصاحبة له في أعماق الرجل. لقد اتضحت الرؤية أمامه، فرأى مجال الحياة السوي، وصورتها الحقيقية. . إنها تتجاوز اللذّة العابرة، والشهوة الزائلة. . وأصبح في ذهنه وتصوره أن حياته كلها موضع حسرة، ونَدَم، فانتقل بهذه النقلة من صُورة إلى صورة، ومن حياة إلى حياة!

هذه الصورة الرائعة كانت بروزاً واضحاً لحقيقة الخير الكبرى الكامنة في نفس الإنسان، وكان هذا بعض ما تشير إليه القصة النبوية الحكيمة.

وبهذا البيان الواقعي يسجل نبي البشرية ـ ﷺ ـ صورة وموقفاً، وهي صورة رفيعة، وهو موقف كريم.

وينظر القارىء ويتملّى، ويسرح الخيال بالسامع، في هذه الصورة، وفي هذا الموقف، فيحسّ بأن كيان الرجل كله قد تبدَّل ما بين لحظة ولحظة، فقد اطمأن إلى الحقيقة التي رآها بصدق في صورة المرأة التي بعثت الفضيلة بدموعها هتافاً لبذرة الخير في الرجل أن تنضج، وتتناسق، فانجلى الغبش عن بصيرته، وأخذ الأمْر جَدًّا كله. فما كانت إلا لحظة هي التي تفرق بين موقف الرجل حين كان في عمره كله «لا يتورع عن ذنب عمله»، وموقفه بعد الدموع الساخنة التي تجلي كل بصيرة، وقول المرأة له: «ولكنه عمل ما عملته قط». . والفارق هائل شاسع، والمسافة بعيدة مديدة. .

لقد فعلت هذه الحالة المريرة والصادقة التي جرت للمرأة فِعلها في نفس الرجل، فقد هزَّته هزاً عنيفاً. أَطَار الغبش، وأيقظ القلب، وثبتت الحقيقة في عينيه، ورسخت في قلبه، وملأت النفس بالعزم والتصميم.

لقد كان شعور الرجل قبل هذه اللحظة يسيطر عليه كبرياء يَتَعالى، فهو ذو حَوْل وطَوْل، ويملك السلطان بالمال فيحقق به أغراضه وشهواته، ويتمتع بما تهواه نفسه وتتمناه، فَيُخضع رقاب الفضيلة، ويُطوِّع هامات الصون والعفاف، فلا يرتفع في وجه شهوته صَوت، ولا يمنعه عن نزوته إلا الموت، فلا أحد يدفعه عن الشر والفساد.

لقد كان الرجل يسمع رجاء المرأة في حاجتها، بأُذنه، وقلبه مغلق، وينظر إليها في بؤسها بعينه، وبصيرته مطموسة، وتتردد إليه ضارعة، فلا يثوب من السمع والنظر بشيء. وبهذا العناد.. العناد الصفيق، بعد تكرار البيان كان يرد على المرأة، والشهوة تَعميه، والذنب والمعصية تطغيه، أنه سيعطيها مالاً «على أن يَطأَها».

إنه مشهد حي، وصورة معبرة ترسمها القصة النبوية.. نلمح في ظلالها خيوط الصراع العنيف في النفس الإنسانية بين حَرَكة، وشدّ، وجَذب! كلها تتم في لحظة وضيئة، تحركها دموع الفضيلة الساخنة، ورعدة العفاف الباهر.

لقد كانت نفس الرجل في جاذبية المعصية، تدور عليه مُسيطرة وثقيلة، تُعمي عن الحقيقة.. وما هو إلا أن أدركه فضل الله، فإذا هو يَرى! وصحت الفضيلة في كيانه، فأيقظته، فإذا هو في موقف جديد.

إن هذا الموقف يصور زحزحة النفس الإنسانية عن كبرياء الذنب، المزهو بسلطان المال القوي، ويرسم الخيال هيئة الخير، وقد قامت في نفس الرجل، يلقي بظله الصادق الأصيل.

إنها لحظة تمثل صفاء القلب، وشفافية الروح، وتَفتُّح الإدراك، واستعداده الصادق للتغير، والاستجابة لهاتف الخير، الذي طبعه في لحظة، فتأثَّر به.

إنها لحظة الصدق الواقعي التي رسمتها الدموع الصامتة الحزينة بخيوط الفضيلة، التي انبعثت من أعماق وكيان المرأة، في رعدة مُؤثرة، من جسم

يرفض بصمت هذا الفعل الحرام[1] «ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة».

إنها لحظة.. لحظة اتصال، ولحظة استقبال. فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الحقيقة حين تمس القلوب، ومن ثم تكون الحصيلة المباشرة.. وهي زحزحة من جاذبية المعصية.. إلى رحمة الله ﴿**فمَن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز**﴾..

هذه اللمسة الصادقة التي تمس القلوب، قد نسجتها خيوط العفاف والفضيلة في المرأة، فكانت اللمسة التي تطبع الحسّ بالحق. لقد كانت في تكوينها سلسلة من تأثيرات العفة والطهارة، بقيت حلقاتها تتداعى في حسها على هذا النحو السريع واللاإرادي في لحظة الاستسلام المقهور، ليتحرك القلب مذعوراً فيرعد الجسم، ومن ثم تسيل خيوط الدمع شاكية متألمة.

والقصة النبوية ترسم ذلك بصدق وواقعية.. ترسم حركة عجيبة في نفس المرأة الطاهرة، التي تشير إلى تداعي المشاعر الكامنة، التي خلَّفتها الفضيلة[2] في نفس المرأة.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿**ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً**﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون. ومَن يفعل ذلك يلق آثاماً يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا مَن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً..**﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩]..

لقد اعتبر الإسلام الزنا جريمة وكبيرة من الكبائر بوصفها نكسة حيوانية، ترد الكائن الإنساني مسخاً حيوانياً، لا يفرق بين أنثى وأنثى، ولا بين ذكر وذكر. مسخاً كل همه إرواء جوعة اللحم والدم في لحظة عابرة. انظر «الكبائر» للذهبي. الكبيرة العاشرة. وانظر دستور الأسرة: ٢٠٢ ـ ٣٠٥.

(٢) ولغرس الفضيلة في البنت وتربيتها ثواب عظيم عند الله، لأن المرأة هي قلعة الفضيلة. عن أنس رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «مَن عَالَ جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين» وضم أصابعه. رواه مسلم (٢٦٣٠) وأخرجه الترمذي (١٩١٧). و«جاريتين» أي: بنتين، فمَن قام عليهما بحسن التربية والمؤونة ونحوهما بلغ ذلك المقام.

إن القصة النبوية تصور بحركة وجدانية مؤثرة، الخلجات والتموجات النفسية العميقة والخفية التي تتوالى في كيان المرأة، بين الاستسلام المقهور للجسد، وبين هذه الدموع الراعدة المنطلقة من نبع العفاف الذي ينبض في كل خلية من جسد المرأة.

نقف أمام لوحة الفضيلة هذه.. رجل في كبريائه يهمّ في فعلته المنكرة، تَعميه الشهوة.. والمرأة المصونة في لحظة الاستسلام المقهور.. تتقابل العيون ولكنها لا تتلاقى..

يرى الرجل ذلك الجسد الخاشع الواجف الراجف، يصيح بالنغم الحزين، والإيقاع المؤلم، الذي يتمثل بتلك الرعدة المؤثرة، ومن ثم تفجؤه تلك الحرارة البادية في الدموع، وفي مقاطع كلمات المرأة التي تنبعث من رنين الفضيلة الخافت حتى في تلك اللحظة الأخيرة: «ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة».

وهنا كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الرجل بالله سبحانه وتعالى، وإذا الرؤية واضحة.. فالشهوات وزينتها ضئيلة ضئيلة.. وإذا الحياة الأرضية وزخرفها زهيدة زهيدة.. وإذا النفس قويمة قد أدركتها رحمة من الله عظيمة.

لقد تَفَتَّح لهذا القلب آفاق مشرقة وضيئة، لا تُبالي أن تنظر بعدها إلى لذة ضائعة، أو شهوة حالمة.

إنها لمسة اليقين بالله، والخوف منه، أرعدت في نفسه، فهو قبل لحظة كان يعد الفاحشة كَسْباً، والتمتّع بالحرام مغنماً، تتسابق إليه نفسه. فلقد كانت الشهوة في ذاكرة حياته أملاً طاغياً، يسعى إليها، وينفق في سبيلها، فهي مبلغه من الحياة، يقدم إليها ساعياً متحمساً، حبيساً وأسيراً لهواه، يتنفس في جوه، ويحيا معه وله.

وإذا بالرجل بعد لحظة، وقد أشرق الإيمان في كيانه، فرخص كل شيء في نفسه، وانقطعت خيوط جاذبية الشهوة من آماله، وخنست نزغات الشيطان

ونفثاته عن قلبه وبصره.. وإذا به يقول: «لا».. لا للفساد، لا لهذه الحياة الأرضية التافهة.. وبدأت طلائع النور تشرق رويداً رويداً في عيونه..

لقد رأى حقاً ببصر وبصيرة.. كيف يكون الإيمان الصادق.. رآه في المرأة الخيِّرة.. فهي رغم مرارة ما ترَى، وثقل ما تحمل، وعبء ما تلقى.. رافضة للحرام.. تبكي بدموع راعدة، مُعبرة أصدق تعبير عن أحاسيسها الدفينة الحزينة الشاكية.

ونصادف في القصة جوانب متعددة للشخصية من جراء حركة الحدث ونموه «نجد شخصية (الرجل) تعرض علينا بصورة يتكشف لنا أكثر من جانب فيها، ففي المرحلة الأولى من القصة تصور لنا في الرجل جانب الإسراف في المعصية، واقتراف الذنب والإصرار عليه، فالقصة تحدد سلوك «الكفل» الاجتماعي: «لا يتورع عن ذنب عمله» فهو مسرف في اقتراف الخطايا لا يرعوي عنها، وهو جانب شرير في هذه الشخصية، ولكن هذه الشخصية لا تلبث أن تنمو مع الأحداث عبر صراع نفسي فجّره الموقف المثير للمرأة في تصونها، وخشيتها من مقارفة الفاحشة، وإذا بالرجل يثور على واقعه السيىء في لحظة إشراق تحوّل فيها إلى الخشية والخشوع، وهذا جانب آخر جديد كشفته لنا القصة عبر هذا الموقف الجديد للشخصية، وفي صورة مؤثرة فنية مقنعة»[1].

رحمة الله:

إنها رحمة الله التي أدركت الرجل، فسرت في عروقه أضواء الفرح العلوي، الذي يُطلق النفس من عقال المطامع الأرضية، والشهوات والأعراض الزائلة، وإذا به يتحرر من وطأة الذنب الذي كان يسعى إليه، ومن جاذبية الفاحشة التي كان يتمناها ويتملاها.

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ٢٨٦.

http://al-maktabeh.com

إن القصة النبوية ترسم نموذجاً واقعياً للإنسان. يتكرر في حياة البشرية، في كل زمان، وفي كل مكان. فهي تصور النفس المنحرفة تبطرها القوة فلا تذكر، وتعميها النعمة فلا تنظر.. وما نفع تلك النفس من المرأة العظة والتذكير بخوف الله، في أن يبذل الرجل ذلك المال بدون أن تدفع الفضيلة هذا الثمن الباهظ.

إنه نموذج للإنسان الذي يبتليه الله بالقوة والنعمة، فتغشى بصره وبصيرته غشاوة، فهو أعمى، لا يرى الحقيقة، ولا يتذوق معنى الشرف والعفاف.. فهو في نعمة ومال يتقلب، وبقوة وسلطان يتخايل ويتمايل.

إنها الغفلة والعمى والجهالة نراها تصاحب القوة والرخاء والنعمة، نراها في كل زمان وفي كل مكان، إلا من رحم الله من عباده المخلصين.

وتدرك الرجل رحمة الله. رحمة الله في اطمئنان القلب، وفي الاتصال به سبحانه وتعالى، وإذا بالنفس الضعيفة الشحيحة إلا على هواها وشهواتها، تعتصم بالله، فيغمره الرحمٰن الرحيم بالإيمان العميم، فبلغ كل ذرة في كيانه، وارتفعت تلك النفس الأمّارة بالسوء، برحمة الله، فوق جاذبية الشهوة ودَنَسها، وانطلقت من قيود الذنب، حُرَّة، تأْمَل في خَلَف أعظم، في رضوان من الله أكبر..

وإذا بهذه النفس تتألم من قرح الذنوب ونارها، وتلوم وتتحسر، ويَصرخ الحق في أصداء نفسه، ملبياً نداء الرحمة، وهو يقول: «والله لا أعصي الله بعدها أبداً». وإذا بالعزم يأخذ مكانه في النفس في صدق وتصميم شديد.

إنه الفرار إلى الله برحمة الله.. لقد وجد الرجل نفسه، وفي لحظة وصول، وجد سعادته بالفرار إلى الله من خطيئته، ووجد طعم الطمأنينة، ولمسة اللذة بقرب الله.

إنها لحظة إشراق رائعة، وومضة يقين صادقة، تفرّ الروح فيها من واقعها الذي حُبست فيه..

لقد فرّ الرجل من أوهاق هذه الأرض وجواذبها المعوقة، ومغرياتها الملفتة. . لقد تحرر من الأوهاق والأثقال، وخلص القلب من جواذب الهوى، ورَانْ المعصية، ومغريات الشهوة والخطيئة.

إنه مشهد يصوره النبي ـ ﷺ ـ في أعماق النفس الإنسانية، وقد أصبح الرجل وقد فتحت عليه منافذ الرحمة، يرى هذه الفعلة الفاحشة كريهة في حسّه ونفسه. وقد عادت الحياة إلى القلب، ويتلفت الرجل بعد صحوته، ليجد بعد رقود طويل، أن حياته كلها، حياة ديدان وهوام، وفي هذه اللحظة بدأ يشعر بالهجير المحرق الذي كان يعيش فيه، بعيداً عن ظل الفضيلة الوارف الظليل. . لقد كان في مُستنقع كريه، يتمرَّغ في وحل الشهوة، بعيداً عن الخط القويم، والطريق المأنوس السوي المطروق.

لقد ارتدعت النفس عن غيّها وفسادها، وانكسرت شوكة الطغيان فيها، فقد شعر بحرقة وألم، نكارة الجريمة، وعظم الخطب والمصيبة. . وهنا تعمل رحمة الله في سنّته ـ سبحانه وتعالى ـ في المغفرة والتوبة.

والحكمة واضحة في المغفرة وقبول التوبة، ومن ثم إعلانها وإشهارها.

إنه تقدير العزيز العليم الرحيم. إنها سنّة الله في الإنسان. فقد كان الرجل يملك أن يستمر على الاعتداء على حدود الله، ولكنه فرَّ إلى الله من ذنبه، بعد نَدَم عميق، وتصميم على التوبة، وهذا دليل صلاح واهتداء. وهو بشير للنور وقد أشرق في القلب، وعَزْم صادق على السير على الصراط المستقيم.

وفي هذا أيضاً تشجيع على التوبة. والإسلام يتعامل مع الطبيعة البشرية، بكل مشاعرها ومساربها واحتمالاتها. والله سبحانه بارىء هذه الطبيعة، الخبير بمسالكها ودروبها، العليم بما يصلحها، وما يصلح لها.

ألا إنها لرحمة الله العظيمة قد أَظلَّت لتغمر كل شيء بالأمن والرضى والطمأنينة، فهي توحي بنداوة للعودة إلى الله، واستجاشة الوجدان واستحياء القلب، حتى تأنس الروح بخالقها فتعانق السعادة في شوق ودود. .

إن الهدف الأول للقصة النبوية هو تقويم النفس الإنسانية، ودفعها بالحكمة والموعظة الحسنة إلى الصراط المستقيم.

فهي تعرض فصلاً مثيراً في أعماق النفس، وتجربة واقعية متكررة، ليكون فيها للمؤمنين عبرة وموعظة، يرسم حوادثها البيانُ النبوي في مشهد شاخص متحرك، يُعبر عنه الرسول ـ ﷺ ـ في حركات وانفعالات، تصور الصراع النفسي الذي انبعث بحركة مضيئة، تُصلح القلب، وتُحيي الضمير.

ولما كان المقام هنا مقام التربية بالمغفرة والرحمة فإن النبي ـ ﷺ ـ يقول: «إن الله قد غَفَر للكفل».

ولكن لا تنطوي الصفحة.. ويَكل ذلك الرسول ـ ﷺ ـ إلى خيال المؤمن ليتملى هذا الموقف، فيعتلي القلب قشعريرة، فتذرف الدموع أُنساً بالله الغفور الرحيم.

وهكذا ندرك لماذا يُساق القصص النبوي، وكيف يُساق في كل موقف، ويتحرك في كل موضع، فهي ليست مجرد قصة تُروى، ولكنها لمسات رحيمة، وإيحاءات مقدَّرة تقديراً، بوحي من الله ولطفه.

إنه بيان مثير يلفت الحس والقلب والعقل، يسري في العروق بالقصة التي كانت من وسائل المنهج النبوي لاستحياء القلب الإنساني، لعله ينبض ويتحرك، ويتلقى ويستجيب.

ها هي ذي القصة يوجزها النبي ـ ﷺ ـ بجملتين:

في البداية: «لا يتورع عن ذنب عمله».
وفي الختام: «قد غفر الله للكفل».

وفي ثناياها ومراحلها يعيش الخيال في عالم الواقع المنظور بيقظة مرهفة، وحركة دائمة. مع رحمة الله الخالدة.

إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية، كائنة ما كانت.. إنها دعوة

http://al-maktabeh.com

للعودة إلى الله. دعوة العصاة المسرفين، الشاردين المبعدين في تيه الضلال. دعوتهم إلى الأمل، والرجاء، والثقة بعفو الله. إن الله رحيم بعباده. وهو يعلم ضعفهم وعجزهم، ويعلم العوامل المسلَّطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه. ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واه. وأنه مسكين سرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه، والعروة التي تشده.

وأن ما ركب في كيانه من وظائف، ومن ميول، ومن شهوات، سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشطّ به هنا أو هناك؛ ويوقعه في المعصية، وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم.

يعلم الله سبحانه عن هذا المخلوق كل هذا فيمدّ له في العون، ويوسع له في الرحمة، ولا يأخذه بمعصية حتى يُهيىء له جميع الوسائل ليصلح خطاه، ويقيم خطاه على الصراط. وبعد أن يلج في المعصية، ويسرف في الذنب، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره، ولم يعد يُقبل ولا يُستقبل. في هذه اللحظة. لحظة اليأس والقنوط، يسمع نداء الرحمة الندي اللطيف:

﴿قل: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعاً. إنه هو الغفور الرحيم﴾ [الزمر: ٥٣]..

وليس بينه ـ وقد أسرف في المعصية، ولج في الذنب، وابق عن الحمى، وشرد عن الطريق ـ ليس بينه وبين الرحمة الندية الرضية، وظلالها السمحة المحيية. ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة. التوبة وحدها. الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بوّاب يمنع، والذي لا يحتاج مَن يلج فيه إلا استئذان.. **﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله علياً حكيماً﴾** [النساء: ١٧].. **﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾** [هود: ٩٠].. **﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربَّك من بعدها لغفور رحيم﴾** [الأعراف: ١٥٣].. **﴿فمَن تاب من بعد ظُلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه﴾** [المائدة: ٣٩]..

التربية والسلوك:

إن القصة النبوية صُوّرت من الواقع الإنساني، والرسول ـ ﷺ ـ يتخير في عرضه البليغ ما له أثر في التربية والتوجيه، وتعليم المؤمنين، في سياق أدبي متفرد يمنح القصة القدرة على التأثير والإيحاء.

وتعد هذه القصة بأحداثها وتفاصيلها ذات مصدر واحد، هو مصدر الوحي، فهي من قبيل الغيب الذي كشف الله عنه لِنبيّه ـ ﷺ ـ وموضوعها الإنسان وسلوكه وطبائعه بما في ذلك من خير وشر، وهي تحمل فكرة وتنتهي إلى تقرير المضمون التي تسعى إلى توضيحه، وهي فوق ذلك تعرض بطريقة فنية تجعل الفكرة قادرة على أن توحي إلينا بأفكار أخرى، وتثير في أذهاننا معانٍ شتى حول الفكرة الأساسية التي تتحدث عنها القصة.

إن هذه القصة تعرض فصلاً من حياة الإنسان، وتجربة، ليكون فيها للناس عبرة وعظة، فهي تجربة تتكرر في حياة البشرية كلما نفث الحرمان سموم الفقر في كيان المجتمع، وهي لمسة نبوية توقظ في الناس الخوف الشديد من آثار الشدة والفاقة، فالحاجة ريح مُدمرة مؤلمة، وهي حين تعصف، تزلزل كيان الناس، وتفعل بهم فعل النار في الأجساد، أو أشد وأعمق، فهي تكوي وتشوي، وتدمر الفضيلة، وتقوض أعمدة الشرف.

والمجتمع مسؤول بأفراده وكيانه عن هذا الأمر، حتى لا تعم الفتنة، وتفسد الضمائر، وقد أنتنت البيئة من انتشار الفاحشة ما ظهر منها وما بطن.

كانت القصة وهي تلم بلحظات الضعف عند الإنسان وتصورها تستعمل وسيلة نظيفة تستطيع بها أن تنقل تلك اللحظة وتعبر عنها، ولكن دون أن ينزل التعبير نفسه، أو تنزل القصة ذاتها إلى مستوى تلك اللحظة الهابطة، ومن أجل ذلك اختارت القصة طريقة مناسبة في التعبير والعرض، تحقق لها الوسيلة النظيفة السامية التي ينشدها منهج الفن الإسلامي، ونستطيع أن نتبين مظاهر هذه النظافة في القصة النبوية في أكثر من أسلوب:

١ ـ استعمال القصة للألفاظ والعبارات العفيفة عند عرض موقف

الفاحشة، واستعمال الكنايات المناسبة، وقد نجحت القصة في هذا برغم ما في موضوعات الجنس من حرج شديد، واستطاعت أن تني بالغرض الموضوعي والفني من خلال وسيلة رفيعة.

٢ ـ والأسلوب الثاني هو طريقة عرض هذه المواقف، حيث إن القصة لا تتجه إلى وصف المشاعر الجنسية المشبوبة التي ربما سيطرت على الإنسان في مثل تلك اللحظات، كما أنها تهمل أيضاً وصف محاسن المرأة، وتصوير مفاتنها، وما هي عليه من إغراء، تثير كوامن خفية لمتابع القصة بمشاهد الجنس المنحرفة.

٣ ـ والأسلوب الثالث هو ما نلاحظه في منهج القصة في تناول مثل هذه الموضوعات من عدم الوقوف الطويل عند مواقف الضعف والهبوط، إنه يمر بها سريعاً ولا يركز عليها، أو يسلط عليها الأضواء، لأنها لا تستحق ذلك، ولا تستأهله، وهي ليست سوى عارض من عوارض الحياة لا يلبث الإنسان أن يفيق منه، ويستعلي عليه.

٤ ـ الأسلوب الرابع أن هذا المنهج يسرع من لحظة الضعف إلى لحظة الإفاقة والارتفاع والسمو، ويقف عندها طويلاً، لأنها هي الجديرة في نظره بالوقوف الطويل أمامها، والإعجاب بها، وتركيز الإضاءة عليها، لأنها اللحظة اللائقة بالإنسان، المعبرة عن حقيقة هذا الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض، وفضَّله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

وينبغي أن نلاحظ هنا أن لحظة الإفاقة هي اللحظات التي تعقب الصراع الذي يدور في النفس، بين جوانبها المختلفة، النفس **الأمّارة بالسوء، واللوّامة**، إلى أن ينتهي هذا الصراع إلى تحقيق النفس المطمئنة، وهذا الصراع هو الذي يبرز حركة القصة الفنية في صعودها إلى لحظة اليقين أو الإفاقة عند الشخصية[١].

والقصة تركز كثيراً على جوانب القوة و «العفة»، والإفاقة من الضعف،

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ٤٧٨ ـ ٤٨١.

http://www.al-maktabeh.com

وتلح عليها في عرضها، كما نجد في تصويرها لموقف المرأة المتشدد إزاء مطالب الرجل مع شديد حاجتها للمال المغري بين يديه.

وتعكس القصة صورة من الصور الواقعية في المجتمعات البشرية في كل زمان ومكان، وهي نموذج يتكرر في كل بيئة.. صورة اللئيم الصغير النفس، الذي يُؤتى المال فتسيطر نفسه به، حتى ما يطيق نفسه! ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة. القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار. أقدار المعاني. وأقدار الحقائق. وأنه وقد مَلَك المال فقد مَلَك كرامات الناس وأقدارهم وأعراضهم بلا حساب! فالمال عنده إلّه قادر على كل شيء؛ لا يعجز عن فعل شيء، يندفع به فـ «لا يتورع عن شيء»..

وهي صورة لئيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة، وتعرى من الإيمان.

ومن طرق التربية في القصة، التربية بالتوبة. والتوبة وسيلة مهمة جداً في سبيل صيانة الإنسان من شرور نفسه وأهوائه، وضعفه الفطري الذي جُبل عليه، وهي تحفظه من أن يرتمي في أحضان الشيطان إلى الأبد، الذي يقوده إلى جهنم.

والإنسان لضعفه يمكن أن ينحرف، ويمكن أن يخطىء، بل إن هذا أمر واقع في حياته. ولذلك فالقصة النبوية تعالجه في برنامجها التربوي بالتوبة التي تحقق وظيفتين أساسيتين في تربية المذنب:

الأولى: أنها تفتح الطريق أمام المذنب ليتطهر ويستقيم، ويستأنف المسير على الصراط المستقيم، وتشجعه على أن يعود عضواً صالحاً في الحياة.

وتضع هذه القصة أمامنا مثالاً بالغ الأثر والتأثير، لرجل أدركته فترة ضعف كان فيها «لا يتورع عن ذنب يفعله»، وفي إحدى نزواته مع المرأة المحتاجة، صادف من المرأة تمنعاً عنيفاً، كان وراءه موقف أخلاقي ثابت ينطلق من مبدأ الرفض للفاحشة، ولم تزل ترفض هذا من خلال موقفها المتحرج الراعد الباكي، حتى استيقظ ضميره، واستغفر ربه وتاب وأناب، فقبل الله

توبته، ومات من ليلته، وفي اليوم التالي وجد مكتوباً على بابه: «إن الله قد غفر للكفل».

الثانية: أن المذنب يجد في التوبة علاجاً مريحاً لألم الشعور بالذنب، ومَخلصاً نفسياً يرفع عن كاهله ذلك الشعور، الذي ربما أصابه بالاضطرابات العصبية، والقلق النفسي المدمر، الذي نجد أمثلة واضحة له لدى المذنبين الذين لا يرتبطون بالله بصلة دين أو عقيدة، فيدفعهم قلقهم، وآلام ذنوبهم إلى طرق مختلفة ينشدون بها الخلاص مما يعانونه، فمنهم مَن يلجأ إلى الخمر والمخدرات، ومنهم مَن يحاول أن يطرد تلك الآلام بالانهماك في الملذات الجنسية وغيرها، ولكنهم في النهاية يفشلون، لأنهم يعالجون الداء بالداء، فتزداد مشكلتهم تعقيداً، وتزداد أعصابهم توتراً واضطراباً(١).

أما التائب كما تصور ذلك القصة النبوية، فهو بتوبته، يبدأ بصفحة جديدة نقية لا سوء فيها، فيجد الإنسان المسلم وسيلة النجاة، والفرار من ذنوبه وآلامه في باب التوبة المفتوح على مصراعيه، هذا الباب الذي لا تلفت القصة النبوية الإنسانَ إليه فحسب، ولكنها تناديه، وتغريه بأن يدخل فيه برحمة الله.

والقصة تختم بموقف الإفاقة والانتصار والتوبة، حيث تنتهي فصولها والأنوار مضاءة هناك، ويظل معها القارىء والسامع يتملى المشهد الأخير في خياله، وتمتلىء نفسه من خلال ذلك بالمشاعر الإيمانية، والأهداف العليا للحياة الإنسانية في سبيل واقع أفضل وأجمل، وهو يتطلع إلى حياة أبقى وأكمل.

وفي القصة النبوية تأتي النهاية في قوة البداية، فقد أتيح لها من مقومات القوة وعناصرها ما يجعلها الصورة الحية التي تنطبع في الحس فتلازمه وتؤثر عليه، وترتسم في الخيال وتقوده إلى العزم والتصميم، والنهاية جزء مهم في

---

(١) انظر: أبو مدين الشافعي: «الاطمئنان النفسي» ص ٤٦، القاهرة، دار الفتوح للطباعة، والقصص في الحديث النبوي ٤٥٦.

كيان القصة، له قيمته الحاسمة في تثبيت دعائم الخير والفضيلة في بناء النفس الإنسانية، وعلى النهاية يتوقف الأثر النهائي في نفس القارىء أو السامع، فهي تحمل ثمرة خالدة سيبقى مذاقها عالقاً في الذهن والسلوك يرسم الخطى، ويصحح المسير.

لقد ظلت القصة في خاتمتها وفي نهاية المطاف محتفظة بعنصر الإثارة والاستقطاب، لتقود القلوب المشوقة، المتعبة المثقلة بأحمال الذنوب إلى رحمة الله التي وسعت كل شيء، تدخل في باب التوبة المفتوح بفرح وسرور.

لقد كانت النهاية ذات آثار عميقة تنعكس على نفسية المتلقي، حيث تسكب في عروقه اليقين والطمأنينة، وتزرع في أعماقه بذور التفاؤل والأمل، وتثير في النفوس البهجة والانشراح[1].

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ١٥١، ٤٨١.

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة قاتل المئة

المحتوى	ص
ـ تَقديم وتَقرير	٧١٣
ـ الأَمل الصَّادق	٧١٨
ـ اليَقَظَة والحَذَر	٧٢٤
ـ دروس وعِبَر	٧٢٧

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة قاتل المئة

إن الله سبحانه يعلم ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به نزغات الشيطان أحياناً إلى درك المعصية وارتكاب الكبائر، وتدفعه شهواته وأطماعه ورغباته إلى مخالفة أمر الله في حمى الاندفاع في ظلام النسيان والغفلة . .

إن الله عزّ وجل يدرك ضعف هذا الإنسان فلا يقسو عليه، ولا يبادر إلى طرده من رحمته حين يظلم نفسه ويتجاوز حدود ربه، فيسرف ويطغى . .

إنه سبحانه لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال، الذي يتخبطه الشيطان، باب التوبة، ولا يَدعَه لعدوه إبليس يقوده إلى اليأس والقنوط من رحمة ربه، فهو سبحانه يريد أن يتوب على عبده الشارد الحائر في تيه الشيطان، يُطمعه سبحانه في المغفرة، ويَدلُّه على الطريق، ليثوب إلى الكنف الأمين.

إنه ـ سبحانه ـ موجود للمغفرة والرحمة حيثما قصده مستغفر منيب، فهو يستقبل المستغفرين في كل حين، يغفر لهم ويرحمهم متى جاءوه تائبين **﴿ومن يَعمل سُوءاً أو يَظلم نفسه، ثُم يَستغفر الله يَجد الله غفوراً رحيماً﴾** [النساء: ١١٠] . .

هكذا بلا قيد ولا شرط، ولا حجاب ولا بوّاب! حيثما جاء العبد الظالم لنفسه، الضال، الشارد، المسرف . . جاء إلى ربه تائباً مستغفراً وَجدَ الله غفوراً رحيماً . .

http://al-maktabeh.com

وعلى هذا السبيل المضيء برحمة الله سارت القصة النبوية. تُوجِّه القلوب إلى رحمة الله ومغفرته.. القصة النبوية التي تثير في أفئدة الشاردين التائهين الاستغفار ولا تثير الاستهتار. فالله سبحانه لا يغلق الأبواب في وجه الخاطئين والخاطئات الذين هزّهم الندم من الأعماق، فاستفاقوا وهم في فسحة من العمر، واستجدّت في أعماقهم رغبة حقيقية صادقة في التطهر من الآثام والمعاصي، ونية حقيقية في سلوك طريق جديد..

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «كان فيمن كان قبلكم رَجلٌ قتل تِسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فَدُلَّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قَتَل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمَّل به مئة، ثم سَأَل عن أعلم أهل الأرض، فَدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قَتَل مئة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومَن يحولُ بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أُناساً يعبدون الله تعالى فاعْبُدِ الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرضُ سوء، فانطلقَ حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مُقْبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدميّ فجعلوه بينهم ـ أي حَكَماً ـ فقال: قيسوا ما بين الأَرْضَين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».

وفي رواية في الصحيح: «فكان إلى القرية الصالحة أقربَ بشبر فَغُفِرَ له» وفي رواية: «فَجُعِلَ من أهلها».. وفي رواية في الصحيح: «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقرَّبي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقربَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ له» وفي رواية: «فنأى بصدره نحوها»(١).

تتحدث القصة عن كبيرة من كبائر الإثم، وفاحشة من أكبر الفواحش،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٦٦) والبخاري ٤/٢١١ ـ ٢١٢، وابن ماجه ٢/٨٧٥، المسند (صادر) ٣/٢٠، وابن حبان في صحيحه. انظر الإحسان رقم (٦١١).

وهي جريمة تخلد صاحبها في عذاب أليم في نار جهنم في مقعد مقيم ﴿ومَن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدَّ له عذاباً عظيماً﴾ [النساء: ٩٣]. . ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون. . ومَن يفعل ذلك يلقَ أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا مَن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يزال المؤمن في فُسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً». وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إن من ورطات[1] الأمور التي لا مخرجَ لمن أوقعَ نفسه فيها سَفْكَ الدم الحرام بغير حِلّه[2].

والقتل من أكبر الذنوب والكبائر، وأعظم المظالم، ويكون أول القضاء يوم القيامة، القضاء المتعلق بالدماء لعظم أمر القتل.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء»[3].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق»[4].

وفي رواية زاد فيه: «ولو أنَ أهل سمواته، وأهل أرضه اشتركوا في دَمِ مؤمن لأدخلَهم الله النار».

وفي رواية للبيهقي قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لزوال الدنيا جميعاً أهون على الله من دَمٍ سُفِكَ بغير حق».

---

(١) الورطات جمع ورطة بسكون الراء وهي التهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه.
(٢) رواه البخاري والحاكم وقال صحيح على شرطهما.
(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة.
(٤) رواه ابن ماجة بإسناد حسن ورواه البيهقي والأصبهاني.

إن القصة تصور لمسة من رحمة الله بعباده، وترسم قاعدة معاملته لهم. . إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل كبيرة ومعصية كائنة ما كانت ولو كانت أمّ الكبائر وشرّ الآثام: القتل. .

إنها دعوة لكل العصاة المسرفين لـلأوبة والتـوبة. . الأوبـة إلى الباب المفتوح، والتوبة النصوح، وعدم اليأس والقنوط. .

وتنقل القصة النبوية صورة واقعية من أحداث التاريـخ الإنساني التي أَوْحى الله بها إلى نبيه ـ ﷺ ـ، ويسبق القصة تمهيد قصير ببيان أنها حدثت في الماضي: «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعة وتسعين نفساً». .

وفي رواية في صحيح البخاري «كان في بني إسرائيل رجلٌ قتل تسعة وتسعين إنساناً. .»، ثم تحدد لنا موقف رجل القصة، وتعرفنا عليـه بصفته المثيرة: «قتل تسعة وتسعين إنساناً». وإنه لوَصْف يدعو إلى العجب من أمره، ويبعث إلى التطلع نحو تفاصيل قصته الغريبة بشوق شديد(١).

ثم تأخذ مشاهد القصة تتحرك بكل أبعادها، وتنمو الأحداث متطورة أصلاً عن بداية القصة، فالبداية تحمل في تضاعيفها الأسباب التي حدثت عنها مضاعفات تالية، وبتلك الدوافع النابعة من البداية ينشأ موقف جديد. .

«كان فيمن كان قبلكم رجل قَتَل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فَدُلَّ على راهب. فأتاه، فقال: إنه قَتَل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟. .».

إنه مشهد مشخص يحفل بشتى الصور في حيوية واندفاع، وهـو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، فهو نموذج إنساني شاخص لمجرم قاتل تائه شارد، ترسم القصة هذه الـطبيعة البشريـة مجسمة مرئية، تصور في أعماق النفس خطوطاً متشابكة بألوان مضطربة لصراع عنيف، لا تهدأ عواصفه، ولا تسكن حركته، فهو ينمـو، ويزداد صراخـه في أعماق

---

(١) القصص في الحديث النبوي ص ١١٠.

الوجدان، فيعدم الرجل الراحة والسكون، وتغيب الطمأنينة بالنوم عن الجفون.

وبدأت مسيرة التوبة فسأل عن أعلم أهل الأرض، فَدُلَّ على راهب، فعرض عليه أمره، وسأل: «فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مئة». .

وتدع القصة للخيال جناحَه فيغيب في صورة ترسمها القصة. . صورة تتحرك. . ماذا حدث بعد أن قال الراهب للرجل: ليس لك من توبة؟! لقد أطار الغضب عقله، واستوى الشيطان فكره وقلبه، فانتشر في كيانه ألم اليأس. مشهد الرجل يموج ويضطرب، بعد أن أغلق الراهب عليه باب الإنابة والتوبة، فأطفأ نور الأمل في قلبه برحمة الله. . وعلى لون من ألوان «التخييل» الذي يتمثل في تلك الصورة المتحركة، نجد الرجل في ظلام وضباب وقد خَيَّما على قلبه وعقله، وإذا بالشيطان قد فجَّر في أعماقه الغضب الشديد، وترتفع الأنفاس في غيظ وحنق، فإذا هو يموج في اضطرابه، وما هي إلا عروق تغلي، فترتفع يَد الرجل اليائس البائس بِسَطْوة البَطش الأعمَى، ومَا هي إلا ضربة مُضطربة هوت بشدة على عنق الراهب، فأطاحت بحياته. فسال دمه يُضَمِّخُ ثوبه وجسده. . فكان الغضب مركب الشيطان الذي دفعه إلى هذه الجريمة «فقتله، فكمل به مئة».

ووقف الرجل في خشوع حزين، والدنيا من حوله صامتة باكية، وهو يتساءل في وجدانه لِمَ قتلته؟!!

إنها صورة يائسة مرعبة، ترسمها القصة للاستسلام للشيطان، يُجللها ظل كئيب، ساهم في بعثه قتل الراهب، مشهد حافل بالاضطراب. . هاهو ذا الرجل يَنظر ولا يَرى، يتحرك بلا إرادة ووعي وتصميم، يتحرك ليقتل، ولا يعي ما يفعل، لقد أتى صومعة الراهب، يتلألأ في قلبه أملُ التوبة والعودة إلى الله، لكنه يعود كئيباً. وهو يحمل وِزْراً ثقيلاً فوق أوزاره، يتبدى الحزن والضيق في أعماقه. .

وحَدّقت عينا القاتل في جريمته، فإذا هو في غمٍّ عميق يلفه خوف شديد، وما تكاد أقدامه تحمله من ثقل غمِّه وهَمِّه. . هاهو ذا يتمايل في مشيته، وانطلقت عيناه في رحلة طويلة من البكاء، وتَمَدَّدَ قَلْبُه على أوتار الندم تعضّه بشدة وألم، وتزيده حزناً على حزن. .

الأمل الصادق:

ومضت الأيام باكية تنادي بعضها بعضاً، وإذا بهتاف صارخ ينطلق في أعماق الوجدان يهزّ الرجل هزاً، ويدفعه دفعاً. . إلى أين؟! إلى الله. إلى التوّاب الغفّار الرحيم. .

وانطلق الرجل يقطع جنبات الأرض ويطويها بقلب واجف، ونَفَس راجف، وروح تتخطى الظلام، وعزيمة شديدة تبحث عن طريق الخلاص، طريق العودة والتوبة إلى كنف الرحمن الرحيم، وكان لا يرقأ له جفن، ولا تجف له دمعة وهو يسأل: هل له من توبة؟

انطلق الأمل الصادق مجدداً «ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فَدُلَّ على رجل عالم، فقال: إنه قَتَل مئة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومَن يحول بينه وبين التوبة. . »؟!

«وتثير القصة فينا نوعاً من الانفعالات المختلفة إزاء ما يجري من أحداث ومواقف، مما يجعلنا نتجاوب مع العرض النبوي بشيء من الخوف والفَزَع، أو بالشفقة والعطف، أو بلون من ألوان التوقع والترقب. . إنها حركة في خواطر النفس ووثبات الخيال. حين نرى الرجل وقد قَتل الراهب الذي سدَّ أمامه باب التوبة، وبعد ذلك سأل عن أعلم أهل الأرض مرة أخرى، يسأله هل له من توبة. . وهنا يثور في أنفسنا شعور بالخوف والفَزَع وتوقُّع الشر لهذا العالم، فَمَن يدري فلربما كان جوابه مثل جواب الراهب فيذهب ضحية جديدة لهذا القاتل، ولكن القصه بعد أن تثير فينا هذا الشعور لِلَحْظَة قصيرة تُمتعنا بجواب الرجل العالم بأنه ليس هناك مَن يحول بينه وبين التوبة»(١).

(١) القصة في الحديث النبوي ص ١٩٥.

لقد استقبل العالم سؤال الرجل في انشراح وطمأنينة، وقال له في نَبرات رحيمة تقطر حناناً وَوُدّاً: وما يمنع من التوبة؟ حتى إذا سمع الرجل قولَ العالم: «ومَن يحول بينه وبين التوبة؟». . عَلَتْ على وجه الرجل علامة استفهام مضيئة مُستبشرة، وتحركت في عينيه دموع مغتبطة بعد أن جَفّت دموع الحزن الكئيبة اليائسة، واستنار القلب بنور الأمل الذي أضاء السرور بالعودة إلى الله، والالتجاء إلى كنف رحمته الواسعة التي لا تغلق باب التوبة أمام كل قادم يفرّ من ظلمات المعصية إلى نور السلام، والاطمئنان والرحمة والرضوان. .

حتى إذا سمع الرجل قول العالم: «ومَن يحول بينه وبين التوبة؟» تأَنّقت ابتسامة خجولة على شفتي الرجل، وقد نَكَّس رأسه حياءً من الله، وأمارات الندم قد رسمت خطوطها في أعماق وِجْدانه، فانتشرت ظلالها على وجهه ونَفَسه، ونبرات صوته، وأَسْلَم نفسه للّه يستمع إلى قول العالم: «انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعْبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء». .

ومضى الرجل إلى الأرض الصالحة كما أشار إليه العالم. . مضى تائباً إلى حظه الباسم، ومصيره العظيم عند التوّاب الرحيم. .

مضى الرجل في رحمة الله التي قد كتبها جَلَّ جلاله على نفسه، وإذا بالقلب الذي تلبَّد وقسىٰ. . إذ به يتحرك ويضيء وينبض بحمد الله وشكره، وإذا بالروح التي انطفأت من مواقدها شموع الإيمان. . إذ بها تتلألأ نوراً وقد لامسَتْها الرحمة الإلٰهية.

لقد عرف الله سبحانه صدق نية الرجل فهو ﴿**أعلم بمَن اتقى**﴾ [النجم: ٣٢]، عَلِمَ الله صدق العزيمة والإرادة في التوبة، وما هي إلا وَمْضة في لحظة مشرقة، فَطَوى الرجل آماداً من الشقوة والضلال، وأزاح الله برحمته عن روح عبده الضباب الثقال. .

لقد تاب الرجل توبة نصوحة، تاب بيقين مكين، هاهو ذا يسمع داعي الله «انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أُناساً يعبدون الله تعالى، فاعبد الله

معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. . ».

وانطلق الرجل. . راح يُسابق الزمن. . الزمن الذي لا يملك حركته إلا الله تعالى، راح إلى الله تائباً ليمحو بتوبته آثار ماضيه القاتم. . فَهَجَر قريته. قرية السوء وأهلها. . وانطلق إلى تلك القرية الصالحة حتى يعبد الله فينال رحمته ومغفرته. . وفي الطريق كانت نبضات الحياة قد آذنت بالصمت، وسكنت حركتها، ولكن روحه قد استنارت بنور ربها. . ها هي ذي عائدة إلى ربها، خاشعة، تائبة، مستغفرة، راجية رحمة الله، وأحنى الرجل رأسه على صدره وأسلم الروح إلى بارئها. .

وهكذا أدركه الموت في الطريق ولما يصل بَعْدُ إلى القرية الصالحة «فانطلقَ حتى إذا نصَفَ الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدمي، فجعلوه بينهم - أي حكماً -، فقال: قيسوا ما بين الأَرْضَين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».

وفي رواية «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقرَّبي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقربُ بِشِبْر فَغُفِرَ له». وفي رواية: «فنأى بصدره نحوها».

وبعد، لقد أدركه الموت في الطريق، واختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، وهو موقف يبعث فينا درجة جديدة من الانفعالات تجاه مصير هذا الرجل، مَن يا ترى سيأخذه، ملائكة الرحمة، أم ملائكة العذاب؟!

ونظل نشفق على هذا الرجل، وهو في لحظاته الأخيرة، يترقب في رهبة قاتلة ما ينتهي إليه هؤلاء المتخاصمون في شأنه[1].

والنهاية في القصة مشهد حي يموج بشتى الصور المتحركة تثير في المتلقي

(١) القصص في الحديث النبوي ١٢٥.

التجاوب مع رحمة الله والفرار إليه، وتظل القصة في خاتمتها محتفظة بعنصر الإثارة والاستقطاب، وبمظهر الروعة في تشخيص المشهد في نقل الحدث الأخير وتصويره، فهذا الرجل التائب في طريقه إلى الأرض الطيبة، يواجه الموت، وفي الوقت الذي يستعد فيه لانتزاع روحه، ينشب أمامه مشهد مثير حيث يختصم الملائكة! وبشأن مَن؟ بشأنه هو! مَن يقبضه؟ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟

إنها مشكلة تثير الفَزَع والرعب في هذا الرجل الذي ينتظر الموت.. ومع الموت ينتظر مستقبلاً مجهولاً، وإنها لَلحظات قاتلة رهيبة مرعبة يعانيها، وهو لا يدري ما نهايته[1]!!

وإن الاختصام فيه ليطول، فملائكة الرحمة معها سجلٍ السماء «جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله»، وملائكة العذاب تفتح سجل الأرض يجلِّله سواد معتم: «إنه لم يعمل خيراً قط».

وفي احتدام المخاصمة يبرز على الساحة عنصر جديد في شخصيات القصة، يتحاكم إليه الملائكة، يأتي مَلكٌ فجأة في صورة آدميّ، فَحكَّموه بينهم، ولكأنَّا بالرجل ـ وهو في غمرات الموت ـ تحتبس أنفاسه في لحظات حاسمة قاسية قبل أن ينطق هذا الحَكَمُ بحكمه.

ونجد بروز المَلَك على ساحة القصة يعطي إضافة جديدة في الامتداد القصصي، وبُعْداً جديداً لأزمة الرجل المثيرة، حين ترتَّب مصيره على مقدار المسافة التي قطعها.. «فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له».

وإلى هذا الحد لا تزال النهاية مجهولة، ويبقى الرجل ـ وهو في سكرات الموت الرهيبة ـ يكتم أنفاسه في فَزَع رهيب مرعب، وتبقى الإثارة في نفوس المستمعين إلى القصة على أشدها.

---

(١) المصدر السابق ١٥١.

http://al-maktabeh.com

وهكذا تعيش القلوب مع القصة بشوق مثير في التدرج والانفراج، في الانتقال بالأحداث من مستوى إلى مستوى، وفق مراحل، ومن خلال تسلسل معين. . فيتدرج سياق القصة نحو التأزيم في الارتقاء من درجة إلى درجة في طريق الوصول إلى ذروة الأحداث فيها، وهي النقطة التي تجمعت فيها الأزمة، حين أدرك الرجل الموت، وبقي مصيره مجهولاً إلى آخر لحظة، حيث تنطلق الملائكة فيقيسون، فيجدونه أدنى إلى الأرض التي أراد، فتقبضه ملائكة الرحمة وقد غُفر له، ويأتي الانفراج مع **آخر كلمة في القصة**. . «فوجدوه إلى هذه أقربَ بِشِبر فَغُفِرَ له» وفي رواية: «فقبضته ملائكة الرحمة». .

وهكذا تأتي النهاية مجهولة إلى آخر كلمات القصة، ثم تأتي بنهاية سارّة تنسجم مع هدف القصة في تأكيد فسحة الأمل في باب التوبة المفتوح، وفي رحمة الله التي وسعت كل شيء. .

والحوار في القصة هو العنصر الأهم البارز فيها، نجد فيه الحيوية والانفعال، ويثير في النفس مختلف العواطف، فهو يأتي في سياق القصة في صورة طبيعية، دالّ ومُعبر عن الموقف ويحقق الغاية التي أُنشيء من أجلها، كذلك نجد الحوار يطوّر الحَدَث، ويدفعه لبعث مواقف جديدة في خط سيرها إلى أن تصل إلى النهاية المقصودة(١).

وهنا في القصة موضع جدير بالتأمُّل في الحوار بين ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، له مغزاه العميق وتأثيره الكبير في بيان القصة. .

الحوار بين جماعة من الملائكة، وجماعة أخرى منهم، وهم الذين ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون**﴾ [التحريم: ٦] فهؤلاء ملائكة الرحمة ينفذون سُنّة الله في ميزان الحق الإلٓهي: «فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً بقلبه إلى الله». .

وهؤلاء ملائكة العذاب يعملون وفق هذه السنّة في ميزان الحق الإلٓهي:

---

(١) المصدر السابق ١٥١، ١٩٥، ٢٠١، ٣١٧.

http://www.al-maktabeh.com

«وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط». .

«والأمر الذي تريد القصة من إبرازه في هذه الصورة المعبِّرة ليس اختصام ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولا قياس مسافة الأرض ليعلموا إلى أي الناحيتين كان الميت أقرب!! إنما كان ذلك كله تجسيماً لفداحة الجرم وهول الذنب[1]! إنه القتل أكبر الكبائر، المشكلة التي تُوجِّه حركة القصة. .

والقصة تبرز المشكلة التي تريد معالجتها، ويبدو ذلك في تعقيد الأحداث، وتأزيم المواقف، إذ تصبح «المشكلة» محوراً يُوجِّه حركة القصة، ويدفع بها إلى التطور والاستمرار في مواقف جديدة.

وهكذا نجد مشكلة الرجل في الجريمة «إنه قاتل» وقاتل بالجملة، وإن جرائمه لتطارده فتؤرقه، وتدفعه لأن يلتمس مخرجاً من هذا الكابوس الثقيل المتمثل في شعوره الدائم بالإثم، وبدا له أنه ربما وَجَد هذا المخرج عند أهل العلم.

إن كل الأحداث والتطورات في القصة إنما جاءت أصلاً بسبب المشكلة، وبدافع منها، والمشكلة في القصة حيوية بما تحويه من عنصر درامي تثير في نفس الرجل صراعاً يؤدي به إلى الخوف الشديد. نجده بدافع خوفه الذي استبدَّ به من عدد الأرواح التي أزهقها يطوف في البلاد بحثاً عن مخرج، ويظل الخوف يساور الرجل إلى آخر لحظة في القصة، حيث تبقيه القصة في شتى المراحل التي مَرَّ بها، وتبقينا معه في حالة خوف وقلق وترقُّب، وبصورة مثيرة للغاية.

وأخيراً فإن القصة ترسم أبعاد الشخصيات. فهي تحدد أبعاد القاتل من ناحية وضعه الإجرامي في سفك الدماء، وارتكاب الكثير من جرائم القتل «بأنه قتل تسعة وتسعين»، كما يوصَف الرجل الذي أخبر القاتل بأن باب التوبة مفتوح على مصراعيه، يوصف بأنه «رجل عالم»[2].

---

(١) أنظر سيدنا محمد في إبداعه الأدبي ص ١٣٠.

(٢) القصص في الحديث النبوي ٢١٢، ٢٢٢، ٢٩٩.

اليقظة والحذَر:

وأخيراً فإن القصة تلمس القلب الإنساني بشدة وعمق.. هذا الموت الذي ينتهي إليه كل حي، ما هو؟ وكيف يقع! وهو غيب لا يدري إنسان متى يُدركه، وهو حتم في موعده المقدر، وهو نهاية كل إنسان في رحلته القصيرة على الأرض وإلى الله يرجع الجميع.

إن الموت حقيقة قاسية رهيبة تواجه كل حي، فلا يملك لها رداً، ولا يملك أحد لها دفعاً، فلا حيلة ولا وسيلة، ولا دفع ولا تأجيل، فَقَدَر الله هو المسيطر، والأنفس في قبضته، وهو يتوفاها حين يحين أجلها في علم الغيب.. فلا يعرف الإنسان متى يحين أجله فيجب عليه أن يستيقظ من غفلة الهوى، ومتاهة الأمل والغرور قبل أن يفجأه الموت فالسعادة والشقاوة بحسب خواتيم الأعمال.

عن سهل بن سعد، رضي الله عنه، عن النبي - ﷺ - قال: «إنما الأعمال بالخواتيم» (١).

وعن معاوية، رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنما الأعمال بخواتيمها، كالوعاء، فإذا طابَ أعلاه، طابَ أسفَلُه، وإذا خَبُثَ أعلاه، خَبُثَ أسفله»(٢).

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي - ﷺ - قال: «إن الرجل ليعمل الزمانَ الطويلَ بعمل أهل الجنة، ثم يُخْتَم له عملُه بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعملَ الزمانَ الطويل بعمل أهلِ النار، ثم يُختم له عمله بعمل أهل الجنة»(٣).

وعن أنس، رضي الله عنه، عن النبي - ﷺ - قال: «لا عليكم أَنْ لا تَعْجَبوا بأحد حتى تنظروا بِمَ يُختم له، فإن العاملَ يعمل زماناً من عمره، أو بُرهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه، دَخَل الجنة، ثم يتحوَّلُ، فيعملُ

---

(١) البخاري في صحيحه (٦٤٩٣، ٦٦٠٧).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه برقم ٣٣٩ و ٣٩٢ وانظر تمام تخريجه فيه.

(٣) صحيح مسلم رقم ٢٦٥١ ورواه أحمد ٢/ ٢٨٤، وصححه ابن حبان (٦١٧٦).

عملاً سيئاً، وإن العبدَ ليعملِ البُرهة من دهره بعمل سيىء، لو ماتَ عليه، دخَلَ النار، ثم يتحوَّل فيعملُ عملاً صالحاً»[1].

وعن سهل بن سعد، رضي الله عنه، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الرجلَ ليعمل عَمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمَل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة»[2]. زاد البخاري في رواية له: «إنما الأعمال بالخواتيم».

يقول الإمام ابن رجب: وقوله «فيما يبدو للناس» إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيىء ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يعمل الرجلُ عملَ أهل النار وفي باطنه خصلةٌ خفية من خصال الخير، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره، فتوجب له حسن الخاتمة..

وفي الجملة: «فالخواتيم ميراثُ السوابق، وكل ذلك سبق في الكتاب السابق، ومن هنا كان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم..»[3].

وكان مالك بن دينار يقوم طول الليل قابضاً على لحيته، ويقول: يا ربِّ قد علمتَ ساكنَ الجنة من ساكن النار، ففي أي الدار منزل مالك؟[4].

تلك الحساسية المضيئة التي يوجهها دين الله في صورة اليَقظة والحَذَر الدائم. يقول الله تعالى في وصف المؤمنين: **﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون. والذين هم بآيات ربهم يؤمنون. والذين هم بربهم لا يشركون. والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾** [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١]..

---

(١) رواه أحمد ٣/ ١٢٠ وإسناده صحيح.
(٢) متفق عليه.
(٣) جامع العلوم والحكم ١/ ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٤) رواه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٨٤.

http://al-maktabeh.com

ومن هنا يبدو أثر الإيمان في القلب من الحساسية والإرهاف والتحرج، وحساب العواقب. مهما ينهض بالواجبات والتكاليف.

فهؤلاء المؤمنون يشفقون من ربهم خشية وتقوى؛ وهم يؤمنون بآياته، ولا يشركون به. وهم ينهضون بتكاليفهم وواجباتهم. وهم يأتون من الطاعات ما استطاعوا.. ولكنهم بعد هذا كله **﴿يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾** لإحساسهم بالتقصير في جانب الله، بعد أن بذلوا ما في طوقهم، وهو في نظرهم قليل.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: يا رسول الله **﴿الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وَجِلَة﴾** هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يا بنت الصديق! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل»(١).

إن قلب المؤمن يستشعر يد الله عليه. ويحس آلاءه في كل نَفَس وكل نبضة.. ومن ثم يستصغر كل عباداته، ويستقل كل طاعاته، إلى جانب آلاء الله ونعمائه. كذلك هو يستشعر بكل ذرة فيه جلال الله وعظمته؛ ويرقب بكل مشاعره يد الله في كل شيء من حوله.. ومن ثم يشعر بالهيبة، ويشعر بالوجل، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصرٌ في حقه.

وهؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات، وهم الذين يسبقون لها فينالونها في الطليعة، بهذه اليقظة، وبهذا التطلع، وبهذا العمل، وبهذه الطاعة. لا أولئك الذين يعيشون في غمرة ويحسبون لغفلتهم أنهم مقصودون بالنعمة، مرادون بالخير، كالصيد الغافل يستدرج إلى مصرعه بالطعم المغري. ومثل هذا الطير في الناس كثير، يغمرهم الرخاء، وتشغلهم النعمة، ويطغيهم الغنى، ويلهيهم الغرور، حتى يلاقوا المصير!

تلك اليقظة التي يفرضها الإسلام على قلب المسلم، والتي يستجيشها

---

(١) أخرجه الترمذي.

الإيمان بمجرد استقراره في القلوب. . ليست أمراً فوق الطاقة، وليست تكليفاً فوق الاستطاعة، إنما هي الحساسية من الشعور بالله والاتصال به.

دروس وعِبَر:

حرص الرسول ـ ﷺ ـ أن يضمِّن القصة كثيراً من القيم الإسلامية، فالقتل جريمة لها عقوبتها في التشريع الإسلامي في الدنيا والآخرة، ويبرز أمام الذين أسرفوا على أنفسهم في هذه الجريمة، الرحمة الإلَهية التي تسعهم إن تابوا بقلوب خالصة، طواعية وخوفاً من الله، ومن ثم النية الصادقة في السير بطريق الهداية والعزم الأكيد على ذلك.

إن مبدأ التوبة هو مبدأ أساسي من مبادىء الإسلام. . فالله لا يطرد أحداً من رحمته، ولا تسد أمام التائب أبواب العودة إلى الصراط المستقيم، مهما كان ذنبه، ومهما كانت أخطاؤه.

إن القصة تغري كل مذنب خطّاء مهما كانت خطيئته، ومهما عظم جرمه أن يعود إلى الله، فالرجل رغم كثرة الأرواح التي أزهقها طوال حياته الإجرامية إلا أنه الآن وقد استيقظ ضميره، وأدركته لحظة القوة والارتفاع يجد الفرصة عريضة أمامه في باب التوبة المفتوح كما يعبر عن ذلك أحد شخصيات القصة وهو الرجل العالم، الذي جاء إليه القاتل يسأله: «هل له من توبة؟ فقال: نعم، ومَن يحول بينه وبين التوبة؟!».

ويتوب هذا القاتل، فيتوب الله عليه وتدركه الرحمة. . فتلقي القصة بظلال الرحمة في باب التوبة المفتوح لكل طارق مهما عظم ذنبه، وتعددت آثامه.

ثم إن التوبة علاج حاسم للآلام النفسية التي يولدها الشعور بالذنب الذي يسيطر على المسرف في الخطيئة والإثم، والتائب ينقذ نفسه مما يمكن أن يجده من ضغط نفسي ربما يتحول إلى قلق رهيب مدمر يظل يطارده حين لا يزال في دائرة الذنب، أما حين يخرج من تلك الدائرة بعزم وتصميم عبر باب

التوبة، فإنه سيجد راحة تامة، وتنفيساً طبيعياً وهو يشعر أنه يبدأ حياة جديدة آمنة مطمئنة.

والقصة تهدف في عرضها إلى التمسك بتعاليم الإسلام وأخلاقه وقيمه، فهي دعوة حيّة نابضة إلى الدخول في التوبة، في شكل يغري السامع في التصميم والعزم الشديد إليها، وبصورةٍ تخاطب عاطفة الإنسان ووجدانه.

والتائب تصوره القصة.. فهو بتوبته يبدأ صفحة جديدة نقية لا سوء فيها، وبالتالي فليس هناك ما يدعو إلى أن يقلق، ما دام قد تاب توبة نصوحة..

لقد انتهت حياة الرجل القاتل حين تاب بمغفرة الله ورحمته، قبضته ملائكة الرحمة إلى الرضوان المقيم.

ويجد المسلم وسيلة النجاة من ذنوبه وآلامه في باب التوبة المفتوح.. فالله سبحانه يقبل توبة العبد ولو كان مغرقاً في الإجرام، يقتل ويسفك الدماء، وفي لحظة يدرك أنه أخطأ فيتمرد على هذا الخطأ والشيطان الذي أغواه، ويسعى بعزم وتصميم في حركة قوية جادة للتغيير، والسير على الصراط المستقيم، فيقلع عن الإجرام، ويتوب منها أبداً، وتسجل بذلك هذه القصة انتصار الخير في النفس الإنسانية بقبول الله لتوبة ذلك الرجل في مشهد ملائكي حافل[1].

يقول الإمام ابن حجر في شرح هذا الحديث الشريف[2]:

«وفي الحديث مشروعية التوبة من جميع الكبائر حتى من قتل النفس، ويحتمل على أن الله تعالى إذا قَبِلَ توبة القاتل تكفَّل برضا خصمه، وفيه أن المفتي قد يجيب بالخطأ، وغفل مَن زعَم أنه قتل الأخير على سبيل التأول لكونه أفتاه بغير علم، لأن السياق يقتضي أنه كان غير عالم بالحكم حتى استمر

---

(١) القصة في الحديث النبوي: ٣٩٥، ٣٩٦، ٤٤٠، ٤٥٧.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/٤٠١.

al-maktabeh.com

يستفتي، وإن الذي أفتاه استبعد أن تصح توبته بعد قَتْله لَمن ذكر أنه قتله بغير حق، وإنه إنما قتله بناءً على العمل بفتواه، لأن ذلك اقتضى عنده أن لا نجاة له، فيئس من الرحمة، ثم تداركه الله فندم على ما صنع، فرجع يسأل. .

وفيه إشارة إلى قلة فطنة الراهب لأنه كان من حقه التحرز ممن اجترأ على القتل حتى صار له عادة بأن لا يواجهه بخلاف مراده، وأن يستعمل معه المعاريض مداراة عن نفسه، هذا لو كان الحكم عنده صريحاً في عدم قبول توبة القاتل فضلاً على أن الحكم لم يكن عنده إلا مظنوناً.

وفيه أن الملائكة الموكلين ببني آدم يختلف اجتهادهم في حقهم بالنسبة إلى مَن يكتبونه مطيعاً أو عاصياً وأنهم يختصمون في ذلك حتى يقضي الله بينهم.

وفيه فضل التحوُّل من الأرض التي يصيب الإنسان فيها المعصية لما يغلب عليه بحكم العادة على مثل ذلك، إما لتذكُّره لأفعاله الصادرة قبل ذلك والفتنة بها، وإما لوجود مَن كان يُعينه على ذلك ويحضُّه عليه. ولهذا قال له الأخير: «لا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء»، ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية، والتحول عنها كلها، والاشتغال بغيرها.

وفيه فضل العالم على العابد، لأن الذي أفتاه أولاً بأن لا توبة له، غلبت عليه العبادة، فاستعظم وقوع ما وقع من ذلك القاتل من استجرائه على قتل هذا العدد الكثير. وأما التالي فغلب عليه العلم، فأفتاه بالصواب ودلَّه على طريق النجاة.

قال عياض: «وفيه أن التوبة تنفع من القتل كما تنفع من سائر الذنوب وهو وإن كان شرعاً لَمن قبلنا. وفي الاحتجاج به خلاف، لكن ليس هذا موضع الخلاف، لأن موضع الخلاف إذا لم يرد في شرعنا تقريره وموافقته، أما إذا وَرَد فهو شرع لنا بلا خلاف، ومن الوارد في ذلك قوله تعالى ﴿**إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر لَمن يشاء**﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وحديث عبادة بن الصامت ففيه بعد قوله «ولا تقتلوا النفس» وغير ذلك من المنهيات، فمَن أصاب من

ذلك شيئاً فأَمْرُه إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذّبه (متفق عليه) قلت: ويؤخذ ذلك أيضاً من جهة تخفيف الآصار[1] عن هذه الأمة بالنسبة إلى مَن قبلهم من الأمم. فإذا شرع لهم قبول توبة القاتل فمشروعيتها لنا بطريق أَوْلَى».

وبعد، إنها قصة الهدى بعد الضلال، والسعادة بعد الشقوة، قصة رحمة الله الواسعة التي تفتح أبوابها لكل شارد ضال يفرّ إلى حمى الرحمٰن، يفرّ من زيغ الهوى ونزغات الشيطان..

هذه القصة تستغرق كل معاني الرحمة، وهي تُثبت في القلوب الصلة الدائمة بين الخالق ومخلوقيه.. إنها صلة الرحمة التي تريد القصة تعليق أنظار البشر وقلوبهم بربهم الرحمٰن الرحيم، وحسن الظن بالله التوّاب الغفور..

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تَقَرَّب مني ذراعاً، تقربتُ منه باعاً، وإن أتاني يمشي أتَيْتُه هرولةً»[2].

قال الكرماني ٢٥/١١: «إن ظنَّ أني أعفو عنه وأغفر له، فله ذلك، وإن ظنَّ العقوبة والمؤاخذة فكذلك، وفيه إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء على الخوف. قال الحافظ: وكأنه أخذه من جهة التسوية، فإن العاقل إذا سمع ذلك لا يعدل إلى ظن إيقاع الوعيد ـ وهو جانب الخوف ـ، لأنه يختاره لنفسه، بل يعدل إلى ظن وقوع الوعد وهو جانب الرجاء، وهو كما قال أهل التحقيق مقيد بالمحتضِر، ويؤيد ذلك حديث «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»[3].

---

(١) مفرده: إصر، ومنه قوله تعالى: ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾، أي عبئاً ثقيلاً من التكاليف الشاقة والبلاء.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٥)، والبخاري (٧٤٠٥) انظر الإحسان (٨١١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر.

وقال القرطبي في «المفهم» قيل: معنى ظن عبدي بي: ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار.. قال: ولذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في القيام بما عليه مُوقناً بأن الله يقبله، ويغفر له، لأنه وَعَد بذلك، وهو لا يخلف الميعاد، فإن اعتقد أو ظنَّ أن الله لا يقبلها وأنها لا تنفعه، فهذا هو اليأس من رحمة الله، وهو من الكبائر، ومَن مات على ذلك، وُكِلَ إلى ما ظن، كما في بعض طرق الحديث المذكور «فليظن بي عبدي ما شاء».

قال: «وأما مَن ظن المغفرة مع الإصرار، فذلك محض الجهل والغرور».

أي طمأنينة ينشئها هذا التصور؟ وأي سكينة يفيضها على القلب؟ وأي ثقة في رحمة الله ومغفرته، وأي قوة واستعلاء على دفعات الشيطان ونزغاته يسكبها في الضمير.

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

عيسى ـ عليه السلام ـ والسارق

يُعد القسم بالله والحلف بذاته العلية أمر عظيم جليل، فاليمين لا يجوز أن يُتخذ للغش والخديعة، وبث الطمأنينة الكاذبة للحصول على منافع قريبة من منافع هذه الدنيا الفانيـة. ولكنَ المُقْسَم له يجب أن يُصَـدِّق تعظيماً للّه سبحانه وتعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رأى عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ رجلاً يسرق فقال له: أسرقت؟ قال: لا، والذي لا إلّه إلا هو، قال عيسى ـ عليه السلام ـ: آمنتُ بالله وكذَّبت بَصَري»[1].

وفي رواية البخاري «. . . فقال له: أسرقتَ؟ قال: كلا والله الذي لا إلّـه إلا الله، فقال عيسى: آمنتُ بـالله، وكذَّبتُ عينيّ». وفي روايـة مسلم «وكذبت نفسي». .

حـظيت هـذه القصـة ـ التي هي من الغيب التي كشف الله عنـه لنبيه ـ ﷺ ـ شخصية نبي من الأنبياء، وذكرته باسمه، مما يعطيها نـوعاً من الواقعية في اعتبار السامـع، وأدعى إلى الاقتداء بهـديه وشخصيتـه وموقفـه الذي يتبناه.

فالقصة تعرض النبي عيسى ـ عليه السـلام ـ في موقف يحمـل العبرة

---

(١) رواه النسائي ٨/٢٤٩ إسناده قوي ـ كتاب آداب القضاة، باب: كيف يستحلف الحاكم.

والدرس، موقفه من الرجل الذي رآه يسرق، وحين أَقْسَمَ له بأنه لم يَسرق، صَدَّقَه احتراماً للقسم.

والقسم بالله العظيم له شأن كبير في نظر الإسلام، و «مَن حُلِفَ له بالله فلْيرضَ»(١) مهما كانت حقيقة المقسم من حيث صدقه أو عدم صدقه، وعلى المقسم له أن يُصدِّق ويرضى، تعظيماً للمقسم به وهو المولى عز وجل، وهذه قيمة دينية تصورها القصة أوضح ما يكون التصوير، فالنبي عيسى ـ عليه السلام ـ يرى رجلاً يقدم على السرقة بالفعل، وحين قال له: «أسرقت؟ قال: لا والذي لا إلّه إلا هو، فقال عيسى: آمنتُ بالله وكذَّبت بصري».

«قال ابن التين: قال عيسى ذلك على المبالغة في تصديق الحالف، وأما قوله: «وكذبت عيني» فلم يرد حقيقة التكذيب، وإنما كذبت عيني في غير هذا. قاله ابن الجوزي وفيه بُعد.

وقيل: أنه أراد بالتصديق والتكذيب ظاهر الحكم لا باطن الأمر وإلا فالمشاهدة أعلى اليقين فكيف يكذب عينه ويصدق قول المدعي ويُحتمل أن يكون رآه مَدَّ يده إلى الشيء، فظنّ أنه تناوله، فلما حَلَف له رجع عن ظنه..

يقول الإمام ابن قيم الجوزية: «وقد تأوّله بعضهم على أنه لما حَلَف له جوّز أن يكون قد أخذ من ماله، فَظَنَّه المسيح سَرقة، وهذا تَكلُّف، وإنما كان الله سبحانه وتعالى في قلب المسيح ـ عليه السلام ـ أجلّ وأعظم من أن يحلف به أحد كاذباً، فلما حَلَف له السارق دار الأمر بين تهمته وتهمة بَصره، فردّ التهمة إلى بصره لما اجتهد في اليمين»(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه عن رسول الله ـ ﷺ ـ في كتاب الكفارات. عن بريدة قال: سمع النبي ـ ﷺ ـ رجلاً يحلف بأبيه فقال: «لا تحلفوا بآبائكم، مَن حَلَف بالله فَلْيَصْدُق، ومَن حُلِفَ له بالله فَلْيَرْضَ، ومَن لم يرضَ بالله فليس من الله». فمَن لم يرضَ فقد نفى الله سبحانه وتعالى الاعتماد عليه والتوكل: أي ليس وجلاً ولا شاعراً بعظمتي، ومنصرفاً لتعظيم غيري (الترغيب والترهيب، فصل لا تحلفوا بآبائكم ٦٠٦/٣٢).

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ١٣٥.

لقد كانت القصة حلقة في التربية النبوية، فكان التعليم والتوجيه عن طريق النموذج والقدوة نبيّ الله عيسى ـ عليه السلام ـ فهي تُعلِّم السامعين والمتلقين كيف يُصدقون ويرضون إذا حُلِفَ لهم بالله، مهما كان الأمر، كما قال عيسى: «آمنتُ بالله وكذَّبت بصري».

وهذه القصة قصيرة جداً تصل إلى شكل الخبر القصصي.. ولكنها محققة للغرض[1] الذي سيقت من أجله!

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ٢٥٦، ٣٩٧، ٤٤٧.

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة الوَرَع الصادق

تدعو التربية النبوية إلى الورع وترك الشبهات في أحاديث عدّة لتصفو القلوب من غَبَش يتزاحم، ومن ضباب يتراكم. وقد تخيَّر النبي ـ ﷺ ـ لهذا السبيل القاصد موقفاً عملياً من قصص الأقدمين..

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اشترى رَجلٌ من رجل عقاراً له، فَوَجدَ الرجلُ الذي اشترى العقار، في عقاره جرَّة فيها ذهب، فقال له الذي اشترى العقار: خُذْ ذهَبَك مني، إنما اشتريتُ منك الأرض، ولم أبْتَع منك الذهب، وقال الذي له الأرض: إنما بِعْتُك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل. فقال الذي تحاكما إليه: أَلَكما وَلَد؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسهما منه، وتصدّقا»(١).

تبدأ القصة بالحدث، الذي تنشأ عنه المراحل التالية. فحين اشترى رجل من آخر عقاراً وَجَدَ في عقاره جرّة فيها ذهب.

والمشكلة في القصة هي أن مشتري الأرض وَجَد فيها جرة ذهب، تُنشىء أزمة بين المشتري والبائع، وتحدث موقفاً صعباً بين الرجلين، فكل منهما يتبرأ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٢١٢/٤، ومسلم ١٣٤٥/٣، شرح النووي على صحيح مسلم ١١/١٩ ـ ٢٠، وابن ماجه ٨٣٩/٢، والمسند (صادر) ٣١٦/٢، وابن حبان في صحيحه. انظر الإحسان (رقم ٧٢٠).

http://al-maktabeh.com

من الجرّة ويقول إنها من حق الآخر، وهي مواجهة حاسمة تصل بينهما إلى حد التحاكم. .

نجد القصة تضع أمامنا معالم الشخصية التي تتحرك فيها، أو تشارك في صنع أحداثها، فترسم لنا نوعية الشخصية من خلال العرض. . والحوار بين الرجلين، يصور الشخصيات، ويبين أنهما من الصنف الورع الأمين، المتحوط لدينه، الخائف من الوقوع في الشبهة، برغم بريق الذهب الزاهي أمامهما!!

وهنا نجد أنفسنا أمام أمثلة سامية في الورع، ونماذج قد انطبعت نفوسها على الخير، وتطهرت من الطمع. . فلما وَجَد الرجل المشتري في الدار التي اشتراها جرة، وهي ليست جرة عادية، إنما هي جرة فيها ذهب!! ذَهَبَ باختياره بهذه الجرة إلى صاحب الدار التي باعها إليه وقال له: «خُذْ ذَهَبك مني، إنما اشتريتُ منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب». . وفي المقابل كان البائع يشبه المشتري وَرَعاً وتعففاً عن مال فيه شبهة، فهو يرى أنه «إنما باعه الأرض وما فيها». . إلى أن تطور الأمر بينهما إلى حد التحاكم إلى رجل ليفصل في هذه القضية الناطقة بمعاني الزهد والورع والحذر من الوقوع في الحرام[1]!!

والحوار بين البائع والمشتري، يصور موقف الرجلين من هذه الجرة التي عُثِرَ عليها في العقار، بما يحمله هذا الموقف من أمانة ونزاهة يتحلى بها كلٌ منهما، كذلك فإن الحوار يُطوِّر الحدث، ويبعثه لموقف جديد في خط سير النهاية المقصودة[2].

إن قلب المؤمن الصادق يضطرب للحرام، ويسكن للحلال، وإن المسلم الورع يَدَع الصغيرة مخافةَ الكبيرة، ويتقي الشبهات براءة لدينه من النقص، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «ومَن وَقَع في الشُبهات وَقَع في الحَرام كالرَّاعي يرعى حول الحِمى

---

(١) انظر الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: ٦٢ ـ ٦٣.
(٢) انظر القصص في الحديث النبوي: ١٧٦، ٢١٣، ٢٦٣، ٣١٧، ٣٢٢.

يُوشك أن يَرْتَع فيه، أَلا وإن لِكُلِّ مَلِكٍ حِمى، أَلا وإن حمى الله محارِمُه، ألا وإن في الجسد مُضْغَة إذا صَلَحت صَلَح الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فَسَدت فَسَد الجَسَد كُلُّه، أَلَا وهي القلب»[1].

وفي رواية للبخاري والنسائي: «الحلال بَيِّن والحرام بَيِّن، وبينهما أمور مشتبهة، فمَن ترك ما شُبِّه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومَن اجترأ على ما يُشكُّ فيه من الإثم أَوْشَكَ أن يواقع ما استبان، والمعاصي رحمىٰ الله، ومَن يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه».

ترسم القصة صورة مشرقة للإنسان، وهو يُؤثر أن يتمسك بمبادىء الخلق الكريم من الأمانة والتعفف عن المال المشبوه، مُفضلاً تلك الأخلاق على المال، حتى لو كان ذهباً أحمر، تمتلىء به الجرة، ويسيل له اللعاب.. فهي تقدم نماذج إنسانية خيّرة في النزاهة والأمانة، وتَحوُّطهم الشديد من أن يأكلا مالاً فيه أدنى شبهة، وانتصارهما في هذا الموقف على شهوة المال وسلطانه[2].

يؤكد الإسلام على أهمية الورع في السلوك الإنساني، فالوَرِعُ الذي يقف عند الشبهة، فعَن الحسن بن علي سِبْط رسول الله ـ ﷺ ـ قال: حَفِظْتُ من رسول الله ـ ﷺ ـ: «دَعْ ما يَريبُك إلى ما لَا يَريبُك»[3].

إنها دعْوة إلى الوقوف عند الشبهات واتقائها، فإن الحلال المحض لا يَحْصَلُ للمؤمن في قلبه منه ريب ـ والريب: بمعنى القلق والاضطراب ـ بل تسكن إليه النفس، ويطمئن به القلب، وأما المشتبهات فَيَحْصُل بها للقلوب القلق والاضطراب الموجب للشك، فإذا كان العبد وَرِعاً، ترك ما يَريبه إلى ما لا يَريبه.

وهذا هو ميزان التقوى الذي يؤكد الإسلام على وجوده في قلب المسلم،

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

(٢) القصص في الحديث النبوي ٤٠٦.

(٣) رواه النسائي والترمذي، وقال: حسن صحيح، ورواه أحمد ١/٢٠٠، وصححه ابن حبان. انظر تخريجه في الإحسان (٧٢٢).

http://al-maktabeh.com

فَعَنْ عطية بن عُروة السَّعْدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يَبْلُغُ العبدُ أن يكون من المتقين حتى يَدَعَ ما لا بأسَ[1] به حذراً لما به بأس»[2].

فالذي يبلغ حقيقة التقوى تكون نفسه متيقنة، سالمة من الشكوك. عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: سأل رجل النبي ـ ﷺ ـ ما الإثمُ؟ قال: «إذا حاك[3] في نفسك شيء فَدَعْه..»[4].

يقول الإمام ابن رجب في هذا المقام: «وها هنا أمر ينبغي التفطنُ له وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يَصْلُح لِمَن استقامت أحواله كلها، وتشابهت أعمالُه في التقوى والورع، فأما مَنْ يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة، ثم يريد أن يتورَّع عن شيء من دقائق الشُّبَه، فإنه لا يحتمل له ذلك، بل يُنكر عليه، كما قال ابن عُمر لِمَن سأله عن دم البعوض من أهل العراق: يسألوني عن دم البعوض وقد قتلُوا الحسين، وسمعتُ النبي ـ ﷺ ـ يقول: «هما رَيحَانتاي من الدنيا»[5].

---

(١) حرمة أو كراهة غير ظاهر حكمها خشية أن تكون محظورة ممنوعة، وليس لها حكم ظاهر في الشرع يُقاس عليه.

(٢) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، وابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٣) قال النووي: حاك: إذا وقع في قلبك شيء لا ينشرح له صدرك وخفت الذنب فيه.
وقال التيمي: حاك في الصدر ثبت، فالذي يبلغ حقيقة التقوى تكون نفسه متيقنة للإيمان سالمة من الشكوك، وقال الكرماني: حقيقة التقوى: الإيمان لأن المراد من التقوى وقاية النفس عن الشرك، وقال الجوهري: حاك السيف، وأحاك بمعنى يقال ضربه فما حاك فيه السيف إذا لم يعمل فيه، فالحيك أخذ القول في القلب اهـ ص ١١٦ ج ١ عيني.

(٤) رواه أحمد بإسناد صحيح.

(٥) رواه البخاري (٣٧٥٣)، وصححه ابن حبان (٦٩٦٩)، وانظر تمام تخريجه فيه.
وسأل رجلٌ بشرَ بن الحارث عن رجل له زوجة وأُمُّه تأمره بطلاقها، فقال: إن كان بَرَّ أمه في كل شيء، ولم يبقَ من برّها إلا طلاق زوجته فليفعلْ، وإن كان يَبَرُّها بطلاق زوجته، ثم يقوم بعد ذلك إلى أمه، فيضربها. فلا يفعل.
وسُئل الإمام أحمد رحمه الله عن رجل يشتري بقلاً، ويشترط الخوصة: يعني التي تُربط =

والنهاية في القصة تُقدم حـلاً لهذه المشكلة بـين الرجلين الصـادقين، وتجعلها أكثر حيوية وإيجابية. . لقد أدركَ هذا الحَكَم الحصيف ماذا يعتمل في نفس كل من هذين الرجلين الورعين، والتمعت في ذهنه فكرة طيبة يحلّ بها هذه المشكلة، «فقال الذي تحاكما إليه: ألكما وَلَد؟». . ومن جميل التدبير من القدير الحكيم، أن يكون لأحدهما غلام، وللآخر جارية. فقـال: «أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسهما منه، وتصدّقا».

إنه حَلٌّ حكيم يُرضي كلا الطرفين، فَكُلٌّ سيأتيـه نصيبه بـطريق غير مباشر عن طريق ولديهما، ثم إنهما يتصدقان شكراً للّه على هذه النعمة، وهكذا تشتمل النهاية على حل موفق يحتفظ بعنصر الروعة والإثارة. .

وهكذا تهدف القصة النبوية إلى إيجاد عواطف متجاوبة مع قيم الإسلام وأخـلاقه العليـا في الأمانـة والنزاهـة، في توجيـه وتعليم عن طريق القـدوة الإنسانية، تُعَلِّمُهم النزاهة والتحوُّط فيما فيه شبهة، كما حاول الرجلان كلٍ منهما أن يتبرأ من الجرة، إلى أن وَصَل بهما الأمر إلى أن تحاكما عند رجل، حَلَّ لهما المشكلة، فاطمأنت القلوب إلى اليقين. .

إن هـذا الـدين كله خُلق، وطمـأنينـة نفس، وسكينــة قلب، فَعَن وابصة بن مَعْبَد قال: أتيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «جئتَ تسألُ عن الـبرّ

= بها جُرزة البقل، فقال أحمد: أيش هذه المسائل؟! قيل له: إنه إبراهيم بن أبي نعيم، فقال أحمد: إن كان إبراهيمُ بن أبي نعيم، فنعم هذا يُشبه ذاك.

وإنما أنكر هذه المسائل ممن لا يشبه حاله، وأما أهل التدقيق في الورع فيشبه حالهم هذا، وقد كان الإمام أحمد نفسه يستعمل في نفسه هذا الورع، فإنه أمر من يشتري له سمناً، فجاء به على ورقة، فأمر برد الورقة إلى البائع. وكان أحمد لا يستمدّ من محابر أصحابه، وإنما يُخرج معه مِحبرةً يستمدّ منها، واستأذنه رجل أن يكتب من محبرته، فقال له: اكتب فهذا ورع مظلم، واستأذنه آخر في ذلك فتبسَّم، وقال: لم يبلغ ورعي ولا ورعك هذا، وهذا قاله على وجه التواضع وإلا فهو كان في نفسه يستعمل هذا الورع، وكان يُنكره على مَن لم يصل إلى هذا المقام، بل يتسامح في المكروهات الظاهرة، ويقدم على الشبهات، من غير توقف. (جامع العلوم والحكم ٢٨٤).

والإثم؟» قلتُ: نعم، قال: «استفتِ قَلْبَك، البرُّ ما اطمأنَّت إليه النفسُ، واطمأنَّ إليه القلب، والإثم ما حاكَ في النفس، وتردَّد في الصَّدر، وإن أفتاكَ الناسُ وأفتوك». .

فالإثم ما أثَّر في الصدر حرجاً، وضيقاً، وقلقاً، واضطراباً، فلم ينشرح له الصدر، والبرّ والحق يطمئن إليه القلب، فيسكن، ويقبله ويستريح.

http://al-maktabeh.com

حكمة وتقدير وتدبير

إن رحمة الله سبحانه هي القاعدة التي يقوم عليها هذا الوجود فقد ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ [الأنعام: ١٢] وقال سبحانه أيضاً: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ [الأعراف: ١٥٦]. .

إنها حقيقة هائلة لا يثبت الكيان البشري لتمليها وتأمُّلها وتذوق وَقْعها، حين يقف لتدبرها في هذه الصورة العجيبة. .

ومتابعة رحمة الله يقصر الخلق كلهم عن إدراك سعتها. فلننظر كيف مَثَّل رسول الله ـ ﷺ ـ لهذه الرحمة بما يقربها للقلوب شيئاً ما:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «نَزَل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرة فَلَدَغَته نملةٌ، فأمر بجهازه فأُخرج من تحتها، ثم أَمَر ببيتها فأُحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فَهلَّا نملةً واحدةً»(١)؟

وفي رواية: «قرصت نملة نبياً من الأنبياء. فأمر بقرية النمل فحرقت، فأوحى الله تعالى إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمةً من الأمم تُسبِّح»؟.

القصة مظهر من مظاهر رحمة الله في خلقه أجمعين. . فقد عاتَبَ الله نبياً من الأنبياء في شأن نملة لدغته فَأَمَرَ بإحراق قريتها، «فأوحى الله إليه فهلّا نملةً

---

(١) البخاري (٣٣١٩) كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم، ومسلم (٢٢٤١) كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، وأبو داود في سننه ٢/٦٥٦.

http://al-maktabeh.com

واحدة!» وفي رواية «فأوحى الله تعالى إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمةً من الأمم تُسبِّح»؟

إنها نملة.. دابة من خَلْق الله صغيرة، ولكنها من صُنع الله في هذا الكون، وذات شأن وكيان.. فالناس ليسوا وحدهم في هذا الكون! إن حولهم أحياء أخرى، كلها ذات أمر منتظم، يوحي بالقصد والتدبير والحكمة، ويوحي كذلك بعظمة الخالق، ووحدة التدبير الذي يأخذ به خلقه..

إنه ما من دابة تدب على الأرض، وما من طائر يطير بجناحيه في الهواء.. ما من خلق حي في هذه الأرض كلها إلا وهو ينتظم في أمة، ذات خصائص واحدة، وذات طريقة في الحياة واحدة كذلك.. شأنها في هذا شأن أمة الناس.. ما ترك الله شيئاً من خلقه بدون تدبير يشمله، وعلم يحصيه ﴿**وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء، ثم إلى ربهم يُحشرون**﴾ [الأنعام: ٣٨٠]..

وهذه المخلوقات كلها تتجه إلى الخالق بالوسيلة التي سوَّاها الله ﴿**تُسبح له السماوات السبع والأرض ومَن فيهن، وإن من شيء إلا يُسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان حليماً غفوراً**﴾ [الإسراء: ٤٤]..

فهذه النملة تُسبح الله وتتوجَّه إليه في علاه مع كل شيء في هذا الكون الكبير.. كُلٌّ يُسبِّح بحمد ربه، بطريقته ولغته، ولكن لا تفقهون تسبيحهم، لأنكم محجوبون بصفاقة الطين.

فالنمل أُمة تُسبِّح، وحري بمثلها أن يكون له شأن في هذا الوجود، وأن يعاتب في شأنها نبي من أنبياء الله..

إن هذه القصة تصور لوناً من ألوان رحمة الله تبارك وتعالى التي لا يحصيها إلا الله سبحانه. وهذا اللون بهذه الصورة ذات أبعاد مهمة في تجلية حقيقة العلاقة بين الله تبارك وتعالى من جهة، والكون والحياة والإنسان من جهة أخرى، وهي حقيقة رائعة لطيفة عن الألوهية في التصور الإسلامي[1].

---

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ٢٤٧، ٢٥٤، ٢٨٢.

فهذه القصة ـ فوق تقريرها الحاسم في حقيقة الحياة والأحياء ـ لتهز القلب بما ترسم من آفاق الإشراف الشامل، والتدبير الواسع، والعلم المحيط، والقدرة القادرة، للّه ذي الجلال..

وهكذا توجه القصة القلوب والعقول إلى الحقيقة الهائلة لهذا الوجود من دلائل وأمارات، وتوقظ قوى الملاحظة والتدبُّر.

فليذكر الإنسان دوماً أنه ليس وحده في هذا الوجود، وأن حياته ليست سُدى فكل شيء منتظم بحكمة وتقدير وتدبير.

وقد ذكرت القصة النبي من غير تعيين بالإسم لأن الحكمة في الفكرة التي توحي بها، كما أن ذكر النملة كشخصية كانت سبباً للحدث الذي أتبعه موقف النبي بإحراق قرية النمل له مغزاه في عتاب الله له «فهلاَّ نملة».

قال الحافظ: «قد جاء من غير ما وجه أن هذا النبي هو عُزَير ـ عليه السلام ـ وقد جاء في خبر أنه بقرية أو بمدينة أهلكها الله تعالى فقال: يا رب كان فيها صبيان ودوابّ، ومَن لم يقترف ذنباً، ثم إنه نَزَل تحت شجرة فجرت به هذه القصة التي قدرها الله على يديه تنبيهاً له على اعتراضه على بديع قدرة الله وقضائه في خلقه فقال: إنما قرصتك نملة واحدة فهلا قتلت واحدة، وفي الحديث تنبيه على أن المنكَر إذا وَقَع في بلد لا يؤمن العقاب العام»(١).

---

(١) انظر الترغيب والترهيب ٣/٦٢٨.

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

قصة الأمانة والإيمان

تُعد القصة النبوية من ثمرات القصة القرآنية فهي من تلك الدوحة العظيمة، ومن روائع القصص النبوي في التربية الاجتماعية والسلوك الإنساني قصة «الأمانة والإيمان»، فهي من الغيب الذي أوحاه الله تعالى إلى نبيِّه - ﷺ - من غير القرآن الكريم. فهي قصة من الواقع الإنساني بكل تفصيلاتها وظروفها، ولنمضِ في خشوع مع هذه الرحلة في أعماق التاريخ البشري:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله - ﷺ -، أنه ذكرَ رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيلَ أن يُسلفَه ألفَ دينار فقال: ائتني بالشهداء أشهدُهم، فقال: كفى بالله شهيداً. قال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه على أجلٍ مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجتَه، ثم التمس مركباً يركبُها يقدَمُ عليه للأجل الذي أَجَّله فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها[1] فأدخل فيها ألفَ دينار وصحيفةً منه إلى صاحبه، ثم زَجَّج[2] مَوضِعَها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلَّفت فلاناً ألفَ دينارٍ فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضيَ بك.

---

(١) حفرها.

(٢) قال الخطابي: أي سوّى موضع النقر وأصلحه، وهو من تزجيج الحواجب، وهو حذف زوائد الشعر، ويحتمل أن يكون مأخوذا من الزج، وهو الفصل كأن يكون النقر في طرف الخشبة فشدّ عليه زجا ليمسكه، ويحفظ ما فيه، وقال عياض: معناه سمّرها بمسامير كالزج، أو حشى شقوق لصاقها بشيء، ورف بالزج، وقال ابن التين: معناه أصلح موضع النقر.

وسألني شهيدا، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بذلك، وإني جهدتُ أن أجد مركباً أبعثُ إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعُكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرجُ إلى بلده، فخرج الرجُل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاءَ بماله، فإذا بالخشبةِ التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجَدَ المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلتُ جاهداً في طلب مركبٍ لآتيك بمالِكَ فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثتَ إليّ بشيءٍ؟ قال: أخبرُكَ أني لم أجِدْ مركباً قبل الذي جِئتُ فيه. قال: فإن الله قد أدّى عنكَ الذي بعثتَ في الخشبة، فانصرف بالألفِ الدينار راشداً»(١).

تبدأ القصة مباشرة بالحدث الذي تنمو عنه المراحل التالية، فقد جاء فيها أن الرسول ـ ﷺ ـ ذكر رجلاً من بني إسرائيل، سأل بعض بني إسرائيل(٢)، أن يُسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء، أُشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى..

البداية ذات حيوية بارزة، تكتسبها من طبيعة الحدث ذاته من ناحية، كما أنها في الوقت نفسه لا تخلو أيضاً من عناصر تشويقية، تجعل المتلقي أكثر إقبالاً على القصة ومتابعة لها، فهي تُكَوِّن مشهداً مكتملاً بكل أبعاده كفصل من القصة، يبرز فيه عنصر الحوار مما يعطي للمشهد حيوية خاصة(٣).

إنه مشهد عجيب فهذا رجل يريد أن يستلف ألف دينار، ولا كفيل له ولا شاهد إلا الله، والطرف الأخر يرضى بالله شاهداً وكفيلاً، ويدفع إليه

---

(١) التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القران ص ٤٣٩. وانظر أيضا القصص القراني للخطيب ص ١٦٥، دار الفكر العربي، القاهرة.

(٢) في رواية ابن حبان في صحيحه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: كان رجل يُسلف الناس في بني إسرائيل، فأتاه رجل، فقال: يا فلان، أسلفني ست مئة دينار، قال: نعم إن أتيتني بوكيل، قال: الله وكيلي... الخ» [انظر الإحسان ٦٤٨٧]..

(٣) القصص في الحديث النبوي ١٣٠.

www.alukah.com

الألف في ثقة واطمئنان، ويفترقان كل في سبيل، ويسدل الستار على هذا الفصل، ويظل السامع أو القارىء في حالة تطلع إلى مستقبل الأحداث، ليكتشف إلى أين ينتهي المطاف بهذين الرجلين العجيبين، وهكذا تأخذ البداية مساحتها في امتلاك نفس المتلقي وإثارة اهتمامه بمتابعة القصة بشوق وتطلع إلى الأحداث والمواقف حتى النهاية(١). .

فالبداية هنا مشهداً معيناً، وعن ذلك المشهد يترتب مشهد جديد يمثل وسط القصة وفصلاً تالياً متطوراً عن الفصل الأول. وتشكل منطقة الوسط مجمعاً حيوياً لنمو أحداث القصة وتطورها. .

«فخرج في البحر فقضى حاجته. ثم التمس مركباً يركبُها، يَقْدَمُ عليه للأجل الذي أَجَّلَه فلم يجد مركباً، فأخذ خشبته فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفةً منه إلى صاحبه، ثم زَجَّج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بك، **وأني جهدت أن أجد مركباً أبعثُ** إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودِعُكَها، فرمى بها في البحر حتى وَلَجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرجُ إلى بلده، فخرج الرجلُ الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة». .

«هذا المشهد كما هو واضح مترتب على المشهد الأول، فالمقترض يريد الوفاء بعد أن قضى حاجته التي من أجلها استلف المال، وهو حريص **على أداء الدَّين في الوقت المحدد** الذي اتفق عليه مع صاحبه في المشهد الأول، وهو لذلك يلتمس مركباً، ولكنه لا يجد مركباً، ولنا أن نتصور مبلغ الأزمة التي هو فيها، والقلق الذي لا بد أن يستبد به، وهو الرجل الحريص على الوفاء، وعلى

---

(١) المصدر السابق ١٣١.

http://al-maktabeh.com

تحقيق التزاماته التي أشهد الله عليها، وكان له كفيلاً أيضاً، وفي مُدلهمّ حيرته يفتح الله عليه بفكرة، رأى فيها المخرج الوحيد من هذه المشكلة، وهو تصرف يمليه الموقف الحرج الذي هو فيه، ونلفت النظر إلى ما هنا ـ في هذا المشهد ـ من الترتب على المشهد الأول حتى في الأبعاد غير الملحوظة لأول وهلة، فهذا الموقف الذي يتخذه الرجل هنا حين أخذ خشبة وجوّفها، ووضع فيها المال والصحيفة إلى صاحبه، إنما هو من آثار الموقف الأول الذي اتخذه في البداية. ألم يطالبه صاحبه بالشاهد والكفيل، ولكنه وقتها لم يجد شاهداً ولا كفيلاً إلا الله، وقد رضي به صاحبه، ولذلك فهو هنا يفعل ما يفعل وقد توجّه إلى الله الشاهد الكفيل، الذي من أجله يجد نفسه ملزماً بسداد الدين، وقد وقف على البحر ليرمي فيه بالخشبة، ومن الجانب الآخر نرى «الرجل المقرض»، يخرج في الميعاد الذي حدد منتظراً ماله، فإذا به يجد الخشبة، فيأخذها حطباً لأهله، ويلهمه الشاهد والكفيل أن ينشرها ليجد ماله، وقد أوصله إليه الشاهد والكفيل الذي آمن به ووثق واطمأن إليه[1]»..

نحس في أحداث القصة أنها لا تنشأ جزافاً دونما سبب أو مبرر، فحين يقوم المقترض بأخذ خشبة يضع فيها المبلغ الذي اقترضه، ويرميها في البحر، لما عجز عن الحصول على مركب يوصل فيه المال إلى صاحبه الذي أقرضه، ويستودعها الله وينصرف، ويخرج الرجل المقرض إلى البحر فيجد الخشبة، وهنا نلاحظ أن القصة لا تكتفي بعرض الحدث علينا، وهو أن الرجل خرج ووجد الخشبة فأخذها لأهله حطباً، ولما نشرها وجد المال[2].

القصة لا تعرض الحدث بهذه الصورة الساذجة، وإنما تعرضه في صورة تتسم بالترابط الوثيق، فهي تقول لنا لماذا خرج الرجل إلى البحر، فهو لم يخرج مصادفة، ولكنه خرج لغاية، وهو أنه يترقب ماله على أساس من الاتفاق بينه وبين مَن أقرضه، فقد دفع إليه المال «إلى أجل مسمى»، وقد حَلّ الأجل، وهو

---

(١) المصدر السابق ١٣٣، ١٣٤.
(٢) المصدر السابق ١٩٢.

http://al-maktabeh.com

الأن خارج في انتظاره: «فخرج الرجل الذي كان أسلفه لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة..».

نجد في أحداث القصة وضع الشخصية في موقف جديد، بحيث يدفعه إلى الحركة الدائمة، فيتخذ سلوكاً معيناً نابعاً من ذاته، وما التزم به، فالرجل المقترض أمام موقف حرج حين التمس مركباً من أجل أن يرد المال على صاحبه، فلم يجد مما دفعه إلى أن يفعل ما يفعل من أَخْذ الخشبة ووضع المال فيها، ورميها في البحر(١).

إن هذا الفعل يثير فينا نوعاً من الانفعالات المختلفة إزاء هذا الموقف، مما يجعلنا نتجاوب مع المقترض بلون من ألوان الترقب الشديد لما يعكس عليه هذا العمل في الطرف الآخر.. ماذا سيقول المقرض إذا تأخر التسديد عن الأجل المسمى؟ ما هو مصير الخشبة التي مُلئت بالدنانير..؟..

إن الخشبة في التقدير الإنساني تجري في البحر بغموض، وهذا يثير في النفس شكلاً من التردد على مصيرها في غمرة البحر، وعدم الاستقرار على تأكد وصولها، فهي تتحرك بصورة غامضة.. وهذا عنصر بالغ الأهمية في حيوية بناء القصة وأثرها العميق.. إنه القدر الإلهي هو الذي دفع بالحدث في هذا الطريق، لتوجيه القلوب على هذا المشهد الغيبي الذي يقف وراء الفعل، وكل فعل في هذا الكون..

إن القدر في القصة له أهميته في تقدير الأحداث التي تخرج بهذه الصورة، بحيث تتساوى في تقدير متلقي القصة وهو ـ أساساً ـ مسلّم بأي حدث آخر يجري في نطاق الأسباب والمسببات المنظورة، فهو يدرك أن القدر لا يجري في الواقع بصورة عشوائية لا مبرر لها ولا غاية، و «شعور الإنسان بقوة غيبية تتدخل في توجيه الأحداث نحو وجهة معينة، وتؤثر على نتائجها التي

(١) المصدر السابق ١٩٤.

كثيراً ما تأتي على خلاف ما حسب الناس وقدروا، أو على غير ما عرفوا هو عنصر هام من عناصر التأثير في هذه القصص يملأ الإحساس رهبة ورغبة... ولهذا الإحساس صداه البعيد في النفس، وذلك أن القدر الخفي الذي يسير الأحداث الواردة فيه هو قوة عظيمة كامنة في أسرار الغيب، ولكنها واعية عادلة، لما تنجلي عنه في عالم الشهادة من عناية الله بالمخلصين الأخيار وإن كانوا ضعفاء، ونقمته ومكره بالمبطلين الأشرار، وإن كانوا أشداء أقوياء».

إن هذه الحادثة من قبيل القضاء والقدر، ننسبها إلى تدخل قَدَر الله في إجرائها، حيث يُسَيِّر القدر فيها الأحداث، وذلك بتسيير الخشبة في البحر إلى الجهة التي كان فيها صاحب المال، وكذلك خروج الرجل صاحب المال في الوقت الذي وصلت فيه الخشبة، فإذا هو بالخشبة فأخذها حطباً[1].

وفي الوقت الذي يُسير القدر فيه الأحداث والوقائع لا يتصادم إطلاقاً مع منطق القصة، أو خطتها العامة، بل على العكس من ذلك يشارك في صنع فرص أفضل تحقق للخطة النجاح والتوفيق.. إذ نجد القدر يشارك في تحقيق سير الأحداث، ودفع القصة إلى الأمام حتى تأخذ العظة والعبرة مركزها في النفس الإنسانية.

فالقدر رسم مشهدين في حركة غيبية عميقة مؤثرة:

- تسير الخشبة التي وضع فيها المقترض المال، وتوجيهها في البحر إلى الجهة التي كان فيها صاحب المال، دون أن يعترضها عارض، أو يصرفها صارف إلى مسار آخر.

- خروج الرجل صاحب المال يلتمس مركباً لعلَّ فيه ماله - في الوقت نفسه - الذي وصلت فيه الخشبة وبالدقة، حيث وجد الخشبة فأخذها حطباً لأهله[2]...

---

(1) المصدر السابق ٣٠٨.
(2) المصدر السابق ٢٠٥، ٢٠٦.

http://al-maktabeh.com

تبدو المشكلة في القصة في تعقيد الأحداث، وتأزيم المواقف، فهي محور يوجه حركة القصة ويدفع بها إلى التطور والاستمرار في نشوء مواقف جديدة. . فالمستلف بعد أن قضى حاجته وحضر الأجل الذي حدده مع صاحبه نجده يبحث عن مركب لكي يوصل المال إلى صاحبه فلا يجد، وهنا تبرز المشكلة، فهذا المقترض يريد الوفاء، وهو حريص على أداء الدين في أقرب وقت، حتى لا يفوت الموعد المحدد، ولكنه لا يجد مركباً، ولنا أن نتصور الأزمة التي هو فيها، والقلق الذي لا بد أن يستبد به، وهو الرجل الحريص على الوفاء، وعلى تحقيق الالتزام الذي أشهد الله عليه، وكان له كفيلاً أيضاً، وهنا نجد أن «المشكلة» تدفعه إلى التحرك والتصرف، حيث أخذ خشبة فجوفها ووضع فيها الدنانير وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم توجّه إلى الله «الشاهد والكفيل» الذي من أجله يجد نفسه ملزماً بسداد الدين، توجه إليه وقد وقف على البحر لكي يرمي فيه بالخشبة داعياً إياه «اللهم إنك تعلم أني قد تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شاهداً فقلت: كفى بالله شهيداً فرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وأني أستودِعُكَها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف». . فهذا التصرف كله إنما جاء في القصة بدافع من الموقف الحرج الذي أملى على الرجل أن يفعل ما فعل (١) . .

كذلك تبرز المناجاة للّه تبارك وتعالى، في صورة دعاء وأمل أن ينجيه من هذا المأزق والموقف الحرج، فهو يلجأ إلى الله بالتضرع والابتهال يطلب عونه وهو السميع القريب، المجيب دعوة الداع إذا دعاه. .

إن هذا الكون آية من آيات الله يسير بأمره وناموسه، وهو سبحانه الذي خلق كل شيء وسخّره لمنفعة هذا الإنسان، وهو سبحانه المهيمن القادر، يتصرف في كل شيء كما يشاء، ويفعل به ما يريد، ﴿وهو الذي سخّر البحر﴾ [النحل: ١٤]، يسخره الله تبارك وتعالى بقَدَره في تنفيذ مشيئته، فالرجل

---

(١) المصدر السابق ٢١١، ٢١٢.

المقترض يستودع الله المال ويضعه في الخشبة ويرمي به في البحر، وبأمر الله تصل الخشبة إلى صاحبها، وحين التقى الرجلان يقول صاحب المال للمقترض: «فإن الله قد أدَّى عنك الذي بعثته في الخشبة، فانصرف بالألف دينار راشداً . . ».

إنه قَدَر الله في آياته . . البحر الذي حمل الخشبة للرجل المؤمن المقترض فساقها حيث شاء الله . . هو البحر الذي حمل موسى الرضيع لِيُلْقِه على ساحل بيت فرعون . . وهو البحر الذي بأَمْر الله انفَلَق فكان كل فرق كالطَّود العظيم . . ومَرّ موسى وبنو إسرائيل على طريق يَبَس لا يخافون دركاً ولا غرقاً . . ثم أتبعهم فرعون، وشاءت إرادة الله ما شاءت فعادت اليَبَس ماءً فغرق فرعون وجنوده . .

ووقعت المعجزة، وتحقق الذي يقول الناس عنه مستحيل. لأنهم يقيسون سنّة الله على المألوف المكرور والله الذي خلق السنن قادر على أن يجريها وفق مشيئته عندما يريد . .

إن القصة النبوية تصور الشخصية بما تنطوي عليه من الخير الذي هو أكثر أصالة وعمقاً في النفس البشرية، والقصة تعرض هذا الجانب للنفس من منطلقات متعددة وفي ظروف مختلفة، فنجد رجلاً يُقرض آخر، وهذا مظهر من مظاهر الخير والمساعدة والتعاون في طريق الحياة، ثم إن هذا المقرض يقدم ماله في ظرف صعب حيث لا شاهد ولا كفيل من الناس، يكون دليلاً له على ماله، ولكنه مع ذلك يُقدم ماله راضياً بالله شاهداً وكفيلاً، ثقة في الله، واطمئناناً إليه.

إنه نموذج لشخصية إنسانية، ذات موقف خيِّر تسجله القصة في شخصية المقرض، فكانت تعبيراً عن تصور الإسلام لطبيعة الإنسان وحقيقته، والتي تؤكد على أصالة عنصر الخير فيه . .

لقد رسمت القصة النموذج الإنساني الذي حقَّق في واقعه هذا الجانب القوي الخيِّر الفاضل، فالمقرض استجاب لصاحبه فأعطاه ألف دينار، يقضي به

حاجته، تعاوناً منه وفضلاً، ويعمق هذا الموقف الخيِّر النبيل، اعتماده الكبير على الله وثقته المطلقة به، وهو يرضاه كفيلاً لهذا الرجل وشاهداً عليه.

وهذا الخير نجد له صدى يتردد في شخصية «المقترض» أيضاً حين حَلَّ الأجل المسمى للسداد، فنلمس فيه حرصه الأكيد على الوفاء، وإحساسه الشديد بأهمية تسديد الدين في موعده[1]، وهو موقف ينبض بـ «القيم

---

(١) عن محمد بن عبد الله بن جحش رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ـ ﷺ ـ قاعدا حيث توضع الجنائز فرفع رأسه قبل السماء، ثم خفض بصره فوضع يده على جبهته، فقال: سُبحان الله. سُبحان الله، ما أنزل من التشديد. قال: فعرفنا وسكتْنا حتى إذا الغدُ، سألتُ رسول الله ـ ﷺ ـ فقلنا: ما التشديد الذي نزل؟ قال: في الدَّين، والذي نفسي بيده، لو قُتل رجل في سبيل الله، ثم عاش، ثم قُتل، ثم عاش، ثم قُتل وعليه ديْن ما دخل الجنة حتى يُقْضى ديْنه» رواه النسائي والطبراني، والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد.

ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «نفسُ المؤمن مُعلَّقة بديْنه حتى يُقضى عنه» رواه أحمد والترمذي، وقال: حديث حسن، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، ولفظه: قال «نفس المؤمن مُعلَّقةٌ ما كان عليه ديْن» ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

ومعنى «معلقة»: أي مرهونة محبوسة بعيدة عن نعيم الله مهما عملت صالحا حتى يُؤَدَّى ما عليها.

ـ وعن جابر رضي الله عنه، قال: تُوفي رجلٌ فغسَّلناه وكفَّناه وحنَّطناه، ثم أتينا به رسول الله ـ ﷺ ـ ليُصلي عليه، فقلنا: تُصلي عليه، فخطا خطْوة، ثم قال: أعليه ديْنٌ؟ قلنا: ديناران، فانصرف، فتحمَّلهما أبو قتادة فأتيناه، فقال أبو قتادة: الديناران عليَّ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قد أوْفى الله حقّ الغريم، وبرىء منهما الميتُ؟ قال: نعم فصلَّى عليه، ثم قال بعد ذلك بيومين: ما فعل الديناران؟ قلتُ: إنما مات أمْس. قال: فعاد إليه من الغد، فقال: قد قضيتُهما، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الأن بردت جلْدتُه» رواه أحمد بإسناد حسن، والحاكم والدارقطني، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ورواه أبو داود وابن حبان في صحيحه باختصار. والمعنى: أي بعد دفع الدينارين لصاحبهما زال عنه العذاب وتنعّم.

ـ وروي عن عليِّ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أُتي بالجنازة، لم يسأل عن شيء من عمل الرجل، ويسأل عن ديْنه، فإن قيل عليه ديْن كفَّ عن الصلاة عليه، وإن قيل: ليس عليه ديْن صلَّى عليه، فأُتي بجنازة فلما قام ليُكبِّر سأل رسول الله ـ ﷺ ـ: «هل على صاحبكم ديْن؟ قالوا: ديناران، فعدل عنه رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: «صلّوا على صاحبكم» فقال علي رضي الله عنه: هما عليَّ يا رسول الله بريءٌ منهما، فتقدَّم ـ ﷺ ـ فصلَّى =

عليه، ثم قال لعلي بن أبي طالب: «جزاك الله خيرا، فكّ الله رهانك كما فككْت رهان أخيك. إنه ليس من ميت يموت وعليه ديْن إلا وهو مُرتهن بديْنه، ومن فكَّ رهان ميّت فكّ الله رهانهُ يوم القيامة، فقال بعضهم: هذا لعليّ خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: بل للمسلمين عامة» رواه الدارقطني ورواه أيضا بنحوه عن طريق عبيد الله الوصافي عن عطية عن أبي سعيد (الترغيب والترهيب ٢/٦٠٦) قال الحافظ: قد صحَّ عن النبي - ﷺ - أنه كان لا يُصلي على المدين، ثم نُسخ ذلك.

فروى مسلم وغيره من حديث أبي هريرة وغيره أن رسول الله - ﷺ - كان يُؤتى بالرجل الميت عليه الدَّين، فيسأل هل ترك لديْنه قضاء، فإن حُدِّث أنه ترك وفاءً صلَّى عليه، وإلا قال: صلُّوا على صاحبكم، فلما فتح الله عليه الفتوح قال: «أنا أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن تُوفي وعليه ديْن فعليَّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته».

قال الشيخ الشرقاوي «قال لأصحابه: صلوا عليه، ولا يُصلي هو» تحذيراً عن الدَّين وزجرا عن المماطلة، ثم بعد ذلك صار يُصلي على كل جنازة حضرها ويلتزم بالدين. ثم الذي يضمن أداء دين الميت هذا الضمان صحيح عند الجمهور من غير رجوع في مال الميت.

وعن مالك للضامن أن يرجع إلى أن قال: ضمنت لأرجع فإن لم يكن للميت مال وعلم الضامن بذلك فلا رجوع له، وعند أبي حنيفة إن ترك الميت وفاء جاز الضمان بقدر ما ترك وإن لم يترك وفاء لم يصح، وصلاته عليه الصلاة والسلام عليه وإن كان الديْن باقياً في ذمة الميت لكون صاحب الحق عاد إلى الرجاء بعد اليأس واطمأن بأن ديْنه صار في مأمن فخفّ سخطه وقرب من الرضا» اهـ ج ٣ ص ٢٥٧.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله - ﷺ - «من أخذ أموال الناس يُريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله» رواه البخاري وابن ماجه وغيرهما.

وقوله: «من أخذ أموال الناس» أي تسلمها من وجوه التعامل كالقرض أو للحفظ وديعة للّه أو غير ذلك حال كونه ينوي ردها.

وقوله: «أدّى الله عنه»: أي أعانه الله على ردها وأدائها، ووفّقه وألهمه الرشد.

وقوله: «يريد إتلافها»: أي عدم ردّها. وقوله: «أتلفه الله»: أي أتلف أمواله في الدنيا بكثرة المصائب ومحق البركة. أو المراد إتلاف نفسه في الدنيا أو تعذيبه في الاخرة. اهـ «الجامع الصغير».

وفي الفتح: وظاهره يحيل المسألة المشهورة فيمن مات قبل الوفاء بغير تقصير منه كأن يعسر مثلا أو يفاجئه الموت وله مال مخبوء، وكانت نيته وفاء دينه ولم يوف عنه في الدنيا، والظاهر أنه لا تبعة عليه والحالة هذه في الاخرة بحيث يؤخذ من حسناته لصاحب الدين. بل يتكفل الله عنه لصاحب الدين.

الحيّة»، ويضاف عليه أيضاً موقفه الآخر حين ألقى بالألف دينار في وسط البحر بعد أن وضعها في جوف الخشبة، اعتماداً على الله، وثقة في سيطرته على البحر وهيمنته عليه، وقدرته على أن يوصل هذا المال إلى صاحبه، وهذه «قيمة إيمانية كبرى» تعبر عن مدى أصالة الجانب الروحي في كيان الإنسان، الموصل بالله تبارك وتعالى منذ أن كانت نفخة الروح. .

ويأتي الحوار في سياق القصة بصورة طبيعية، بين اثنين، بين المستلف وصاحب المال، وله الدور البارز في بناء القصة، فهو يساعد على رسم الشخصية، ويجعلها كاملة الوضوح، وأكثر حضوراً بما يحمله من ترجمة لمشاعر الشخصية وأحاسيسها المختلفة، كما أن الحوار قد ساعد على تطوير الحدث، ودفعه لبعث مواقف جديدة في خط سير القصة (١) .

كذلك فإن الحوار الذي ختمت به القصة بين الرجلين، يكشف عن المغزى الذي تهدف إليه القصة، وهو بيان قدرة الله، فهو الذي سخّر البحر، وسيّر الرياح حتى قذفت بالخشبة إلى الساحل الذي عليه صاحب المال، وأوصلتها سالمة إليه، وهذا يعني أن الله قريب من المؤمنين، الواثقين بالله، المطمئنين إلى عونه ورعايته، حين يخلصون ويتقون (٢) . .

= (قوله أتلفه الله) ظاهره أن الإتلاف يقع له في الدنيا وذلك في معاشه أو في نفسه، وهو علم من أعلام النبوة لما تراه بالمشاهدة ممن يتعاطى شيئاً من الأمرين، وقيل المراد بالإتلاف في عذاب الآخرة.

قال ابن بطال: فيه الحضّ على ترك استئكال أموال الناس، والترغيب في حسن التأدية إليهم عند المداينة، وأن الجزاء قد يكون من جنس العمل.

وقال الداودي: فيه أنّ مَن عليه دَيْن لا يعتق ولا يتصدق، وإن فعل ردّ. اهـ. وفي أخذ هذا من هذا بعد كثير.

وفيه الترغيب في تحسين النية والترهيب من ضِدّ ذلك، وأن مدار الأعمال عليها، وفيه الترغيب في الدين لمن ينوي الوفاء . اهـ فتح، ج ٥، ص ٣٥.

(١) القصص في الحديث النبوي: انظر ص: ٢٦١، ٣٠٨، ٣١٧، ٣٢٤، ٣٥١، ٣٨٢، ٣٩٨، ٤٣٣، ٤٧١.

(٢) المصدر السابق ٣٢٤.

إن هـذه القصة ذات واقـع تاريخي حصـل في الماضي، وأخـبرنـا بـه الرسول ـ ﷺ ـ عن طريق الوحي الذي يتلقاه عن الله تبارك وتعالى، وليست تمثيلاً، لأن الرسول ـ ﷺ ـ ساقها مساق الواقع، ولو كانت تمثيلاً لذكر ذلك كما هو شأنه في القصص التمثيلية التي ذكرها للتـوضيح والبيـان. . ولكنه هنـا يصرح ـ ﷺ ـ بأنها حدثت وهو الصادق المصدوق، وفوق ذلك ينسبها إلى قوم معروفين هم بنو إسرائيل فهو يذكر في مطلعها: «أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار. . ».

فهذا المطلع يدل بشكل قاطع على أنها قصة وقعت أحداثها في الماضي، ولو كانت تمثيلاً لوجد مندوحة في ألفاظ أخرى لا تحمل هذه الدلالة التاريخية، ولساقها في معرض لا يفهم منها أنها وقعت لأناسٍ مضوا، أما وهي تُساق بهذه الألفاظ الدالة على واقعيتها، وفوق ذلك تصريحاً بأنها حصلت لبني إسرائيل المعروفين، فإنها ليست تمثيلاً بكل تأكيد[1] . .

إنها قصة من الوحي والغيب ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾. . كذلك هي تقع في ميزان القدر الإلَهي. . فلم تقع كلها بجهـد بشري، حتى نحكم فيها عقولنا، وإنما جزء من أحداثها يتم بتدخل من القوة الإلَهية، ووفق ما قدره الله من أمور كما يفهم من القصة، وما توحي به مواقفها من البداية إلى النهاية، هذه واحدة. . والثانية أن الرجل المستلف وهو يضع المال في الخشبة ويرمي بها في البحر كان في حالة نفسية وفكرية تدفعه إلى فعل ما فعل، فقد كان مؤمناً واثقاً بالله، فقد كان هو كفيله وشاهده في القرض، وقد رضي به المقرض شاهداً وكفيلاً ووثق به أيضاً، أفلا يثق به ويأتمنه الآن على توصيل هذا المال إلى صاحبه الذي كان قد قبل الله شاهداً وكفيلاً!!

إن القصة تصور بهذه الأحداث وتدل بها على أن الله قريب جداً من المؤمنين الواثقين به، المصدقين بهيمنته على هذا الكون بمَن فيه وما فيه، إنها

---

(١) المصدر السابق ٣٥٢.

mktaba...com

تصور تسخير الله ما في كونه من بحر وسواه لأولئك المؤمنين المصدقين!! فهو القريب من عباده، المعين لهم وحده، والقادر على كل شيء. .

ناهيك عما يخلفه هذا الحادث من يقين في نفوس مَن يقص عليهم من المسلمين إلى يوم الدين[١] . . فمادة القصة مأخوذة من أحداث التاريخ الواقعة فيما مضى من حياة بني إسرائيل، يعرضها الرسول ـ ﷺ ـ لما لها من أثر في التربية والتوجيه وتعليم الجماعة المسلمة، فقد تخيَّر ما يحقق الهدف التوجيهي والتعليمي لغرس بذور الطمأنينة واليقين بالقدر الإلٓهي الذي يحرك الكون كله بأمره ومشيئته، إنه يصور القدرة القادرة، التي تقول للشيء «**كن فيكون**».

كما تؤكد القصة على ضرورة أن يشعر المسلم بالثقة المطلقة من جانب الله والكفاية به، والاعتماد الدائم عليه تبارك وتعالى وحده، والاعتصام به في

---

(١) هذه القصة يرويها النبي ـ ﷺ ـ عن رَجُلَيْنْ صَالِحَيْنْ بَـرَّيْن مُؤْمِنَـيْنْ، معتمدين على الله جلَّ وعلا، أشرق نور الإيمان واليقين في قلوبهما، فهل فينا هذا الإيمان، وحُبّ الخير والتوكل على الله، وقضاء الحاجات ابتغاء ثواب الله، والوفاء والصدق وردّ الودائع.

وفي الترغيب في القرض، وما جاء في فضله قال البراء بن عازب رضي الله عنهما: «سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «مَن مَنَح مَنيحة لَبَن، أو وَرِق، أو هَدَى زقاقاً كان له مِثْلُ عِتْقِ رَقَبة». رواه أحمد والترمذي، واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ومعنى قوله: «منيحة لبن» أي أن يعطيه ناقة أو شاة ينتفع بلبنها ويعيدها، وكذلك إذا أعطاه لينتفع بوبرها وصوفها زماناً ثم يردها. ومعنى قوله: «مَنَح منيحة وَرِق» إنما يعني به قرض الدرهم، وقوله: «أو هَدَى زُقاقاً» إنما يعني به هداية الطريق. وهو إرشاد السبيل.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «كل قَرْضٍ صدقة» رواه الطبراني بإسناد حسن والبيهقي.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: عملتَ من الخير شيئاً؟ قال: لا. قالوا: تذكَّر؟ قال: كنتُ أُداينُ الناسَ فآمر فتياني أن يُنظروا المُعْسِر، ويتجوّزوا عن الموسر قال: قال الله: تجاوزوا عنه» رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

ومعنى «وينظروا المعسر»: يُؤجلوا سداد غير المستعد للأداء. ويتجوزوا عن الموسر: أي يمروا على الغني الموجود معه المال.

كل شيء ينوب الإنسان أو يُصبه.. وذلك بعد أن يبذل كل جهد مستطاع من اتخاذ الأسباب التي هي من أعظم رموز التـوكل والالتجـاء إلى الله.. ففي القصة نجد المستلف يقول في مناجاته للّه سبحانه: «وأني جهـدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودِعُكَها، فرمى بها في البحر، ثم انصرف...».

http://al-maktabeh.com

بيت المقدس ومسائل سليمان عليه السلام

إن الإيمان برسل الله هو المقتضى الطبيعي الذي ينبثق من الإيمان بالله في الصورة التي يرسمها الإسلام، ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرُسل في ضمير المسلم، فكلهم جاء من عند الله، وكلهم رسول الله . . وعلى ذلك تتلقى الأمة المسلمة تراث الرسالة السماوية كله، ومن قواعد هذا التراث العظيم بيت المقدس.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله ـ ﷺ ـ: أن سليمان بن داود ـ ﷺ ـ لما بَنى بيت المقدس سَأَل الله عز وجل خلالاً ثلاثة: «سأل الله عز وجل حُكماً يصادف حُكْمَهُ فأُوتيه، وسَأَل الله عز وجَلَّ مُلكاً لا ينبغي لأحد من بَعْده فأُوتيه، وسَأَل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أَحدٌ لا ينهزُهُ إلا الصلاةُ فيه أن يُخرجه من خَطِيئته كيوم وَلَدَتْهُ أُمُّه»[١].

تربط المسلمين ببيت المقدس ارتباط العقيدة والروح، ويظل الاعتزاز به في قلب وضمير كل مسلم، فهو منار النبوات، ومسرى النبي محمد ـ ﷺ ـ. فكان الإسراء من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، كما أن المعراج بالرسول محمد كان من بيت المقدس إلى السماوات العلى وسدرة المنتهى . .

---

(١) النسائي ٢ / ٣٤ بإسناد صحيح، كتاب المساجد، فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه. ورواه أحمد وابن ماجة، وابن خزيمة وابن حبان، والحاكم، وقال صحيح على شرطهما، ولا علة له (الترغيب والترهيب ٢ / ٢١٦).

http://al-maktabeh.com

وكان بيت المقدس أولى القِبْلَتين، فقد اتجه المسلمون في صلاتهم فترة من الزمان إلى المسجد الأقصى، الذي يتجه إليه اليهود والنصارى.

ثم كانت إرادة الله سبحانه في الاختصاص والتميز للأمة المسلمة، الاختصاص والتميز في التصور والاعتقاد؛ والاختصاص والتميز في القبلة والعبادة. ولم يكن بد من تمييز المكان الذي يتجه إليه المسلم بالصلاة والعبادة وتخصيصه كي يتميز هو ويتميز بتصوره ومنهجه واتجاهه، فالجماعة المسلمة التي تتجه إلى قبلة مميزة يجب أن تدرك هذا الاتجاه. إن القبلة ليست مجرد مكان أو جهة تتجه إليها الجماعة في الصلاة. فالمكان أو الجهة ليست سوى رمز. رمز للتميز والاختصاص. تميز التصور، وتميز الشخصية، وتميز الهدف، وتميز الاهتمامات، وتميز الكيان.. ثم نزل القرآن بتحويل القبلة من بيت المقدس نحو المسجد الحرام..

ورغم الأمر بتحويل القبلة بقي المسجد الأقصى في قلب كل مسلم وضمير كل مؤمن، بقي يحمل في كل روح تلك القيم الدينية المقدسة، فكان الترغيب في الإحرام من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام:

عن أُمِّ حكيم بنت أبي أُميةَ بن الأخنس عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «مَن أَهَلَّ(١) بعمرة من بيت المقدس غفر له»(٢).

وفي رواية له قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «مَن أَهَلَّ بعُمرة من بيت المقدس كانت له كَفَّارةً لما قبلها من الذنوب، قالت: فخرجت أمي من بيت المقدس بِعُمرة».

ورواه ابن حبان في صحيحه، ولفظه قالت: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «مَنْ أَهَلَّ من المسجد الأقصى بعُمرة غُفر له ما تقدَّم من ذنبه». قال:

---

(١) أي نوى فعل عمرة وابتدأ إحرامها من بيت المقدس.

(٢) رواه ابن ماجة بإسناد صحيح.

http://al-maktabeh.com

فركبت أم حكيم إلى بيت المقدس حتى أهَّلت منه بعُمرة[1].

وقد رغَّب الرسول ـ ﷺ ـ شدَّ الرحال إلى المسجد الأقصى والصلاة فيه. عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «صلاة في المسجد الحرام أفضل مما سواه من المساجد بمئة ألف صلاة، وصلاة في مسجد المدينة أفضل من ألف صلاة فيما سواه، وصلاة في مسجد بيت المقدس أفضلُ مما سواه من المساجد بخمسمائة صلاة»[2]..

---

(١) ورواه أبو داود والبيهقي، ولفظهما: «مَن أهَلَّ بحجة، أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غُفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، أو وجبت له الجنة».

(٢) رواه الطبراني وابن خزعة والبزار وقال إسناده حسن، كذا قال.

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

سفينة الحياة

من أهم القضايا التي ركَّز عليها الإسلام، قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد جاءت هذه القضية، موضوعاً لقصة نبوية في مَثَل واقعي:

عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ، قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: مَثَلُ المُداهِن في حدود الله، والآمر بها، والناهي عنها، كمثل قوم استهموا سَفينة من سُفن البحر، فصار بعضهم في مُؤَخَّر السفينة، وأبعدهم من المِرفَق[1]، وبعضهم في أعلى السفينة، فكانوا إذا أرادوا الماء وهم في آخر السفينة، آذَوْا رحالهم، فقال بعضهم: نحن أقربُ من المِرفَق وأبعد من الماء، نخرقُ دفَّة السفينة، ونستقي، فإذا استغنينا عنه سددناهُ، فقال السفهاء منهم: افعلوا. قال: فأخذ الفأسَ، فضربَ عرض السفينة، فقال رجل منهم رشيد: ما تصنع؟ قال: نحن أقرب من المِرفَق وأبعد من الماء، نكسر دفَّ السفينة، فنستقي، فإذا استغنينا عنه سددناه، فقال: لا تفعل، فإنك إذاً تَهلِكُ ونَهْلِكُ»[1].

(١) المرفق: بكسر الميم وفتح الفاء، وبفتح الميم وكسر الفاء: المغتسل. ومرافق الدار: مصاب الماء، ونحوهما مما يرتفق به، أي ينتفع به.

(٢) رواه ابن حبان، واسناده صحيح على شرط الشيخين، انظر تخريجه في الإحسان رقم: (٣٠١)، (٢٩٨).

http://al-maktabeh.com

وفي رواية: «مثل القائم على حدود الله، والمداهن في حدود الله، كمثل قوم كانوا في سفينة، فاقترعوا منازلهم، فصار مهراقُ الماء ومختلفُ القوم لرجل، فَضَجر، فأخذ القدوم ـ وربَّما قال الفأس ـ فقال أحدهم للآخر: إن هذا يُريد أن يُغرقنا ويخرق سفينتكم، وقال الآخر: دَعْه، فإنَّما يخرق مكانه».

وفي رواية: «مثل القائم في حدود الله، والواقع فيها كَمَثل قوم اسْتَهمُوا على سَفينة، فصار بَعْضَهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤْذِ مَن فَوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» رواه البخاري.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مفهومه الشامل ودلالته العميقة، ومغزاه البعيد، منهج تكافلي كامل، يقي المجتمع ويصونه عن الشرّ والفساد، فهذا المبدأ يجعل كل شخص حارساً أميناً على الحياة العامة في المجتمع حين يكون يقظاً، يستشعر واجبه في العمل على وقاية هذا المجتمع من خطر الضلال، وشر الفساد، وهو ينهى ضالاً أو مخطئاً أو مُتهتكاً أو فاسداً عما هو فيه من فساد وعصيان، لن يقتصر ضرره عليه وحده، ولكنه سينتقل بالتالي لينال من سائر أفراد المجتمع، ويدله على الطريق المستقيم حين يأمره بالمعروف، وحينئذ لا يكون هناك خطر على الحياة الإجتماعية من أن يتفشىٰ فيها الفساد، أمّا حين يُهمل هذا الواجب، وينسى كل إنسان نفسه، وينسى غيره فيتركه يُخطىء ويفسد ويضل، حينئذ يكثر الفاسدون المفسدون، ويكثر الضالون، فيعمّ البلاء والشرّ الجميع من غير استثناء كما يصور ذلك البيان النبوي..

وهذا البيان قصة يضربها الرسول ـ ﷺ ـ مثلاً لما يترتب على إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حين تنتهك حدود الله، فلا ينبري أحد ينهي أو يأمر. إنها مثل لما يترتب على ذلك من خطر جسيم..

تبدأ القصة بقول الرسول ﷺ: «مَثَل المداهن في حدود الله، والآمر بها، والناهي عنها، كمثل قوم استهموا سفينة من سفن البحر» وفي رواية «مثل القائم في حدود الله، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة». .

نجد أن الرسول ـ ﷺ ـ يُمهد للقصة بإثارة قضية مُعَيَّنة عن «المداهن في حدود الله، والآمر بها، والناهي عنها». . وهي قضية ذات حيوية بالغة بالنسبة للدعوة وللمسلمين، حيث تعالج ناحية الصلة التي يجب أن تكون بين المسلمين وتعاليم الإسلام في تطبيقها، والحرص الأكيد على تحقيقها في المجتمع، وهو تمهيد يحمل في طياته عناصر مثيرة تربط السامع والقارىء بالقصة ربطاً جيداً من ناحيتين:

ناحية المعنى، وهو التجريد في التمهيد، فالقضية تثار بصورة ذهنية، في شكل فكرة مجملة، مما يجعل المتلقي للقصة يحرص على مَثَل حيّ ينقله من مرحلة التجريد النظري إلى مَثَل واقعي، وهو ينشد ذلك في القصة نفسها، ومن هنا فالقصة بحوادثها وتفصيلاتها هي الفكرة مرة أخرى، تعرض في إطار قصصي يجسد الفكرة، وينقلها من عالم التجريد إلى التشخيص، وهذا الربط لا يقف عند ناحية المضمون فقط، بل هو بارز أيضاً في الشكل من ناحية ثانية، ذلك أن التمهيد يأتي في اللفظ «مبتدأ» ويأتي «خبره» في مطلع القصة، فكأنما التمهيد يشدّ مع القارىء شكلاً ومعنىً[(١)].

صورة عجيبة حقاً تلك التي تتمثل في النفس من قراءة هذا الحديث الشريف. . صورة حيَّة شاخصة موحيّة مُعَبِّرة. . وإن هناك لتوفيقاً عجيباً في هذا التشبيه بالسفينة، فالحياة كلها هذه السفينة الماخرة في العباب، لا تكاد تسكن لحظة حتى تضطرب من جديد، ولن يكتب لها الاستواء والسلامة فوق الموج المضطرب حتى يكون كل شخص فيها على حذر مما يفعل، ويقظة لما يريد.

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ١٢٠.

www.al-maktabeh.com

«والمجتمع كله هذه السفينة.. يركب على ظهرها البرّ والفاجر، والمتيقظ والغفلان، هي تحملهم لوجهتهم ولكنها - وهي محكومة بالموج المضطرب والرياح من جانب، وما يريده لها الربان من جانب - لتتأثر بكل حركة تقع فيها، فتهتز مرة ذات اليمين، وتهتز مرة ذات الشمال، وقد تستقيم على الأفق أحياناً، أو ترسب أحياناً إلى الأعماق..!

وإن كثيراً من الناس لينسى - في غمرته - هذه الحقيقة، ينسى سفينة المجتمع أو سفينة الحياة، ينسى فَيُخيل إليه أنَّه ثابت على البرّ، ليس دائماً في مكانه، ولا خالداً في سطوته، إنَّما هي رحلة قصيرة على سفينة الحياة.. لو تذكر ذلك ما استكبر ولا طغى، ولا اغترّ بقوته الزائلة عن الحقيقة الخالدة، ولعاد إلى مصدر القوة الحقيقية في هذا الكون، يستلهم منه الهدى ويطلب منه الرشاد، ويسير على النهج الذي أمَرَ بِه وارتضاه للناس، ولو تذكَّر من يفجر وينحرف أنَّه ليس راكزاً على البرّ، وإنَّما هو منطلق على العباب، وأن كل حركة يأتيها تتأثر بها السفينة فتهتز، لو تذكر لما ترك نفسه لشهواته ولا نحرافاته، ولَعَمِلَ حساباً لكل خطوة يخطوها، وكل حركة يتحركها حرصاً على نجاته هو ونجاة الآخرين، ولكنها الغفلة السادرة التي تخيم على البشرية، إلاَّ من آمن واتقى وعرف ربه واهتدى إليه، والرسول الكريم يُدرك هذه الغفلة التي ترين على قلوب الناس، فيحذرهم منها، ويصورها لهم في صور شتى، من أعجبها وأبلغها هذه الصورة التي يرسمها هذا الحديث، صورة السفينة الماخرة في العباب»[1].

إن الأمر المعروف والنهي عن المنكر لَهُوَ من أهم القضايا التي تعرضت لها الرسالات السماوية على لسان الرسل والأنبياء! عن عبيد الله بن جرير عن أبيه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم يُعمل

---

(١) محمد قطب: قبسات من الرسول ﷺ ١٦٧ - ١٦٨. انظر تتمة الحديث في قبسات من الرسول.

فيهم بالمعاصي يقدرون أن يُغَيِّرُوا عليهم ولا يُغَيِّرُوا، إلَّا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا»(١).

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضَلَّ إذا اهتديتم﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنكم تضعونها على غير موضعها وإنّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أَوْشَكَ أنْ يعمهم الله بعقاب من عنده»(٢). وفي رواية: «إن الناس إذا رأوا المنكر، ولا يغيرونه، يوشك الله عزّ وجل أن يعمهم بعقابه»(٣). وفي حديث عائِشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس إن الله يقول لكم مُروا بالمعروف وانهوا المنكر قبل أن تدعوا فلا أُجيب لكم، وتسألوني فلا أعطيكم، وتستنصروني فلا أنصركم».

إنّ الإسلام لا يُسقط عن الفرد ولا عن الأمة التبعة في الأمر بالمعروف واالنهي عن المنكر، ولقد صحح الخليفة الأول ـ رضوان الله عليه ـ ما ترامى إلى وَهْم بعض الناس في زمانه حول هذا الموضوع كما بَيَّن في الآية الكريمة. ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح، لأنَّ القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صار أشق. فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على نحو الذي يَعفيهم من تعب الجهاد ومشاقه، ويُريحهم من عَنَتْ الجهاد وبلائه!.

وإذا كان الأمر كذلك فماذا ينتظر الناس الذين لا يأمرون بالمعروف ويَنهون عن المنكر؟ إنهم لا ينظرون إلَّا أن يحلّ بهم ما حَلَّ من قبلهم، وهو معروف لهم. إلَّا أن تمضي سنة الله الثابتة في طريقها الذي لا

---

(١) أخرجه ابن حبان، وإسناده حسن، وأخرجه أبو داود (٤٣١٩) في الملاحم، وأخرجه أحمد ٤/ ٣٦١ و٣٦٣ و٣٦٤ و٣٦٦، انظر تخريجه في الإحسان (رقم٣٠٠).
(٢) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.
(٣) رواه أصحاب السنن.

يحيد﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ [فاطر:].

والأمور لا تمضي في الناس جزافاً؛ والحياة لا تجري في الأرض عَبثاً، فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تتبدل ولا تتحول. والإسلام يقرر هذه الحقيقة، ويعلمها للناس، كي لا ينظروا الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة.

وأوّل المعروف: الإسلام لله وتحكيم شريعته، وأَوَّل المنكر: الجاهلية والاعتداء على سلطان الله وشريعته. وحكم الجاهلية هو حكم الطاغوت، هو كل سلطان غير سلطان الله وحكمه، وأطغى الطغيان الاعتداء على ألوهية الله أو تعبيد الناس لشريعة غير شريعته، وهو المنكر الذي لا ينفع الفرد ولا ينفع الأمة أن تهتدي وهذا المنكر قائم.

كلا والله! هذا الدين لا يقوم إلاَّ بجهد وجهاد ولا يصلح إلاَّ بعمل وكفاح. ولا تستقيم الحياة إلاَّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا بد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه بالحسنى والحكمة والموعظة الحسنة.

ويُعبِّر القرآن الكريم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مواضع بالنصيحة. والنصيحة هي الذكرى. والذكرى تنفع دائماً، ولن تعدم من ينتفع بها كثيراً كان أو قليلاً. ولن يخلو جيل ولن تخلوا أرض ممن يستمع وينتفع، مهما فَسَدَ الناس وقت القلوب وران عليها الحجاب... ﴿وذكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[الذاريات: ٥٥]... لقد شهد ربُّ العالمين أنها تنفع المؤمنين. فهي أيضاً تُجدد الجاحدين. فهل من أُذُنٌ واعية لِيَسْلم المجتمع، وتَسلم سفينة الحياة: «مَثَلُ القائم في حدود الله، والواقع فيها كَمَثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤْذِ مَن فوقنا،

فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

«وهكذا تَبْتُر القصة النبوية الحدث عند نقطة مثيرة تطور إليها الموقف، ولا تكشف لنا النقاب عن خاتمة هذا الموقف المثير، وتظل نهاية المطاف مجهولة، هل خرقوا السفينة؟ لا ندري!! هل منعوهم من خرقها؟ لا ندري!! ونظل لا ندري ماذا حصل بعد هذه المشادة الكلامية، نعم لا ندري!

«وهو بتر رائع يُتيح للذهن فرصة أكبر يستطيع فيها أن يحلل الموقف على أكثر من وَجْه، وينهيه في خياله أكثر من مرة، ولا شك أن ذلك أكثر إثراءً للخيال، وأكثر تحريكاً للوجدان النفسي..

وفي خلال ذلك يتملّى المستمع أو القارىء صوراً شَتَّى ومواقف مختلفة، فهو سيتصَوَّر مرة أنَّهم تركوهم، أو عجزوا عن منعهم من نقب السفينة، وسيتصوَّر النهاية الأسيفة المحقَّقَة للمجتمع، ثم سيستيقظ خياله على أصل الفكرة والقضية، وسيرجع للواقع ولسنة الله التي لا تتبدَّل، ويتذكّر أنه أمام مثل للقائم على حدود الله والمدهن فيها، فيتصوَّر بالتالي ما يحيق بالمجتمع من جراء التفريط في حدود الله..

كما سيتصوَّر مرة أخرى أولئك القوم، وقد أجمعوا على منعهم من هذا القرار الأرعن، وأخذوا على أيديهم، وحالوا بينهم وبين هذا التصرف الذي سيعود وَبَاله عليهم جميعاً، ومرة أخرى سيربط المتلقي بين هذا الواقع وبين الواقع الذي تعيشه البشرية..

إنَّه ميزان الله الثابت، وقانونه الحتمي، وسُنّته التي لا تتغيَّر، فمن أَخَذ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد استمسك بالعروة الوثقى.. فهو المنهج الإلٰهي للنجاة بسفينة الحياة الإنسانية..[1]».

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ١٨٥.

www.al-maktabeh.com

وهكذا يأخذ الذهن في التَعَمُّق في فهم النهاية الممكنة من شَتَّى جوانبها: «فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعاً، وإن تركوهم غرقوا جميعاً».

والنبي ﷺ يختار تشبيهاً عجيباً رائعاً يرسم من خلاله صورة حَيَّه مُعبِّرة تجسد العلاقة بين الفرد والمجتمع، وتأثُّر المجتمع بسلوك بعض الأفراد، وأن حرية الفرد لها حدٌّ شرعي يجب ألا تتجاوزه، كما يتضح في هذا التعليق النبوي الواضح، الدال والمُعَبِّر عن قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سلوك الناس في المجتمعات الإنسانية.. إنّها دعوة للإلتزام بفروض الحق، تهدف إلى حمل الناس على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كواجب ديني واجتماعي، تفرضه مصلحة مشتركة للفرد والجماعة، لما لذلك الواجب من آثار كبيرة في صلاح المجتمع كله، واستقامة أمره..[1] وحين نَتأَمَّل هذه القصة في الواقع الإنساني عبر مسيرة البشرية في غابر الزمان وفي كل مكان، ندرك عظمة رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضخامة هذه الأمانة.. إنَّه لا نجاة للمجتمعات الإنسانية في أرض من أن يقع عليها العذاب أو يصيبها الهلاك والدمار إلاَّ أن ينهض رجال الحق بعبء الرسالة والتذكير والنصيحة. وهذا هو واجب الجماعة المسلمة الذي يندبها إليه ربها، ويدعوها من أجله، ويناديها دائماً..

(١) انظر القصص في الحديث النبوي: ١٨٠، ٢٥٠، ٣٤٦، ٤٤٠.

http://al-maktabeh.com

فهرس الموضوعات

القسم الأول:

(قصة طالوت وجالوت)

تجربة في حياة بني إسرائيل ١١
الإرادة المستعلية ١٧

(قصة داود - عليه السلام)

الملك الطائع العابد ٢٨
الفتنة والابتلاء ٣٤
فتح من الله وإلهام ٣٩

(قصة سليمان - عليه السلام)

ابتلاء وفتنة ٤٥
علم وتمكين وإفضال ٤٩
سليمان وملكة سبأ ٥٦
من فضل الله ونعمته ٦٧
فطنة وحكمة ٧٩

(قصة سبأ)

الإعراض والكفر بالنعمة ٨٥

http://al-maktabeh.com

القسم الثاني:

(قصة أيوب - عليه السلام)

تقديم ٩٥

الصبر الجميل ٩٦

تأمُّل وعبرة ١٠٢

عبودية ١٠٥

سنة الله في الابتلاء ١٠٧

(قصة أصحاب القرية) ١١٣

(قصة ذي القرنين) ١٢٣

العمل الصالح ١٢٣

بناء السد ١٣٣

المُلك والقوة والسلطان بين الكفر والإيمان ١٣٦

خبر يأجوج ومأجوج ١٤٠

(قصة يونس - عليه السلام)

تقديم ١٤٥

المثل الوحيد ١٤٧

تأمل وتدبر ١٥٠

سنة الله ١٥٤

قصة فريدة ودرس بليغ ١٥٧

(قصة زكريا ويحيى - عليهما السلام)

تقديم ١٦٣

القسم الثالث: القصة الواضحة في المسيحية الواضحة.

(عيسى - عليه السلام)

قصة المولد العجيب ١٨٣

مشاهد مثيرة وحوادث غريبة ١٩٥

http://al-maktabeh.com

كلمة الفصل وتقرير وحدانية الله ٢١٠
ميثاق النصارى ٢١٩
طبيعة المسيحية ٢٢٨
جدل وخصام ٢٤٠
رسالة عيسى والبشرى بمحمد نبي الهدى ٢٤٣
مكر يهود ومحاولتهم صلب وقتل عيسى بن مريم ٢٤٦
أمارات الساعة ونزول المسيح عيسى ابن مريم ٢٥٨
حسم وتوكيد ومواجهة ٢٦٤
المشهد العظيم ٢٧٠
قصة المائدة ٢٧٤
الاستجواب الهائل ٢٧٨
صورة مضيئة ٢٨٥

(قصة أصحاب الأخدود)

ميزان الإيمان في القرآن ٣٠٥
الموقف الواضح ٣١٠
الإيمان الصادق والابتلاء ٣١٦
قدر الله وقُدرته ٣٢٣
التضحية والفداء ٣٣٣
مشاهد وصور وحوار ٣٣٨

(قصة أصحاب الكهف)

حكمة بالغة وإرادة قاهرة ٣٥١
طريق الإيمان ٣٥٧
ثوار مؤمنون ٣٥٩
رحمة الله ٣٦٣
المشهد العجيب والمفاجأة الضخمة ٣٦٨
تدبير الله وإرادته ٣٧٣

(قصة أصحاب الغار)

عرض وتقديم ٣٧٩
صور من أعماق الفطرة الإنسانية ٣٨٣
في ظلال الحب الرقيقة ٣٩٠
حقيقة الخوف في الوجدان الإنساني ٤٠١
قلب عامر بالإيمان والتقوى ٤١٠
تربية وسلوك ٤١٨

(قصة المُتكَّلمون في المهد)

عرض وتقديم ٤٢٥
عيسى بن مريم ٤٢٨
جُريج العابد ٤٣١
صُور إنسانية ٤٤٥
الرضيع والأم ٤٥١

القسم الرابع:

(صفحات من السجل الأسود لبني إسرائيل)

مواقف بني إسرائيل من النبوة والأنبياء ٤٦٣
دعوى وكذب وافتراء ٤٨٤
ظلم مبين، وكيد متين في مواجهة الرسول الأمين ٤٩٦
الهتاف الأخير ٥٠٨
كشف العداء وتحديد الخطوط ٥٢١
تاريخ عريق في الكفر والمعصية ٥٣٠
فساد في الخلق والسلوك والعقيدة ٥٣٧
التصور الفاسد وسوء الأدب البذيء ٥٥٠
تحريف وتزوير ٥٦٠
قاعدة واحدة ٥٧٢
تحذير وتنوير ٥٧٨

اعتراضات زائفة ٥٨٨
قصة واهية وحجة فارغة ٥٩٢
بين السحر والكفر ٥٩٧
الدسائس اليهودية ٦٠٣
حملة التشكيك والتضليل الماكرة ٦٠٣
ملابسات تحويل القبلة والكيد الشرير ٦١٣
كلمة الحق والقول الفصل ٦٢٥
لوثة يهودية ٦٣٥

القسم الخامس:

(قصة أصحاب الجنة)

تقديم وتقرير ٦٤٧
عاقبة المكر والكيد ٦٥٣
الصفحة المقابلة ٦٥٨

(كرامة في سحابة) ٦٦٣

(قصة الكفل)

تقديم وتقرير ٦٧٩
الواقعية الأمينة ٦٨٥
طبيعة المرأة ٦٩٢
أثر المرأة الفاضلة في الرجل ٦٩٥
رحمة الله ٧٠٠
التربية والسلوك ٧٠٥

(قصة قاتل المئة)

تقديم وتقرير ٧١٣
الأمل الصادق ٧١٨
اليقظة والحذر ٧٢٤

دروس وعبر ٧٢٧
عيسى - عليه السلام والسارق ٧٣٣
قصة الورع الصادق ٧٣٧
حكمة وتقدير وتدبير ٧٤٣
قصة الأمانة والإيمان ٧٤٧
بيت المقدس ومسائل سليمان - عليه السلام ٧٦١
سفينة الحياة ٧٦٥

http://al-maktabeh.com

المراجع

١ - مصادر التفسير:

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٩٦٩.
- تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار ـ محمد رشيد رضا ـ دار المعرفة ـ بيروت طبعة ثانية.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - الطبعة الثالثة ١٩٦٧.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - محمود الألوسي - نشر المطبعة المنيرية بمصر.
- في ظلال القرآن لسيد قطب - دار الشروق - الطبعة الثانية ١٩٧٥ - بيروت- القاهرة.

٢ - مصادر الحديث النبوي الشريف:

- الإحسان - تقريب صحيح ابن حبان - علي بن بلبان الفارسي - تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩١.
- البخاري «صحيح البخاري» - مطابع دار الشعب - القاهرة - كتاب الشعب - ١٣٧٨ هـ.

  فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.

http://al-maktabeh.com

- الترمذي «سنن الترمذي» - مطبعة مصطفى الحلبي - القاهرة ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٧ م.
ط ١ (١ - ٢) بتحقيق وشرح أحمد شاكر و (٣) بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
ط ٢ - ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م، و (٤ - ٥) بتحقيق إبراهيم عطوة عوض ط ١ - ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٢ م.
- الدارمي «سنن الدارمي» شركة الطباعة الفنية المتحدة - القاهرة.
- سنن أبي داود، طبع ونشر مصطفى الحلبي - القاهرة ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢م.
- سنن ابن ماجة - تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، طبع ونشر عيسى الجلبي وشركاه، القاهرة ١٩٧٢.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل: تحقيق أحمد محمد شاكر، من (١ - ١٦) دار المعارف - القاهرة ١٣٧٤ - ١٩٥٥).
مسند الإمام أحمد بن حنبل: طبع المكتب الإسلامي ودار صادر - (الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م)، وهي مصورة عن طبع المطبعة الميمنية بمصر في ١٣١٣ هـ.
- الموطأ للإمام مالك بن أنس، وعليه شرح الزرقاني، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، المكتبة التجارية الكبرى ١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩ م.
الموطأ للإمام مالك بن أنس - رواية أبي مُصعب، تحقيق وتعليق بشار عواد معروف ومحمود محمد خليل - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٢.
- مسلم، خدمة محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٥ م.
صحيح مسلم بشرح النووي.
- النسائي «سنن النسائي» مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٣٨٣/ ١٩٦٤ م.

٣ - مصادر أخرى:

- آدم - عليه السلام للبهي الخولي.
- أصحاب الأخدود - رفاعي سرور - دار التراث العربي للطباعة - القاهرة.
- تذكرة الدُّعاة للبهي الخولي - دار الفتح - القاهرة ١٣٦٣ هـ.
- تاريخ الأنبياء - محمد الطيب النجار - مكتبة المعارف - الرياض - ط ثانية ١٩٨٣.
- التصوير الفني في القرآن لسيد قطب - دار الشروق - بيروت - القاهرة.
- دراسات في النفس الإنسانية - محمد قطب ١٩٦٧.
- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا - محمود محمد شاكر - كتاب دار الهلال - القاهرة ١٩٩١.
- شرح مختصر الروضة - الإمام نجم الدين ابن **الطوفي** - تحقيق عبد الله تركي - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٠.
- طريق الدعوة في ظلال القرآن - أحمد فائز - الطبعة الثانية عشرة - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٧.
- الفن القصصي في القرآن الكريم - محمد أحمد خلف الله - مكتبة الأنجلو المصرية ، ط الرابعة - القاهرة ١٩٧٢.
- القصص في الحديث النبوي - الدكتور محمد بن حسن الزير - الرياض - الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.
- البرهان في علوم القرآن - الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٩.
- قصص النبيين - أبو الحسن الندوي - الطبعة العشرون - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.
- القصص القرآني - الدكتور فضل حسن عباس - دار الفرقان - عمان - الأردن ١٩٨٧ م.

- قصص الأنبياء لابن كثير - الجزء الأول والثاني.
- قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس لأبي إسحاق النيسابوري الثعلبي.
- قصص القرآن - محمد أحمد جاد المولى - تحقيق عبد الدائم زيتوني.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - محمود بن عمر الزمخشري - نشر المكتبة التجارية الكبرى - مطبعة مصطفى محمد - مصر - الطبعة الأولى ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥ م.
- مجلة المسلمون/ من العدد الأول ١٩٥٢ حتى العدد الرابع ١٩٦١.
- النبوة والأنبياء في ضوء القرآن - أبو الحسن الندوي - الناشر: مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م.
- اليوم الآخر في ظلال القرآن - أحمد فائز - الطبعة السادسة عشرة - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٢.
- اليهود في القرآن - عفيف عبد الفتاح طبارة - بيروت ١٩٦٦.

http://al-maktabeh.com

الفهارس العامة

فهرس المجلد الأول

مقدمة ٥

(آدم – عليه السلام – وفجر البشرية)

القسم الأول: المدخل.

القسم الثاني: آدم – عليه السلام وبنيه.

القسم الأول – الباب الأول: صور من ذاكرة الأيام ومعالم في

فقه التاريخ ٤٥

ميزات العقيدة ٤٧

الردة الكبيرة ٥٢

معاول الهدم والتوهين ٥٨

المسلمون بين الحرية والعبودية ٦١

بغضاء مشتعلة، ولهيب مكتم ٧٠

فجور وشراسة وغطرسة ٧٦

العمل السريع المحكم ٨٣

مسيرة الخبث والغدر والكراهية ٩٢

الحقد الأسود على الإسلام ١٠٣

noor-al-maktabah.com

الحملة الصليبية الرابعة ١٠٨
برهان العقيدة ١١٣
دهاء ومكر وخديعة ١١٥
صور مضيئة ١١٨
الستار الخادع ١٢٢
حقيقة الدين ١٣٠
الوعد الحق ١٣٥
التصادم المخيف ١٣٩
حديث صادق ١٤٤
دعوة وجهاد ١٥٠

القسم الأول - الباب الثاني: السُّنَّة الراشدة في مفهوم النبوّة
والرسالة الواحدة ١٦٣
المقياس الثابت المطلق الوحيد ١٦٥
الصراط المستقيم ١٧٤
رحمة واسعة وحكمة عليمة ١٨٢
تبعة عظيمة ١٨٩
تخبُّط واضطراب في تيهٍ وظلال ١٩٣
سُنَّة الله ١٩٨
مهمّة الرسول وعمله ٢٠٦
وحدة العقيدة ووحدة الرسالة ٢١٤
سُنَّة ماضية ٢٢٥
حسرة ٢٢٩
ميثاق رهيب جليل ٢٣٠
سمات النبوّة وخصائص دعوة الأنبياء ٢٣٥
الحكمة والتيسير ٢٤١

إخلاص الدين لله وإفراد العبادة لرب العالمين ٢٤٣
وصية ٢٤٦
عقيدة الآخرة والاهتمام بها ٢٤٧
مبدأ ومنهاج ٢٥١
عقيدة وإيمان ٢٥٢
تشديد على الإيمان بالغيب ٢٥٣
البعد عن التكلُّف والتصنُّع والاعتماد على الفطرة السليمة ٢٦١
دعوة الأنبياء بين الإرادة الإلـٰهية والأسباب المادية ٢٦٦
عمل وتوجيه وإرشاد ٢٧٤
البشرية بين الهدى والردى ٢٨١
حقيقة العصمة ٢٨٦
الحضارة الربّانية ٢٨٩
منهج الله القويم القديم ٢٩٧

القسم الأول - الباب الثالث: القصة في القرآن الكريم والحديث
النبوي الشريف ٣١٣

القسم الثاني **(آدم - عليه السلام - وبنيه)**
تقديم ٣٣٣
التكوين الإنساني ٣٤١
معنى الروح ٣٤٧
طرف من ذلك السر العظيم ٣٥٦
جلال التكريم في المشهد العظيم ٣٥٦
الشيطان بين العلو والاستكبار والكفر ٣٦٢
الرد القبيح المتكبر المغرور ٣٦٥
تبجح نكير وتصميم خبيث ٣٧٢

عدة إبليس ووسائله في الغواية ٣٧٨
تذكير وتوكيد ٣٨٩
بدء المعركة الخالدة ٣٩٣
دور إبليس والتجربة الأولى ٤٠٠
كلمة الله وقضاؤه ٤١١
حقيقة الإنسان في ظلال القرآن ٤٢١
بني آدم وميثاق الفطرة والعقيدة ٤٣٣
نداء رب السماء لبني آدم ٤٤١
على طول الطريق ٤٥٣
نموذج مكرر وسنَّة الله التي لا تتغير ٤٦٦
حقائق ولمسات ٤٧٧
الجزاء والحساب الختامي ٤٩٠
الإنسان بين المأوى الأليم وبين المثوى الكريم ٥٠٤
انتكاس وارتكاس ٥١٤
الحياة بين مصير ومصير ٥٢٤
صور.. صور ٥٣٥
تدبُّر وتأمُّل ٥٤٨
حقيقة دقيقة ٥٥٤
أقدم الوصايا ٥٧٨
اللمسة الأخيرة ٥٨٩
مفرق الطريق ٥٩٨
قصة ابني آدم ٦٠٣

(قصة نوح - عليه السلام)

تقديم ٦١٩
فحوى رسالة نوح ٦٢٤
المواجهة القبيحة والرد المنحرف ٦٣٤

تلطُّف وسماحة ومودَّة ٦٤٣
التحدي الأخير ٦٤٧
التوجه إلى العلي الكبير ٦٥٠
تدبير وتقدير ٦٥٨
المشهد الهائل المرهوب ٦٦٤
صورة من صور البشرية المستكبرة عن الحق ٦٧٠
الحقيقة الواضحة الحاسمة ٦٧٦
الوقفة الأخيرة ٦٨٧

(قصة هود - عليه السلام)

تقديم ٦٩٥
رسالة واحدة وحوار ٦٩٨
سنَّة الله ومشيئته الطليقة ٧٠٤
الشبهة المتكررة والرد القبيح ٧٠٩
التبرؤ والتحدي والمفاضلة ٧١٣
الحقيقة الكونية ٧٢١
العجب المرذول ٧٢٥
لعنة وطرد وهلاك ٧٢٧

(قصة صالح - عليه السلام)

تقديم ٧٣٧
صفحة أُخرى ورواية واحدة ٧٤٣
الكبرياء الجوفاء ٧٤٧
القلوب الجاسية والمعجزة الخارقة ٧٥٢
فساد عريض وعذاب قريب ٧٥٧
تدبير وتدمير ٧٦٣

فهرس المجلد الثاني

(قصة إبراهيم - عليه السلام)

- **الحلقة الأولى** ٩
الرحلة الشائعة في فطرة إبراهيم ١٥
برّ وودّ ورحمة ٢٣
مثل وتجربة ٣٠
تجربة وعقيدة وتربية ٣٥
آية للناس ٤١
الشوق الروحي ٤٦
دعوة إبراهيم إلى العقيدة المستقيمة الناصعة ٥٠
عزم وحسم ٥٨
المحاكمة والكيد الضعيف ٦٤
- **الحلقة الثانية** ٧١
الهجرة إلى الله ٧١
حقيقة الإيمان، وجمال الطاعة، وعظمة التسليم ٧٥
بشرىٰ ورحمة واطمئنان ٨٢
المقام العظيم وإمام الصراط المستقيم ٩٢
حجج واهية ودعاوى ساقطة ١٠٥
أُمّة التوحيد وقافلة الإيمان ١١٥
معالم في رحلة الإيمان والتوحيد ١٢٣
الإعجاز الرائع ١٢٩
إبراهيم وأبوه يوم القيامة ١٣٧

(قصة لوط - عليه السلام)

تقديم ١٤٧
انحراف وشذوذ ١٤٩

http://al-maktabeh.com

سفاهة وحمق ١٥٦
يوم عصيب ١٦١
الركن الشديد ١٦٥
العذاب المفزع والهلاك المروع ١٦٩

(قصة إسماعيل - عليه السلام)

تقديم ١٧٩
الاستسلام لأمر الله ١٨٠
ثقة ورضىٰ وتسليم ١٩٢

(قصة يوسف - عليه السلام)

تقديم ٢٠٣
أمل وأُنس وتطمين ٢٠٤
- **الحلقة الأولىٰ** ٢٠٨
يوسف الصبي ٢٠٨
حسد وحقد ٢١٢
خِداع ومكر ٢١٤
المحنة الأولى - المؤامرة النكراء ٢١٦
مواجهة الوالد المفجوع ٢١٧
يوسف في الجب ٢١٨
- **الحلقة الثانية** ٢١٩
يوسف في مصر ٢١٩
المحنة الثانية - فتنة شديدة وعنيفة ٢٢٢
حديث النساء ٢٣٠
إغراء وتهديد ٢٣١
- **الحلقة الثالثة - المحنة الثالثة** ٢٣٤
يوسف في السجن - دعوة، وموعظة، وتوحيد ٢٣٤

رؤيا الملك ٢٤٤
فتوى، وتأويل الرؤيا ٢٤٥
- **الحلقة الرابعة** ٢٤٧
إعلان براءة يوسف وظهور الحق ٢٤٧
تمكين وتكريم ٢٥٤
شبهة وبيان ٢٥٦
- **الحلقة الخامسة** ٢٧٢
وجاء إخوة يوسف ٢٧٢
بين يعقوب وأبنائه ٢٧٦
وصية يعقوب ٢٧٨
مشهد مثير ٢٨١
حرج وحيرة ٢٨٨
النبأ الفظيع والثقة بالله ٢٩٠
- **الحلقة السادسة** ٢٩٦
مفاجأة عجيبة ٢٩٦
أمل ويقين ٢٩٩
- **الحلقة السابعة** ٣٠١
المشهد المثير والنهائي ٣٠١
اللفتات واللمسات الموحية ٣٠٣
عبرة ومصير ٣١١
صورة رهيبة ٣١٢
الطبيعة الحركية للقصة وأثرها في التربية الإسلامية ٣١٥
سُنَّة الله وقدره ٣٢٠
النموذج الكامل لمنهج الإسلام ٣٢٥
في ظلال الفترة التاريخية ٣٤١
من لطائف التناسق القرآني في قصة يوسف ٣٤٧
الإيقاع الأخير ٣٥١

صبر وجهاد وثقة وتفاؤل ٣٥٤

(قصة شعيب - عليه السلام)

تقديم ٣٥٩
التشريع الإلـهي والتصور الأخلاقي ٣٦٣
الرد الساخر والتبجح السافر ٣٦٧
قوة الحق ورسوخ العقيدة ٣٧٤
بين الإيمان والطغيان ٣٨٣

فهرس المجلد الثالث

(موسى - عليه السلام وبني إسرائيل)

الباب الأول:
- قصة إسرائيل - يعقوب عليه السلام - وبني إسرائيل من قبل موسى - عليه السلام ٧
- إسرائيل - يعقوب عليه السلام ٩
الباب الثاني:

(قصة موسى - عليه السلام)

القسم الأول: موسى وفرعون ٢٧
تقديم ٢٩
الحلقة الأولى ٣٣
ولادة موسى وطفولته ٣٣
شباب موسى وفتوته ٤٦
ظهور السر ٥٢
من مصر إلى مدين ٥٤
الرحمة والفرج ٥٧
الزواج بين البساطة والصَّراحة ٥٨

الحلقة الثانية ٦٣
تدبير الله سبحانه ٦٣
من مدين إلى مصر ٦٧
المفاجأة الكبرى واللحظة العظمى ٦٩
التكليف والرسالة ٧٢
فضل من الله ورحمة ٨٠
لقاء موسى وهارون والتكليف بالرسالة ٨٥
الحلقة الثالثة ٩١
لقاء الحق والباطل ٩١
المواجهة والتبليغ ٩١
تهديد غليظ والمعجزة المزلزلة ١٠٣
إلى الميدان ١١٢
بين الحق والباطل ١١٦
المفاجأة الكبرى ١٢١
انتصار العقيدة على الحياة ١٢٦
التآمر والوعيد ١٣٤
إيمان كريم ونصيحة حكيم ١٤٠
الأُبّهة الزائفة والبريق الخادع ١٥٠
بين موسى وقومه ١٥٤
اللمسة الموقظة والآيات البينات ١٦٠
نعمة ورحمة ١٦٨
دُعاء وإجابة ١٧٦
الحلقة الرابعة ١٧٩
عاقبة الطغيان وانتصار الإيمان ١٧٩
انتصار الحق، وخروج بني إسرائيل من مصر ١٧٩
إيمان عقيم ١٨٥

عِبرة ونظر ١٩٤
صُور ومشاهد ٢٠٠
موقف مكروب ٢١٠
امرأة فرعون ٢١٩
ماشطة ابنة فرعون ٢٢٩
ميزان الإيمان والعقيدة ٢٤٣
القسم الثاني: موسى وبني إسرائيل ٢٦٣
صبر مرير وجهد مضاعف ٢٦٩
الموقف الفريد ٢٧٦
ارتكاس وانتكاس ٢٨٦
موسى عليه السلام - في مواجهة الفتنة والزيغ والضلال ٢٩١
تأديب عنيف وكفّارة صارمة ٢٩٨
التعنُّت والمعاجزة ٢٩٩
نبأ عظيم ٣٠٣
الميثاق الغليظ ٣٠٦
انحراف ومعصية وجحود ٣١٣
اللجاجة والتعنُّت ٣١٥
النعمة بين الكفر والشكر ٣٢٤
موسى والخضر ٣٤١
مُفاجآت غيبية ٣٤٩
ما أعجب الحقائق إذا ظهرت ٣٥٣
على أبواب أرض الميعاد ٣٦٦
شخصية موسى - عليه السلام ٣٧٨
أذى وصبر ٣٨١

(قصة قارون)

تقديم ٣٨٧

www.al-maktabeh.com

الردّة الفاجرة المغرورة ٣٩٥
زينة وفتنة ٣٩٨
القيم الظاهرة الجوفاء ٤٠٧

(قصة صاحب الجنتين)

عرض وتقديم ٤١٧
ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله ٤٢٣
في ميزان الله ٤٢٧
مرآة الحق ٤٣٢

(قصة الابتلاء والجزاء)

عرض وتقديم ٤٤١
بين الكفر والإيمان ٤٤٨

(قصة لقمان – عليه السلام)

تقديم ٤٥٧
الحكمة ٤٥٧
قصة التوحيد ٤٦١
توصية وحنان ٤٦٢
قضية الآخرة ٤٦٧
عدة المؤمن ٤٦٩
سمة المؤمن ٤٧٩
مشهد مُفزع – مسخ وانحراف ٤٨٧
مسخ وانتكاس ٤٩٣
جرم عظيم وفعل قبيح ٥٠٣
النبوءة الصادقة والوعد المفعول ٥١٣
رحلة بني إسرائيل مع خطوات التاريخ ٥٢١
اللعنة الأبدية ٥٣٤

فهرس المجلد الرابع

(قصة طالوت وجالوت)

القسم الأول:

تجربة في حياة بني إسرائيل ١١
الإرادة المستعلية ١٧

(قصة داود - عليه السلام)

الملك الطائع العابد ٢٨
الفتنة والابتلاء ٣٤
فتح من الله وإلهام ٣٩

(قصة سليمان - عليه السلام)

ابتلاء وفتنة ٤٥
علم وتمكين وإفضال ٤٩
سليمان وملكة سبأ ٥٦
من فضل الله ونعمته ٦٧
فطنة وحكمة ٧٩

(قصة سبأ)

الإعراض والكفر بالنعمة ٨٥

القسم الثاني:

(قصة أيوب - عليه السلام)

تقديم ٩٥
الصبر الجميل ٩٦
تأمُّل وعبرة ١٠٢
عبودية ١٠٥
سنة الله في الابتلاء ١٠٧
(قصة أصحاب القرية) ١١٣

http://al-maktabeh.com

(قصة ذي القرنين) ١٢٣
العمل الصالح ١٢٣
بناء السد ١٣٣
المُلك والقوة والسلطان بين الكفر والإيمان ١٣٦
خبر يأجوج ومأجوج ١٤٠

(قصة يونس - عليه السلام)

تقديم ١٤٥
المثل الوحيد ١٤٧
تأمل وتدبر ١٥٠
سنة الله ١٥٤
قصة فريدة ودرس بليغ ١٥٧

(قصة زكريا ويحيى - عليهما السلام)

تقديم ١٦٣

القسم الثالث: القصة الواضحة في المسيحية الواضحة.

(عيسى - عليه السلام)

قصة الولد العجيب ١٨٣
مشاهد مثيرة وحوادث غريبة ١٩٥
كلمة الفصل وتقرير وحدانية الله ٢١٠
ميثاق النصارى ٢١٩
طبيعة المسيحية ٢٢٨
جدل وخصام ٢٤٠
رسالة عيسى والبشرى بمحمد نبي الهدى ٢٤٣
مكر يهود ومحاولتهم صلب وقتل عيسى بن مريم ٢٤٦
أمارات الساعة ونزول المسيح عيسى ابن مريم ٢٥٨
حسم وتوكيد ومواجهة ٢٦٤

http://al-maktabeh.com

المشهد العظيم ٢٧٠
قصة المائدة ٢٧٤
الاستجواب الهائل ٢٧٨
صورة مضيئة ٢٨٥

(قصة أصحاب الأخدود)

ميزان الإيمان في القرآن ٣٠٥
الموقف الواضح ٣١٠
الإيمان الصادق والابتلاء ٣١٦
قدر الله وقُدرته ٣٢٣
التضحية والفداء ٣٣٣
مشاهد وصور وحوار ٣٣٨

(قصة أصحاب الكهف)

حكمة بالغة وإرادة قاهرة ٣٥١
طريق الإيمان ٣٥٧
ثوار مؤمنون ٣٥٩
رحمة الله ٣٦٣
المشهد العجيب والمفاجأة الضخمة ٣٦٨
تدبير الله وإرادته ٣٧٣

(قصة أصحاب الغار)

عرض وتقديم ٣٧٩
صور من أعماق الفطرة الإنسانية ٣٨٣
في ظلال الحب الرقيقة ٣٩٠
حقيقة الخوف في الوجدان الإنساني ٤٠١
قلب عامر بالإيمان والتقوى ٤١٠
تربية وسلوك ٤١٨

http://al-maktabeh.com

(قصة المُتكَّلمون في المهد)

عرض وتقديم ٤٢٥
عيسى بن مريم ٤٢٨
جُريج العابد ٤٣١
صُور إنسانية ٤٤٥
الرضيع والأم ٤٥١

القسم الرابع:

(صفحات من السجل الأسود لبني إسرائيل)

مواقف بني إسرائيل من النبوة والأنبياء ٤٦٣
دعوى وكذب وافتراء ٤٨٤
ظلم مبين، وكيد متين في مواجهة الرسول الأمين ٤٩٦
الهتاف الأخير ٥٠٨
كشف العداء وتحديد الخطوط ٥٢١
تاريخ عريق في الكفر والمعصية ٥٣٠
فساد في الخلق والسلوك والعقيدة ٥٣٧
التصور الفاسد وسوء الأدب البذيء ٥٥٠
تحريف وتزوير ٥٦٠
قاعدة واحدة ٥٧٢
تحذير وتنوير ٥٧٨
اعتراضات زائفة ٥٨٨
قصة واهية وحجة فارغة ٥٩٢
بين السحر والكفر ٥٩٧
الدسائس اليهودية ٦٠٣
حملة التشكيك والتضليل الماكرة ٦٠٣
ملابسات تحويل القبلة والكيد الشرير ٦١٣
كلمة الحق والقول الفصل ٦٢٥

http://al-maktabeh.com

لوثة يهودية ٦٣٥

القسم الخامس:

(قصة أصحاب الجنة)

تقديم وتقرير ٦٤٧
عاقبة المكر والكيد ٦٥٣
الصفحة المقابلة ٦٥٨
(كرامة في سحابة) ٦٦٣

(قصة الكفل)

تقديم وتقرير ٦٧٩
الواقعية الأمينة ٦٨٥
طبيعة المرأة ٦٩٢
أثر المرأة الفاضلة في الرجل ٦٩٥
رحمة الله ٧٠٠
التربية والسلوك ٧٠٥

(قصة قاتل المئة)

تقديم وتقرير ٧١٣
الأمل الصادق ٧١٨
اليقظة والحذر ٧٢٤
دروس وعبر ٧٢٧
عيسى - عليه السلام والسارق ٧٣٣
قصة الورع الصادق ٧٣٧
حكمة وتقدير وتدبير ٧٤٣
قصة الأمانة والإيمان ٧٤٧
بيت المقدس ومسائل سليمان - عليه السلام ٧٦١
سفينة الحياة ٧٦٥

http://al-maktabeh.com